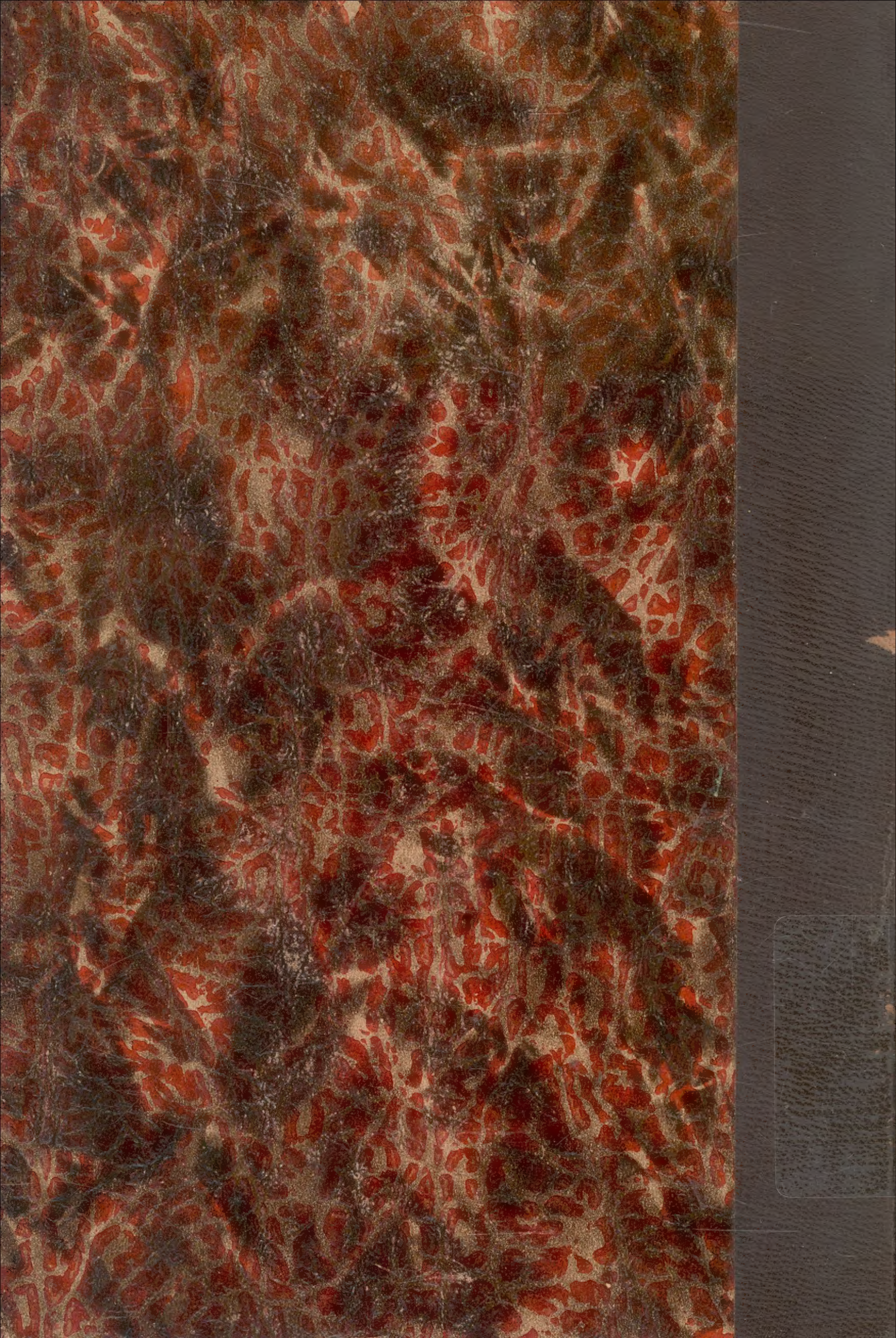
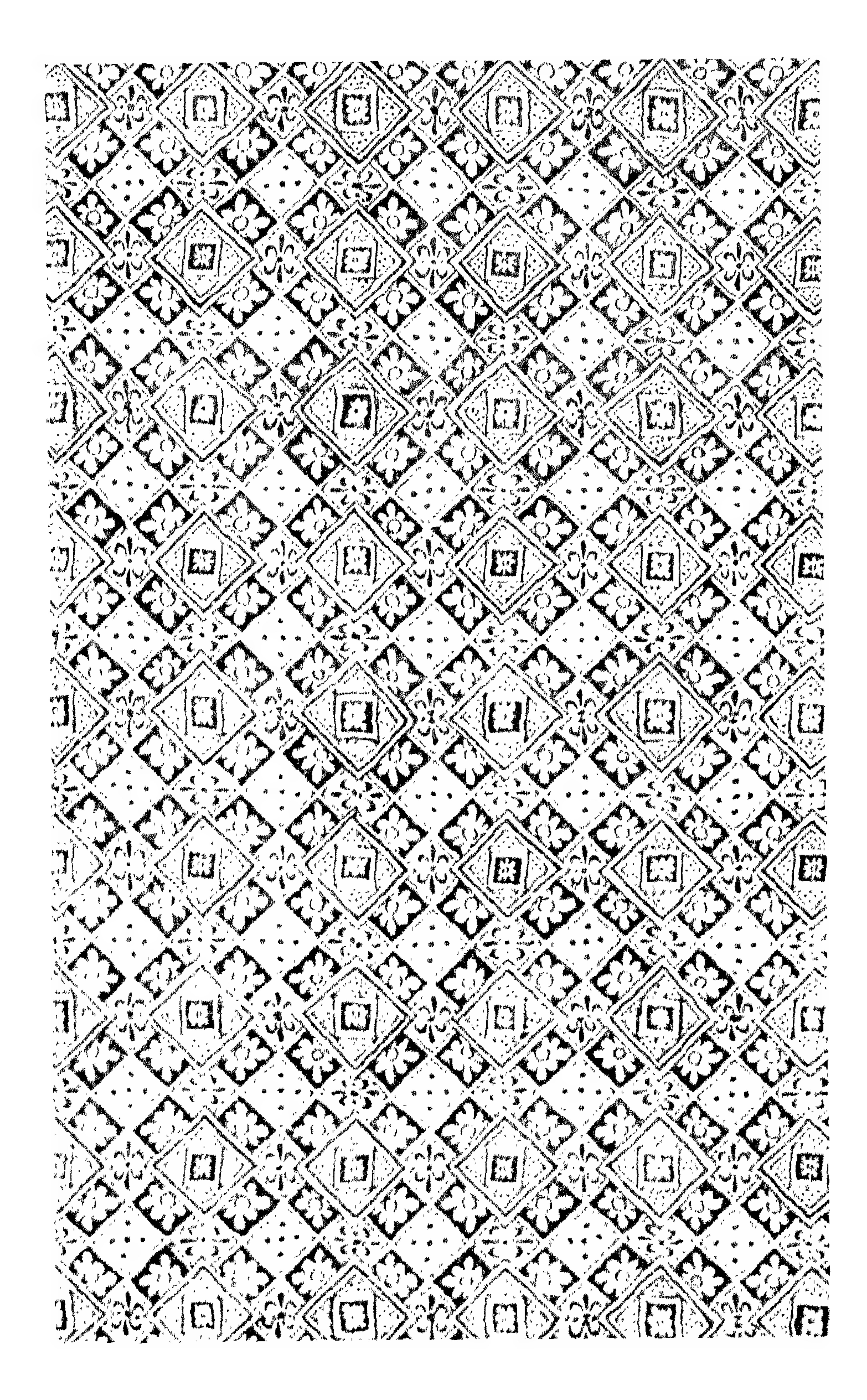
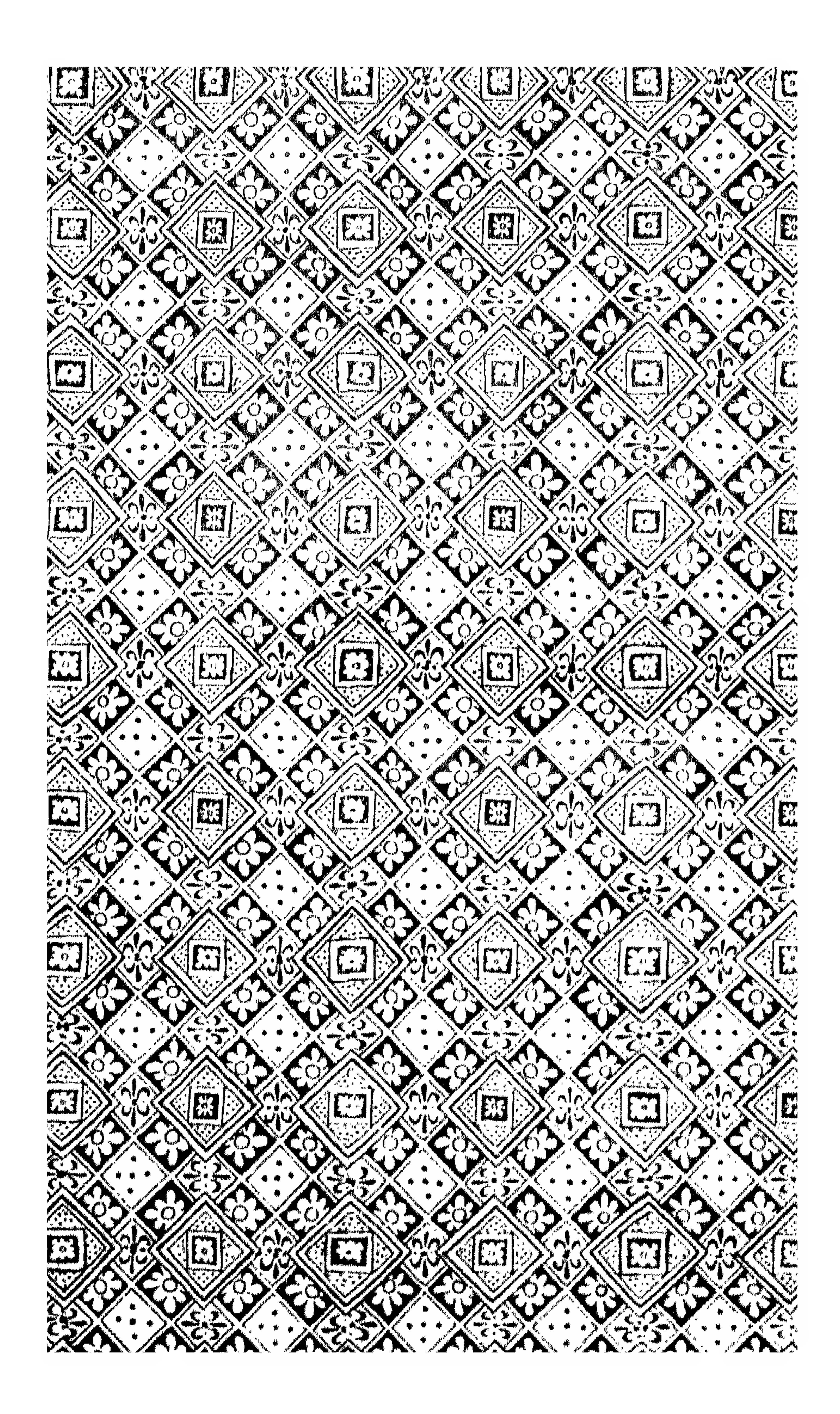








بعض البلاد الشامية

وصف طبغرافي تاريخي اثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة
من شمالي الاسكندرونة الى ابواب دمشق



بقلم

المهندس الزراعي

احمد وصفي زكريا

ربيع الثاني ١٣٥٣ — المطبعة الحديثة بدمشق — تموز سنة ١٩٣٤

مقدمة الكتاب

أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف
كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثرمنهم
وأشد قوة وآثاراً في الارض « الاية »

لما كنت مفتش املاك دولة الشام (١) في سني ١٣٤٤ — ١٣٥٢، واكلف من حين الى آخر بالتجوال في تلك الاملاك الشاسعة، كنت انتهز الفرص بسائق الولع فاستقصي أوصافها من نواحي الطبيعة والزراعة والعمران وانساب الحاضرة والبادية من السكان واستنفض المباني التاريخية والخرب الداثرة واجمع ما أراه واسمعه واقيده. وكنت كلما وجدت وقتاً وسبيلاً اتعدى تلك الاملاك الى غيرها من البقاع والبلدان فأجوبها باحثاً ومنقباً بقدر المستطاع. واذا عدت الى دمشق ارجع فيما رأيته الى ما يكون قد كتبه عنها المؤرخون والجغرافيون العرب والرحالون والأثريون الافرنج فأقارن ما علمته بما قرأته واستخلص منها زبداً أتحين الفرص لنشرها.

---

(١) عنيت بالشام البلاد التي تدعى سورية. وقد احتفظت في كتابي هذا بالاسم الاول وهجرت الثاني، لانه هوالذي عرفه العرب واصطلحوا عليه في احاديثهم وكتبهم، فقالوا دمشق الشام وطرابلس الشام وثغور الشام ... الخ

وكان مما يشجيني اني لم أجد كتاباً عربياً يصف احوال بلادنا وصفاً يعرف به المتجول الكوائن الطبيعية من جبال وانهار ونجود واغوار وعمران المدن والقرى في العهود الغابرة والحاضرة وحالة المصانع القديمة والاماكن الأثرية وسبب بنائها وكيفيته ومسافة الطرق والمسالك واتجاهاتها الى غير ذلك من الابحاث التي تدعى بعرف الافرنج « الطبغرافية التاريخية » . فجغرافيو العرب القدماء وضعوا مؤلفات جديرة بكل اجلال واطراء ذكرت بعضها في قائمة مصادر كتـابي وقد اقتبست منها نبذاً غير يسيرة ، لكن مؤلفاتهم عامة لا خاصة وليس فيها من الابحاث التي كنت انشدها القدر الذي يفي بحاجتنا في هذا العصر بعد ان تغيرت البلاد ومن عليها . وكتبنا الجغرافية الحديثة الخاصة بالبلاد الشامية جعلها اصحابهـا وجيزة ان وفت بحاجة المدارس لا تنقع غلة الباحثين والسائحين بحـال . اما الافرنج فقد احاطوا علماً بكل اصقاعنا فلم يغادروا مدينة من مدننا وخربة من خربنا وبادية من بوادينا الا وجاسوا خلالها واستقرأوا صامتها وناطقهـا ، واجادوا وصفها من النواحي التي ذكرتها آنفاً وألفوا فيها مجلدات تفوق الحصر بعددها نقرأها بكثير من الاعجاب والاكبار . وان اختلفت وجهات اصحابها وغاياتهم عنا ، أخص بالذكر منها تلك الكتب الصغيرة الحجم الدقيقة الحروف المختصة بدلالة السائحين ككتب ايزامبر وشوفة وبيديكر وبرنابة وومونمارشة وغيرهم الذين لم يقتف اثرهم احد منا بعد حتى اصبح هؤلاء الافرنج يعرفون بلادنا معرفة تامة ليس لاكثر خاصتنا ، دع العامة ، نصيب من بعضها لفقدان امثال تلك الكتب لدينا ووفورها لديهم .

فقد كنت وانا أتوغل في هذه الابحاث أرى بكثير من الاسف ان جل مثقفينا ومفكرينا لا يعرفون من شؤون مساقط رؤوسهم وجغرافيتها وتاريخها القديمين والحديثين ولا من بقاعها ومصانعها الاثرية ومفاخرها التليدة ومدافن رجالاتها البارزة وتراجمهم قدراً كافياً ناهيك ما يختص من ذلك ببقية البلاد الشامية القريبة منهم ، خل عنك النائية. وتراهم في هذه المواضيع في غفلة جد مخجلة تجاه

الغرباء والاجانب اذا حاولوا ان يسألوهم يحمون أو يحمجمون . ورأيت ان الولع بالسياحة والتجوال عندنا في منتهى القلة على حين اننا أمرنا بالسير في الارض والاعتبار بآثار من كانوا قبلنا وعواقبهم ، وشعراؤنا قديماً لم يقصروا في مدح السفر وتعداد فوائده ، واسلافنا على قلة الوسائل وصعوبتها في عهدهم لم يتوانوا عن السياحة والتطواف بداعي الحج أو طلب العلم أو التجارة أو غيرها. ومن تجول وانتقل منا في يومنا الى غير بلدته لا يفكر الا بارتياد اماكن اللهو والفرج ، اما الخطط القديمة والمباني التاريخية والمعاهد التي فيها فائدة الاطلاع على عمران تلك البلدة ومعارفها وصناعتها وزراعتها فقل من يحفل بها ، وأقل من ذلك ان يعمد احد هؤلاء الحافلين للبحث والكتابة عنها كما يعمل الآن الغربيون الولوعون بتدوين ونشر ما يرونه ويسمعونه لا سيما اذا كان فيه ابحاث قيمة واخبار طريفة .

ورأيت ان كثيراً من مدننا وكورنا (جمع كورة(١)) القديمة مابرح مفكروها مقصرين في تدوين تاريخ بلدتهم أو كورتهم ووصف عمرانها الغابر والحاضر على النحو الذي عمله بعض اسلافنا وبعض معاصرينا . فقد ذكر كاتب جلبي صاحب « كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون » اسماء تواريخ بعض المدن الشامية وغير الشامية لا اثر لمعظمها الآن. منها عدة تواريخ لكل من دمشق وحلب والقدس وواحد لحماة لم يصرح بأسم مؤلفه ومنها اثنان لحمص احدهما لابن عيسى والثاني للقاضي عبدالصمد بن سعيد وقد نوه ياقوت في معجمه بهذا مراراً وواحد للرقة لابي علي محمد بن سعيد القشيري وواحد لصفد للقاضي شمس الدين العثماني . وقد اطلعت فيما اطلعت عليه من آثار معاصرينا على ثلاثة تواريخ للشام كله واثنين لحلب وواحد لدمشق ومثله لحماة ولبعلبك ولصيدا ولحيفا وللناصرة ولزحلة ولصيدنايا ولمقاطعة كسروان . بينما لا تزال اكثر مدننا

---

(١) قال ياقوت الحموي في مقدمة كتابه معجم البلدان : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قصبة او مدينة او نهر يجمع اسمها.

القديمة مقصرة في هذا الموضوع الهام أخص بالذكر منها حمص وانطاكية واللاذقية وطرابلس والمعرة ونابلس وعكا ويافا وغزة فضلا عن الكور التي ، وان لم تحتو على بلدة ممتازة تؤلف بمجموع قراها بيئة ذات تاريخ واحد كحوران والبقاع والبلقاء والجزيرة الفراتية وغيرها .

ورأيت أيضاً ان الاسر الكبيرة المدعية بعراقة النسب واثالة الحسب جل ابنائها في غفلة عن ماضيهم لا يعرفون اسماء اجدادهم الاقرباء دع اسلافهم البعداء، ولا يحيطون بتاريخ اسرتهم ومنشأها وكيفية مجيئها الى موطنهم الحالي واستقرارها ، وأوسعهم اطلاعاً لا يروي لك عن اسرته واسماء افرادها الحاضرين والغابرين واحداثهم الا نتفاً لا تستند في الغالب على برهان معقول ولا تخلو من شائبة التناقض أو المبالغة . ومن الغريب ان كثيراً منهم يتوق الى ربط سلسلته بحلقة أحد آل بيت الرسول أو احد الصحابة أو الاولياء الابرار او أحد الملوك والامراء الاخيار، وقل من يستطيع ان يؤيد مدعاه بوثائق مكتوبة أوشجرات محفوظة مما يجعل الشك في بعض دعاوي الانساب عندنا يسود على اليقين .

هذا وبينما كنت أتدبر كيفية الشروع في كتابة رسالة تسد بعض هذه النواقص الظاهرة لدينا عثرت على رحلة السائح التركي الشهير المعروف بأولياجلبي فرأيت ان اجعل القسم المختص منها بالشام اساساً لما اكتبه فبادرت لتعريبه بتصرف وعلقت عليه شروحاً كانت في البدء مختصرة ثم استطالت بحكم الاستحسان الذي رأيته من بعض ذوي الفضل والتقدير حتى فاقت على الأصل وأربت . وقد نشرت قسماً غير يسير منها عام ١٣٥١ في المجلد الثاني عشر من مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق تحت عنوان (رحلة اوليا جلبي) . ولما رأيت توالي ذلك الاستحسان لا سيا وهي الاولى من نوعها في لغتنا العربية وقع في نفسي ان أحورها وأطولها واطبعها على حدة بأسم (جولة اثرية في بعض البلاد الشامية) .

وقد وضعت الآن رحلة اولياجلبي في بدء كتابي هذا وحدها ووضعت الشروح التي نوهت عنها بعدها فجعلتها جولة قائمة بنفسها تجتاز الطريق التي سلكها الجلبي

من طرسوس وآذنة الى مسيس وبياس والاسكندرونة وجبل اللكام وبيلان وسهل العمق وانطاكية وجبل القصير وجسر الشغر وسهل الغاب وقلعة المضيق وقلعة شيزر وحماة والرستن وحمص وحسية والنبك والقطيفة .. الى باب دمشق . فوصفت ما يراه السائح في هذه الطريق من الكوائن الطبيعية كالجبال والاودية والحزون والسهول والانهار والبحيرات وما عملته أيدي البشر كالمدن والقرى والمسالك والقلاع والحصون والخانات والمساجد والديارات والبيع العامرة والداثرة ومواقع المعارك الهامة ، وكلما وجدت مجالاً ونفعاً توسعت في البحث الى البقاع المحيطة بهذه الطريق ايضاً ، ودرجت خلاصة تاريخ تلك المدن والبقاع واحداثها الخاصة وسردت الفرق بين عمرانها السابق واللاحق ، وذلك على نهج الأثريين والمستشرقين الافرنج في التوصيف والتبيين مع الاشادة بمآثرنا العربية والتنويه بذكرياتنا القومية .

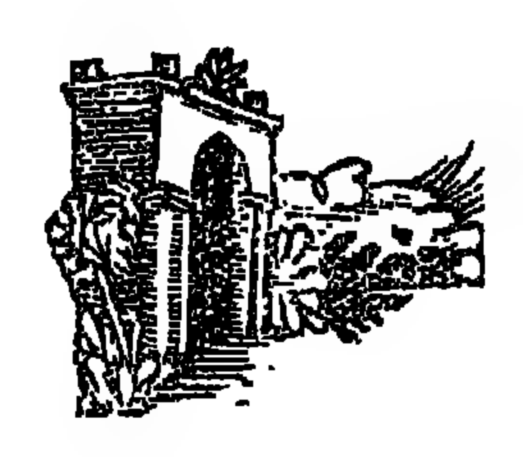
ومعظم هذه الاوصاف مما رأيته بعيني وتحققته بنفسي أو بالواسطة الوثيقة على عسرة نواله ، او مما عثرت عليه فيما ظفرت به من الكتب الجغرافية والتاريخية والرحلات القديمة والحديثة العربية والتركية والافرنجية على تفرقه في تضاعيف السطور . فجاء الكتاب وافياً على ما أظن ببعض حاجة من يقدر هذه الابحاث قدرها ويعرف مبلغ التعب والنشب اللذين تتطلبهما ، لأنني مهما اسهبت اعتقد ان المجال حتى في هذه الجولة القصيرة ما برح واسعاً ، وان فوق ما تجولت وكتبت اماني حالت دون استكمالها عقبات ومثبطات .

وهذه الابحاث كما يعلمها العارفون تقوم في الغرب بمساعي رجالات وبعثات تمدها الجمعيات او الجامعات بالمال وترعاها الدول بالعناية والحماية . واذا جاء احد هؤلاء الى بلادنا وعمد للبحث والتدوين اعانه على ذلك ذوو الحول والطول من ابناء قومه المنبثين عندنا في الصحراء والحاضرة والمشرفين على كل عمل ودائرة وتهافتوا الى اطلاع ذلك الباحث على ما لديهم من التقارير والاضابير أو اجابته عن اسئلته او هدايته الى الاشخاص والاماكن والمباني المتعلقة بهذه المواضيع المحتاجة

لكثير من الموآزرين . بينما احدنا لا يحلم بمثل هذا المدد والعنـــاية والتنشيط والهداية وليس له سوى التعويل على نفسه ونفيسه الضئيلين فقط .. وحسبي ان اكون قد استرعيت الانظار نحو هذه الابحاث الطريفة ليقوم غيري من ابناء هذه البلاد فينسج على هذا المنوال ويأتي فيها بأحسن وأصح الاقوال والله ولي التوفيق .

دمشق في ربيع الثاني سنة ١٣٥٣ وتموز سنة ١٩٣٤

احمد وصفي زكريا



رحلة اوليا جلبي

محمد ظلي افندي المعروف بأوليا جلبي أي الولي الفاضل سائح تركي شهير من رجال القرن الحادي عشر الهجري (ولد في سنة ١٠٢٠ وتوفي في سنة ١٠٩٠) وهو آباظي قفقاسي الاصل ، ولكنه ولد وترعرع في استانبول ، كان في صباه ذا صوت جميل ساقه للولع بفنون الادب والموسيقى . ففي ذات يوم في رمضان سنة ١٠٤٥ ، بينما كان يتلو القرآن في جامع آياصوفيا اعجب السلطان مرادالرابع بحسن تلاوته فرفعه الى قصره وجعله من ندمائه ، الا ان تلك النعمة والابهة اللتين صادفهما اوليا جلبي في القصر كانتا محاطتين بضروب التقييد والحصر ، فلم تروقا لعينيه ولم تتفقا مع خفته وظرفه وحبه للحرية والانطلاق وشغفه بالسفر وجوب الآفاق . فغادر القصر بعد مكوث سنتين وراح يجول في الامصار التي كانت تتألف منها السلطنة العثمانية المترامية الاطراف في ذلك العهد تارة لوحده وتارة بصفة امام ونديم في بطانة كبار الوزراء والقواد لاسيما مع قريبه ملك احمد باشا أحد صدور ذلك العهد البارزين ، ورافق أهم الجيوش التي ساقتها الدولة العثمانية اذ ذاك في الشرق والغرب وحضر الحروب ، وبهذا تسنى له ان يرى اكثر بلاد الاناضول والروملي والقفقاس ووصل الى جزيرة كريت وجال ايضاً في بعض انحاء ايران بمهمة رسمية وذهب مرة صحبة رجال السفارة العثمانية المرسلين الى فينا عاصمة النمسا فتوجه منها الى المانيا وهولاندة وبولونيا وروسية ورجع الى استانبول عن طريق جزيرة القرم . وقد وضع في وصف رحلاته العديدة عشرة مجلدات كانت محفوظة برمتها في مكتبة برتو باشا في التكية السليمية

في اسكدار ، طبع منها احمد جودة صاحب جريدة اقدام في سنة ١٣١٤ هـ.
وبعدها اربعة مجلدات ووقف بعد عن طبع البقية .

ورحلة اوليا جلبي تعد عند الترك من الآثار القيمة التي يفخرون بها لما تضمنته من بيان عمران البقاع والبلدان التي شاهدها ووصف مناظرها ومبانيها واحوال سكانها وصفاً جميلا في اسلوبه وحسن بيانه تتخلله طائفة من النبذ الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والفكاهية ، لولا ان فيها شيئاً غير يسير من شوائب المبالغة والاحاديث الخرافية التي كان يعني الجلبي بها شأن رجال تلك الايام .

ولم تفت الجلبي من الاقطار العربية الشام ومصر والحجاز . جاء مرة الى دمشق سنة ١٠٥٨ صحبة الوزير مرتضى باشا الكرجي المعروف بالسلحدار المعين نائباً على بلاد الشام وذهب معه لما جرد جنده لجباية الاموال الاميرية من الدروز وغيرهم في جنوب جبل لبنان وانحاء صفد، وارسله الباشا في غيرها بمهمة الى غزة فمر باكثر مدن الشام الشمالية والجنوبية وعرفها ووصفها في المجلد الثالث الخاص برحلته هذه ، وهذا هو المجلد المطبوع الذي ظفرت به وعولت عليه . اما المجلد التاسع الخاص برحلة اخرى له الى بلاد الشام والحجاز والذي أظن ان فيه تفصيل أوفى فقد ظل مخطوطاً في مكتبته . وقد قصرت يدي عن بلوغ هذا المجلد ولم يعد ثمة أمل برؤيته مطبوعاً بعد ان ابدل الترك الاحرف العربية باللاتينية ، وقضوا على فكرة طبع المخطوطات القيمة المدفونة في خزائن مساجدهم .

وقد استرعت رحلة هذا السائح التركي انظار علماء المشرقيات في اوربا فترجموا منها ما يختص ببلادهم الى اللغات الالمانية والانكليزية والمجرية . لذلك احببت ان احذو حذوهم فانقل الى لغتنا وصف البلاد الشامية التي زارها صحبة مرتضى باشا حسبما درجه في المجلد الثالث ، وفي ظني ان في ذلك ما يفيد معرفته من الاوضاع الجغرافية والحالات الاجتماعية التي كانت قبل ثلاثة قرون . وقد تصرفت في عبارة الجلبي وحذفت منها ما ليس في ذكره نفع وعلقت عليها نبذاً في ترجمة الاشخاص وذكر أسماء المدن والقرى التي كانت في طريقه أو حوله مما

فاته بيانه ووصفت منها بعض ما تسنى لي زيارته ورؤيته أوالعثور على ذكره في الـكتب الجغرافية والتـاريخية والرحلات القديمة والحديثة وعنيت بسرد الفرق بين حالتها حينما مر بها الجلبي وحالتها الحاضرة .

وقبل الشروع بسرد الرحلة لابد من التنويه بان المحبي صاحب كتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » وقد ترجم كثيراً من فضلاء الترك وأعيانهم في ذلك العهد لم يذكر اسم اوليا جلبي على الرغم من ان هذا جاء الشام وساح فيها ومكث في دمشق مدة ، ولم يترجم ايضاً مرتضى باشا الذي حضر الجلبي في حاشيته وظل والياً في دمشق نحو نصف سنة ، وبعد التحري وجدت ذكر هذا الباشا في كتاب « الباشات والقضاة » تأليف محمد بن جمعة المقار الذي منه نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي في مكتبة المجمع العلمي في دمشق قال : وفي سـنة ١٠٥٨ تولى دمشق مرتظا باشا (كذا) فلما جلس امر بالمسير وعسكر دمشق بالركوب على ارض صفد فلما وصل نصب اوطاقه واعيان دمشق فاستقام هنـاك مدة فخرج بعض اغواته وبعض اعيان دمشق يلعبون بالجريد فصاب بعض اغواته جريدة فقلعت عينه فحقد الباشا المذكور على أعيان دمشق وبغضهم فهجموا على اوطاقه وقطعوه ومزقوه ورجع عسكر دمشق الى الشام فبعد عشرة ايام رجع ودخل الى السراية فما استقر مدة الاوجاء بعزله فعزل وسار الى استانبول فصار وزير اعظم وما قدره الله بشيء ، انتهى بالحرف . واخيراً عثرت عرضاً في كتاب المحبي على ذكر مرتضى باشا في صدد ترجمة عبدالسلام المرعشي احد اعيان الجند بالشام وصاحب الحول والطول في ذلك العهد . قال المحبي : وكان عبدالسلام لما وجهت نيابة الشام لمرتضى باشا الـكرجي ثانية في سنة سبع وستين والف وتصرف بها متسلمه اضطرب لذلك اضطراباً شديداً لما كان قد وقع له من المعاداة في توليته الاولى فأخذ يدبر اشياء لمدافعته ثم أداه اجتهاده الى ان جمع جمعاً عظيما في الجامع الاموي واحضر اكثراهل البلدة وذكر لهم ظلمه واشـار عليهم بان لا يرضوه

حاكماً عليهم وكان نائب الشام السابق المعروف بالسلاحدار(١) لم يخرج بعد من دمشق وكان مقيماً بالميدان الاخضر فذهب القوم اليه وأبرموا عليه ان يبقى نائباً وكتبوا في هذا الشأن عروضاً ومحاضر وارسلوها الى الابواب السلطانية وخرج متسلم مرتضى باشا هارباً ولما وصل اليه وهو في الطريق ارسل الى الباب السلطاني يعلمهم بما وقع فقرر في نيابة الشام بخط شريف فلم يمكنوه واظهروا الممانعة وجمعوا جمعاً عظيما من أوباش الشام وعزموا على محاربته وطلعوا الى قرية دوماوهم في جيش عرمرم وكان مرتضى باشا وصل الى القطيفة فلما سمع بخبرهم ولى راجعاً ولم يدخل دمشق اﻫ .

فيظهر من هذا ومما عثرت عليه في « التقويم السنوي لولاية سورية » لسنة ١٣٠٤ ﻫ ان مرتضى باشا عين لنيابة الشام مرتين الاولى في سنة ١٠٥٨ حينما جاء معه اوليا جابي ودخل بموكب عظيم واستقبلته جنود دمشق واعيانها استقبالا فخما كما سيأتي بيانه . على ان هذا الباشا كان جباراً عاتياً خاصم اعيان دمشق كما ذكره صاحب كتاب الباشاة والقضاة فعزل بعد اربعة اشهر ، لكنه عاد للمرة الثانية في سنة ١٠٦٧ فلم ترض به جنود دمشق واعيانهـا واضطروه للرجوع فنقمت الدولة بسبب ذلك على عبدالسلام المذكور ورفقائه الذين قادوا هذه الفتنة، وكان من جملتهم الامير منصور الشهابي وابن عمه الامير علي فقتلتهم جميعاً تباعاً وصادرت اموالهم واملاكهم وفاقاً لعوائد تلك الايام ، واعادت مرتضى باشا فبقي هذه المرة خمسة اشهر ثم عزل ثانية ،

أما الرحلة فهي كما يأتي :

كان اوليا جلبي يتدبر قضاء فريضة الحج فانتهز فرصة سفر مرتضى باشا المعين نائباً على الشام وصار نديمه ورئيس المؤذنين والأئمة في بطـانته . وكانت قافلة الباشا مؤلفة من مئات الحواشي والاتباع والجند وألوف الركائب والبغال المثقلة

---

(١) كان اسمه محمد باشا وهو الذي رمم مأذنة جامع المعلق على ضفة بردى بين الحواصل سنة ١٠٥٨ .

بالعتاد والامتعة شأن قوافل الباشوات العظام في ذلك العهد . وغادر مدينة اسكدار في غاية شهر شعبان سنة ١٠٥٨ التي جلس فيها السلطان محمد خان الرابع على كرسي آل عثمان وهو بعد صبي ابن سبع سنوات، وراح الجلبي يتنقل مع تلك القافلة في بلاد الاناضول كأزنيق واسكي شهر وآق شهر وقونية واركلي واولوقيشلة ، ووقف برهة في نجود جبال طوروس ووصف طيب مناخها وجودة مراتعها ، ودخل من مضيق « كولك بوغازي » ووصف قلعته الشاهقة ، ثم اقبل على سهول آذنة ووصف قطعان الجواميس الضخمة التي شاهدها في بطائحها وان منها ما هو خاص بالدولة تعده لجر المدافع الثقيلة ، ثم وصل الى آذنة ، وبعد ان ذكر انه وصفها في المجلد الخاص بسفرته الى الحجاز ذكر اجتيازه جسرها ذا الست عشرة قنطرة المبني على نهر سيحان ، ثم ذكر وصوله الى قلعة مسيس . ثم قال : غادرنا مسيس واجتزنا مضيقاً اسمه « الجاق بل » كنا نرى فيه قلعة شاهمران على يسارنا فوق صخرة عالية ، ثم اجتزنا منزلاً اسمه قورت قولاغي ومكثنا فيه مدة ، ثم وصلنا الى مكان مخوف وخطر اسمه دمير قبو رأينا فيه آثار جدار عظيم كان فيه باب من حديد وهناك قلعة خربة فوق اكمة جرداء ، وما زال اكراد ناحية الجومة يأتون الى هنا ويقطعون السابلة . وبعد ان اجتزنا هذا المحل الموحش وصلنا الى بياس .

وقد وصف اوليا جلبي قلعة بياس ودورها وبساتينها ودار مكسها وميناءها وخانها وجامعها الذي بناه محمد باشا الصوقوللي الصدر الاعظم الشهير واثنى على اهلها لانهم كانوا يردون عادية قرصان البحر ويحرسون المسالك والمضائق الممتدة شمالي بياس وجنوبها من شر لصوص الجبال ويسهلون سبيل الحجاج والتجار المارين ببلدتهم من بر الترك الى بر الشام وبالعكس، ونوه بشدة حرها في الصيف ورداءة هوائها واضطرار اهلها الى الاصطياف في النجود والهضاب المحيطة بهم . وذكر ان ألوفاً من الاكراد والتركمان اصحاب قطعان الغنم والماعز يتسلقون هذه النجود في فصل الصيف ويطلقون مواشيهم ترعى اعشابها الغضة وتشرب مياهها النميرة .

ثم قال: وبعد ان مكثنا في بياس يومين غادرناها واجتزنا في جنوبها جسراً متقن الصنع ذا اربع منافذ من آثار محمد باشا الصوقوللي ووجدنا في قربه على شاطئ البحر تكية باسم الشيخ عبدالقادر الكيلاني عامرة الاركان آهلة بالدراويش، ثم استأنفنا المسير نحو القبلة فمررنا بتكية ثانية اصغر من الاولى فيها بضعة دراويش ينتسبون الى الطريقة البكتاشية ، ثم اجتزنا جسراً نصب على نهر تجتمع مياهه من الاودية المنحدرة من أعالي الجبال التي ذكرناها وتصب في البحر . وعلى مقربة من هذا الجسر مررنا بقلعة تدعى قلعة المركز تبعد عن البحر رمية سهم بنيت في سفح جبل عال وهي مربعة الشكل ذات بناء جميل ، قيل انها من عهد القياصرة . ولما مر السلطان سليم من هذا المكان سنة ٩٢١ وهو ذاهب للاستيلاء على مصر افتتحها بالامان وهي الآن تابعة لنيابة بياس وفيها قائد وعدة جنود وحولها كروم وبساتين وفي داخلها جامع وبضعة بيوت لسكنى الجنود .

وبعد ان اجتزنا هذه القلعة مررنا في ساحل البحر بمضيق يدعى صقال طوتان « قابض الذقون » لا تنقطع والعياذ بالله منه اللصوص وقطاع الطريق وجلهم من أشرار الاكراد الذين يهبطون من ناحية الجومة من اعمال حلب . لذلك يجدر بالمجتازين من هنا ان يكثروا من الحيطة والحذر . وبعد ان مررنا بمكان يدعى آجي جاي « النهر المر » وصلنا بعد ساعتين ونصف الى قلعة اسكندرونة .

وصف الاسكندرونة — سميت هذه البليدة باسم بانيها اسكندر الكبير، وبعد ان خربتها عوادي الزمن عمرت في اول عهد الاسلام ، ثم خربت مرة أخرى وصارت ملجأ لقطاع الطرق وقرصان الافرنج ، فاسترعى هذا الحال نظر نصوح باشا الذي كان صدر اعظم في زمن السلطان احمد خان فشرع ببناء قلعة حصينة في الاسكندرونة ، ولكن السلطان نقم عليه بعد حين لتهامل بدى منه فقتله وبقيت القلعة دون اكمال ، وحبذا لو اكملت هذه القلعة وجدد عمران الاسكندرونة لانها فرضة بحرية ذات مكانة وقريبة من حلب نحو مرحلتين ، وقد علمت انه يزورها في كل عام من سفن المسلمين والافرنج اكثر من مائتي غليون . هذا

وحرمان هذه الفرضة من قلعة جعل الافرنج يتقـــاعسون عن دفع المكوس الى الملتزم الذي التزمها بمائتي حمل(١) ، وللاسكندرونة قاضي يجبي من قراها خمسة اكياس(٢) . ولها ميناء لطيف لولا ان غربيه مكشوف يأتي بالرمل فيحول دون اقتراب السفن من الشاطيء ويضطرها للرسو على بعد رمية مدفع . والى الغرب من ميناء الاسكندرونة وعلى بعد ٢٦٠ ميلاً بحرياً(٣) يوجد رأس اندراوس في جزيرة قبرص وقد قيل لي انه اذا اعتدل الهواء وصفا أديم السماء ترى من هنا جبال قبرص المجللة بالثلوج ، اما انا فلم يتسن لي رؤية ذلك . ويكثر وجود الافرنج والروم في الاسكندرونة لهذا لا تجد فيها جامعاً أو خاناً أو سوقاً سوى الخانات فانها كثيرة وقد اعتاد الصادي والغادي الى الاسكندرونة ان يمكث ليالي الشتاء في هذه الحانات حتى صارت تشبه الخانات . ويجلب الماء الى الاسكندرونة على ظهور الحمير من نبع في خارجها يدعى نبع القوافل ، وقد اعتاد الداخلون الى هذه البلدة والخارجون منها ان يضربوا خيامهم قرب هذا النبع . وفي الاسكندرونة وكلاء أو قناصل لسبع دول ، اما القناصل الاصليون فمركزهم في خان الافرنج في حلب . ولما كانت الاسكندرونة فرضة بحرية وباب تجارة لحلب وضواحيها تجد بجانب جمركها مخازن عظيمة يقوم فيها تجار الافرنج بالبيع والشراء دون انقطاع . حتى انه لما مر مولانا مرتضى باشا من هنا بموكبه الحافل كان من سفن الافرنج ستة وعشرون غليوناً راسياً في الميناء فأطلق كلهـــا المدافع ترحيباً بجنابه ودام الاطلاق مدة غير يسيرة حتى كادت الغلايين لا ترى من كثرة النار والدخان . وتحيط بالاسكندرونة مستنقعات . ثم قمنا من هنا مع الركب فمررنا بنبع القوافل وسرنا نحو القبلة نحاذي الساحل تارة ونصعد في الجبال أخرى وكان المطر ينهمر علينا بشدة الى ان وصلنا الى بليدة تدعى بيلان .

وبيلان مركز قضاء يتبع ايالة حلب فيها نحو ثلاثة آلاف من السكان ودورها

---

(١) اذا كان الحمل مائة الف قرش فالمائتا حمل تعادل عشرين مليوناً من القروش ولعل الجلبي مبالغ بهذا المبلغ . (٢) الكيس خمسمائة قرش . (٣) صحيحه مائة وخمسة اميال .

مبنية من الطين على طرفي جبلين متقابلين بينهما واد ، وهذه الدور يركب بعضها فوق بعض وتتخللها أزقة ضيقة ، وهواء بيلان جيد وماؤها عذب وصحة اهلها حسنة ، وفيها مسجد جميل له قبة مكسوة بالرصاص وامامه خان عامر ، وفيها ايضاً حمام وحوانيت عديدة وينتج فيها فواكه واعناب لذيذة فهي صالحة في الجملة للاصطياف ، ثم ان في الجبال التي تعلوها نجود اشتهرت بنقاء هوائها وطيب مراعيها . ثم غادرنا بيلان وسرنا نحو الجنوب نصعد عقبات ونهبط أودية الى ان اجتزنا مضيقاً فيه جنود مكلفون بحفظ الدروب ، وشاهدنا في يميننا على بعد رمية مدفع « قلعة بغراس » وهي قلعة قديمة تعاورتها أيدي كثير من الملوك الى ان افتتحها السلطان سليم بالامان حينما مر بهذا الطريق وهو ذاهب لقتال الملك قانصو الغوري في مرج دابق . والقلعة صغيرة القد مخمسة الشكل مبنية على هضبة اتخذت قضاء تابعاً لايالة حلب وأقيم فيها كتخدا وقائد جند الانكشارية ومحافظ القلعة وجنود ، وفيها جامع وخان وحمام وسوق صغيرة، على انها لانحرافها عن الطريق ليست عامرة وانحصرت الآن شهرتها بزهورها الفياحة لاسيما بالسنبل والمسك الرومي، واهلها يقلعون من جبالها وحدائقها ابصال الزهور الجميلة فيحملونها ويبيعونها في بقية البلدان وقد يصلون بها الى استانبول .

ثم رحلنا من هنا وسرنا نحو القبلة فاجتزنا قره مغرط الى ان وصلنا بعد اثنتي عشرة ساعة الى انطاكية .

وبعد ان ذكر اوليا جلبي نبذة من تاريخ انطاكية قبل الاسلام وبعده ونوه بفتحها على يد السلطان سليم العثماني عقيب معركة مرج دابق قال ما خلاصته : وعين السلطان اذ ذاك محمد باشا البيقلي والياً على انطاكية ورامي علي افندي قاضياً وهي لا تزال بيد العثمانيين، فيها نائب ومحتسب ونقيب الاشراف وقاضي وكتخدا جند وسردار انكشارية ودزدار قلعة، وفيها جنود وعتاد وعشرون مدفعاً بين كبير وصغير وسور انطاكية مبني على خمسة جبال، ونصف قلعتها في منحدرات تلك الجبال ونصفها الثاني في سفوحها وقرب نهر العاصي ، ومحيط هذا

السور اثنا عشر ميلا ، وفي الحق انني لم أر حتى الآن اسواراً وابراجاً عالية مثلما رأيت في انطاكية ، وربما بلغ علو السور الراكب على الجبال في الجهة الشرقية نحو ثمانين ذراعاً ، أما السور القريب من نهر العاصي فواطئ ولا يعلو اكثر من عشرين ذراعاً كما انه غير ضخم، واذا دخلت من بابي حلب ودمشق وصعدت ترى امامك ابراجاً وقللاً يعلو بعضها فوق بعض ، اما الاحجار التي بنيت منها هذه القلل فهي جد ضخمة وقد ركبت وألصقت بمهارة كلية ، وعلو باب حلب المتجه الى الشمال نحو عشرين ذراعا ، وكان ينبجس من الصخور التي في داخله مياه فوارة ، وفي غربي هذا الباب جسر عظيم يعبر منه فوق العاصي، ولو فرة علو الجبال المحيطة بأنطاكية وارتفاع الاسوار الراكبة عليها لا تنتشر الشمس على هذه البلدة الا بعد ساعتين من طلوعها .

وفي انطاكية ثمانية قصور عظيمة اهمها قصر كتنغاج باشا فيه كثير من الابهاء والغرف العديدة المزخرفة وبابه من الحديد . واكثر دور انطاكية الفخمة واقعة على العاصي ، وفيها من الاولياء حبيب النجار الذي يزعمون انه كان من حواريي السيد المسيح ، وبعد قتله حفظ رأسه في تكية يزورها ويتبرك بها المسلمون والنصارى على السواء . وفي انطاكية مدارس للعلوم الشرعية وكتاتيب للصبيان ، وفيها تكية لحبيب النجار يهبط اليها بدرج ملئت بالدراويش ، وأخرى في أعلى الجبل في مكان عال مشرف يوصل اليه في خلال ساعة، وفيها حمامات تأتي مياهها من العاصي بالنواعير، وفيها خانات وأسواق وحوانيت عديدة . ومياه هذه البلدة غزيرة تنحدر من الجبال العالية المحيطة بها، لذلك ترى سبلها وينابيعها كثيرة، كما ان الفاكهة تجود وتغزر اصنافها في البساتين التي تروي من النواعير الراكبة على نهر العاصي .

هذا وبعد أن انتهينا من زيارة انطاكية عزمنا على السفر في صبيحة اليوم الاول من شوال سنة ١٠٥٨ ، وبعد أن أدينا صلاة العيد في جامع السوق ضرب نفير الرحيل في قافلتنا فغادرنا انطاكية متجهين نحو القبلة وبعد ان اجتزنا كثيراً

من القرى العامرة نزلنا بعد ثماني ساعات في قرية الزنبقية على شاطيء العاصي، وهذه القرية واقعة في واد خصب له كروم وحدائق ذات بهجة وفيها نحو ثلاثمائة بيت، وقد اشتهرت بجودة تينها وجمال زنبقها . وهنا اقام علي باشا الجانبولاد لمرتضى باشا وليمة عظيمة لم يسمع بمثلها، فقد أكل كل الجند الذي بمعية علي باشا وعدده كان ينيف على الستة آلاف، واكل خلق عظيم لا يسعه الحصر ممن حضر من الجوار، ومع ذلك فقد بقيت الصحون والقدور ملآنة بالاطعمة النفيسة . وأهدى علي باشا الى مرتضى باشا ثلاث افراس من عتاق الخيل فقابله مرتضى باشا بفرو من السمور المرصع [١] . ثم استأنفنا المسير الى الجنوب الى ان وصلنا الى جسر الشغر، وهو مكان موحش على شاطيء العاصي وتحيط به مروج خضراء، وفيه خان صغير، على ان الأمن هنا مفقود نرجو الله ان يوفق اهل الخير لعمران هذا المكان وتوطيد الأمن فيه ليسهل مرور الحجاج منه .

ثم سرنا الى الجنوب فكنا نجتاز تارة أماكن صخرية وتارة مستنقعات وآجاماً الى ان وصلنا بعد ست ساعات الى قلعة المضيق . وهي قلعة صغيرة من اعمال أيالة حلب بنيت قرب بحيرة تسمى باسمها فوق هضبة مشرفة على السهول والآجام

---

(١) من هو هذا الباشا الكبير الذي استطاع ان يقوم بتلك الوليمة العظيمة ؟ لم يذكر الجلبي وظيفته ولا من أين أتى وما سبب مجيئه لمقابلة مرتضى باشا، إذ لابد ان يكون غير علي باشا الجانبولاد الشهير الذي حكم حلب في سنة ١٠١٤ ثم خرج عن طاعة الدولة العثمانية وحارب جيوشها مدة مديدة الى ان قتل في سنة ١٠٢٠ أي قبل مرور قافلة الجلبي بثماني وثلاثين سنة على ما رواه المحبي في خلاصة الأثر . ولما حسبته انه والي حلب جاء يحتفي بزميله مرتضى باشا وجدت (التقويم السنوي لولاية حلب) يذكر في قائمة اسماء ولاتها احمد باشا الدباغ في سنة ١٠٥٧ ومصطفى باشا الموستاري في سنة ١٠٦٠ والجلبي لم يذكر احداً منهما . فهل كان مخطئاً في بيان الأسم ؟

المحيطة بها . ثم غادرناها فوصلنا بعد سبع ساعات الى قلعة شيزر .

ثم وصلنا الى حماة . وبعد ان ذكر الجلبي نبذة من تاريخها شرع يصف حالتها في زمن مروره قال :

وبعد ان استلم السلطان سليم حماة بالامان جعلت سنجقا تابعا لأيالة طرابلس الشام ، ويبلغ عدد جندها حين السفر مما هو في بطانة امير لوائها ومن الجبجية الذين يقدمهم ارباب التيمار والزعامة نحو الفين(١) وفيها مشائخ للمذاهب الاسلامية الاربعة ونقيب اشراف ووجهاء واعيان وكتخدا يري وسردار انكشارية (٢)

---

(١) كانت الدولة تتخلى عن حقها في العشر والرسوم الاخرى الى اصحاب الخاص والزعامة والتيمار أو توقفه على جهة من الجهات الخيرية وفاقاً لطريقة الاقطـــاع التي كانت جارية في القرون الوسطى، وتقسيم الاراضي الى خاص وزعامة وتيمار كان باعتبار خاصلاتها المقيدة، مثال ذلك ان الارض التي غلاتها اكثر من مئة الف اقجه (الاقجة ضرب من العملة تعادل ثلث البارة) يطلق عليها خاصاً وتحال على الوزراء والامراء وغيرهم من بطانة السلطان ومقربيه، والتي غلاتها من عشرين الف اقجة الى مئة الف اقجة يطلق عليها زعامة وتحال على دفتر دار الخزينة في الأيالة ورئيس الألاي في اللواء وقواد القلاع ومن كان في منزلتهم والتي غلاتها من ثلاثة آلاف اقجة الى عشرين الف اقجة يطلق عليها تيمار وتحال على المستحقين من الجنود، وكانـــ كل من صاحب الخاص والزعامة مكلفاً بأن يجهز وقت الحرب عن كل خمسة آلاف اقجة جندياً بعدته الكاملة وصاحب التيمار مكلف بأن يجهز عن كل ثلاثة آلاف اقجة جندياً واحداً . واستمرت هذه القاعدة التي كانت ســـائرة في البدء سيراً حسناً الى سنة الف من الهجرة ، ثم شابها سوء الاستعمال الى ان الغيت سنة ١٢٥٥ .

(٢) كانت رتب قواد جند الانكشارية تبدأ بآغة الانكشارية ثم برئيس السكبان ثم بكتخدا القول وهو معاون الآغا الكبير أو رئيس اركان حربه ثم

وجري باشي « رئيس جند » ويوزباشي « رئيس مئة » ودزدار قلعة ومحتسب ، ويجبي قاضيها من نواحيها في كل سنة ستة اكياس ، ويجبي أمير لوائها ثلاثين كيسا . وفي حماة قلعة بنيت فوق تل صناعي على شاطئ العاصي لكن اكثر ابراجها واسوارها منهدمة . وفي حماة كثير من القصور الفخمة ذات الحدائق الغناء والاحواض والمياه الدافقة واشهرها قصر محمد باشــا الارناؤط وهو مبني على شاطئ العاصي وفيه ثلاثمائة غرفة وقاعات عديدة وحمامات وحدائق ولم أر مثل هذا القصر الا في دمشق ، وقد أولموا فيه لمولانا مرتضى باشا وليمة يعجز اللسان عن وصفها (١) واشتهر ايضاً في حماة قصر الشيخ ابراهيم افندي بن الشيخ عبد القادر

بكتخدا يري وهو وكيل كتخدا القول وصلة الوصل بين الآغا الكبير وجميع جند الانكشارية يبلغ أوامر الآغا بمعرفة الكتاب الى الدزدارين أي محافظي القلاع والسردارين أي قواد الجند .

(١) ذكر جرجي يني مؤلف تاريخ سورية اسم باني هذا القصر مراراً في فصل طرابلس فما قاله : ان محمد باشا الارناؤطي ولي ايالة طرابلس في سنة ١٠٥٠ هـ وانه بني على نهر رشعين قصراً وكلف الرعايا اموالا ثم عزل وأعيد ثلاث مرات وذلك من شدة جوره وعسفه وكان في كل مرة يعاد بعد مدة وجيزة وفي المرة الرابعة ارسل الى حماة واستقر بهـــا اهـ . قيل ان هذا الباشا اعقب في حماه وانه لا يزال من اعقابه بعض نساء وانه على الرغم من عسفه كان ولوعاً ببناء القصور والمساجد والحمامات فقد بنى في حماه القصر الذي ذكره الجلبي وبالغ في عدد غرفه ويظن انه هو دار الحكومة التي احترقت في حادثة حماه في سنة ١٣٤٤ هـ ويظهر من وصف الجلبي ان البناء الملاصق للدار المذكورة الذي كانت فيه مدرسة التجهيز ودور بعض السراة المجاورة كانت كلها من مشتملات هذا القصر الفخم . ومحمد باشا بنى ايضاً في حماة جامعاً قرب جسر السرايا يسمى جامع المدفن لانه دفن فيه وعلى قبره تاريخ وفاته في سنة ١٠٨٦ وكان

الكيلاني(١) . اما جوامعها فكثيرة منها جامع ابو عبيدة بن الجراح فاتح حماة وهو في السوق الأعلى ، قيل انه كان في الأصل كنيسة قديمة وانه بني بمال الخراج الذي أداه اهل حمص ، وقد زبرت على رخامة فيه النفقات التي صرفت في انشائه والصقت على احد جدرانه . وهناك جامع قاسم باشا المعروف بكوزلجه وهو اول من حكم حماة من العثمانيين بعد فتح السلطان سليم (٢) . واشهر تكاياها « تكية عبدالقادر الكيلاني » وهي عامرة ومزخرفة وذات ايراد جزيل وتعج بالدراويش (٣) واسواق حماة وان لم تكن عامرة بقدر اسواق حلب لكنها حافلة بجميع انواع

وقف له عقاراً كثيراً ومن الذين اتصلوا بخدمته وخدمة ابنه علي باشا شاعر حموي اسمه حسن الدفتري المعروف بابن قنبق .

(١) الشيخ ابراهيم الكيلاني جد بني الكيلاني في حماة وهو على ما قيل ابن شرف الدين بن احمد بن علي الهاشمي ولد في سنة ١٠٤١ وتوفي في بغداد في سنة ١٠٦٨ كان ذا ثروة ومكانة عظيمتين احتجنهما بتصوفه ومشيخته، بنى قصره الذي ذكره الجلبي من انقاض قلعة حماة وبنى في جانبه جامعاً ولا يزال هذا القصر عامراً باعقاب المترجم وهم يؤلفون اسرة كبيرة لبعض افرادها حظ وافر من سعة الملك ووفور الثروة والوجاهة في حماه وضواحيها . والقصر على شاطئ العاصي الأيمن في محلة تدعى جسر بيت الشيخ يقصده السياح لرؤية ما فيه من محاسن البناء العربي كالعقود والقاعات .

(٢) هذا الجامع لم يعرفه احد ممن سألتهم في حماه ولا سمع بهذا الاسم . فمن اين أتى الجلبي بذلك ؟

(٣) نفى الصابوني مؤلف تاريخ حماة وجود التكايا الآن في حماة . اما التكية الكيلانية فقد أسماها زاوية وقال انها من بناء بني الكيلاني القاطنين في حماة منذ القرن السابع . والذي علمته ان الايراد الذي ذكره الجلبي اندثر والدراويش لم يعد لهم أثر .

البضائع القيمة ويكثر فيها الصياغون والحلاقون. وحر حماة شديد لوقوعها في وسط الاقليم الرابع ، وتهب من بريتها ريح سموم لذلك يكثر السمر في اهلها ويقل الجمال في نسائها (كذا) . ويلبس الرجال جببا وغنابيز ملونة تكون في موسريهم من الحرير وفي متوسطيهم من القطن أو الصوف ، وتلبس النساء في ارجلهن أحذية طويلة الساق ويلتحفن بملاآت بيضاء . ويصنع فيها شراشف ومناشف ومناديل حريرية . ولكثرة الشبان الذين يتجندون تكثر الفروسية بين اهلها ، ويصنع فيها سروج ولجم جميلة متقنة ، أما قمحها فيماثل القمح الحوراني في الجودة ، وكذا الامر في شعيرها وقطانيها . وتكثر في حماة الخيول الاصيلة . اما حماماتها فكثيرة وعلى غاية من الحسن واتقان الخدمة أخص بالذكر حمام (١) محمد باشا الارناؤط الذي لم أر في ديار الروم ما يماثله في الابداع الا ان يكون حمام محمد كراي في بغجة سراي عاصمة بلاد القريم .

وفي حماة نواعير عظيمة منصوبة على نهر العاصي يسمع القادمون الى هذه البلدة أنينها من مسافات بعيدة ، وهي دواليب مؤلفة من اخشاب وأعمدة ومسامير حديدية على غاية من الطول والضخامة . وتنصب المياه من هذه النواعير في قناطر تذهب بها الى قصور البلدة ودورها وحماماتها ومساجدها وخاناتها . ولكل ناعورة اوقاف ذات ايراد وخدم ونجارون مهيأون لخدمتها . واذا اقترب الزائر الغريب منها تكاد آذانه تصم من شدة الضجة . والاغرب من كل ذلك رؤية غلمان حماة المتشردين يتعلقون باطراف الناعورة ويدورون بدورانها حتى اذا علت بهم

---

(١) هو حمام الباشا الذي كان في جانب جامع المدفن . والحمام والجامع من بناء محمد باشا الارناؤط الذي مر ذكره . وقد اندرس هذا الحمام منذ قرن في جملة المعالم الكثيرة التي اندرست في حماة وبيعت وهي عامرة للحجارين كدار الفرح في محلة باب الجسر كانت وقفا للافراح فمن أراد ان يتزوج مثلا يأخذ مفتاحها من متوليها ثلاثة ايام ، ذكره الصابوني .

ألقوا بأنفسهم الى العاصي فيغوصون فيه ويسبحون . وفي حماة مئات من الحدائق والبساتين التي تروى من هذه النواعير ، ولا يخلو كل بستان من ناعورتين أو ثلاث، على ان اعظم ناعورة بينها هي ناعورة المحمدية التي سارت بذكرها الركبان، وفي حماة قبران لعالمين من الترك احدهما المولى حامد جلبي الشهير بطاشكوبري زاده والثاني المولى ابراهيم جلبي آذري وكلاهما مدفون بجوار التكية الكيلانية وتاريخ وفاة الجلبي الآذري سنة ٩٩٣ هـ (١)

وبعد ان انتهينا من حماة ارسل الباشا الاطواغ الى الامام (٢) ثم لحقتها القافلة في

---

(١) قيل انه كان في جوار الزاوية الكيلانية مقبرة للكيلانيين درست وبني في محلها دور ولعل هذين القبرين اللذين ذكرهما الجلبي كانا فيها . اما حامد جلبي فلم اعثر على ترجمته ولعله كان قاضيا في حماة وورث القضاء والعلم عن ابيه أو جده عصام الدين ابي الخير احمد بن مصطفى الشهير بطاشكوبري زاده مؤلف كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية وكتاب موضوعات العلوم وغيرهما، وكان عصام الدين من اعظم علماء الترك العثمانيين وافضل من الف منهم ونظم باللغة العربية توفي في سنة ٩٦٨ . وآذري جلبي كان على ما قاله شمس الدين سامي مؤلف قاموس الاعلام ، من الفضلاء المبرزين في عهد السلطان سليم الاول كان عالما شاعراً لطيف المعشر سلك مسلك القضاء ومازال يتنقل في قضاء مدن شتى في الاناضول حتى كانت خاتمة مطافه حماة توفي فيها سنة ٩٩٣ ودفن في خارجها وله ديوان شعر تركي سماه (نقش خيال)

(٢) ان ملوك الشرق قديما ولا سيما ملوك الترك والهند والصين ومثلهم السلاطين المماليك في مصر والشام على ما ذكره القلقشندي في صبح الاعشى كانوا يضعون على راية عظيمة خصلة من شعر اذناب الخيل ملونة ومدلاة ويسيرونها امام جيشهم يسمونها (جاليش) . ثم بدل العثمانيون اسمها الى (طوغ) على ما ذكره احمد راسم في التاريخ العثماني المصور وغيروا شكلها

اليوم نفسه ومازلنا نسير في سهول فسيحة حتى نزلنا على جسر الرستن، وهو جسر عظيم مبني على نهر العاصي وفي قربه هضبة مرتفعة شيدت فوقها قرية كبيرة تسمى الرستن، قيل ان في جامعها ضريح المولى الشهير ابا يزيد البسطامي يزوره اكثر اهل هذه البلاد من العرب والتركان ويتبركون به . والضريح تحت قبة عالية، وفي جوار جامعها تكية يأوي اليها نحو مئة من الدراويش والفقراء وابناء السبيل يطعمون ويكرمون . وفي الرستن جاء من دمشق الى لقاء مولانا الباشا كتخدا شواش دمشق وامين شواشها وآغة جندها الانكشاري وغيرهم من موظفي الديوان فمثلوا بين يديه وقدموا له هدايا متنوعة وانضموا الى قافلته .

ثم سرنا بعد الرستن في برار قفراء مدة ست ساعات الى ان وصلنا مدينة حمص . وحمص مركز لواء يتبع ايالة طرابلس الشام وفيها امير آلاي ورئيس جند ورئيس مئة ولها ارباب زعامة وتيمار يبلغ عدد جندهم مع جند الباشا في ايام الحرب نحو الفين ، وفيها شيخ اسلام ونقيب اشراف ومحتسب ونائب بلدة . ولوقوعها في وسط البرية فقد خرب الاعراب اكثر اعمالها . وقد دفن الحكماء والكهان في العصور الغابرة تحت ارض هذه المدينة القديمة طلاسم ضد الحيوانات

يجعلوه رمحا أو عصا طويلة يربطون في رأسها اذناب الخيل الملونة بالاحمر ويرسلونها متهدلة ويجعلون في اعلاها ضفائر مفتولة من الشعر الابيض والاسود ثم يزينون هذه الضفائر بكرة مذهبة برزمن وسطها هلال . وفي زمن السلاطين العثمانيين صارت هذه الاطواغ تمنح الى ذوي المناصب العالية . وامير اللواء كان له طوغ واحد وامير الامراء اثنان والوزراء ثلاثة والصدور العظام خمسة واذا خرج السلطان الى الحرب كان يسير امامه سبعة اطواغ اه . قلت وكان معنى ارسال الاطواغ الى الامام هو اعلام أهل القرى المجاورة قدوم الباشا ليعدوا المكان الصالح لنزول قافلته ويهيئوا القوت والعلف الكافيين لجنده وخيله، والويل لمن كان يتأخر عن هذه السخرة .

السامة كالحيات والعقارب وامثالها ، لهذا لم يبق اثر منها وان وجدت بالصدفة ولسعت الانسان لا يكون لها اثر .

واذا نقلت تربة حمص لاي مكان والصق قطعة منها على موضع لسع الحيات والعقارب وامثـــالها يزول أثرها بأذن الله، وسمعت من اهل حمص ان في احد جوانبها مسجد على بابه رخامة من المرمر نقش عليها صورة عجيبة الشكل نصفها الاعلى كالانسان ونصفها الاسفل كالعقرب فاذا ألصقوا على الصورة عجينة يحصلون على مثال منها ، وبعد جفاف العجينة اذا ألقوا قطعة منها في النار وبخروا بدخانها الرجل الملسوع من العقرب يزول عنه الألم . وقد تكرم الآغا محافظ القلعة علي بخمسين درهم منها فحفظتها عندي، وبينما كنت ذات يوم أجول في ارمية من بلاد العجم لسع العقرب مملوكا لي فاسرعت لتبخيره بدخان تلك العجينه فزال ألمه فوراً وسال من محل اللسع ماء اصفر .

وقلعة حمص مبنية على تل اصطناعي تبعد نحو خمسة آلاف خطوة عن العاصي ليس لها خندق بل لها باب من الحديد متجه الى الغرب، وفي داخلها بيوت يأوي اليها المحافظون من الجنود وفيها عدد كاف من المدافع . ولما دخل مولانا مرتضى باشا الى حمص ضربت هذه المدافع اجلالا" له . وقلاع حمص وحماة وحلب مبنية على تلال اصطناعية . ويأتي الماء الى حمص بساقية شقت من العاصي . وفي قلعة حمص جامع السلطان وهو جامع صغير لكنه معتبر ومقصود لاحتوائه على مصحف سيدنا عثمان المكتوب بالخط الكوفي يخرجون به ايام الاستسقاء في السنين التي تشح امطارها . وفيها مدارس وكتاتيب وتكايا وخانات وحمام واحد ويأتي الماء الى هذا الحمام من ناعورة ركبت على النهر العاصي، وينسج في حمص من الحرير مناشف ومناديل وفوط واكياس وفيها قبور كثير من الصحابة .

ثم غادرنا حمص ووصلنا بعد مسير ست ساعات الى خان يدعى ايكي قبولي « ذو البابين » وهو خــــان عظيم وسط البادية يستوعب عشرة آلاف راس من الخيل، وقد دعي ذي البـــابين لأن الغادين والصـــادين يدخلونه من باب

و يخرجون من آخر . وفيها حصن وسط يحتوي على عدد من الجنود يحرسون الطريق من اشقياء الاعراب ، ثم سرنا ووجهتنا القبلة فوصلنا بعد سبع ساعات الى النبك ، وهي قرية آهلة من اعمال دمشق ذات مياه غزيرة وكروم و بساتين واشجار وفيها جامع ، ولو بني في جواره خان لزاد عمرانها

ثم بعد مسير ست ساعات وصلنا الى قلعة تدعى « خان القطيفة » ، وهو من اوقاف فاتح اليمن سنان باشا ، وقد وقف له نحو سبعين قرية ، والخان عظيم جداً لو دخلته قافلة مؤلفة من عشرة آلاف رجل بخيلها وجمالها لوسعها وزاد ، ففيه كثير من الغرف والاصطبلات الخاصة بالخيل واخرى بالجمال ومقاصير للحريم ومستودعات للمؤنة وفرن وحمام وحوانيت للباعة ودائرة خاصة بالمتولي ودوائر خاصة بالباشاوات . وكل ذلك مشيد بالحجر وفي وسطه حوض ماء جسيم و يقدم فيه كل ليلة للمسافرين عشاء من حساء القمح المطبوخ باللحم هذا غير الخبز والشمع وغير علف الدواب . وقد أولم متولي الخان واسمه مصطفى جلبي بن قاسم آغا وليمة عظيمة لمولانا مرتضى باشا ، والحاصل ان خيرات هذا الخان وافرة ومشهورة

ثم سرنا الى القبلة فوصلنا بعد مسير ست ساعات الى قرية «حرستا» ، وهي قرية عامرة فيها ثلاثمائة بيت وكثير من الحدائق والكروم وجامع ، وهنا خرج كل اعيان دمشق وكبرائها لملاقاة الباشا يحملون اليه انواع الهدايا من مأكول ومشروب وملبوس وغيرها كل بحسبه ، وقد قبل الباشا كل ذلك منهم وكان من جملتها مئة وخمسون فرساً من عتاق الخيل تكرم حفظه الله ووزعها على اركان حاشيته فأصابني منها الفرس المسرجة وهي هدية ابن الناشف (١) ، وفي

---

(١) يظهر ان تقديم الهدايا للولاة عادة قديمة فقد قال الاستاذ الكردعلي في خطط الشام ج ٢ ص ٢٨٣ « ومما يظهر ذهنية الدولة في تلك الايام ان الوالي يجب ان تهدى اليه الخيول والطنافس والاعلاق وربما الدنانير والدراهم

صباح اليوم الثاني جاءته جنود دمشق المؤلفة من الانكشارية والقبوقول والسباهية واليرلية تموج كالبحر الزاخر، وكلها غارق في الحديد والزرد ،فوقفت للسلام على جانبي الطريق صفوفاً متراصة بعضها وراء بعض،وكانت راياتهم المتموجة ورماحهم المشرعة وسيوفهم المشهرة ودروعهم وخوذهم وتروسهم وبنادقهم ذات الفتائل تأخذ بالابصار ، وامامهم اغواتهم وضباطهم وشواشهم بازيائهم وعدتهم الفاخرة واصطف مثلهم امير الحاج سنان باشا (١) بجنده وحشمه ، وكذلك عيسى وموسى آغا التركمانيين (٢) وابن قاسم آغا (٣) وابن عبد السلام (٤) ومحمد افندي الناشف (٥) وابن كيوان (٦) ودفتردار الشام وكتخدا الشام وامين الشواش ، واصطفت ايضاً سادات دمشق ووجهاؤها وشرفاؤها وعلماؤها ووراء كل منهم خدمه وحشمه ، وجميعهم راكبون عتاق الخيول العربية المعروفة احسابها وانسابها وعليها أجود السروج واللجم والركب الدمشقية واثمنها ، ومتزينون بافخر الحلل والاسلحة .

من غير نكير . وما ندري كيف تكون الرشوة ان لم تكن هذه هي الرشوة بعينها » اه . على ان هذه العادة لم تكن خاصة بالعثمانيين بل سبقهم اليها العباسيون وغيرهم ايضاً . قال جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي ج٥ص٧١ « وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي فاذا تولى الامير علي بلد فأول ما يدخلها يبعث اهلها اليه بالهدايا من الاموال والجواري والدواب والثياب وهو يبعث الى الوزير الذي ولاه أو الخليفة بالاموال بسبيل الهدية ايضاً ، واذا طال مقامه اصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة فاذا امسكها عدو امساكه تمرداً . عن ابن الاثير ج٧ و ٦ »

(١) ذكره المحبي قال : سنان باشا الدور ليلي بن محمود نزيل دمشق ومتولي الجامع الاموي بها امير الامراء وصدر اعيان الشام في وقته، اصله من دورلي

ثم شرعت جنود الباشا وخدمه وحشمه تمر بقضها وقضيضها ، وكان عددها يربو على الالفين منها جنود التفنكجية والدالاتية والمتطوعة والقواصون والبوابون وارباب المشاعل والسراجون .. الخ وامين المطبخ ووكيل الخرج وتوابعهما ، كل صنف منها بجببه وسراويله واقبيته وقلانسه أو عمائمه أو طراطيره الخاصة

من ضواحي قرمان ورد الى دمشق في سنة ١٠٣٣ في خدمة احد الوزراء المعين نائباً للشام وبعدما عزل مخدومه اقام هو بدمشق وصار من جندها وما زال يرقى حتى صار امير الحاج فحج بالناس سنتين سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٠ ثم عزل ورق حاله الى ان مات منكوباً سنة ١٠٧٦ (٢) ذكر المحبي احدهما موسى قال : الامير موسى بن محمد الشهير بابن تركمان حسن الدمشقي الشجاع الباسل المشهور امير الحاج وصاحب الوقعة المشهورة مع الامير حمد بن رشيد امير حوران تنقلت به مناصب الجند بالشام حتى صار باش جاويش ثم صار كتخدا العسكر وامر بالسفر الى محاصرة قندية في سنة ١٠٦٧ واشتهر بالفروسية ثم وجهت اليه الامارة ببلاد عجلون وكان له حسن ملائمة ومعاشرة مع البدو حتى صار لا ينطق الا بلسانهم ولا يتزيا الا بزيهم ثم لما خرج لتأديب ابن رشيد الذي نهب ركب الحاج قتل في المعركة وانهزم عسكره وذلك في سنة ١٠٨١ . (٢) قلت لعله هذا الذي ذكره المحبي قال : مصطفى بن قاسم بن عبد المنان متولي أوقاف السنانية بالشام الدمشقي كان واحد الوقت في المحاورة وسرعة البداهة والنكتة والنادرة واتفق انه في قدمة مرتضى باشا الوزير ومن معه من العسكر انه ورد الى دمشق من اهالي حلب رجل يقال له عسكر وكان يحسن الموسيقي ويتردد الى الاعيان للاستجداء فكان يخاطبه اذا دخل عليه ، اتانا مرتضى الجبار بعسكر جرار توفي سنة ١٠٧٥ . (٤) ذكره المحبي ونقلنا عنه في مقدمة هذه الرحلة حديث الفتنة التي أوقدها ضد مرتضى باشا لما جاء ثانية الى دمشق في سنة ١٠٦٧ . قال عنه انه كان مرعشي المولد ونزيل دمشق واحد

ذات الازياء والالوان والابعاد المختلفة . وهم مدججون بالرماح والسيوف أو بالقسي والسهام أو بالفؤوس والمقارع أو العصي الطويلة ، ومنهم من كان يسوق الخيل والبغال التي تحمل العتاد والذخائر والامتعة وادوات المطبخ ،وفي رقابها سلاسل وجلاجل ضخمة لها قرقعة ودوي ، وكان يقود كل صنف منها

أعيان الجند بالشام كان اميراً للحاج ثم صار كتخدا الجند ثم يباباشي (؟) وكبرت دولته وانحصرت فيه امور الشام جميعاً . وبعد الفتنة ورد الامر السلطاني بقتله ورفقائه فقتلوا وضبطت أموالهم واملاكهم في سنة ١٠٦٩ .

(٥) ذكره المحبي قال : ابن الناشف محمد بن محمود الشهير بابن الناشف الدمشقي احد الأعيان الذين رقوا بجدهم واثروا ثروة طائلة وصار كاتباً للجند الشامي وسافر الاسفار الكثيرة ولما قدم الوزير احمد باشا نائب الشام المعروف بالكوجك وعين لمقاتلة الامير فخر الدين بن معن قربه اليه واستصحبه معه وانحل قرى ومزارع وتيمارات كثيرة فأخذها وتصرف بها ، وجمع من الكتب النفيسة والخيول والامتعة والاملاك ما لا يمكن وصفه وملك كثيراً من المماليك والجواري واهدى الى كبراء الدولة الهدايا العظيمة واشتهر عندهم وتوفى في سنة ١٠٧٥ . قلت وهذا الوصف يناسب ما ذكره الجلبي عن هديته التي كانت فرساً مسرجة . وقد صار محمد افندي الناشف بعد حين باشا. ولا يزال له في دمشق اعقاب يسمون بني الناشف يعدون بالعشرات يقطنون في حي الحطاب قرب ضريح جدهم في زقاق يدعى زقاق الناشف، و يقطن اكبرهم سناً في دار الباشا الاصلية بعد ان صغرت وتغيرت معالمها ، وكل منهم يرتزق بنزر قليل مما يصيبه من اوقاف الباشا التي تجزأت وتبعثرت كثيراً .

(٦) لم يذكر المحبي سوى واحداً منهم قال: ابن كيوان ابراهيم بن عثمان المعروف بابن كيوان احد اعيان دمشق المشهورين كان له شأن عال عند اركان الدولة وله خيرات وصدقات دارة ، واشتهر بابن كيوان لأن والده كان ربيب كيوان

رؤسائه وامنائه وضباطه، ويسير كل صف من الخيالة او المشاة في تراص واتساق تـامين. وكان من بين هذا الجند الذي اصطف سرية مؤلفة من رجال ذوي شعور مضفرة ارخوها على رقابهم تحت قلانسهم وتمنطقوا بمناطق وخناجر فضية وامسكوا بعصي طويلة او دبابيس مسننة محددة ، واصل هؤلاء من مماليك الشركس والاباظة والكرج .

ثم اعتلى الباشا حصاناً مطهما يرفل بأبهى الحلل، وكان هو لابساً فرو من المخمل الفاخر والسمور العال المزين بالازرار المرصعة وسار تتقدمه اطواغه واعلامه الخاصة به ووراءها تسعة من الجرد الجنائب ملبسة افخر السروج والغواشي المزركشة يجرها سواس خاصون بقيادة الآغا امير الاصطبل وهي تتهادى كالعرائس،وكان يواكب الباشا غيرما عددناه من الجند اربعمائة فارس من رجال دائرته كأمناء سره وموظفيه واعوانه الداخليين والخارجيين والشطار والمطرجية وغيرهم (١) ، وظل سائراً والمهتر خانة الخاصة بسعادته تعزف امامه

الطاغية المشهور وصار اولاً من الجند ثم تفرغ عما بيده لاخيه خليل وانعزل عن الناس وتوفي في ١٢ جمادي الاول سنة ١٠٧٥ وقال المرادي في سلك الدرر في ترجمة احمد الكيواني المتوفي في سنة ١١٧٣: وبنو كيوان بدمشق طائفة خرج منها امراء واعيان واجناد ونسبتهم الى كيوان بن عبدالله احد كبراء اجناد الشام وكان ظالماً طاغياً. قلت ولا تزال اعقاب هذه الطائفة في دمشق متوسطو الحال في الجملة

(١) لا غرابة في ضخامة هذا العدد والاسماء فقد جاء في التاريخ العثماني لمؤلفه احمد راسم نقلاً عن كتاب نتائج الوقوعات: ان دائرة الوزير المتوسط الحال في تلك العصور كانت تتألف (اولاً) من الكتخدا وهو كأمين السر العام في ايامنا ، ومن كاتب الكتخدا وكتاب الخزينة وكتخدا الحريم واغوات الداخل وعددهم اربعة وعشرون يرأسهم ضابط يدعى سلحدار آغا يلازم الباشا

حتى دخل بهذه الفخفخة والأبهة العظيمتين الى دمشق،وكان ذلك في اليوم العاشر

دائماً . وهناك آغة السلام وكتخدا الحجاب وهما موظفان بأمور التشريفات ثم أمناء الخزينة والختم والدواة وآغة القفتان وآغة الثياب والآغا الجوخدار وقائد المهترخانة وهؤلاء يكونون من مماليك الباشا الخاصين وموضع ثقته . ثم وكيل الخرج وآغة المفتاح ورؤساء الاطواغ وأمناء التبغ والقهوة والادوية والموائد ورئيس الاصطبل . . الخ ما هنالك من ارباب الوظائف على ان لكل منهم ثلاثة من الحواشي مما يجعل عدد هذا الجمع ٨٠—١٠٠ شخص أو يزيدون . (ثانياً) القواصون المرافقون وارباب النوبة « المهترخانة » وسعاة البريد والسواس والعكامون وأرباب المشاعل والطهاة . . الخ مما لا تتم الدائرة بدونهم وهؤلاء لا يقلون عن ١٥٠ شخصاً . وكان في دائرة كل وزير ٤٠ — ٥٠ ساعي بريد يسمونهم تاتار ينتخبون من ذوي الكفاءة في سوق الخيل وايصال الرسائل لأن البريد لم يكن قد أسس على نسق ايامنا الحاضرة . اما المهترخانة فقد كانت تتألف من تسع فئات وكل فئة من تسعة رجال لكل من الصنوج والمزامير والنقارات والابواق والطبول يقود كل فئة منها رئيس وفوق هؤلاء تسعة شواش يقود الجميع واحد يدعى رئيس الشواش الخاص له وظائف أخرى في استتباب النظام في دائرة الوزير .فكان مجموع رجال المهترخانة ستون شخصاً، وكان الشواش يحملون بأيديهم شوكانات وهي عصي طويلة رؤوسها ذات شعب وسنان فضية علق حولها سلاسل وجلاجل رنانة . وكان الطبالون يعلقون طبولهم بأكتافهم الا الطبل العظيم الذي اسمه (كوس) فانه كان يحمله أربعة رجال وكانت المهترخانة تعزف في دائرة الوزراء مرتين في كل يوم بعد صلاة العصر والعشاء . وكان للمهترخانات انغام وترانيم شجية تطرب أو تهيج السامعين (ثالثاً) كان لكل من أغوات الداخل اربعة أو خمسة من الخدم والسواس والاتباع وهؤلاء يبلغ عددهم ٨٠—١٠٠

من شهر شوال سنة ١٥٠٨ وحل في قصر منجك باشا ، واستقمت معه مدة (٢).

(رابعاً) كان في دائرة كل وزير رئيس تفنكجية وهم مشـــاة ورئيس الدالاتية وهم فرســـان وهؤلاء يـــماثلون الشرطة والدرك في ايامنـا ، وعددهم في معية كل من الرئيسين ١٠٠ — ١٥٠ وكـان لولاة الايالات العظمى كحلب والشام وارض الروم عدة رؤســـاء على التفنكجية والدالاتية يقودهم ضابط كبير يدعي سر جشمة

(٢) ذكر المحبي منجك باشا وقصره قال : الامير محمد بن منجك نبغ في الدوحة المنجكية كان اميراً جليل القدر الا انه مغال في الكبر والتيه بذيء اللسان كثير الوقيعة في الناس كان اولا من آحاد الجند الشامي ثم زعيما ثم متولياً على عمارة السلطـان سليمان بالميدان الاخضر ثم على اوقاف عائلتهم . وقد عمر العمارات الفائقة منها القصر المعروف به في الوادي الاخضر أحد منتزهات دمشق وانتهت عمارته في سنة ١٠١١ وفيه يقول الشيخ عبدالرحمن العـــمادي المفتي مؤرخاً بنائه ومخاطباً بانيه بقوله :

بنيت قصراً أم الجنان جرت من تحتها النهر فوقه الغرف
جاورت في سمكه السماك مع الجوزا ولم ينته له طرف

وكان الامير منجك ابن المترجم وهب القصر المذكور لأحمد باشا المعروف بالكوجك لما كان كافل دمشق فأدرجه الكوجك في وقفه وهو الآن من جملة وقفه غير انه لعبت به أيدي الحادثات فذهبت برونقه وكانت وفاة المترجم سنة ١٠٣٢ اهـ. قلت ويظن بعض المعمرين في دمشق ان هذا القصر كان مبنياً في مكان الشكنة الحميدية ولا يزال البستان الذي شيدت فيه تلك الشكنة يدعى بستان القصر .

[انتهاء رحلة اوليا جلبي الاولى]

جولتنا الأثرية

كيليكية . — ان السائح القادم من الاناضول الى الشام يصل بادىء ذي بدء الى بلاد كيليكية ، فينفذ اليها من مضيق في جبل « بلغارطاغ » احد اعضاد جبال طوروس يدعى مضيق كولك او باب كيليكية Pylſs cilicienne ، وهو مضيق حرج كان له في كل العصور مكانة عظيمة من وجهتي سوق الجيش والتجارة . مرت منه في العصور الغابرة جحافل الفاتحين امثال الفراعنة والاسكندر والاكاسرة والقياصرة ثم الامويين والعباسيين والحمدانيين من المسلمين والصليبيين من الافرنج وكان آخر المارين ابراهيم باشا المصري الذي بنى فيه اماكن للاستحكام ما برحت ماثلة . وثمة قلعة تشرف على هذا المضيق وتحرسه تعلو عن سطح البحر ١٦٠٠ متر هي الان خراب وعلى طرفيه صخور شاهقة جرداء نبتت بينها ونمت اشجار عظيمة باسقة من الصنوبر والشوح . وممن مر بهذا المضيق الشاعر العربي الملك الضليل امرؤ القيس بن حجر الكندي دعاه بالدرب واياه عنى في قوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وايقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا او نموت فنعذرا

وكيليكية مجاورة لبلاد الشام بل ان بعض الجغرافيين يعدها جزء من الشام التي يوصلون حدها الغربي الى جبال طوروس ، وقد سبق للعرب ان اقاموا في كيليكية ورابطوا في مدنها مدة مديدة وسموها «ثغور الشام» . قال ياقوت الحموي في كتابه المشترك : الثغر هو اسم لكل موضع يكون في وجه العدو فثغور الشام كانت آذنة وطرسوس وما معها فاستولى عليها الارمن وصار يقال لها بلاد الارمن اه .

وسبق للعرب ايضاً في عهد المماليك ان غزوها وداسوها مراراً لما كانت بيد الارمن، لذا رأيت ان ابحث بايجاز عن حالتها الغابرة الحاضرة لشدة تعلقها بحالتي بلاد الشام .

فكيليكية في عهدنا من املاك الجمهورية التركية تشمل ولاية آذنة وتحدها من الغرب جبال طوروس ومن الشمال آنتي طوروس «طوروس المناوح» ومن الشرق آمانوس «كاور طاغ = جبل اللكام» ومن الجنوب البحر المتوسط. وفيها سهل شاسع يسميه الترك لانخفاضه (جقوراووه) اي السهل المخفض ، واسماه العرب فيما مضى مرج الديباج او مرج المصيصة ، وهو يعد من اخصب سهول بلاد الترك واعظمها انتاجاً ، تستعمل فيه الآلات والاساليب الزراعية الحديثة بكثرة وتجود فيه من الزروع الاغذاء القطن والحبوب والسمسم اي جودة لوفرة حره وغزارة نداه وخصب تربته ، لولا انه وبيل الهواء لامتداد المستنقعات فيه من فيضان الانهر التي تجتازه . وفي جبال طوروس قمم شامخة تعلو نحو ٣٥٥٠ متراً وهضاب ونجاد عالية ذات مناظر ومراتع جميلة وفيها حراج الصنوبر والشوح المنقطعة النظير ببسوقها والتفافها وطيب اريجها . ولشدة الحر والوبالة في مدن كيليكية يلجأ سكانها للاصطياف في هذه الجبال . وفي سهل جقوراووه انهار عديدة اجلها شأناً من الشرق الى الغرب نهر (دلي شاى) وهو صغير يخرج من جبل اللكام ويصب في شمالي بياس , ونهر (جيحان) وهو اكبر انهار كيليكية يخرج في الشمال من قرب بلدة ابلستين «البستان» ويمر بمرعش ثم بما بين جبال طوروس وآمانوس ويجتاز جقوراووه ثم يصب في البحر بازاء المصيصة . وفي معجم البلدان لياقوت ان عليه عند المصيصة قنطرة من حجارة رومية عجيبة قديمة عريضة . قال ابو الطيب المتنبي :

سريت الى جيحان من ارض آمد ثلاثاً لقد ادناك ركضاً وابعدا

ونهر (سيحان) ينبع من اعالي نجود كبادوكية «ولاية سيواس الحالية» ويسير محاذياً السفح الشرقي لجبال آنتي طوروس ماراً بمدينة آذنة الى ان يصب في جنوبي طرسوس . قال ياقوت في معجمه : واياه عنى المتنبي في مدح سيف الدولة :

اخـو غزوات ما تغب سيوفه   رقـابهم الا وسيحـان جامد

يريد انه لا يترك الغزو الا في شدة البرد ان جمد سيحان . ونهر (طرسوس) يخرج من سفح جبل بلغارطاغ وبعد ان يمر بطرسوس يصب قرب مصب سيحان

تاريخ كيليكية . — سكن كيليكية في العصور الاولى شعب من الآراميين ثم خلفهم الفينيقيون ثم الآشوريون ثم الكلدانيون ثم الفرس . وبعد ان هزم اسكندر المقدوني داريوس ملك الفرس فى معركة ايسوس كثر سواد اليونانيين في كيليكية وزادت مستعمراتهم وصارت هذه الكورة من ممالك الاسكندر واخلافه السلوقيين ، لكن اهل كيليكية اهتبلوا الغرر في فساد ادارة هؤلاء الاخلاف فثاروا واستقلوا ثم اندفعوا نحو الملاحة والقرصنة اللتين اشتهروا بها في التاريخ . وقد استفزت اعمالهم غضب الرومانيين فجاؤا في عهد بومبيوس وحاربوهم واخضعوهم وجعلوا كيليكية احدى ولاياتهم . وكان شيشرون الخطيب المشهور من جملة ولاتها . وبعد انقسام المملكة الرومانية دخلت كيليكية في حوزة قياصرة القسطنطينية وصارت تسعد وتشقى حسب الاحوال التي كانت تتقلب بهم الى ان انقرضت شعوبها القديمة بالكلية وخلفهم شعوب مختلفة اتوا من بلاد الشرق اختلط بعضهم في بعض ولم يعد لهم أرومة معروفة ، وجاء العرب المسلمون في القرن الاول الهجري فاكتسحوا بلاد كيليكية وقطنوها ورمموا مدنها وحصونها واتخذوها ثغوراً وكانت جيوشهم في غزوات الصائفة تجتاز مضيق كولك وتوغل في بلاد الروم « الاناضول » بينما اساطيلهم كانت تمخر في سواحلها وتسود . وفي القرن الرابع اغتنم البيزنطيون فرصة تنازع الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في مصر فجاء قيصرهم الأروع نقفور الفقاش واسمه عند الافرنج Nicephore phocas واسترد كيليكية باسرها كما انتصر على المسلمين في غاراته على بلاد الشام الشمالية مما سوف نذكره في حديث كل منها . وفي اوائل القرن الخامس بدأت جموع مهاجري الارمن تتوارد الى كيليكية من شرقي الاناضول وشماليه وتحتلها وتؤسس امارات مستقلة فيها .

والارمن من الامم العريقة في القدم ، يزعم مؤرخهم ان اصلهم من الكلدانيين هاجر جدهم الاكبر هايكوس من بلاد بابل الى حول جبل آرارت سنة ٢١٠٧ ق م واسس فيه دولة دامت عدة قرون، وزعم آخرون ان الارمن من الشعوب الهندية الاوربية ، لأن لغتهم ومخارج حروفهم آرية غير سامية ، وانهم جاءوا من سهول روسية الجنوبية قبل ثلاثة عشر قرناً من الميلاد واجتازوا البوسفور الى آسية الصغرى فسكنوا البقاع المحيطة بجبل آرارات ودعوها (ارمينية الكبرى) واختلطوا بالشعوب السامية القديمة حتى صاروا مزيجاً من الجنس السامي والجنس الآري «الهندي الاوربي». وقد كان للارمن في العصور الاولى فيما قيل شوكة وحضارة غير يسيرتين وللغتهم آداب كاملة وانشأوا دولاً عديدة بعضها كان يتلو بعضاً وتسعد وتشقى تبعاً لهمة ملوكها . على ان هذه الهمة كانت ضئيلة والشقـــاء كان غالباً. وتاريخ الارمن في العصور الاولى والمتوسطة طافح باخبار الحروب والفتن التي كانت تحدث تارة بينهم وبين الامم المجاورة كالآشوريين والفرس والمقدونيين والرومانيين والبيزنطيين ، وتارة بين هذه الامم يكون فيها الارمن عرضة لتناحر المتحاربين ولغلبة الخور وسوء التدبير في قادتهم ودوام التنـــازع في عامتهم كانت الامم المهاجمة في الغالب تنال منهم وتقتطع من بلادهم . وقد استولى الارمن مرة على بلاد الشام في عهد ملكهم الاكبر ديكران سنه ٨٣ ق م وازالوا دولة السلوقيين عنها ، ولكن حكمهم لم يدم اكثر من اربع عشر سنة فأخرجهم الرومانيون منها بعد ان كانوا غلبوهم في عقر دارهم . وقد اضطرت تلك الحروب الارمن ان يجلو فريق منهم الى اقطار مختلفة ويتشتتون . ولما جاء المسلمون اكتسحوا بلاد ارمينية الكبرى وكان البيزنطيون ينازعونهم لأجلها وينال الارمن المضض من الفريقين . دام هذا الحال وازداد لما ظهر الترك السلجوقيون وامتدوا نحو الغرب وزاحموا الارمن في بلادهم فاضطر هؤلاء ان يجلوا مرة ثانية ، فوفدت بعض جموعهم الى بلاد كيليكية التي كانت شبه الخالية من السكان فاحتلوها واطلقوا عليها اسم (ارمينيـة الصغرى) واسسوا فيها امارات صغيرة اقطـاعية في حماية

قياصرة الروم ، برزت منها بعد حين امارة آل روبين واستظهرت على الجميع وكانت عاصمتها سيس . اشتهر منها ليون الاول وابنه طوروس الثاني المعروف عند العرب بابن ليون او ابن لاون ، وهذا ما حمل مؤرخي العرب على تسمية كيليكية ببلاد ابن ليون . وليون الثاني الذي خلع حماية قياصرة الروم البيزنطيين واعتز بالصليبيين فلقبوه بالملك وازدهرت كيليكية في عهده فرقت تجارتها وزادت صادراتها وعمت الفنون بين الارمن لاسيما فن البناء وزهت الآداب ، قال عنه ابن الاثير وابن الوردي وابو الفداء ما ملخصه : انه كان في اخر القرن السادس واوائل السابع للهجرة صاحب الدروب المجاورة لحلب وكان نور الدين محمود استخدمه واقطع له في الشام وكان يعسكر معه وكان جريئاً على صاحب القسطنطينية وكانت بينهما من اجل المصيصة وطرسوس وغيرها حروب وكانت بلاده حصينة كلها حصون منيعة والدخول اليها صعب لأنها مضائق وجبال وعرة . وقد ذكر هؤلاء حديث غدره بالتركمان الذين استجلبهم وسمح لهم بالرعي في مروج بلاده ثم فتك بهم فبعث صلاح الدين الايوبي يثأر منه ، وبعد ان دام الملك في اسرة روبين زهاء قرنين ونصف انتقل بعد الى اسرة هيتوم ودام زهاء قرن ، ثم الى اسرة لوسنيان الافرنجية ودام نصف قرن . وكان هؤلاء الملوك خلال هذه القرون لا ينفكون عن مناوأة المسلمين اما وحدهم او مع جيوش الصليبيين والتتار في غاراتهم على بلاد المسلمين وتدميرها ، خدموا الصليبيين والتتار خدمات جلى في حصار انطاكية وحلب ودمشق وغيرها ، يميرونهم ويرشدونهم الى المسالك والعورات التي كانوا مطلعين عليها بحكم المجاورة والاتصال ، ويقدمون لهم ارباب الصناعات الحربية التي كانوا بارعين بها كبناة القلاع وعارفي قواعد حصارها والدفاع عنها والنقابين والنفاطين ورماة المنجنيق وغيرهم من مستعملي آلات الهدم والحرق . لذلك بعد ان انتهى المسلمون من امر الصليبيين شرعوا منذ عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ومن خلفه من السلاطين المماليك يقابلونهم بالمثل ويغزونهم ويدوخون بلادهم ، وقد عدت

التواريخ من هذه الغزوات بين سني ٦٦٤ و ٧٧٦ سبع عشرة غزوة خربت بها بلاد كيليكية وساء حال سكانها الارمن الى ان اسر ليون السادس آخر ملوكهم في سنة ٧٧٦ في عهد الملك الاشرف شعبان ونقل الى مصر وسجن ثم سمح له بالسفر الى اوربا فمات فيها وانقرضت به دولة الارمن الى اليوم .

وبعد ان خلت كيليكية من دولة الارمن استلمها احمد ابن رمضان اميرقبائل التركمان التي كانت متوطنة في سهل العمق منذ حدود سنة ٦٢٢ ، ولما استفحل امره وحاول الاستقلال فيها جهزت عليه دولة المماليك المصرية سنة ٧٨٥ حملة وحاربته واخضعته ، وبقيت الامارة على بلاد كيليكية فيه وفي اعقابه وانسبائه آل رمضان مئة وتسعون سنة الى ان جاء السلطان سليم العثماني سنة٩٢٢ قاصداً فتح الشام ومصر فسلموه البلاد . لكن سلاطين آل عثمان من بعده ظلوا يعينون من هذه الاسرة الرمضانية ولاة على كيليكة الى سنة ١٢٨٠ التي جهزت الدولة جيشاً اخضع هؤلاء وغيرهم من زعماء التركمان والكرد المستبدين في سهول آذنة وجبالها وقضت على زعامتهم وفوضى حكمهم · وفي سنة ١٢٨٤ تألفت ولاية آذنه بعد ان كان ثلثها الشرقي تابعاً ولاية حلب وثلثها الغربي ولاية قونية.

اما الارمن فقد بقوا بعد ان استولى العثمانيون على بلادهم في ارمينية الكبرى والصغرى آمنين هادئين في الجملة خلال القرون الاخيرة الى ان جاءهم في اوائل هذا القرن الدعاة من الروس والانكليز يحرضونهم على القيام لاستعادة ملكهم ويعدونهم بالمعونة ، فجاهروا في سنة ١٣١٣ بمعصية الدولة في شرقي الاناضول وجنوبه فعاقبتهم يومئذ شر عقاب ، ثم وثبوا عليها في كيليكية عقيب اعلان الدستور فلم يفوزوا بطائل ، ثم وثبوا خلال الحرب العامة في شرقي الاناضول وثبة كبرى وحاربوها مع الروس ضاربين اقفية الجيش العثماني في تراجعه ، فأجلت الدولة جميعهم من مواطنهم وابعدتهم الى عدوتي الفرات وانحاء الموصل وشرقي القطر الشامي فهلك عدد عظيم منهم يقدرونه بمليون. وقد كان عدد الارمن في البلاد العثمانية قبل الحرب العامة يقدر بمليونين ونصف مبعثرين فيها

بين جموع الترك والكرد، ولما احتل الافرنسيون بلاد كيليكية عقيب انتهاء الحرب العامة سنة ١٣٣٧ خدم الارمن الافرنسيين والفوا كتائب خاصة دعوها كتائب الانتقام انضمت الى الجيش الافرنسي في حروبه تجـــاه الترك المدافعين عن كيليكية واحدثوا في حلب فتنة كبيرة ذكرها المؤرخان كامل الغزي في تاريخ حلب (ج ٣ ص ٧١٤) ومحمد الكرد علي في خطط الشام (ج ٣ ص ١٦٧) واحدثوا امثلها في ذلك الحين في الاسكندرونة . ولما اضطر الافرنسيون لاخلاء كيليكية واعادتها الى الترك لم يشاؤا البقاء فجلوا منها سنة ١٣٤٠ عن بكرة ابيهم وانتقلوا الى انحاء الاسكندرونة وحلب وبيروت وغيرها من مدن الشام وقطنوا فيها . وبعد ان قاسوا من هذا الجلاء المضض تمكنوا بجدهم ومضاء عزمهم ومعاونة الامم والدول الغربية لهم من النهوض والوصول الى حالة حسنة في الجملة. والارمن يمتازون عن بقية الشعوب الشرقية بالنباهة وحب الكسب والتجارة والرغبة في العلم واتقان الصناعات خاصة ما كان منها جميلا ودقيقاً ، يهاجرون في سبيل الارتزاق ، وهم ارباب جد وصبر واقتصاد في المعيشة ، يزاحمون اهل البلاد التي يهبطونها في مختلف الحرف مهما علا شأنها او تفه ويعيشون اينما حلوا بالاجتماع والتعاضد، وهم وان لم يخل الخصام بين افرادهم واسرهم والتناحر بين احزابهم السياسية يتضامنون عند الطوارء تجاه الاغيار وكثيراً ما يتجاوزون حد الدفاع. وقد كان الارمن في العصور القديمة والمتوسطة يتطوعون في جيوش الرومان والفرس والبيزنطيين وحتى العرب لقـــاء اجور وكانت منهم ارباب الصناعات الحربية التي ذكرناها، وما برح الجيش الافرنسي في بلاد الشام يستخدم من متطوعتهم عدداً وفيراً ابلى بعضهم في اطفاء الثورة الشامية الكبرى سنة ١٣٤٤ الحسن بلاء . وعدد سكان كيليكية ثلاثمائة الف ، جلهم من الترك والتركمان وقليلهم من الكرد والشركس، والعرب النصيرية الذين اصلهم من جبال انطاكية واللاذقية . وكان سواد الارمن فيهـــا الى عقيب الحرب العامة نحو الخمس وقد قدمنا انهم غادروها برمتهم في سنة ١٣٤٠

وصف بلاد كيليكية .— وقد اشتهرت بلاد كيليكية برقي زراعتها ووفرة غلاتهـــا وصادراتها وقوة الحركة التجارية في ثغرها الوحيد «مرسين» وفي قاعدتها آذنة. ومن اشهر بلدانها آذنة وطرسوس ومرسين وسيس ومسيس وآياس وبياس وغيرها . و(آذنة) قاعدة ولاية آذنة وتعد من امهات مدن الاناضول ، تحيط بها البساتين وتمتد احياؤها على ضفتي نهر سيحان ، عدد سكانها في يومنا ٧٢٠٠٠ جميعهم من المسلمين الترك والعرب والكرد ، ولها على هذا النهر جسر حجري روماني عظيم فيه ست عشرة قنطرة ، وفيها مساجد ومدارس عديدة ومعامل لحلج القطن ، وهي بندر كبير لتجارة القطن وغيره من المحاصل والامتعة، لكن هواؤها ردي، لوقوعها في السهل المنخفض الذي وصفناه . قال ياقوت في معجم البلدان : آذنـــة بلد من الثغور قرب المصيصة مشهور ، بنيت سنة ١٤٢ «ولعل المراد اصلحت لانها كانت قبل ذلك» ، ثم بنى الرشيد القصر الذي عند آذنة قريب من جسرها على سيحان في حياة ابيه المهدي سنة ١٦٥ فلما كانت سنة ١٩٣ بنى ابو سليم فرج الخادم آذنة واحكم بناءها وحصنها وندب اليها رجالا من اهل خراسان وذلك بأمر محمد الامين بن الرشيد . قال احمد بن الطيب : رحلنا من المصيصة الى آذنة في مرج وقرى متدانية جداً وعمارات كثيرة وبين المنزلين اربعة فراسخ ولآذنة نهر يقال سيحان وعليه قنطرة من حجارة عجيبة بين المدينة وبين حصن مما يلي المصيصة وهو شبيه بالربض والقنطرة معقودة عليه على طاق واحد، قال ولآذنة ثمانية ابواب وسور وخندق وينسب اليها جماعة من اهل العلم . قلت ولم يبق الان من ابوابها واسوارها المذكورة اثر . و(طرسوس) بلدة بين آذنة ومرسين مرتبطة بها بسكة حديدية ، عدد سكانها ٢٢٠٠٠ من المسلمين الترك والعرب النصيرية . وهي مبنية على نشز تحيط بها البساتين ولها بندر تجاري واسع ومعامل لحلج القطن ومساجد ومدارس عديدة ، بناهـــا الفينيقيون وزاحمت في عهدهم الاسكندرية بعمرانها وتجارتها وكانت اذ ذاك قريبة من البحر

تصل السفن اليها ماخرة نهرها المدعو باسمها ، واشتهرت في عهد الرومان بمدارسها الكبرى ، ينسب اليها بولص احد حواريي المسيح وغيره من العظماء ، ومات فيها الخليفة العباسي المأمون ولم يبق من اثارها القديمة سوى اطلال حصن بيزنطي ومرسح واثر قديم هائل يدعونه الحجر البــاهت هو سور وسيع في داخله صخرتان بشكل المكعب على قاعدتهما قطع من الرخام الابيض . قال ياقوت : طرسوس مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم . قال احمد بن الطيب السرخسي : رحلنا من المصيصة الى آذنة ومن آذنة الى طرسوس وبينهما ستة فراسخ وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ولهــا ستة ابواب ويشقها نهر البردان (ولعل المراد نهر طرسوس الحالي) وبهــا قبر المأمون عبدالله بن الرشيد جاءها غازياً فادركته منيته فمات فقال الشاعر :

هل رأيت النجوم اغنت عن المأ مون في عز ملكه المــأسوس

غــادروه بعرصتي طرسوس مثل ما غــادروا اباه بطوس

وما زالت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها لانها من ثغور المسلمين ثم لم تزل مع المسلمين في احسن حال وخرج منها جماعة من اهل الفضل الى ان كان سنة ٣٥٤ فان نقفور ملك الروم استولى على الثغور وفتح المصيصة كما نذكره في موضعه ثم رحل عنها ونزل على طرسوس ، وكان بها من قبل سيف الدولة رجل يقال له ابن الزيات ورشيق النسيمي مولاه فسلما اليه المدينة على الامان والصلح على ان من خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه لا يعترض من عين وورق او خرثي ومالم يطق حمله فهو لهم مع الدور والضياع ، واشترط تخريب الجامع والمساجد ، وان من اراد المقام في البلد على الذمة واداء الجزية فعل وان تنصر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته قال فتنصر خلق فأقرت نعمهم عليهم واقام نفر يسير على الجزية وخرج اكثر النــاس يقصدون بلاد الاسلام وتفرقوا فيها ، وملك نقفور البلد فاحرق المصاحف وخرب المساجد واخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جمع من ايام بني امية الى هذه

الغاية . . . هذا وسيف الدولة حي يرزق بميا فارقين والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين وعطلوا هذا الفرض ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان اه . و(مرسين) مدينــــة على البحر المتوسط تبعد عن آذنة ٦٧ كيلو متراً الى الجنوب الغربي ، بنيت في منبسط من الارض وفيها شوارع فسيحة واحياء ودور جميلة على طراز مدن الساحل الشامي وحولهـــا حدائق البرتقال والليمون والمشمش وغيرها من الفواكه . وبعد ان كانت في مطلع هذا القرن قرية صغيرة لرداءة هوائها مدت السكة الحديدية منها الى طرسوس فآذنة وعني بعمرانهـا فازدهت واتسعت وصارت من اجل مواني الاناضول لا سيما بعد تأسيس الجمهورية التركية وانصراف مجرى تجارة الاناضول عن مواني الشام ومدنه الشمالية. ويقطن مرسين في يومنا زهاء ٢٥ — ٣٠ الف نفس جلهم من المسلمين الترك والعرب، وبعض العرب نصيرية وقليلهم من نصارى العرب والافرنج الذين بيدهم مقاليد التجارة . وستزداد مكانة مرسين اذا تم مشروع انشاء مرفأ في ميناءهـــا وتصبح من اعظم مواني البحر المتوسط . و (سيس) بليدة تبعد عن آذنة الى الشمال الشرقي نحو ٦٥ كيلو متراً بنيت فوق نجد منحدر اجرد صخري، وفي سفح اكمة عالية بيضاء جرداء تعد من اول اعضاد جبال طوروس في هذه الناحية ، وهذه الاكمة محاطة بمنطقة طويلة من الاستحكامات الخربة التي شادها ملوك الارمن حينما كانت سيس قاعدة ملكهم ومركز اعتصامهم . وقبل الحرب العامة لم يكن في سيس سوي ٣—٤ آلاف نفس من ارمن وترك . وهي عارية عن كل نضارة وندران تجد فيها شجرة ، وحرها شديد من وهج الشمس وانعكاسه عن الصخور المحيطة بها، كما ان ماءها آسن وهواء ضاحيتها رديء لوفرة مستنقعاتها . لهذا اذا اقبل الصيف يهجرها اهلها بالكلية ويصعدون الى نجود جبال طوروس . ودور سيس في منحدر الجبل راكب بعضها فوق بعض . ولا يزال ثمة بعض اطلال قصور ملوك الارمن وحصنهم الراكب علي ذروة الجبل مع كنيستهم الخاصة مـا زال ماثلا . قال ابو الفداء: سيس بلدة كبيرة ذات قلعة باسوار ثلثة على جبل مستطيل

ولها نهر صغير وبساتين » ولعله اراد كروم »وهي بلدة ملك الارمن وقاعدة ماكه في زماننا هذا اه . و(مسيس) او المصيصة بليدة قديمة تبعد عن آذنة الى الشرق نحو ثلاثون كيلو متراً، بنيت وسط سهل افيح على الشاطيء الغربي من نهر جيحان، وفيها على هذا النهر جسر روماني عظيم واسمها القديم Moposueste وفي ضاحيتها اطلال وخرب قديمة من عهد ملوك الارمن وقبلهم . قال ياقوت: المصيصة مدينة على شاطيء جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس وكانت من مشهور ثغور الاسلام قد رابط بها الصالحون قديماً وبها بساتين كثيرة يسقيها جيحان وكانت ذات سور وخمسة ابواب . وكان يعمل فيها الفراء تحمل الى الافاق وربما بلغ الفرو منها ثلاثون ديناراً اه . ونقل ابو الفداء عن ابن حوقل العبارة الاتية : والمصيصة مدينتان احداهما تسمى المصيصة والاخرى كفربيا على جانبي جيحان وبينهما قنطرة حجارة وهي خصبة جداً على شرف من الارض ينظر منها الجالس في مسجد الجامع الى قرب البحر نحو اربعة فراسخ . وقال ابو الفداء عن (آياس) بليدة كبيرة على ساحل البحر وبها ميناء حسنة وهي فرضة لتلك البلاد وقد أحدث الافرنج بالقرب منها في البحر برجاً كالقلعة يحتمون به ومن اياس الى بغراس مرحلتان ومن اياس الى تل حمدون مرحلة . ولما استنقذ المسلمون البلاد الساحلية مثل طرابلس وعكا وغيرها من أيدي الافرنج قل وصولهم الى الشام من جهة الموانى التي بأيدي المسلمين ومالوا الى أياس لكونها للنصارى فصارت مينا مشهورة ومجمعاً عظيما لتجار البر والبحر، وقال ايضاً ما ملخصه : وفي سنة ٧٣٦ في رمضان قصد بلاد الارمن ملك الامراء بحلب علاء الدين الطنبغا في عساكر كثيرة ونزل في ثاني شوال على مينا اياس وحاصرها ثلاثة ايام ثم قدم رسول الارمن من دمشق ومعه كتاب نائب الشام بالكف عنهم على ان يسلموا البلاذ والقلاع الواقعة شرقي نهر جيحان فتسلموا منهم ذلك وكانت أياس من جملة تلك المدن فخرب المسلمون برجها الذي في البحر واستنابوا في تلك البلاد نواباً وعادوا اه . قلت وأياس في يومنا بليدة صغيرة محرومة من

كل مكانة الا اذا اعيد استعمال فرضة يمورطه لق وفتحت للتجارة بدل مرسين وهو مما لا يرجى . ولا تزال اطلال الحصن الارمني الذي كان على الساحل والثاني الذي كان في جزيرة قريبة منه وكذلك اطلال مدينة نيكوبوليس القريبة منها كقنوات الماء والجسر والحمام وغيرها من المباني الضخمة ماثلة ، وفي جوار قلعتها مكان فيه ثلاثمائة غرفة منقورة في الصخر سعة كل منها ثمانية اذرع في ثلاثة ولعلها كانت مدافن للموتى . هذا وفي بلاد كيليكية غير ما عددناه قلاع عديدة ذكرها ابو الفداء في تقويم البلدان منها برس برت شمالي سيس وتل حمدون بالقرب من بلدة جيحان ، وفي شرقي تل حمدون حصن حموص وسرفندكار ، وفي شمالي جيحان عين زربة (آناوارزا) وغيرها مما كانت تتعاوره أيدي العرب والروم والارمن في حروبهم وغاراتهم مدة قرون الى ان ثبتت في يد الترك العثمانيين . وقد تغيرت اسماء اكثر هذه القلاع الآن وصارت تعرف بغيرها كقولهم طوبراق قلعة ، ويلان قلعة وتوملو قلعة وبودروم قلعة وشاهمران قلعة وغيرها مما يضيق نطاق بحثنا عن الاحاطة به .

وفي يومنا يأتي السائح الى كيليكية من استانبول وهو راكب قطارات (شركة سكك حديد الاناضول) فاذا غادر محطة بوزانطي ووصل الى محطة ينيجة أما ان ينتقل منها الى فرع مرسين أو يستأنف السير شرقاً مجتازاً سهل جقوراووه فيصل الى (آذنة) . وبعد مغادرة آذنة يجتاز القطار محطات انجيرلك وكوركجيلر ومسيس وجيحان وفي قربها قلعة شاهمران ، ثم يمر بمضيق يسيل في قعره نهر جيحان وتشرف عليه قلعة تدعى (يلان قلعة) يزعمون ان فيها حية هائلة يقدم لها قروييو هذه الانحاء القرابين ، ثم يمر بمحطة الويسية فيرى السائح على يمينه قلعة عين الزربة المبنية على اكمة عالية منتصبة وسط السهل ، وفي محطة طوبراق قلعة يرى ايضاً قلعة تدعى بهذا الاسم . ومن ثم يغادر قاصد الاسكندرونة القطار الذاهب الى حلب (١) وينتقل الى القطار الذاهب الى الاسكندرونة فيمر بمحطات

(١) يمر هذا القطار بمحطات دامانية وممورة وباغجة وفوزي باشا والاصلاحية وميدان

ارزين الجاثمة وسط السهل الافيح الذي حدثت فيه معركة ايسوس بين الاسكندر وداريوس ثم بمحطة درت يول وفيها بساتين جميلة و بياس، وفي هذه يدخل الحدود الشامية الحالية .

*
* *

اما المقتفي اثر سائحنا اوليا جلبي والممتطي الرواحل أو المركبات اذا غادر آذنة يصل بعد خمس ساعات ونصف الى (مسيس) التي تقدم وصفها، فاذا خرج منها يعبر نهر جيحان فوق جسره الروماني ويتسلق اعضاد جبل مسيس ويجتاز فيها سهلا واسعاً يصل منه الى مضيق (دمير قبو) الذي ذكره اوليا جلبي (ص١٣) وكان اسمه قديماً Pyles ammanieds باب الامانيين اي سكان جبل آمانوس، وهو مضيق بين عدة أكام من اعضاد جبل مسيس . ثم يشرع السائح يحازي في سيره شاطئ خليج الاسكندرونة فيجتاز مجرى نهر (دلى شاى) الذي حدثت فيه على بعض الاقوال معركة ايسوس بين اسكندر وداريوس . ومن ثم يغادر على يساره بليدة (درت يول) ومن بعدها يصل الى (بياس) التي وصفها اوليا جلبي (ص١٣) قال ياقوت في معجمه : بياس مدينة صغيرة شرقي انطاكية وغربي المصيصة « وصحيحه انها شمالي انطاكية وجنوبي المصيصة » بينهما قريبة من البحر بينها وبين الاسكندرية « وصحيحه الاسكندرونة » فرسخان قريبة من جبل اللكام . قال البحتري :

ولقد ركبت البحر في أهواله　　　وركبت هول الليل في بياس
وقطعت اطوال البلاد وعرضها　　　ما بين سندان وبين سجاس(؟)

والى بياس ينسب الخشب المعروف في دمشق باسم الخشب البياسي، وفيها وفي بليدة (درت يول) القريبة منها ينتج صنف من البرتقال الجيد يدعى البياسي ثمرته متوسطة الحجم مستديرة لها قشرة رقيقة ولب سكري كثير العصارة . وهي الآن

اكبز (وفيها الحد والمكس الشاميين) وراجو وتورت قولاق وقطمة وتل ارفاد والمسلمية وحلب

آخر بليدة تركية متاخمة لبلاد الشام الحالية . والحد الحالي الذي تم الاتفاق عليه بين الترك والفرنسيس سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣٠ م يبدأ من مصب نهر بياس الصغير الذي يبعد عن محطتها الى الشمال نحو خمسمائة متر . وبياس تحيط بها اشجار الزيتون والليمون والبرتقال وفيها حصن قديم صغير في البحر وقلعة في البر واطلال كنيسة وجامع وحمامات وجسر قديم على نهرها . وهي تبعد عن الاسكندرونة بطريق المركبات ٢٣ كيلومتراً ومرتبطة بها بالسكة الحديدية ايضاً .

جبل اللكام . — وجبل اللكام يدعوه الافرنج آمانوس Amanus وعامة الترك كاور طاغي « جبل الكفرة » ودعته حكومتهم جبل البركات وذكرته بعض التواريخ العربية بأسم الجبل الاسود لسواد حراجه الملتفة ، وسلسلة اللكام تعد عند اكثر الجغرافيين التخم الطبيعي بين سورية والاناضول ويمر الآن في وسطها من الغرب الى الشرق الحد الذي اعتبر رسمياً بين جمهورية تركيا وبلاد سورية الواقعة تحت الانتداب الافرنسي، وهي تنفصل عن جبال مرعش وسيس من سلسلة طوروس بوادي نهر جيحان وتتجه بخط مستقيم الى الجنوب حتى مضيق بيلان الذي يفصلها عن الجبل الأحمر « قيزيل طاغ » الممتد شمالي انطاكية وغربيها ، وطولها فيما قيل مئة وسبعون وعرضها ثلاثون كيلومتراً . وفي هذه السلسلة أودية ووهاد سحيقة ومهاو ذات منحدرات صعبة ونجود ومرابع عالية صالحة للاصطياف ورعي الماشية لجودة هوائها وغزارة مياهها وروعة مشاهدها وطيب أعشابها ووفرة حراجها واثمارها مما يفوق ما في لبنان أو غيره من جبال سورية ، وفيها اطوادسامية وقمم شاهقة أعلاها آق قيا (الصخرة البيضاء) ٢٥٠٠ متراً، ومغبر أو موغر ٢٢٦٧ متراً، و ألما داغ (جبل التفاح) ١٨٣٥ متراً ، ويجلل الثلج الخالد القمتين الاوليتين في معظم ايام السنة وتشرفان على سهول حلب وآذنة على السواء . وفي سلسلة اللكام مضائق وثنايا ذات شعاب ومسالك كأداء دعاها العرب بالدربندات ، كانت تعبر منها في العصور الغابرة

جيوش الغزاة والفاتحين من الشمال الى الجنوب وبالعكس ؛ اجلها في الجنوب مضيق بيلان، وفي الوسط مضيق دكرمن دره « وادي الطاحون » النافذ الى قلعة المركز والآتي من وادي النهر الاسود ، وفي الشمال مضيق باغجه او آصلان بوغاز وقد كان ممر غزاة الصائفة في عهد الامويين وصار الآن ممر السكة الحديدية الذاهبة الى حلب . وكان القدماء اقاموا في هذه النقاط الحاكمة على هذه المضائق الوعرة قلاعاً كثيرة كان يشحنونها بالمقاتلة لمنع الاعداء من المرور لا تزال اطلال بعضها ماثلة في اماكن عديدة كما في فنك وساقط وبكداشلي وكوندوزلي وجيلانلي ومال اوجاسي وآشميشك وغيرها . ولكن اجل هذه القلاع قدراً وشهرة في الشمال وفي منتصف مضيق دكرمن دره الذي تقدم ذكره (قلعة حجر شغلان) صعبة المرتقى تشبه عش النسر بمنعتها ورفعتها تعلو عن سطح البحر ١٢٥٠ متراً، ومثلها في الشمال وعلى مقربة من الاسكندرونة (قلعة المركز)، وفي الشرق على حاشية سهل العمق (قلعة دربساك)، ومثلها في الجنوب (قلعة بغراس)

خلاصة تاريخ جبل اللكام ، ذكر المؤرخون ان بلاد سورية كانت يوم عرف تاريخها مغشاة بالاشجار ولاسيما في جبالها الشاهقة كاللكام واللبنانين الغربي والشرقي . فهذه الاشجار حركت مطامع الامم الغابرة ، فكان منهم السومريون ملوك بلاد ما بين النهرين الذين عرفوا جبل اللكام قبل ثلاثين قرناً من الميلاد وقطعوا ونقلوا منه اخشاباً للبناء ، وأدخله سرجون ملك الآكاديين في حوزته ونقل منه الى بلاده غراساً مختلفة كالورد والتين والتفاح ، واستولى عليه ايضاً الحثيون حينما بسطوا سلطانهم على معظم بلاد سورية . ولما انقرضت دولتهم نشأ على انقاضها في جبل اللكام والبقاع المجاورة له دويلات شتى لشعوب آرامية منها دويلة العنقي في سهل العمق ودويلة الكمانو أو العمانو في جبل اللكام الذي دعي من ذلك الحين آمانوس واهله الآمانيون . ولما زحف الآشوريون من بلادهم نحو الشرق اضطروا للتوقف امام مضائق جبل اللكام . وقطع ملكهم آثورنا سيربال سنة ٨٧٧ ق م من حراجه وحراج جبل لبنان كثيراً من اخشاب الصنوبر والشوح

وبعثها الى عاصمته نينوي ، ولبث ملك آخر منهم واسمه سالامانزار سنتين يحاول اقتحام المضائق المذكورة التي كان سكانها الآمانيون يدافعون عنها . وفي المعركة الهائلة التي حدثت بين الاسكندر المقـــدوني وداريوس الفارسي في سفح جبل اللـكام الغربي كان كل منهما يسعى للمرور من مضـايق هذا الجبل قبل خصمه ليأخذه على حين غرة . وبعد موت الاسكندر اقتتل في هذا الجبل اثنان من خلفائه وهما ديمتريوس الذي تملك بلاد اليونان وسلوقوس نيكاتور الذي تملك بلاد آسية وكانت الدائرة على ديمتريوس . وفي عهد الرومانيين قاسى شيشرون أحد ولاتهم على كيليكية المصاعب في اخضاع الآمانيين الثائرين وكان انتصاره عليهم سبباً لتسنمه عرش الامبراطورية . وظل هؤلاء الآمانيون الجبليون القساة في عهـــد الدولتين الرومانية والبيزنطية شبه المستقلين ، وكانت عاصمتهم تدعى جرجومة دثرت الآن ، ولذا عرفهم العرب في اول عهد الاسلام باسم الجراجمة . وكان قيصر الروم هرقل لما يئس من سورية عقيب ان استخلصها المسلمون منه وسار عنها الى القسطنطينية اخذ اهل الحصون التي بين الاسكندرونة وطرسوس لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين انطاكية وبلاد الروم وشعث الحصون فـكان المسلمون لا يجدون بها احداً . ويظهر ان هؤلاء رجعوا بعد حين الى أماكنهم وصالحوا المسلمين .قال ياقوت في معجم البلدان عن هؤلاء « انهم عرفوا في كتب العرب بالجراجمة نسبة لمدينة جرجومة عند معدن الزاج فيما بين بيـاس وبوقة قرب انطاكية وقد صـالح الجراجمة المسلمين على ان يكونوا أعواناً لهم وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم فيمالئونهم على المسلمين وخرج قوم منهم في حرب مصعب بن الزبير الى الشام مع قائد الروم فتفرقوا في نواحي الشـــام لا سيما لبنان وعرفوا بالمردة فاضطر عبد الملك بن مروان الى ان صالحهم » اه . ولما استولى قيصر الروم نيقفور على كيليكية سنة ٣٥٤ استولى على جبل اللكام ايضاً واسكن فيه فريقاً من الارمن وسلمهم قلاعه ومسالحه ليحرسوها له تجاه المسلمين، ولما استتب الامر

لملوك الارمن في كيليكية على ما قدمنا ادخلوا جبل اللكام في حوزتهم ، ولما جاء الصليبيون اعانهم الارمن في اجتياز مضائق هذا الجبل وسلموا بعد حين قلاعه الى الفرسان الهيكليين (١) ، ثم نشب الخلاف بينهم لاجلها وتقاتلوا مراراً استعان في احدها الارمن بالتتار ضد الفرسان المذكورين . وكان كل منهم خلال ذلك يتخذها نقاطاً للاستناد عند زحفه شمالا او جنوبا . وظل هذا الاخذ والرد مستمراً الى ان جهز الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في سنة ٦٦٤ جيشاً لغزو سيس قاعدة بلاد الارمن اذ ذاك وولى قيادة هذا الجيش الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر محمود التقوي الايوبي صاحب حماة فجاء واستولى على هذه القلاع واباد الفرسان الهيكليين المرابطين فيها ودمرها ، ثم اتم غارته على سيس ورجع ظافراً غانماً ، وظلت هذه القلاع بيد المسلمين جعلوها نيابة من اعمال حلب مركزها في قلعة حجر شغلان على ما جاء في صبح الاعشى للقلقشندي . وسكان هذه الجبال الشاهقة في يومنا تركمان سنيون لا يزالون على الفطرة ،

---

(١) كان في عهد الصليبيين في بلاد الشام جمعيتان دينيتان اورهبنتان عسكريتان ، وكان اسم رجال الأولى الرهبان الهيكليين او فرسان الهيكل Chevaliers du temple او Les Templiers سموا بذلك نسبة لمكانهم الذي اسسوا فيه رهبنتهم سنة ١١٢٨م وكان قرب موقع هيكل سليمان في القدس ، وذكرهم مؤرخو العرب باسم (الداوية) ومعناه على ما قيل في السريانية الفقراء وهو ما لقبوا انفسهم به وكان شعارهم رداء ابيض عليه صليب احمر . واسم رجال الثانية فرسان ماريوحنا Chevaliers de Saint jean او Les Hospitaliers الاسبتالية اوالاسبتارية ومعناه المضيفون اسسوا رهبنتهم في القدس ايضاً سنة ١٠٢٣م لضيافة الغرباء من بني جلدتهم وجعلوا شعارهم رداء اسود على الكتف اليسرى منه صليب ابيض ، وقد كان رجال هاتين الجمعيتين او فرسانها من اشد الصليبيين وطأة على المسلمين ، كانوا مكلفين بحفظ القلاع والاغارة منها على بلاد المسلمين .

معروفون بصدق المعاملة . يقطنون في الشتاء في قراهم المخبأة في بطون الفجاج قرب السفحين الغربي والشرقي وفي الصيف يصعد أكثرهم كما قال اوليا جلبي – الى المرابع والنجود المرتفعة لرعي الماشية وقطع الحطب وحرق الفحم ، ويحذو حذوهم جم غفير من اكراد حرة اللجة في شمالي العمق وهؤلاء رحل اهل وبر واكارون . وجبال اللكام كانت وما تزال غنية بالحراج (١٥٠٠٠ هكتار) ، رغم انكباب الامم الغابرة على قطعها لبناء الاساطيل والمعابد والقصور ، و آخر من انكب على ذلك ابراهيم باشا المصري لما شرع بانشاء دار صناعة لبناء السفن في ميناء الاسكندرونة . وهي قد اشتهرت بوفرة ما في منحدراتها الشرقية والغربية من الصنوبر الحلبي والارز والشوح والسنديان والبلوط والزان والقيقب والاشجار المثمرة البرية كالتفاح والاجاص والزعرور ويكثر الدلب والصفصاف المستحي والجوز والدردار في الاودية الرطبة ، كما ان الزمزريق والقطلب ولا سيما اللبنة منتشرة وكثيفة في اكثر الاماكن . وفي قرب بياس داخل حدود لواء الاسكندرونة منجم كبير يحوي معادن مختلفة كالحديد والكروم والاميانت والمانغانز والنحاس لكنها بنسبة قليلة لاتفي بنفقات الاستخراج . وقد عرف القدماء هذه المعادن واستثمروا منها معدن الزاج الذي ذكر المؤرخون وجوده بين بياس وبوقة .

طريق بياس — الاسكندرونة

اذا خرج السائح من بياس موازياً شاطيء خليج الاسكندرونة يصادف على بعد كيلومتر منها نهر بياس الذي ذكر اوليا جلبي جسره ، وفي ضفته اليسرى يبدأ التخم الذي اعتبر الآن رسمياً بين بلاد الشام وبلاد الترك . وهذا التخم يسير شرقاً بموازاة ذلك النهر متسلقاً قمة مغبر هابطاً ضفة نهر الاسود اليسرى . ويصادف السائح في طريقه سهلاً كثير الحصى والبلان منبسطاً بين سفوح جبل اللكام والبحر . اما التكايا التي ذكرها الجلبي فقد دثرت . وبعد مسير عشرة كيلومترات

قلعة صاري سكي ، قلعة المركز

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ٥١)

يصادف السائح اطلال جدار يمتـــد من الغرب الى الشرق يدعوه الفرنج (جدار السلوقيين) لا يزال قسم منه قرب البحر سـالماً في الجملة وقسم آخر في سفح الجبل، وكان هذا الجدار على ما يظهر لسد الطريق في وجه الجيوش الزاحفة من الشمال الى الجنوب او بالعكس . وبعد الجدار يصادف قرية اسمها صاري سكي لها نهر بهذا الاسم وعليه جسر ، ويمكن للسائح ان يذهب من هذه القرية لزيارة قلعة حجر شغلان التي تقدم ذكرهـا وهي لا تبعد على الماشي اكثر من ساعة ونصف . وبعد كيلومتر يصادف قلعة صغيرة تدعى (قلعة المركز) ذكرها الحلبي(ص٤١) وهي لاتزال ماثلة بجدرانها وببعض ابراجها الضخمة وهي احدى قلاع جبل اللكام المنيعة التي نوهنا بها وبعصيرها ، ويظهر ان هذه القلعة كانت مخصصة بحراسة باب كيليكية القريب منها وباب المضيق الآخذ الى قلعة حجر شغلان المجاورة لها ، وقل من يعرفها الان بهذا الاسم بل باسم صاري سكي القرية القريبة منها ، وكان الصليبيون يسمونها حصن كاستيم اوحصن كودفروا .

وبعد مغادرة قلعة المركز يضيق السهل الممتد في الساحل تدريجا الى ان يقترب ذيل جبل اللكام من البحر فيؤلف معبراً ضيقا كان يسميه الرومانيون باب كيليكية Pylae ciliciae والصليبيون Portella ،وكان يعتبر هذا المضيق في العصور الغابرة الحد الفاصل بين الشام وكيليكية ،وكان فيه لملوك الارمن دار للمكس . وقبل الحرب العامة مد الالمان في وسطه سكة الحديد الآخذة من الاسكندرونة الى (طوبراق قلعة) فحلب . ويعلو الصخور عن يمين المضيق ويساره اعمدة رخامية اثرية يعرفهـــا الملاحون باسم اعمدة يونس ويزعمون ان الحوت الذي ابتلع النبي يونس عاد فلفظه على شاطيء هذا المضيق . على حين انها ليست الا بقايا باب كبير من آثار اليونانيين اوالرومانيين كان معداً لسد المضيق وفتحه في وجه المارين والعابرين او للاشارة اليه . وفي رواية ان جسد الاسكندر بعد موته وضع فوق هذا الباب ومرت من تحته قواده وجحافله . وقلعة المركز على قيد غلوة من هذين العمودين ولا يزال سكان هذه البلاد وهم اتراك يدعون

المضيق والقلعة معاً باسم صقال طوتان . ثم يمر السائح من قرب قرية يقطنها مهـــاجرو جزيرة كريت، ثم بعد خمسة كيلومترات يمر من قرب مزار ينسب للقديس جاورجيوس يزوره الروم الارثوذكس في يوم معين من السنة، ولا يزال سائراً على شاطئ البحر حتى يصل الى الاسكندرونة .

الاسكندرونة . — والاسكندرونة بلدة قديمة ، ذكرها المؤرخان اليونانيان هرودتس وكسنفون باسم ميرياندروس . الا ان هذه كانت خارج البلدة الحالية والى الجنوب الشرقي منها وكانت مستعمرة لفريق من الفينيقيين . أما الاسكندرونة الحالية فقد بناها فيما قيل آنتيغون أحد خلفاء الاسكندر في سني (٣١٦ — ٣٥٢ م) لتمجيد النصر الباهر الذي احرزه الاسكندر على دارا ملك الفرس في معركة ايسوس التي تقدم ذكرهـا . وكان موقع الاسكندرونة قديماً في جوار ميرياندروس وقرب الحصن الكائن عند رأس عينها ، وكان البحر يصل الى أمامها كما سيأتي ذكره في حديث هذا الحصن ، وفي القرن الثالث للميلاد جاء الفرس وخربوا الاسكندرونة وظلت خراباً الى ظهور الاسلام . وفي زمن المسلمين لم يكن لها ذكر في الفتوحات الى ان كانت خلافة هارون الرشيد فبنت زوجته زبيدة فيها حصناً ، ثم في خلافة الواثق رممها ووسعها احمد بن أبي داود الأيادي على ما ذكره ابو الفداء نقلاً عن احمد الكاتب الذي دعاهـــا باب اسكندرون ، في حين انّ هذا البـاب هو في بيلان لا الاسكندرونة نفسها على ما صححه ابو الفداء فيما ننقله عنه في حينه ، وظلت الاسكندرونة ممراً لغزاة الصائفة من المسلمين وقاصدي الاغارة على بلاد الشام من البيزنطيين ومحطاً للتجارة ، الى ان جاء الصليبيون واستولوا عليها ففقد الأمان من حولها وتحول مجرى التجارة الى السويدية فرضة انطاكية والى اللاذقية وطرابلس ، وعادت الاسكندرونة الى خرابها يلجأ اليهـــا لصوص البر والبحر حتى القرن العاشر الهجري ، ففيه التمس تجار الافرنج المقيمون في حلب من الدولة العثمانية ان تجعلها فرضة حلب فأجيبوا فصارت تأتي سفنهم

الاسكندرونة ـــ المدينة والمرفأ وجبل اللكام

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ٥٢)

الى الاسكندرونة وتجلب بضائعهم منها الى حلب على النحو الذي وصفه اوليا جلبي . وكان السبب في التماسهم هذا أمرين : الاول ظلم حكام طرابلس ابنـاء سيفا الذين كانوا يعتدون على اولئك التجار وبضائعهم ، والثاني قرب الاسكندرونة من حلب وما وراءها من البلاد الممتدة حتى العراق والعجم والهند وحسن مينائها الذي لا يضارعه أي ميناء في الساحل الشامي لوقوعه في خليج كبير مصون من الأنواء ، بيد ان فوضى الأحكام في القرن الحادي عشر كانت تغري عصابات اللصوص من الكرد والتركمان وسكان الجومة والعمق فتأتي كما نوه به اوليا جلبي ايضاً وتهاجم الاسكندرونة كلما اهتبلت الغرر وتحاصر قناصلها وتجارها في دورهم وتفرض الاتاوات عليهم وعلى القوافل الداخلة والخارجة . وفي القرن الثالث عشر سنة ١٢٣٨ هـ حدث فيها زلزال دمر معظمها فرممت قليلاً ، ثم عمر بها خان لم تزل آثاره باقية واستقر بها تجار من الانكليز اتخذوها محطة للهند قبيل فتح قناة السويس .

وفي سنة ١٢٤٨ نقل اليها ابراهيم باشا المصري عتاد جيوشه وقطع من حراج جبل اللكام المجاورة الاخشاب العظيمة لينشئ فيها مصنعاً للسفن فالتف حولها السكان وصارت قرية يقطنها النصيرية وقليل من الترك وتجار الافرنج . وقد زارها بعض سياح الافرنج كبوجولا في سنة ١٨٣١ والاميرة بلجيو جوزو في في سنة ١٨٥١ ودي لورته في سنة ١٨٧٢ وكتبوا عنها ونوهوا بمكانتها الجغرافية والتجارية ، ولكنهم شكوا من حرها ورداءة هوائها وقذارة ازقتها وحقارة بيوتها التي كانت مبنية بين المستنقعات ، وقالوا ان اكثرها اخصاص واعشاش يقطنها اناس هزلي اصفرت وجوههم وغارت أعينهم وتضخمت طحالهم وان تجار الافرنج والمرفهين من اهلها لا يمكثون في الصيف الا سحابة النهار وفي الليل يصعدون الى بيلان ذات الهواء الجيد . وعلى الرغم من هذه الحالة فقد كان موقع الاسكندرونة الجغرافي وحسن فرضتها وكثرة توافد سفن البحر وقوافل البر يزيدها نمواً في العمران والسكان ، لاسيما بعد أن جعلتها الحكومة العثمانية في سنة ١٢٨٢ قاعدة ناحية تتبع قضاء بيلان ، ثم في سنة ١٢٩٥ جعلتها قضاء يتبع

ولاية حلب ، وشرعت بتجفيف المستنقعات وأتمت في سنة ١٣٠٣ تعبيد طريق المركبات منها الى حلب ، فصارت الاسكندرونة منذلك الحين فرصـــة عظيمة لاستيراد واستصدار البضائع بين البحر وحلب والعراق والاناضول الشرقي ، ودام هذا النمو والعمران الى ان قضت عواقب الحرب العامة بانفصال تلك البلاد الداخلية واقتصار الامر على حلب وضواحيها كما قضت بتقريب التخوم بين الاناضول والشام الى قاب قوسين من الاسكندرونة فقل واردها وصـــادرها وافل نجمها من ذلك الحين . وبعد احتلال الافرنسيين في سنة ١٣٣٧ جعلت قاعدة لواء الحق أخيراً بدمشق . وبلدة الاسكندرونة في منبسط من الارض ممتد على ساحل البحر ووراؤه المستنقعات والتلعات التي تصل الى سفح جبل اللكام . عدد سكانها نحو ثلاثة عشر الفاً اكثرهم من الأرمن اللاجئين على أثر اخراجهم من بلاد الترك بعد سنة ١٣٤٠ ويليهم النصيرية ثم النصارى على اختلاف نحلهم وغالبهم روم ارثوذكس ثم الترك والعرب السنيون ، واحياءها ومبانيها متجهة الى الشمال نحو الخليج في امتداد شارعها الاعظم المتصل بطريق حلب المعبدة تقاطعه شوارع ثانوية تتجه من الغرب الى الشرق ، ولها على شاطئ البحر الرملي شارع عريض هو منتزه البلد الأوحد، وماخلا الضاحيـــة الغربية المؤلفة من اكواخ خشبية حقيرة يقطنها فلاحون من النصيرية ، فان اكثر مباني هذه البلدة حجرية جيلة من طراز بناء الساحل الشامي مسقوفة بالآجر الاحمر، وشوارعها عريضة مستقيمة معبدة ، وتكثر فيها دور الحكومة والفنادق والمقاهي وحوانيت التجار والمصارف ودور قنـــاصل الدول ووكالات البواخر وكنائس الطوائف النصرانية والاجنبية ومدارسها ، وللمسلمين جامعان وقليل من المدارس البدائية ، وثمة معمل للنور الكهربائي، وفي شرقي البلدة مرفأ صغير في قرب دار المكس ومستودعات ومعامل عظيمة لشركتي البترول وعرق السوس . وقبل الحرب العامة كان الألمان وصلوا الاسكندرونة بحلب بسكة الحديد الممتدة من استانبول الى بغداد وذلك بالفرع الذي قدمنا ذكره وامتداده الى طوبراق قلعه ، بيد ان هذا الفرع

الذي يمر الآن ببلاد الترك بعد اجتياز مسافة معوجة طويلة ، والمرفأ الصغير الذي بنته شركة افرنسية شرقي البلدة لم ينفعا الاسكندرونة بنسبة ما كانت تتوخاه . وحر الاسكندرونة في الصيف ورطوبتها أشد وطأة من بيروت لعلو جبال اللكام المحيطة بخليجها ولقربها ووقوفها كالجدار ولوفرة المستنقعات التي تتصاعد منها الابخرة . فالرياح الغربية الآتية من عرض البحر اذا ما اصطدمت بالجبال المذكورة تقف وتؤلف طبقة كثيفة ثقيلة تحجب احياناً الشمس، واذا ركد الهواء تخال انك في حمام . وفي الخريف والشتاء يحدث احياناً في اعالي هذه الجبال ريح شرقية عاتية تهب بشدة فتخيف السفن وتضر الاشجار والمباني . على ان اختلاف الحرارة اليومي ليس بكثير . فالدرجة العظمى لا تزيد عن الـ ٣٥ وندران تهبط الى الصفر . اما المطر فشديد التهطال تصل كميته في السنين المتوسطة الى الثمانمائة ميليمتر . وماء الاسكندرونة يؤتى اليها بانابيب حديدية من ينبوع في ضاحيتها الشرقية يدعى رأس العين وقد ذكره سائحنا اوليا جلبي . ويعد رأس العين اجمل منتزه في هذه البلدة . وليس في داخل الأسكندرونة مكان أو بناء أثري . ولكن في خارجها مكانان يستحقان الزيارة ، الاول ، موقع بلدة ميرياندروس القديمة ، وهو في شرقي التل المشرف على نبع رأس العين وفي ارض مرتفعة متسعة عثروا فيها على قواعد اعمدة وآبار متصلة بقنوات ونواويس وقبور وفسيفساء وأسس جدران وكهوف، استخرجوا منها فيما قيل كثيراً من العاديات بعضها أواني وادوات نحاسية وبعضها حلي ذهبية، والمكان الثاني، اطلال حصن الاسكندرونة وهي في يمين طريق حلب في بستان كاتوني احد وجهاء هذه البلدة . وهذه الاطلال مؤلفة من سور واسع مثمن الاضلاع ومن ابراج متعددة ، وكان هذا الحصن مبنياً على شاطئ البحر قبل ابتعاده عنها بعداً يبلغ الكيلومتر في عهدنا . وما برح اهل الاسكندرونة يذكرون حلقات الحديد التي كانت في جدران الحصن لربط السفن ، وقد زعم أثري الماني ان هذا الحصن من بناء البنادقة وفي ظني انه الحصن الذي بنته زبيدة زوجة هارون الرشيد وجدد في خلافة ابنه الواثق على

ما نقلته عن ابي الفداء . وهواء الاسكندرونة وبيل لوفرة المستنقعات بها . وسبب وجود المستنقعات ان البحر كان يصل الى الحصن الذي قدمنا ذكره . ثم لما جزر عنه شيئاً فشيئاً من وفرة الزمال التي كان يلفظها على ساحله والطمي الذي كانت تأتي به السيول المتساقطة من الجبال المحيطة بالاسكندرونة سدت المجاري النافذة الى البحر واستغدرت المياه وراءه في الارض التي بقيت في منسوبه أو أدنى ، واذا هطلت الأمطار في الشتاء ، ومعدلها السنوي كما قلنا عظيم في هذه البقعة ، فاضت على تلك الغدران وصارت مستنقعاً عظيماً تتصاعد منه الابخرة الفاسدة ويتولد على طحلبه اسراب البعوض علة الوبالة . وكانت هذه المستنقعات تحيط بالاسكندرونة وتتخلل احياءها وازقتها وتجعل هواءها وبيلاً والاقامة فيها خطرة . دام هذا الحال الى اوائل القرن الهجري الحاضر لما مدت الحكومة العثمانية سكة حديدية صغيرة كانت تنقل بها التراب من الأكمة المشرفة على رأس العين وتطم بها تلك المستنقعات ، وظلت العناية بالطم قائمة الى الآن ، وفتحت من عهد قريب في شرقي البلدة قناة مشيدة بالاسمنت تجرف السيول التي ذكرناها الى البحر حتى زال كثير من المستنقعات وحسن المناخ عما قبل وما برح .

ولواء الاسكندرونة يتألف من ثلاثة اقضية ، الاسكندرونة وقرق خان وانطاكية ، لكل منها نواح عديدة سيأتي ذكرها . وفيه شعوب مختلفة المذاهب والمشارب ، منها الترك والتركمان الذين يؤلفون ٣٥ — ٤٠ في المئة من مجموع سكان هذا اللواء البالغ زهاء ١٥٤ الفاً ، وفيه العرب النصيرية والنصارى ، وفيه الأرمن والشركس والكرد والسريان والكلدان واليهود . وهذا اللواء يتبع دولة الشام التي عاصمتها دمشق ، لكن له ادارة خاصة ، فماليته ومعارفه وزراعته واشغاله العامة مستقلة . واللغات الرسمية فيه العربية والتركية والافرنسية ، ناهيك عن الأرمنية والرومية والكردية والشركسية التي تسمعها كثيراً في اسواق مدنه ومنعطفات قراه .

ويقطن النصيرية في الاسكندرونة والساحل الممتد منها الى بليدة عرسوش ، وفي نفس انطاكية والجبال والأودية الممتدة منها غرباً نحو ميناء السويدية ،

ويقطن الارمن في جبل موسى واعضاده الممتدة حتى ساحل البحر وفي ناحية كسب وفي بليدة قرق خان وبعض المستعمرات التي انشئت لاجلهم في قضائه ، ويقطن الشركس في قرى حران والريحانية وعم « يني شهر » وبدركة من سهل العمق ، ويقطن الترك والتركمان في جبل اللكام واعضاده الممتدة شمالي الاسكندرونة وشرقها وفي بعض سهل العمق وجبل القصير وفي الجبل الاحمر واعضاده الممتدة الى جنوبي عرسوس وكسريك . ويقطن الكرد في حرة اللجة شمالي السهل المذكور .

السفر من الاسكندرونة الى حلب . — يمكن ان يذهب السائح من الاسكندرونة الى حلب في عدة طرق ، اولها في السكة الحديدية التي تقدم ذكرها في بحث كيليكية ، وهذه الطريق معوجة طويلة (٢٧٥ كيلومتراً) وشاقة ، لأن معظمها يجتاز البلاد التركية من المحطات التي مر ذكرها في بحث كيليكية في الصحيفة ٤٤ وثمة انتقال من قطار الى قطار في محطة طوبراق قلعة . فالاحسن منها ركوب السيارات . ٢ً — طريق السيارات الحديثة (طولها ١٤٧ كيلومتراً) وهذه معبدة احسن تعبيد ومعتنى بها ، تمر بمضيق بيلان وسهل العمق وجبل باريشا وسهل الحلقة وسهول حلب الغربية . ٣ً — طريق المركبات القديمة (طولها ١٧٢ كيلومتراً) وهذه ايضاً معبدة ، وهي تسير في الطريق الاولى الى ما بعد سهل العمق ، ثم تظل سائرة نحو الشرق الشمالي فتمر بجسر عفرين وشمالي جبل سمعان وسهول حلب الشمالية . هذا ويتفرع من الطريق الثانية عند طوب بوغاز طريق تذهب نحو (انطاكية) طولها ٣٠ كيلومتراً ويتفرع منها ايضاً في شرقي العمق الطريق التي يسير فيها القادمون من حلب الى انطاكية (طولها ٤١ كيلومتراً) . وسنصف الطريق الحديثة والقديمة وما ينشط منهما ثم نعود لخطة جولتنا الذاهبة نحو انطاكية وما بعدها .

وصف طريق الاسكندرونة طوب بوغاز (٢٧ كيلومترا)

هذه الطريق معبدة ومعتنى بها ، وهي من انزه الطرق واجملها . يغادر السائح مستوى البحر في الاسكندرونة حيث الحرارة والرطوبة شديدتا الوطأة ، فيمر

من امام رأس العين ، وعلى قيد غلوة منه الى اليسار المكان الذي يظن انه كانت فيه مدينة ميرياندروس ، ثم يشرع بتساق اعضاد جبل اللكام ، وكلما اعتلى يجد الهواء العليل والمشهد النضر ، وفي الك١٠ (١) يرى على يمينه الطريق الصاعدة الى قرية صوغوق اولوق ، علوها ١٠٠٠ متر وسكانها ارمن ، وفي غربيها قرية النار كيزلك علوها ٥٠٠ متر وسكانها ترك ، ويقصد اهل الاسكندرونة وحلب هاتين القريتين للاصطياف حيث يجدون المناخ الطيب والمنظر الجميل والحراج الغضراء والفواكه الطيبة والفنادق الجميلة ، ناهيك عن زرقة البحر ومرآه الرائع . وفي الك١١ مفترق الطريق الصاعدة الى قرية عاتق الارمنية ، علوها ١٠٠٠ متر ، وهي وان لم تضارع جارتها بالحراج والفنادق ، لكنها تفوقها بالينابيع الباردة وجمال المناظر في الصرود الشاهقة بقربها كثنية كوزبل (٢) (١٦٠٠ متراً) وقة شاكشاك (١٨٣٥ متراً) وفيهما مشاهد تأخذ بمجامع القلوب . فالواقف اذا تطلع الى الشرق يرى آكام جبل اللكام تنحدر امامه نحو سهل العمق ومستنقعاته وبحيرة انطاكية الزرقاء وما في شرقهما من الجبال والهضاب كجبل الأعلى وجبل باريشا وجبل سمعان وجبل الكرد وغيرها الممتدة في الافق البعيد حتى سهول حلب الغربية ، واذا تطلع نحو الشمال يرى قمماً في جبل اللكام تناطح السحاب كألما طاغ (١٨٣٥ متراً) ودازطاغ (١٧٠٧ امتار) وآق قيا (٢٥٠٠ متر) ومغبر (٢٢٦٧ متراً) ، ويرى بينها نجاداً ومرابع متسعة انتشرت فيها ألوف من قطعان الغنم والماعز ترعى الاعشاب والانجم الغضة ، ويرى في الغرب سلسلة جبال طوروس التي تنفصل عن آمانوس بسهول كيليكية الفسيحة ، ويرى خليج الاسكندرونة وما في شاطئه من الموانئ كسيس وبياس ومبانيها وحدائقها ، ويرى البحر الخضم وقد سترت الغيوم البيضاء زرقته فزادت في روعة المشهد .

---

(١) اختصرنا كلمة الكيلومتر بالك لكثرة تكرره في كتابنا . (٢) قال ياقوت : الثنية كل عقبة في الجبل مسلوكة .



بيلان

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ٥٩)

وهذا ما حمل ياقوت في معجم البلدان ان يذكر جبل اللكام قائلا : هو الجبل المشرف على انطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور اه .

بيلان . - هذا وفي (الك ١٣) يصل السائح الى بيلان . وهي بليدة جميلة المنظر، طيبة الهواء ، غزيرة المياه ، علوها ٥٠٠ متر ، يشطرها الوادي السحيق الفاصل ما بين جبل اللكام وجبل الاحمر الى شطرين بنيت دورها في سفحي الوادي بعضها فوق بعض ، سكانها ثلاثة آلاف ثلثاها من الترك والثلث من الارمن ، ولغة الجميع التركية . لم يذكر جغرافيو العرب بيلان اذ لم تكن عامرة في زمنهم وربما هي التي كانت تدعى باب اسكندرون . قال ابو الفداء : باب اسكندرون في زماننا هو دربند بلاد سيس من جهة حلب وهو على دون مرحلة من بغراس، وليس هناك مدينة بالاصالة ولا قرية وبين بغراس وباب اسكندرونة اثنا عشر ميلا اه. قلت والعمران كان منحصراً بقلعة بغراس ، اما الدربند اوالباب الذي كان يدعوه الافرنج باب سورية Pylea Syriae ومنه مرت في العصور الغابرة اكثر جيوش الفاتحين الواردين على الشام اوالخارجين منه ، فقد كان يبتدئ في الغرب من قرب الاسكندرونة من قرية اسمها اشقر بكلي ويجتاز الموضع المعروف باسم عاتق بويني « رقبة عاتق » . وكان هذا الطريق المهجور مرصوفاً بالحجارة الضخمة التي لا تزال ماثلة للعيان شأن الارصفة الرومانية المنتشرة في كثير من مسالك الشام والاناضول، وكان فيه في موقع يدعى يوقاري كديك « المضيق الأعلى » باب في سد عظيم خراب عرضه عشرة اذرع يظن انه هو الذي ذكره جغرافيو العرب باسم باب اسكندرون وذكره الأفرنج باسم باب سورية . ويظهر ان هذا الطريق تشعث بعد حين وصار وعراً يقاسي فيه المسافر مشقات زائدة لاسيما عند وصوله الى قرية جقاللي . وكانت بيلان في تلك العصور خالية من السكان مكسوة ارضها بالغابات يلجأ اليها قطاع الطريق ويتعرضون لابناء السبيل وينهبونهم . فبلغ خبرهم السلطان سليمان القانوني العثماني وذكر له مكانة موقع بيلان

من ناحيتي سوق الجيش والتجارة ، فأمر ان يحول الممر اليها وان يعمر فيها بليدة يسكنها سرية من حراس الجبال ويبنى جامع وخان وحمام ورباط ، فسكنها التركمان من ذلك الحين ، وما زال هؤلاء يزدادون وبيلان تتقدم في العمران وصارت ممر القوافل والجيوش ، وصار اهل الاسكندرونة يلجأون اليها في الصيف للتمتع بهوائها ومائها اللذين نوه سائحنا اوليا جلبي بجودتهما وبحسن اثمارها واعنابها اللذيذة . وما برحت بيلان في عهد بني عثمان مركزاً للقضاء الى ان وفدت في سنة ١٣٤٠ هـ وما بعدها جموع الارمن على اثر اخراجهم من بلاد الترك ، فأسكنت الحكومة الافرنسية طائفة منهم في منزل (قرقخان) ثم نقلت مركز القضاء اليه سنة ١٣٤٢ هـ وتركت بيلان قاعدة لناحية فأفل نجمها من ذلك الحين .

واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

واما الجبل الذي في جنوبي بيلان فيعرف هنا بقزل طاغ اي الجبل الاحمر ويعده البعض تتمة سلسلة آمانوس ويحسبه آخرون مستقلا عنه بمضيق بيلان . وهذا الجبل واعضاده الغربية الممتدة الى ميناء عرسوز ورأس الخنزير قد اشتهر مثل جبل اللكام بما في منحدراته وقممه من حراج الشجر الغضيض والمرابع الخضراء والمشاهد الجميلة والينابيع السارية مع شيء من الضباب الذي يخفف وطأة الحر في الصيف . واكثر حراجه مؤلفة من الصنوبر الحلبي والصنوبر الاسود والبطم والبلوط والقطلب والشوح والجوز وغيرها ، ويستخرج القطران من اشجار الصنوبر بكثرة ، وفي هضابه المرتفعة آثار معادن مختلفة لم تستثمر بعد . ويقطن النصيرية في السهول الساحلية المصاقبة لسفوحه الغربية بين الاسكندرونة وعرسوز ، واشهر قراهم قره آغاج وهم فلاحون ، ويقيم التركمان في النجود والهضاب لا سيما حول غابات كسريك وقره كوز وجنكان وبش اولوق ومهنتهم قطع الحطب وصنع القطران ، وهم على الفطرة وصدق المعاملة ، ويقطن الارمن في جبل موسى غربي انطاكية الى الشمال وهو من اعضاد الجبل الاحمر

ويربون دود الحرير ويصنعون الامشاط من خشب البقس وغيره .

وبعد مغادرة بيلان يظل السائح صاعداً في مضيق بيلان او دربند بغراس الى منتهاه في الك ٢٦ حيث العلو ٧٠٠ متر ، فيشرف من هذه الروابي النضرة على منظر غاية في الروعة والبهاء ، فهو يرى في الشرق سهل العمق ومستنقعاته وبحيرته والجبال والآكام المحيطة به ، فيحلق في سماء التفكير ويتذكر كيف مرت من هنا جحافل الآشوريين والفرس والمقدونيين والرومانيين والبيزنطيين والمسلمين الاولين بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي ومن بعدهم غزاة الصائفة من الامويين والعباسيين والحملة الصليبية الاولى وجيوش المماليك والتركمان والتتر وابراهيم باشا المصري الذي كسر فيه سنة ١٢٤٨ الجيش العثماني بقيادة السردار حسين باشا عقب معركة هائلة جرت في هذه الروابي والهضاب ، ويتذكر كيف وقف فيه القيصر البيزنطي هرقليوس المفجوع بانتصار العرب على جيوشه وبخسرانه سورية كلها وقال مودعاً : سلام عليك ياسورية سلام مودع لا يرجو ان يرجع اليك ابداً ، وقال ايضاً : ويحك ارضاً ما انفعك لعدوك لكثرة ما فيك من العشب والخصب ، ثم مضى الى القسطنطينية . وبعد المضيق يبـــدأ الطريق بالانحدار ، ففي الك ٢٦ موقع جقاللي ، وفيه مخفر للدرك يؤمنون السابلة في هذه المسالك المخوفة ، وهنا يلمح السائح على يمينه (قلعة بغراس) رابضة فوق رابية تشرف على هـــذا الطريق . وفي الك ٢٧ ضويعة تدعى طوب بوغاز واقعة في سفح الجبل واول سهل العمق ، وفيها مفرق الطريق الذاهبـــة جنوباً نحو انطاكية .

قال ابو الفداء : بغراس من جند قنسرين ذات قلعة مرتفعة ولها اعين وواد وبساتين . قال ابن حوقل : وبغراس على طريق الثغور وكان بهـــا دار ضيافة لزبيدة وهي في الجبل المطل على عمق حارم . وفي معجم البلدان لياقوت : بغراس مدينة في لحف جبل اللكام بينهما وبين انطاكية اربعة فراسخ ذكرها البحتري في شعر مدح به احمد بن طولون الذي حاصر سيما الطويل التركي صاحب انطاكية

في سنة ٢٦٤ وجرت بينهما حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم . قال البحتري :

سيوف لها في كل دار غداً ردى   وخيل لها في كل دار غداً نهب
علت فوق بغراس فضاقت بما جنت   صدور رجال حين ضاق بها درب

كانت تدعى هذه القلعة في زمن الروم حصن لوقا وهي في يومنا خراب في الجملة على ان اطلالها لا تزال ماثلة ، وهي كبيرة كانت تسع زهاء الفي جندي ، وكان لها سوران وكنيسة وبهو كبير واربع طبقات من القاعات المعقودة سقوفها وكثير من المستودعات والاصطبلات والغرف والآبار ، وكان لهـا قناطر علوها ثمانية عشر متراً تأتي بالماء من الجبال الى القلعة ، والبناء الحالي اسلامي يتخلله بعض آثار للروم وللصليبيين . قال الكولونل جاكو مؤلف كتاب انطاكية ماخلاصته : ان لقلعة بغراس مآسي مفجعة في تاريخ المسلمين ، منها ان الروم لما جاؤا بقيادة القيصر نيكوفورفوكاس في سنة ٣٥٨ هـ وغزوا بلاد الشام حتى حمص وعرقا وطرابلس وجميع الساحل واعملوا فيهـا النهب والحرق والخراب عادوا ومعهم من سبايا المسلمين مئة الف صبي وصبية ، ولما ساقوا هؤلاء المساكين امامهم ليأخذوهم الى القسطنطينية اشتدت انواء الشتاء وسدت المسالك في جبال آمانوس وطوروس فاضطروا للوقوف بهم في قلعة بغراس . ولما لم تكن الاقوات ووسائل الايواء والتدفئة كافية فنى معظمهم بالجوع والبرد والامراض وقبروا في سهول العمق ثم سيق من بقي منهم الى القسطنطينية اهـ . قلت وبعد ثلاث سنوات تمكن الروم من فتح انطاكية بخيانة اهل بغراس الذين بعد ان التجؤا الى انطاكية نقبوا الاسوار ومكنوهم من الدخول . وحينما جاء الصليبيون في الحملة الاولى اخذوا بغراس فيما اخذوه من بلاد الشام الشـمالية وجعلوها مع قلعة دربساك وحارم وارتاح في جملة الحصون المكلفة بالدفاع عن انطاكية الى ان جاء السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ فحاصر بغراس ودربسـاك وقاتلهما بشدة حتى افتتحهما بالامان ، واخرب بغراس ، لكن الداوية أي الفرسان الهيكليين رجعوا



قلعة بغراس

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ٦٢)

اليها بعد حين وعمروها الى ان جاءهم سنة ٦٣٥ عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم الملك العزيز حفيد صلاح الدين بن ايوب فحاصروا بغراس واشرفوا على اخذها ، ثم رجعوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب انطاكية ، وبعد بضعة اعوام جاء ملك الارمن ابن لاون فدخل بغراس ودربساك وظلا بيده تارة وبيد الفرسان الهيكليين أخرى الى ان استولى الملك الظاهر بيبرس عليها نهائياً سنة ٦٦٧ عقيب فتحه انطاكية عنوة . وقد مر ابن بطوطة سنة ٧٢٥ ببغراس فقال : حصن بغراس حصن منيع لا يرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الى بلاد سيس وهي بلاد الأرمن . وامير هذا الحصن صارم الدين ابن الشيباني وقد لقيت هذا الامير ومعه قاضي بغراس بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية وتيزين وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته اهـ . وقال شيخ الربوة شمس الدين محمد الدمشقي المتوفي سنة ٧٢٧ في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر : ومن الثغور الساحلية الجبلية دركوش ودربساك وبغراس وحجر شغلان والاسكندرونة وقصير انطاكية ويغرا ولها بحيرة حلوة من النهر الاسود بينها وبين بغراس اه . هذا ولم يبق من القرية في اسفل القلعة من العمران الذي ذكره اوليا جلبي سوى ثلاثون أو اربعون داراً منتشرة على طول الوادي ، والعيون والبساتين التي ذكرها ابو الفداء وابن بطوطة يسكنها فلاحون من النصيرية والتركمان .

طريق حلب بعد طوب بوغاز

بعد مغادرة طوب بوغاز يلمح السائر على يمينه عن بعد قرية صوغوق صو الارمنية المظللة باشجار الدلب وفيها اطلال ومدافن قديمة . ثم يعلو مرتفعات تفصل بين نهري كوزبل وقرق خان المنصبين على العمق . ثم يدخل وادي قرق خان الطويل الظليل الغزير المياه والارحاء والبساتين والكروم ، ثم يصل في الك ٣٩ الى قرق خان « الخان المكسور » او « الاربعون خان » .

وقرق خان قرية على سيف العمق الغربي الشمالي ادركتها سنة ١٣١٨ هـ في طريقي من كلس الى الاسكندرونة حين لم يكن فيها سوى خان كبير تنزله قوافل المسافرين وعدد يسير من الدور والاكواخ الحقيرة التي شـــادها عامئذ مهاجرو جزيرة كريد المسلمين . وقد هلك بعد هؤلاء المساكين من وبال المرتع في جوار آجام العمق ولم يبق منهم الا القليل . ومررت سنة ١٣٤٣ بقرق خان فوجدتهـــا قد صارت بليدة حافلة بالدور والحوانيت المبنية من اللبن والقصب والفنادق والمقاهي المبنية من الحجر وغيرها ، اصطفت هذه المنشآت حول الطريق العام الذاهب الى حلب ، لا تسمع فيها سوى اللغتين التركية والارمنية ، وندر ان تطرق آذانك كلمة عربية ، لان نحو نصف قطانها البالغين ٥٠٠ هم من الارمن الذين جلوا من كيليكية ومرعش ، والبقية اخلاط من تركمان واكراد . وفي قرق خان دار حديثة لحكومة القضاء وجامع وثلاث كنائس واربع مدارس وسبل عديدة ذات مياه عذبة ، لكن هواءها ما برح رديئاً ، وحمى البرداء سائدة وحر الصيف ورطوبته شديدا الوطأة . وفي قضاء قرق خان ، اربع نواح هي ، قرق خان « وادي نهر الاسود الاسفل » وحاجيلر « وادي نهر الاسود الأعلى » وبيلان « الجبـــل الاحمر » وريحانية « سهل العمق » . ويقطن التركمان والكرد في النواحي الثلاث الاولى ويكثر سواد العرب في ناحية الريحـــانية ، وهؤلاء العرب مزارعون لدى سراة التركمان المنتسبين لآل مرسل الملقبين بالاغوات ، وثمة بضع مئات من مهاجري الشركس جاءوا منذ نصف قرن ، ومثلهم مهاجروا الارمن الذين اختطت لهم السلطة الافرنسية في شرق العمق مستعمرات في سنة ١٣٤٧ سيأتي ذكرها .

وصف سهل العمق — حدود سهل العمق تبدأ في الغرب من قرى طوب بوغاز فقرقخان فالحمام فالريحانية فيني شهر فوزوازة فجسر الحديد فعلاء الدين فالآخان فبغلامة فبغراس فشمبيك . تبلغ مساحته ١٦٠٠٠٠ هكتار منها ٣٠٠٠٠ مما لا يمكن استغلاله يدخل فيه ٢٢٠٠ للمستنقعات و٩ـــ١٠ آلاف لبحيرة انطاكية .



قوارب الصيادين في العمق

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ٦٥)



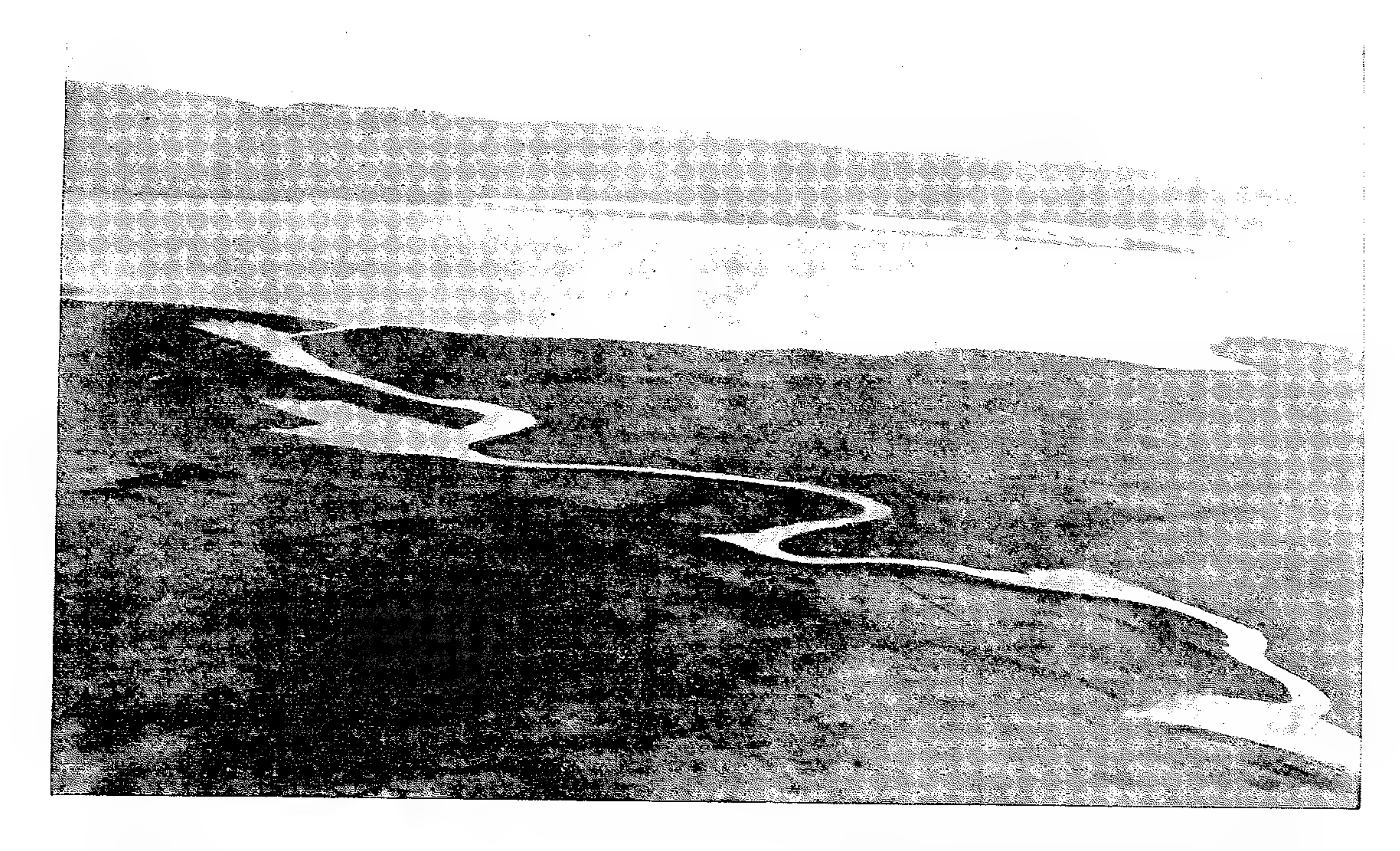
قطعان الجواميس في العمق

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ٦٥)

ويصب في هذا السهل ثلاثة انهر تأتيه من جبال عينتاب والكرد وجبل اللكام وهى عفرين ويغرا والنهر الاسود ، وثمة انهار صغيرة تنبجس عيونها في الشرق من الجبل الاعلى كنهر ارتاح ونهر عم ونهر حارم وغيرها . قال القلقشندي في صبح الاعشى ج٤ ص ٨٤ : بحيرة انطاكية ، وهي بحيرة بين انطاكية وبغراس وحارم في ارض تعرف بالعمق من معاملة حلب شمالي انطاكية على مسيرة يومين من حلب في جهة الغرب عنها . وفيهـا مصب نهر عفرين والنهر الاسود ونهر يغرا ودورها نحو مسيرة يوم ، وآجام القصب محيطة بها ، وفيها من الطير والسمك نحو ما تقدم ذكره في بحيرة آفامية اه . قلت هذه البحيرة مثلثة الشكل ، طولها من الشرق الى الغرب نحو اربعة عشر كيلومتراً ومن الشمال الى الجنوب عشرة كيلومترات ونصف ، وسبب وجود هذه البحيرة عسرة خروج مياهها من مخرجها الذاهب الى العاصي حيث الميل لا يزيد في الكيلومتر عن عشرة سانتيمترات . وهذا المخرج ضيق يمتد من الشمال الى الجنوب ويجري ماؤه متثاقلا ببطء زائد وهو يلتوي كالافعى الى ان يلاقي العاصي، وماءه اصفر اللون لزج مملوء بالحنكليس الذي يصطاد بكثرة ويملح ويصدر الى البلاد . وجل صخور العمق طبـاشيرية واراضيه طينية كلسية الا في قليل من المواضع تكون صلصالية ، والصخور حرية « بازلتية » ، وكمية امطاره لا تزيد في السنة على الخمسمائة ميليمتر وهواؤه وبيل ، ووطأة الحر فيه أشد منها في الساحل وتفوح من مستنقعاته رائحة تعافها الانفس تنشأ من تفسخ نباتات الآجام ، وتنتشر فيه سحب قائمة من اسراب البعوض هي علة الوبالة « حمى البرداء » التي تفتك في اهله . وسبب وجود هذه المستنقعـات كون ماء البحيرة لا يندفع بسهولة في المجرى الخارج منها الى العاصي ، وثمة سكور اقامها البعض لاصطياد السمك لا سيما الحنكليس والسلور يدعونها داليان هي ايضاً من العثرات الواقفة في وجه الماء . وهذه السكور التي اغرقت قرى وعطلت ارضين كثيرة اقامها في عهد السلطان عبد الحميد العثماني احد اقارب وزرائه واستدر منها ريعاً عظيما ، ثم جاء في سني الحرب العامة قائد تركـي فنسفهـا بالديناميت

وخربها ، ثم بعد الاحتلال الافرنسي اعادها بعض ذوي الجشع واعاد بذلك الاضرار التي كانت تحدث من جراءها ، وما برح النضال مستمراً بين من يروم بقاءها أو زوالها . ويقال ان مستنقعات العمق كانت قديماً اقل سعة مما هي عليه الآن ، ويعزى ازديادها الى الفتك بحراج جبل اللكام مما ادى الى انهيار التربة من سفحه وسيرها مدفوعة بالسيول الجارفة نحو السهل فرسبت في طريق انهره الثلاثة وتبسطت ولم يبق ثمة انحدار كاف لجريان الماء بسهولة فحدثت المستنقعات ، وما زالت تكثر بمرور الاعصر والاستمرار على تجريد الجبال من اشجارها حتى بلغت سعتها الحاضرة . ولو تسنى تجفيفها لطاب المناخ وامكن استغلال هذه المساحة الشاسعة بمختلف الزروع كالقطن وقصب السكر والأرز وغيرها . ويرى العارفون ان التجفيف يكون بازالة السكور التي تقدم ذكرها ، وبكري قاع البحيرة ومجرى العاصي حتى انطاكية وتعميقها ليسهل جريان الماء ، وبفتح اخاديد واسعة تحصر فيها مياه الأنهر الثلاثة وغيرها من الينابيع الواردة الى العمق لتسيل فيها كما ينبغي .

تاريخ العمق . — لا يزال وسط العمق تلال بارزة كانت فيما مضى قرى عامرة ، كما ان في وسط بحيرة انطاكية برجاً يسميه الصيادون المأذنة مما يدل على ما كان عليه هذا السهل الافيح من العمران ايام كان مملكة العنقي unqui الآشورية او Amykion Pédon اليونانية . وللعمق ومستنقعاته ذكريات عديدة في تاريخ أمم الشرق والغرب التي استولت أو جاءت تستولي على انطاكية عاصمة شمالي الشام وعروس مدنها في العصور القديمة . فالآشوريون والحثيون والفرس واليونان والرومان والمسلمون والصليبيون والمصريون بقيادة ابراهيم باشا مروا من هذا السهل ذي المكانة الحربية الكبرى أو تطاحنوا فيه بمعارك دامية . عرفه من ملوك المسلمين ابن طولون في حروبه مع سيما الطويل صاحب انطاكية سنة ٢٦٤ كما ذكرناه في بحث بغراس ؛ ووصف المتنبي مجاري العمق



بحيرة انطاكية ومخرجها الذاهب الى العاصي

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ٦٦)

ووحوله في احدى قصائده يمدح بها سيف الدولة لما عزم على السفر من انطاكية الى حلب في ايام شديدة الامطار في سنة ٣٥٥ وكان أوقع في العمق بأهل انطاكية الذين عصوا عليه قال :

وما اخشى نبوّك عن طريق … وسيف الدولة الماضي الصقيل
وكل شواة غطريف تمنى … لسيرك ان مفرقها السبيل
ومثل (العمق) مملوء دماء … مشت بك في مجاريه الخيول
اذا اعتاد الفتى خوض المنايا … فاهون ما يمر به الوحول

وعرفه منجوتكين قائد جيش الفاطميين الذي أوقع بجيش نائب قيصر الروم في انطاكية وذلك في سنة ٣٨٤ وتعرف بوقعة المخاضة . وحصلت فيه سنة ٤٧٨ بين آخر امير عربي في شمالي الشام شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي وسليمان ابن قتلمش السلجوقي صاحب قونية وآقسراي الذي استخلص انطاكية من يد الروم سنة ٤٧٧ وملكها . وكان مسلم باغياً فدارت الدائرة عليه في المصاف الذي جرى في العمق وقتل وانتهت به آخر أمارة للعرب وتولاها الترك من حينها . وحصلت في العمق بين نورالدين محمود زنكي وصيلبي انطاكية حروب كثيرة اخصها المصافين اللذين حدثا في سنة ٥٤٣ في ارض يغرا فانكسر نورالدين في الاول ثم انكسر الأفرنج في الثاني ، هذا عدا عما جرى له حول قلاع حارم وارتاح وعم وعما جرى لصلاح الدين الايوبي وللظاهر بيبرس حول انطاكية ودربساك وبغراس وكلها من قلاع العمق المخصصة لحفظ انطاكية .

وفي وسط سهل العمق وبين آجام القصب والأسل والحلفاء الباسقة فيه انتشرت مئات من الضياع الصغيرة ذات اسماء غريبة تركمانية في الغالب تشهد بما للتركمان النازلين فيه منذ القرن السابع الهجري من الأثر كباشا هيوك «جبل الباشا» وجقال تبه « تلة الثعلب » وبعضها عربية كسلام عليكم والذي . وقرى العمق لا يمكن الوصول الى معظمها في زمن الفيضان الا بقوارب رفيعة خاصة ، وبيوتها

اخصاص من القصب المطلي بخثى البقر الجاف مكتظ بعضها ببعض بين الاوحال والادغال ، واهلها وجلهم من المزارعين العرب وبعضهم من التركمان صفر الوجوه هزلي من وبال المرتع ، لكنهم مرزوقون في الجملة ، فهم يقلعون عرق السوس الذي ينبت بكثرة ويستدرون البان الجواميس ويصطادون طيور الماء واسماكه ويبقى لهم قدر غير يسير من الغلال بعد اقتطاع ما يصيب ملاكي القرى الذين تقدم ذكرهم ، وبين هؤلاء طبيب ارمني حلبي طائل الثروة يستعمل الاساليب والآلات الزراعية الحديثة في اراضيه . والزروع الشتوية والصيفية في العمق تربو وتبسق كثيراً لزكاء تربته الرسوبية السوداء — وقد نوه بذلك ابن بطوطة — ، والعمق على علاته ما برح منذ القديم ملجأ المعوزين من سكان السهول والجبال الممتدة في شرقي حلب وجنوبها يفدون اليه افواجاً افواجاً في السنين التي يصيبهم المحل فيها كما جرى في سني ١٣٥١ و ١٣٥٢ و ١٣٥٣هـ ، فيؤجرون من العمل في مزارعه الخصبة ويقتاتون ويمتارون بفضلات حصائده واعشابه ثم يرجعون .

وفي ضياع العمق غير الفلاحين العرب المذكورين قليل من صعاليك الاعراب النصف رحل ، يتنقلون بمضاربهم ويحترفون رعي الماشية بالاشتراك مع اصحابها وهم ينتسبون لقبائل وبطون شتى منازلها الاصلية في اعمال حلب الشرقية والجنوبية كالعقيدات والقبيعات والبقارة والابوشعبان والجنيدات والحسينات والجادمة والابوخميس وبني سعيد وابوجابر وابوسلطان وغيرهم ممن كثرت اسماؤهم وتشتتت انسابهم .

وفي شمالي قرق خان على بعد خمسة كيلومترات منها في الطريق الذاهبة الى ناحية حاجيلر في وادي نهر الاسود الأعلى قرية تدعى آلاي بكلي تشرف عليها من على اطلال قلعة دربساك التي تقدم ذكرها في حديث قلعة بغراس . ودربساك مبنية فوق اكمة صخرية قائمة اللون منفصلة عن الجبل المجاور لها لا تتصل به الا بجسر ما برح واقفاً . وقد كانت هذه القلعة تحرس طريق حلب ومضيق بيلان وتحرس

ايضاً الثنية أي الطريق الجبلية الذاهبة الى خليج الاسكندرونة مباشرة من وسط مضائق آشميشك وآيلان يايلاسي وحجر شغلان . ومن هذه الثنية مرفيها قيل الملك الظاهر بيبرس حينما غزا بلاد سيس . قال ابو الفداء في تقويم البلدان : دربساك من جند قنسرين ، ذات قلعة مرتفعة ولها أعين وبساتين وهي خصبة ولها مسجد جامع ومنبر ولها من شرقيها مروج متسعة حسنة كثيرة العشب يمر فيها النهر الاسود وهي عن بغراس في الشمال بميلة الى الشرق وبينهما نحو عشرة اميال ، وفي شرقي دربساك يغرا وهي قرية اهلها نصاري صيادون يصيدون السمك وهي على بعض مرحلة من دربساك ، والطريق من الشام الى دربساك وبغراس على يغرا المذكورة اه . قلت ويظن ان يغرا هي الآن قرية قالا التي اختص اهلها بصيد السلور في بحيرة يغرا والتي تدعى الآن كول باشي وهي الى الشمال من جسر مراد باشا الذي سيأتي ذكره في بحث طريق حلب . وقد ذكر ياقوت بحيرة يغرا في مادة عين السلور ، قال : وهو السمك الجري بلغة اهل الشام . قال البلاذري ، وكانت عين السلور وبحيرتها لمسلمة بن عبدالملك ويقال لبحيرتها بحيرة يغرا وهي قرب انطاكية وانما سميت عين السلور لكثرة هذا النوع الذي بها من السمك اه . وفي قرية آلاي بكلي المذكورة مسجد قديم فيه ضريح او مقام لولي اسمه ابايزيد البسطامي يزوره الاهلون في هذه الرباع (١) ، وكان هذا المسجد اشرف على الدثور فرممه سنة ١٣٠٨ﻫ صاحب خير من سراة تركمان العمق . وفي شمالي قرية آلاي بكلي قرية اخرى تدعى كوندوزلي ذات مياه سارية وطواحين ، في قربها إكمة صخرية من اعضاد جبل اللكام تشرف على وادي نهر الاسود وعلى حرة اللجة [٢] ، حفر الاقدمون فيها كهوفاً عظيمة بعضها يعلو بعضاً تحتوي على قبو ونواويس ، وعلى ابواب هذه الكهوف كتابات يونانية وافاريز بارزة راكبة

---

(١) لهذا الولي الفارسي ضريحان آخران احدهما في الرستن قرب حمص والثاني في قرحتا قرب دمشق وسيأتي ذكرهما (٢) الحرة في اللغة ارض ذات حجارة سود نخرة كأنها احرقت والجمع الحرات ، كحرة اللجة في شمالي العمق وحرة اللجا في شرقي حوران

على اعمدة ذات تيجان وكلها منحوت في صخر الاكمة غير منفصل عنه . وفوق هذه الكهوف تماثيل منحوتة في الصخر ايضاً يتعذر الوصول اليها لعلوها تمثل خمسة اشخاص واقفين ، وفي الجبل المناوح للكهوف المذكورة خرائب كوندوزلى المشهورة وهي اطلال بلدة خربة فيهـا شوارع مرصوفة واسس دور متهدمة واعمدة متكسرة ونواويس واجران ماء وتماثيل وغيرها من الآثار .

وبعد مغادرة قرق خان الواقعة في الك ١٠ عن طوب بوغـاز يرى السائر في الك ٤٢ ضيعة طرون على يسار الطريق ، ثم يجتاز في الك ٤٥ جسرين على نهر الاسود ، ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي فيجتاز في الك ٥٢ جسر مراد باشا وهو جسر قديم مستطيل مستقيم الظهر ذو سبع عشرة قنطرة ، شيد فوق نهر يغرا الذي يأتي من الشمال من بحيرة يغرا ويصب في الجنوب في بحيرة انطاكية . ثم يستأنف اجتيـاز سهل العمق الى ان يدخل في بقعة محصورة بين اكمتين فيرى السائر قرى قسطل الباشا ومتليك كوى وعين البيضاء . وفي الك ٦٤ ينحرف نحو اليمين فيترك على يساره طريق المركبات القديمة بين الاسكندرونة وحلب المارة من الحمام وقطما ، وفي الك ٧٤ عند قرية المشرفية يجتاز جسر عفرين وطوله ٤٥ متراً ثم يتجه نحو الجنوب على خط مستقيم الى ان يوافي في الك ٧٩ ارتاح التي كان فيها حصن عده ياقوت في معجمه من امنع الحصون في العواصم وله ذكر في تاريخ الحروب الصليبية ، وقد دثر هـذا الحصن ولم يبق من رسمه الا اسمه ، وصار في غربيه قرية تدعى ريحانية يسكنها الشركس مؤلفة من عدة احياء كارناح وافنير او الف نير . وفي جنوبي الريحانية في الك ٣٨ قرية اخرى يقطنها الشركس ايضاً اسمها يني شهر ، البلدة الحديثة ، وفي هاتين القريتين ينابيع سارية ورباع مروية خصبة يزرعون فيها انواع البقول التي تحصل باكراً وترسل الى حلب . واصل اسم يني شهر عم ، ولاتزال بركتها تعرف باسم بركة عم ، واسمها الروماني Imma . قال ياقوت : عم بكسر اوله وتشديد ثانيه قرية غناء ذات عيون جارية واشجار متدانية بين حلب وانطاكية وكل من بها نصارى ، وقد نسب اليها

قديماً قوم من اهل العلم والحديث . قال ابن بطلان في رسالته التي كتبها في سنة ٥٤٠ الى ابن الصابي : وخرجنا من حلب الى انطاكية فبتنا في بلدة الروم تعرف بعم فيها عيون جارية يصاد فيها السمك ويدور عليها رحى وفيها مشارير للخنازير ومباح النساء والزنا والخمور امرعظيم وفيها اربع كنائس وجامع يؤذن فيها سراً اه . قلت وكانت عم في العهدين اليوناني والروماني الخاصين بانطاكية تعد دفنة الثانية لكثرة ما كان فيها من الفنادق والقصور واماكن اللهو والفجور . وظلت مكانتها في هذا المضمار دائمة الى العهد البيزنطي الثاني الخاص بانطاكية حسبما ذكره ابن بطلان . وكان لعم ايضاً مكانة هامة من ناحية سوق الجيش ، لأنها حاكمة على رصيف باب الهوا ومضيق عين دلفة في طريق حلب وانطاكية وعلى الطريق الآتية من شمالي وادي عفرين والاناضول نحو انطاكية ايضاً . لهذا فقد حدثت فيها فيما مضى معارك هائلة ، منها المعركة التي جرت بين زنوبيا ملكة تدمر والقيصر اورلثانوس الروماني في سنة ٢٧٢ م وكانت الدائرة على جيش زنوبيا ، ومنها المعركة التي جرت بين منجوتكين قائد جيش الفاطميين وبين نائب قيصر الروم في انطاكية في سنة ٣٨٤ هـ دارت الدائرة على النائب وتعرف بوقعة المخاضة ، ومنها المعارك العديدة التي كانت تجري بين الصليبيين والمسلمين احرقها مرة نجم الدين ايلغازي ، وانتصر حولها مرة بودوين الثالث ، وتتابعت انتصارات نور الدين محمود لما استولى على حارم . وفي زلزلة سنة ٥٥٢ خرب حصن عم بالمرة وافل نجمها من ذلك الحين ، وما زالت خراباً تعرف باسم البركة الى ان وفد مهاجرو الشركس في غرة هذا القرن اليها والي حران والريحانية المجاورتين لها فلم يعد بوجود هذا الشعب الورع امكاناً لرجوع الحالات التي وصفها ابن بطلان قط .

وبعد ينى شهر « عم » بقليل مفترق الطريق الذاهب الى انطاكية والفرع الناشط منه نحو حارم وما وراءها (وسنعود لوصفها) . اما طريق حلب فتمتد بعد ينى شهر نحو الشرق وسط واد عريض فيلمح السائر على يمينه في لحف الجبل

قريتي حران العرب وحران الشركس . وبعد قليل يصادف التخم الفاصل بين لواء الاسكندرونة وولاية حلب . ثم في الك ٩٢ في سفح جبل باريشا عين دلفةوفيها مخفر لجنود الدرك وعين جارية تسيل في المنحدر الكائن على يمين الطريق وفي هذا المنحدر كثير من الاطلال الدارسة من العهد البيزنطي احدها طلل كنيسة عظيمة ، لا يزال بعض انقاض الحنايا وكثير من الاعمدة المكسرة الخاصة بها ظاهراً ، وعلى يسار الطريق واد جاف فوقه بناءان من احجار ضخمة راكب بعضها فوق بعض . ثم يتغلغل الطريق في مضيق دلفة الممتد بين آكام جبل باريشا ذي الصخور السنجابية ، ففي الك ٩٣ على اليمين وفوق الطريق بقليل مغارة كبيرة فيها نبع ، يزعمون ان زيارتها تنفع الامهات العاجزات عن الارضاع ، وفي الك ٩٤ على يسار المضيق منفرج بسيط فيه اطلال قصر البنات . ويظهر ان اصل هذا القصر دير كبير من القرن الخامس الميلادى لايواء حجاج بيت المقدس ، ولوقوعه في هذا المضيق المخوف كان محصناً . وهذا القصر مؤلف من مبان اجتمعت حول باحة كبيرة يشرف عليها برج ذو ست طبقات علوه اكثر من ثلاثين متراً . وفي كل طبقة غرفة كبيرة وغرفتان صغيرتان ، والنوافذ صغيرة ، ولا يزال في بعض الغرف آثار ملاط الكلس وعليه نقوش هندسية ملونة . وحول الباحة ثلاثة مباني كانت على ما يظهر دوراً للضيوف ، وورائها في لحف الجبل بناء طويل ربما كان صومعة الرهبان . وفي يمين الباحة كنيسة طولها ٢٦ متراً في ٢٠ منهدمة بالمرة ، يرى فيها احجار وتيجان اعمدة على احدها كتابة يونانية قرأ الاثريون فيها ان مهندس هذه الكنيسة اسمه كيريس ولعله مهندس كنائس قريتي بابسقا ودارقيطا في جبل باريشا التي سيأتي ذكرها .

وبعد قصر البنات بمائتي متر على يسار الطريق في أضيق مكان من المضيق نقر في الصخر من عمل الرومانيين ، ثم على حافة الطريق كتابتان زبرتا على الصخر الاولى تهنئة بظفر القيصر ماركوس اوروليوس والثانية بيان عن تخوم قريتين في هذه البقاع ، وفي الك ٩٧ برج المدخن ، وعلى يمين الطريق شعب في الجبل يوصل

القاصد الى خرائب جبل باريشا ، وهنا تظهر للسائر انقاض وخطوط الرصيف الروماني الذاهب من انطاكية الى قنسرين فحلب ، وفي الك ٩٩ باب الهوا المبني على تخطيط الرصيف الروماني وتحت قوس نصر كبير استند على ركيزتين كبيرتين . ولم يعرف تاريخ هذا البناء وسببه بعد ، وقبل الباب على اليمين اطلال كنيسة وعلى اليسار اطلال دار ضيافة مع حوض ماء منقور في الصخر ينزل اليه بدرج . والى اليمين من باب الهوا على مرتفع مخفر حديث لجنود الدرك ، وبعد باب الهوا يدخل الطريق سهل الحلقة الذي يحتوي على عدة قرى اعذاء اشتهرت بخصبها وجودة قطنها وهي سرمدا وتل عقبرين ودانا وديرحشان وترمانين وتل عدة وآطمة وعقربات وكفل دين وتيزين العتيقة ، وفي تيزين بيعة تاريخها سنة ٥٨٥م لا تزال الطبقة الاولى والجدار القبلي من واجهتها سالمة تشبه في تخطيطها بيعة دار قيطا ، وكانت تيزين تدعى تيزين العمق ايضاً لقربها منه وتمييزاً لها عن تيزين ثانية غربي حماه ، والى الاولى كانت تنسب الكورة . وفي الك ١٠٢ على اليمين يلمح السائر سرمدا كان لها ذكر في فتوحات احد فراعنة مصر تحوتمس الثالث ، وفي ايام الصليبيين كانت من مخافرهم الامامية . وفيها بناء كان مدفناً فيه عامودان كورنثيان مرتبطان فوق قاعدة مرتفعة جعلت امام باب ضريحين تحت الارض ، وتاريخ هذا البناء سنة ١٣٢ م . وفي الك ١٠٤ على يمين الطريق قرية تل عقبرين ، وكان للصليبيين فيها حصن ، ولا يزال يظهر في أعلى القرية بناء ذو طبقات مع نوافذ ذات أفاريز جميلة ، وفي جنوبها كنيسة جدارها الجنوبي منقور في الصخر . ومن تل عقبرين طريق لاحب (١) تصل الى دانا وترمانين ، ففي دانا مدافن كثيرة منقورة في الصخر ، في اعلاها بناء عجيب الشكل محمول على اربعة اعمدة كان يعلوه اهرام دثر معظمه الآن ، وقد قرأ الاثري دي فوكه في سنة ١٨٦٠م على

---

(١) عنيت باللاحب واللحب الطريق غير المعبدة الصالحة لمرور السيارات وهو ما يدعونه بالافرنسية Piste وبالطريق المعبدة ما يدعونه Chaussé وذلك ريثما تقر المجامع اللغوية العربية على كلمات تقابل هذه المصطلحات العصرية فندرج عليها .

احد أقواسه تاريخ ٣ آذار سنة ٣٢٤م. وفي ترمانين دور اثرية ومدافن تحت الارض لها ادراج ، وعلى بعد نصف ساعة في شمالي ترمانين ديرمانين القديم وهو بناء عظيم ربما كان دار ضيافة للمسافرين ، له طابقان وأمامه باحة مبلطة وحوضان للماء وفي جانبه كنيسة ذات اعمدة مندثرة بالكلية . قال ياقوت عن هذا الدير : وهو بين حلب وانطاكية مطل على بقعة تعرف بسرمد وهو دير حسن كبير الا انه خراب وآثاره باقية اه. وفي الك ١٠٦ يلمح السائر على يسار الطريق الرصيف الروماني القديم وهو باق هنا على جدته رغم كر الدهور ، طوله نحو ١٢٠٠ متر ، مبلط باحجار ضخمة يبلغ طول بعضها متران في ١,٢٠ ، وكانت هذه الاحجار قديماً منقورة لمنع انزلاج ارجل الدواب ، لكن هذا النقر زال بمرور الزمن واحدثت المياه في بعضها كنه حفراً عميقة . وعرض الرصيف ستة امتار وعلوه عن الارض نصف متر ، ولا يعلم العهد الذي بنى فيه هذا الرصيف العجيب الدال على همة الاقدمين القعساء ، لكنه من آثار الرومانيين دون ريب ، لانهم مدوا مثله كثيراً من الارصفة في مختلف البقاع التي سيأتي ذكرها في جولتنا ، وهو من القرن الثاني الميلادي الذي حدثت فيه اعظم غارات الرومانيين في شرقي بلاد الشام وبعد الرصيف بمسافة ينتهي سهل الحلقة ويدخل الطريق في واد بين آكام صخرية التي على اليمين من اعضاد جبل باريشا والتي على اليسار من اعضاد جبل سمعان . وبعد انتهاء هذا الوادي في الك ١١٠ على يمين الطريق قرية كفركرمين المحاطة باشجار الزيتون ، وفيها اطلال وآثار ، وهي اول قرية في حدود قضاء جبل سمعان . ثم تجتاز الطريق سهلا افيح في الك ١١٢ منه قرية الاثارب ، بنيت حول تل اصطناعي علوه خمسون متراً فوق قمته اطلال حصن قديم ، وجميع دورها قباب مخروطية الشكل ، وقد كانت الاثارب في العصور الغابرة ذات مكانة هامة من ناحية سوق الجيش لوقوعها في نقطة حاكمة على طريق انطاكية وحلب . وقد ورد اسمها في قائمة البلدان التي سطرت في عهد الاسرة الثامنة عشرة المصرية باسم Lirabou وذكرها الرومان باسم Litarba

ولا يزال فيها كثير من الانقاض والآثار القديمة . وفي عهد الصليبيين استولى عليها تانكرد وجعلها خلفاءه من حصونهم الامامية المخصصة لحراسة انطاكية من غارات المسلمين. وكان اول من استردها منهم نجم الدين ايلغازى في سنة ٥١٧ ثم استرجعها بودوين . وفي تاريخ ابن الاثير ان الافرنج بعد ان استلموا هذا الحصن اشتد ضرره على المسلمين حتى ان من كان به من الفرنج صاروا يقاسمون حلب على جميع اعمالها الغربية حتى على رحا لاهل حلب ، فلما رأى ذلك عماد الدين زنكي قصده ، فلما علم الفرنج بذلك خرجوا والتقوا به فانكسروا كسرة شنيعة وتسلم المسلمون الحصن واخربه عماد الدين وجعله دكاً . وفي الك ١٢٠ اورم الصغرى ، ضيعة فيها مخفر للدرك وتخم عليه كتـــابة تدل على افتراق الطريق من هنا نحو اللاذقية عن طريق ادلب ، ونحو حماة عن طريق سراقب والمعرة ، ونحو انطاكية والاسكندرونة عن طريق دلفـــة وبني شهر . وفي الك ١٢٥ اورم الكبرى ، وهذه القرية على نشز مشرف على ما حوله من سهول حلب الغربيـــة الشـاسعة الاعذاء الحمراء التربة الممتدة جنوباً نحو مطخ قنسرين ، وكل الاراضي المجاورة لأورم الكبرى تحتوي على آثار قديمة منقورة في الصخر ، وفي شرقيها بناء قديم عال مستطيل الشكل مشيد باحجار ضخمة منحوتة يظهر انه مدفن على شكل برج وقيل ان فيه مزار النبي شمعون . وفي الك ١٣٨ خان العسل ، قرية وسط واد ، وفيها على يسـار الطريق قرب العين اطلال خان عربي قديم وعلى بابه كتابة . وفي هذه القرية مخفر لجنود الدرك ، وفي الك ١٤١ على يسار الطريق ضيعة اسمها بنيامين ذات قباب ، وفي الك ١٤٤ على يسار الطريق مفرق الطريق اللاحب الآخذ الى قلعة جبل سمعان الاثرية . ثم يصل الطريق الى نشز من الارض يشرف منه السائر على حلب التي تتجلى امامه بقلعتها الشاهقة واحيائهـا المكتظة ودورها وقصورها الحجرية الجميلة ، واذا هبط من ذلك النشز يجتـاز السكة الحديدية الذاهبة الى حماة ويترك على يمينه الطريق اللاحب القديم الذاهب

الى حماة ماراً بخان طومان ثم يدخل حلب في اللك ١٤٧ من حي الجميليــــة في جنوبها الغربي (١) .

طريق المركبات القديمة بين الاسكندرونة وحلب

تترك هذه الطريق القديمة الطريق الحديثة وسط سهـــل العمق في اللك ١٠٨ (ابتداء من الاسكندرونة) وتستأنف السير نحو الشرق الشـمالي فتمر بقرية عرب كوى ثم تصل الى الحمام التي تعد آخر قرى العمق ، بيوتها اخصاص وفيها جامع وحوانيت ومدير ناحية ومخفر لجنود الدرك ، وعين كبريتية حارة درجتها ٤٢ انشأ عليها حمام ذو عقود وخلوات يقصده الناس من حلب واعمالها ويضربون الخيام ، وقد انشأت بلدية القرية من عهد قريب فندقاً جميلا صار ينزله المستحمون الموسرون . وهنا ينتهي سهل العمق ، وفي اللك ٩١ قرية حاجي اسكندر ثم في اللك ٨١ قرية جانداريس التي ذكر استرابون بانها كانت ملاذاً لقطاع الطريق ، وفي اللك ٩١ شيخ عبدالرحمن وعلى مقربة منه ضيعة تل حمو ، وهنا يمكن لمن بيده نظارة مكبرة ان يرى دير سمعان الذي يدعى قلعة سمعان ماثلا بجدرانه وقناطره وحناياه وصوامع الرهبان ودور الضيفان المجاورة له ، ويلمح في أعلى قمة جبل سمعان مقام الشيخ بركات ، وبعد ان يجتـــاز الطريق قرى تللف وكفر بطرة وبابليت يصل في اللك ١٠٥ الى جسر نهر عفرين الحديدي وعلى يساره نشز صخري كان فوقه خان كبير تنزله القوافل ثم دثر وبنى مكانه وحوله منذ بضع سنوات بليدة حديثة سميت عفرين وجعلت قاعدة لقضاء كرد طاغ كما جرى بقرق خان ، وعدد سكان هذه البليدة ثمانمائة ثلثاها من المسلمين والثلث من الارمن الجالين من كليس وغيرها . وفي عفرين طريق لاحب نحو الجنوب يمر بقرية طورندة ويصل الى

---

(١) لم اشأ البحث عن حلب التي تحتاج هي وضواحيها لمقال خاص ربما حاولت تدوينه بعد .

حصن البـــاسوطة احد حصون الصليبين الذي كان يحرس مسلك عفريـن لا تزال اطلاله مـــــاثلة .

وقضاء كرد طاغ قضاء واسع من اعمال ولاية حلب قام مقـام ناحية الجومة التي كانت فيما مضى من انحاء قضاء كليس ، وهذا القضاء ملآن بالجبال والهضاب المكسوة بالغابات المختلفة الاشجار وبكروم الزيتون والعنب ، وفيه مياه جارية ورباع مسقوية وتربة خصبة وغلاته كثيرة متنوعة اجلها الزيت المشتهر بجودته لـكن أهله وهم من اقحاح الاكراد وبعضهم يزيدية من عبدة الشيطـان فيما قيل لا يزالون على جهلهم وجفاءهم المطبقين ، يسودهم نفر من سراتهم الملقبين بالآغوات على طراز الحكم الاقطاعي الذي كان في العصور المتوسطة ويستبدون بهم وبثمرات اتعابهم ، والخمر والميسر منتشران بين سكان هذا القضاء ، وقتل النفس واخـــذ الثار لاتفه سبب من اسهل الاعمال لديهم يرتـكبونه ويلجأون اما الى جبالهم الوعرة أو الى الحدود التركية القريبة . وقد ردد اوليا جلبي في رحلته الشكوى من اسلافهم مراراً (ص ١٣ ، ١٤) . وبعد عفرين تقترب الطريق من السـكة الحديدية عند قرية عرش قيبار ، ثم تصعد في منعطفات شقت في الاعضاد الشمالية من جبل سمعان الى ان تصل في الك ١٢١ الى قرية قطما ، وهي على نشز في يسار الطريق وفي قربها محطة السكة الحديدية الآتية من آذنة الى حلب ، ومخفر محصن فيه جنود افرنسيون . ويمكن ان تعد هذه الطريق القديمة الى هنا حداً فاصلاً بين البقاع المتكلمة باللغة العربية وهي على يمينها والمتكلمة باللغتين التركية والـكردية وهي على يسارها . وبعد قطما بمسافة مفترق الطريق الذاهبة الى اعزاز (١٦ كيلومتراً) ثم الى كليس التي تعد اول بلدة في الحدود التركية . وفي طريق اعزاز يجتاز السائر السكة الحديدية ثم يمر بقرية سيجراز الى ان يصل اعزاز . واعزاز قرية كبيرة تعلو عن البحر ٦٠٠ متر ، سكانها ٥٠٠٠ ثلثاها من العرب وثلثها من الأرمن وهي قاعدة قضاء واسع ، كثير القرى المتدانية ، الممتدة في سهول شاسعة اعذاء حمراء ، زكية التربة ، وافرة الغلات ، تخصب حتى في السنين التي تمحل فيها بقاع

حلب ودمشق كسنة ١٣٥٢ التي زرت اعزاز فيها واعجبتني زروعها ، واعزاز في سفح تل صناعي عال يكاد يزول كان فيه حصن لم يبق منه اثر ، لأنه كان مبنياً باللبن والمدر، دمرته الزلزلةسنة٣٦٣ هـ. ملك الصليبيون اعزاز ودعوها Hazart واتبعوها اولا بالرها ثم بانطاكية ، ورمموا حصنها وجعلوها من المخافر الامامية في وجه المسلمين في حلب الى ان استردها منهم نورالدين محمود زنكي سنة ٥٤٦ وبعد ان رممها الملك الظاهر غازي الايوبي صاحب حلب وعمر قلعتها ومسجدها الجامع خربها التتار في سنة ٦٥٨ شأنهم في كل قلاع الشام ، فنزح اهلها عنها الى كليس وغيرها من البلاد ، فاضمحلت حتى صارت قرية حقيرة . قال ياقوت : والعزاز الاوض الصلبة وهي بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم واحد وهي طيبة الماء عذبة الهواء لايوجد بها عقوب اه . وصحيحه ان هواء اعزاز يفسد في بعض السنين التي تزرع فيها ضاحيتها وليست كل مياهها عذبة ، وفي اعزاز جامع قديم كبير له صحن واسع فسيح في شماليه رواق وفيه مآذنة ضخمة وفي وسطه حوض يهبط اليه بدرجات تأتي مائه من قناة ، وحرم الجامع واسع له قباب محمولة على ركائز ضخمة ، وقد قرأت على باب الجامع انه امر بعمله الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن ايوب في سنة ٦٦٤ .

وبقيت اعزاز على خرابها شبه قرية وكانت تتبع قضاء كلس الى ان جعلت سنة ١٣٤٠ عقيب تأليف الدولة العربية في حلب قاعدة قضاءها الحالي واتيح لها قائمومقام فتحوا فيها شوارع واسواق ذات حوانيت كثيرة وشادوا دوراً للحكومة والمدرسة وحديقة عامة واتو اليها بالماء القراح فاتسعت مرافقها وكثر عدد قطانها من الارمن وغيرهم حتى اصبحت بليدة حسنة في الجملة . وفي قضاء اعزاز عدة اماكن تستحق الزيارة والبحث منها قرية دابق التي حدثت في مرجها المعركة الهائلة الحاسمة بين قانصو الغورى والسلطان سليم سنة ٩٢٢ .

هذا ثم تنحرف طريق حلب بعد قطمها نحو الجنوب فتمر في سهول شاسعة اعذاء فيها قرى مالكية ومرعناز ومنق وتصل في الك ١٣٢

الى كفر انطون ، وهذه القرى من اعمال قضاء اعزاز . ثم تستأنف الطريق السير فتمر بقرية تل حجر، وفي الك ١٣٩ طريق لاحب نحو قرية تل ارفاد التي لها ذكر في تاريخ الاشوريين وفيها محطة السكة الحديدية الآتية من آذنة وقد اشتهرت ببطيخها الاحمر ، ثم تمر الطريق بقرى دير جمال ومعرسة الخان ونبل وبيانون وحيان وعندان وحريتان وكلها من اعمال قضاء جبل سمعان ، وفي جوار عندان مزار النبي ارميا يقصده المرضى للاستشفاء . وفي الك ١٦٣ على يسار الطريق بناء هرمي شاده الانكليز عليه كتابة مآلها انه في تاريخ ٢٦ تشرين الاول سنة ١٩١٨م حدثت في هذا الموقع آخر معارك الشرق الادنى خلال الحرب العالمية الكبرى بين فرسان الانكليز والجيش التركي ، وعلى الوجه الشرقي من الهرم اسماء القتلى وبينهم مسلمون هنود ، وبعد ان تجتاز الطريق قرى كفر حمزه وبليرمون تصل الى حديقة السبيل في ضاحية حلب ، ثم الى حي الجميلية في حلب في الك ١٧٢

طريق بني شهر — حارم

بعد بني شهر « عم » ينحرف الطريق نحو الجنوب محاذياً اعضاد جبل الأعلى التي تضمحل عند سيف العمق ، وعند قرية الشيخ علي ينفصل الطريق فالغربي يذهب نحو انطاكية والقبلي (وطوله اربعة كيلو مترات) نحو حارم .

وحارم بليدة في سفح جبل الأعلى ، تبعد عن انطاكية ٤١ كيلو متراً وتعلو عن البحر ١٣٨ متراً ، سكانها نحو الالفين من المسلمين العرب ، وفيها مبان حديثة لدار الحكومة ودائرة الدرك والمدرسة والمستشفى ومعمل حديث الطراز والادوات لعصر بزر الزيتون ، وعين صافية جارية تحدث جدولاً يصب في العمق ودور وحوانيت وجامع وبساتين عديدة ذات اثمار وبقول جيدة تنتج باكراً وترسل الى حلب . لكن هواءها رديء لوقوعها في شرقي العمق وعلى سيفه ، وفيها تل عال فوقه قلعة لا تزال اطلالها الدارسة ماثلة . قال ياقوت : حارم حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية وهي الآن من اعمال حلب وفيها اشجار

كثيرة وميـــاه وهي لذلك وبئة . ويذكر المؤرخون ان حارم كانت قبل الفتح الاسلامى حظيرة للمواشي ودامت على ذلك في صدر الاسلام الى ان ملكت الروم انطاكية سنة ٣٥٨ فبنوها حصناً لحمى مواشيهم من غارات العرب ، ثم صاروا يزيدون فيه ويوسعونه ، واستمرت حارم في ايديهم الى سنة ٤٧٧ وفيها استولى عليها سليمان بن قتلمش لما استولى على انطاكية واعمالها كما بيناه في تاريخها ، وبقيت حارم في ايدي المسلمين الى سنة ٤٩١ وفيها ملك الفرنج انطاكية وحارم وغيرها وزادوا في تحصين حارم وجعلوها من القلاع المخصصة لحراسة انطاكية وملجأ لهم اذا شنوا الغارات على المسلمين في ضواحي حلب . ولم تزل في ايديهم الى سنة ٥٥٩ وفيها اخذها نور الدين محمود زنكي منهم بعد معركة هائلة واقطعها لاخيه في الرضاعة مجد الدين ابي بكر ابن الداية ، ووضع فيها منارتين تشتعلان كل الليل لهداية اسرى المسلمين المنهزمين من ايدي الافرنج .

ولما آلت حارم للملك الصـــالح اسماعيل بن نور الدين اقطعها لمدبر دولته سعد الدين كمشتكين ، ثم قتل سعد الدين فقصدها فرنج انطاكية طمعاً بقلة حاميتها وحاصروها اربعة اشهر ، ثم صالحهم الملك الصالح على مال ورحلوا عنها ، وكان من بها قد امتنعوا على الملك الصالح بعد قتل كمشتكين ، فارسل اليهم الملك الصالح جيشاً شدد عليها الحصار بعد رحيل الفرنج فسلموها اليه فاستناب بها مملوكا كان لابيه اسمه سرخك . فلما كانت سنة ٥٧٩ قصدهـا صلاح الدين بعد فتح حلب وبها المملوك المذكور ، فراسله صلاح الدين ان يسلمها اليه ويعطيه عوضها ما شاء فجار في الطلب وقصد مراسلة الفرنج فخاف اصحابه ان تصير القلعة بيد الفرنج فقبضوا عليه وارسلوا الى صلاح الدين يطلبون الامان فاجابهم وتســـلم القلعة ورتب بها بعض خواصه . ثم صارت بعد صلاح الدين لولده الملك الظاهر غازي فاهتم بشأنها وحصن قلعتها واسمه مكتوب على بابها ، وكانت هذه القلعة قديماً مثلثة الشكل فغيرها الملك الظاهر وجعلها من جهة القبلة مدورة وبنى ابراجهـا مربعة . وفي سنة ٦٥٧ استولى هولاكو على شمالي الشام واخذ حارم وقتل جميع

من فيها حتى البهائم خنقاً واخربها عن آخرها ، فظلت عدة قرون ليس فيها سوى اطلال خافية ورسوم بالية الى سنة ١٢٤٣ بدأ عمرانها والتف حولها السكان ، وفي اواخر القرن الهجري الماضي نقل مركز القضاء من الريحانية اليها فتضاعف عمرانها ، ثم نازعتها بليدة كفر تخاريم هذا المركز لرداءة هواء حارم وجودته في كفر تخاريم ، وظل هذا الاخذ والرد مدة الى ان عاد واستقر في حارم منذ بضع سنوات .

اما قلعة حارم فمبنية فوق تل منفرد منتصب وسط السهل كحارس جبار يكلأ حارم بعين عنايته ، وهذا التل منفصل عن آخر عضد في جبل الاعلى المجاور له وهو طبيعي ، لكن منحدراته مرصوفة بالبلاط ، ماخلا المنحدر الشمالي العمودي وكان حول التل خندق قسم منه محفور في الارض وقسم منقور في الصخر ، ولا يزال بعض البلاط والخندق ظاهراً. وفي ذروة التل المذكور بنيت القلعة على شكل نصف دائرة ، ما خلا شماليها فأنه على خط مستقيم . وسور القلعة خراب وزاد خرابه لما تحصن في هذه القلعة الجند الافرنسي ضد عصابات الاهلين التي كانت تهاجمه من حين الى آخر في سني ١٣٤٠و١٣٤١ . وفي السور اطلال ابراج بارزة مربعة الشكل ممتدة على طول نصف الدائرة التي تقدم ذكرها . اما القسم الشمالي المستقيم فكان مصوناً بالمنحدر العمودي . ويصل القاصد الى هذه القلعة من شعب في منحدرها الغربي اصلحوه قليلا منذ بضع سنوات . فيدخل من باب واطئ ذي عتبة مستقيمة بين برجين عريضين . ولم يبق في باحة القلعة من الاطلال ما يستحق الذكر سوى البرج الكبير المستطيل الشكل فقد اقيم في الزاوية الشمالية الشرقية في اضعف نقطة الدفاع عن السور . وفي هذا البرج ترى اجل الانقاض والاطلال والجدران ، وفي اسفل الجدران حشي كثير من اعمدة الروابط . ومن غريب ما يوجد في هذه القلعة انه ينزل في جوف تلها من سرداب عمودي له ١٥٠ درجة يصل الى مستوي ارض البلدة الى حيث تنبع عين جارية تفيض على الخندق ثم تتفرع الى الارباض ، كان المحاصرون يشربون منها .

وقد شهد العالم الاثري « فان برشم » في كتابه « رحلة في الشام » بان قلعة حارم عربية البناء من طراز الهندسة العسكرية السائدة في عهد الملوك الايوبيين ، يدل على ذلك انتظام شكل باحتها ورصف منحدراتها بالبلاط على النحو الذي يشاهد في قلاع حمص وحماة وشيزر وحلب وقلعة المضيق ، وان تخطيط سور قلعة حارم ورسمه على نصف دائرة جعلاها تشبه قلعة بصرى حوران التي بنيت في عهد الايوبيين حول مرسح روماني قديم ، وشكلها العام جعلها تشبه ايضاً شكل قلعة المضيق ، ووضع المدخل وطرازه يشبه ما في مدخل قلعة حلب . واستنتج العالم المذكور بأن ليس في قلعة حارم اقل اثر لهندسة الصليبيين العسكرية ، لأنهم لم يمكثوا فيها اكثر من نصف قرن . هذا ويمتد نظر الواقف في هذه القلعة الى الاطراف فيرى في الشمال بليدة حارم ومبانيها البيضاء والطريق المعبدة الذاهبة منها الى حلب ، وفي الشرق منحدرات جبل الاعلى العمودية الصعبة المرتقى ، وفي الجنوب الآكام المشرفة على وادي العاصي القادم من سهل الغاب ووادي دركوش ، وفي الغرب سهل العمق الافيح وضياعه المنتشرة فيه وقد ازدان افقه البعيد ببحيرة انطاكية الزرقاء وبعدها قمم جبل اللكام التي تناطح السحاب ومثلها جبل موسى والجبل الأقرع ، اما انطاكية فقد اختفت وراء اعضاد جبل القصير .

وحارم قاعدة قضاء واسع كثير الخيرات ، غزير المياه امتد معظمه في جبل الأعلى وجبل باريشا وقليله في سهل العمق ، وفيه قرى كبيرة تعد من الامهات تشبه المدن بعمرانها ، وفيه اربع نواح سلقين وكفر تخاريم وباريشا وترمانين .

طريق حارم — ادلب (٥٥ كيلو متراً)

ومن حارم طريق لاحب تجتازه السيارة يذهب نحو الجنوب الشرقي ، ويشرع بتسلق اعضاد جبل الاعلى المشرفة على سهل العمق ، فبعد حارم بعشرة كيلومترات بليدة جميلة تدعى سلقين من ابهج وانزه ما رأيته في اعمال حلب . عدد سكانها

۳۰۰۰ مسلمون عرب ، علوها عن البحر ۲۵۰ متراً تشرف على سهل العمق، بنيت على ضفتي واد جميل ظليل فيه اشجار باسقة مثمرة وغير مثمرة منها بضع سروات عظيمة عريقة في القدم ، وثمة بساتين تنتج اثماراً وبقولا جيدة وعيون وارحاء وجامع كبير حسن وحمام وسوق حافل ودور انيقة رحبة اصحابها ذوو وجاهة وحفاوة يلقبون بالاغوات ، معظم ثروتهم من الزيتون الذي يكثر وجوده في هذه الهضاب . وبعد سلقين تأخذك السيارة نحو الشرق الجنوبي في طريق لاحب فتحوه من عهد قريب فوق هضاب جبل الدويلي احد اعضاد جبل الاعلى الملآن باشجار الزيتون الخضراء ، فتصل بعد عشرة كيلو مترات الى بليدة تدعى كفر تخاريم واقعة وسط واد عريض من اودية الجبل الاعلى عدد سكانها ۳۰۰۰ مسلمون عرب ، وهذه ايضاً جميلة ذات بساتين وعيون وحمام وجامع وسوق حافل ودور رحبة انيقة ومعاصر زيتون كثيرة واسر ذات وجاهة ، وفيها في الاكمة المشرفة عليها دار حكومة ومستودع لجند الرديف لما كانت مركز القضاء هجرا فاشرفا على الخراب . وقد اشتهرت هذه البليدة في تاريخ الثورات التي قام بها الاهلون عقيب الاحتلال الافرنسي وظلت مدة عرضة لتناحر العصابات والجند . ثم تأخذك السيارة نحو الجنوب في واد طويل ينتهي عند سهل الروج الذي سيأتي ذكره ، فتصل بعد خمسة كيلو مترات الى بليدة تدعى ارمناز عدد سكانها ۳۰۰۰ مسلمون عرب ، ذات اسواق ودور حافلة وجامع وحمام، ولارمناز ذكر في التاريخ ، اشتهرت منذ القديم بمعامل الزجاج ، فكان يصنع فيها انواع الظروف والاواني الزجاجية على الوان واشكال مختلفة بديعة ، ولم تزل ارمناز مركز هذه الصناعة في شمالي الشام حتى ظهر الزجاج الافرنجي وقضى على صناعة ارمناز وافقر اصحابها . والطريق بعد ارمناز تمتد في الوادي المذكور المحصور بين اعضاد الجبل الاعلى والجبل الوسطاني ، ثم تنحرف في اول سهل الروج ومستنقعاته عند تل شامرون الاثري ، ثم تتساق اول هضاب جبل الزاوية الى ان تصل الى ادلب .

وفي قضاء حارم جبلان عظيمان اولهما يدعى جبل الاعلى والثاني جبل باريشا. والجبل الاعلى مزدان بأشجار الزيتون بينما جبل باريشا يكاد يكون اجرداً للين الصخور والتربة في الاول وقسوتهما في الثاني. ويكثر سواد الدروز في الجبل الاعلى الذي كان اسمه فيما مضى جبل السماق، وقراهم هي بنـابل وقلب لوزة وبشندلايا وجد عين وعبريتا وكوكو وحلة وكفر مالس وتل تيتا، ويقطن بعضهم مع السنيين في قرية كفر كيلة وبشندلتي ودير سلونة. وهؤلاء الدروز لا يتجاوز عددهم الالفين فيما قيل وهم اهل كد ومعرفة بالزراعة وتربية الماشية وعنـدهم كرم وآداب يمتازون بها، الا انهم ضعفاء النفوذ في هذه الديار في الجملة. هذا ولا يصل القاصد الى قرى الجبل الاعلى الا اذا امتطى الرواحل او سـار على قدميه لعدم تمديد طرق السيارات فيها بعد. وهذا الجبل وقراه مملوء باطلال المصانع الداثرة البيزنطية من القرنين الخامس والسادس الميلاديين، تروع الزائر بضخامة احجارها وحسن هندستها وزخرفها، بعضهـا صوامع وبيع واديرة وبعضها قصور ودور، ما برح كثير منها على جدته ورواثه في الجملة، جدير بالزيارة والامعان، وان الانسان ليستغرب بقاءها حتى الان سالمة رغم مرور خمسة عشر قرناً حدثت خلالها في هذه الديار ضروب الكوائن وتقلبت شتى الشعوب. وربما كان لوعورة هذه الجبال وكؤودة مسالكها فضل في ذلك. هذا واشهر ما في الجبل الاعلى من تلك الآثار بيعة قلب لوزة التي تعد ابدع بيع الشام طراً. وتليها بيعة كفر كيلا، وفي بشندلايا مدفن طيباريوس كلوديوس صوصاندروس في جوف مغارة تحت الارض نقرت في الصخر، وفي كوكنايا كثير من الدور والمدافن القديمة العجيبة بهندستها وجسامتها، وفي باقوزا دور عديدة ما برحت ماثلة وبيعة جميلة، وفي الدويلي اطلال حصن خراب، وفي جبل باريشا اشتهرت قريتا دير سيتا وباقوزا باطلال القصور والدور ودار قيتا بكنائسها، هذا عدا عن قصر البنات الذي ذكرناه مع غيره من مصانع هذا الجبل في بحث طريق حلب. وثمة من الاديرة التي ذكرها ياقوت دير بلاط، قال، من

اعمال حلب مشرف على عم فيه رهبان لهم مزارع وهو دير قديم مشهور ا ﻫ.
ولم يتسن لي تحقيق موضع هذا الدير، وفي قول ياقوت دليل على ان هذه الاديرة التي عددناها كان بعضها ان لم يكن جلها عامراً وآهلا برهبانه الى القرن السابع الهجرى الذي عاش فيه ياقوت.

طريق بني شهر - انطاكية (٤١ كيلومتراً)

يجتاز السائر في هذه الطريق جنوبي سهل العمق ويمر بضياعه وضويعاته العديدة التي تقدم وصفها وحالة اهلها وبالمستعمرات الارمنية الحديثة التي أسست سنة ١٣٤٧، وفي الك ٢٢ يجتاز جسر الحديد المبنى على العاصي وفي جواره مخفر لجنود الدرك وبضعة مبان واكواخ. وكان هذا الجسر في العصور المتوسطة ذا مكانة جليلة من ناحية سوق الجيش تفوق امثالها في شمالي الشام سيما في امر الدفاع عن انطاكية. وكان له برجان عظيمان ابوابهما من الحديد. ولما اقبلت الحملة الصليبية الاولى حاول مسلمو انطاكية ان يوقفوا سيرها في هذا الجسر، لكن الصليبيين استبسلوا واقتحموه.

ويظهر انه خرب في تلك المعركة او في غيرها من المعارك التي توالت فرممه احد ملوكهم بودوين، وكان هذا الجسر من الحجر وذا تسع قناطر، ويظهر ان الزلازل خربته ثانية في القرن الماضي فرمم في سنة ١٢٣٨ على حالته الحاضرة، وطوله اليوم سبعون متراً وله اربع قناطر وظهره مستقيم ومبلط، وفي طرفه الشرقي بني برج مربع له سقف ذو انحنائين وتحته ساباط معقود يغلق عند اللزوم تجتازه السيارات والقوافل. ثم يمر السائر في سهل العمق في الك ١٧ بضويعات اخرى تابعة لناحية قصير التحتاني كالعبيدية ومدنبو، ثم بقرية مهاجر، وهنا يلمح عن بعد بحيرة انطاكية، وفي الك ١٠ يمر بقناطر ماء اثرية ويحاذي كوعا للعاصي وفي الك ٩ يقترب العاصي من الطريق عند قرية ايليجة، وفي الك ٥ على اليسار مفرق الطريق اللاحب التي افتتحت حديثا بين انطاكية وجسر الشغر وسيأتي

وصفها ، ثم قرية كوزل برج على ضفة العاصي ، ثم في الك ٣ الطريق الذاهبة الى الستاديو وحمامات فالنسيوس ، وفي الك٢ مكان باب القديس بولص وبركة الماء التي ما برحت تتدفق، ثم يدخل السائر انطاكية .

طريق طوب بوغاز — انطاكية (٣٠ كيلومتراً)

في اسفل قلعة بغراس وشرقيها ضيعة صغيرة تدعى قره مغرط فيجوارها خان قديم كبير دثر في العهد الاخير ونقضت احجاره بعد ان كان عامراً وصالحاً لايواء القوافل والمسافرين . والطريق من طوب بوغاز الى انطاكية تسير محاذية لسفوح الجبل الاحمر التي يتركها السائح على يمينه ، ويرى على يساره سهل العمق الفسيح وبحيرة انطاكية الزرقاء والمستنقعات الواسعة الممتدة حولها . وهو بعد مغادرة الطريق الصاعدة غرباً الى قره مغرط وقلعة بغراس التي ترى عن بعد يمر في الك ٦ حذاء ضويعة تدعى بغلامة تعد فرضة على شاطئ مستنقعات العمق المتصلة بالبحيرة ، وفيها القوارب الرفيعة التيتروح وتغدو فيهذه المياه والمسالك المنشقة بين قصب الآجام يركبها الصيادون الذين يفدون في الربيع لقنص الأوز والبط ودجاج الماء والشقب وغيرها من الطيور المائية واسرابها تفوق الحصر ، وثمة الثعالب والخنازير البرية وكلاب الماء ايضاً . ثم تجتاز الطريق وادياً عريضاً حافلاً بالبساتين،فيه في الك ١١ قريتا بدركة الشركس وبدركة العرب ثم قريتا يا قاري وسردلي. وهنا يرى السائح في الأفق الجنوبي جبل القصير وفي الافق الغربي جبل الاقرع الشامخ كالهرم فوق البحر الى علو ١٧٥٩ متراً ، وفي الك ٢١ يجتاز اراضي قرية عواقيةويودع المستنقعات ويدخل الارضين المحروثة والمزروعة من سهل العمق، فيرى على يساره مخرج البحيرة الضيق وسكوره التي تقدم وصفها . وهنا يشاهد عن بعد في الأفق الجنوبي جبل حبيب النجار اوسيلبيوس المشرف على انطاكية، وفي الافق الغربي جبل موسى معقل أرمن هـــذه الديار، ثم يسير في الك ٢٨ محاذياً الضفة اليمنى لنهر العـــاصي الذي انعطف عند جسر الحديد نحو الغرب

واتجه قاصداً انطاكية . وفي الك ٣٠ يصل الى انطاكية نافذاً اليها من جسرها القـــديم الروماني .

تاريخ انطاكية . — لما مات الاسكندر المقدوني سنة ٣٢٣ ق . م اقتسم خلفاؤه ممالكه الواسعة فكان انتيغونوس في مقدونيا وآسية الصغرى، وبطلميوس في مصروفلسطين ، وسلوقس نيكاتورفي بابل وفارس . وبني آنتيغونوس سنة ٣١٧ بين العاصي ومخرج بحيرة انطاكية فيما قيل بليدة دعاها آنتيغونيا واسكن فيهـــا قوماً من الاكراد وهم بقية جيوش الأشوريين الذين ظلوا في هذه البقاع يحترفون الصيد والرعى . ثم لما انتصر سلوقوس نيكاتور على آنتيغونوس وقتله سنة ٣٠١ وبسط سلطانه على معظم البلاد الآسيوية شاد سنة ٣٠٠ مدينة انطاكية تكريماً لاسم ابيه انطيوخس كما شاد لاثوديسيا « اللاذقية » لاسم امه وافاميا « قلعة المضيق » لاسم امرأته، وبدا له ان يغير موقع آنتيغونيا فأمر ببناء انطاكية في سفح جبل سيلبيوس ونقل اليها انقاض آنتيغونيا بعد ان دكها ، واسكن فيهـــا مزيجاً من الكـــرد واليونانيين المقدونيين واليهود . وقد اهتم سلوقس بانماء انطاكية وعمرانها ومنح من يأتي اليها من الغرباء حقوق اليونانيين وامتيازاتهم ، فاكتظت بالسكان من مختلف الشعوب والعناصر وازدهت وصارت عروس الشرق وعاصمـــة الممالك التي كانت تتألف منها الدولة السلوقية العظيمة الممتدة من سواحل البحر المتوسط الى حدود الهنـــد .

وتاريخ العهد اليوناني السلوقي طافح بالحروب والفتن والكوارث التي حالت دون بقاء هذه الدولة اكثر من ٢٣٦ سنة . فمن العوامل التي أدت لزوالها بهذه السرعة اقتتال الانتيغونيين والسلوقيين والبطالسة وتنازعهم على امتلاك بلاد آسية ومقدونيا وكالسيريا « انحاء البقاع ودمشق » ، وتنافس اعضــــاء الاسرة المالكة على العرش وتناحرهم ، وبعد انطاكية عن مقدونيا واثر هذا البعـــد في اضعاف قوة العنصر اليوناني الذي كان دعامة السلوقيين، وتنوع القوميات والعصبيات

في انطاكية وتنازعها ، ووجود اليهود بينها يوقظون الفتنة كلما رقدت ، ودسائس البطالسة اصحاب مصر الذين كانوا يرومون ضم ملك السلوقيين اليهم فيرشون القواد والامراء ويحرضون نساء البلاط اللواتي كان بعضهن من اصل مصري على الشغب وتسميم الملوك ليتسنى لهم التداخل والاصطياد في الماء العكر.

ولم تسعد انطاكية كما ينبغي الا في زمن انطيوخس الكبير (٢٢٣-١٨٧ق م) فقد تحالف هذا الملك مع اقيال الهند وبسط سلطانه على ولاياته الشرقية النائية التي كانت شقت عصا الطاعة ، ثم استعد لاستخلاص مصر من يد البطالسة ففتح في طريقه وسط الشام وجنوبه ، لكن الرومانيين ظهروا في تلك الحقبة وكان استفز غضبهم فشغلوه واضطروه بعد معركة مغنيسيا ان يتخلى عن املاكه في آسية الصغرى وان يسلمهم بوارجه الحربية وافياله التي كانت في افامية (معاهدة افامية سنة ١٨٨) . وبعد انطيوخس الكبير تعاقب على عرش انطاكية عدة ملوك ضعفاء في فترات قصيرة فابتلع الفرثيون (١) جزء المملكة الواقع شرقي الفرات وعمت الفوضى الجزء الذي بقي للسلوقيين ، وظهر زعماء محليون في اجزاء مختلفة من الشام ومنهم امراء آل شميسغرام في حمص . وحدث مرة ان وثب اليونانيون على الملك ديمتريوس الثاني (سنة ١٤٥) فاستنجد بيهود فلسطين ، فجاءه منهم جيش احرق انطاكية ونهبها وقتل من اهلها فيما قيل مئة الف نفس ، ثم اجهزت الزلزلة التي حدثت في السنة التالية عليها . وبعد ان عادت الامور الى استقرارها مدة رجعت الفوضى وكثر القتال بين القواد والملوك رجالاً ونساء وتوالى الحريق والنهب في انطاكية ودفنة وهياكلها ، ولما ضاق ذرع الانطاكيين بل كل الشاميين كتبوا الى ديكران ملك الارمن ودعوه لانقاذهم فجاء هذا سنة ٨٣ ق م.

---

(١) الفرثيون او البارثيون شعب كان يقطن في شمالي بلاد ايران الحالية ، عرفوا بشدة مراسهم وصبرهم في الكر والفر . اسسوا لهم دولة في منتصف القرن الثالث ق . م وخلفوا الفرس في تقليدهم ومناوءتهم لليونان على انهم لم يخلوا من الفتن والقلاقل الى ان وثبت عليهم الاسرة الساسانية وقرضت دولتهم .

واستحوذ على شرقي كيليكية وشمالي الشام وفينيقية حتى عكاء مدة اربع عشرة سنة فحسب . لأن الرومانيين غلبوه في عقر داره واضطروه لمغادرة الشام ، فاسترد السلوقيون ملكهم ، لكن الرومانيين ظلوا يتداخلون في شئون السلوقيين ويدسون حتى تسنى لاحد قوادهم بوميوس في سنة ٦٤ ان يقضي على دولتهم بالمرة .

ورغم الكوارث والمساوى التي حدثت في عهد السلوقيين فقد كان لهم همة محمودة في تشييد المدن وعمرانها على تخطيط منتظم وهندسة رائعة . أورد المؤرخون وصف انطاكية ومبانيها في عهدهم الذي لم يبق منه أثر ، فقالوا انها كانت محاطة بسور عظيم في داخله اربعة احياء منفصل بعضها عن بعض وشوارع عديدة مرصوفة اكبرها الشارع المستقيم الذي يخرق المدينة من الشرق الى الغرب كان جميلاً ومزيناً بأروقة ذات أعمدة ، وكان لنهر العاصي اذ ذاك فرعان بينهما جزيرة كبيرة كان فيها احد الاحياء الاربعة وفيه القصر الملوكي ، وشادوا في المدينة عدة هياكل غاية في الفخامة للكواكب التي كانوا يعبدونها كالمشتري والمريخ ،ومثلها تماثيل الآلهة والملاعب « السيرك » والمسارح « التياترو » والمدارج « الانفيتياترو » والحمامات ودور الكتب والمتاحف ودار الشيوخ « السنا » والدور والقصور الفخمة، وبعضها كان يرصف بالفسيفساء وملئوها هي ودفنة بأماكن القصف واللهو . وما زال هذا العمران زاهياً حتى قضى عليه اليهود والزلزلة سنة ١٤٥ ق م كما قدمنا . ثم أعيد بعضه في أواخر العهد السلوقي وزيد فيه في العهد الروماني .

العهد الروماني (من ٦٤ ق م الى ٣٩٦ ب م) . لما فتح بومبيوس الروماني انطاكية جعلها عاصمة بلاد الشام الرومانية وميزها بأن تدير أمورها بنفسها ،وكان ولاة انطاكية الرومانيون من ابرز رجالاتهم في الجاه والمقدرة ومنهم من كان يرتقي منها الى عرش رومية . جاء الى انطاكية من هؤلاء بومبيوس

ويوليوس قيصر وانطونيوس وزوجته كليوباترة سنة ٣٨ ق م ، ثم رأت انطاكية هيرودتس الكبير واوكتاو الظافر وطيباريوس، وكل منهم كان يقلد انطاكية كلما أتاها بالاسوار المنيعة والتماثيل والاروقة والهياكل والحمامات والمسارح والمدارج وغيرها . ودخلت النصرانية الى انطاكية سنة ٢٣ م . وصارت تنازع الوثنية وتنتشر ، وكثرت الزلازل والمجاعات والحرائق خلال القرن الاول الميلادي ، وفي غرة القرن الثاني شرع الامبراطور تراجان باضطهاد النصارى، وفي سنة ١١٥ منه حدثت فيها زلزلة هائلة دامت اربعين يوماً خربت بها انطاكية وغيرها من مدن الشام وهلك ٢٥٠٠٠٠ نفس ، وسقطت من جبل كاسيوس « الجبل الأقرع » قطعة كبيرة في البحر ، وغاض احد فرعي نهر العاصي الذي كان محيطا بجزيرة انطاكية ، حتى ان القيصر تراجان لم ينج يومئذ من الهلاك الا باعجوبة . على ان انطاكية اعيدت الى رونقها الاول وبنيت لها قناطر الماء العظيمة الاتية من دفنة ، وفي عهد انطونين نالت انطاكية حقاً بضرب السكة ومدت في اعمالها الارصفة (١) التي لا تزال ماثلة الى يومنا . ومهدت الطرق ونشطت تجارتها حتى صارت مركز تجارة بلاد الشام المتوسطة ومهد الثقافة اليونانية . على ان تأثير الشرق الروحي ظل نافذاً وظلت الديانة الوثنية غالبة على النصرانية . وفي سنة ١٩٣ حاول اهل انطاكية وجندها ان يقيموا واليهم مكان الامبراطور سبتيموس سفيروس فلم يفوزوا ونالوا جزاء عملهم ورفعت الامتيازات التي كانت لبلدتهم واعطيت الى لائوديسيا « اللاذقية » ، لكن بعد موته آزرت زوجته جوليا دومنا انطاكية ، لأنها كانت شامية من حمص وحملت ابنها كراكلا المولود في حمص على ان يرد الى انطاكية ما حرمها ابوه من الامتيازات، واستفادت انطاكية كثيراً من انتصار اليوكابال

---

(١) كالرصيف الباقي بعضه في سهل الحلقة على طريق حلب وقد وصفناه ، وكالرصيف الاتي من افامية بل من حمص والذاهب الى الاناضول والقسطنطينية ، وغيرها من الارصفة التي بحثنا عنها في اماكنها .

على مكرينوس الذي اغتال ابا كراكلا ، اذ كان في ذلك انتصار القضية الشرقية على القضية الغربية الرومانية. وفي القرن الثالث سنة ٢٣١ ادب اسكندر سفيروس جنود انطاكية الذين اختل نظامهم واتخـذوا غابات دفنة بؤرة لرزائلهم . وفي تلك السنة فاجأها سابور ملك الفرس بجيوشه وفتحها عنوة واحرقها ونهبها . وعقب هذه الكارثة استطاع النصارى ان يشيدوا لهم كنائس ، لأن الوثنيين كانوا يمنعونهم من ذلك بتهمة انهم مسببو الزلازل ، وفي سنى ٢٤٨ — ٢٥٤ شقت انطاكية عصـا الطاعة وشرعت تجبي الضرائب وتضرب السكة وكثر الفساد بين جندها . واهتبل الفرس هذه الفوضى فجاءوا سنة ٢٥٨ ذات يوم على حين غرة وكان سكان انطاكية مجتمعين في احدى دور التمثيل فما راعهم الا واحد الممثلين المولي وجهه نحو الجبل يصيح مرتاعا « أحلم ما أراه ، أم هؤلاء هم الفرس ؟ » وما ان تم كلمته الا وكانت سهام الفرس تتساقط على المتفرجين كالمطر، ونال الفرس وقتئذ من انطاكية بالنهب والتدمير الى ان جاء القيصر فاليريانوس سنة ٢٥٩ وسعى في ترميمها فنشطت من عثرتها . وفي سنة ٢٦٦ دخلت انطاكية في حوزة زنوبيا ملكة تدمر العربية ونقشت صورة هذه الملكة في سكتها . وذام حكم التدمريين الى ان قضى القيصر اورلثانوس على زنوبيا واقتادها بالسلاسل وعرضها في احد ميادين الالعاب في انطاكية على انظار سكانها الشامتين بها . وانقضى القرن الرابع وضروب الفتن مستعرة في انطاكية والاوبئة والمجاعات والزلازل تنتابها الى ان جاءها ديوكلتيانوس في اواخر ذلك القرن واعاد السلام والاطمئنان اليها ، لانه كان يقضي اكثر ايامه فيها ، وشاد في جزيرتها قصراً ملوكيا عظيما وقلد انطاكية حسب عادة الملوك السابقين بحمامين كبيرين ، لكنه في سنة ٣٠٣ اضطهد النصارى وفظع فيهم شأن اسلافه من قياصرة الرومان ، ومن بعده توالت الاوبئة والمجاعات وغارات الفرس ووثبات الجنـد ومظالم الولاة . ثم عادت انطاكية وسعدت في عهد القيصر قسطنطين الكبير ، فأنه لما جاءها سنة ٣٢٧ اباح لاهلها دخول النصرانية فكانت هذه الاباحة فاتحة عصر

ديني جديد تقوضت فيه دعائم الوثنيه من البلاد الشامية واعتزت النصرانية، وصار لبطاركة انطاكية مكانة عظيمة ، وكثر عدد الكنائس ومنها الكنيسة الذهبية التي يضرب بفخامتها وزينتها المثل ظلت زاهيــــة الى زلزلة سنة ٥٢٦ . ولما مات قسطنطين واقتسم بنوه المملكة الرومانية بينهم كان احدهم قونسطانس ملك المشرق، جاء الى انطاكية سنة ٣٣٨ واستقر فيها واصلح جندها ورد به غارات الفرس الذين كانوا لا يتوانون عن مناصبة الرومان العداء ، وعني بعمرانها فسارت ترفل بعظمتها ومحاسنها وضارعتها بذلك فرضتها سلوقية لانه وسع ميناءها فصارت اكبر ميناء في الساحل الشامي. وفي سنة ٣٦٢ كان فيها القيصر يوليانوس فلحقت بها المجــــاعة التي عمت الشرق واحترق هيكل ابولون فاهتم يوليانوس في تخفيف الويل وترك للاهلين المتأخر من الضرائب . وحاول هذا القيصر ارجاع الوثنية الى بلاد الشام واحيا اعيادها وحفلاتها ، لكن النصرانية كانت قد عمت وتأصلت في النفوس حتى ان خلفه جوفيانوس اعتنقها واتخذها ديانة رسمية للامبراطورية مع اقراره حرية الاعتقاد للوثنيين ، وكان من عادة اهل انطاكية ان يثوروا كلما اريد بهم شر ؛ منها ان القيصر ثيودوسيوس كان افرغ خزائنه لكثرة الاعياد التي اقامها لنفسه ،فعمد سنة ٣٨٧ الى سد النقص بفرض ضرائب جديدة ، فثار الانطاكيون وكسروا تمثال القيصر وغيره وقاتلوا الجند ففتك بهم ولم يزل حتى عفى القيصر عنهم بشفاعة الأسقف بعد ان حرمهم امتيازاتهم وحقوقهم وظهر في غضون ذلك في انطاكية القديس يوحنا فم الذهب الشهير بصلاحه وطلاقة لســــانه ومواعظه التي كان يلقيها على اهل انطاكية الى ان نفى ومات في طريقه الى المنفى . وجملة القول ان العهد الروماني الذي دام ٤٦٠ سنة (من ٦٤ ق م الى ٣٩٦ ب م) كان كثير الشقاء قليل الهناء توالت فيه الحروب الخارجية والداخلية ومعاصي الجند ووثباته والمنافسات والمناحرات الدينية بين انصــــار النصرانية والوثنية ، ناهيك عن المجاعات والاوبئة والحرائق والزلازل الهائلة . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت انطاكية في ذلك العهد ذات ميزات واعتبارات جمة ، ورأت

بقدر الخطوب التي نالتها سعوداً وحظوظاً وفيرة جعلتها قبلة انظار العالم القديم وملكة المشرق . منها انها كانت قاعدة حربية للدفاع والتجاوز المكلف بهما الفيلق الروماني المرابط فيها تجاه الدول والشعوب الآسيوية كالارمن في الشمال والفرس في الشرق والعرب في البـــادية واليهود في الجنوب ، لذا كانت انطاكية ملأى بالثكنات والمسالح ودور الصناعات الحربية ، ثم كانت مركزاً تجارياً هاماً ومستودعاً وممراً عظيمين لمختلف السلع والمحاصيل الواردة من كل اقطار المعمور في الشرق والغرب ، وكانت معقل الوثنية ثم مهد النصرانية بعد اورشليم تناحرت فيها الديانتان وتنـازعت من نحل النصرانية الكثلكة والهرطقة والآريوسية وغيرها . والتجأ اليها بعض الحواريين كبطرس وبولص وبرنابة ، وكانت مقر عظماء البطاركة وكبار القديسين والوعاظ ومصدر الدعاة والمبشرين بتعاليم المسيح ، وكانت ايضاً مدينة الصناعات والفنون ومحجة طلاب الثقافة في تلك العصور ، تتهافت الى نوادي الآداب والفنون اليونانية فيها الفلاسفة والخطباء والعلماء ويقصدها خاصة رواد علوم البلاغة والبيان كما كان يقصد وقتئذ طلاب علم الحقوق بيروت . وكانت مساحة انطاكية في العهد الروماني اكثر من عهدنا بعشر مرات وعدد سكانها اقترب من نصف مليون بينهم عدد وافر من الغرباء المتقاطرين اليها من كل انحاء آسية واوربة وافريقية .

وكانت انطاكية مخططة ومشيدة باحكام عجيب ، كان فيها فيما قيل ثلاثة شوارع عظيمة مستقيمة تتقاطع مع شوارع وطرقات ثانوية لا يحصيها العد ولا تختلف عن الاولى الا بالقد ، وكان على جانبي العظيمة منها أروقة ذات اعمدة ضخمة مزدوجة ، وكل الشوارع كانت مبلطة وعلى جانبها ارصفة تعلو عن البلاط ، وكانت المياه الآتية من دفنة لقناطر تراجان تنحدر من أعلى جبل سيلبيوس وتتوزع بقنوات متقنة على كل الاحياء والدور والمعـــاهد وتتدفق او تفور في احواضها ورياضها ، وكان في ملتقى الشوارع ميادين واسعة تتخذ للاجتماعات العامة ، اما القصور والدور والهياكل والكنائس والمسارح والمدارج والحمامات

والمدارس والمتاحف والتماثيل فحدث عن عظمتها وجمالها وكثرتهـــا ما شئت. وقيل ان اجمل هذه المباني وافخمها كان في حي الجزيرة وفي دفنة الممتازن بسكنى طبقة العظماء والاثرياء. وكانت الايام المشهودة في انطاكية ايام الاحتفاء بقدوم قياصرة الرومان الذين كانوا يدخلونها بمركباتهم الحربية وافيالهم الضخمة وجنودهم المتنوعة الالوان والقامات والازياء والاسلحة، وكانت افخم الاعياد وابهج الحفلات تجرى في ضاحية دفنة. وكثيراً ما شكى قديسو النصارى ما كان عليه اهل انطاكية في تلك العصور من القصف والتهتك وارتياد المسارح والملاعب يسمعون شجي الالحان ويشهدون تمثيل الروايات والالعـــاب الاولمبية وعراك المصارعين وسباق المركبات والخيول واقتتال الوحوش مع الابطال او الاسرى.

العهد البيزنطي (٣٩٦ = ٣٦٨ = ٢٤٢ سنة). — بعد ان قسم قسطنطين دولة الرومان في سنة ٣٩٦ الى دولتين شرقية وغربية، واتخذ القسطنطينية عاصمة للشرقية مضت سنون طويلة في انطاكية دون حادث الى سنة ٣٤٩ خرجت فيها القيصرة افذوكسيا زوجة ثيودوسيوس الثاني لزيارة القدس والتبرك بقبر المسيح، وكانت امرأة متعلمة اديبة، فلما وصلت الى انطاكية تذكرت ماضيهـــا فجلست على تخت من الذهب مرصع بالجواهر والقت على الشعب خطاباً في مديح انطاكية واشارت في ختامه الى ان اصل المدينة يوناني، لان الذي اختطها احد قواد الاسكندر وانها هي يونانية الاصل ولذلك هي احبتها كل المحبة، ثم انشدت شعراً من الالياذة موافقاً للمقـــام فتحمس السامعون ودعوا لها بالتوفيق والاجلال ونصبوا لها تمثالين احدهما من البرونز وآخر من الذهب، واقاموا الاول في دار التحف والثاني في دار مجلس الشيوخ، فقابلت القيصرة ذلك بالشكر وغمرت انطاكية بعطاياها وانعامها، صرف منها قسم في تحسين حمامات فالنسيوس وآخر في مشترى مؤن للفقراء. وفي سنة ٤٥٨ حدثت زلزلة عظيمة قلبت مبانيها الحديثة التي كان التجار انتقلوا اليها وتجمعوا، فاعان القيصر لئون الاهلين على ترميم المدينة واعفاهم من بعض الضرائب، والى

هذا القيصر ينسب بناء دير القديس سمعـــان العمودي الماثل حتى الآن في جبل سمعان كما ينسب الى هذا العهد البيزنطي بناء الاديرة والبيع والقصور والدور والحمامات والقبور التي لا تزال ماثلة في الجبل الاعلى وجبل باريشا وجبل الزاوية كما بيناه في حديث كل منهـــا . وفي سنة ٤٩٤ تزلزلت ارض انطاكية فخربت هي ومنبج واللاذقية وثار سكانها على الوالي فزادوا الخراب خرابا . وفي سنة ٤٩٤ هاجم اعراب البادية ضواحي انطاكية ونهبوها واعقب ذلك غارات الجراد وفوضى احكام ومنازعات دينية وفي سنة ٥٢٦ حدثت زلزلة هائلة نشأ من جرائهـــا حريق عظيم ايضاً كادت تخرب انطاكية بأسرها ، وهجم اهل الضواحي والجبال للسلب والنهب وللاجهاز على من بقي سالماً من اغنيائها ، وقيل ان هذه الكارثة اودت بحياة ٢٥٠٠٠٠ نفس وقضت على كنيسة قسطنطين العظمى . ثم بعد سنتين حدثت زلزلة اخرى هدمت ما ابقته الزلزلة الاولى ، وقضت على حياة الالوف ايضاً ، فاشار يومئذ احد النساك بتسمية انطاكية ثيوبوليس اي مدينة الله املا بدفع المصائب عنها فقبلت مشورته . وشرع يوستنيانوس وكان اعظم قياصرة البيزنطيين وابسطهم يداً في العمران والبنيان في ترميم المدينة وصرف في هذا السبيل اموالا طائلة . وما كاد يتم اعماله حتى هاجم كيخسرو ملك الفرس انطاكية في سنة ٥٤٠ فاضرم فيها النار فاحترقت برمتها ما عدا الحي المدعو ستراتيوم والكنيسة العظمى ، بعد ان سلب جنوده حلي هذه الكنيسة وبلاطها كما سلبوا تماثيل المدينة واعلاقها النفيسة ، وساق كيخسرو الوفاً من الاسرى الى شرقي الفرات وحملهم على اشادة مدينة حديثة مثل انطاكية دعيت بعد حين بالمداين . وعقب هذه الكارثة الفادحة نشط يوستنيانوس مرة اخرى لترميم انطاكية على تخطيط حديث يناسب اوضاع ارضها وطرق الدفاع عنها ، فجدد اسوارها المنيعة الباقية اطلالها حتى الان وشوارعها وسككها وبلطها تبليطاً حسناً ، وحفر خندقاً عميقاً بين العاصي والاسوار وحول بعض العاصي اليه ، لكن الاهمال قضى على هذا الخندق واصبح مكانه مستنقعاً . وبنى على الاسوار ٣٦٠ برجاً وسبعة ابواب وزين المدينة بحمامات

جميلة وقصور وكنائس ومستشفيات عديدة ، وجدد قنوات الماء، واقام لمياه الشتاء التي كان من عادتها ان تأتي المدينة باضرار سدوداً متينة قادرة على وقاية المدينة اذى المياه . ومرت فترة بين سنى ٥٤٠ — ٥٧٣ رأت انطاكية فيها راحة وطمانينة لم يشبها الا تمزق النصارى شيعا ، وزاد انكباب الانطاكيين خلالها على القصف والكسب ، وتغيرت حالتهم عما قبل فاصبحوا لا يحفلون الا بملذاتهم وارباحهم ، وانقلبت الابحاث العلمية والفلسفية الى مجادلات دينية عقيمة الهبت روح التعصب والاضطهاد . وكانت بلاد الشام في تلك الحقبة مالت حضارتها وعظمتها الى الزوال . لان الفرس كانوا لا يتوانون عن مهاجمتها كلما اهتبلوا الغرر فيغيرون ويعيثون ويرجعون مثقلين بالغنائم والاسرى . نهبوا سنة ٥٧٣ دفنة واحرقوا ضاحية عين جاموس ، وعادت الزلازل تقوض دعائم انطاكية ، فقد قضت زلزلة سنة ٥٨٩ على الكنيسة العظمى وقتلت ٦٠٠٠٠ نفس . وفي القرن السابع في سنة ٦١٠ احرق اليهود احد الاساقفة فوثب الجند عليهم واعمل فيهم الذبح . وفي السنة التالية جاء الفرس وهاجموا انطاكية كجاري عادتهم ، وبعد رجوعهم انصرف من بقي من سكانها الى التشاحن والتناحر على خلافات مذهبية، وسادت الفوضى وفقد الأمن وبارت الارضون وتعطلت الصناعات وعم البؤس والشقاء واختلت شئون الدولة البيزنطية وكثر فساد عمالها وجورهم ، وما زالت هذه الاسواء تترى في الثلث الاول من القرن السابع ، والضجر والقلق آخذين بخناق الشاميين عامة الى ان اقبلت طلائع الجيوش الاسلامية .

العهد الاسلامي . — فتح المسلمون انطاكية سنة ٦٣٨ م على يد ابي عبيدة ابن الجراح بعد حصار قليل انتهى بالصلح وظلت انطاكية في يد المسلمين وثغراً من ثغورهم ، جعلوها من اعمال جند قنسرين ثم اتخذوها حيناً قاعدة للعواصم كما اتخذوا منبج حيناً ايضاً . والعواصم فيما قيل هي البلاد التي تعصم مادونها من بلاد الاسلام من العدو وهي غير الثغور التي كانت في كيليكية ، واسكن معاوية وعبد الملك ابن مروان في انطاكية قوماً من الفرس والزط . ورأت انطاكية

السلام والرخاء في زمن الامويين في الجملة لو لا الزلزلة التي حدثت سنة ٩٣ هـ وكانت عامة . وفي زمن العباسيين كانت انطاكية من اعمال « جند حلب وقنسرين والعواصم » تتعاورها ايدي ولاتهم، وكان منهم سيما الطويل احد قوادهم ومواليهم البارزين ، جاءه سنة ٢٦٤ احمد بن طولون الذي اعلن استقلاله في مصر والشام فجفل منه سيما الى انطاكية فحاصره ابن طولون وفتحها عنوة وقتل سيما واستولى على حلب وانطاكية وبلاد كيليكية ، وظلت انطاكية بيد الطولونيين الى ان زالت دولتهم فرجعت الى العباسيين ترى من تقلب الاحوال ما تراه حلب وغيرها من المدن الشامية الى ان دخلت في حوزة الاخشيديين سنة ٣٢٩ ، ثم في حوزة سيف الدولة بن حمدان امير حلب . وفي سنة ٣٥٣ عصت انطاكية لجور لحقها وجاء منها ثوار حاصروا حلب في غياب سيف الدولة فدافعهم نائبه ، ثم جاء سيف الدولة بنفسه وقاتلهم في سهل العمق وقتل مقدميهم وصادر اعيانهم ، ثم رجع في ايام شديدة الامطار كما قدمناه في حديث السهل المذكور .

العهد البيزنطي الثاني . — واهتبل الروم البيزنطيون هذه الفوضى الناشبة بين المسلمين وامرائهم فجاء القيصر نقفور الفقاش سنة ٣٥٥ واستخلص كيليكية من المسلمين كما قدمنا ، ثم حاصر انطاكية لكنها دافعت دفاعا مجيداً وصدته فعاث في اعمالها ورجع ، وعاد في سنة ٣٥٨ ووصل في غاراته الى حماة وحمص وطرابلس ورجع يقود مئة الف صبي وصبية من سبايا المسلمين ، واقام على حصار انطاكية احد قواده ميخائيل البرجي فتمكن هذا سنة ٣٥٩ من الاستيلاء عليها بعد حصار طويل وبفضل خيانة اهل بغراس الذين كانوا تظاهروا بالالتجاء الى انطاكية ومكنوه من الدخول كما قدمناه في بحث بغراس ، ففتك باهلها المسلمين وسبى منهم عشرة آلاف صبي وصبية وارسلهم الى القسطنطينية للبيع . وفي سنة ٣٨١ لما حاصر منجوتكين احد قواد الفاطميين ابا الفضائل بن حمدان في حلب استنجد هذا بيسيل ملك الروم فلباه الملك وحرر لنائبه في انطاكية ان يسير لنجدته فالتقاه منجوتكين عند جسر الحديد على نهر العاصي وكسره شر كسرة ، ثم حاصره في

في انطاكية لكنه لم يفز بطائل،وفي سنة ٣٨٤ جرت بينهما معركة ثانية في سهل العمق دارت الدائرة فيها على الروم وتعرف بوقعة المخاضة ، ونهب منجوتكين رساتيق انطاكية واحرقها . واستمرت انطاكية بيد الروم ١٢٢ سنة .

العهد السلجوقي . — وفي سنة ٤٧٧ استنقذ انطاكية من الروم سليمان بن قتلمش السلجوقي احد ملوك آل سلجوق بمخامرة الحاكم بها من جهة الروم كما هي العادة في هذه المدينة الحصينة التي كانت لا تؤخذ في الغالب الا بالمخامرة . وكتب سليمان الى السلطان ملكشاه بن آلب ارسلان بخبر فتحها فسر به فقال الابيوردي يخاطب ملكشاه :

لمعت كناصية الحصان الاشقر   نار بمعتلج الكثيب الاحمر
وفتحت انطاكية الروم التي   نشزت معاقلها على الاسكندر
وطئت مناكبها جيادك فانثنت   تلقي اجنتها بنات الاصفر

وسار شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي من حلب ليدفع سليمان عنها لانه لم يدفع له الجزية التي كان يتقاضاها من روم انطاكية، فقابله سليمان في سهل العمق وكسره وقتله سنة ٤٧٨ ، وتهافت المسلمون على سكنى انطاكية لكنهم لم يستقروا فيها اربع عشرة سنة حتى دهمتهم الحملة الصليبية الاولى سنة ٤٩١ بعد ان استولت على مرعش ووادي عفرين وجسر الحديد في سهل العمق .

العهد الصليبي . — داهم الصليبون انطاكية سنة ٤٩١ وحصروها وكان فيها ياغيسيان بن محمد بن آلب ارسلان السلجوقي فدافع دفاعاً مجيداً مدة تسعة اشهر ، حتى واطأ الصليبين فيروز الارمني احد محافظي الابراج مما يلي الجبل فأطلعهم على البرج ليلا بالحبال فهجموا وفتكوا باهلها فتكا ذريعاً ،قيل انهم قتلوا مئة الف نفس وجفل ياغيسيان ثم مات من قهره في الطريق . ولما شاع اخذ انطاكية دون قلعتها التي ثابرت على الدفاع سار كربوغا صاحب الموصل مع بعض امراء المسلمين من دمشق وحمص وحلب وحاصروا الصليبين في انطاكية حتى عدم القوت منهم واكلوا الميتة ، ثم ان كربوغا اساء السيرة فيمن معه وخبثت نياتهم

وكان ضاق ذرع الصليبيين فاستبسلوا وهاجموا على ضعفهم فكسروا المسلمين شر كسرة على قوتهم ، وتشدد الصليبيون بما غنموه من القوت والسلاح فساروا به يفتحون ويعيثون الى ان وصلوا الى بيت المقدس وكان منهم ما ذكره المؤرخون .

ظل الصليبيون في انطاكية زهاء ١٧٠ سنة جعلوها قاعدة امارة باسمها ، وهي احدى الامارات الاربع الصليبية التي اقاموها في حملتهم الاولى . واول من ملكها منهم بوهيموند التارانتي وكانت مدة ملكه عشر سنوات ، ثم ضمها بودوين الثاني الى مملكة اورشليم مدة ثماني سنين ، غير انه ارجعها الى بوهيموند الثاني سنة ٥٢٠ ، وبعد وفاة المذكور انتقلت الى بيوت مختلفة فصلتها كتب التاريخ . وكانت اجل الاحداث التي وقعت في عهد الصليبيين في انطاكية توالي المجاعات والزلازل عليها ، وانشغال هؤلاء بمهاجمة المسلمين او مدافعتهم دون انقطاع ، يناوشهم في الحالتين امراء المسلمين في حلب وحماة نخص بالذكر نجم الدين ايلغازي وعماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين الايوبي ثم الظاهر بيبرس ، وانشغالهم ايضاً بمدافعة القياصرة البيزنطيين الذين كانوا يرومون بسط سلطانهم على انطاكية ويأتون اليها من حين لآخر ، وبمدافعة امراء الارمن الكيليكيين الذين كانوا يحاولون السيادة على مضائق جبل اللكام وحصونه . وكان يعتمد الصليبيون في صيانة انطاكية تجاه المسلمين على ثلاثة خطوط ، كان الاول امام جسر الحديد على العاصي وشرقي سهل العمق وكان فيه حصون حارم وعم وارتاح ويغرا . وكان الثاني حول جسر الشغر وفيه من الحصون القصير وكفر دبين وبلميس والشغر وبكاس وقسطون وبرزوية . اما الثالث فخافر امامية مكلفة بسد المنافذ والمسالك النائية الآتية من حلب او حماة كالتي كانت في اعزاز وحصن الباسوطة في وادي عفرين وحصن الاثارب وقصر البنات في جبل باريشا وكفر كيلا في جبل الاعلى والبارة في جبل الزاوية ومثلها معرة النعمان وكفر طاب وافامية . وهذا غير حصون جبل اللكام المكلفة بسد المنافذ الشمالية تجاه البيزنطيين والارمن كدربساك وبغراس وحجر شغلان التي تقدم ذكرها . وقد قضى المسلمون مئة وخمسون سنة

يجاهدون في اسقاط هذه الخطوط الواحد تلو الاخر حتى قضوا عليها وتمكنوا من الوصول الى انطاكية سنة ٦٦٦ في عهد الملك الظاهر بيبرس ، فأنه بعث بادئ بدء جيشاً بقيادة الملك المنصور صاحب حماة ودوخ بلاد كيليكية كما قدمناه في (ص ٣٧ و ٤٩) فقصم بذلك ظهر الارمن وازال اسباب نجدتهم لانطاكية . ولما تم له ذلك سار في سنة ٦٦٦ بنفسه الى انطاكية ونازلها ، وبعد ان فشلت مساعيه في حمل من كان فيها على الاستسلام فتحها عنوة بعد حصار اربعة ايام وقتل من اهلها فيما قيل ١٧٠٠٠ واسر ١٠٠٠٠٠ وغنم منها اموالا واغلاقا عظيمة ، وكانت انطاكية للبرنس بوهيموند بن يوهيموند وله معها طرابلس لما فتحت انطاكية ، فأرسل اليه الملك الظاهر كتابا مطولا يصف فيه كيفية اخذه انطاكية وما فعل جنده فيها من فتك وتدمير وحرق واسر وسبي ونهب وسلب .. الخ .

وهوت انطاكية بعد هذا الفتح وانحط شأنها كثيراً وصارت في عهد المماليك ولاية صغيرة تتبع نيابة حلب يحكمها موظف صغير يكون تارة جنديا وتارة امير عشرة وربما اضيفت اليه القصير (صبح الاعشى للقلقشندي ج ٤ ص ٢٣٠) ، وبعد خلوها واعمالها من الصليبيين جاءها المسلمون وجلهم من التركمان الذين كانوا كثروا في شمال الشام على عهد الدولتين النورية والصلاحية ، فقطن حضرهم في انطاكية وقراها وظل رحالهم في سهل العمق يرتزقون من تربية ارعال الخيل السائمة .

على ان التواريخ العربية سكتت من يومئذ عن التحدث باخبار انطاكية لخمول شأنها وانحطاط عمرانها وبوار الارضين التي حولها لعدم عناية التركمان الذين حلوا في سهل العمق بالزراعة وزوال اسباب مرور القوافل والتجار منها بسبب انسداد فرضة السويدية التي خربها الملك الظاهر ، حتى غدت انطاكية بلدة صغيرة منعزلة وراء اسوارها الباقية خوف غارات تركمان العمق الذين استفحلت شرورهم لما عمت الفوضى في اواخر دولة المماليك ، ومثلهم

اعراب البادية واكراد الجومة « قضاء كرد طاغ في يومنا» ودامت هذه الحالة ايضاً بعد الفتح العثماني والتواريخ لا تحفل بانطاكية ، فاحتجن اناس من هذه العزلة والفترة اللتين طالتا احقابا ثروة زراعية اورثوها لاعقابهم فنشأت في انطاكية اسر تختال الان بعدد ضياعها وبسطة جاهها وعراقة نسبها وجلها من اصل تركماني كآل شمس الدين وآل ملك وآل جيوه لك وآل خلف وآل المسكي ، واحداها من اصل عربي كآل بركات واخرى من اصل فارسي كآل يحي وثالثة من اصل كردي كآل القصيري . وفي سنة ١٢٣٨ حدثت فيها زلزلة دمرت معظمها، وفي سنة ١٢٤٨ افتتحها ابراهيم باشا المصري وبنى فيها الثكنة العسكرية من احجار الاسوار والابراج القديمة ، ثم عادت الى حكم العثمانيين ، وفي سنة ١٢٩٠ حدثت فيها زلزلة قوية دكت ثلثي مبانيها كما هلك كثير من سكانها وانهدم قسم من الاسوار وانشق الجسر الروماني القديم .

غابر انطاكية . — واليك ماوصفه الجغرافيون والرحالون العرب انطاكية :
قال ابن حوقل في القرن الرابع في كتابه « المسالك والممالك » : انطاكية انزه بلد الشام بعد دمشق عليها سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليهـــا ، يمر بظاهرها العاصي والنهر الاسود مجموعين وتجري مياههما في دورها ومساكنها ومسجدها الجامع وماؤها يستحجر في مجاريه حتى لا يؤثر فيه الحديد وشربه يحدث رياح القولنج والسلاح بها يسرع اليه الصدأ ويذهب ريح الطيب بالمكث فيها ، ولها ضياع وقرى ونواح خصيبة جداً ، وهي احـــدى كراسي بطاركة النصارى ولها عندهم قدر عظيم .

وقال ابن بطلان في رسالة الى احد اصدقائه في بغداد يصف انطاكية في القرن الخامس سنة ٤٤٠ هـ حينما كانت بيـد الروم البيزنطيين : وخرجنا من حلب طالبين انطاكية وبينهما يوم وليلة فوجدنا المســـافة التي بين حلب وانطاكية عامرة لا خراب فيها اصلا ولكنها ارض تزرع الحنطة

والشعير تحت شجر الزيتون قراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهها متفجرة يقطعها المسافر في بال رخي وامن وسكون ، وانطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك يضمنون حراسة البلد سنة ويستبدل بهم في السنة الثانية ، وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل والسور يصعد مع الجبل الى قلته فتتم دائرة وفي رأس الجبل داخل السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة ، وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلع عليها الا في الساعة الثانية ، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة ابواب وفي وسطها بيعة القسيان وكانت دار قسيان الملك الذي احيا ولده بطرس رئيس الحواريين وهو هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين وكان يدور الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة ومتعلمو النحو واللغة وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلا ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة وهو من عجائب الدنيا وفي اعلاه خمس طبقات في الخامسة حمامات وبساتين ومناظر حسنة تخر منها المياه وعلة ذلك ان الماء ينزل عليها من الجبل المطل على المدينة . وهناك من الكنائس ما لا يحد كلها معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع وفي البلد بيمارستان يراعي البطريك المرضى فيه بنفسه ومثل ذلك يفعل الملك والرؤساء التماس التواضع . وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله في مدينة اخرى لذاذة وطيبة لأن وقودها الآس ومياهها تسعى سيحاً بلا كلفة اهـ .

وقال ياقوت في معجم البلدان يصفها في اوائل القرن السابع بعد ان ذكر انها كانت قصبة العواصم من الثغور الشامية وانها الان (اي في عهده) في ايدي الافرنج : وهي من اعيان البلاد وامهاتها موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير . (وبعد ان نقل عن ابن بطلان ما نقلناه آنفا قال) : وبين انطاكية والبحر نحو فرسخين ولها مرسى في بليد يقال له السويدية ترسي فيه مراكب الافرنج يرفعون منه امتعتهم على الدواب

الى انطاكية ... وبانطاكية قبر حبيب النجار يقصد من المواضع البعيدة وقبره يزار ويقال انه نزلت فيه (وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين) . وقال شيخ الربوة في القرن الثامن : انطاكية قصبة السواحل وكانت احدى كراسي الروم وتسميها الروم تعظيما لها مدينة الله كما تسمى الارض المقدسة ، وانطاكية من المدن القديمة ويحيط بها سور كبير يحيط على اربع جبال وشعاري ولها بساتين وحبيب النجار منها وله قصة في سورة يس في القرآن الحكيم. الخ ومر ابن بطوطة بانطاكية في ذلك القرن في سنة ٧٢٥ فقال عنها : مدينة عظيمة اصلية وكان عليها سور محكم لا نظير له في اسوار بلاد الشام فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها ، وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الاشجار والمياه وبخارجها نهر العاصي وبها قبر حبيب النجار وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر اه . فيظهر من كلام ابن بطوطة ان انطاكية نشطت بعد الدمار الذي لحقها في فتح الملك الظاهر وصارت « كثيرة العمارة حسنة الدور» كما قال . ولم يظهر بعد شيخ الربوة من الشرقيين من جاء ووصف لنا انطاكية في القرون المتأخرة سوى سائحنا اوليا جلبي الذي (راجع صحيفة ١٦) وصف اسوارها وابراجها العظيمة وقد كانت ماثلة في عهده ، ووصف قصورها وجوامعها وتكاياها واسواقها ومياهها وفواكهها ، فدلنا بذلك على ما كانت عليه هذه البلدة في اواسط القرن الحادي عشر الهجري ، وفي عهدنا تكلم عن انطاكية كامل الغزي المتوفي سنة ١٣٥١ في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب فقال : قضاء انطاكية واسع معمور كثير الخيرات وافر البركات غزير المياه عظيم المتنزهات فيه السهل والوعر والغالب على اهله الثروة لان لهم من حقوله عدة مواسم من الحبوب والحرير والزيتون والبرتقان والرمان والتين والعنب والتفاح وبقية الفواكه اللذيذة وكلها تنتقل الى البلاد شرقاً وغرباً ، واللغة العامة في قضاء انطاكية التركية ثم العربية ثم الكردية ثم الارمنية ويوجد في كل امة منهم من يعرف لغة مواطنيه ، وهواء انطاكية جيد لولا ما فيه من الرطوبة وذلك لان مهبه من

الجهة الغربية فيمر على البحر اولا ثم على السويدية وما فيها من العيون والمياه ثم على نهر العاصي فيكتسب رطوبة ظاهرة الاثر وقلما يبيت الطعام المطبوخ في انطاكية ، وهي كثيرة الامطار والبروق والصواعق وربما حصل ذلك في الصيف ايضاً وكثيراً ما تتلبد سماءها بالغيوم في ابّان الصيف ليلا او نهاراً فيحتبس الريح ويشتد الحر وينتشر البعوض ويبقى الانسان في اضطراب عظيم، وشرب سكان انطاكية من العاصي او من العيون المنحدرة اليها من جبل حبيب النجار ، وكان لمدينة انطاكية خمسة ابواب مشهورة هي باب بولس وباب الكلب وباب دوكه وباب العاصي وباب الحديد وسورها العظيم باق حتى الان لكنه في غاية التوهن ويبلغ محيطه اثنى عشر ميلا وذلك مسيرة ثلاث ساعات تقريباً وهو محيط بها من جهة الشرق والجنوب والعاصي من شمالها وغربيها . . . وقال ايضاً : اول ما يتراءى للمطل على مدينة انطاكية من جهة حلب جبل حبيب النجار فيرى منازل وعمائر منبثة بين الحدائق والبساتين ، ثم لا يلبث القادم حتى يسمع من جهتها نعر النواعير الدائرة بقوة مياه العاصي الشبيهة بنواعير حماة ، وقد يستقبل النسيم القادم اليها في فصل الخريف بارج الآس النابت في جبالها وهضابها القريبة والبعيدة وبعد ان يجتاز اليها ذلك الجسر القديم يرى بلداً عظيما حسن المباني بعضها من الاخشاب وبعضها وهو الاكثر من الحجارة المنهدمة قد تعلق في كثير منها سواق خشبية يجري فيها ماء النواعير الى اماكن لكل منها قسطل معلوم . وقال ايضاً : اهل انطاكية متدينون والجمال غالب في نساءهم وقد اشتدت في وجهاءهم واعيانهم محبة الجاه والتقرب الى الحكومة ليتمكنوا من اخضاع مزارعيهم وصون حقوقهم وغلاتهم منه ومن غيره من ارباب الصولة في البر . ومما انفردت به انطاكية من الفواكه المشمش العجمي المعروف بشكر باره والدراقن والسفرجل والبني دنيا وقصب السكر والبرتقال والليمون وانواع البطيخ الاصفر والعنب والرمان وحب الآس والعناب وانفردت ايضاً بلبن الجاموس وما يعمل منه كالزبدة والجبن فهما لا نظير له في غيرها وانفردت بتبغها وفليفاتها الحمراء وصابونها الجيد اهـ .

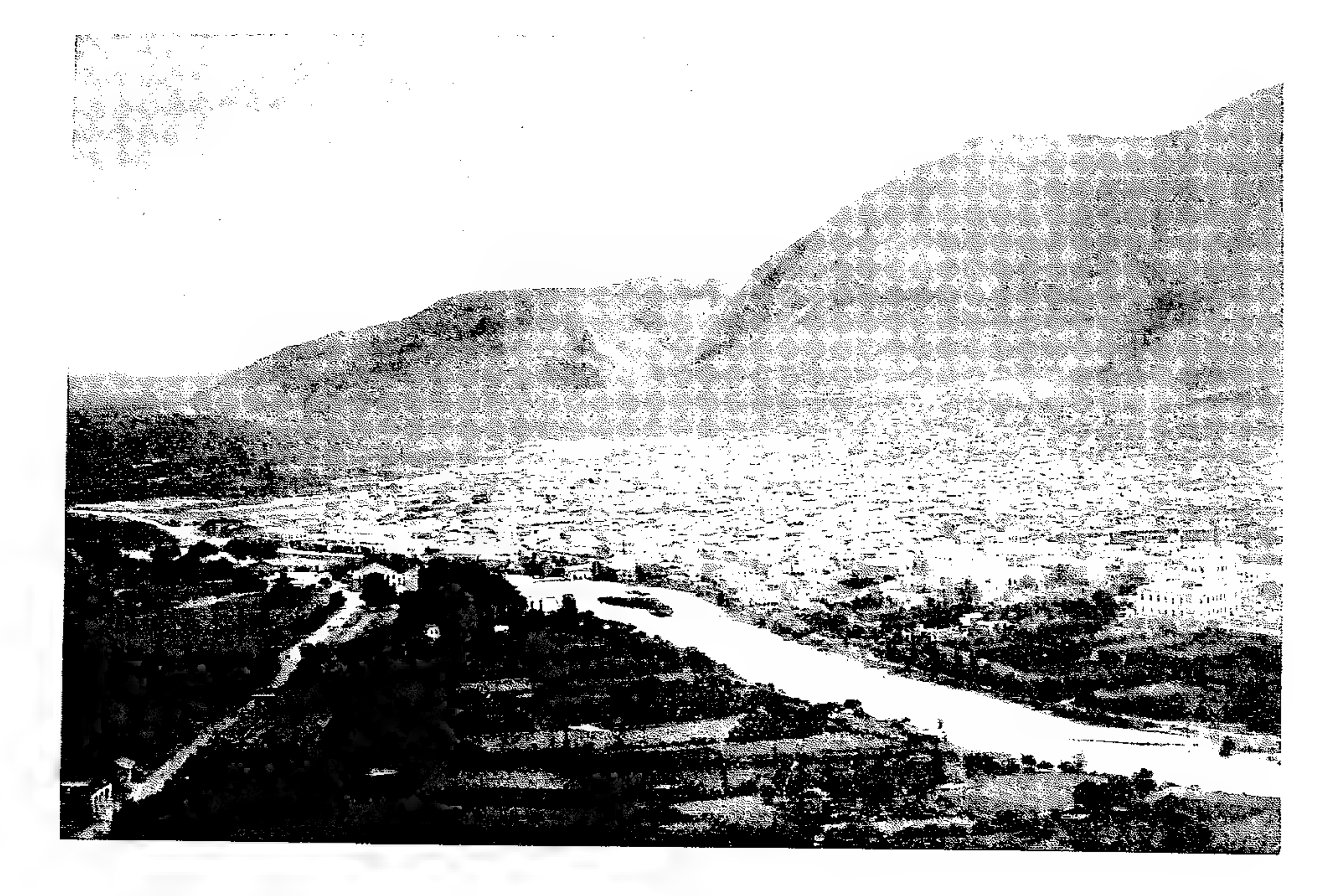
هذا ومما يذكر ان هذه المدينة موطن اميانوس مرشلينوس وارخيـــاس وليبانيوس والقديس يوحنا فم الذهب ، وينسب اليها جماعة من اهل العلم وغيرهم من المسلمين في القرن الثالث والرابع ، عد منهم ياقوت في معجمه اسماء عمر ابو حفص العتكي صاحب كتاب المقبول وعثمان بن خرداذ محدث مشهور له رحلة وابراهيم ابو يحي الازدي الفقيه المقري ، ونبغ في القرن العـــاشر الهجري في انطاكية الطبيب الاشهر داود بن عمر البصير الانطاكي (٩٥٠ – ١٠٠٨) كان متوقد الذكاء بارعاً في الرياضيات والطبيعات والطب واللغة اليونانية . دعى الى مكة ليطبب فكانت منيته فيها ، له عدة مؤلفات اشهرها التذكرة المعروفة باسمه.

وفي القرن الخامس الميلادي لقب اسقف انطاكية بطريركا وكان في الرتبة بعد اساقفة رومية والقسطنطينية والاسكندرية ، ولم يزل في الكنيسة اليونانية يحسب بعد بطريركي القسطنطينية والاسكندرية . ويطلق لقب بطريرك انطاكية على ثلثة من بطاركة الكنيسة الكاثوليكية وهم بطريرك الموارنة وبطريرك الروم الكاثوليك وبطريرك السريان الكاثوليك ، وما من احـــد من هؤلاء مقيم في انطاكية .

وزار انطاكية كثير من السياح والمستشرقين الافرنج كفولناي في سنة ١٧٧٣ وبوجولا سنة ١٨٣١ وبارتلت وبوزر الانكليزيين سنة ١٨٣٥ والاميرة بلجيوجوزو سنة ١٨٣٥ وفان برشم سنة ١٨٩٥ وموريس باريس سنة ١٩١٤ وكلهم ، لاسيما الاولون الذين زاروها قبل قرن او بعض قرن ، وصف حقارة مبانيها المركومة وضيق ازقتها المعوجة واقذارها واوحالها ووطوء دورها واشتباك أفنيتهـــا وصغر نوافذها وجفوة اهلها وتعصبهم ... الى آخر ما هنالك من الازدراء بحاضرها قياساً على ما عرفوه من غابرها ، وقالوا ان مشاهد اطلالها الفخمة وذكريات ما ضيها وما مر بها من طوارئ الحدثان ومسرات واحزان تثير الشده والشجو . وخاض احدهم موريس باريس في حديث صليبي انطاكية وأشـــاد بعزهم وصولتهم ورفههم ولهو نساءهم في حدائق العاصي .

حاضر انطاكية : وانطاكية في يومنا تعد من اجمل مدن الشام هواء وماء وعمراناً ، وعدد سكانها ٣٥٠٠٠ منهم ٢٣٠٠٠ سنيون و ٨٠٠٠ نصيرية و ٤٠٠٠ نصارى ينتسبون لنحل شتى ، وقد تم استجلاب مياه دفنة العذبة اليها ضمن انابيب حديدية كما قد تم تنويرها بالكهرباء ، وفيها ٢٤ مسجداً للمسلمين اكبرها الجامع الكبير وجامع حبيب النجار ، واربع كنائس للنصارى ،وكنيس لليهود ، وفيها ستة حمامات وتكية لاهل الطريقة المولوية ومدرسة تجهيزية كبيرة جميلة البناء ، ويقام فيها سوق عام كل يوم خميس ، .وهي مركز قضاء تتبعها نواحي قرهمغرط والحربية والقصيرالفوقاني والقصير الوسطاني والقصيرالتحتاني والاردو وكسب والسويدية ، واكثر ما تصدر انطاكية الصابون ثم فيالج الحرير والسمك والصوف والحبوب وزيت الزيتون والقطن والقطران وزيت الغار والجلود والفواكه الطيبة وغيرها ، وفيها صناعات غزل الحرير وعمل الصابون والدباغة ونسج الاقمشة والبسط ونجارة الأثاث المعمولة من خشب الجوز وتجارة النقود والآثار القديمة التي ينبشها الاهلون فيها وضواحيها .

وانطاكية وان لم تعل عن سطح البحر اكثر من ثمانين متر ، لكن لها في واديها الافيح الممتد من الغرب الى الشرق بين جبل موسى وجبل حبيب النجار وفي قرب البحر مجال متسع لجريان الرياح الغربية البليلة مما يجعل هواءها في فصل الصيف منعشاً يستهوي رواد الاصطياف والنزهة . وفي الربيع حدث ولا حرج عن نضرة سهولها وخضرة حزونها وغناء رياضها وحمرة ووفرة مياه عاصيها ولذة وكثرة اثمارها وفوحان ازهارها . واذا اراد السائح ان يتملى بمنظر انطاكية من اقرب واعلى مكان ، عليه ان يذهب ويقف فوق تل جبرائيل الذي على يمين العاصي وقرب مدرسة التجهيز ، وقد كان هذا التل مقراً لاكبر قواد الحملة الصليبيةالاولى، ثم بنى عليه كودوفروادوبويون حصناً ، ثم اتخذه المسلمون مقبرة . ومن اراد زيارة داخل البلدة يصل الى جسرها الروماني القديم ذي



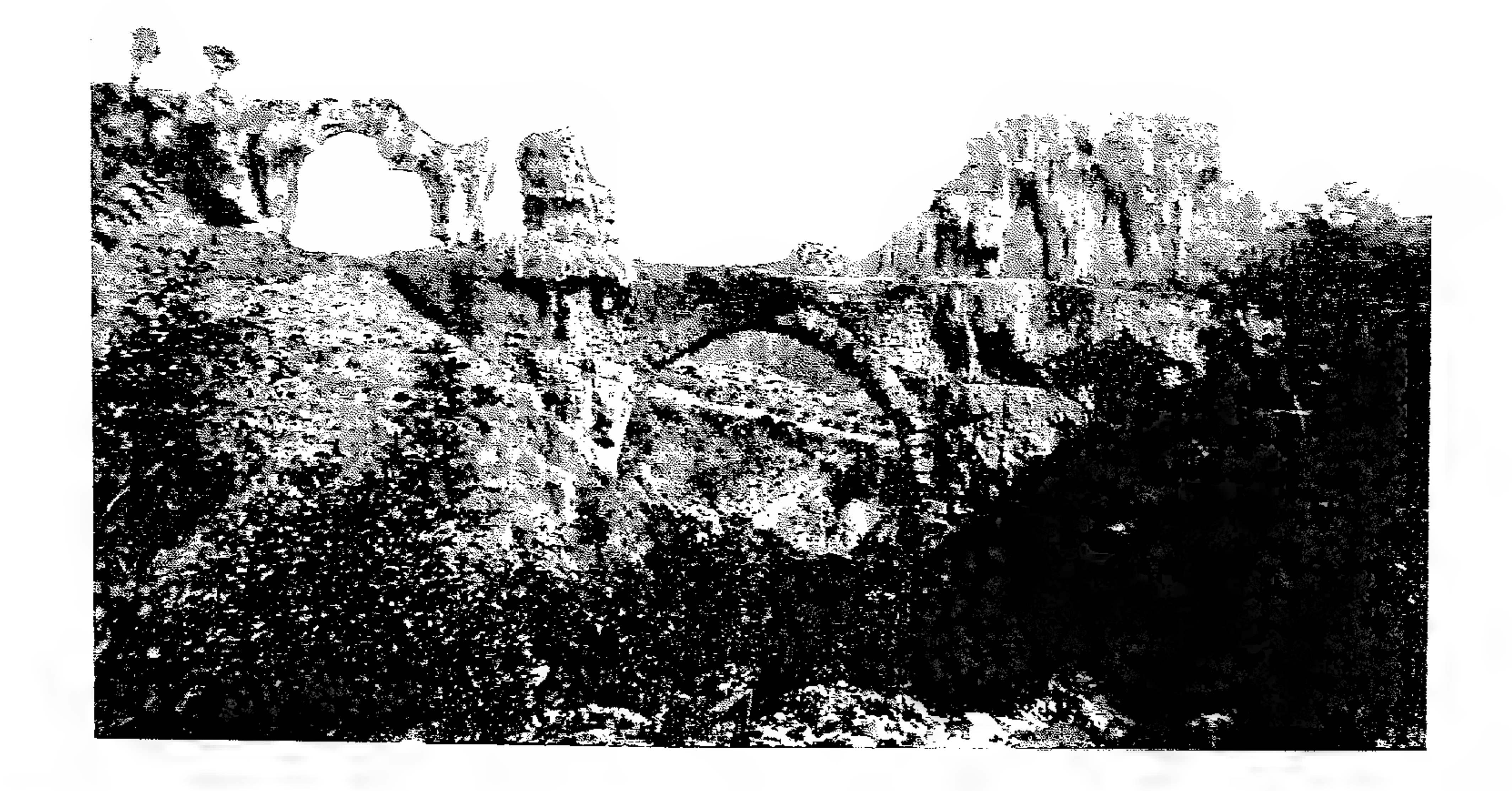
منظر انطاكية العام

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ١٠٦)

القناطر الاربع وقد كان فيما مضى ضعفي طوله الحالي . فاذا وقف فيه يمتع ناظريه بنهر العاصي فيراه اضخم واعرض وارغى وازبد مما كان في حماة، ويشنف آذانه بانغام النواعير، ويشاهد على ضفته اليمنى مقاهي امتدت تحت اشجار الدلب العظيمة اكتظت بالاهلين واللاعبين والسابحين ، وثمة مدرسة التجهيز ومقر البعثـــة الافرنسية ومعمل التنوير الكهربائي وحدائق عديدة والطريق الذاهبة الى طوب بوغاز والاخرى الذاهبة الى السويدية . وفي الضفة اليسرى حيث المدينة كلها يسير السائح في شارع عريض يمتد من الشرق الى الغرب باعوجاج نحو الجنوب يدعونه شارع السرايا ، امتدت في جانبيه افخم مباني انطاكية واجملها المبنية عـــلى الطراز الحديث كالمقاهي والمرائب والمطاعم والفنادق والنوادي والمصارف ودار البلدية ودار الحكومة التي في باحتها عاديات غـــير يسيرة جديرة بالرؤية ، وتتفرع من هذا الشارع شوارع ثانوية تذهب جنوباً نحو داخل البلدة حيث الجوامع والكنائس والمدارس لمختلف الملل والنحل ، وبين الاحياء والدور ازقة ضيقة مرصوفة بالحجارة انظف مما ذكرها سياح القرن الماضي ، اما الدور فمبنية بانقاض هذه المدينة التاريخية التي سطا عليها الاهلون ونقضوها وشوهوها وما برحوا . وجل دور انطاكية تشبه في الجملة دور حلب الا ان سقوفها مغطاة بآجر بلدي يسوّد بمرور الزمن ويكتئب منظره . وفي شرقي الجسر الذي ذكرناه تمتد الطريق المعبدة الممتدة الى حلب « تقدم وصفها » وعليها قرب الجسر دار للبرق والبريد وبعض المباني والمعامل ، ثم تبتدأ الضاحية الملأى بالحدائق الغناء . واللغة السائدة في انطاكية التركية عند المسلمين السنية ، ثم العربية عند النصارى والنصيرية . والترك والنصارى في رغد من العيش والتجمل العصريين في مظاهرهم ومساكنهم . ومن الترك كثير من المثقفين في مدارس استانبول واوربا . وتعد انطاكية معقل الترك في لواء الاسكندرونة ، وهم هنا ذوو ثلاث نزعات متباينة ، فالخاصة صاحبة الثروة والوجاهة وممثلة الاقطاعية تناصر الوضع الحاضر الملائم لاستدرار مغانمها ، وبعض العامة وعلى

رأسها رجال الدين تفضل الانضواء تحت راية الانتداب الافرنسي على اتباع النزعة الكمالية العلمانية ، وبين هذه وتلك الشبيبة المثقفة في مدارس استانبول المتمسكة بالنزعة المذكورة كل التمسك والعاملة على الحاق انطاكية بل لواء الاسكندرونة كله بجمهورية انقرة . اما العرب فعلى كثرتهم ضعفاء في كل شيء ، في القومية وفي الثقافة . فالنصارى مشتتو الاهواء بحكم اختلاف نحلهم وتضارب مبادئهم التي لقنوها في مدارس الاغيار لا يدرون اي وجهة يولونها ، والنصيرية وان اعلت الدولة المنتدبة قدرهم واسمتهم «علويون» وعهدت الى بعض نبهائهم بالوظائف الكبيرة واتخذتهم انصاراً لها لكنهم وقد بقوا احقابا بعيدين عن التحضر والتعلم ما برحوا معدومي الثقافة محرومي الرفه والرغد العصريين ، ليس لهم زعماء يحسنون ارشادهم وتوجيه اميالهم نحو الحظيرة القومية ، لذلك ظلوا حيارى حول هذه الحظيرة لا يستقرون على حال . فهذه الامور في انطاكية خاصة ولواء الاسكندرونة عامة معقدة ، مضطربة ، تتقاذفها الاهواء والدعايات ، والنزاع سائد بين الفكرتين العربية والتركية كما ان النفور ضارب اطنابه بين السنية والنصيرية . ولكل من اللغات الرسمية في هذه الديار نصراء ، فالترك ومن وراءهم جمهورية انقرة ونوابها وصحافتها يدافعون عن اللغة التركية ويصخبون ، وعمال الدولة المنتدبة ذوو السلطان الواسع في هذه الديار عن الافرنسية ، والموظفون الشاميون القلائل الضعاف في الحول والطول عن العربية ، ولا يعلم الى اي مدى يبلغ هذا التعقد والتنازع وكيف ومتى ينتهي .

والنصيرية في قضاء انطاكية يؤلفون السواد الاعظم في نواحي السويدية والحربية وقره مغرط اي في كل وادي العاصي بين انطاكية والبحر تمتاز ضياعهم بوجود القباب البيضاء التي تعلو الاماكن المرتفعة وتحت كل منها مزار يحجون اليه في اوقات خاصة . وهؤلاء على ما يظن نزحوا في احقاب متوالية من مواطنهم الاصلية في جبال اللاذقية فاختلط هنا بعضهم ببعض ولم يعد لهم عصبيات خاصة كما هي الحال في مواطنهم المذكورة . ومهنة هؤلاء الفلاحة والبستنة وتربية



انطاكية قناطر تراجان في طريق دفنة



(جولة اثرية ' مقابل صفحة ١٠٩)

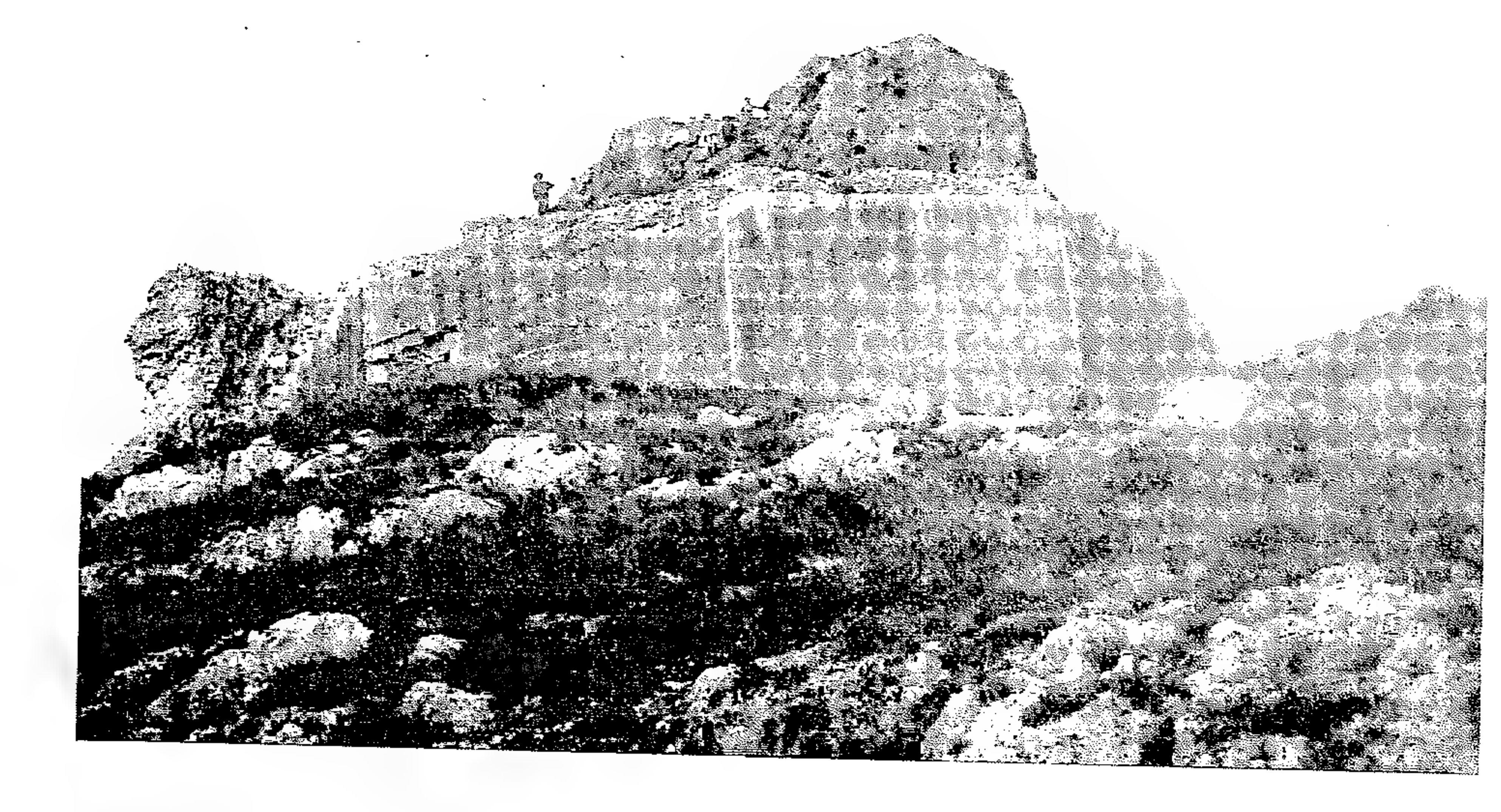
الماشية ودود الحرير ، قل من امتلك ارضاً واسعة بل جلهم اجراء وشركاء لدى « الاغوات » و « البكوات » الترك الانطاكيين الذين ما برحوا يمثلون العهد الاقطاعي القديم ويحتفظون بمظاهره وتقاليده .

الطواف حول الاسوار وزيارة الاثار : كانت اسوار انطاكية سالمة في معظمها الى حين مجيء ابراهيم باشا المصري ، فانه قضى عليها قضاء مبرماً ، واتخذ احجارها في اشادة ثكنات عظيمة لجنوده ، وسطا من بعده الاهلون عليها وما برحوا . وكانت هذه الاسوار حينما بناها تئودوس كبيرة ، ثم بعد خرابها بالزلازل والحروب رممها يوستنيانوس وصغر دائرتها وابقى في خارجها الجزيرة التي كانت تحوي القصر الملوكي . واذن فجميع احجار واطلال الاسوار من العهد البيزنطي ، ولهذه الاسوار واجهتان من الحجر المنحوت ، وقد كان عرضها فيما قيل الى حد يمكن ان تسير فيه مركبة ذات اربعة خيول ، ولعل هذا الامكان كان مختصا ببعض الاقسام لا كلها . ومن مسافة الى اخرى بنيت على الاسوار ابراج عظيمة شاهقة ذات ثلاث طبقات لا تزال اطلال البعض منها ماثلة . ولدثور معظمها صار يستحيل تقدير عدد هذه الابراج التي قال ابن بطلان فيما نقلناه عنه انها كانت ٣٦٠ برجا ولعل هذا العدد مبالغ فيه ، وكان في داخل كل منها درج داخلي وحوض ماء .

وقاصد الطواف حول الاسوار يتوجه بادىء بدء الى طرف المدينة الجنوبي الغربي في طريق دفنة فينحرف عن هذه الطريق قبل الثكنة بقليل ، وقد كان عند هذا المنحرف فيما مضى باب الخضر « القديس جورج » وكان من اعظم المنافذ الى انطاكية ، ويصعد نحو الجنوب الشرقي في شعب يرى فيه اطلال الاسوار الذاهبة صعداً نحو منحدرات جبل سيليبيوس . وبعد قليل يرى خارج الاسوار جسراً خراب وبعده اربع قناطر من قناة تراجان الآتية من دفنة ، وهي تجتاز هناك واديا يدعى وادي زويبة ، ثم يرى في مكان فوق القناطر اطلال برج

عظيم مخمس الاضلاع يدعى برج الاختين، وهو الذي اطلع منه فيروز الارمني الخائن الصليبيين ، ويرى ايضا هناك كثيرا من الكهوف التي كانت فيما مضى ملجأ الحبساء والنساك . ومن كان قديراً على الدرج والتصعيد يلازم في سيره الاسوار بعد البرج المذكور حتى اذا وصل الى قمة الجبل يراها قد اعوجت نحو الشمال الشرقي في اتجاه القلعة . وكذلك يمكن للسائر ان يجوز خط الاسوار ويتجه نحو الجنوب الشرقي فيجد لحباً اختطه الجند الافرنسي سنة ١٣٤٠ يصعد بتعاريج متوالية ويمر بحوض قديم كانت تأتي مياهه بقناة تحت الأرض من ينابيع في الجبال المجاورة ، ويصل السائر اخيراً في صعائد شاقة الى القلعة وشكل هذه القلعة مثلث متطاول وكان لها في الجنوب اربعة عشر من الابراج الصغيرة المدورة . على انها لم تكن في الجملة ذات بناء متين صالح للدفاع بل كل مناعتها منحصرة في انها في ذروة لا ترام . بناها القيصر نقفور الفقاش البيزنطي ، وبعد ان قضت عليها الزلازل رممها باسيليوس الثاني وكان يدخل اليها من سرداب سري من الزاوية الجنوبية . والواقف في اعلى هذه القلعة يطل على مناظر تستهوي الالباب بتنوع الوانها وروعة مشاهدها . فهو يرى امامه مدينة انطاكية ونهر العاصي وواديه والجبل الاحمر وجبل موسى واعضادهما ، ويرى على يمينه سلسلة آمانوس وسهل العمق وبحيرة انطاكية الزرقاء يتوهج سطحها باشعة الشمس كصفيحة من اللجين فيحلق في سماء التفكير ومسارح الخاطر ويستعرض ما مر على هذه المدينة الدهرية وضواحيها من طوارىء الحدثان وعوادي الزمان .

وبعد القلعة يصادف السائر في الجبل تلعات مائلة ومهاو سحيقة تمتد حتى الوادي الذي فيه باب الحديد . ويصل الى هذا الوادي من شعب ذي مهابط عديدة وفي اسفل الوادي يجد الاسوار ممتدة بشكل الدرج ، وهي هنا تكاد تكون سالمة . ثم تجتاز الاسوار وادياً ضيقا ومعوجا يجري فيه الماء كان يدعى قديما اونوبنيكلس . وكان هذا الوادي فيما مضى يكثر ماءه فجأة ويطغي فيحدث في انطاكية اضراراً جمة عند خروجه من مضيقه . ولازالة هذا الضرر صنع له



برج الاختين في انطاكية

(جولة اثرية · مقابل صفحة ١١٠)

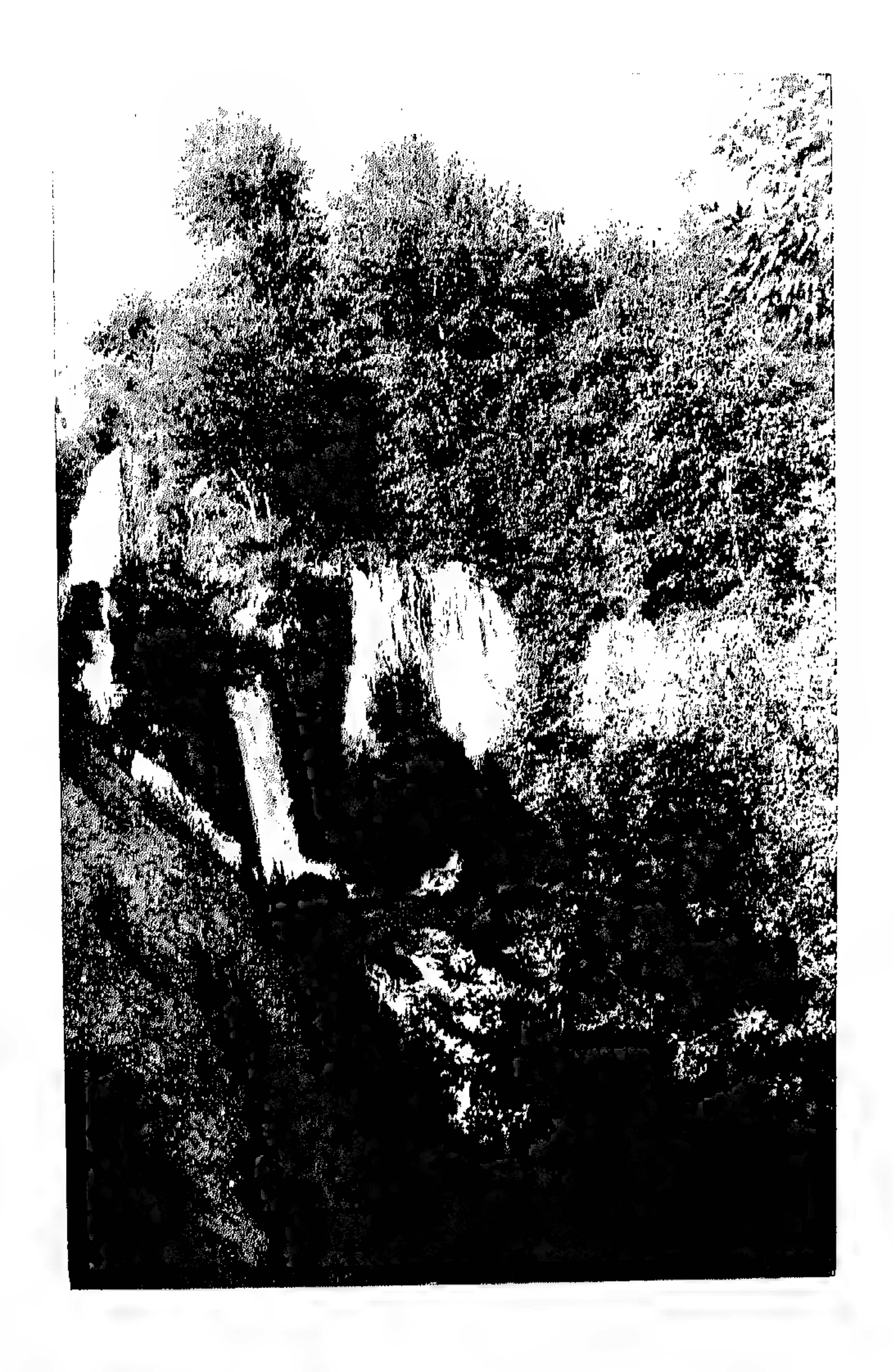
القيصر يوستنيانوس سداً من الحديد يفتح ويغلق حسب اللزوم . ويمكن للذي لا يخشى دوخ الرأس ان يجتاز الوادي المذكور فوق الاسوار فيطل من اعلاها على مشهد رائع ، وبعد وادي الحديد تمتد الاسوار نحو الشرق فتصل الى قرب الجبل المدعو جبل ساتوريس ، ثم تنحرف نحو الشمال وتهبط حسب انحدار الارضين حتى تصل الى باب القديس بولص . وبعد هذا الباب بقليل تنعرج نحو الغرب وتسير بموازاة قناة مستقيمة من بناء يوستنيانوس مشتقة من العاصي وكان في هذه الجهة على الاسوار باب الكلب وباب دوكة لم يبق من آثارهما الا انقاض مبعثرة بين البساتين ، وهكذا الى ان تصل الاسوار الى باب الجسر حيث مدخل البلدة الحالية .

وفي شرقي باب الحديد يشاهد السائح اطلال المرسح الكبير الذي فيه فاجأ سابور ملك الفرس سكان انطاكية وهم لاهون ، وبعد هذا المرسح يصادف مغارة في حضيض جبل ستوريس تدعى مغارة القديس بطرس ، تجري من بعض جدرانها مياه يقصدها النصارى للاستشفاء ، وقد تسلط الآباء الكبوشيون على هذه المغارة فلا يسمحون بزيارتها في كل الاوقات ، وفي رواية انالنصارى الاولين كانوا يلجأون اليها في زمن القديس بطرس . واذا سار السائح نحو الشرق يرى في حضيض الجبل المذكور اطلالاً غريبة لقناة تحت الارض كانت تجري فيها مياه دفئة ، وكان لهذه القناة فتحات في كل مسافة واخرى يؤخذ منها الماء لاسقاء الارضين على ما يظن . وعلى بعد ثلاثمائة متر من مغارة القديس بطرس يصل السائر الى امام حجر كبير منقوش نقشاً غريباً يشبه الطلاسم، وفيه صورة رأس امرأة . ويعزى هذا الطلسم الى دفع الاوبئة او درء الزلازل عن انطاكية ام الكوارث والنوائب .

وعلى بعد ثلاثة كيلومترات من المدينة وفي اتجاه طريق حلب لحب ينحرف الى اليسار يأخذ السائح بعد خمسة كيلومترات الى الملعب الروماني القديم (الستاديو) وطوله مائتا متر وهو محاط في يومنا بالمستنقعات . وما برحت

المداميك السفلى للمراتب الخاصة بقعود المتفرجين بارزة ، ومثلها انقاض السدود وغيرها . وبعد هذه الاطلال بمسافة وفي الجهة الجنوبية الشرقية يزور السائح انقاض الحمامات التي بناها القيصر فالنسيوس في وقت واحد مع الستاديو . وهذه الحمامات بناء مستطيل الشكل مقسم الى حجرات عديدة يحيط بها من الخارج شبه السرداب . واذا رجع السائح الى طريق حلب يجد قبل انطاكية بنحو كيلومتر مكان الباب القديم المسمي باب القديس بولص الذي خرب بزلزلة سنة ١٢٩٠ ، وفي جواره بركة ماء ما برحت تتدفق منذ احقاب . وكان في قرب هذا الباب دير قديم للقديس المذكور لم يبق منه الا اطلال ضئيلة مبعثرة تحت اشجار التين .

منتزهات انطاكية . — دفنة « الحربية » ، تبعد عن انطاكية تسع كيلو مترات للجنوب الغربي في الطريق المعبدة الذاهبة الى كسب واللاذقية ، والحربية قرية اهلها نصيرية بعثرت دورها بين البساتين الغناء . ومكان النزهة يدعى « بيت الماء » في منحدر يهبط اليه في بضع دقائق ، فيجد فيه القاصد طواحين تدور ، وشلالات تدفق ، ومياه تنحدر مارة بين الصخور الدهرية والأطلال الاثرية ولها خرير ورغو رائعين يبهجان السمع والبصر ، وثمة آكام شاهقة واودية سحيقة متتابعة تمتد نحو الغرب بسقت فيها اشجار الدلب والحور والغار ونمت الاعشاب والانجم الغضراء ، وهنا وهناك مقاه ومقاعد اختبئت بين الينابيع وتحت ظلال الاشجار الوارفة التف حولها رواد النزهة وراغبو التملي بجمال الطبيعة من اهل انطاكية وحلب وغيرهما . وهذه المشاهد والمياه حملت فيما مضى اليونانيين والرومانيين في انطاكية على تجميل دفنة بالهياكل والمسارح والفنادق والحمامات حتى غدت ابدع وانسب مكان في العالم القديم كله للنزهة والقصف والفسق . فما من معبود وثني الا واقيمت له فيها الهياكل ، ومامن قيصر روماني الا وشاد لنفسه فيها دسكرة او قصراً واقام فيها افخم الاعياد وابهج الحفلات ،



شلالات دفنة « الحربية »

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ١١٢)

حتى ان كليو باطرة ملكة مصر عشيقة انطونيو وجوليا ابنة اوغسطوس جاءتا وقضتا فيها اياماً . اما الان فلم يبق من عظمتها السالفة التي اخنت عليهـا طوارء الحدثان سوى روائعها الطبيعية « ماء وظل وازهار واشجار » ، وسوى بضعة كسور اعمدة وبقايا اسس جدران مبعثرة بين الحدائق . وقد شيدوا منذ عهد قريب في دفنة فندقاً كبيراً مستوفياً كل شروط الراحة والرفه .

وحول انطاكية من اماكن النزهة الحاوية على فوائد اثرية ايضاً جبل موسى معقل ارمن هذه الديار ، وفيه من قراهم بتياس وخضربك وحاجي حبيبلي ويوغون اولوق وسوروطمة وكابوسية ووقف . وهذه القرى ذات منـاظر رائعة وحراج وكروم فاتنة وجداول منسابة يربي اهلها دود الحرير ويصنعون الامشاط من خشب البقس وغيره ، وهؤلاء الارمن عريقون في قدمهم الذي يرجع لعهد ملكهم ديكران ، متمسكون بلغتهم وخصالهم القومية ، حدثوني لما زرت بتياس في ربيع سنة ١٣٥٠ انهم في سني الحرب العالمية لما اجبرتهم الحكومة العثمانية على الجلاء كما اجلت بقية ابناء جلدتهم من كل بلادها ابوا الخروج واعتصموا بقمم جبلهم المنيع وحراجه الملتفة وحاربوا الحملة التي هاجمتهم واستبسلوا الى ان توصلوا للاتفـاق مع سفن الاسطول الافرنسي التي كانت تمخر بين الاسكندرونة واللاذقية ، فركبوها رجالا ونساء وانتقلوا الى بور سعيد في في القطر المصري ، وهناك الفوا الكتائب الارمنية التي زحفت مع جيوش الحلفاء سنة ١٣٣٧ ودخلت مدن الشام وكان منها ما ذكرته في بحث الارمن .

ومن اجمل قرى جبل موسى بتياس تقوم في احدى الهضاب المرتفعة من جبل موسى تشرف من عل على انطاكية وضواحيها وسهولها ، وتكثر فيها اشجار الفاكهة وكروم التوت ، تعلو عن سطح البحر ٥٠٠ متر وعدد اهلها الف ، يقصدها رواد الاصطياف من حلب لنقاء هوائها وعذوبة مياهها وروعة مناظرها ، وثمة في اعلى القرية كنيسة لم يتم بناؤها شيدت على انقاض كنيسة قديمة ، وفي قربهـا كنيسة اخرى اثرية باسم القديس يوحنا فم الذهب الذي ظل فيما قيل مدة مديدة

حبيساً في كهوف جبل موسى قبل نزوله الى انطاكية ، وهنـــاك بيت متوهن وضريح لقنصل انكليزي يدعى الميستر باركر وجد في انطاكية قبل قرن وخدم هؤلاء الارمن خدمات جلى بالتعليم والارشاد ، وادخل الى هذه الربوع كثيراً من اشجار الفاكهة التي كانت مجهولة . وقرية خضر بك ايضاً من قرى الارمن الجميلة سكانها ثمانمائة قائمة في لحف جبل وبيوتها راكب بعضها فوق بعض بين اشجار التوت والبرتقال وغيرها المنتشرة في جرف تتوالى من اسفل الجبل الى اعلاه ، وفي مدخل القرية نبع ماء غزير حوله شجرة دلب عظيمة محيطها لايقل عن اثنين وعشرين متراً . وفي غربي انطاكية على ساحل البحر بالقرب من مصب العاصي (السويدية) وهي قرية عظيمة تبعد عن انطاكية ٢٨ كيلومتراً اهلها نصيرية ونصارى ، بيوتها جميلة منفردة مبعثرة بين الحدائق والكروم ، وعلى مقربة منها خرائب سلوقية يزورها السياح لامتاع النظر في اطلالها العجيبة وقنواتها الفخمة الممتدة تحت الارض ، وقد كانت سلوقية فيما مضى فرضة انطاكية ومن اعظم مرافئ الساحل الشامي وظلت في زهوها الى ان ردم الملك الظاهر بيبرس ميناءها بعد استخلاص انطاكية من ايدي الصليبيين حذراً من ان يعودوا فأفل نجمها من ذلك الحين . وناحية السويدية من انزه انحاء الساحل الشـامي بحسن مناظرها وغزارة مياهها ووفور غلاتها من انواع البرتقال والفواكه والزيتون والتين والرمان والحرير والحبوب المختلفة . ومن اجمل متنزهاتهـا (جوليك) يقصده السياح ويضربون فيه الخيام ويتمتعون بجودة هوائه ومائه وجمال مناظره .

ومن الاماكن الجديرة بالزيارة حول انطاكية (حصن القصير) ، وهو في شرقي دفنة وفي الهضاب الوعرة المطلة على صوفيلر احدى قرى كورة القصير التي سيأتي ذكرها ، يبعد عن انطاكية ١٦ كيلو متراً ، وله شعاب كأداء توصل اليه . وقد كانــ هذا الحصن في عهد الصليبيين من المعاقل المخصصة لحراسة

انطاكية من الجنوب ،وهو مبني فوق رابية منفردة تحيط به وهادسحيقة وخندق ولا يزال بعض ابراجه واسواره قائماً ، مر به ابن بطوطة واستحسنه وذكر اسم اميره وقاضيه .

طريق انطاكية — جسر الشغر (٦٩ كيلو مترا)

هذه الطريق الحديثة تفترق عن طريق حلب في الك ٥ بعد قرية ايليجة ، ثم تتسلق عقبات جبل القصير وتعلو هضابه فتمر بقرى عديدة كالمشوقية ونارليجة وقورية وفنك ، والفاتكية في الك ٢٢ ، وصورية وجنيد وفي الك ٢٥ ، وقليزان ومزرعة التركمان وفلنجار وكفرعابد وسفرية وقارياز وبدرهون وهذه في آخر حدود قضاء انطاكية ، ثم تدخل الطريق حدود قضاء جسر الشغر فتمر بقرية القنية في الك ٥٥ وفيها لحب يذهب شمالا نحو دركوش ولحب آخر يذهب شرقا نحو حمة الشيخ عيسى ، وبعد القنية تنحدر الطريق رويدا رويدا وتمر بجسر نهر الابيض وله ١٢ قنطرة ، ثم تصل في الك ٦٩ الى جسر الشغر ، وهذه الطريق كانت ممر بعض القوافل ، فقد سلكها الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٥ حينما مر بحصن القصير ثم بحصن الشغر وبكاس ، وبعض القوافل — كقافلة اوليا جلبي — كانت تمر شرقي هذه الطريق من ضفة العاصي اليسرى فتبدا من عند جسر الحديد وتمر بقرى تليل الشرقي وبخشين وشاخورة ، التي تشرف عليها من الغرب قرية الزيارة المحاطة بالزيتون ،ومن الشرق على يمين العاصي العلاني من قرى ناحية سلقين ، ثم تهبط وادي العاصي فتمر بتل حاجي باشا وبازمرين وبالزمبقي التي ذكرها اوليا جلبي باسم الزنبقية ومدحها (صفحة ١٨) ثم بدركوش ، ثم تتسلق بعد مسافة عقبات الجبل مارة بضياع زرزور وخربة العمود وتلاك والدويسات الى ان تصل الى القنية ومنها الى جسر الشغر .

جبل القصير . — والقصير كورة جبلية خضراء ،يحدها من الشمال والشرق وادي العاصي ومن الغرب البحر ومن الجنوب جبل الاكراد التابع حكومة

اللاذقية وينابيع نهر الكبير الشمالي ،وهي تشمل الان ناحية الحربية والنواحي الثلاث القصير الفوقاني والوسطاني والتحتاني وناحية الاردو وكسب . وهذه النواحي الست تتبع قضاء انطاكية ، وثمة ناحية دركوش تتبع جسر الشغر ، وفيهـــا سلسلتان من الجبال ممتدتان من الشمال الى الجنوب تتصل بها فروع واعضاد كثيرة تجعل هذه الكورة ذات حزون ونجود متموجة يتراوح علوها من ٧٠٠ الى ١٠٠٠ متر في الأكثر ، وفيها نهران يصبان في العاصي ، الاول نهر الابيض يخرج من هضاب الاردو مياهه عذبة ، والثاني نهر البواردة يخرج من قرب قلعة القصير ويصب في الشمال جنوبي جسر الحديد ، وهي في الغرب في جهات الاردو وكسب مزدانة بمختلف الحراج الجميلة اخص اشجارها الصنوبر الحلبي واللبنة والبلوط ، اما في الشرق فهي خالية من ذلك ، ولكن اوديتها ومنحدراتها ملآنة بالانجم والاعشاب البرية الدائمة الاخضرار ، ومغروسة بمختلف الاشجار المثمرة لا سيما الزيتون يأتي بعده التوت واللوز والتين والمشمش وفي منخفضاتها الرطبة الحور والدلب والصفصاف والدفلي ،وهذه الكورة كثيرة الغلال وافرة الخيرات ، تتوالى على سكانها المواسم واجل موسم فيها الزيتون ويصدر زيته الجيد الى انطاكية لصنع الصابون ثم يأتي بعده الحرير والبطيخ والتين والعنب والجبن والسمن ، والحنطة القصيرية مشهورة في هذه الربوع ومفضلة على غيرها وطيور الصيد ودوابه كثيرة ، ويبلغ سكان هذه الكورة في النواحي التي عددناها زهاء ٤٥٠٠٠ معظمهم من التركمان السنيين ويأتي بعدهم العرب السنيون ثم النصيرية،وثمة قرى للارمن واخرى للروم الارثوذكس سيأتي ذكرها،وواحدة للاسماعيلية تدعى جندالية . وتاريخ هذه الكورة مرتبط بتاريخ انطاكية ، وقد كانت تمر منها الجيوش الزاحفة نحو هذه العاصمة من اللاذقية او من جسر الشغر وفيها من الحصون المنيعة التي كانت تخفر انطاكية من جنوبها القصير ودركوش والشغر وبكاس وكفردبين . وفيها الان من امهات القرى قرية الشيخ وهو الشيخ اسماعيل القصيري الكردي الاصل كان معدودا من الاولياء وضريحه

لايزال مقصودا بالزيارة ولاحفاده فيهذه الديارحرمة زائدة،وقد اتخذت هذه القرية قاعدة لناحية قصير الفوقاني ،وفي غربيها نجود هي اعلى مافي هذا الجبل لها منظر جميل وهواء نقي تشرف على وادي العاصي والجبل الاحمر وسهل العمق والجبال المحيطة به،وقرية بابطرون قاعدة ناحية القصيرالوسطاني ،وقارصو قاعدة ناحية القصير التحتاني ، وفي الغرب قرية الاردو وهيقصبة الناحية واهلها تركمان، ثم كسب واهلها ارمن وفيها دير كبير للرهبانالفرنسيسيين ومنها يمكن الصعود الى جبل الاقرع الشامخ ، وقاربياز واهلها تركمان وعلوها ٨٠٠ متر وتعد اكبر واغنى قرى القصير اشتهرت بعنبها الفاخر ولوزها ، وجنيدو واهلهـــا روم ارثوذكس يقام فيها في فصل الصيف سوق عام كل يوم خميس اشتهرت بكثرة العاديات التي وجدت فيها ومنها جرة مملوءة نقود ذهبية بيزنطية ، وفي غربيها شعب يأخذ الى قلعة القصير التي ذكرناها في بحث انطاكية ، وصورية وهي كبيرة واهلها روم وفيها مدرسة وكنيسة ومعاصر زيتون وكروم زيتون واسعة وفي قربها بني جسر حديث على طريق السيارات فيجواره كهوف ومدافن اثرية ، والفاتكية واهلها مسلمون اشتهرت بكثرة اشجارها واثمارها

وفي الشرق من الامهات دركوش ناحية تابعة لقضاء جسر الشغر ، وعدد سكانها ٢٥٠٠ عرب مسلمون تعد من اجمل بلدان العاصي وانزهها ، واقعة في واد يمر فيه العاصي شاهق العدوتين الى علو ٣٠٠ — ٤٠٠ متر ، الشرقية من جبل الاعلى والغربية من جبل القصير ،ولحرها وسعة بساتينها التي تروى بخمس نواعير كالتي في حماة وانطاكية تنتج فواكه جيدة كالمشمش المعروف بشكر بارة والتفاح والرمان وانواع البقول وجلها يرسل الى ادلب وحلب ، ودورها كدور المدن حجرية بيضاء وفيها اسواق وازقة مبلطة وحوانيت وجوامع وحمام واسر ذات وجاهة ، ولـكن حرها شديد لاختفاءها في اضيق مكان من وادي العاصي بين تينك العدوتين الشاهقتين . ودركوش بلدة قديمة عدها شيخ الربوة من الثغور الساحلية الجبلية ، وقال عنها ياقوت : دركوش حصن قرب انطاكية من

اعمال العواصم اهـ . وقال القلقشندي : واكثر زرع ارضها العنب اخبرني بعض اهل تلك البلاد ان حبة العنب فيها ربما بلغت في الوزن عشرة دراهم ، وبها قلعة عاصية استولى هولاكو على قلاع الشام ما عداهافانه لم يصلها اه . وقد زالت آثار هذا الحصن المنيع كما زال كثير من اطلال دركوش القديمة ، ولم اتمكن من معرفة سبب هذا الزوال ومسببه وزمن حدوثه ، اذ لم اجد في دركوش لما زرتها في ربيع سنة ١٣٥٢ من يستطيع اجابتي عن ذلك ، ولم ار فيها سوى عتبة فوق باب حمامها زبر عليها ان مجدد الحمام جان بولاد بك (؟) سنة ٩٦٦ هـ وتحتها حجرة زبر في وسطها بالكوفية آية « كلما دخل عليها زكريا المحراب ... الخ » مما يدل على نقلها من محراب جامع خرب ، وذكر لي ان في الجبل الاعلى القريب من دركوش اماكن ذات آثار قديمة كتورين وخراب سلطان والفاسوق ، وان على مقربة من قرية الدويلي حصن خراب يعرف باسمها . ويذكر في قرب دركوش على العاصي قرية الزنبقية التي مر بها اولياجلبي وفيها اطلال خان خراب من العهد التي كانت تمر بها القوافل بين انطاكية وجسر الشغر .

وثمة في مرتفعات جبل القصير القريبة من جسر الشغر قرية جميلة تدعى القنية هواءها نقي ومناظرها المشرفة على سهل الغاب والجبل الوسطاني رائعة ، ودورها حجرية ولكن ماءها قليل ، وفي غربيها قرية اخرى اعلى منها تدعى اليعقوبية ، من غريب ما شاهدته في هاتين القريتين ان اهلها كانوا في الاصل ارمن ثم بتوالي الاحقاب وتأثير البيئة العربية استعربوا تماما ثم صاروا لاتين بتأثير الرهبان الفرنسيسيين الذين شادوا في القنية ديرا عظيما سنة ١٢٩٠ هـ وفيه مدرسة للصبيان واخرى للبنات ومتحف اثري صغير ، وهنا لا بد من السؤال هل يستعرب الارمن الذين قدموا عقيب الاحتلال الافرنسي من بلاد الترك الى بلاد الشام كما جرى بارمن القنية واليعقوبية وكما جرى بكثير من الشعوب الغريبة المسلمة والنصرانية التي وفدت تباعا في العصور الغابرة الى الشام ولم تعتم

نهر العاصي في دركوش

(جولة اثرية · مقابل صفحة ١١٨)

ان ذابت في البيئة العربية ؟ ذلك ماسوف يظهره المستقبل . وفي شرقي القنية ضيعة مسلمة تدعى كفردبين على رابية ، كان لها حصن ذكره ياقوت . وفي شرقي القنية ايضا طريق لاحب طوله سبعة كيلو مترات يهبط في آخره في شعب ذي منعرجات مخوفة الى حمة الشيخ عيسى ، وهي في واد سحيق يمر به العاصي ، وهذه الحمة ذات مياه معدنية حديدية حارة درجتها ٣٥ تنفع للاستشفاء من داء المفاصل وغيره يقصدها الناس من كل الجهات ، ولو شيدت فيها ابنية للاستحمام والمبيت احسن مما هو موجود لزاد الاقبال عليها .

جسر الشغر . — وجسر الشغر بليدة جميلة فيها من السكان اربعة آلاف ، عرب اكثرهم مسلمون ، وفيها دار للحكومة جديدة ومساجد ومدارس ودور للاهلين مبنية بالحجر الابيض حسنة في الجملة ، ويمر من وسطها طريق السيارات الذاهبة من اللاذقية الى حلب ، ولكن هواءها رديء لقرب مستنقعات الروج والغاب منها .

ومن الغريب ان جغرافيي العرب لم يذكروا عن هذه البلدة شيئا ، اذ لم تكن موجودة في زمنهم ، وكان الاسم لقلعتي الشغر وبكاس اللتين في قربهما قرية ما برحت تدعى الشغر القديم ، بينما مؤرخو الافرنج يزعمون انه كان في مكان جسر الشغر بلدة اسمها Niaccuba او Séleucie ad Bellum يظهر انها دثرت قبل الفتح الاسلامي ، وقد اكتفى ابو الفداء بذكر السوق العام الذي كان يقام قرب جسرها ودعاه جسر كشفهان ، ويظهر مما ذكره السائح اوليا جلبي (ص ١٨) انه لم يكن قرب الجسر حين مروره في سنة ١٠٥٨ بلدة معمورة بل خان صغير ، وقد تمنى الجلبي وقتئذ العمران والامان لهذا المكان الموحش فاستجيبت منيته ، لان محمد باشا الكوبرلي الشهير الذي كان باشا ايالة طرابلس الشام قبل ان يصبح صدرا اعظم مر من هنا بعد بضع سنين من مرور الجلبي فرمم الجسر الكبير المعقود فوق العاصي وقيل انه هو ايضا بنى الجامع الكبير وخانا وحماما ، فعمرت بلدة الجسر على يد هذا

الوزير الخطير . ولجسر هذه البلدة مكانة عظمى من ناحيتي سوق الجيش والتجارة فقد كان يمر منه الرصيفان الرومانيان الاول الذاهب من اللاذقية الى حلب والثاني الذاهب من افامية الى انطاكية وسنأتي على ذكره ، وليس هذا الجسر مستقيما بل في وسطه كوع جعل لمقاومة دفع العاصي كما ان ظهره افقي ليس فيه الاحديداب الذي يرى في معظم جسور البلاد الشامية ، وطول هذا الجسر اربعمائة متر معقود على اربع عشرة قنطرة تدل حجارتها على انه رمم مرارا ، وفي منتصفه وعلى احد جانبيه حجرة زبرت عليها كتابة عربية فيها اسم جقمق ، ولعله الملك الظاهر جقمق الشركسي (٨٤٢—٨٥٧ ﻫ) ، هذا وفي اواخر القرن الماضي جعلت بلدة جسر الشغر مركزا لقضاء يشمل قسما من سهل الغاب وجبال النصيرية ؛ ومعظم سكان هذا القضاء من العرب السنيين والنصيرية وقليل من التركمان في مرتفعات جبل القصير والكرد المستعربين في حدود جبل الاكراد من اعمال حكومة اللاذقية ومن اللاتين في قريتي القنية واليعقوبية ومن الروم الارثوذكس في قرية انكزيك ومن الاعراب الفلاحين في قرى الروج والغاب. وتكثر اشجار الزيتون في بقعة التركمان والاشجار المثمرة والكرمة في قرى بداما والجسر ودركوش والقنية وزراعة الارز والقطن في سهول قسطون وما جاورها ، وفيه من المحاصيل بزر الخردل وجذور المحمودة المعروفة في الطب باسم سقمونيا ، واشتهرت فيه قرية اشتبرق بحدائقها وينابيعها ومتنزهاتها ، وانكزيك واهلها روم ارثوذكس بجودة هوائها وصلاحها للاصطياف ، وزعينة بحراجها ومياهها ومصائدها ، وقسطون بخصب تربتها ، وبلميس ومشمشان وكفردبين بذكرياتها التاريخية . وكان لبلدة الجسر على بعد ساعة في شماليها قلعة حصينة مقابلها اخرى يقال لها بكاس على راس جبلين بينهما واد كالخندق كل واحدة تناوح الاخرى وفوق الوادي جسر كان يعبر من فوقه من احداهما الى الاخرى . مر ابن بطوطة في سنة ٧٢٥ بحصن الشغر وبكاس وقال انه منيع في رأس جبل شاهق وذكر اسم اميره وقاضيه، ونوه بفضل الاول وان الثاني من اصحاب ابن تيمية ،



نهر العاصي في جسر الشغر

(جولة اثرية · مقابل صفحة ١٢٠)

وقال ابو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ : الشغر وبكاس من جند قنسرين قلعتان حصينتان بينهما رمية سهم على جبل مستطيل وتحتهما نهر يجري ولهما بساتين وفواكه كثيرة ولها مسجد جامع ومنبر ورستاق، وهما بين انطاكية وفامية على قريب منتصف الطريق بينهما وفي شرقيهما على شوط فرس جسر كشفهان وهو جسر على النهر وهو مشهور وله سوق يجتمع الناس فيه في كل اسبوع والشغر وبكاس في جهة الشرق والشمال عن صهيون وفي الجنوب عن انطاكية وبينهما الجبال اهـ .

فيستدل من هذا الوصف ان كشفهان ربما كانت هي بلدة جسر الشغر الحالية وكانت الشغر وبكاس وما حولها من المخافر في سهل الروج وجبل الزاوية من معاقل الصليبيين المخصصة لحراسة انطاكية ومركز اتصال قواتهم بقوات قمص طرابلس وملك القدس ، ومن هنا كانوا يغيرون على المسلمين في شيزر وحماة عن طريق افامية وفي حلب عن طريق برج هاب وسرمين . وظل هذا الحال الى ان شرع المسلمون يلمون شعثهم وبدئوا يهاجمون معاقل انطاكية وخطوطها الامامية فكان اول ضربتهم لما انتصر نجم الدين ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين ومتولي حلب في سنة ٥١٤ على الافرنج في ذات البقل (؟) من بلد سرمين (ابو الفداء ج ٢ ص ٢٤٣ .) ، وثاني ضربة لما انتصر نور الدين محمود سنة ٥٤٤ على ريموند دوبواتيه صاحب انطاكية في قرية آنب في سهل الروج وعزز نصرته هذه في السنة التالية بالاستيلاء على افامية ، والثالثة لما جاء السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ فافتتح انطرطوس وجبلة وصهيون والشغر وبكاس وسرمانية وبرزية ودربساك وبغراس ، فاصبحت انطاكية بعد فقدان هذه المعاقل كما قال في الروضتين « معدومة الاطراف قد قطعت ايديها وارجلها من خلاف » . ولم يبق الآن من آثار الشغر وبكاس الا اسس الجدران واحجارها المتهدمة وعلى بعضها كتابات عربية ، وعلى مقربة من القلعتين قرية تدعى الشغر القديم تحيط بها المزارع والحدائق وفيها مسجد يحوي بعض احجار ذات كتابات كوفية .

وفي قضاء الجسر من افاريق الاعراب المشتغلين بالفلاحة او الرعي بضعة أفناد تنتسب لقبائل شتى كابي جرادة والهنادي ونعيم ومداهيش وجيس ومجادمة وقبيعات وجلهم في انحاء الغاب او الروج .

طريق جسر الشغر — حلب (١١٢ كيلو مترا)

تبدأ هذه الطريق المعبدة المزفتة من اللاذقية وطولها ١٩٨ كيلومتراً ، وهي اذا خرجت من اللاذقية تجتاز سهلها الفسيح وتصادف في الك ٢٤ نهر الكبير الشمالي وعليه جسر عظيم حديث ثم تشرع بتسلق هضاب جبال النصيرية الغضراء ، فتارة تحازي نهر الكبير المذكور اوغيره من الانهر وتارة تدخل في ثنايا او تعلو اكمات متسلسلة وكلها مزدان بحراج الصنوبر والسنديان والقطلب وغيرها من الاشجار والانجم الخضراء التي تبتهج العين بمرآها مما قل نظيره في بقية طرق الشام ، الى ان تصل في الك ٥٧ الى مكان اسمه شق العجوز على يمينه خربة قلعة عيذو التي كان لها ذكر في تاريخ الصليبيين ، ذكرها ياقوت بايجاز قال : قلعة بنواحي حلب ا هـ ، وفي الك ٦٣ التخم الفاصل بين حكومة اللاذقية وقضاء جسر الشغر من توابع حكومة الشام ، ثم تمر الطريق بارضين قرى بداما وزعنية وانكزيك التي مر ذكرها ، وفي انكزيك اكمة عالية ذات منظر رائع يشرف على جبل النصيرية والجبل الاقرع وحتى جبل اللكام ، ثم ينكشف للسائر فجأة جبل الزاوية والجبل الوسطاني ثم سهل الغاب ، ثم يهبط في منعطفات مخوفة الى ان يصل الى جسر الشغر في الك ٨٦

وبعد مغادرة جسر الشغر تصعد الطريق نحو تلعات الجبل الوسطاني فتسير في سفحه القبلي وتمر في الك ٩٢ من ضيعة فريكة بيوتها اخصاص من القصب ، تشرف على سهل الغاب ووادي العاصي ، وفيها مفرق اللحب الذاهب جنوباً نحو قلعة المضيق ، ثم تمر في الك ٩٥ بضيعة سللى ، واذا تسلق السائح تلعات الجبل الوسطاني التي في شمالي سللى يصادف بعد كيلومترين المكان الذي يظن انه كان فيه الحصن المشهور في عهـــد الصليبيين باسم الحصن الاحمر او حصن الروج

Chastel rouge المكلف بحراسة طريق انطاكية في سهل الروج ، ومثله في شماله حصن ارزكان ، ولم يبق من هذين الحصنين وغيرهما اقل اثر بعد ان قضى عليهما نور الدين محمود ، وثمة بينهما ضيعة تدعى بشلمون ذكرت ايضاً في تاريخ الصليبيين . وبعد ان تنتهي الطريق من الجبل الوسطاني الحائل بين وادي العاصي وسهل الروج تدخل فيسهل الروج المشتهر بخصبه وكثرة مناقعه ورداءة هوائه .

سهل الروج . — مساحة سهل الروج ٢٠٠٠٠ هكتار ، تؤلف بقعة مستطيلة تمتد من جنوبي الوادي الآتي من ارمناز الى جنوبي قسطون ، وتنحصر بين الجبل الوسطاني في الغرب واعضاد جبل الزاوية في الشرق . وفي هذا السهل ينابيع عديدة غزيرة المياه تنبجس من حضيض تلك الاعضاد ، اغزرها ينابيع عري الشمالية والجنوبية ، وتسيل نحو الجبل الوسطاني فتجتمع في بطائح تدعى البرك لها فوهات في حضيض الجبل المذكور تسمى بالوعات ثلاث منها كبيرة وواحدة صغيرة ، ثم تتسرب من نفق في جوف الجبل المذكور له نافذة في غربيه تتصل منها بمياه نهر العاصي في عين زعموا انها عين البيضاء بين جسر الشغر ودركوش . وقد كانت مياه عري في العصور الغابرة تروي سهل الروج الفسيح بجـــداول منتظمة ما برحت آثارها ماثلة . وكانت البواليع والنفق اذ ذاك مفتوحة تغور المياه الزائدة فيها بسهولة ، ثم صارت تنسد على كر العصور والمياه تتجمع ويعلو مستواها حتى الفت بحيرة اواجمة عظيمة دعوها غاب عري . ثم ازداد الانسداد حتى صارت المياه في الشتاء تتعدى شواطئ الغاب وتغمر ضياع الروج المجاورة الواحدة تلو الاخرى ، وما لم تصل الى مبانيها تغمر مزارعها ، ثم تنسحب رويداً رويداً في الربيع وتخف بعد ان تجعل تلك المزارع مرازغ تنبعث منها اسباب وخامة المرتع ووبالة الهواء . وقد بلغني ان فوهات البواليع بعد ان كانت ظاهرة للعيان انسدت منذ بضع سنوات انسداداً تاماً ، وعزوا ذلك الى عطل خفي طرأ على النفق المذكور آنفاً ، وقد ارتفع من ذلك الحين القريب مستوى

الماء في غاب عري من نصف متر الى مترين في ايام الشح والى ثلاثة امتار ونصف في ايام الفيض ، واتسعت مساحة المرازغ وازداد فساد الهواء وغرقت ارضون ست قرى من جديد . وقد اهتم بهذا الغاب بعض اولياء الامور ؛ فارتأى من ينظر الى الناحية الصحية وجوب تجفيفه بان توسع الفوهات التي تغور فيها المياه ويعاد السيلان الى سابق عهده ، وارتأى من ينظر الى رقي الزراعة وجوب الاحتفاظ بالمياه في خزانات تنشأ في الروج لري الارضين المجاورة للغاب ، وكلا الرأيين ما برحا قيد التصور ، ومثلهما الرأي الذي ارادوه في جر ماء عين عري لشرب ادلب الظمآنة . وقد كان في سهل الروج في العصور المتوسطة اي قبل ان تغمره المياه ضياع كثيرة بعضها كان من المخافر المخصصة لحراسة طريق انطاكية . قال ياقوت : الروج كورة من كور حلب المشهورة في غربيها ولها ذكر في الاخبار اهـ . ولم يبق في اطراف الروج من هذه الضياع سوى تل اعور وانب وجدراية وشاغوريت وعين لاروز وحميات وموزرة ، والبقية هجرها اهلها لوخامة مرتعها ووبالة هوائها وقطنوا قرى جبل الزاوية كبقسمتة وعين شيب وبرج هاب وحيلا وكفرميد والكنيسة وغيرها مما هو اعلى منها ، وتصل وبالة هواء الروج واضرارها في الشمال الى قرى كبتة وكوارو وملس وبيرة ارمناز مما يتبع قضاء حارم . وتربة سهل الروج طينية دبالية سوداء خصبة وحره زائد عما يجاوره ، لذلك تجود فيه الزروع الشتوية والصيفية واخصها القطن وتبسق في السنين المعتدلة الامطار ، ويكثر فيه الكلاء في الربيع فتلجأ اليه الاعراب باغنامها ، ويرتزق اهله مع الزراعة بصيد السلور والسمك والعلق والخنزير البري وكلب الماء والطيور المائية المختلفة . وفي غاب عري يكثر الاسل والحلفا والبردي والقصب وغيرها من النباتات المائية التي تضمنها الحكومة فيأخذها اهل ادلب ويصنعون منها الحصر والمكانس ويحشون برادع الحمير والبغال . وقد اشتهرت من ضياع الروج انب بالنصرة العظيمة التي حازها نور الدين محمود على ريموند دوبواتية برنس انطاكية سنة ٥٤٤ فهنأه القيسراني الشاعر في قصيدة مطلعها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب

ومنها :

يا ساهد الطرف والاجفان هاجعة وثابت القلب والاحشاء تضطرب

أغرت سيوفك بالافرنج راجفة فؤآد رومية الكبرى لها يجب

ومنها :

قل للطغاة وان صمت مسامعها قولا لصم القنـــا في ذكره أرب

ما يوم آنب والايام دائلة من يوم يغرا بعيد لا ولا كثب

يشير الى النصرة العظيمة التي احرزها الافرنج على نور الدين في يغرا العمق في سنة ٥٤٢ ثم ثأره منهم اولا في يغرا نفسها وثانيا في آنب الروج . وقد اخطأ البستاني في دائرة المعارف في ظنه ان آنب هذه هي عناب الواقعة في الضفة الغربية من سيف الغاب احدى ضياع ناحية عين الكروم حيث لامجال لحدوث مثل هذه المعركة العظيمة على ما تحققته بنفسي في جولتي في تلك الانحاء في ربيع سنة ١٣٥٣ ، وذلك لاتصال مستنقعات الغاب بحضيض جبال النصيرية التي فيها عناب المذكورة . كما ان آنب هذه ليست آنب احدى قرى قضاء اعزاز التي ذكر في خطط الشام للكردعلي (ج ٢ ص ٢٣) ان المعركة المذكورة حدثت فيها . وذكر ابو الفداء في تاريخه (ج ٤ ص ٤٣) علاروز وانه جبل مطل على قسطون مرض فيه سنة ٦٩٨ في صيـــد النسر الملك المظفر التقوى الأيوبي صاحب حماة وحم وتوفي بسبب ذلك .

وبعد مغادرة آخر ضيعة في الروج اسمها محبل في الك ١٠٥ تشرع الطريق بتسلق هضاب جبل الزاوية وتتغلغل في منعطفاته العديدة التي شقت لها منـــذ عهد قريب في صخوره الصماء ، ثم تعود للهبوط الى ان تصل الى واد فسيح في وسطه قرية اورم الجوز في الك ١١٤ ، وفي غربيها كهوف اثرية ومدافن كانت عظام موتاها لما شاهدتها بارزة مبعثرة .

وفي الك ١١٩ ريحا ، وهي بليدة جميلة نزهة في سفح جبل الاربعين تعلو عن

البحر ٤٥٠ متراً ، عدد سكانها ٦٠٠٠ مسلمون ، وهي قاعدة ناحية تشمل كل جبل الزاوية وسهل الروج ، وفيها مساجد عديدة وسوق كبير وازقة مبلطة وحوانيت ودور حجرية جميلة ، وشرب اهلها من صهاريج يحرز فيها ماء المطر وتنحدر اليها قناة صغيرة من جبل الاربعين . واسم هذا الجبل من مقام فيه يعرف بمقام الاربعين ، وهو صحيح الهواء طيب الماء ، ذو مناظر رائعة تشرف على سهول ادلب الشاسعة الحمراء المزدانة بغابات الزيتون الخضراء ، وينمو في هذا الجبل كثير من الاشجار المثمرة عذياً اخصها الكرز والويشنة والكمثري والتفاح والتين والعنب واللوز والجوز ، وهو من احسن اماكن الاصطياف في ديار حلب لو بنيت فيه دور وفنادق صالحة لذلك . قال ياقوت : ريحا بدون الف هي بليدة من نواحي حلب انزه بلاد الله واطيبها (!) ذات بساتين واشجار وانهار وليس في نواحي حلب انزه منها ، وربما فرق بين اريحا القدس وهذه ، وهذه بدون الف التي في اول الاولى اهـ .

جبل الزاوية . — وجبل الزاوية يتبع ناحية ريحا ، وهو جبل مستطيل الشكل طوله من ريحا الى قلعة المضيق نحو خمسون كيلومتراً ، وعرضه من سهل الروج الى طريق حلب — حماة نحو ثلاثون كيلومتراً ، ويسمى طرفه الشمالي جبل الاربعين وطرفه الجنوبي شحشبو ، ويتبع قسمه الشمالي قضاء ادلب وقسمه الجنوبي قضاء المعرة ، وكان يعرف قديماً بجبل «بني عليم» نسبة لقبيلة بهذا الاسم كانت فيه على ما يظهر ، ثم اشتهر منذ القرن السابع بجبل الزاوية بعد انقراض بني عليم . زعموا ان سبب هذه الشهرة وجود زاوية في قرية منه تدعى مرعيان انشأها فيما قيل احد اولاد السيد عبد القادر الكيلاني . وليس في هذا الجبل اسناد شاهقة او وهاد سحيقة او انهار جارية او حراج غبياء كما في غيره ، فهو اجرد الا من اشجار الزيتون والتين والعنب في بعض اماكنه ، وواطيء لا تعلو قمة النبي ايوب فيه عن ٩٠٠ — ١٠٠٠ متر ، وينابيعه قليلة وسطحه

منبسط في الجملة ، على انه تكثر فيه التلعات الصخرية الكلسية الرمادية اللون ، ذات الصدوع الواخزة ، تتخللها بقاع تصغر تارة وتكبر اخرى ، تربتها حمراء خصبة اذا جادها الغيث ، وهذه التلعات والصدوع جعلت اكثر قراه كمعاقل حربية لا ترام ، ودعت اهلها ان يكونوا اجلاداً برزوا ببسالتهم في المعارك التي جرت في سني ١٣٣٩ و ١٣٤٠ ﻫ في اعمال حلب الغربية بين عصابات الاهلين والجند الافرنسي . ولا تزال قرى هذا الجبل بدون طرق لاحبة توصل السيارات اليها ، وبدون مدارس توصل الثقافة الى اهلها .

واشهر هذه القرى واكبرها البارة ، ويظهر انها كانت فيما مضى قصبة هذا الجبل ، قال عنها ياقوت : البارة بليدة وكورة من نواحي حلب ، وفيها حصن ، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة (كذا) اﻫ ، ولعل اسم جبل الزاوية اشتهر من عهد ياقوت في القرن السابع . وعدد سكان البارة (١٠٠٠) ويليها في هذا الجبل في العدد والكبر كل من اورم الجوز ومرعيان واحسم وكنصفرة وكفرلاثا (٨٠٠ نفس) ، ثم الرامة وبساموس ونحلة ومنطف ومعترم (٦٠٠) ، ثم بليون وبلشون وجوزف وموزرة وكفر شلايا وسرجة (٤٠٠) ، ثم المغارة وابلين (٣٠٠) ، وما بقي فضياع صغيرة لا يزيد سكانها عن ٢٠٠ — ٥٠ ، وقرى هذا الجبل الشمالية اغزر ماء واذكى تربة من الجنوبية ، لذلك يعتمد سكان الشمالية كأهل كفرلاثا خاصة على زراعة البقول والاشجار لاسيما الزيتون ، اما الجنوبية فعلى اراضيهم القليلة المساحة المبعثرة بين الصخور ، واهل القرى الغربية تعتمد على ما لها من الارض في سهل الروج ، ويغلب على اهل هذا الجبل طول القامة وعرض الهامة واسمرار الوجه واستدارته مع بروز الوجنتين وهي اوصاف رأيتها في الاكثر في اهل البارة .

وهذا الجبل المنيع غني بخرائب وآثار من عهد النصرانية الاول جديرة بالزيارة والاعتبار ، ليس بينها مصانع عامة كالاديرة ودور الضيفان ما خلا بعض البيع . اما الدور والقصور الخاصة والحمامات فكثيرة ، وكلها قوراء وذات

غرف وابهاء عديدة ومبنية باحجار ضخمة ومنحوتة ومزخرفة مما يدل على رفه اهلها وغناهم ، لاينقصها لتسكن الاوضع الابواب والنوافذالخشبية ، وجميعها يعود الى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ·

قصور خلت من ساكنيها فما بها سوى الأدم تمشي حول واقفة الدمى
تجيب بها هام الصدى ولطالما اجاب القيــان الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها انيس ولا التقى بها الوفد جمعاً والخميس عرمرما

وقد استغربت هنا كما استغربت في جبلي باريشا والاعلى سلامة هذه المصانع والقصور من عوادي ألزمان وعبث السكان اهل العصور المتوسطة ، وكيف ان اهل العصر الحاضر ومنهم اهل قرية البارة الحاضرين يكسرون ويعبثون بهذه الاطلال الثمينة ويخربونها ليعمروا بها بيوتهم ، وتذكرت آنئذ قول القاضي ابو يعلى المعري لما اجتاز فيما قيل ببلدة شياث ظاهر معرة النعمان — ولعل شياث كانت في جبل الزاوية — والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شياث فراعني به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولهــا عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفهــا شلت يمينك خلها لمعتبر او زائر او مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار احلى من حديث المنازل

وتساءلت هل كان الاولون يجلون قدر هذه الاثار ويعرفون التذكارات المطبوعة بطابع الأسلاف والأجيال المشبعة بدلائل نبوغهم وفيض قرائحهم اكثر من الحاضرين ؟ وقد تعذر علي حل هذه الأسئلة وما برح متعذراً .

وصلت في خريف سنة ١٣٤٩ ه الى البارة عن طريق ادلب وريحا واورم الجوز ، وفي قرب اورم الجوز التي تقدم وصفها سلكت السيارة لحباً جبلياً بين كروم الزيتون الى مكان عجزت فيه عن التقدم في اسفل قرية مرهيان ، وهناك تركتها وتسلقت عقبات هذه القرية المحصنة مشياً ، ومنها امتطيت راحلة فمررت

بقريتي الرامة واحسم ، كنت أرى فيهما كثيراً من النواويس والقبور والاعمدة والاحجار المنحوتة المبعثرة ، وبعد ساعتين وثلث وصلت الى خربة البارة ، وعلى بعد بضع مئات من الامتار قرية البارة الكبيرة الآهلة بنحو الف من السكان الجبلي الطباع والاجسام .

تحيط بخرائب البارة وتتخللها كروم واشجار وزروع اهل البارة الحاضرين ، والتطواف بها غير يسير لوفرة اطلالها المتهدمة واحجارها المركومة التي نشبت فيها الانجم والاعشاب الشائكة ، بيد ان البـــارة في جملتها لا تزال على جدتها وروعة هندستها ، تشبه مدينة «پومپي» الايطالية فيما قيل ، وبلاط ازقتها وجدران وسقوف اكثر مبانيها لا تزال محفوظة ، وهي تمتد في ساحة واسعة وسط واد مستطيل لا تقل دورتها عن اربعة كيلومترات . وكانت هذه المدينة الجميـــلة مقسومة الى حيين ، احدهما في الغرب والثاني في الجنوب ، وفي الاول اطلال كنيستين احداهما كبيرة والثانية صغيرة وفي كل منها مدرسة وصومعة رهبان وما الى ذلك ، وبين الحيين وعلى نشز من الارض قصر ذو طـــابقين ما زالا محفوظين يسمى دير سوباط وصحيحه ان يقال قصر سوباط فيه معمل للخمر لا تزال دنانه الحجرية في امكنتها ، وفي حديقة القصر مدفن يشبه الهيكل محمول على عدة اعمدة وفيه نواويس . وبين هذا القصر وقرية البارة باحة كبيرة محاطة بصفوف من الاعمدة لعلها كانت حديقة عامة مسورة ، وفي الحي الغربي ايضا كنيستان يشرف على الاولى منهما حصن عربي ذكره ياقوت في معجمه وقيل ان اسمه حصن ابو سفيان فيه برج كبير حوله ابراج صغيرة مربعة بارزة من سور الحصن ، مما يدل على ان العرب قطنوا البارة وحصنوها وحفظوا آثارها ، وفي جنوبي هذا الحي مقبرة ، وفيها قبور عجيبة الشكل عليها كتابات يونانية وصلبان وثمة ثلاثة مبان مربعة الشكل يعلو كل منها هرم حجارته مصفوفة كالقرميد وفي داخلها نواويس ، واكبر هذه المباني الثلاثة مزين في واجهته بعضائد بعضها فوق بعض وفوق كل منها تيجان ومداميك ومثلها عتبة الدار مزخرفة ومحفورة على

شكل اوراق الاشجار ، وثمة مدافن منقورة في الصخر ذات حجر وقبور ، واجل ما يستدعي العجب في خرائب البارة الرائعة دورها الخاصة القوراء التي لا تزال على روائها وبعضها لا يزال محتفظا بسقوفه وغرفه ونوافذه وحدائقه وبقية منافعه وكلها من الحجر الصلد الضخم المنحوت يكفي ان يوضع الخشب في الابواب والنوافذ لتسكن ، ويغلب ان يكون لهذه الدور دهليز خارجي فيه مقاعد ومنه يدخل الى باحة الدار ، والباب الاصلي مستطيل الشكل في الغالب محاط باعمدة مزخرفة وفوقه عتبة منقوشة نقشا جميلا . قرأ الأثري دي فوكي على احدى هذه العتبات جملة « ليحرس المولى مدخلك ومخرجك الآن وفي العصور المقبلة » ، وثمة بهو واسع يسمونه الدار الكبيرة طوله نحو ٢٥ مترا في ٧ كله منحوت في صخرة واسعة له سقف محمول على عوارض بارزة من الحجر ، وقد طلي بدهان لطيف لم تغير السنون لونه ونقش في بعض جدرانه صليب . وفي جدار دار اظنهم ذكروا ان اسمها المزوقة عثرت على كتابة عربية قديمة ذات خط سقيم فيها بعد البسملة الملك لله وحده كتبه سلطان بن معد رجب من سنة سبعون وسبعمائة ، ولم أجد غيرها رغم بحثي الكثير . هذا ولا يعلم شيء عن تاريخ البارة وكيفية عمرانها الغابر واسماء بناتها وسكانها الاولين وسبب هجرها واشادة قرية البارة الحاضرة على مقربة منها لا سيما ولم يذكرها جغرافيو العرب ومؤرخوهم الا قليلا ، على انه يظهر من كلام ياقوت الذي نقلناه انها كانت في عهده وقبله آهلة جعلت قصبة الكورة في هذا الجبل وبنى العرب فيها الحصن الذي ذكرناه ، ومؤرخو الافرنج لا يذكرون عنها سوى ان الصليبيين استولوا عليها في سنة ١٠٩٨ م واتخذوها مركز اسقفية ، وفي سنتي ١١٠٤ و ١١٢٣ هاجمها المسلمون ونهبوها (كذا) .

وفي جنوبي البارة وعلى بعد ساعة عنها قرية الحاس من اعمال قضاء المعرة وافيتها في سنة ١٣٥٠ من جهة المعرة مشياً من قرية كفرروما وهي في جنوبها ، وفي الحاس مبان قديمة كثيرة جميلة منها عدة قصور ما برحت سالمة وثمة برج وكان مرقبا وكنيستان خربتان . ومقـــابر الحاس غريبة الشكل ، نزلت الى

احداها في درج عريض ، وكان للباب مصراعان حجريان منقوشان ، وفي الداخل كهف منقور في الصخر الصلد تجمعت فيه مياه المطر وكانت صافية عذبة ، رويت ظمئي منها وقتئذ . وثمة مدفن ذو بناء جميل فوق الارض ذو مصراعين من الحجر الحرّي الاسود المنقوش يشبه ابواب مصانع حوران وفيه رمز المسيح ، وعتبة الباب مزخرفة على شكل اوراق الخرشوف . وفي الشمال الغربي من البارة خربة سرجيللة فيها حمامات لا تزال سالمة فيها البهو الخارجي والمتوسط والداخلي وحول هـــذا خلوات الاستحمام والاقيم المعقود وحتى المرسح المخصص لجلوس الموسيقيين محمول على اعمدة ، واقنية الماء البارد والبخار الساخن . وفي هـــذه القرية ايضاً كنائس ودور محفوظة كما كانت ، قيل ان في حدود سنة ١٣٢٥ حضر الى هنا جماعة من الالمان وحفروا موضعاً فيها ، فانفرج لهم عن رقعة كبيرة من الفسيفساء غاية في الروعة وحسن الصنعة فاقتلعوا منها قسما كبيراً وحاولوا اخذه ، لكن الأهلين اوموظفي الحكومة الذين كانوا يراقبونهم عارضوهم بل قيل كسروا ما اخذوه وصرفوهم .

وفي الشمال الغربي من سرجيللة دير سنبل فيه مبان خربة ومدافن سالمة ، فيها آثار من النقوش والرسوم الملونة وتواريخ ترجع فيما قيل لسني ٢٩٩ و٤٠٨ و٥٢٠ م ، ومثلها في قرية رويحة ، وثمة خربة تدعى دللوزة فيها قبور وقصر لا يزال سالما وآخر اقل سلامة . وفي قرية مجدليا دور كثيرة انيقة لها مطابخ تحت الارض واصطبلات وادراج من حجر وفيها ناووس كبير عليه كتابة يونانية وقبور منقورة في الصخر . في مدخل القرية بهو كبير منقور في الجبل واطلال بيعة ذات اضلاع كثيرة .

وفي قرية المغارة مغائر قديمة كانت تتخذ مساكن متصل بعضهـــا ببعض بسراديب منفرجة تضل الغريب . وفوق المغائر قبور منقورة في الصخر ، وفي غربي المعرة على بعد ساعة قرية دانا « وهي غير دانا جبل سمعان » وفيها اطلال كنيسة وقبور غريبة لا حدها هرم وباب كبير ، وفي شمالي المعرة ايضاً خرائب

جرادة ورويحة ، وفي رويحة اطلال ابنية ضخمة من جملتها كنيسة عظيمة مبنية وسط سور لها اربعة اقواس عالية ، وثمة قبور غريبة لها قبب . وفي جبل الزاوية في طرفه الشمالي الشرقي كفرلاثا قرية جميلة نزهة فيها بساتين وعيون جارية ، تعلو عن البحر ٧٥٠ متراً ولها منظر جميل يشرف على سهول حلب الغربية الممتدة في الافق البعيد ، يصلها الطريق اللاحب المفتوح حديثاً من ريحا ، وهي تعد من اماكن الاصطياف ، وفيها مبان ومدافن أثرية ومعاصر زيت كثيرة . هـذا ما تسنى لي رؤيته وتدوينه عن هذا الجبل المنيع وخرائبه الأثرية البديعة . ولم يتح لي زيارة قسمه الجنوبي المسمى بشحشبو ، ولعل هناك آثاراً ومشاهداً تستحق الزيارة والكتابة .

عود الى طريق حلب : — وبعد ريحا تنفرج الطريق نحو الشمال وتجتاز منخفضات وتلعات متموجة تكثر فيها كروم الزيتون ، فتمر في الك ١٢٧ بقرية المسطومة بيوتها قبب مخروطية ، ثم تصل في الك ١٣٤ الى ادلب .

ادلب . — وادلب بلدة حسنة ، تعلو عن البحر ١٩٠ متراً ، عدد سكانها ١٥٠٠٠ معظمهم من المسلمين وقليلهم من النصارى ، وهي قاعدة قضاء كبير ، يشمل نواحي ريحا ومعرة مصرين وسراقب . وقد اشتهرت هذه النواحي بما فيها من القرى الجسيمة وباتساع سهولها الاعذاء ذات التربة الحمراء المغلالة وبانتشار ورقي زراعة القطن المعروف بالبلدي ، ناهيك عن بقية الزروع المنتجة ورقي زراعة شجر الزيتون وحسن تقليمه وتعهده وكثرة معاصره وجودة زيته وفي نفس ادلب محكمة بداية ودار حكومة كبيرة حديثة بنيت سنة ١٣٤٩ وثكنة عسكرية ومدرستان للذكور والاناث وجوامع ومساجد عديدة وكنيسة واسواق وحوانيت كثيرة ومصابن ومعاصر زيت ومطاحن ومحالج قطن نارية ومقاهي وحمامات ، وهي من اجمل مراكز اقضية حلب ، لو لا قلة مائها وهو ماء المطر المخزون في الصهاريج وقد ادت قلته لانتشار القرع والرمد في اهلها — رغم

استجلاب ماء عين مارتين اليها لأنه غير كاف . ولم يكن لادلب شأن في العصور القديمة والمتوسطة اذ كانت قرية صغيرة ، والشأن والعمران كانا لجارتها سرمين قاعدة هذه الكورة فيما مضي ، وظلت ادلب كذلك الى ان اشتراها محمد باشا الكوبرلي في القرن الحادي عشر من الدولة وجعلها وقفاً على الحرمين وبنى فيها مبان باقية حتى الآن ، كما عمل في جسر الشغر ، ومن ذلك الحين بدأت ادلب تعظم وتتسع ويغرس في برها الزيتون والكرم والتين، وانتقل اليها عدد كبير من قطان سرمين وصارت مركز مديرية تابعة قضاء ريحا ، ثم صارت مركز قضاء وجعلت ريحا مركز مديرية تابعة لها .

وفي شماليها على بعد عشرة كيلو مترات معرة مصرين قرية كبيرة قديمة ذكرت كثيراً في التاريخ لا سيما في عهد الحروب الصليبية ، اشتهرت بزراعة القطن والزيتون ايضاً ، وشرب اهلها كما في ادلب من الصهاريج، وكان لها سور قديم دثر ، وفيها خمسة مساجد ودار لمديرية الناحية وجنود الدرك، عدد اهلها ٣٠٠٠ مسلمون بعضهم شيعة ، قال ابن حوقل في القرن الرابع : معرة نسرين مدينة متوسطة وما حولها من القرى اعذاء ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين وكذلك اكثر ما بجميع جند قنسرين اعذاء ومياههم من السماء اهـ .

وفي هذه الناحية قرية كبيرة تدعى الفوعة صارت بعد زوال التشيع عقيب انقراض دولة بني حمدان وما برحت موطن الشيعة في شمالي الشام ومبعث دعاته ، وفي قضاء اعزاز من قرى الشيعة ايضاً النغاولة ونبل . وبعض جبل باريشا الذي تقدم ذكره تابع هذه الناحية فيه قرى يقطنها الدروز اخصها معرة الاخوان .

ومن الاماكن القديمة التي لها ذكر في التاريخ في قضاء ادلب سرمين، وهي قرية كبيرة عدد سكانها ٢٥٠٠ ، قال ابو الفداء : سرمين من اعمال حلب بلدة ذات اشجار كثيرة زيتون وغيره وليس لها ماء الا ما يجتمع من الامطار في الصهاريج ولها ولاية وعمل متسع وهي ذات خصب واسواق ومسجد جامع وليس لها

سور وهي على منتصف الطريق بين حلب والمعرة اهـ. وذكر ابن بطوطة في رحلته: ان في سرمين يصنع الصابون الاجري؟ ويجلب الى مصر ودمشق ويصنع الصابون المطيب ويذسج بها ثياب قطن حسان واهلها سبابون يبغضون العشرة ولا يذكرون كلمة العشرة ومسجدها تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قياماً بمذهبهم، وقال ابن الشحنة: انه كان لسرمين سور دثر ومساجد كثيرة معمورة بالحجر النحيت دثرت ولم يبق سوى المسجد الجامع، واكثر اهلها اسماعيلية ولهم بها دار دعوة ولم يزالوا حتى ازال يدهم الملك الظاهر سنة ٧٦٥. قلت، سرمين من البلاد التي اخنى عليها الدهر فحرمها عزها الغابر فهي بعد ان كانت قصبة الكورة نازعتها ادلب بذلك، وبعد ان رضيت ببقاءها قصبة ناحية وممر قوافل الحجاج والتجار بين حلب وحماة نازعتها سراقب بذلك ايضاً لما ظهرت المركبات قبلا والسيارات اخيراً وابعدت الطريق المعبدة الى الشرق. وليس الآن في سرمين سوى ٢٥٠٠ من السكان كلهم سنى لا اثر لغير نحلة فيها. وفي ضاحيتها كثير من الصهاريج والكهوف نقرت في الصخور، اكبرها مقسم الى ابهاء عديدة فيها اعمدة منقوشة، وعدد مساجدها ستة ما عدا اربعة خراب، وفيها حمامان عامران لكل منهما بئر عميقة تصل احداها الى ١٠٥ امتار والثانية الى اقل، وفيها سبع خانات مهجورة، وجامعها ذو تسع قباب كما قال ابن بطوطة وهي على صفين والمأذنة مربعة الشكل مبنية منذقرن ونصف، لان المأذنة القديمة خربت، ولا يزال حجران او ثلاثة منها فيها كتابات ومراسيم تظهر على جدارها الغربي. ويكثر في سرمين الزيتون ثم التين ثم العنب وتجود في ارضها الحبوب ولا سيا القطن والسمسم والبطيخ وغيرها.

وبعد مغادرة ادلب تستأنف طريق حلب السير نحو الشمال الشرقي في سهول ادلب الحمراء الشاسعة، فتجتاز في الك ١٤٣ قرية بنش وهي كبيرة عدد سكانها ٢٥٠٠ وفيها جامع وعدة مساجد وحمام وحوانيت، وفي جنوبها وعلى بعد ستة كيلو مترات منها قرية سرمين وقد تقدم ذكرها، وفي الك ١٤٧ طعوم وفي

الك ١٥١ تفتناز ، وهنا مفرق الطريق الذاهب نحو سراقب والمعرة وحماة ، وفي الك ١٧١ اورم الصغرى حيث ملتقى الطريق الآتية من الاسكندرونة ، وقد تقدم وصفها وذكر تتمتها حتى حلب (في الصفحة ٧٥) ، ومن اورم الصغرى الى حلب ٢٧ كيلو متراً .

طريق جسر الشغر — قلعة المضيق (٤٥ كيلو مترا)

هذه طريق لاحبة صالحة لسير السيارات في الصيف فقط . يسير الخارج من جسر الشغر في طريق اللاذقية — حلب المعبدة ، وبعد خمسة كيلو مترات عند ضيعة فريكة التي تقدم ذكرها يتملى بمشاهدة سهل الغاب العظيم الذي ينساب العاصي في وسطه ، ويلمح في الغرب في الجبل المقابل قرية اشتبرق المار وصفها وغاني والشيخ سنديان ، وهذه على حدود حكومة اللاذقية ، وثمة في وسط الغاب على العاصي قرى الكفير وقرقور والزيارة . وقرقور هي Quarquaron التي ذكرت في تواريخ الآشوريين بحدوث معركتين فيها ؛ الاولى سنة ٨٥٤ ق م . في عهد سلمنازاز الثاني والثانية سنة ٨٢٠ ق م . في عهد سرجون الثاني انتصرت فيهما الجيوش الآشورية على جيوش ملوك الشام المتحالفين .

وبعد فريكة يودع السائر طريق حلب المعبدة عند مفرق بينها وبين ضيعة تدعى سللي ، وينحرف الى الجنوب فيدخل سهل الروج من غربيه ، ويمر بارض قرية الزيادية ، ثم بارض قرية قسطون في الك ١٦ ، وهذه تعد من اخصب قرى الروج واكثرها غلالا وكان فيها حصن قال عنه ياقوت : قسطون حصن كان بالروج من اعمال حلب نزل فيه ابو علي الحسن العقيلي في سنة ٤٤٨ فاستولى عليه وخربه اهـ . قلت ثم رممه الصليبيون واتخذوه من حصونهم الامامية الى ان استولى عليه نجم الدين ايلغازي ودكه .

وبعد قسطون ينتهي سهل الروج ويدخل السائح سهل الغاب متتبعا الرصيف اليوناني الروماني القديم ، وهو صنع الذين بنوا مدينة افامية ومدوه منها الى

انطاكية فاستانبول ، ولا تزال احجار هذا الرصيف واميالهماثلة للعيان في مواضع كثيرة من سهل الغاب تغيب تارة وتظهر اخرى فتسير في اعضاد جبل الزاوية ولا تفارقه ، وترى عليه كثيراً من جلاميد الصخور المتدحرجة بفعل العوامل الطبيعيـــة على كر الدهور . واعضاد جبل الزاويه وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو (١) واقفة كالجدار شرقي سهل الغاب ، كما ان جبال النصيرية التي كان يدعوها الرومانيون برجيليوس ودعاها ابو الفداء جبل الخيط واقفة في غربيه

سهل الغاب — . اما المستنقعات والآجام التي اشار اليها اوليا جلبي (ص ١٨) فهي بطائح سهل غاب افامية وادغاله ، وهذه تنقلب في فصل الشتاء الى بحيرة عظيمة كانت تدعى بحيرة افامية تحصل من نهر العاصي الذي لا يجـــد متسعاً عند قرية قرقور وما بعدهــــا ليجري براحة في زمن طغيانه ، ثم من الانهر والينابيع الكثيرة التي تنبجس من سفوح الجبال المحيطة بذلك السهل من الشرق والغرب . وبحيرة افامية ما برحت كما وصفها ابو الفداء «يحيط بها القصب والصفصاف من كل جانب وفي وسطها غابة من القصب والبردي وبها من انواع الطيور مثل الثمات « مثلثة الثاء »والغريرات والبجع والاصواغ والاوز والطيور آكلة الاسماك امثال البحلط والابيضانيات وغير ذلك من طيور الماء . وفي الربيع ينبت فيها النيلوفر الاصفر حتى يغطي مجموعها اهـ . وقال القلقشندي في صبح الاعشى (ج ٤ ص ٨٤) : بحيرة افامية ، وهي عدة بطائح في الغرب بميلة الى الشمال عن افامية بين غابات من القصب ، يصب فيها النهر العاصي من جهة الجنوب ، وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيهما السمك ، فالجنوبية منهما بحيرة افامية المذكورة ، وسعتها بالتقريب نحو نصف فرسخ ، وقعرهــــا قريب قامة ، وارضها موحلة لا يقدر الانسان على الوقوف فيها ، وبوسطها جم قصب

---

(١) نسبة لقرية ذكر ياقوت في معجمه انها من قرى افامية وليس لها الان اثر بل هناك قرية اسمها بعربو ، اما اسم شحشبو فلا يزال يطلق على الجبل

وبردى وحولها القصب والصفصاف ، وبها من انواع الطير ما لا يحصى كثرة ، وينبت فيها في زمن الربيع اللينوفر الاصفر حتى يستتر المـاء عن آخره بورقه وزهره . والبحيرة الشمالية من عمل حصن برزوية بقدر بحيرة افامية باربع مرات ، ووسطها مكشوف وينبت اللينوفر بجانبها الجنوبي والشمالي وبينها وبين بحيرة افامية المذكورة زقاق تسير فيه المراكب من احداهما الى الاخرى . قال في « تقويم البلدان » ويعتبر طول هذه البطائح وعرضها بافامية ، وقال شيخ الربوة : بحيرة افامية بحيرة كبيرة يدخلها العاصي ويخرج منها ولها سكر يصاد فيه نوع من السمك شبيه بالحيات يسمى انكليس لحمه شبيه بالالية المشوية وللناصري « لعله يعني الملك الناصر محمد بن قلاوون » فيه رغبة عظيمة يحمل في المراكب اليهم (كذا) داخل البحر ضمانه في السنة نحو ثلاثين الف درهم . وقال في موضع آخر : بحيرة افامية يشقها العاصي ولا يلتقي احدهما بالآخر وفيها من السمك الانكليس والسلور ما لا يوجد بغيرها اه .

ومن الغريب ان جغرافيي العرب كياقوت وشيخ الربوة وابي الفداء والقلقشندي اكتفوا بوصف بحيرة افامية ولم يذكروا اسم سهل الغاب ولا وصفوه حتى انه لم يرد في كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ الا مرة (طبع جامعة برنستون صفحة ٢١٨) في حكاية « انهزم فيها السبع الى الغاب » ولم افهم اي غاب كان يعني ، لانه ذكر هذا السهل في موضع آخر (ص ٥٨) باسم مرج افامية وانه استاق منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم . اما كتبة الفرنج فقد قالوا ان سهل الغاب كان في زمن السلوقيين مجففا يزرع ويستثمر وان استرابون اطنب بخصبه ووفرة غلاله وبما كان يربي فيه من قطعان الجواميس والخيل وان القدماء اقاموا فيه سدودا وحفروا خنادق لمنع طغيان العاصي . ذكر السائح الافرنسي « كيليوم راي » انه شاهد منهـا في سنة ١٨٦٠ سدأ له فتحات . وفي جنوبي الغاب ووسط مياهه ضيعة تدعى الخندق في جوارها خندق قديم كان خاصا بتصريف المياه نحو العاصي ، وكانت برزية تفترق عن افامية ببحيرة

تحصل من سد على النحو الذي ذكره ابو الفداء فيما ننقله عنه في وصف برزية .

هذا وقد درس مهندسو الافرنج في زمننا مشروع تجفيف الغاب وتنظيم طرائق ريه واعداده للحرث والزرع ولا يُعلم متى يمكن البدء بالعمل . قال احدهم في سنه ١٣٤٤ ما خلاصته : بعد ان يجتاز نهر العاصي حماة يجري في واد يختلف سعة وضيقاً بين مكان وآخر ثم يسيل في مضيق عميق الغور ينفرج فجأة في بدء سهل متسع يبدأ من قلعة شيزر ، وعلى بعد عشرة كيلومترات من هذه القلعة يصبح السهل مستنقعاً ويدعى (الغاب) وهو يبدأ من قرية تل سلحب وينتهي قرب قرية قرقور ، وطوله ستون وعرضه عشرة كيلومترات ، ومساحته ٦٠٠٠٠ هكتار ، وارضه تتألف من تربة عميقة ينساب العاصي فوقها محاطا بالمستنقعات الكثيرة ، وهي في الضفة اليسرى اكثر منها في اليمني . لكن هذه التربة تصبح بعد قرية قرقور مؤلفة من صخور البازلت «الحرة» فيعود العاصي للجري في واد ضيق تحيط به الجلاميد العظيمة العالية . يبقى العاصي هادئاً سالكا مجراه خلال اشهر الصيف ، فاذا جاء الشتاء يرتفع مستواه فيطفو على الارضين المحيطة به ، وهي مساوية له في الارتفاع ، فيغمرها الى مسافات بعيدة ناهيك بالامطار التي تهطل هنا اي تهطال ، والسيول التي تتساقط من الجبال المجاورة ، والينابيع التي تنبجس من سفوحها .

وتجفيف سهل الغاب واستثماره حسب الاساليب الزراعية الحديثة مشروع عظيم ينفع بلاد الشام ويدر عليها ارباحاً جزيلة ، لان ارضه مؤلفة من طمي البازلت المعروف بخصبه ووفرة مواده الغذائية . ولاجل ذلك ينبغي منع فيضان العاصي عليه ، ثم تجفيفه باقامة مجار كثيرة للصرف ، ثم ريه خلال اشهر الصيف بشبكة من القنوات . ففيضان العاصي يمنع بتعميق مجراه واقامة جدرانه وتخفيض السد الموجود امام قرية قرقور ، ولا صعوبة في هذا العمل لو لا انه كثير النفقات ، ويقام سدان عظيمان من التراب على ضفتي العاصي يبعد الواحد عن الآخر ٤٠٠ — ٥٠٠ متر حتى اذا ما طغى العاصي كان للماء من سعة الارض بين السدين ما يحول دون انهدامها ، ويحفر في جانبيها الايسر وفي قاعدتيها

خنادق او مصارف للمياه المنصبة من السهل فتوصلها الى العاصي في نقاط مناسبة منه . وقد حسبوا كمية ماء العاصي في اوائل الخريف بالامتار المكعبة وفي الثانية فبلغت عند خروجه من شيزر ١٨ وفي مصبه عند قرقور ٢٧ ، وتغذي هـــذه الزيادة الينابيع الكثيرة التي تنبجس من سفوح الجبال وتنبع في جوانب السهل ، واهمها نبع (باب الطاقة) في الضفة اليمنى فان قوة مائه لاتقل عن المترين المكعبين في الثانية ، هذا وليست الاراضي القابلة للري منحصرة في سهل الغاب ، بل هناك سهول واسعة تمتد من قلعة شيزر على ضفتي نهر العاصي يسهل ريها فيقام لهـــذه الاراضي في زور (التريمسة) سد قليل العلو يسقي قناتين الواحدة لري ارض الضفة اليمنى والثانية لري الضفة اليسرى وطول كل منهما ٧٥ كيلو متراً ، ثم يبنى في نقاط مختلفة وعلى طول هاتين القناتين مآخذ يجري الماء منها الى قنوات ثانوية ومن هذه الى قنوات التوزيع على الحقول ، فيصبح الغاب مخترقاً بشبكة من القني تسوق الماء الى مختلف مواقعه واراضيه ، وما فاض منها يصب في العاصي امام قرقور . والمساحة الممكن ريها بعد اتمام هذا المشروع الكبير تقرب من تسعين الف هكتار ، وهي تنتج احسن الغلال من القطن وغيره لزكاء التربة كما اسلفنا وغزارة مياه الري وجودة الاقليم اذ السهل لايعلو عن سطح البحر اكثر من ٢٠٠ متر ، وجبال النصيرية تدرأ عنه الرياح الغربية ا هـ .

صيد السلور . — اما صيد السلور فقد ذكره من مؤرخي العرب ابن الشحنة وابن العديم في تاريخيهما الباحثين عن حلب ؛ وشيخ الربوة والقلقشندي فيما نقلناه عنهما ، وذكره من مؤرخي الافرنج كودفروا دوبومبين في كتابه « الشام في عهد المماليك » وكلهم متفق على مكانة صيد السلور . ويظهر مما ذكره ابو الفداء ان ضمان هذا الصيد عمل قديم ، فقد قال (ج ٣ ص ١٩٦) انه في سنة ٦٥١ هـ سمح الملك الظاهر يوسف الايوبي صاحب دمشق لاحد ابناء اعمامه الملك الناصر داود صاحب الكرك — وكان ناقماً عليه ومضطهده ومعتقله في قلعة حمص —

بريع بحيرة افامية وغيرها مقدراً ذلك بمائة الف درهم فلم يحصل للناصر داود من ذلك الا دون ثلثين الف درهم ا هـ . قلت وصيد السلور مورد عيش لاهل الغاب يرتزق به عدد وفير منهم ، وهو ايضاً ريع للحكومة لا يستهان به ، ناهيك عن ان السلور غذاء نافع ولذيذ .

وهذا السلور لا يوجد في مجاري العاصي في حمص او حماة ، بل هو خاص ببحيرات الغاب والروج والعمق وينابيعها . وفي الغاب عدة اماكن ذات مياه دافقة يلجأ اليها السلور حينما يقرس الشتاء وتبرد مياه العاصي فيصــــاد ، وكلما قرس البرد جاد الصيد والعكس بالعكس . واجل اماكن الصيد في الغاب هي بحيرتا الشريعة والتويني اللتان تحدثان من فيضان العاصي ، ونبع باب الطاقة الذي ينفجر من حضيض جبل شحشبو ، يليه عين حواش في الضفة الشرقية التي تنفجر ايضاً من حضيض جبل شحشبو ، ونبع الجراص وناعور شطحة اللذان ينفجران في الضفة الغربية من حضيض جبال النصيرية .

وطريقة استثمار السلور في عهدنا تكون بأن يضمنه ضامن من الحكومة لمدة ثلاث سنوات بالمزاد العلني . ومدة الصيد اربعة اشهر ونصف تبدأ في تشرين الثاني وتنتهي في منتصف آذار . ولا يصاد السلور بعد ذلك لانه يبدأ بالاستفراخ ، وطرائق الصيد تختلف حسبما تكون في البحيرات العميقة الدائمة او البحيرات الموقتة او في الينابيع . ففي الاولى يؤتى بنوتيين من جزيرة ارواد لفقدان اهل هذه الحرفة في الغاب يركبون زورقين كبيرين للضامن في كل منهما تسعة نوتية يمدون شبكة كبيرة طولها مائة متر تدعى جاروف ، وفي الثانية يستعملون زهاء مائتي زورق صغير طول الواحد ثلاثة امتار في عرض متر وقعره مستو يدعى الجرف يسيّرون به دفعاً بعصا طويلة ، يركب في كل منه صيادان من اهل الغاب يلتقط احدهما السلور شكاً بحربة قصيرة ويدفع الثاني الجرف ثم يتبادلان العمل ، والصيد يجري في الفجر او بعد الغروب بقليل ، لان قطعــــان الجواميس التي ترعى في مياه الغاب تخيف اسماكه وتضطرها للاختفاء . وفي الثالثة وهي ابسطها

تجري في الينابيع المتفجرة من اسفل الصخور كما في باب الطاقة ، يقف الصياد على بعد بضعة امتار من الشاطئ حاملا بيده نصاب من القصب طويل في رأسه مذراة ذات ثلاثة اسنان مستقيمة اومنحرفة ويصطاد بها ، يساعده على ذلك صفاء الماء وكثافة جموع السلور . واذا اصطيد السلور باحدى الطرائق المذكورة يقطع رأسه فوراً لانه مستكره ويحمل ويسلم الى الضامن . وهذا الصيد يشغل نحو سبعمائة عامل في موسمه ، وقد يصطاد احدهم في المواسم الباردة ٢٠ — ٣٠ رطلا في النهار ، ويختلف سعر السلور حسب سعر اللحم ، وهو يباع في اول الموسم الرطل باحد عشر قرشاً ذهبياً ثم يهبط الى ثمانية ثم الى ستة واقل . وتختلف المدن الشامية بكمية ما تستهلكه منه ، قيل ان حمص تستهلك في المئة ٤٥ وحماة ١٠ وحلب ٣٠ ودمشق ١٠ وزحلة ٣ وبيروت ٢ ، ويحمل السلور في الغالب الى حماة ومنها يرسل الى البلاد ضمن اخراج كبيرة معمولة من الاسل . وقد خسر الضامن الذي كان في سنة ١٩٢٦ م = ١٣٤٤ هـ بسبب الثورة الشامية (٤٥٠٠) ليرة ذهبية ، وربح سنة ١٣٤٥ (٦٠٠٠) ليرة ذهبية ، وسنة ١٣٤٦ (١٠٠٠) ليرة ذهبية ، فمتوسط ارباح السنين الثلاث كانت ٢٥٠٠ ليرة ، وتتابعت الخسائر بعد ذلك بسبب الازمات المالية العامة وشح الامطار . ومن الغريب ان النصيرية والاسماعيلية لا يأكلون السلور قط .

جبال النصيرية المشرفة على الغاب . — وجبال النصيرية المشرفة على سهل الغاب من علو ١٦٥٠ متراً فما دون تنحدر نحوه بميل سريع فتؤلف بقاعا جبلية تسمى باسماء مختلفة نسبة لسكانها كجبل الاكراد « غربي جسر الشغر » وجبل دريوس وجبل العمارة وجبل النواصرة وجبل بودي وجبل القراحلة وجبل القدموس وجبل الكلبية وغيرها . وتؤلف هذه الجبال في ذرواتها العليا بقعة وعرة يدعونها الشعرة فيها وهاد سحيقة وعقبات كأداء ، تزينها غابات غير كثيفة من مختلف الاشجار والانجم ، وتسرح فيها النمور والدبب والذئاب وبنات آوى

وقطعان الخنازير البرية يقصدها غواة الصيد منذ القديم . وفي حضيض هذه الجبال على سيف الغاب مما يتبع قضاء صهيون من اعمال حكومة اللاذقية ضياع صغيرة كالسنديانة وسرمانيا وقلعة برزية وعين الحمام وفريكة ونبول وشطحة واستركي. وصف ابو الفداء برزية وقلعتها فقال : حصن برزية من جند قنسرين قلعة صغيرة في ذيل الجبل المعروف بالخيط من شرقيه مطلة على بحيرات فاميا ويتصل بها مياه البحيرات والاقصاب الى تحت برزية وليس بها كائن ساكن الا المرتبون لحفظ القلعة ويعتصم بها اهل البلاد في ايام الجفل وهي عن فامية في جهة الشمال والغرب على نحو مرحلة في الماء فان بحيرات فامية واقعة بينهما وبرزية في جهة الجنوب عن الشغر وبكاس على مرحلة قوية اهـ . قلت هذه القلعة قديمة تعاورتها ايدي السلوقيين والرومانيين والحمدانيين من المسلمين ثم الصليبيين الى ان جاء صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ واستخلصها هي وسرمانية من ايدي الصليبيين ولا تزال اكثر ابراجها ذات الشكل المربع سالمة ، وكذا اسوارها وشرفاتها وعقودها . وكذلك في حضيض هذه الجبال على سيف الغاب مما يتبع قضاء مصياف ضياع مرداش وعين الكروم وعنـاب وبلونة والجورة وقلع الشيخ ملوخ وفقرو ورشة ، وكل سكان هذه الضياع نصيرية ، تحيط بهم الحراج الغبياء وتتدفق من سفوح جبالهم ينابيع عذبة باردة اخصها في الشمال عين الحمام وعين جورين وعين سلمو ، وفي الجنوب مما رأيته وشربت من بعضه في صفر سنة ١٣٥٣ نبع الطيب ونبع السوس والفوار وعين الجراص ، وثمة نهير يدعى البارد عند قرية رشة وآخر يدعى تل سلحب عند قرية تل سلحب يصب في العاصي ، وقلع الشيخ ملوخ المذكورة واقعة قرب عين الجراص وقد لاح لي انها مكان حصن الجراص الذي استخلصه ابو الحسن علي بن منقذ من الروم قبل ان يستلم منهم شيزر في سنه ٤٧٤ . هذا وفي الطرف الغربي المطل على البحر من هذه الجبال قلاع تاريخية ذكرت في وقائع الصليبيين منها عيذو وقد تقدم ذكرها وصهيون والمهيلبة « بلاطنس » وهذه ذكرها ياقوت هكذا . افلاطنس وقال انها حصن

عال منيع في جبـــل وهرا غربي حلب ، وذكرعيذوفقال : قلعة بنواحي حلب .
قلت وبعد ان بقيت جبال النصيرية هذه في السنين الخالية في منعزل لا تنـالها
ايدي الجيوش الا بالعناء لوعورة مسالكها وجلفة اهلها ، ذللت في العهد الاخير
صعابها ومهدت بعض شعابها وجعل في بعض قراها المرتفعة الجيدة الهواء والماء
والمنظر كصلنفة اماكن للاصطياف والقصف على الطراز الحديث .

والنصيرية عرفوا بهذا الاسم منذ القرن السادس والسابع ، وهم ذوو عقائد
وعوائد خاصة يضيق نطاق بحثنا عن الخوض بها ، لم تحسن سياستهم في القرون
الغابرة ولم تستعمل الحكمة والموعظة الحسنة في ارشادهم حتى ظلوا في ناحية من
الحظيرة القومية ، وهم يقطنون في انحاء كيليكية والاسكندرونة وانطاكية كما
قدمناه في ابحاثها ، وفي جبال اللاذقية وطرابلس واوعار حماة وحمص وسهولها
الشرقية لا سيا في القرى الخاصة بدولة الشـــام « قرى املاك الدولة » شرقي
سلمية وحمص ، ومنهم فئة قليلة في صالحية دمشق وجنوبي قضاء دوما ، وفي
قرى عين فيت وزعورا وغجر في غربي قضاء القنيطرة . وقد عطفت عليهم الدولة
المنتدبة بعد دخولها واسمتهم « العلويون » وجعلت لبعض نبهاءهم منـــاصب
ووظائف ، وجندت كثيراً من شبانهم في جيشها المرابط في بلاد الشام ، لكن
ما برح سوادهم الا عظم في غاية من الجهل والبؤس والانقياد الاعمى لكبراءهم
ذوي الزعامة الزمنية ومشائخهم ذوي الزعامة الروحية ، وهؤلاء يستثمرون فطرة
اتباعهم فيرهقونهم بمختلف الخدمات والاتاوات . ومعظم النصيرية مزارعون
لدى كبار او صغار الملاكين من السنيين او النصارى في الوية اللاذقية وحماة
وحمص وطرابلس ، وهم ينقسمون الى قبائل شتى ، النسبة في اسماءهـا اما الى
اشخاص منهم معروفين عندهم او الى قرى واماكن معروفة في ارضهم ، وهذه
القبائل ترجع الى اربعة اصول كبيرة وما عداها فروع منها ، وهي الخياطون
والحدادون والكلبية والمتاورة ، فالخياطون يقطنون في الغالب في قضائي صافيتا
وبانياس ، والحدادون في قضائي جبلة وطرسوس ، والمتاورة في قضائي صافيتا

ومصياف ، واجل الفروع شأنا بنو علي والقراحلة والنواصرة والرشاونة والرسالنة والعمامرة والمهالبة والدراوسة والمحارزة ... الخ ، ومهما يكن مابرح الامل عظيما في رجوع هذه الطائفة الباسلة الى الحظيرة القومية كلما زاد عدد متعلميها ومثقفيها كما هو الحال في بقية الفرق الاسلامية .

ضياع الغاب . — في سفح جبل الزاوية على سيف الغاب الشرقي ووسطه ضياع عديدة يراها السائح عن كثب وهو سائر فوق الرصيف اليوناني الروماني الممتد من انطاكية الى افامية ، او يمر بطرفها . وهي بعد قسطون قليدين في الك ٢٤ والعنقاوي في الك ٢٦ والعمقية في الك ٢٨ وحواش في الك ٢٩ ثم الحويجة والحويز . وأهل هذه الضياع اعراب يقيمون في اخصاص من القصب يزعمون ان جدودهم جاءوا الى هنا من بطائح الفرات في العراق . وفي شرقي هذه الضياع في ذرى جبل الزاوية ومرتفعاته ضياع منها قوقفين وسفوهن وفليفل وجب سليمان والقدادين وكوكبة وشبللين وغيرها . ثم يمر السائح في الغاب بضياع سكانها من اولئك الاعراب ايضا منها العريمي في الك ٣٨ والجماسية والشريعة في الك ٤١ والتويني في الك ٤٣ ، والاخيرتان من اجل مراكز صيدالسلور كما قدمنا ثم يصل في الك ٤٥ الى قلعة المضيق او حصن افامية . وفي غربي الحويز في وسط بحيرات الغاب ضياع اخرى لا يراها السائح لبعدها تكون في ايام الفيضان كالجزائر لا يوصل اليها الا بالجروف المستعملة لصيد السلور منها الجيد والرصيف والقريم والخندق والشجر ، وسكان هذه الضياع نصيرية . وان انسى لا انسى سفرتي الى الجيد والرصيف مع بعض موظفي قضاء المعرة في ربيع سنة ١٣٥٠ وركوبنا عدداً من الجروف كانت تمخر بنا تلك البحيرات الشاسعة في ازقة مشقوقة وسط ادغال من القصب والاسل المرتفعين كاشجار الحراج والنيلوفر الممتد كالبساط بورقه الضخم المدور وزهره الجرسي الاصفر ، وكنا لا ندري لتعرج تلك الازقة وضيقها ووحشة منظرها كيف يسار بنا ، وهل يتاح

لنا سلامة الرجوع الى اليابسة ، وكنا نصادف احياناً قطعان الجواميس السوداء السابحة يقودها راع راكب جرفاً او معتلي ظهر جاموسة وهيأة وجه المكتئب وشعره المسترسل اوحش من هيأة رعيته ، واحياناً نصادف اسراباً وافراداً من طيور الماء التي ذكرها القلقشندي وكل منها في طول وشكل ولون مختلف ، وقد حسبت نفسي اذ ذاك كرواد ينابيع النيل او ماخري بحيرات خط الاستواء في اواسط افريقية ، وكان اهل الضيعتين او الجزيرتين المذكورتين المنقطعين اشهراً عديدة في السنة عن العمران واهله ينظرون الينا لما اقبلنا عليهم في دهشة واستغراب كما نظر سكان جزائر اميركا المتوسطة الى كريستوف كولومب وجماعته .

وكل ضياع الغاب الواقعة في طرفه او وسطه بيوتها اخصاص حقيرة تحيط بها الادغال والمياه ، واهلها صفر الوجوه سقام الاجسام من وبال المرتع يتنقلون كسكان اواسط افريقية في الجروف التي ذكرناها يرتزقون من تربية الجاموس وصيد السلور وغيره من السمك وصيد الطيور المائية التي ينتفون ريشها ويلتقطون بيوضها ومن زرع الحبوب الشتوية في الارض الشرقية المرتفعة عن مستوى الماء والذرة البيضاء في الارض التي تنحسر عنها المياه في الصيف .

تاريخ افامية . — افامية مدينة قديمة عظيمة كان يدعوها مؤرخو العرب تارة باسم فامية وتارة أفامية ، وقد ذكرت في شعر ابي العلاء بالالف حيث قال ولولاك لم تسلم أفامية الردى · قال عنها ياقوت في المشترك : أفاميـــة مدينة عظيمة قديمة على نشز من الارض لها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب . وقال في معجم البلدان : افامية مدينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص اهـ . كان اسم هذه المدينة قديما فارناك ثم دعاها الاسكندر المكدوني بللا باسم البلدة التي كانت عاصمة ابيه فيليب وولد هو فيها ، وبعد موته دخلت في حوزة سلوقس نيكاتور مؤسس الدولة السلوقية ، فزاد في عمرانها وتحسينها ودعاها باسم امرأته الاميرة الفارسية اباميا ، وجعلها موقعاً عسكرياً مجهزاً بجميع العدد والعـــدد

والمصانع والاصطبلات وشاد فيها مدرسة حربية للفرسان ، ولخصب سهل الغاب القريب منها ووفرة مراعيه ذخر فيها مئات من الفيلة المجلوبة من الهندوعشرات الالوف من الجياد والجواميس . وظلت افامية في عهد السلوقيين زاهية بعظمتها وجمالها ووفرة سكانها ورفهم تحسب الاولى بين مدن الشام الشمالية بعد العاصمة انطاكية ، وفي عهد الرومانيين كانت افامية قاعدة ولاية سورية الطيبة Syria Salutaris اوسورية الثانية كما كانت انطاكيةقاعدة سورية الاولى ، ومنبجقاعدة سورية الثالثة او سورية الفراتية . وكانت حدود سورية الثانية تنحدر الى جوار حمص فيلحق بها آراتوسة « الرستن » ومريمين ورفانية وابيفانيا « حماة ».وظلت افامية في سعدها الزاهر الى ان جاءها كيخسرو الثاني ملك الفرس في سنة ٥٧٣ ميلادية فنهبها وأحرقها وسبى أهلها ، وجاءت الزلازل فقضت على ما بقي منها قائماً ، ولم يرتفع لها شأن بعد ذلك ولم يبق الدهر من تلك المدينة الجميلة سوى حصنها الذي كان مبنياً فوق تل قريب في غربيها دعي بعد حين باسم قلعة المضيق .

ولما فتح المسلمون هذه الديار شاهدوا افامية خراباً كما هي الآن فاكتفوا بحصنها ولم يعمروها قط،وهم اذا ذكروها عنوا حصنها والقرية المبنية داخله . قال البلاذري : سار ابوعبيدة في سنة ١٧ بعد افتتاح شيزر الى افامية فتلقاه اهلها بالصلح فصالحهم على الجزيةوالخراج اهـ . وسكنها بعد من المسلمينقوممن عذراء وبهراء على ما في كتاب البلدان لليعقوبي . وذكر ياقوت حادثة جرت في ايام العباسيين للمتولي عليها وكان رجلا كردياً اغرى القرامطة في سنة ٢٩٠ باهل المعرة فقتلوهم قتلا ذريعاً،فلما انقلبت الآية وقتل رئيس القرامطةعوقب الكردي فهرب والقى بنفسه في بحيرة افامية فقال فيه احد شعراء المعرة :

توهم الحرب شطرنجا يقلبها   للقمر ينقل منه الرخ والشاها
جازت هزيمته أنهار فامية   الى البحيرة حتى غط في ماها

وفي العهد العباسي ظلت تتعاور قلعة افامية أيدي العباسيين ، ثم ثبتت مدة بيد الفاطميين . وفي عهدهم جرت فيها من الكوائن التي ذكرتها التواريخ المعركة التي

حدثت في سنة ٣٨٢ بين جيش الفاطميين الذي كان يقوده منجوتكين وبين جيش الحمدانيين الذي ارسله سعد الدولة بن سيف الدولة ، وكانت الدائرة على الحمدانيين . وفي سنة ٣٨٧ وقعت النار فيها واحترق ماكان فيها من القوت فسار ابو الفضائل ابن سعد الدولة الحمداني صاحب حلب وقاتلها مدة ثم رجع عنها لما سار اليهـــا دوقس انطاكية داميانوس دالاسانوس وحاصرها اشد حصار فاستنجد الملايطي المقيم بافامية بوالي دمشق جيش بن الصمصامة فجاء ومعه الف فارس من بني كلاب ونزل بازاء عسكر الروم وبينه وبينهم نهر العاصي ، ثم التقى الفريقـــان فانكسر المسلمون بادىء بدء وثبت البعض واستولى الروم على كراعهم وعطفت بنو كلاب على اكثر ذلك فنهبوه (١) ،ورأى من في حصن افامية ما اصاب اخوانهم

---

(١) بنو كلاب قبيلة من الاعراب جاءت من نجد الى ديار حلب في سنة ٣٥٢ وقطنت فيها واستقرت نحو اربع قرون . رددت التواريخ احداثها ووثباتها العديدة واستباحتها حمى المعمور واشتراكها بكل انتقاض ونوالها من الغريب والقريب على السواء ... الى آخر ما هو معروف من طبائع اهل البادية في كل زمان ومكان ، ورددت ما جرى بينها وبين سيف الدولة ابن حمدان وابنـــاءه ملوك حلب ، نبغ منها صالح بن مرداس واسس في حلب وشمالي الشام دولة بني مرداس التي دامت من سنة ٤٠٦ الى سنة ٤٧٢ ، نقل القلقشندي عن مسالك الابصار (ج ٤ ص ٢٣١) وصف هـــذه القبيلة فقال : وهم عرب اطراف حلب والروم ، ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد ، ولا تزال تباع بنات الروم وابناؤهم من سباياهم ، ويتكلمون بالتركية ويركبون الاكاديش(!) وهم من اشد العرب بأساً واكثرهم ناساً . قال : ولافراط نكايتهم في الروم صنفت السيرة المعروفة « بدلهمة والبطـــال » منسوبة اليهم بما فيها من ملح الحديث وملح الاباطيل... الخ ، قلت دام ذكر هذه القبيلة الى اواخر القرن الثامن ، ثم

فآيسوا ، قالوا وكان الدوقس بعد ان تراجع المسلمون وعلى رأسه راية وبين يديه ولده وبعض مرافقيه فقصده احمد الضحـــاك الكردي على فرس جواد فظنه الدوقس مستأمناً فلما قاربه طعنه الكردي فقتله فانهزمت الروم وتراجع المسلمون فركبوا اقفيتهم قتلا واسراً والجأوهم الى مضيق في الجبل « لعله يعني المضيق الذي في شمالي القلعة » وأسروا ولد الدوقس . وفي سنة ٤٢٢ اقبـــل الروم ومعهم الامير البدوي حسان بن مفرج الطائي وهو مسلم ، وكان قد هرب اليهم حين انهزم على الاردن من عسكر الخليفة الفاطمي الظاهر ،فسار مع الروم الى الشام وعلى رأسه علم فيه صليب ووصلوا الى افامية وكبسوها وغنموا مافيها وملكوا قلعتها واسروا وسبوا ، وفي سنة ٤٧٥ دخلت افامية في حوزة السلطان ملكشاه بن آلب ارسلان السلجوقي بعد ان استولى على حلب واستلم اللاذقية وكفرطاب وشيزر وافامية من الامير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر . وذكروا في احداث سنة ٤٧٩ ان متولي افامية من جهة رضوان بن تتش السلجوقي كان يميل الى مذهب خلفاء مصر فكاتبهم في الباطن في ان يرسلوا من يسلم اليهم فامية وقلعتها،فطلب الامير البدوي خلف بن ملاعب الكلابي الذي كان طرده تتش السلجوقي من امارة حمص لسوء سيرته والتجأ الى الفاطميين في مصر ، ان يكون هو الذي يرسلونه ليستلم فامية فارسلوه في سنة ٤٨٢ وتســلم فامية وقلعتها ، وبعد ان استقر خلع طاعة الفاطميين ولم يرع حقهم واقام بفامية يقطع الطرق ويخيف السبل كما كان يعمل في حمص ، فاتفق قاضي فامية وجماعة من اهلها وكاتبوا الملك رضوان السلجوقي صاحب حلب في ان يرســل اليهم جماعة ليكبسوا فامية بالليل وانهم يسلمونها اليهم ، فأرسل رضوان جماعة فاصعدهم القاضي والمتفقون معه بالحبال الى القلعة فقتلوا ابن ملاعب وبعض اولاده

انقطع مما يدل على تشتت شملهم وانطفاء خبرهم واندماج فلولهم في بقية القبائل شأن أعراب البادية التي تتغير اسماؤها في كل قرنين او ثلاثة .

وهرب البعض واستولوا على قلعة فامية ، ثم سار الفرنج بقيادة تنكرد برنس انطاكية الى فامية وحاصروها وملكوا البلد والقلعة وقتلوا القاضي المتغلب عليها (ابو الفداء ج ٢ س ٢٣١) .

وظلت فامية في يدصليبي انطاكية وجعلوها من جملة معاقل عاصمتهم هذه على ما قدمنـــا مدة يناوشون منها مسلمي شيزر وحماة ويناوشهم هؤلاء . وقد ذكر أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار عدة كوائن جرت له ولأهله حول فامية تثير العجب . ومن احداث سنة ٥١٧ ان الامير محمود بن قراجا صاحب حماة سار الى فامية وهاجم ربضها فاصابه سهم من القلعة في يده فعاد الى حماة وعملت عليه يده فمات . ودام الحال على هذا المنوال مدة نصف قرن الى ان جاء نور الدين محمود زنكي في سنة ٥٠٤ واستخلصها من الصليبيين . قال ابن الاثير في حوادث هذه السنة : وفيها سار نور الدين محمود زنكي الى حصن افامية وهو للفرنج ايضاً بينه وبين حماة وشيزر مرحلة وهو حصن منيع عـــلى تل مرتفع عال من احسن القلاع وامنعها وكان من به من الفرنج يغيرون على اعمال حماة وشيزر وينهبونها فسار نور الدين اليه وحصره وملكه وحصنه بالرجال والذخائر وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنه فملكه قبل وصولهم فلما بلغهم فتحه تفرقوا اه . وفي الزلزلة الهائلة التي حدثت في سنة ٥٥٢ خربت قلعة افامية فيما خرب من بقية الحصون والمدن في شمالي الشام فرممها نور الدين واليه ينسب معظم مبانيها . وبعد وفاة السلطان صلاح الدين الايوبي في سنة ٥٨٩ استقرت هذه القلعة ومثلها منبج وقلعة النجم وبرزية وكفرطاب وبعرين بيد الامير عز الدين ابراهيم بن المقدم ، ولما توفي هذا في سنة ٥٩٧ استقرت في يد اخيه شمس الدين عبد الملك . لكن لم يكد يستقر عبد الملك بمنبج حتى سار اليه الملك الظاهر غازي صاحب حلب في سنة ٥٩٧ فاستخلص منه منبج وقلعة نجم قسراً واعتقله بعد ان استأمن ثم سار الى كفرطاب فاخذها وحاصر افامية وكان فيها قراقوش نائب عبد الملك فامتنع قراقوش فامر الملك الظاهر بضرب عبد الملك ضربا

شديداً جعله يستغيث فامر قراقوش فضربت النقـــارات على قلعة فامية لئلا يسمع اهل البلد صراخه ولم يسلم القلعة فرحل عنها الملك الظاهر وتوجه الى حماة ثم الى دمشق وحاصرها بشدة لم يفزمنها بطائل (ابو الفداء ج ٣ ص ١١٥) ، على ان قراقوش عاد في السنة الثانية وسلم افامية الى الملك الظاهر لقاء اعطاء عبد الملك اقطاعات تعادلها . ولما زالت دولة الايوبيين عن الديار الحلبية انتقلت قلعة افامية كغيرها الى ايدي السلاطين المماليك . ولا يعلم اذا كان جيش هولاكو التتري وصل اليها في ذلك العهد ونال منها . وفي سنة ٦٦٦ جاء الملك الظاهر بيبرس الى قلعة افامية وجمع جيوشه فيها ثم زحف منها الى انطاكية واستولى عليها ، وفي ايام الملك المنصور قلاوون كانت قلعة افامية في حوزة الأمير الثائر سنقر الاشقر ، وبعد خروج الصليبيين وزوال الحاجة للدفاع لم يبق لهذه القلعة مكانة حربية بل ظلت كما هي الآن عبارة عن قرية يعتصم اهلها فيها من هجمات الاعراب والنصيرية ، وهؤلاء كثيراً ما كانوا يغيرون عليها وعلى غيرها من القرى ايام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

وصف افامية — . هذا ومدينة افامية لا تزال على ما فعل بها الفرس خراباً يباباً تروع الزائر وتدهشه بفخامة اطلالها وجمال رسومها وعظمة مساحتها البالغة مائتي هكتار او اكثر . ففيها انقاض سورها القديم وكان عليه ابواب لم يبق منها الا الباب الشمالي الذي قنطرته واطلال البرجين المحيطين به ماثلة . وثمة شارع عظيم مستقيم يمتد من الشمال الى الجنوب طوله يزيد عن ١٦٠٠ متر ، كان على جانبه صفان متقابلان من الاعمدة الجسيمة لا تزال قواعدها او بعض اقسامها المهشمة ظاهرة ، وهناك شوارع اخرى مستقيمة تتشابك في مواقع عديدة مع الشارع الاعظم . وحول هذه الشوارع تجد اينما سرت دوراً وقصوراً متهدمة وجدرانا متداعية واحجاراً منحوتة مبعثرة وقواعد وتيجان اعمدة واعمدة طويلة ضخمة متمددة او منتصبة سطوح بعضها مستوية وسطوح الاخرى



الاعمدة المزخرفة في خربة افامية «عن مجلة العاديات الحلبية» (جولة اثرية 'مقابل صفحة ١٥١)

مخرمة بخطوط مقورة او ناتئة مستقيمة او حلزونية وكلها من الصخر الجيري الاشهب الذي قضمه الطحلب وفعل فيه كر الدهور .

وقد كانت افامية في عهد أسامة بن منقذ على هذه الحالة اذ يقول في كتابه الاعتبار صفحة ٤٧ « وسرنا الى افامية فلقينا فارسهم وراجلهم — يعني الافرنج — في الخراب الذي لها وهو مكان لا ينصرف فيه الخيل من الحجارة والاعمدة واصول الحيطان الخراب » اهـ . وبعد ان ظلت افامية طول القرون الخالية على هذه الحالة، طمر التراب معالمها فدفنها ومحا النسيان ذكرها او كاد ، قيض الحظ لها في عهدنا بعثة أثرية بلجيكية قامت منذ خريف سنة ١٣٤٨ بحفر خرائبها فكشفت آثار عديدة امكن بمجوعها من تخطيط المدينة ورسم شارعها الاعظم وبعض مبانيها، وكشفت طريقة توزيع المياه فيها مع بعض الاثار الخاصة بالعبادات . ومما افاد البعثة في توجيه حفرياتها خارطة جوية اخذت من احدى الطيارات فشملت جميع الاطلال ومكنت المهندسين من القاء نظرة اجمالية على المدينة بكاملها، وظهرت المدينة على شكل اهليلجي يستطيل من الشمال الى الجنوب ويتصل من الغرب بالتل القائمة عليه اليوم « قلعة المضيق » . وكشفت الحفريات الاعمدة المنتشرة على جانبي الشارع الاعظم ولم يكن يظهر قبل الحفر الا رؤوسها او حلقات منها وقطر العمود منها يبلغ ١٢٠ سنتيمتراً . وكشفت ايضا قواعد هذه الاعمدة التي كانت مطمورة على عمق ٣—٧ امتار ، فاذا هي مزخرفة بنقوش لطيفة على شكل اوراق اللبلاب والخرشوف . ويبلغ عدد الاعمدة الالف على صفين متقابلين ، وطول الشارع بين العمود والاخر ثلاثة امتار الا عندما تنفرج الاعمدة فتخلي المكان لشارع آخر فتتألف ساحة في المفرق وعندما تنفرج امام واجهة الصرح الكبير القائم على اعمدة تشبه السابقة . وهذا الصرح من اهم مباني افامية لانه غريب في هندسته اليونانية ولم يعرف هل كان معبداً ام قصراً أم دار حكومة . وكشفت انقاض مسرح روماني وركن مزخرف يمثل مشاهد واشخاصا تتعلق بعبادة الكرم ، وناووس من الحجر عليه نقوش رومانية وغيرها . ومن اجل

الاثار التي اكتشفتها البعثة قناة الماء الكبيرة الآتية من الشمال من مكان مجهول وهي محمولة على قناطر ضخمة واركان قوية ثم تدخل الى المدينة في نفق مدت فيه اسطوانات ضخمة حجرية يبلغ قطرها الداخلي ٥٠ والخارجي ٩٠ سنتيمترا ، والعجيب فيها انها كلها من الحجر الصلد المحفور حتى منعرجاتها وزواياها . ويتفرع من تلك الاسطوانات قساطل فخارية صغيرة تتفرع في جميع انحاء المدينة على اسلوب غاية في الاتقان . وهذه البعثة دائبة على العمل في خريف كل سنة ، وعساها تتوفق لاظهار دفائن هذه المدينة التاريخية الجميلة .

اما قلعة افامية فلا تزال فوق تلها الكبير العالي تشرف في الغرب على جبال النصيرية وعلى سهل الغاب ووادي العاصي ، وفي الشمال على جبل الزاوية وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو ، ويظهر في احدى قمم هذا الجبل قبة بيضاء قيل انها مقام الصحابي ابو هريرة ، وتشرف في الجنوب والشرق على سهول ناحيتي الطار وخان شيخون . وكان يحيط بالتل خندق عظيم زال معظمه ، على انه ليس في هذا الحصن قلعة كبيرة كما في حصن شيزر وحصن الاكراد بل سور عظيم على هيئة مضلع غير منتظم تتخلله ابراج كثيرة مربعة الشكل ، وفي اسفل السور رصيف من الحجارة كان التل مصفحا به كما في قلعتي حلب وحمص وغيرهما . وقد خرب القسم الغربي من السور كما ان المباني التي كانت تعلوه دثرت بالكلية . وفي شمالي القلعة برج جميل البناء في وجهه القبلي كتابة تحوي اسم الملك الظاهر غازي صاحب حلب تاريخها ٦٠٤ وفي قبليه باب كبير ذو قنطرة يدخل منه الى القلعة يحرسه برجان متقاربان وعلى الباب كتابة تحوي اسم الملك الناصر يوسف صاحب حلب وهو حفيد الظاهر غازي تاريخها ٦٥٤ . وهاتان الكتابتان ، وفقدان كل اثر للسلوقيين والصليبيين ، وشكل الابراج المربعة واقسامها الداخلية والاعمدة التي حشيت في عرض جدرانها ، وشكل برجي الباب اللذين يؤلفان ما يسمى في كتب العرب باشورة كل ذلك يدل على ان بناء هذا الحصن عربي صرف ، وكذلك طراز هندسته ، وهو من آثار نور الدين محمود بن زنكي والايوبيين

من اعقاب صلاح الدين حكام حلب . هذا والقرية التي في داخل الحصن كبيرة يبلغ عدد سكانها نحو الفين حافلة بالدور المبنية من انقاض السور والابراج وخرائب افامية ، واهلها يصعدون وينزلون كل يوم الى مزارعهم ومراعيهم التي في اسفلها وجوارها ويشربون من الينابيع التي في سفح التل ، وشأنهم في الهزال واصفرار الوجوه شأن بقية قرى الغاب الا قليلا . وفي خارج الحصن على مقربة من بابه القبلي جامع صغير حسن البناء مستطيل الشكل في وسطه قبة وعلى طرفيه عقدان وفي غربيه مأذنة جميلة بيضاء ، ويدل بناء هذا الجامع على انه عثماني وقد اصبح الآن خراباً مهجوراً ، وفي اسفل الجامع خان عظيم خراب من آثار الوزير العثماني سنان باشا الشهير(١) ذو فناء واسع واقبية معقودة كبيرة في جدرانها مداخن متقنة كانت تأوي اليه قوافل التجار والحجاج القادمة من انطاكية الى

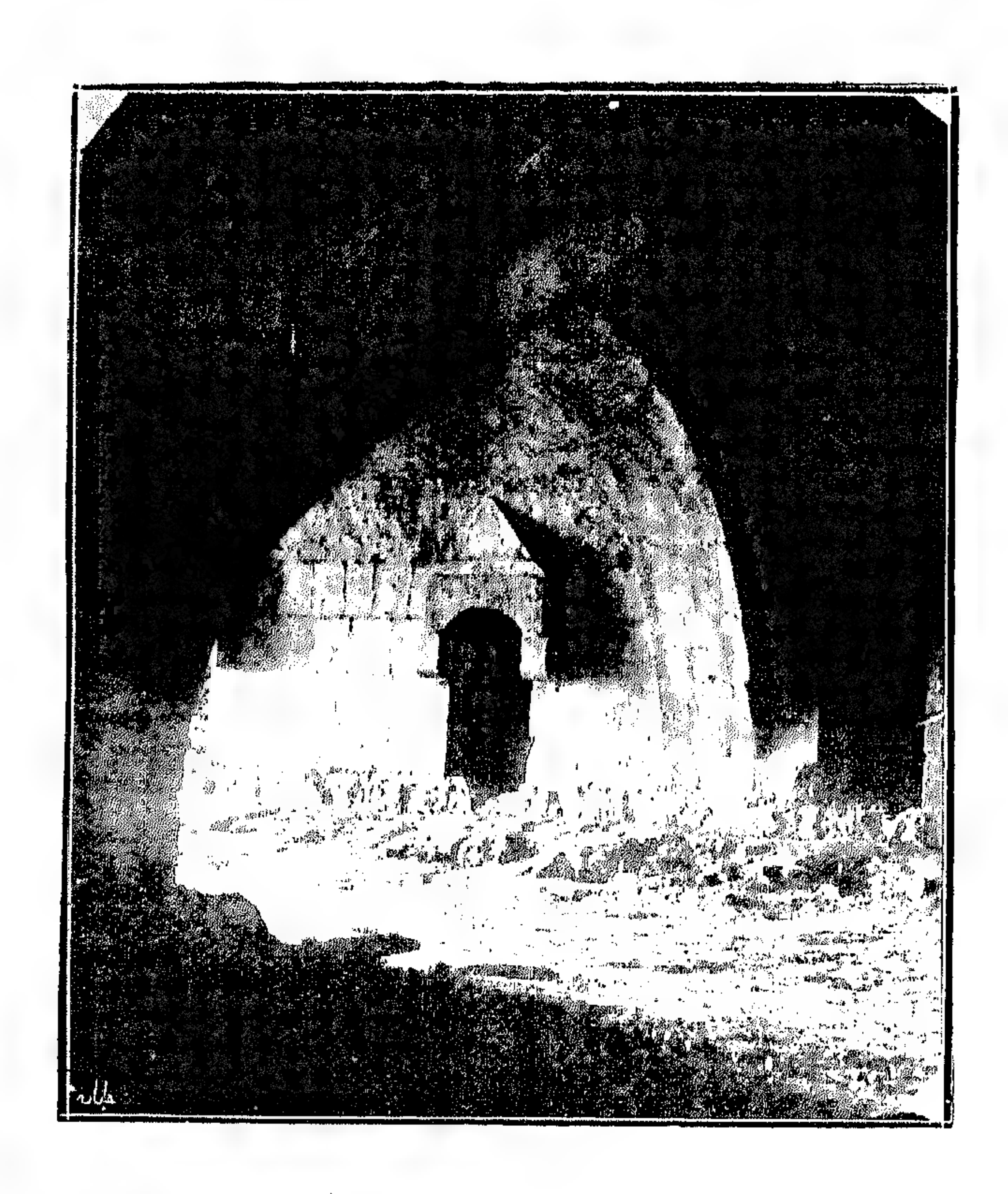
---

(١) ترجمه المحبي في خلاصة الأثر فقال : سنان باشا صاحب الآثار العظيمة في البلاد من جملتها الجامع المنسوب اليه في دمشق خارج باب الجابية والحمام والسوق المتفق على وضعهم ودقة صنعهم (كذا) وله مثل ذلك في كل من القطيفة وسعسع وعيون التجار وعكة مع خانات ينزلها المسافرون وله ببولاق جامع عظيم ومثله باليمن والقسطنطينية وغيرها من البلاد جوامع ومساجد ومدارس وخانات وحمامات تنوف على المئة وبالجملة فهو اكثر وزراء آل عثمان آثاراً ونفعا . ولي الحكومة بمصر في زمن السلطان سليم بن السلطان سليمان وتولى الوزارة العظمى عدة مرار الى ان توفي في آخر مرة في سنة ١٠٠٤ ، وقال في خطط الشام ج ٢ ص ٢٤٣ : وسنان باشا فاتح اليمن كان من العتاة الطغاة انشأ هذه المعاهد الخيرية التي تقدر نفقاتها بمليوني ليرة بالأموال التي كان يستصفيها بقتل الانفس وتخريب البلاد اهـ . وعندي انه على علاّته كان انسب بقية الوزراء الذين خربوا ونهبوا وذهبوا دون ان يأتوا بعمل ما .

حماة وما وراءها . وقد صار الآن مأوى للغنم في الشتاء ولصناع الاواني الخزفية في الربيع . وقد اتخذت قرية قلعة المضيق قاعدة ناحية الحقوها في السنين الاخيرة بقضاء المعرة بعد ان كانت تابعة قضاء جسر الشغر ، تتبعهـا القرى التي تقدم ذكرها في بحث سهل الغاب . ولا يعرف العهد الذي تبدل فيه اسم حصن افامية وهو المصطلح عليه في عامة التواريخ القديمة فصار قلعة المضيق ولم اعثر في كتبنا القديمة على كلمة المضيق الا عرضاً في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي عند ذكره الموقعة التي جرت حول افامية في سنة ٣٨٧ لما حاصرها الروم وضايقوا اهلها وجاء جيش ابن الصمصامة والي دمشق لاستخلاصها فكسر الروم وقتل ملكهم قال : وكانت الوقعة في مرج افيح يطيف به جبل يعرف بالمضيق لا يسلكه الا رجل في اثر رجل ومن جانبه بحيرة افامية ونهر المقلوب فلم يكن للروم مهرب في الهزيمة ا هـ . فيظهر من ذلك ان سهل الغاب كان يدعى « مرج افامية » وقلعة المضيق « حصن افامية » والوادي الضيق المنحدر المحصور بين آخر عضد من جبل شحشبو وتل القلعة الذي ينفذ منه السائر الى سهل الغاب « المضيق » ونهر العاصي « النهر المقلوب » .

طريق قلعة المضيق — قلعة شيزر (٢٧ كيلو مترا)

بعد قلعة المضيق يجتاز السائح وادي الجفار ويتجه جنوباً فيغادر ولاية حلب ويدخل ناحية الطار من اعمال لواء حماة التابع ولاية دمشق ، ويمر في سهول بعيدة الاطراف لا شجر فيها ولا حجر ذات تلعات متموجة وتلال بعثرت فيها ضياع اوضويعات بيوتها اخصاص وحولها كثير من مضارب الاعراب كالجرنية وحيالين وجلمة وتل ملح ، ويرى على يمينه على سيف الغاب الصقيلبية ذات الدور البيضاء وهي كبيرة واهلها روم ارثوذكس يبلغون الالفين ويشبهون النصيرية بلهجتهم وازيائهم وجمال نسائهم ، وقد اشتهرت حنطتهم بالجودة تتخذ للبذر في اكثر الديار الحموية ، قاوم اهلها العصابات التي كانت تحارب الجنـد



داخل خان قلعة المضيق «عن مجلة العاديات الحلبية» (جولة اثرية مقابل صفحة ١٥٤)

الافرنسي في سنة ١٣٤٠ فنهبوها ، وثمة من الضياع صلبا والعونية وكفر يهود ، وعلى العاصي عمورين والعشارنة والتريمسة وتل الترمسي كما قال أسامة ، وفي العشارنة على العاصي يجتازه قاصدو جبال الكلبية وقراها وطاحونة وناعورتين تسقيان زوراً كبيراً في شماليها . وفي شرقي هذه الطريق كفرنبوذا ومغير وكرناز وبريديج والشيخ حديد وجبين والزلاقيات . وهكذا الى ان يهبط السائح وادي العاصي ويصل الى جسر شيزر وقلعتها . وكل هذه الضياع التي عددناها ذات تربة رملية طينية حمراء معروفة بخصبها وانباتها الزروع الصيفية والشتوية عذياً ، وبيوتها في الضياع تكون اكواخا مستطيلة من القصب والقش يدعونها طامات وفي القرى دور حجرية . ذكر ياقوت في معجمه من هذه عمورين وسماها عمورية ودعاها بليدة وهي الآن ضيعة صغيرة قال : عمورية بليدة على شاطىء بين فامية وشيزر ، فيها آثار خراب ولها دخل وافر ولها رحى تغل مالاً اهـ . وذكر أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار اسماء كفرنبوذا وتل ملح وتل التلول ، وقال ان تل ملح كان مكمناً للافرنج عند اغارتهم على شيزر . وقد تحريت فلم اجد اساساً ومصدراً لكلمة الطار التي سميت هذه البقعة بها وقيل انها قديمة ، فهل هناك تحريف عن كلمة (طاب) التي سميت بها بليدة (كفرطاب) التي ذكرتها التواريخ مراراً ، وقد كانت في شرقي هذه الناحية بينها وبين خان شيخون وقد ضاع رسمها وتنوسي اسمها ، ذلك ما يحتاج للتحقيق . واغلب سكان ضياع الطار وفلاحيه اعراب يدعون الصماطية ويعدون من الافناد الملتحقة بقبيلة الموالي .

تاريخ شيزر . — اما شيزر فقد قال عنها ياقوت : شيزر قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الاردن (١) عليه قنطرة في وسط المدينة وتعد من جند حمص . وقال ابو الفداء : شيزر من جند حمص ذات قلعة حصينة والعاصي يمر من شماليها (وصوابه من شرقيها)

وينحدر عندها على سكر ارتفاعه يزيد على عشرة اذرع يسمونه الخرطلة وهي ذات اشجار وبساتين وفواكه كثيرة اكثرها الرمان ولها سور من لبن وثلاثة ابواب . وقال الاصطخري : وشيزر وحماة فانهما مدينتان صغيرتان نزهتان كثيرتا الماء والشجر والزرع . وقال شيخ الربوة : وشيزر مدينة حصينة وبية (وبيلة او وبيئة) تشرب اهلها وارضها من النهر العاصي ولها قلعة طولها ظاهر تسمى عرف الديك محاطة من ثلاث جهات بالعاصي . وجاء في « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » المنسوب لابن الشحنة الحلبي من رجال القرن التاسع طبع بيروت ص ٢٣١ — شيزر مدينة قديمة ذات قلعة وكورة حسنة ولها معاملات وقراها في اقطاعات جند حلب يجري بها نهر العاصي وهي قريب من حماة ولها نائب من قبل السلطان وقاضي يوليه قاضي حلب وهي معروفة بالوخم . وجاء في ذيل تاريخ ابي الفداء لابن الوردي في حوادث سنة ٧٤٥ : وزاد نهر حماة واغرق دوراً كثيرة ولطم العاصي خرطلة شيزر فأخذها وتلفت بساتين البلد لذلك ويحتاج اعادتها الى كلفة كبيرة اه .

قلت لم يبق في شيزر من الفواكه التي ذكرها ابو الفداء اثر يذكر ما عدا قليل من الرمان ، وحالة الازوار والبساتين ايضاً وسطى ، وسكر الخرطلة الذي خرب سنة ٧٤٥ تنوسي اسمه ، والبلدة ذات السور والابواب الثلاثة التي كانت في اسفل القلعة قد عفت رسومها ولم يبق منها الا بعض اسس الجدران وكسور الحجارة والاعمدة وصار مكانها بضعة قباب حقيرة بين الجسر وباب القلعة يقطنها العمال في ازوار شيزر ، والبلدة العليا التي كانت في داخل القلعة خربت وصار مكانها قرية بنيت بركام الانقاض يقطنها فلاحو الارض العذية ، ولا يزيد عدد الجميع عن الاربعمائة جلهم من السنيين وقليلهم من النصيرية والاسماعيلية .

وخلاصة تاريخ شيزر ان فراعنة مصر عرفوها وذكروها في رقم تل العمارنة المسمارية باسم سنزار ، وعرفها اليونان وسموها لاريسا ، قيل ان لسلوقس

نيكاتور فضلا في ترميمها وتحصينها ، وذكرها امرؤ القيس في قوله :

تقطع اسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بسير يضج العود منه يمنه اخوالجهدلا يلوي على من تعذرا

وذكرها عبيد الله بن قيس الرقيات في قوله :

قفوا وانظروا بي نحو قومي نظرة فلم يقف الحادي بنا وتغشمرا
فواحزنا اذ فارقونا وجاوروا سوى قومهم اعلى حماة وشيزرا

ولما قدم ابو عبيدة بن الجراح سنه ١٧ ه بعد ان فتح حمص وحماه خرج اليه اهل شيزر يقلسون ، وصالحوه على صلح حماه اي الجزية لرؤوسهم والخراج على ارضهم . وجعلت شيزر بعد من اعمال جند حمص . وكان سكانها في القرن الثالث الهجري قوم من كندة على ما في كتاب البلدان لليعقوبي . ولما كانت شيزر وجارتهاافامية على الطريق الذي تسلكه اكثرالقوافل والجحافل القادمة من شمالي الشام او جنوبها ولتسلطهما على وادي العاصي كانت لهما مكانة جليلة من وجهتي سوق الجيش والتجارة ، وكانت شيزر خاصة تعد مفتاح بلاد الشام ، لذلك ظلت عرضة لهجمات الروم البيزنطيين المتتابعة التي تقدم ذكر اسبابها ونتائجها في ابحاث كيليكية وانطاكية ، ولما زحف قيصر الروم نقفور الفقاش على حلب وانطاكية وغيرها من مدن الشام الشمالية وعاث وافسد لم يجد سيف الدولة ملجأ يعتصم به احسن من شيزر ، لكنه اصابه فيها مرض شديد مات على اثره ونقل جثمانه الى عاصمةحلب في سنة ٣٥٦ . وفي السنة التالية ٣٥٧ وصل القيصر المذكور الى شيزر واستولى عليها واحرق جامعها . وفي سنة ٣٥٩ اصطلح هذا القيصر مع قرعويه متولي حلب من قبل سعد الدولة بن سيف الدولة على عشرة قناطير ذهب يحملها قرعويه الى القيصر كل سنة على خراج بلاد عديدة منها شيزر وحلب وقنسرين وحمص وحماة وجوسية وسلمية والمعرة وكفرطاب وفامية وجبل السماق ومعرة مصرين والاثارب وغيرها . لكن سعد الدولة لم يشأ الاعتراف بهذه المعاهدة المذلة وسعى للتخلص منها ، فاخرب الروم اذ ذاك حمص ليضطروه الى الاذعان

وجاءه الخوف من زحف الفاطميين نحوه و نوالهم من ملكه ، فأذعن وأدى الجزية في سنة ٣٧٣ . وحدث ماخشي منه سعد الدولة فجاء سنة ٣٨٢ منجوتكين قائد جيش الفاطميين وحاصر شيزر واستخلصها من قائدها الحمداني مثلما استخلص فامية وغيرها كاقدمنا . ولما استنجدا بو الفضائل بن سعد الدولة بالقيصر باسيليوس لينقذه من منجوتكين زحف القيصر في سنة ٣٨٣ وحاصر فيما حاصره شيزر واستخلصها من قائدها الفاطمي منصور بن قراديس ، واقام القيصر في شيزر حامية قوية من جند الروم . لكن شيزر عادت وسقطت بيد والي دمشق الفاطمي جيش بن الصمصامة الذي قتل دوقس انطاكية وكسر جيشه في معركة افامية التي جرت سنة ٣٨٧ كما قدمنا ، وسلم شيزر لقائد اسمه حلمان بن قراديس ولعله اخو منصور المذكور انفا . على ان القيصر باسيليوس خف بنفسه في سنة ٣٨٨ ، وشرع بحصار شيزر وخرب القناطر التي كانت تأتي بالماء الى القلعة ودافعت حاميتها دفاعا مجيداً ، الا ان فقدان الماء اضطرها اخيرا الى الاستسلام على ان تؤمن على ارواحها واموالها . ونزح اكثر السكان المسلمين فاقام القيصر مكانهم جالية من الارمن واستلم بعد ذلك حصن ابو قبيس بالامان ، واستقرت شيزر واعمالها في ايدي الروم البيزنطيين نحو ٨٢ سنة حتى سنة ٤٧٤ ، في سنة ٤١٥ اقطع صالح بن مرداس صاحب حلب البلاد المجاورة لشيزر الى بني منقذ الكنانيين ، اما شيزر فقد ظلت بيد الروم .

وبنو منقذ المذكورون كانوا امراء اعزاء يكرمهم ملوك الشام في ذلك العهد ويجلون قدرهم ويقصدهم شعراء عصرهم ويمدحونهم ، اول من عرف منهم واشتهر ابو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ الكناني كان صاحب كفرطاب ، وكانت حدود بلاده تصل جنوبا الى وادي العاصي ، وهو الذي بنى رأس الجسر المعروف بجسر بني منقذ غربي شيزر . ولما توفي سنة ٤٥٠ في حلب وحمل الى كفرطاب خلفه ابنه ابو الحسن علي بن مقلد الملقب سديد الملك . وكان ينزل في جوار شيزر بقرب الجسر المذكور ، وكانت القلعة بيد الروم فحدثته نفسه باخذها ، فشرع سنة ٤٦٨ بعمارة حصن الجسر

الذي لم يدركه ابو الفداء ، بل ذكر عنه في تاريخه انموضع الحصن في زمنه كان تلا خاليا من العمارة وانه غربي شيزر على مسافة قريبة منها. وسبب عمارة هذا الحصن هو ان يمنع شيزر من استقدام الميرة ويضطر اهلها الروم الى التسليم. وقد جاء في كتاب ارسله الى بغداد يصف كيفية استيلاءه على شيزر سنة ٤٧٤ : نظرت الى الحصن فرأيت امرا يذهل الالباب يسع ثلاثة الاف رجل بالاهل والمال ويمسكه خمس نسوة ، فعمدت الى تل بينه وبين حصن آخر للروم يعرف بحصن الجراص ويسمى هذا التل تل الجسر فعمرته حصنـــا وجمعت فيه اهلي وعشيرتي ونفرت نفرة على حصن الجراص فاخذته بالسيف من الروم ومع ذلك فلما اخذت من به من الروم احسنت اليهم واكرمتهم ومزجتهم باهلي وخلطت خنازيرهم بغنمي ونواقيسهم بصوت الآذان فرأى اهل شيزر فعلي فآنسوا بي ووصل الي منهم قريب نصفهم فبالغت في اكرامهم ووصل الي مسلم بن قريش العقيلي فقتل من اهل شيزر نحو عشرين رجلا فلما انصرف مسلم عنهم سلموا الحصن الي" اهـ.

ويظهر من كلامه ان شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل وحلب الذي تقدم ذكره وخبر قتله في بحث العمق وانطاكية كان يطمع بفتح شيزر وانه حاول ففشل . لهذا لما تملك علي بن منقذ شيزر حسده على ذلك فارسل اليه جيشا من حلب بقيادة اخيه مؤيد الدولة علي بن قريش ، فاخذ هذا في طريقه حصنا لابن منقذ يقال له اسفونا غربي كفرطاب ، وكان ابن منقذ قد تأهب للعمار وحمل من الجسر الى شيزر ما يكفي لمن فيه مدة طويلة من سائر الاشياء . وحاصره علي ابن قريش مدة الى ان جاء شرف الدولة مسلم بنفسه سنة ٤٧٥ ثم ترك عسكره في حصار شيزر ورحل الى حمص . فتطارح ابن منقذ عـــليه وسير ابنه وامرأته واخته الى حمص مع مال جزيل فانفذ الى عسكره ورحله عن شيزر . وذكر مؤرخو الافرنج ان شيزر كانت الى حين استيلاء ابن منقذ عليها في حوزة القيصر البيزنطي الكسي كومنن ، وان ابن منقذ استولى عليها بعد معاهدة عقدها مع مطران

البارة المقيم في شيزر ، وانه سمح للحامية البيزنطية بالخروج منها حرة . وذكر مؤرخو العرب ان علي بن منقذ هذا كان شاعرا مجيدا قوي الفطنة . ولما توفي خلفه ابنه عز الدولة ابو مرهف نصر بن علي وكان تقيا كريما مغرماً بالفنون . وكانت مملكة شيزر في عهده تحوي افامية وكفرطاب واللاذقية ، وفي سنة ٤٧٩ لما قدم السلطان ملكشاه السلجوقي واستولى على حلب ارسل اليه الامير نصر بن علي ودخل في طاعته فاجابه السلطان الى المسألة وترك قصده واقر عليه شيزر (ابو الفداء ج٢ ص٢٠٧) وفي زمنه حوصرت شيزر مرارا فلم ينل احد منها طائلا . منها في سنة ٤٨١ جمع قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب « ابو عماد الدين زنكي » عسكره وسار الى قلعة شيزر وضيق على صاحبها نصر بن علي بن منقذ ونهب الربض ثم صالحه ابن منقذ المذكور فعاد آق سنقر الى حلب . ومات نصر دون عقب سنة ٤٩١ بعد زمن قليل من استيلاء الصليبيين على انطاكية ، وكان عهد بالامارة بعده الى اخيه الاصغر مجدالدين ابو سلامة مرشد (٤٥٨— ٥٣١) والد أسامة الذي سيأتي ذكره . لكن مرشدا كان ولوعاً بالصيد والخط فتنازل عن الامارة الى اخيه الاصغر عز الدين ابو العساكر سلطان (٤٦٤ — ٥٤٨) . اما الامير مجد الدين مؤيد الدولة ابو المظفر اسامة بن مرشد الاديب الشاعر والبطل المغوار فقد ولد سنه ٤٨٦ وهو مؤلف كتاب الاعتبار (١) الذي جمع فيه اخبار وكوائن شتى عن طرز الحياة والصيد وقتال الصليبيين حول بلدته شيزر التي هجرها سنة ٥٢٠ ولم يعد اليها الا بعد وفاة ابيه في سنة ٥٢٨ ،

وفي زمن ابي العساكر سلطان هوجمت شيزر مرارا من قبل صاحب دمشق

---

(١) له ايضا كتاب العصا وازهار الانهار وكتاب البديع في علوم الشعر واختصر سيرة عمر بن الخطاب تأليف ابن الجوزي البغدادي ، وله التاريخ البدري واخبار البلدان وذيل على خريدة القصر للباخرزي ، وكانت لديه مكتبة عامرة تشتمل على غرر المخطوطات ونفائسها تبلغ اربعة آلاف مجلدا اغتصبها الافرنج في البحر حينما استقدمها مع عائلته واولاده فاسف عليها كثيرا .

وثم اعراب بني كلاب النازلين في براري حلب والاسماعيلية والبيزنطيين والصليبيين، وفي كل مرة كانت تنجو من السقوط بفضل مناعتها الطبيعية وحصانة قلعتها وبسالة اصحابها بني منقذ، جاءها في سنة ٥٢٧ شمس الملوك اسماعيل بن بوري ابن طغتكين صاحب دمشق بعد ان حاصر حماة في تلك السنة واستولى عليها فحاصر شيزر ونهب بلدها وحصر القلعة فصانعه ابو العساكر سلطان بمال حمله اليه فعاد عنها وسار الى دمشق. وجاءها في سنة ٥٣٢ القيصر البيزنطي حنا كومنن في جيش من الروم ونصب على جبل جريجيس المشرف على القلعة ثمانية عشر منجنيقا وارسل صاحبها ابو العساكر سلطان الى عماد الدين زنكي يستنجده فنزل زنكي على حماة فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير الى شيزر بحيث يراه ملك الروم ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ثم يعود آخر النهار، وكان الروم والفرنج قد نزلوا على شرقي شيزر فارسل اليهم زنكي يقول لهم انكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها الى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرتم اخذتم شيزر وغيرها وان ظفرت بكم ارحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم وانما كان يفعل هذا ترهيبا لهم فاشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله فتمنع وخاتل، وكان زنكي يراسل الفرنج والروم كل منهم على حدة ويلقي الشحناء بينهم الى ان إستشعر كل منهم من صاحبه فرحل ملك الروم عن شيزر وكان مقامه عليها اربعة وعشرين يوما وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فغنمها زنكي، وكان المسلمون في بلاد الشام قد اشتد خوفهم وعلموا ان الروم ان ملكوا حصن شيزر لا يبقى لمسلم معهم مقام لا سيما مدينة حماة لقربها. ومن احداث شيزر التي تذكر انه نزل الافرنج «صليبيو انطاكية» في بعض السنين على شيزر وكان الماء بين شيزر وبينهم عظيم لا يمكن خوضه(١) وما كان من سبيل لهم الى شيزر، فلما تبينوا ذلك انتشروا في الارض ودخلوا البساتين يرعون خيلهم فجاء منهم نفر الى البستان

---

(١) هو ماء العاصي الذي كان يقذف من الخندق المحفور قبلي القلعه بعد سد سكر الخربطلة كما سيأتي بيانه

الموجود على جانب الماء ومعهم خيلهم فتركوها ترعى القصيل في البستان وناموا فتجرد رجال من اصحاب بني منقذ ونزلوا من سرداب القلعة المتصل بالعاصي الذي يستقي منه سكانها وقد تهدم الآن معظمه، وسبحوا اليهم ومعهم سيوفهم فقتلوا منهم وجرحوا بعضهم وانتشر الصياح في الفرنج وهم في خيمهم ففزعوا وجاءوا مثل السيل كل من ظفروا به قتلوه وانتهى بعضهم الى مسجد مما يليهم يعرف بمسجد ابي المجد بن سمية ودخلوه ثم خرجوا منه وانصرفوا عن شيزر بعد ذلك ، ومن احداثها ايضا ان الاسماعيلية وثبوا سنة ٥٣٥ على حصن مصياف الذي كان لبني منقذ واحتالوا على مملوكهم فيه وقتلوه وملكوا الحصن ، وكان تمادى بهم الطمع وجاءوا سنة ٥٠٢ الى شيزر في وقت كانت القلعة خالية فيه من امراء بني منقذ الذين ذهبوا لحضور حفلات عيد الفصح في حماة (١) فملكوا القلعة وبادر اهل المدينة الى الباشورة واصعدهم النساء بالحبال من الطاقات وادركهم الامراء بنو منقذ على اثر وصول الخبر اليهم ووضعوا السيف في الاسماعيلية فلم يسلم منهم احد . (ابو الفداء ج ٢ ص ٢٣٥)

وكانت حصلت نفرة بين سلطان واخيه مرشد بسبب اولادهما ، ولما توفي مرشد بادأ سلطان اولاد اخيه علي وأسامة بالسوء واخرجهم من شيزر ، فقصدوا نور الدين محمود زنكي وشكوا اليه مالقوا من عمهم فغاظه ذلك ولكنه لم يمكنه قصده واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الافرنج (ابن الاثير) . ولما مات سلطان سنة ٥٤٨ خلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد الى ان هلك بالزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٥٢ واخربت كثيراً من مدن الشام الشمالية وكان اشدها كما قال ابن الاثير في حماة وشيزر ، وكان بنو منقذ مجتمعين في وليمة ختان فهلكوا ولم ينج احد ممن كان منهم داخل القلعة الا امرأة اخرجت من تحت الردم . وكان اسامة غائباً في دمشق فجاء بعد الزلزلة وعاين ما فعلته الزلزلة بشيزر واهله فبكاهم ورثاهم بغرر القصائد . وحاول اذ ذاك الصليبيون ان يملكوا

---

(١) سنأتي على وصف هذه الحفلات في بحث حماة

قلعة شيزر المهدومة المهجورة ، لكن الاسماعيلية هبطوا من مصياف فطردوهم واستولوا على شيزر . ثم جاء نور الدين محمود زنكي وطرد الاسماعيلية من شيزر ورممها وجددها فيما جدده من بقية الحصون واقطعها الى اخيه في الرضاعة مجد الدين ابو بكر بن الداية . ولما مات ابو بكر انتقلت لاخيه سابق الدين عثمان الذي ظل فيها وفي حصن ابي قبيس الى بعد وفاة السلطان صلاح الدين الايوبي فصار من عمال ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . ولما مات سابق الدين انتقلت شيزر لابنه عز الدين مسعود ثم لحفيده شهاب الدين يوسف . وفي سنة ٦٣٠ تجاهر هذا بالعصيان فجاء الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي وحاصره واسترد شيزر وابا قبيس منه فهنأه يحي بن خالد القيسراني بقوله :

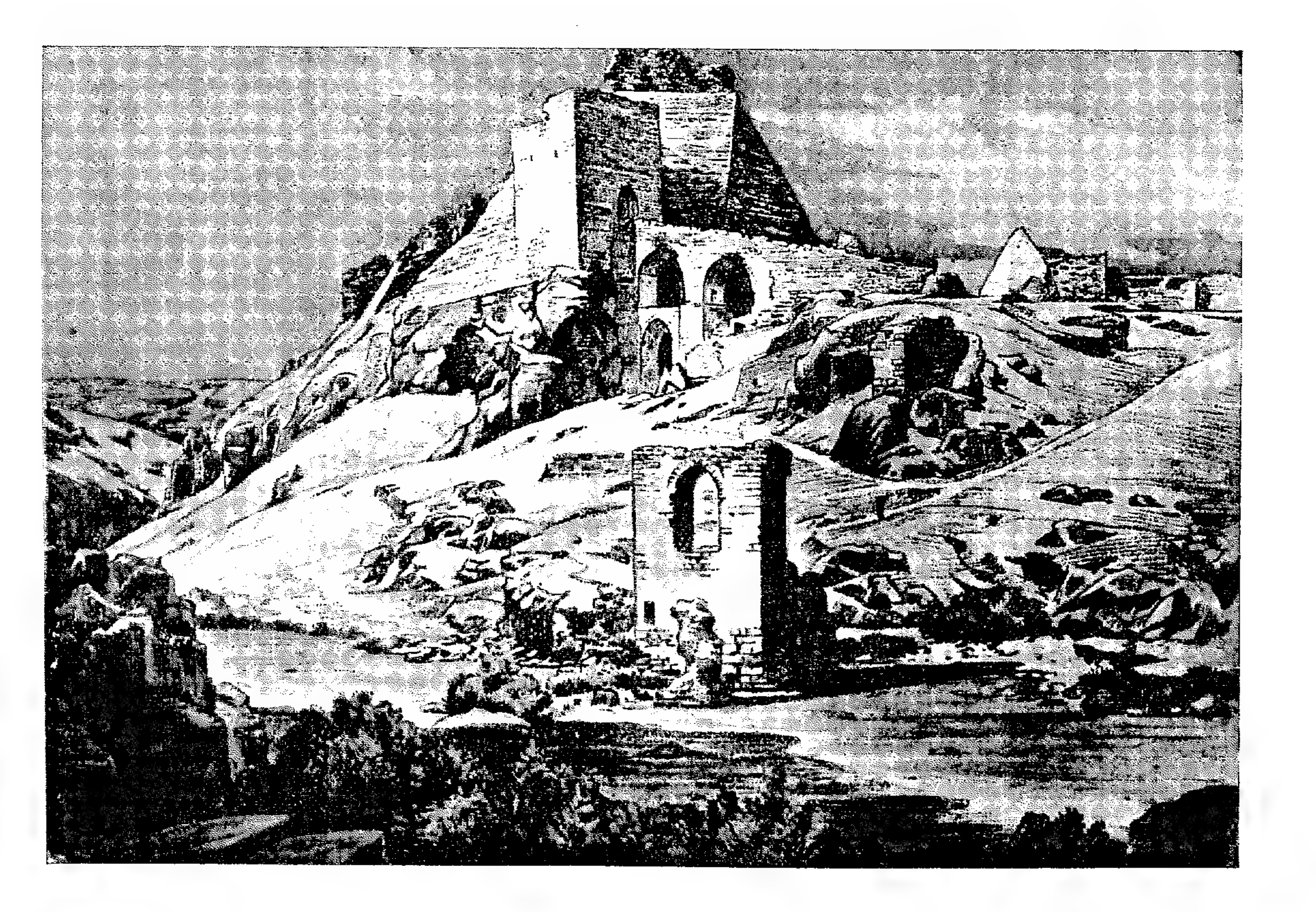
يا ملكا عم اهل الارض نائله   وخص احسانه الداني مع القاصي
لما رأت شيزر آيات نصرك في   ارجائها القت العاصي الى العاصي

ولما جاء التتار بقيادة هولاكو هدموا اكثر القلاع التي كانت للايوبيين ، ولا بد ان يكونوا نالوا ايضاً من شيزر ، لانها ذكرت في جملة القلاع التي زارها الملك الظاهر بيبرس مراراً ورممها . ولما جلس الملك المنصور قلاوون الصالحي في سنة ٦٧٩ ظلت شيزر كجارتها فامية مدة في يد الامير سنقر الاشقر ، الذي عصى ونازع قلاوون السلطنة ثم استرجعها قلاوون منه صلحاً في سنة ٦٨٠ على ان تبقى في يد الامير سنقر الشغر وبكاس فحسب . ورمم قلاوون بعض اركان شيزر وظلت في حوزة اخلافه المماليك وكانت في عهدهم نيابة من اعمال حلب ونائبها امير عشرة . وذكرت اذ ذاك شيزر في التواريخ (خطط الشام ج ٢) ان نائب حلب سافر سنة ٧٤٨ لتسكين فتنة ببلد شيزر بين العرب والكرد قتل فيها من الكرد خمسمائة نفس ، ثم ذكرت في جملة البلاد التي نهبها نعير بن جبار امير آل فضل (اجداد امراء الموالي الحاليين) في سنة ٧٩٣ وكان مع منطاش الثائر على الملك الظاهر برقوق خائضاً غمار فتنته ولعل خرابها بدأ منذ تلك الفتنة ، وظل الحال على هذا المنوال الى ان دخل العثمانيون . ومهما يكن

فان شيزر بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الشام كلها وزوال الحاجة للدفاع لم يبق لها كما قلنا في افامية مكانة حربية بل ظلت كما هي الآن قرية يعتصم أهلها من الاعراب والنصيرية الذين كانوا يغيرون عليها ايام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

وصف قلعة شيزر . — بنيت قلعة شيزر على ظهر أكمة صخرية تمتد من الجنوب الى الشمال منتصبة على يسار العاصي شبهها العرب لنتوئها بعرف الديك ويمر نهر العاصي من شرقي هذه الاكمة بعد ان يلتوي في منعرج ذي زاوية قائمة ويجري في وهدة عميقة . فالقلعة منفصلة عما يجاورها في شرقيها وشماليها وغربيها بفضل المنحدرات الصخرية العميقة المحيطة بها والتي تعلو نحو ٤٠ — ٥٠ متراً . اما في الجنوب فقد كانت أكمتها متصلة بالجبل المجاور الى ان حفر القدماء فيه خندقاً عريضاً وعميقاً فصلوها به عنه وبنوا فوق الخندق برجاً كبيراً سيأتي وصفه، وفي رواية انهم كانوا عند مهاجمة الاعداء يمرون مياه العاصي من هذا الخندق بعد سد مجراه بسكر لعله سكر الخرطلة الذي نوه به ابو الفداء فاذا مرت هذه المياه وطغت على السهل الغربي تصبح شيزر كجزيرة لايعود بامكان العدو الاقتراب منها .

وقلعة شيزر خراب في الجملة لم يبق منها سالماً الا طرفاها الشمالي والجنوبي . يدخل القاصدون من بابها الكائن في الجهة الشمالية بعد ان يجتازوا جسراً حجرياً بني فوق وادٍ ضيقٍ وعميق . وكان هذا الجسر في العصور الوسطى من الخشب وهو نقّال يرفع عند اللزوم . اما الحالي فحجري يعلوطبقتين من القناطر ، ولشدة الانحدار جعل ممشاه ذا درج مرصوف ببلاط كبير وجعل على طرفيه درابزين يوشك ان يتداعى . اما مدخل القلعة فقد جعل في جوف باشورة مربعة الشكل بارزة الى الامام بنيت بقطع ضخمة من الحجارة التي يدعوها البناؤون (احجار

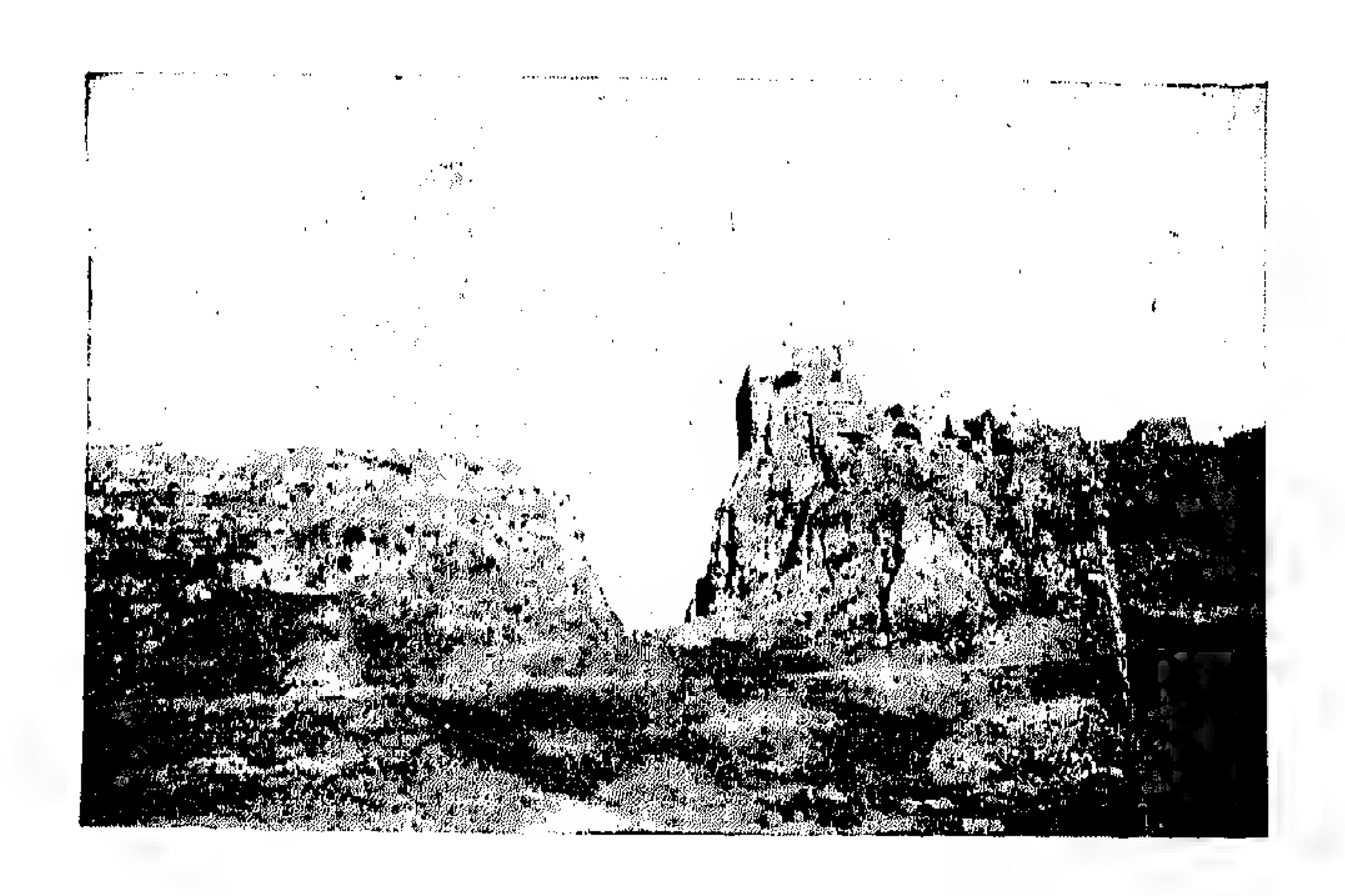


واجهة قلعة شيزر

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ١٦٦)



مدخل قلعة شيزر (جولة اثرية ، مقابل صفحة ١٦٥)



البرج الكبير والخندق في جنوبي قلعة شيزر (جولة اثرية ، مقابل صفحة ١٦٥)

التشبيك)و(الاحجار السورية) ، والثانية منسوبة للاسوار تكون ناتئة في وسطها ، وحشي بين هذه الحجارة قطع من الاعمدة لتشد ارتباط المداميك بعضها ببعض .

وفي المدخل لجوة يعلوها قوس من النوع الذي يدعوه البناؤون « قوس منكسر » ، وفي جوف الفجوة باب ذو عتبة مستقيمة وفوق القوس كتابة عربية طويلة فيها اسم الملك المنصور قلاوون الصالحي في سنة ٦٨٩ على احجار الجدار الظاهرة ، وفوق الكتابة بقليل زغلولان لرمي السهام ونافذة مربعة الشكل ، وفي الطابق الاعلى من الباشورة نافذة اخرى مربعة لايزال يعلوها زافرتا مرمى كان مخصصاً لحراسة المدخل ، وقد هدمت الباشورة حتى وصلت الى مستوى هاتين الزافرتين ، وعلى يمين الباشورة قلة هرمية الشكل اقسامها العليا مهدومة ، واقسامها السفلى راكبة على سفح عريض مبلط احد جوانبه يلتصق ويحيط بالباشورة التي تقدم ذكرها ، والضلع المجسم الشمالي الغربي لهذا السفح المستدق قطع واعرض وذلك لدفع شر رماة السهام والنقابين . وتحت الباشورة ساباط معقود يدخل منه الى ساحة القلعة التي ملئت ببيوت القرية المبنية من احجار السور المهدوم، ووراء الباشورة واطلالها سراديب معقودة متداعية كانت توصل من القلعة الى العاصي . وثمة طريق ضيق بين بيوت القرية يأخذك الى قبلي القلعة فتجد فيها البرج الكبير الذي يسميه الاهلون هنا قصرالبردويل ولا يعلم من هو هذا البردويل !

وهذا البرج في أضعف نقطة من نقاط الدفاع فوق الخندق الذي تقدم ذكره لذلك بني بعناية خاصة ، فاحجاره احجار تشبيك وسورية،وهي هنا أضخموأدق عملا من حجارة الباشورة ، وفي عرض جدرانه حشيت قطع كثيرة من اعمدة الروابط لتزيد انضمام الاحجار الخارجية بالداخلية ، وشكل البرج منشور ذو وجوه مستطيلة وله في جهته الشمالية بروز قليل فيه المدخل ، وقد جعل هذا المدخل في محترق زاوية معرضة للقذائف المتشابكة التي تلقى من طوابق البرج

العليا ، وهذا من قواعد الهندسة العربية في المباني العسكرية ، وعلى جدار البرج كتابة باسم الملك العزيز محمد صاحب حلب سنة ٦٣٣ ، والصاعد من درج المدخل يصل الى طابق تحته اقبية معقودة لعلها كانت صهاريج ماء او مخازن مؤنة ، وثمة درج يؤدي الى طابق ثان ثم الى السطح ، وفي الطابق الاول غرفتان كبيرتان عقودهما مرتكزة على عضادات وجدرانهما مثقوبة بكوى للنور وزغاليل غريبة الاشكال ، ويشتمل الطابق الثاني على الاوضاع ذاتها ، اما السطح فقد هدم منه جدار الدفاع الذي كان مضرساً بشراريف عديدة ا هـ .

قال الاثري (فان برشم) في كتابه « رحلة في الشام » الذي اعتمدنا عليه في وصف شيزر : ان باشورة باب القلعة من آثار نور الدين محمود دون غيره على الرغم من ان الملك المنصور قلاوون استكتب اسمه فوق الباب اذ لم يكن له فضل في غير ترميم بعض اركانها ، وان القلة والسفح من آثار الملك الظاهر بيبرس ، والبرج الكبير القبلي ربما كان من آثار نورالدين محمود دون غيره لأن الكتابة التي فوق بابه زبرت بعد البناء ، ولعل الملك العزيز محمد رمم المداميك العليا فقط . وقال ايضا : ان الصليبيين على الرغم من مهاجمتهم شيزر مراراً لم يستطيعوا اقتحامها واذن تكون هذه القلعة عربية بحتة من آثار مهندسي العرب دون سواهم في القرنين السادس والسابع ، وبرهاننا على ذلك تخطيط سورها ورفع الحيطان الجامعة بين ابراجها وهذه الأبراج المربعة القليلة البروز وشكل بناء الباشورة والبرج الكبير المحشوة جدرانهما باعمدة الروابط واقسام البرج في الداخل وانتساق مراكز الدفاع فيه وفقدان اي قطعة مرخمة او مهندمة على الطراز الغربي ا هـ .

قلت وهذه احدى شهادات هذا العالم الأثري الاوربي الذي اختص بدرس المباني العربية القديمة تدل على ما كان عليه اسلافنا من البراعة في تشييد القلاع والحصون واحكام وسائل الدفاع والحصار فيها ، مما ينبغي له علم غزير وخبرة واسعة في فنون الحرب والهندسة والبنيان . ومن اكبر دواعي الاسف ان لانعرف اسماء

المهندسين العسكريين الذين خططوا قلعة شيزر وامثالها من القلاع العربية في القرن الخامس والسادس والسابع ، وصورة انشائها بهذا التأليف البديع والاتقان الغريب ، وان نجهل القواعد والمسميات التي كانوا يتبعونها ويتداولونها في تشييد الاسوار والابراج والثقوب والمرامي واقسامها البارزة والغائرة فيتعذر علينا تعريب ما كتبه عنها علماء الآثار من الافرنج بالحرف . ولو سمح الدهر بابقاء شيء من مؤلفاتهم التي لا بد ان يكونوا عنوا بوضعها(١) ، او لو اكثرت مؤلفو كتب التراجم بهؤلاء المهندسين والبنائين وغيرهم من ارباب الصناعات الدقيقة مثل اكثراثهم بترجمة الشعراء والكتاب والزهاد والمتقشفين ، اذن لعرفنا شيئا من قواعدهم ومسمياتهم ، فتمكنا من وصف ما بنوه وصفا علميا هندسياً تعرف به خطوطه ومقاييسه واشكاله واوضاعه وجنس المواد والحجارة التي يتألف منها وكيفية تركيزها وترتيبها والغايات المنشودة من اختلاف الابراج والقلل والنوافذ والمرامي وكبرها وصغرها وتقويمها وتدويرهـــا وما كان يوضع او يعمل في ارجائها الخ . . لا كما يذكره كتابنا الذين يهيمون في وادي الخيال فيقولون كما قال شهاب الدين محمود في وصف حصن : حصن قد تقرط بالنجوم وتقرطق بالغيوم وسما فرعه الى السماء ورسا اصله الى النجوم تخال الشمس اذا علت انها تنتقل في ابراجه ويظن من سها الى البها انها ذبالة في سراجه . . . الخ ماهنالك من الاغراق الذي ليس فيه شيء مما يدل على هندسة هذا الحصن وكيفية بنائه ، وكلهم نحا هذا المنحى .

هذا وقيل ان بين شيزر وقرية الزلاقيات التي تبعدعنها نحو اربعة كيلومترات الى الشرق قناة قديمة متفرعة من العاصي تسير في نفق محفور في لحف الجبل الى ان تصل قرب القلعة الى فوهة يدعونها الشلقة تعلو بضعة امتار فينحدر منها الماء كالشلال بهدير قوي وهي تسقي زور العريض غربي مقام ابي عبيدة .

وجاء في كتاب الاعتبار لأسامة اسم بندرقنين وانها كانت قرية عند المدينة

---

(١) ومنها كتاب القلاع والحصون للامير اسامة بن منقذ ، ليس له اثر

والآن لا يعرف لها خبر ولا اثر . وجسر شيزر عظيم ذو قناطر عديدة رمم مرارا في الماضي وبني قسمه الجنوبي مجددا في سنة ١٣٤١ ه ، وفيه طاحونة على يمين بابها حجرة ضائع نصفها زبر عليها مرسوم عربي فهمت منه بعد الجهد انه لازالة بعض الضرائب عن اهل الصقيلبية وتاريخها من القرن الثامن ، ومما لا ريب فيه انه ليس هو جسر بني منقذ الذي كان حوله تل وحصن ذكرهما أسامة في مواضع عديدة وكان موضع حصن الجسر في زمن ابي الفداء تل خال من العمارة ، وهو غربي شيزر على مسافة قريبة منها (ابو الفداء ج ٣ ص٣٣) وذكرهما قبله جده ابو الحسن علي بن منقذ الكناني وهو باني الحصن قبل نفرته على حصن الجراص واستيلائه على حصن شيزر كما اسلفنا .

قال فان برشم : بحثنا كثيرا فلم نعثر على اثر لحصن الجسر الذي يفهم من كلام أسامة انه كان في ضفة العاصي اليمنى اقيم لحماية جسر بني منقذ . ونظن ان هذا الحصن والجسر كانا في موقع يبعد عن شيزر للغرب نحو كيلومترين حيث ترى دعامتين بارزتين من العاصي تقاومان جريانه الشديد اه . قلت ويؤيد عبارة (فان برشم) ما جاء في ص ٢١٨ من كتاب الاعتبار ان حصن الجسر كان كثير الصيد يذهب اليه والد أسامة وابناؤه ومعهم البزاة والفهود والكلاب يصطادون الطيور والدواب التي قدمنا ذكرها ، وانهم كانوا يعودون من الصيد وينزلون على بوشمير وهو نهر صغير بالقرب من الحصن . فلو كان حصن الجسر في قرب القلعة كما ظنه بعضهم لما اقتربت طيور الصيد ودوابه كما انه ليس في قرب الجسر الحالي نهر او جدول يدعى بوشمير بل جدول يدعى الفجرة يحصل من طغيان العاصي ، ويستحيل على ابي الحسن على جد اسامة ان يبني مثل هذا الحصن في جوار القلعة لما كانت بيد الروم ثم يناوشهم منه ، ويؤيد عبارة فان برشم ايضاً ابو الفداء في تاريخه (ج ٣ ص ٣٣) من ان موضع حصن الجسر كان في زمنه تلا خالياً من العمارة وهو غربي شيزر على مسافة قريبة منها .

هذا والواقف فوق سطح البرج يطل على مناظر عديدة منها في الشرق الهضبة العالية التي يفصل العاصي بينها وبين اكمة عرف الديك، وكانت قواد الجيوش المحاصرة لشيزر تجعل مخيمها في هذا الموقع المشرف على القلعة وتنصب فيه المنجنيقـــات وتضربها منه ، وفي شرقي هذه الهضبة قبة فيها مسجد وضريح ينسب الى ابي عبيدة وصوابه ان ابا عبيدة لما جاء ليفتح شيزر خيم فيه فاتخذه النـاس بعد مقاما له وبنوا هذا الضريح وذلك المسجد . قيل ان في جدار المسجد حجراً زبرت عليه كتابة تدل على ان منشيء هذا المكان هو السلطان مراد ابن السلطان سليمان العثماني الذي حكم بين سنتي ٩٨٣ — ١٠٠٣ . واذا تطلع الواقف نحو العـــاصي يراه خارجا من الوهدة العميقة المحصورة بين الجبلين ليلاقي السهل الفسيح الممتـــد في الغرب جاريا بهدير قوي لشدة الانحدار هنـــا . ويتجه النظر مع العاصي ومنعرجاته التي تكثر في هذه البقعة فيرى ازوار شيزر وقبتين يبضـاوين تحتهـا مقام النبي ايوب (؟) في قربهما حظيرة مزرعة لاحد سراة حماة ، وعلى بعد خمسة كيلومترات قرية الترمسة وازوارها ، وفي شماليها تل الطويل ولعله تل التلول الذي ذكر محرفا في كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ ، وبعدها قرية الصفصـافة وجسر الفجرة ، ثم بطائح الغاب وآجامه وهي علة وخامة المرتع في هذه الربوع .

وفي السهول والتلعات الغربية والجنوبية الممتدة من قرب شيزر الى سفح جبال النصيرية الغضراء الشامخة كالجدار بين هذه البقـــاع والبحر قرى وضياع عديدة تتبع قضاء مصياف من اعمال حكومة اللاذقية آهلة بالنصيرية، نخص بالذكر منها في السهل تل سلحب وهي كبيرة مستوبلة تحيط بها بطائح الغاب من الشرق والشمال ودير شميل وسلوقية وجب رملة وكنفو ، وقرية دير شميل كانت من حصون الفرسان الاسبتاريين فيها دار حكومة مذ كانت قاعدة الناحية ، وفي شماليها حصن خراب نظن انه حصن الخريبة الذي ذكر اسامة انه كان عليه للافرنج ديدبانا يكشف مسلمي شيزر اذا ارادوا الاغارة على افامية ، مع ملاحظة ان البعد بين هذا الحصن وشيزر ثلاثة عشر كيلومترا . وفي غربي دير شميل على رأس احـــد

اذيال الجبل المرتفعة حصن آخر خراب اكبر من الاول يدعى ابا قبيس يطل على واد يجري فيه نهر ابي قبيس احد روافد الغـاب ، وقد مر ذكر هذا الحصن في تاريخ شيزر ، وهو احد قلاع الدعوة الاسماعيلية المنتشرة في هذه الجبال منها ـ غير ما عددناه سابقاً ـ مصياف والكهف والعليقة والمنيقة وبكسرائيل وغيرها .
وفي جنوبي دير شميل في طريق قلعة مصياف قرية اللقبة التي في قربها شلال كبير يدعى جلميدون يفتكر الحمويون بجره الى حماة للشرب . وفي سهول قضاء مصياف وجباله قرى كثيرة مما عددناه وغيره يقطن اكثرها النصيرية واقلها الروم والسنية وفي مصياف وحدها الاسماعيلية ، وقد اشتهرت هذه القرى بعنبها وتينها ودود حريرها وحراجها وينابيعها المتدفقة

هذا وبعد ان انتهيت في ربيع سنة ١٣٥١ من زيارة هذه القلعة والاحاطة بما وصفته آنفاً تأملت وانا على سطح ذلك البرج في حاضر شيزر وغابرها ورحت في فضاء التفكير اجل قدر الذين انتقوا هذا الموقع الحربي الهائل، واتخيل المعارك الطاحنة التي كانت تدور تحت اقدامه بين الجيوش المحاصرة والمدافعة عنه، واكاد اسمع قراع الرماح ووقع السيوف ورنين القسي ، وارى القتلى والجرحى ملأوا السهل فجبلت هذه التربة الحمراء بدمائهم او صبغ العاصي بها .

واتذكر الوقائع التي كانت تجري في هذه الضواحي لبني منقذ الاشاوس لا سيما لنابغتهم البطل العالم الشاعر أسامة صاحب كتاب الاعتبار وكيف كانوا اشجا في حلوق الروم والصليبيين يستبسلون رجالا ونساء في دفع غاراتهم وغـارات الاعراب والاسماعيلية وغيرهم ، وكيف كانوا يصطادون « الاحجال والارانب في الجبل قبلي البلد وطير الماء والدراج واليحامير والغزلان على العاصي في الازوار غربي البلد » ، واخيرا كيف قضت عليهم الزلازل فافنتهم وخربت هذا الحصن الهائل المرىء فجعلته كما قال اسامة « متهيلا مثل النقـا المتهيل » ، واتصور نور الدين محمود في سنة ٥٥٢ والملك العزيز محمد صاحب حلب ومعه ابن عمه الملك المظفر محمود صاحب حمـاة في سنة ٦٣٠ والملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤

والملك المنصور قلاوون في سنة ٦٧٩، يأتون كل في يومه ووراءه وزراؤه وقواده وحرسه الخاص ببزتهم وابهتهم يصعدون الى هذه القلعة ليعاينوا مافعلته الزلازل والحروب في اسوارها وابراجها ويتجولون بين اطلالها وركامهـــا متأسفين ومحوقلين فيأمرون باحضار المهندسين والبنائين ليرمموا ويجددوا مافعلته فيها طوارء الحدثان فتنفذ اوامرهم وتحقق رغائبهم فوراً . واتأمل بلدة شيزر السفلى ذات السور والابواب الثلاثة والمتنزهات والبساتين والزروع والفواكه الكثيرة التي كانت فيها ، واسأل كيف عفت عوادي الزمان رسومها فاصبحت ضويعة صغيرة وبيلة ، والبلدة العليا التي كان ينزلها امراء وجنود اعزاء يعدون بالالوف كيف اصبحت الان كالاطلال الدارسة سكانها قلائل فلاحون بينهم بيت قديم يعرف بالشيزري باعوا قريتهم وموئل سؤددهم لبعض سراة حماة فاصبحوا صعاليك مفاليك غاية في البؤس والجهل لاسيما في معرفة ما كانت عليه هذه القلعة ومن سادوا وشادوا فيها . فسبحان الذي يؤتي الملك من يشاء و ينزع الملك ممن يشاء .

طريق شيزر — حماة (٢٤ كيلو مترا)

بعد ان يصعد السائح من وادي شيزر يجتاز سهولا شاسعة ذات تربة حمراء فيمر من غربي قرية كبيرة تدعى محردة قصبة ناحية الطار ، ذات دور حجرية بيضاء جميلة اهلها من طائفتي الروم والسريان يبلغون ثلاثة آلاف وهي قريبة من العاصي عرفت بجمال نسائها واجادتهن السباحة في العـاصي وبسعة كرومها الممتدة عن يمينها ويسارها وبأن اهلها على خلاف الصقيلبية يشبهون بازيائهم ولهجتهم قرويي الديار الحموية ، وفي شرقيها قرية كبيرة اخرى تدعى حلفايا اشير في احدى الخرائط الحديثة الى قناة ماء مندثرة تأتي اليها من حول قرية معرزاف وتسير شمالا مجتازة العاصي الى قرية اللطامنة فمورك ولم اتحقق من صحة هذه الاشارة . والعاصي القادم من حماة بعد إن كان يتجه من الجنوب الى الشمال ينعطف نحو الغرب بين قريتي حلفايا واللطامنة عند طاحونة الوعرة ، وبعد ان يجتاز من شمالي حلفايا ومحردة

على مقربة منهما يتجه نحو شيزر كل ذلك في وهاد سحيقة ومنعرجات عديدة .
والباحث عن العاصي ومجراه في هذه الربوع لا يسعه الا ان يتسائل عن موقع دير القديس مارون ابو الطائفة المارونية الذي قيل انه كان على العاصي بين شيزر وحماة. قال عنه المسعودي في كتاب التنبيه والاشراف ص١٦٣ : شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان وكان فيه من آلاف الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن وهو بقرب من نهر الارنط نهر حمص وانطاكية اه . والموارنة كما ذكرناه في بحث جبل اللكام آراميو الاصل كانوا يقيمون في وادي العاصي على مقربة من هذا الدير ثم انتشروا بين افامية والمعرة وشيزر وحماة الى ان زاحمهم السريان اليعاقبة واضطهدوهم فاضطروا قبيل الفتح الاسلامي ان يهاجروا في ازمنة متوالية الى شمالي لبنان واتخذوه موطنا لهم . قال البلاذري في فتوح البلدان عنهم (ص ١٦٤) · خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح بن علي ابن عبد الله بن العباس من قاتل مقاتلهم واقر من بقي منهم على دينه وردهم الى قراهم واجلى قوما من اهل لبنان . ويظهر ان الروم البيزنطيين في القرن الاول للهجرة لما خربوا هذا الدير وذبحوا رهبانه عفو رسومه بالكلية فاصبح لا يعرف له اثر ولا خبر ومن الغريب ان ياقوت لم يذكر في معجمه هذا الدير العظيم الذي كان له في القرن السادس والسابع الميلاديين شهرة ومكانة جليلتين مع انه افاض في وصف اديرة كثيرة اشتهرت في بلاد الشام منها ما كان خرباً ومنها ما كان آهلاً بالرهبان .

هذا وبعد محردة يغادر السائح على يمينه ضياع عديدة منها تل سكين قعادة ومعرزاف وقد ذكرها اسامة بن منقذ في كتابه . وبعد المجدل يجتاز نهر الصاروت احد روافد العاصي وعليه جسر قديم ، وهذا النهر يتألف من اودية وجداول تنحدر نحوه من اذيال جبل الكلبية بين بعرين ومصياف ، ثم يرى على يساره من الضياع الشير وعلى يمينه كفر آمين وتل سكين الصاروت وكفر الطون وتيزين ، وفي غربي هذه القرى يلمح التويم وام الطيون ، وفي جنوبي تيزين الربيعة ومتنين .

وفي تيزين اطلال عالية لقصر قديم قيل انه كان مصيفا للملك المظفر محمود .
وبعد وان يترك السائح على يساره قرى الشير وشيحا واراضي معردفتين وعلى يمينه في سقي العاصي بساتين وغياض ملتفة تروي بالنواعير تدعى ازوار منها زور ابو زيد وزور الناصرية وزور الجديد وزور خطاب وارزة يرى امامه في وادي العاصي كازو وفي شرقها قمحانه والظاهرية تمر منهما سكة حديد حماة – حلب ، وهكذا الى ان يدخل ارض العشر ويمر من جوار محطة السكة الحديدية ومقابر حماة واحيائها القريبة منها ، ثم يهبط وادي حماة المنخفض .

طريق حلب — حماة

يمكن ان يذهب السائح في يومنا من حلب الى حماة في طريقين : الاول في السكة الحديدية (طولها ١٤٣ كيلومتراً) والثاني في الطريق المعبدة (طولها ١٤٨ كيلو متراً) . فالسكة بعد خروجها من حلب تمر بمحطات عديدة منها في الك ٢٩ محطة الحميدي ، ثم تدخل مطخ قنسرين وتشطره الى شطرين ، فتمر فيه في الك ٥٠ بتل الجينة ، وفي الك ٥٨ بابي الضهور ، وهي محطة ذات مكانة عسكرية تجاه حركات البدو وتنقلهم ، ولذا قلما تخلو من الجنود ، ثم تدخل كورة العلا وتجتاز اوعارها وسهولها الشاسعة فتمر فيها في الك ٨٥ بام الرجيم ، وفي الك ١٠١ بالحمدانية ، وفي الك ١١٥ بكوكب ، وهنا تنتهي كورة العلا وتدخل السكة ضاحية حماة فتمر في الك ١٢٩ بالقمحانة ، ثم بعد ان تجتاز نهر العاصي فوق جسر كازو تمر بنشز يدعى الشرفة يطل على وادي حماة ؛ يرى فيه راكب القطار منظرا رائعا من مناظر حماة . فيه عاصيها ونواعيره الدائرة وبساتينها وقلعتها واحياءها الشرقية والبراري الممتدة بعدها ، ولا يزال حتى يصل الى محطة حماة في الك ١٤٣ .

والذي يفضل السيارة على القطار يسلك في يومنا الطريق المعبدة الآتية من

لاسكندرونة ، وقد تقدم ذكرها في (ص ٧٥) ، فيمر في الك ٣ عن حلب بالطريق اللاحب الآخذ الى قلعة جبل سمعان « دير القدس سمعان العمودي » *
وفي الك ٦ بضيعة بنيامين وهي على اليمين ، وفي الك ٩ يهبط الوادي الذي فيه خان العسل وقريته ، وفي الك ٢٢ يجتاز اورم الكبرى، وفي ٢٧ اورم الصغرى ، وهنا مفرق الطريق الذاهبة نحو الاسكندرونة ، وفي الك ٤٧ تفتناز، وهنا ايضاً مفرق الطريق الذاهبة الى ادلب وجسر الشغر واللاذقية ، وقد تقدم ذكرها في (ص١٢٢) ، وبعد تفتناز تتجه الطريق نحو الجنوب ففي الك ٥٣ خربة كبيرة تدعى تيزر، كانت عامرة في القرن السابع ايام ياقوت قال عنها : تيزر قرية كبيرة من اعمال سرمين واهلها اسماعيلية ، وفي الك ٥٧ قرية آفز ، وفي الك ٦٢ على يسار الطريق سراقب ، وهي قرية كبيرة نازعت سرمين المكانة وجرت اليها طريق السيارات ثم مركز الناحية وبنت بلديتها في غربها على حافة الطريق بناء حديثاً للناحية ، وبعد سراقب ضيعة جوباس وفيها تل وبرج ، وبعد قليل في الك ٧٢ على اليسار قرية معردبسة، وفي الك ٧٥ قرية خان السبيل ،وفيها خان كبير من الخانات القديمة المحصنة التي مدحها ابن جبير الاندلسي ، في اعلاه كتابة فيها اسم الملك الاشرف شعبان في سنة ٧٧٠ ، وعلى يسار قنطرة بابه شبه كأس من الحجر وهو من شعار السلاطين المماليك ، والقنطرة مؤلفة من اعمدة حلزونية صغيرة كثيرة العدد ملتصقة بعضها على شكل قوس جميل . وفي هذا الخان بابان صغيران الاول على يسار الباب الاصلي والثاني في داخل البناء الواسع المرتفع وراء الخان ، وكلاهما بنيا على النسق البيزنطي الجميل مما يدل على انهما غريبان نقلا الى هنا من مكان آخر . وفي الك ٧٧ اطلال باب ايلة او بابيلا وفيها بقايا عضائد وعتبات واسس جدران كثيرة ، ويظن ان عمران المعرة كان يصل الى هذه الاطلال . ثم يتقدم السائر وهو يرى على يمينه هضاب جبل الزاوية وصخورها المتصدعة الرمادية الجرداء الي ان يصل في الك ٨٢ الى معرة النعمان .

وكانت القوافل في العصور الغابرة والمركبات التي ادركناها اذا خرجت من حلب قاصدة حماة تخرج من جهة ارض الفيض في جنوبي حلب الى الغرب ، وتمر بقرية كبيرة من ضواحي حلب تدعى الانصاري نسبة للصحابي عبدالله الانصاري اشتهرت بسعة ارضها ومقدرة اهلها في الفلاحة ، ثم تجتاز تلعات واودية صخرية جرداء الى ان تصل الى قرية طومان ، وفيها خانان قديمان كبيران الاول من القرن التاسع والثاني من القرن السابع الهجريين وكلاهما على وشك الدثور . وبعد خان طومان تمر الطريق بقرية الزربة ، وفيها مدير ناحية ومخفر لجند الدرك ، وفيها يلمح السائر في الجنوب جبل النبي عيص المطل على خربة مدينة قنسرين . ثم تنحرف الطريق نحو الجنوب مارة بضيـــاع ذات ارضين حمراء اعذاء التي على اليسار تدعى « البية » من الأملاك الخاصة بالدولة والتابعة لشعبة قنسرين وسيأتي وصفها ، والتي على اليمين من عمل ناحية سراقب التابعة قضاء ادلب . ولا تزال الطريق سائرة الى ان تصل الى سراقب التي تقدم ذكرها . وبعد ان ظلت هذه الطريق مجاز السيارات ايضاً الى سنة ١٣٤٨ رأت ادارة الاشغال العـامة التي تعني بالطرق ان تصل طريق حماة بطريق ادلب في تفتناز . فعبدت ما بين سراقب وتفتناز وهجرت طريق خان طومان .

وفي العصور الغابرة كانت الجيوش الزاحفة من حلب نحو حماة وحمص ودمشق تفضل الابتعاد عن طريق سراقب والمعرة مخافة الاصطدام مع حماة هذه البلاد العامرة ، ورغبة بالحصول على ميـــاه ومراع لخيولها كانت تجدها متوفرة في طريق شرقية على سيف البادية ، وهي الخارجة من جنوبي حلب نحو شرقي مطخ قنسرين وشرقي كورة العلا حيث الان من القرى بلاس وكفرعبيد وبرده والبياعيات ثم الخرايج وتل حلاوة والحمراء وسلمية ، وسنذكر في بحث الحمراء وسلمية اسباب تفضيل الجيوش هذه الطريق الشرقية على الغربية .

قنسرين — . قنسرين بلدة تاريخية واقعة في سفح جبل النبي عيص الذي تقدم ذكره ، وهو جبل صغير يستطيل من الشرق الى الغرب في ذروته قبة بيضاء

كان اصلها بيعة خربة اتخذت بعد مدفنا لرجل زعموا انه النبي عيص . وثمة قرية بيوتها قباب مخروطية يقطنها اعراب فلاحون تدعى العيص ، بنيت فوق اطلال مدينة قنسرين . قيل ان لفظة قنسرين سريانية اصلها قنشرين ومعناه قن النسور . وكانت هذه المدينة قاعدة كورة واسعة في شمالي الشام ، وكانت حلب من بعض اعمالها ، ذكرها ابن جبير في رحلته لما مر بها سنة ٥٧٩ قال : وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان ، لكنها خربت وعادت لم تغن بالامس ، فلم يبق شيء من آثارها الدارسة ورسومها الطامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة ، لانها على محرث عظيم مد البصر عرضا وطولا وتشبهها من البلاد الاندلسية جيان ، ولذلك يذكر ان اهل قنسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيان تأنسا بشبه الوطن وتعللا به مثل مافعل في اكثر بلادها حسبما هو معروف اه . وقال ابو الفداء في تقويم البلدان : قنسرين من قواعد الشام القديمة ، وقــال في اللباب وقنسرين كان الجند تنزلها في ابتداء الاسلام ولم يكن لحلب معها ذكر . وكانت قنسرين من اجناد الشام ثم ضعفت بقوة حلب وخربت ، وهي الآن قرية صغيرة وتحتها يصب نهر قويق في المطخ ، وربوة قنسرين مشرفة عليها ، ومنها الى حلب مرحلة صغيرة اه .

قيل الذي بنى قسرين سلوقس نيكاتور ودعاها Chalcis ad bellun اي شالسيس العاصي تميزا لها عن شالسيس لبنان «مجدل عنجر، شرقي البقاع» ، ومكانة قنسرين كانت ناشئة من بقاءها حتى القرن السابع ممر القوافل الذاهبة من حلب الى دمشق او الى انطاكية ، حتى ان الرصيف الروماني بين انطــاكية وحلب الذي تقدم وصفه في الصفحة ٧٤ كان يمر بها . وكانت قنسرين مشرفة على كورة واسعة تدعى Chalci dème اي شالسيديا فيها اخصب سهول شمالي الشام ، زارها في سنة ٣٧٣ م القديس جروم فوجدها مدينة ذات مكانة كبرى غنية بغلاتها الزراعية وصادراتها التجارية ، وكان حصنها يحرس المدينة وارباضها من غارات اعراب البــادية ، وفي سني ٥٥٠ — ٥٥٥ م بنى يوستينانوس سورها

او رمه . وفي سنة ١٧ فتحت قنسرين على يد ابو عبيدة ، قال البلاذري في فتوح البلدان : ثم اتى ابو عبيدة قنسرين وعلى مقدمته خالد بن الوليد فقاتله اهلها ثم لجأوا الى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم ابو عبيدة على مثل صلح حمص وغلب المسلمون على ارضها وقراها وكان حاضر قنسرين لتنوخ منذ اول ما تنخوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر ثم بنوا به المنازل فدعاهم ابو عبيدة الى الاسلام فاسلم بعضهم واقام على النصرانية بنو سليح بن قضاعة . وقال في مكان آخر : واستتم ابو عبيدة امر حمص فكانت حمص وقنسرين شيئا واحدا ، ثم قال ، ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبج وذواتها (كذا) جندا ، فلما استخلف هرون الرشيد افرد قنسرين بكورها فصير ذلك جندا واحدا وافرد منبج ودلوك ورعبان وقورس(١) وانطاكية وتيزين وسماها العواصم لان المسلمين يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم اذ انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وجعل مدينة العواصم منبج اه . وقال ياقوت في معجمه وسمي الجند جندا لانه جمع كورة والتجنيد التجميع وقيل سميت كل ناحية جندا لانهم كانوا يقبضون فيه اعطياتهم .. الخ .

فيستدل من هذا ان الامويين والعباسيين لما رأوا ما لموقع قنسرين الجغرافي من المكانة اتخذوها مركزا لجيوش المسلمين المرابطة في شمالي الشام ودعوا البلاد المرتبطة بها جند قنسرين او بعبارة عصرنا الحالي « منطقة قنسرين العسكرية » . ولم تزل قنسرين عامرة آهلة وحلب تابعتها ، تتقلب عليها الولاة من الامويين والعباسيين ، وثب اهلها في سنة ٩٥ فعوقبوا ، وفي سنة ١٥٠ في خلافة المنصور ضربت فيها سكة ، وفي سنة ٣٣٣ تواقع في ارضها سيف الدولة ابن حمدان والاخشيد محمد بن طغج ، قيل لم يظفر احد العسكرين بالآخر وقيل ان الدائرة دارت على سيف الدولة ودخل الاخشيد حلب وعاث

(١) دلوك ورعبان وقورس حصون كانت قرب مدينتي عينتاب وكليس داخل الحدود التركية في يومنا .

اصحابه في انحاءها . وفي سنة ٣٥١ استولى الروم على حلب لعجز سيف الدولة يومئذ وقتلوا جميع من كان بربضها، فخاف اهل قنسرين وتفرقوا في البلاد فطائفة عبرت الفرات وطائفة نقلها سيف الدولة بن حمدان الى حلب كثر بهم من بقي من اهلها . قال ياقوت بعد ان ذكر ذلك : وليس بها اليوم (اوائل القرن السابع) الا خان ينزله القوافل وعشار السلطان وفريضة صغيرة . . وقال بعضهم كان خراب قنسرين في سنة ٣٥٥ قبل موت سيف الدولة باشهر كان قد خرج اليها ملك الروم وعجز سيف الدولة عن لقائه فأمال عنه فجاء الى قنسرين وخربها واحرق مساجدها ولم تعمر بعد ذلك، وحاضر قنسرين بلدة باقية الى الان اه . وفي سنة ٥٦٤ نقل نور الدين محمود اعمدة سورها الى جامع حلب ، ولم تزل قنسرين خرابا يبابا الى ان عمرت فوق رسومها الطامسة قرية لما اسست ادارة المزارع السلطانية المعروفة في يومنا باسم «املاك الدولة » في اواخر عهد السلطان عبدالمجيد فيما قيل ، وسميت العيص باسم النبي الذي يزعمون ان ضريحه في ذروة الجبل المجاور لها ، وتنوسي اسم قنسرين الامن احد ابواب حلب الذي كان يخرج منه قاصدوها .

واثار قنسرين الدارسة تمتد على مسافة بعيدة في سفح جبل النبي عيص من جنوبه وشرقه الى قرب جسر برنه على نهر قويق ، تدل اسس جدرانها العريضة وكسور اعمدتها الضخمة على انها كانت مدينة عظيمة ذات عمران وازدهار غير يسيرين . وفي جنوبي هذه المدينة تل صناعي يعلو نحو خمسين متراً يشرف في جنوبه وشرقه على سهل المطخ الافيح ، ويشرف في غربه على ضياع البقعة المرتفعة الحمراء الشاسعة التي يطئها قاصد قنسرين من سراقب واسمها في عرف اعراب هذه الديار «الميمة»، وفي جنوبه على مناقع المطخ ومروجه «لما كانت فيه مناقع ومروج ، وما بعد المطخ من تلعات كورة العلا وهضباتها ، وفي شرقيه يلمح السكة الحديدية القادمة من حماة نحو حلب وبعدها السهول الفيح الممتدة من المطخ الى حضيض جبل الاحص الواقف على ضعته كالجدار في الافق الشرقي ، وقد كان فوق تل

قنسرين حصن دثر ، وسطح هذا التل متسع مستو ، يحيط به سور عريض كانت اسس جدرانه ماثلة لما زرته سنة ١٣٤٥ رغم انكباب اهل قرية العيس على قلع احجارها لبناء دورهم بها . ويلاحظ الباحث ان هذا السور كان محصنا في زواياه بالابراج والقلل المربعة وانه كان في داخل السور مساكن وازقة لا تزال خططها مشهودة . وفي الجهة الشرقية ينفصل عن سور الحصن جدار مستقيم ينحدر في لحف التل ، وكان هذا الجدار يحيط بالمدينة السفلى من جهة الجنوب ، وكانت هذه المدينة تصل الى اول مرتفعات جبل النبي عيص ، وكذلك في الجهة الشمالية ينفصل جدار آخر يمتد نحو الشمال حتى يصل الى سفح الجبل المذكور ، ولا يزال اساس هذا الجدار ماثلا للعيان . وكان الجداران المذكوران يؤلفان قسما من سور المدينة الذي قد دثرت بقية اقسامه ، وهو من بناء يوستنيانوس . وفي كل المنحدر القبلي لجبل النبي عيص حفر الاقدمون مقالع جسيمة فيها كثير من المدافن . وقد نقرت الصخور حتى صارت كالمصفاة التي لا تعد ثقوبها ولا تحصى ، وكل منها مدخل لمدفن في جوف الصخر ، ويظهر ان استثمار المقالع كان قبل وجود هذه المدافن . وفي غربي القرية الحالية ضريح تحت قبة قديمة زعموا انه ضريح الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك ، المعروف انه مات في دابق شمالي حلب ودفن فيها ولما سئلتهم البرهان على زعمهم وجموا ، ثم قالوا ان حجرة كانت على عتبة باب هذا الضريح رفعت ونقلت ، قلت اذن لعله احد ولاة جند قنسرين في زمن بني أمية .

ومطخ قنسرين بطيحة في جنوبي قنسرين منخفضة عما حولها تجتازها السكة الحديدية الآتية من حماة الى حلب ، تصب فيها فضلة مياه نهر قويق حينما كان له شأن وحياة ، فتصل هذه المياه الى حيث لا تجد لها منصرفاً تستمر فيه بحكم ارتفاع الارضين المحيطة بالمطخ ، فتستغدر خلال الشتاء وتنبطح الى مسافات شاسعة تظهر للرائي كالبحر الخضم ، فيروي فلاحو ضياع المطخ منها زروعهم الشتوية ، واذا اقبل الربيع تغور وتجف فيزرعون اما كنها قطناً وذرة وغيرها

فتجود اي جودة ، لكن المياه المستغدرة تنبت فيها الاعشـــاب المائية وتنمو اسراب البعوض المسببة لحى البرداء فيقع اهل ضياع المطخ في براثنها ، لذلك تراهم صفر الوجوه هزلى من وبال المرتع ، وليست كل مياه المطخ من قويق وحده بل في جنوبه واد يأتي من انحاء المعرة يدعى الهرماس يحمل سيول جبل الزاوية ، وفي شماله الغربي واد آخر يأتي من قرية برقوم وما حولها ، هذا عدا عن العيون الغزيرة الدائمة في قرى تل طوقان وتل السلطان ورأس العين وتل كلبة وغيرها ، وكلها مما يزيد طينة المطخ بلة . وتقدر مساحة المطخ بعشرين الف هكتار وتربته طينية رملية حارة تخصب اذا غمرتها مياه قويق وغيرها وروتها والا فالجدب واقع لا محالة ، اذ لا تقنع هذه التربة بمياه المطر مهما هطلت . لانها تربة قعر بحيرة تتشقق وتبتلع كميات عظيمة من الماء . وقد تمادى هذا الجدب في يومنا منذ سنة ١٣٤٥ وقل ورود مياه الاودية التي عددناها وانقطع قويق بالمرة بعد ان استبد به الترك في ينابيعه العليا في انحاء عينتاب ، ولم يبق له سوى بعض العيون في شمالي حلب وقبليها وهي غير كافية ، وقويق في ابان مجده كان ضعيفاً يستهزئ به الشعراء قائلين :

اذا ما الضفادع نادينه　　قويق قويق ابى ان يجيبا
وتمشي الجرادة فيه فلا　　تكاد قوائمها ان تغيبا

فما بالك الآن ، وقد صار هو وسهل المطخ في خبر كان ، وساء حال فلاحي هذا السهل الخصب وصاروا يتمنون وبال المرتع الذي زال بزوال الماء ، وعندهم الهزال مع الرزق المقنع افضل من الصحة مع الفقر المدقع .

واجل ضياع المطخ التي كانت تتمتع بمياه قويق وتزكو زروعها بفضلها ، العيس وبانص وتايلات ووريدة وتل باجر والعزيزية ومكحلة ومريودة وتل بمو والحوير والزيارة وتل علوش ودريكيلة » وصاحب هذه حلبي يستعمل في زراعته الاساليب والآلات الافرنجية الحديثة » وام القراميل . وفي اطراف المطخ ضياع اخرى تستفيد من هذه المياه اذا فاضت عن الضياع الاولى كزمار

وجزرايا وعثمانية وتل عقارب وتل الوز وتل الفخـــار وبراغيدي والواسطة وطرفاوى وكفر حداد والعطشانتين الشرقية والغربية ودلامة والتويم . وفي جنوبي المطخ ضياع غنية بالينابيع والعيون السارية كالطويحيني وابي الظهور وتل السلطان وتل الطوقان ورأس العين . وتلول ضياع المطخ صناعية كانت فيما مضى عامرة بالقرى او الحصون ، اجلها مساحة وقدراً تل السلطان الذي كان في القرون الغابرة منزل بعض الجيوش الزاحفة نحو حلب والخارجة منها لوفرة الينابيع والمروج الممتدة حوله ، ذكر ياقوت ان فيه خانا ومنزلا للقوافل وانه كان يعرف بالفنيدق، وفيه كانت وقعات اولها في سنة ٤٥٢ بين ناصر الدولة بن حمدان الذي ارسله الفاطميون لاستخلاص حلب من يد محمـــود بن نصر بن مرداس ، وكانت الدائرة على ناصر الدولة ، ولما جاء السلطان ملك شاه السلجوقي الى شمالي الشام نزل فيه في سنة ٤٧٩ برهة فدعي من ذلك الحين بتل السلطان . والوقعة الثانية في سنة ٤٨٧ بين تاج الدولة تتش السلجوقي الذي جاء من دمشق لفتح حلب وبين آق سنقر ابو عماد الدين زنكي وحلفاؤه ، وكانت الدائرة على آق سنقر ، اسرفيهـا وقتل ، قيل ان ملتقاهم كان عند نهر سبعين قريبا من تل السلطان على ستة فراسخ من حلب (ابو الفداء ج ٢ ص ٢١٤) ، ولا يعرف الان هناك نهر باسم سبعين ، فهل هو النهر الذي ينبع قرب تل السلطان ويغور في المطخ ؟ والوقعة الثالثة في سنة ٥٧١ بين السلطان صلاح الدين الايوبي وسيف الدين غازي بن مودود بن عماد الدين زنكي ،وكانت الدائرة على سيف الدين ، واشتهر تل الطوقان بهذا الاسم فيما زعموا لحدوث معركة قبل قرن او قرنين بين قبيلة الموالي وفريق من الاعراب يدعون الطوقان سمي التل باسمهم ، ثم بعد المعركة انضم الطوقان الى الموالي وصاروا من افنادهم وما برحوا .

وفلاحو قرى المطخ اعراب، يزعمون ان منشأهم من سقي الفرات وازواره وهم ينتسبون الى قبائل وافنادشتى، لاصلة بينها ، منها الشاهر وزويفات ومداهيش والابوشيخ والابوليل والابو شعبان ... الخ ، واجل هذه الافناد شأنا تلك

التي تنتمي الى قبيلة الحديديين وتعد من «اللحقة» المضمومة اليها كالابرز والابوشهاب الدين والابوعاص . وشيخ الحديديين الاكبر نواف الصالح يقطن في قريته طويحيني «جنوبي المطخ» ، وحوله ابناء عشيرته الاقربين آل ابراهيم. وكان ابوصالح وجده جرخ الابراهيم يقطنان في زمنهما في ضيعة تدعى البويدر في سيف البادية الى الشرق الجنوبي من المطخ .

هذا ولا يسع الملاحظ حالة هذا المطخ الغابرة والحاضرة الا ان يسأل كيف كانت قراه ابان عمران قنسرين وازدهارها ، وحالة مجاري الري المشتقة من قويق في تلك الاعصر ، ومقادير الغلال والمنافع التي اوجبت انشاء هذه التلول الصناعية الضخمة فيه ، وكيف كان «المحرث العظيم مد البصر طولا وعرضا» الذي ادركه الرحالة ابن جبير «القرن السادس» . وكيف اصبح المطخ الان خلال السنوات الاخيرة غير المطخ الذي ادركناه قبل عشر سنوات جفاف بعد ري وجدب بعد خصب ونقاء هواء بعد وخامته ، ترى أيدوم هذا الحال سنينا طوال ام هو عرضي وقتي ؟ ثم لا يسع الملاحظ الا ان يعجب بتسمية ياقوت المطخ باجم، قال : اجم بالتحريك موضع بالشام قرب الفراديس[؟] من نواحي حلب . قال المتنبي

الراجع الخيل محفاة مقودة ... من كل مثل وبار شكلها ارم

كتل بطريق المغرور ساكنها ... بان دارك قنسرين والاجم

والاجم في اللغة مكان الشجر الملتف او النبت الناهض المنتشر ، فهل كان المطخ في عهد المتنبي «القرن الرابع» وياقوت «القرن السابع» غير مزروع ، مهملا حتى نمت فيه الاشجار والاشواك والتفت ؟ وكيف نوفق بين قولها هذا وبين قول ابن جبير عن عمل قنسرين «المحرث العظيم مد البصر طولا وعرضاً» ؟

وفي غربي المطخ بقعة مرتفعة ذات ارضين حمراء اعذاء تدعى في عرف اهلها وهم اعراب ايضا «اليمة» بتشديد الميم وهي انقى هواء من المطخ ، فيها ضياع

عديدة كرسم قنسرين وام عتبة وطلافح وسلامين وخواري واباد وتل باجر ودهبية .. وغيرها مما يمتد جنوبا الى حدود كورة العلا . وفي شرقي المطخ ايضا سهول شاسعة تمتد الى سفح جبل الاحص، تتخللها بضع اكمات وتلعات ، انتشر فيها كثير من الضياع ،كانت تخصب تربتها الصفراء في سني الاقبال اي خصب ، اشهرها من الشمال الى الجنوب كفر عبيد وبرده وبلاس والبويضة ومشرفة الحلاج والجفرة وغراريقة وتل ماسح ، وهذه ذكرها ياقوت قال : تل ماسح قرية من نواحي حلب اه . ولا يزال فيها اطلال وآثار تدل على قدمها ، ولها ذكر في تاريخ سيف الدولة بن حمدان مر بها سنة ٣٤٤ حينما قصد بني كلاب وغيرهم من اعراب البادية الذين عصوا عليه ونكل بهم . وجميع هذه الضياع التي عددناها في المطخ وفي غربيه وشرقيه من «املاك الدولة» التي ذكرناها ، وكان لها ادارة خاصة تدعى شعبة كان مركز موظفيها الاخير في محطة ابي الظهور . وفي جنوبي ضياع املاك الدولة هذه تمتد في الشرق الى حدود البـــادية ضياع اخرى عديدة اخصهـــا البياعية الكبيرة والبياعية الصغيرة وبويدر وحرملة والخرايج ... وغيرها ، واهل هذه الضياع ايضا اعراب ينتمي اكثرهم الى الحديديين ، وثمة في بعض ضياع املاك الدولة كأرجل ورجيلات اعراب يدعون اللهيب ينتمون الى الموالي اشتهروا بالشراسة واللصوصية .

وقاصد الوصول من حلب الى قنسرين يخرج من احد ابواب حلب الاثرية المسمى باب قنسرين ، ويجتاز نهر قويق في الشمال الغربي من قرية الشيخ سعيد ، ثم يعلو اكمة فيها قرية المغارة ، ثم يجتاز سهلا يلمح في يمينه عن بعد قريتي زيتان وقلعجية الى ان يجتاز نهر قويق مرة اخري فوق جسر برنة ، في غربيه قرية برنة وفي شرقيه قرية الحاضر وهي حاضر طيء او حاضر قنسرين التي يقول فيهـــا احد الشعراء :

سقى الله اخواناً ورائي تركتهم   بحاضر قنسرين من سبل القطر

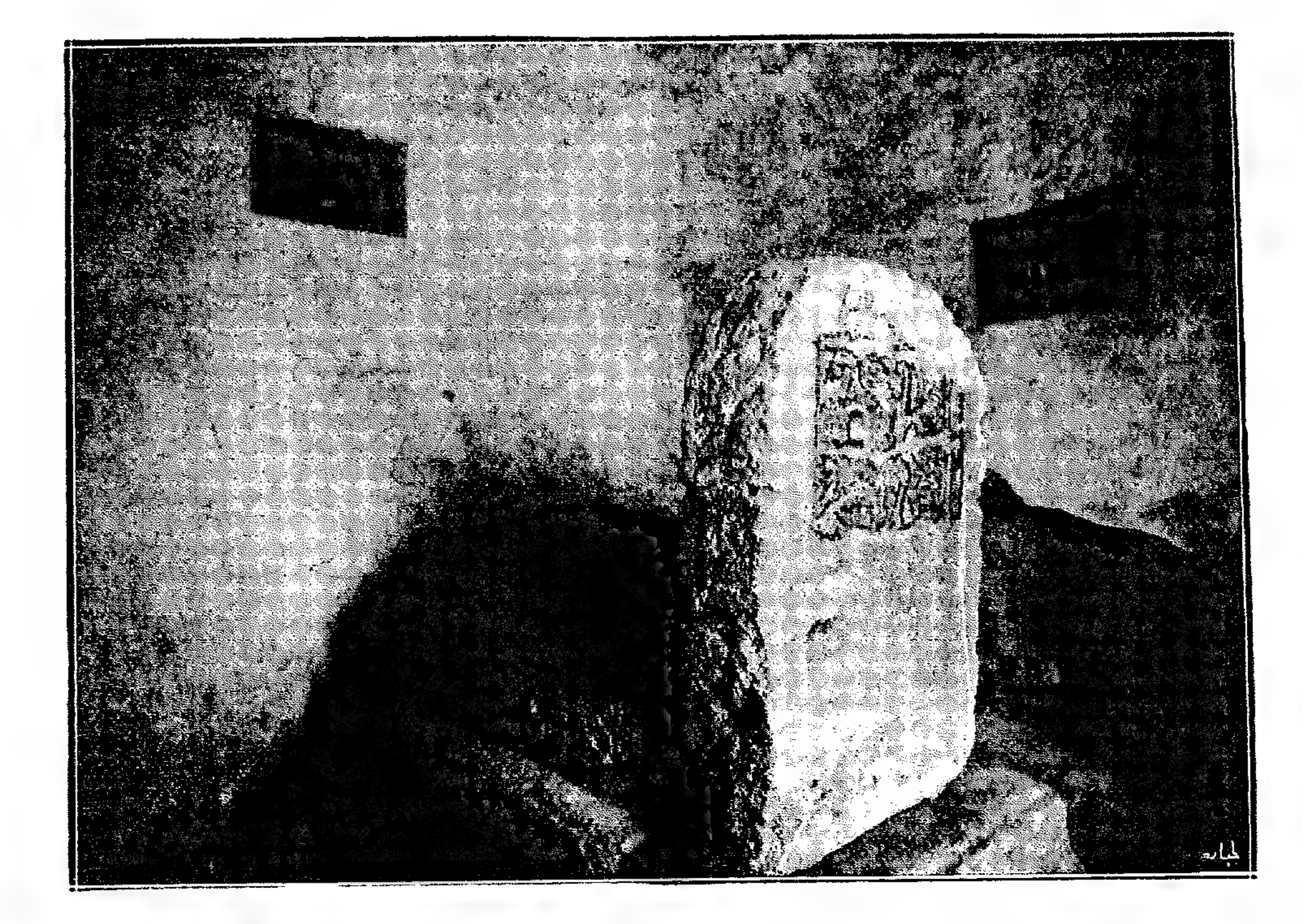
وذكر ياقوت موضع في هذه الانحاء اسماه الفراديس وليس له الآن رسم ولا

اسم قال: الفراديس موضع قرب حلب بين برية خساف (؟) وحاضر طيء من اعمال قنسرين، واياها عنى المتنبي بقوله وقد اجتاز بها فسمع زئير الاسود فقال:

أجارك يا اسد الفراديس مكرم فتسكن نفسي ام مهان فمسلم
ورائي وقدامي عداة كثيرة احاذر من لص ومنك ومنهم

المعرة — . المعرة بليدة بنيت على نشز يتصل في الغرب بالتلعات الصاعدة نحو جبل الزاوية وتحيط بها من بقية جهاتها اودية وسهول كانت فيما مضى مغارس للتين والزيتون والفستق واللوز لم يبق من ذلك الا اثر ضئيل، والفستق فقد بالمرة. وهيئة المعرة تماثل حلب على نسبة مصغرة لتشابه دورها الحجرية الشهباء، ويبلغ عدد سكانها نحو ٥٠٠٠ مسلمون، وفيها دار حديثة لحكومة القضاء بنيت في جانبها الشرقي، وجوامع ومساجد عديدة اجلها شأنا الجامع الكبير واربع حمامات ومعاصر للزيت ومطاحن تدار بالدواب وسوق صغير له قناطر، واحياءها وازقتها مبلطة وفيها عدة سبابيط، ولا تخلو ناحية فيها من الانقاض الاثرية المستعملة في تضاعيف المباني اخصها تيجان اعمدة من كل الاشكال المعروفة، كما ان ما من محل يحفر في المعرة الا وتظهر فيه اسس جدران وكسور احجار وخزف تدل على ان البلدة الحالية مبنية فوق انقاض المعرة القديمة التي خربت مراراً كما سنبينه في تاريخها.

وفي المعرة اثران عربيان كانهما من صنع معمار واحد الاول مأذنة الجامع الكبير والثاني المدرسة الشافعية. وثمة في شرقي البلد خان كبير على بابه كتابة فيها: قد بنى هذا الخان لوجه الله تعالى حامي دفاتر ديوان السلطان مرادجلبي فمن يمنع فقيرا ودوابه شتى فعليه لعنة الله والناس بطرق شتى سنة ٩٧١، وثمة خان آخر يدعى خان اسعد باشا العظم احدث من الاول فهو من عام ١١٩٦، وفي المعرة جامع فيه مقام للنبي يوشع وجامع آخر فيه غار يشتمل على قبر عطا الله بن رباح حامل لواء النبي، اما الجامع الكبير فواقع في منخفض



ضريح ابي العلاء المعري « عن مجلة العاديات الحلبية » (جولة اثرية · مقابل صفحة ١٨٦)

يهبط اليه بدرج عريض وهو يشبه في جملته الجامع النوري في حمص ، الا ان مأذنته اجمل وابدع تشبه مأذنة الجامع الاموي في حلب . وهي من سنة ٤٢٧ ، مربعة الأضلاع ومؤلفة من سبعة ابراج ، نقشت عليها كتابات عديدة تعذر قراءتها كلها فالاولى بقلم ريحاني والثانية التي في البرج الثالث تحوي محمد ابن قانت بن قاهر بن علي ، والثالثة في البرج السابع ، وعلوهذهالابراج متساو فيما يظهر ، فهو في كل منها ٣،٨٥ متراً ، فيكون علو المأذنه كلها ٢٦،٩٥ متراً . وفي صحن الجامع حوض كبير للوضوء مغطى بسقف كالقبة له اعمدة بيزنطية جميلة ، وحوض آخر قديم اتخذ مزولة . اما المدرسة الشافعية فلها باب يشبه باب البيمارستان النوري في حلب وعليه كتابة تاريخها ٥٩٥ واسم الملك المنصور ناصر الدين صاحب حماة . وفي داخل المدرسة غرفة سقفها قبة مزخرفة ، وعلى قنطرة الباب حجارةضخمةطويلة متنوعة الالوان الصقت ببعضها واستدارتحول القنطرةفيشكل جميل . واجل اثرفيالمعرةيستحقالزيارة هوضريح الفيلسوف العربي الطائر الصيت ابي العلاء المعري التنوخي (٣٦٧-٤٤٩) يقع في بناء قديم خال عن كل بهاء ، من يزره يتصورصاحبهالعظيمبشكله الذي اودعه الواصفون ترجمته . والضريح في غرفة منه صغيرة ، كتب على شاهدته بالكوفية « ابو العلاءاحمد بن عبد الله بن سليمان » ، وفي جدار هذه الغرفة خط هذان البيتان :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الايام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

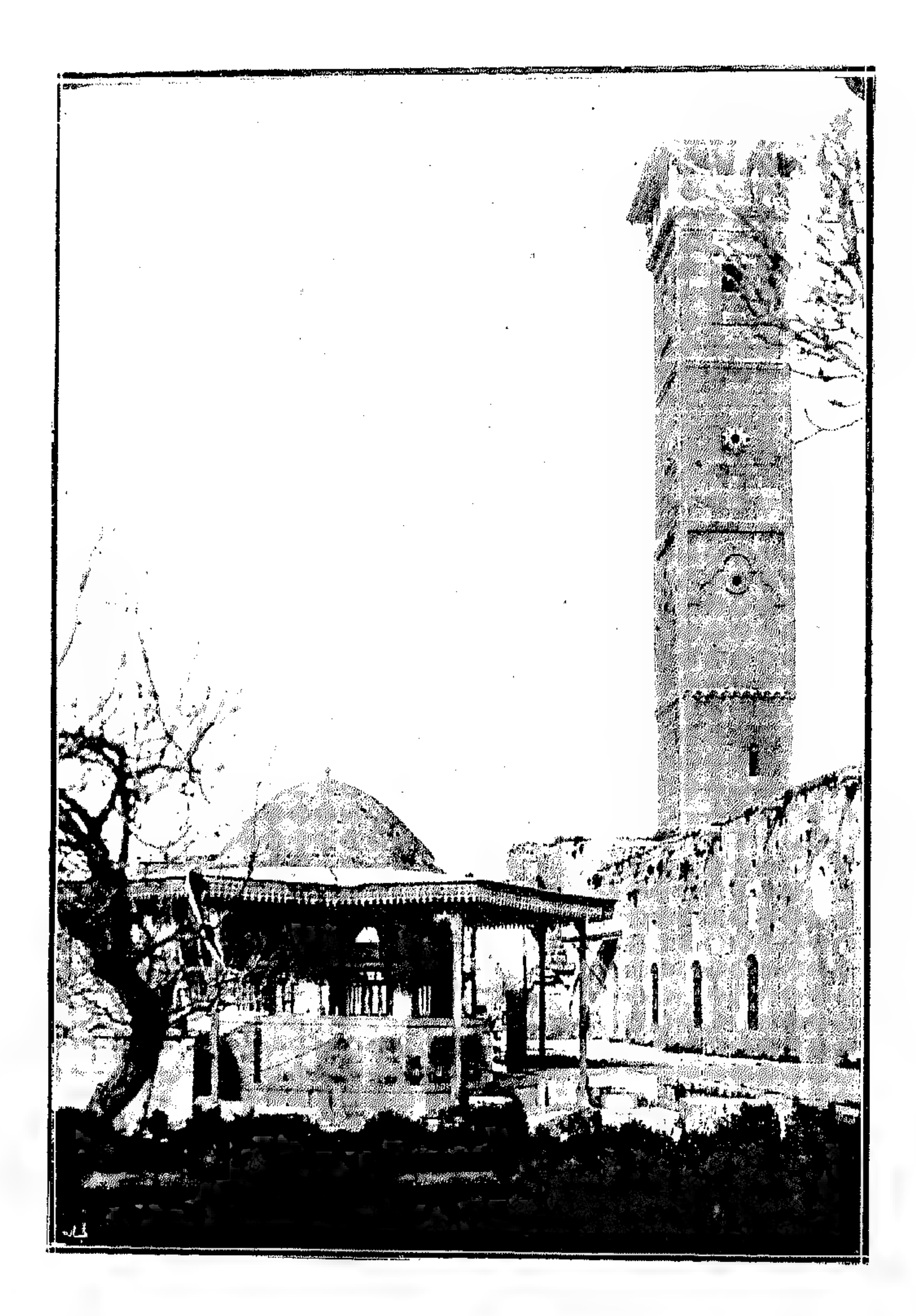
وفي غربي المعرة وعلىمقربة منها قامت قلعتها فوق اكمة مرتفعة منفصلة عما حولها ، قيل انها كانت فيما مضى وسط البلدة ، وهي الآن خراب ، آخر من رممها واحكم صنعها في سنة ٦٣١ الملك المظفر بن الملك المنصور صاحب حماة ثم خربها الملك العزيز صاحب حلب نكاية به ،لهذا لم يبق فيها الآن سوى جدران متوهنة واطلال دارسة انتشرت بينها دور لبعض الفلاحين هي اشبه باجحار

الضواري منها بمساكن بشر ، وثمة جامع قديم في وسطه حجر منقوش نقشاً جميلا ، هذا واطلال اسوار المعرة تدل على انها كانت بلدة عظيمة ، وكان لها من جهة القلعة باب يدعى باب النبي شيث ومن جهة الشمال باب ايلة وهو الآن بعيد في طريق حلب وسيأتي ذكره ، ومن جهة الشرق باب منس لأنه يخرج منه الى منس وهي قرية معروفة في كورة العلا كان ظهر فيها عاديات زجاجية واسس ضخمة ، ومن جهة القبلة باب آخر يدعى باب نصرة عنده تل كبير زعموا ان فيه كنزاً . وقال آخرون ، ان المعرة كان فيها في عهد السلاطين المماليك سبعة ابواب : باب حلب والباب الكبير وباب شيث وباب البستان وبابان باسم حمص . وماء المعرة من الآبار وهي عميقة جداً او من ماء المطر المخزون في الصهاريج وهو اقل من حاجتها واستخراجه غير يسير ، ولم ادر ما الذي حدا بابي العلاء لمدحه لما كان في العراق في قوله :

يا ماء دجلة ما اراك تلذ لي　　　شوقا كماء معرة النعمان

ولعل ذلك من نتائج حنينه لموطنه، وفي رواية يعسر تصديقها انهم جلبوا له بعد قوله هذا ماء من المعرة ، فلما ذاقه عرفه فقال : هذا ماؤها فاين هواؤها ؟

وفي شرقي المعرة على بعد نحو عشرة كيلو مترات منها ضيعتان مجاورتان تدعى احداهما الدير الشرقي والثانية الدير الغربي ، في الشرقي منها ضريح يقـــال انه ضريح الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز ، زرته في ربيع سنة ١٣٥٠ فوجدته تعلوه قبة مكشوفة الجوانب ، ولم اجد فيه كتابة تؤيد اسم صاحب الضريح ان كان عمر بن عبد العزيز حقاً أم غيره . والضريح مهمل غير معتنى به ، احاطت به الاشواك والاعشاب واعترى الوهن احجاره ، شأن جل اضرحة اسلافنا وعظمائنا الذين شادوا لنا هذا المجد التليد فبخسناهم حقهم ، ومن الغريب ان يموت الخليفة المذكور في خناصرة التي كان يقيم فيها ويدفن بدير سمعان ، على ان ابا الفداء يقول في تاريخه (ج ١ ص ٢١٢) : وقيل توفي بدير سمعـــان ودفن به ، قال القاضي جمال الدين بن واصل ، والظاهر عندي ان دير سمعان هو المعروف الآن



الجامع الكبير في المعرة «عن مجلة العاديات الحلبية» (جولة أثرية مقابل صفحة ١٨٦)

بدير النقيرة من عمل معرة النعمان وان قبره هو هذا المشهور ا هـ. فيظهر من ذلك ان ضيعتي الدير الشرقي والدير الغربي كان فيهما ديران او دير باسم دير سمعان او دير النقيرة ، وذكر ياقوت دير النقيرة وانه في جبل قرب المعرة وان فيه قبر للشيخ ابي زكريا يحي المغربي الصالح وانه يزار في ايام ياقوت ، وقد زاره صلاح الدين الايوبي حياً في عوده الى حلب سنة ٥٨٤ ، فكيف السبيل لحل هذا التناقض وتحقيق صحة دفن عمر بن عبد العزيز هل كان في المعرة أم في حمص التي له في شرقيها ايضاً ضريح باسمه ، وسمعان هذا من قديسي النصارى وله عدة اديرة بنيت على اسمه منها هـــذا الذي ذكرناه وآخر في انحاء انطاكية جنوبي السويدية على البحر ومنه يصعد الى الجبل الاقرع ، وثالث في جبل سمعان الذي تقدم ذكره في الصحيفة ٧٦ .

واليك ما قاله الرحالون والجغرافيون عن المعرة : قال ناصر خسرو الفارسي في القرن الخامس سنة ٤٢٨ ، وبعد ستة فراسخ من سرمين تقول لك معرة النعمان هاءنذه وهي مدينة آهلة بالسكان كثيراً ويحيط بها سور من حجر وشاهدت بالقرب من هذه المدينة سارية من الحجر زبرت عليها كتابة بحروف ليست بعربية فسألت احدهم عن ذلك فأجابني ان هذا طلسم يحول دون العقارب ودخول المدينة والبقاء فيها . فاذا جيء بعقرب من الخارج وأطلق يفر ويبتعد ، وقدرت ان هذه السارية كان علوها عشرة آرش (لعله ذراع) . واسواق المعرة طافحة بالارزاق والخيرات ، وجامعها الاعظم مبني على اكمة قامت وسط المدينة ومن اي جهة اتجهت الى هذا الجامع كان عليك ان ترتقي سلماً ذا ثلاث عشرة درجة ، ولا يزرع في هذه الجهات الا الحنطة ، وتغل غلة حسنة ، ويكثر في قراها اشجار الزيتون والتين والفستق واللوز والكرمة ، ومياه المعرة تجمع من المطر او تمتاح من الآبار . . . الخ ماذكره عن ابي العلاء وكان حياً يرزق آنئذ . وقال ابن جبير في القرن السادس في رحلته سنة ٥٨٨ بعد ان غادر قنسرين : ثم نزلنا بموضع يعرف بباقدين في خان كبير يعرف بخان

التركمان (١) وثيق الحصانة ، وخانات هذا الطريق كانها القلاع امتناعاً وحصانة وابوابها حديد وهي من الوثاقة في غاية . ثم رحلنا الى ان رأينا عن يمين طريقنا المعرة وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وانواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب بلاد الله وا كثرها ارزاقاً ا هـ . وقال ياقوت في القرن السابع : معرة النعمان مدينة كبيرة قديمة مشهورة من اعمال حمص بين حلب وحماة ، ماءهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين . ونعمان هو النعمان بن بشير الصحابي اجتاز بها فمات له ولد بها فدفنه وأقام عليه فسميت به . وهذا في رأيي سبب ضعيف ، ولا تسمى بمثله مدينة ، والذي اظنه انها مسماة بالنعمان وهو الملقب بالساطع بن عدي . وفي جانب سورها في قبلي البلد قبر يوشع بن نون عليه السلام في برية فيما قيل ، والصحيح ان يوشع بارض نابلس ، وبالمعرة ايضاً قبر عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي ا هـ . وقال ابن بطوطة في القرن الثامن في رحلته سنة ٧٢٥ : والمعرة مدينة صغيرة ا كثر شجرها الزيتون والفستق ومنها يحمل الى مصر والشام وبخارجها على فرسخ منها قبر امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية عليه ولا خدم له ، وسبب ذلك انه وقع في بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصاً عمر بن عبد العزيز لما كان في فعله في تعظيم علي . وفي نهاية الأرب في اخبار العرب للقلقشندي : ذكر الحمداني ان المعرة من بلاد الشام هي صليبية تنوخ وان تنوخ حي من اليمن من القحطانية وانهم سموا بذلك لانهم حلفوا على المقام بمكان الشام والتنخ المقام — ومعنى صليبية تنوخ ان بها جمعهم المستكثر . وقال شيخ الربوة في القرن الثامن ايضا : معرة النعمان وتعرف بذات القصرين ولها عمل من احسن الاعمال وهو شعراء ممدودة ، وغالب شجرها التين والفستق واللوز والمشمش والزيتون والرمان والتفاح وكثير من الفواكه وسائرها يشرب من ماء السماء لا يعتني في فلاحه

---

(١) لم يتسن لي تحقيق موقع هذه القرية وخانها ، فهل هو خان السبيل الحالي ؟

باكثر من الحرث تحته ، وجبل السماق من اعمر الارض واعملها فلاحاً من رآه ورأى الاندلس لم يفرق بين فلاحتها وفلاحة الاندلس اهـ .

واسم المعرة قبل الاسلام كان عرة arra ثم صارت معرة ، وفي العهد الاسلامي ضيف اليها كلمة النعمان لسبب اختلفت الروايات في تعليله ، كما اختلفت ايضا بتسميتها بمعرة حمص وبذات القصور او بذات القصرين ، بيد ان جميع المؤرخين والجغرافيين القدماء اتفقوا على ان المعرة كانت حتى القرن السادس (زمن مرور ابن جبير) والسابع والثامن (زمن شيخ الربوة وابن بطوطة) شعراء ممدودة اي ذات شجر كثير عدوا اسماءه ، وان قراها كانت عامرة متدانية وارضها كثيرة الارزاق ، وان اهلها كانوا في القرن الثالث من بني تنوخ احدى القبائل العربية المتنصرة الثلاث التي كانت في شمالي الشام قبل الفتح ثم اسلمت وهي تنوخ وبهراء وتغلب ومنهم ابو العلاء المعري ، وانها كانت ذات اسوار وحصون واعمدة عليها كتابات لعلها يونانية من العهد البيزنطي ؛ وان جامعها الكبير الذي يهبط اليه في يومنا كان يرتقي اليه في القرن الخامس بسلم ذي ثلاث عشرة درجة كما ذكره ناصر خسرو مما يدل اذا صح الخبر ولم يكن ثمة خطأ في نسخ او ترجمة رحلة السائح الفارسي المذكور — على ان المعرة خربت وعمرت مراراً وان مبانيها الحالية في مستوى يعلو عن اسطحة المباني القديمة . وتاريخ المعرة قبل الاسلام ما برح غامضاً لم نعثر عليه فيما قلبناه من الاسفار وهي لابد ان تكون قد تأثرت مما جرى في تلك العصور في انطاكية وافامية وقنسرين والبارة وغيرها من المدن المجاورة لها التي بحثنا عن احداثها ، امـا في العهد الاسلامي فاليك ما التقطناه من بطون التواريخ ، لما جاء ابو عبيدة سنة ١٧ الى المعرة خرج اهلها يقلسون اي يهللون ويرحبون واذعنوا للجزية والخراج وتبعت المعرة باديء بدء حمص كما كان حالها في عهد البيزنطيين ، ثم لما احدث جند قنسرين صارت من اعماله ورأت في عهد الامويين ما رأته قنسرين من تقلب الولاة والاحوال ، ولما مات الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١

دفن في جوارها في مكان اختلفت الروايات فيه ، وكذلك كان حالها في اوائل عهد العباسيين ، ففي سنة ٢٠٨ ولى الخليفة المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين على جند قنسرين وكلفه ان يطفأ فتنة نصر ابن شبث العقيلي الذي كان غضبانا لقتل الأمين ومتوثباً فجاء عبد الله وكسر نصر بعد وقائع كثيرة وهدم عدة اسوار من مدن شمالي الشام ومنها اسوار المعرة ودك عدة حصون في عملها كحصن الكفر وحناك . وفي سنة ٢٤٥ حدث زلزال عظيم في الشام وسقطت من ذلك كنيسة حناك الكبرى وغيرها .

ولما ضعف شأن العباسيين واستولى احمد بن طولون عامل مصر وابنائه على الشام (٢٦٤— ٢٩٢) دخلت المعرة في حوزته . وفي عهدهم سنة ٢٦٩ حفر احد ولاتهم واسمه لؤلؤ خندقا على المعرة ،وفي آخر عهدهم سنة ٢٩٠ جاء القرامطة بقيادة الحسين بن زكروية صاحب الشامة ففعلوا في المعرة مثلما فعلوا في حماة مما ذكرناه في بحثها من قتل وتفظيع ، اغراهم في المعرة على ذلك المتولي على المعرة وكان كردياً ذكرنا مصيره في بحث افامية ايضا . وفي سنة ٢٩١ جاءت جيوش الخليفة المكتفي واشتبكت مع القرامطة في قرية التمانعة من عمل المعرة ومزقت شملهم . وبعد ان عاد العباسيون وقووا سيطرتهم في الشام مدة ظهر الاخشيديون في مصر والشام (٣٢٣–٣٥٧) ودخلت المعرة في حوزتهم . وفي عهدهم سنة ٣٢٥ وردت اعراب بنو كلاب من نجد وانتشروا في شمالي الشام واغاروا على المعرة واسروا واليها واكثر جنوده الى ان خلصوه من ايديهم . وفي عهد سيف الدولة بن حمدان دخلت المعرة في حوزته ، وبعد موته جاء قيصر الروم نقفور الفقاش الذي تقدم ذكره مراراً واستولى سنة ٣٥٧ على المعرة واحرق جامعها الكبير وخرب قسما من اسوارها ومبانيها وعاث . ولما تعاهد قرعويه مولى سيف الدولة بن حمدان مع القيصر المذكور في سنة ٣٥٩ دخلت المعرة بحكم هذه المعاهدة في ملك قرعويه . وكان سعد الدولة بن سيف الدولة غير معترف بهذه المعاهدة التي ذكرناها في بحث شيزر ايضا ، وظل برهة في معرة النعمان فاخرب الروم حمص

حتى يضطروه الى الاذعان ، لكنه بعث وعمرها . وفي سنة ٣٦٤ ملك بكجور حلب بعد ان خلع قرعويه مولى سيف الدولة واسره وحاصر المعرة . وكان فيها عامل قرعويه واحرق احد ابوابها المسمى باب حمص ونهب جيشه وحلفائه بنو كلاب المعرة . وفي سنة ٣٩٢ عزل لؤلؤ السيفي احد عمال بني حمدان من اروح (؟) مخافة ان يقصد فيها .

وبعد ان دالت دولة الحمدانيين انتقلت المعرة الى حوزة بني مرداس الكلابيين الذين ملكوا حلب ، اولهم اسد الدولة صالح بن مرداس — وكان بدوي الطباع غشوما — وصل سنة ٤١٨ الى المعرة وامر باعتقال اكابرها ، وسبب ذلك ان امرأة صاحت في الجامع يوم الجمعة وذكرت ان صاحب الماخور اراد ان يغصبها نفسها فنفر كل من في الجامع وهدموا الماخور ونهبوه ، وكان صاحب الماخور قريبا لوزير صالح ثادرس النصراني ، فاشتكى له ، فحضر صالح بعسكره الى المعرة واعتقل اكابرها وصادرهم ، فخرج ابو العلاء الى ظاهر المعرة ليشفع فما خاطب به صالحا قوله : مولانا السيد الاجل اسد الدولة ومقدمها وناصحها ، كالنهار الماتع اشتد هجيره وطاب ابراده ، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حداه ، خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين . فقال صالح : قد وهبتهم لك ايها الشيخ . فقال ابو العلاء بعد ذلك في اللزوميات هذه الابيات :

تغيبت عن منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الاقل وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعا الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام واسمع منه زئير الاسد

وفي سنة ٤٥٢ جاء معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس بجيشه الى المعرة لقضاء قسم من فصل الشتاء ، وكانت وطأته على اهل المعرة شديدة . وفي سنة ٤٦٢ جاء الترك السلجوقيون الى انحاء حلب ووصلوا الى المعرة وعاثوا وافسدوا

كثيرا . وفي سنة ٤٧٢ زحف تاج الدولة تتش السلجوقي بجيش من دمشق نحو شمالي الشام فاحرق اعمال جبل السماق وبني عليم وغرم اهل سرمين ومعرة مبالغ طائلة وانهب القرى في شرقي المعرة ، وحاصر تل منس دون ان يفز منها بطائل، واحرق معر تاريحا في كورة كفر طاب (؟) . وفي سنة ٤٨٨ اقطع رضوان بن تتش مدينة المعرة واعمالها الى سقمان بن ارتق اخي نجم الدين ايلغازي الذي تقدم ذكر بلائه في الحروب الصليبية مرارا .

وفي سنة ٤٩١ بعد ان استولى الصليبيون على انطاكية جاءوا الى المعرة وحاصروها ودافع اهلها في اسوارها حتى داخلهم الجزع فتحصنوا بالدور وتركوا السور فلكه الافرنج ودخلوا عليها فاستباحوها ثلاثة ايام واقاموا بها اربعين يوما ثم ساروا. (ابن خلدون ج ٥ ص ١٨٤) . قال ميشو في تاريخ الحروب الصليبية : ان الفرنج قتلوا جميع من كان في المعرة من المسلمين الذين اعتصموا بالجوامع واختبأوا في السراديب ، فاصبحت خاوية على عروشها وهدموا اسوارها وابراجها واحرقوا المساجد وكسروا المنابر وهدموا الدور ، وفقــد الصليبيون بسبب ذلك الزاد وساءت حالهم ثم وقع الخلاف بينهم وصاروا في رواية يأكلون جثث الموتى ثم ساروا منها . وقيل ان الافرنج توفقوا في الاستيلاء على المعرة بمعونة الارمن الذين جاءوا معهم ومخامرة نصارى المعرة وتل منس ، وانهم قتلوا من اهلها ما يزيد على مائة الف وسبوا مثلهم ، وانهم عاثوا في ارباضها وقطعوا اشجارها ، وخف اعراب بنى كلاب وقتئذ لنجدة اهل المعرة فاجهزوا على ما بقي من الصليبين فكان ضررهم اشد . وفي ذلك يقول بعض المعريين :

معرة الاذكياء قد حردت   عنــا وحق المليحة الحرد
في يوم الاثنين موعدهم   فما نجا من خميسهم احد

وفي سنة ٤٩٦ استرد رضوان بن تتش السلجوقي بعض الحصون التي ضبطها الصليبيون ، ثم عقد معهم في سنة ٥١٤ معاهدة ابقى لهم بموجبها المعرة وكفر طاب والبارة وقسم من جبل السماق . وفي سنة ٥٣٤ اخذ عمــاد الدين زنكي

المعرة وكفرطاب من الصليبيين فحضر اهل المعرة وطلبوا تسليم املاكهم التي اخذها الصليبيون فطلب منهم كتب املاكهم فذكروا انها عدمت فكشف من ديوان الخراج في حلب ، وافرج عن كل ملك كان عليه الخراج لمن بقي من اعقاب اصحابه ، ثم نقض عماد الدين اسوار المعرة كلها . ونالت الزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٥٢ من المعرة كما نالت من بقية مدن الشام وهدمتها، وقد تقدم ذكر ذلك في حديث كل منها . وفي سنة ٥٨٢ الحق السلطان صلاح الدين الايوبي المعرة باقطاع ابن اخيه المظفر تقي الدين عمر الذي جعله ملكا في حماة وتوابعها .

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين نشب الخلاف بين اخيه الملك العادل واولاده واولاد اخوته وامرائه على ما تركه من الممالك ، ومنها المعرة التي صارت بعدعلة الشحناء بين ابنائه الصلاحيين ملوك حلب وابناء ابن اخيه التقويين ملوك حماة كما صارت ايضا سلمية علة الشحناء بين هؤلاء التقويين وابناء اعمامهم الاسديين ملوك حمص . وفي اكثر الاحيان كانت صفقة ملوك حماة خاسرة . فالمعرة بعد وفاة المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٧ انتقلت الى ابنه المنصور ناصر الدين محمد ، فبنى فيها سنة ٥٤٥ المدرسة الشافعية التي تقدم ذكرها ، وفي سنة ٥٩٦ استلم الامير عز الدين ابراهيم ابن المقدم خمس وعشرون ضيعة من المعرة فوق ما كان له من الاقطاعات ، ولما توفي سنة ٥٩٧ انتقلت هذه الاقطاعات الى اخيه شمس الدين عبد الملك ، الا ان صاحب حلب الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين سار فوراً الى المعرة واستخلصها من المنصور واقطع بلادها واستولى على كفر طاب وكانت لعبد الملك ابن المقدم المذكور ، ثم سار الى افامية وفعل فيها وبعبد الملك ما ذكرناه في حديث افامية ، ومنها توجه الى حماة وحاصر فيها المنصور ثم غادرها الى دمشق وحاصر فيها ايضاً ابن عمه المعظم بن العادل ، ولكنه لم يفز من المدينتين بطائل ثم رجع . وفي سنة ٥٩٨ وصل الملك العادل الى حماة وبلغ الظاهر غازي بحلب ان قصده محاصرته وتأديبه فلاطفه وصالحه على شروط منها اعادة ضياع المعرة الى المنصور صاحب حماة . اما المعرة فظلت بيد الظاهر غازي

بدليل وجود اسمه فيها في كتابة تاريخها ٦٠٤ ، ولما توفي المنصور في سنة ٦١٧ انتقلت حماة وتوابعها الى ابنه الناصر قليج ارسلان الذي ولاه وزراء ابيه وخانوا اخاه المظفر ، ولما جاء المعظم صاحب دمشق في سنة ٦١٩ لمحاصرة ابن اخته الناصر المذكور لاخلافه في دفع المال المشروط عليه ، استخلص منه وقتئذ سلمية والمعرة ، ثم في سنة ٦٢١ اعاد المعرة اليه واعاد سلمية الى اخيه المظفر ، ثم في سنة ٦٢٦ لما استرد المظفر حماة من اخيه سلمت المعرة اليه . وفي سنة ٦٣١ اتم المظفر بناء قلعة المعرة وشحنها بالسلاح والرجال فكان ذلك سببا لخروجها من يده ، لانه في سنة ٦٣٥ ارسل العزيز صاحب حلب جيشا استخلص المعرة من صاحب حماة انتقاما منه لمعاونته الملك الكامل صاحب مصر ضده وخرب قلعتها التي كان بناها المظفر . وظلت المعرة تابعة الى حلب مدة الى سنة ٦٥٨ التي جاء فيها التتر واجهزوا على ما بقي من قلعة المعرة . ثم في تلك السنة انتصر المظفر قطز على التتار في معركة عين جالوت ، وكان المنصور بن المظفر صاحب حماة معه فاحسن قطز اليه وامر باعادة المعرة عليه . لكنه امر ايضاً بنزع سلمية منه واقطاعها الى الامير مهنــا آل الفضل كما ذكرناه في بحث سلمية . فظلت المعرة بيد التقويين اصحاب حماة الى سنة ٧١٤ التي امر بها السلطان محمد بن قلاوون ان تنزع من يد الملك المؤيد ابي الفداء وتسلم الى الامراء المماليك الذين ابعدوا وقتئذ بسبب ابي الفداء من حماة الى حلب وظلوا دون اقطاعات كافية (ابو الفداء ج ٤ ص ٧٤) . ولكن في سنة ٧١٦ سافر ابو الفداء الى مصر وحظي برعاية السلطان ومنها اعادة المعرة اليه ، لكنه ما كاد يفرح بها ويتقبل تهاني الشعراء الا وصدر الامر باقطاعها الى الامير محمد بن عيسى بن مهنا ليحضر الى الطاعة بعد عصيانه مع اخيه مهنا . ولما كان القلقشندي يؤلف كتابه صبح الاعشى ذكر المعرة في جملة ولايات نيابة حماة وان واليها جندي (صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٣٩) ، ولعله اخذت بعد حين من يد الامير المذكور واودعت الى نواب حماة الذين تولوها بعد موت ابي الفداء وخلع ابنه الافضل . وكانت المعرة في تلك

الايام منزلا للبريدالبري وبريدحمام الزاجل الجوي اللذين كانامتصلان من مصر الى حلب . وفي سنة ٧٠٠ عاود التتر قصد الشام فجفل المسلمون منهم وخلت بلاد حلب ، فاقاموا في بلاد سرمين والمعرة والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون نحو ثلاثة اشهر ثم عادوا الى بلادهم .

ومن الغريب بعد النوائب والحروب التي نزلت بالمعرة لا سيما ما اصابها من الروم والصليبيين والتتر عدة مرار — ان تبقى فيها اشجار الزيتون والفستق واللوز والتين وغيرها الى حين مرور ابن جبير في سنة ٥٧٩ وابن بطوطة في سنة ٧٢٨ وشيخ الربوة في سنة ٧٢٧ ، وان تبقى الجبال والبراري المجاورة لها « شعراء ممدودة » و « من اعمر الارض واعملها فلاحا » . . . الخ ما ذكروه بما يكاد المرء يرتاب بصحته او يحتار في تعليله ، ويضطره للتسائل عن قاطعي تلك الاشجار ومبيديها بعد اولئك السياح وزمن القطع والابادة . . .

وفي القرن الثامن كانت اختلت ادارة السلاطين المماليك في مصر والشام وازدادت فتن الامراء آل عيسى بن مهنا اجداد آل ابي ريشة امراء الموالي الحاليين ، ووثب بعضهم على بعض قرب سلمية في سنة ٧٤٨ « وجرى على بلد المعرة وحماة وغيرها من النهب وقطع الطريق ورعي الكروم والزرع والقطن والمقاثي ما لا يوصف » (تاريخ ابن الوردي) ، وكما خربت سلمية وضواحيها بسبب تلك الفتن خربت ايضا قرى العلا القريبة من المعرة ، ولعل اشجار الزيتون والتين والفستق وغيرها التي ذكرها الجغرافيون القدماء انقرضت خلال ذلك جلها ان لم يكن كلها ، ولو لم يصرح بذلك ابن الوردي . وجاء في السنة التالية الطاعون الهائل الذي اجتاح بلاد الشرق الادنى ومنها مصر والشام ، لكنه لم يفعل في المعرة كما فعل في غيرها ، وقد علل ابن الوردي في تاريخه ذلك بأن الطاعون رأى المعرة حينئذ مثقلة بضروب الجور والمظالم فعف عنها (كذا) ، لكنه لم يعف عنه بل اودى به .

وفي عهد العثمانيين ظلت المعرة تابعة ايالة حلب وازداد انحطاطها ، وسكنت

التواريخ بعد عن التنويه بحديثها ، وزارها بعض سياح الافرنج في اوائل القرن الماضي والذي قبله واجمعت اقوالهم على وصف المعرة بانها بليدة شبه قرية صغيرة الشان قليلة السكان ، يديرها حكام واغوات من اهلها شبه مستقلين . وقضاء المعرة يعد في الدرجة الثانية بين اقضية ولاية حلب في السعة وكبر القرى وغناها ، وهو يحتوي على قسم كبير من جبل الزاوية وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو ، وعلى قسم كبير من كورة العلا وما وراءها من الخرب العامرة والداثرة والبراري الفيح الممتدة حتى الآندرين ، واسماء نواحيه الاربع ، المعرة وخان شيخون وقلعة المضيق وخوين الكبيرة .

وقد انجبت المعرة فيما مضى غير ابي العلاء عدداً من الشعراء والفضلاء ، لبعضهم ابيات يجدر بنا ذكرها لاحتوائها على اسماء اماكن في المعرة واكنافها ، فمنهم ابو الفتح الحسن ابن ابي حصينة المعري المتوفى حدود الخمسمائة هجرية ، قال :

وزمان لهو بالمعرة مونق بشياثها وبجانبي هرماسها
ايام قلت لذي المودة سقني من خندريس حنا كها اوحاسها

فالحاس وشياث تقدم ذكرهما في بحث جبل الزاوية ، والهرماس واد غربي المعرة تصل مياهه اذا فاضت الى مطخ قنسرين ، وحناك حصن في ضاحيتها ، تقدم ذكر تخريبه سنة ٢٠٩ هـ ، والخندريس الخمر المعتقة . ومنهم ابو المجد محمد حفيد اخ لابي العلاء ، قال متغزلا بما جرى له في باب حناك :

يا مغاني الصبا بباب حناك لا بيابي الغضا ووادي الاراك ...

الى آخر ما ذكره ياقوت ، ومنهم ابو يعلى بن حصين ، مدح محمود بن نصر بن مرداس لما افتتح حصن اسفونا ، قال :

عداتك منك في وجل وخوف يريدون المعاقل ان تصونا
فظلوا حول اسفونا كقوم اتى فيهم فظلوا آسفينا

ومنهم عمر ابن الوردي المتوفى في طاعون سنة ٧٤٩ صاحب شرح الفية ابن مالك وتاريخ اسمه تتمة المختصر في اخبار البشر ، من شعره قصيدة يذكر فيها

اماكن مشهورة بالمعرة ، نقتطف منهـا :

رعى الله عيشا بالمعرة لي مضى حكاه ابتسام البرق اذ هو أومضا
وعصر شباب في شياث قطعته وفي ارض حندوثين في ذلك الفضا
اعاذل لو شاهدت باب جنانها لما كنت يوما ناهيا بل محرضا
لقد طال بالهرماس عهدي ومائه اذا ماجرى كالسيف احمر منتضى

الى آخر القصيدة التي فيها اسماء اماكن عديدة كارض حندوثين ، باب الجنان ، وادي فضالة ، عين معراتا ، البيدرين ، جريا ، القلعة ، عين زريق ، عليات العسل ، مشهد يوشع ، ذير سمعان ، ملك فارس ، الهرماس . . . وغيرها مما تحتاج للتحقق من بقاءها او فناءها حتى الآن .

وفي ناحية المعرة عدة قرى تبدأ بكلمة معر ومعرة كمعرشمارين ومعر شمشة ومعرشورين ومعراته ، وفي ناحية خان شيخون معرزيتا ومعرةماثر ومعرة حرمه ومعرة صين ، وذكر ياقوت في معجمه في هذه الناحية معرات اخرى لم تتحقق مواضعها كمعرة بيطر ومعرة بحولين . والمعرات في قضاء ادلب ايضا عديدة منها في ناحية سرمين ، معرة الخاسكة ومعرة العلياء ومعر دبسة، وفي ناحية معرة مصرين ؛ معرة مصرين ومعرة الاخوان ومعربونه ومعر بليت ومعرزاف وفي قضاء جبل سمعان ؛ معرة الارتيق . ولا يعلم الان قرية باسم اسفونا بل باسم سفوهن وهي في غربي قضاء المعرة .

والخارج من معرة النعمان يظل مجتازاً السفوح الشرقية لجبل الزاوية ومبصراً هضاب هذا الجبل المكسوة بالصخور الرمادية وفيها في بعض الاماكن المتفرقة اشجار الزيتون تتخللهـا خرائب واطلال قديمة . ثم تدخل الطريق في سهول شاسعة ذات تلعات متموجة الى ان تصل في الك ١٠٦ الى خان شيخون .

وخان شيخون تعد اعظم قرى هذه الربوع ، عدد اهلها ٣٠٠٠ ، فيها مدير ناحية ومخفر لجنود الدرك ، بيوتها قبب مخروطية مزدحمة ، وكان اسمها القديم Ashauie ، وفي شرقيها خان كبير من عهد المماليك ، وفي شماليها تل

عظيم مرتفع نقبته بعثة الكونت مسنيل دوبويسون سنة ١٣٤٩ فوجدت في احشائه اطلال بلدة ترجع الى قبل عشرة قرون من الميلاد ، وتحتها آثار مبان مصرية من عهد تحوتمس الثالث ترجع الى قبل خمسة عشر قرنا من الميلاد ،وتحت الكل آثار اربع مدن من الدور الحديدي ترجع الى القرن العشرين ق . م . وفي الشمال الغربي من خان شيخون على بعد بضعة كيلو مترات مكان يظن انه كانت فيه قرية كفر طاب التي تقدم معنا ذكرها في ابحاث افامية وشيزر ، اشتهرت بقلة مائها اذ لم يكن لها ماء شرب الا ما يجمعونه من الامطار . قال ياقوت : وبلغني انهم حفروا نحو ثلاثمائة ذراع فلم ينبط لهم . وقد استرعت هذه الحالة عجب ابي العلاء وكان بلغه اذ ذاك ان اهل بالس — وهي التي تدعى الآن مسكنة شرقي حلب على الفرات — عجزوا من غارات الفرات وحفره ارضهم . فقال :

اری کفر طاب اعجز الماء اهلها ... وبالس اعياها الفرات من الحفر

كذلك مجرى الرزق واد بلا ندى ... وواد به فيض وآخر ذو جفر

وقال ابو الفداء في تقويم البلدان : كفر طاب من جند حمص ، وهي بلدة صغيرة كالقرية قليلة الماء يعمل فيها القدور الخزف وتجلب الى غيرها ، وهي قاعدة ذات ولاية ولها عمل ، وهي على الطريق بين المعرة وشيزر ، قال في العزيزي ومدينة كفر طاب اهلها اخلاط من اليمن وبينها وبين شيزر ١٢ ميلا وكذلك بينها وبين المعرة اهـ . قلت : ومن الغريب ان تندثر اطلال ورسوم بلدة ككفر طاب فلا يعرف الآن احد مكانها على الضبط ، ولما ينقض عليها بعد من عهد ابي الفداء ستة قرون ، وان لا يذكر احد من جغرافيي العرب ومؤرخيهم اسم خان شيخون قط ، رغم كبر هذا الخان وقريته وقدمهما الظاهرين . وفي غربي خان شيخون لحب يأخذ السيارة الى قلعة المضيق عن طريق قريتي الهبيط وكفر نبودة (طوله ٢٥ كيلو متراً) ، وفي شرقي خان شيخون على بعد عشرة كيلو مترات قرية التمانعة او تمنع التي حدثت فيها المعركة الفاصلة بين جيش الخليفة العباسي المكتفي والقرامطة ، وقد ذكرناها في ابحاث حماة وسلمية .

وبعد خان شيخون بقليل تنتهي حدود قضـاء المعرة من ولاية حلب وتبدأ حدود قضاء حماة من ولاية دمشق . وتظل الطريق سائرة في سهول العلا الشاسعة العارية عن كل شجرة او نضرة ما خلا حقول مزروعة تظهر كالغيطان الخضراء في البوادي القفراء . وتتخلل هذه السهول احياناً تلعات ومنخفضات قليلة التموج انتشرت فيها من مكان الى آخر تلال جلها صناعي اثري ، وفي الك ١١٤ مورك وهي قرية كبيرة قديمة كان اسمها Murmurik فيها تلان احدهما عظيم ذو طبقتين وفي داخل القرية بعض احجار اثرية ، وقد اشتهرت مورك بجودة بطيخهـــا الاحمر وضخامته ، وفي غربي مورك لحب يأخذ السيـــارة نحو الغرب الى قلعة المضيق وقرى ناحية الطار عن طريق قريتي كرناز وكفر زيتا (طوله ٢٩ كيلومتر) وبعد مورك تظل الطريق مطردة المناظر الى ان تجتاز في الك ١٢٥ بصوران وكان اسمها Shouroun وفيها قبة الشيخ اربعين ، زعموا انها قامت مقام بيعة الاربعين شهيد وفي الشمال الغربي من صوران تل اسمه تل ماصين نقبته سنة ١٣٤٩ بعثة الكونت [مسنيل دوبويسون ووجدت فيه فيما قيل اطلال بلدة يرجع عهد بعضها الى قبل عشرين وبعضها الى قبل ثلاثين قرناً من الميلاد . ثم تمر الطريق من غربي قرية الطيبة وتدعى طيبة العلا ، وهي آخر قرية في كورة العلا ، فيها مسجد كبير ذو مأذنة عالية . وبعد ان يغادر السائح على يمينه قرية القمحانة يمر من غربي قرون حماة.

وقرون حماة جبلان متقاربان من الحجر الحري الاسود يبعدان عن حماة الى الشمال نحو عشر كيلو مترات يدعى الكبير منهما زين العابدين (٦٣١ م) والصغير كفرراع (٦٤٥ م) ، وفي شرقي الاول ضيعة الهاشمية وفي شمالي الثاني ضيعة كفرراع ، وفوق الاول جامع مهجور ذو قبتين بيضاوين من آثار الملك الاشرف قايتباي في سنة ٨٨٣ ، وفي الجامع مقام يسمى زين العابدين (؟) . تقصده النصيرية من جبالهم الغربية بالزيارة في شهر نيسان من كل عـــام . وقد اشتهر جبل زين العابدين بالمصاف الذي وقع حوله في سنة ٥٧٠ بين السلطان صلاح الدين الايوبي وصاحب حلب اسماعيل بن نور الدين محمود زنكي وابناء

اعمامه الذين جاءوا من الموصل لنجدته وكانت الدائرة عليهم ، وبالمصاف الذي جرى في الربع الثالث من القرن الماضي بين قبيلتي الموالي والحديديين وكانت الدائرة على الموالي وقتل اميرهم محمد الخرفان . وبعد ان يجتاز السائر السهل الممتد من سفح قرون حماة الى حاضرها يصل الى هذا الحاضر ويهبط منه وادي حماة المنخفض .

كورة العلا — تمتد في شرقي طريق حماة — حلب وقسم من غربيه كورة تدعى كورة العلا ذكرها ياقوت في معجمه بأنها ؛ كورة من عمل معرة النعمان من جهة البر تشتمل على قرى كثيرة ويطؤها القاصد من حلب الى حماة اه وفي الحق انها كورة واسعة طولها من الشمال الى الجنوب نحو تسعون وعرضها نحو ثلاثون كيلومترا ينتهي طرفها الشرقي عند الآكام المشرفة على « السلايل » وهي البطاح والمروج الممتدة من سلمية نحو الحمراء فتل حلاوة فالخرايج ، وينتهي طرفها الشمالي عند الآكام المشرفة على مطخ قنسرين وسهول اليمة حول قرى العوجة وزفر ومغارة وكرسيان . اما طرفها الغربي فمنهم من يوصله الى طريق حماة — حلب اي الى سفح جبل الزاوية ويمتد به الى ناحية الطار التي تقدم ذكرها ، ومنهم من يقصره عن ذلك ببضعة كيلومترات ، وينتهي طرفها الجنوبي عند الآكام المشرفة على طريق حماة — سلمية .

وهذه الكورة انما سميت بالعلا لانها تؤلف هضبة منبسطة تعلو على البقاع التي في شماليها وشرقيها . وتنتهي الاكناف الشرقية والجنوبية في هذه الهضبة بآكام متسلسلة جرداء لا يزيد علو اسماها على الستمائة متر ، منها في الشرق جبل الحوايس وفي الجنوب جبل الفانات وجبل كيتلون وجبل كاسون . وفي اماكن متفرقة من هذه الهضبة تلول بارزة اشهرها تل شميميس وتل خنزير وتل المقطع وتل العوجة وتل الذيب وتل القراطي وتل عمارة ، وفي الشمال رجم عال يدعي رجم صراع . على ان جل هذه الهضبة سهول شاسعة مترامية الاطراف ، تربتها

في الجهة الغربية حمراء وفي الشرقية صفراء ، وهي خصبة في الجملة تنجب حنطة جيدة تفضل على غيرها بالقيمة وكذا الزروع الصيفية لاسيا البطيخ الاحمر الذي يجود خاصة في قراها الغربية . ومحاصيل هـــذه الكورة من حبوب واصواف وسمون تساق الى بندر حماة وبعضها الى بندري حلب والمعرة ، ويُجتاز السكة الحديدية الآتية من حلب هذه الكورة من الشمال الى الجنوب في محطات الدوجة وام رجيم والحمدانية وكوكب ، وبهذا يصح قول ياقوت ان القاصد يطؤها من حلب الى حماة ، ويصح ايضاً اذا ثبت ان الحد الغربي لهذه الكورة هو طريق القوافل والسيارات المارة بمعرة النعمان التي تقدم ذكرها .

والعلا كما قال ياقوت يشتمل على ضياع وقرى كثيرة من اقضية المعرة وسلمية وحماة . ولذلك قسم في عهدنا الى قسمين ، الاول علا الشمال او علا المعرة نسبة لوجوده داخل قضاء المعرة والثاني علا الجنوب او علا سلمية نسبة لوجوده داخل قضاء سلمية . كما ان علا الشمال يقسم الى قسمين غربي وشرقي ، فالشرقي يحوي القرى الآهلة باعراب الموالي ويدعى علا الموالي والغربي يحوي القرى التابعة ناحيتي خان شيخون والطار ويدعى علا الطار او طار العلا ، وبين هذين القسمين من القرى التي جلها كبير معصران وتل دبس وجرجناز وتل منس ومعرشورين ودير شرقي والتح والتمانعة وخوين الكبيرة والحمدانية وتل مراق وخان شيخون وصوران ومورك واللطامنة ومعردس وكفر زيته والطيبـــة وكوكب ومعرشحور وكاسون . . . الخ وكلها من العلا .

وليس في العلا ارضون مسقوية اوعيون سارية ،لان ارضه بركانية وحجارته حرية ، ما خلا بعض اودية فيه تجف في الصيف كوادي شطيب ووادي سمقة وهذا يتجه شمالا ماراً بقرية خوين الشعر الى ان يصب في مطخ قنسرين . وثمة عيون صغيرة في ضياع الطامة والهلبة ، على انه في بعض القرى الجنوبية كالفركة وقراح وزغرين وسمنة والفان القبلي والشهيب ومعر شحور والرويضة قنوات قديمة فتح بعضها اخيرا وشرعوا ينتفعون بمياهها اخصهـــا قناة معرشحور التي

حاولوا منذ عهد قريب ان يجروها الى حماة للشرب فاخفقوا .

وجل ضياع العلا الشرقية في زماننا صغير كان اكثرها لمضي نصف قرن ملكا لقبيلة الموالي وبعضها لقبيلة الحديديين والباقي لغيرهما من القبائل كبني خالد والتركي والعقيدات. تملك هؤلاء الاعراب هذه القرى على اثر الاهتمام الذي اظهرته الحكومة العثمانية في العقد الرابع من القرن الهجري الماضي بتحضيرهم واسكانهم في كورة العلا كما اسكنت غيرهم من القبائل في جبل الاحص وسهول مطخ قنسرين وقضائي الباب ومنبج ، وكان القائم بهذا العمل النافع اذ ذاك احد عمالها البارزين واسمه اصلان باشا الذي له ايضا يد طولى في تأسيس لواء دير الزور وتحضير قبائله، لما كان متصرفاً فيه في سنة ١٢٨٧ ﻫ وعلى اثر هذا الاسكان احترف بعض هؤلاء الاعراب الفلاحة والزراعة ومنهم من ترك الخيام وسكن الدور والقباب ، وظل غالبهم متبديا يرتزق بتربية الغنم ورعيها يشاركون بها سكان المدن كحلب وحماة ضمن شروط خاصة يشرقون في الشتاء الى البادية انتجاعا للدفأ والكلاء ويغربون في الصيف الى قراهم في الحاضرة . على ان القرى التي ملكتها الحكومة هؤلاء الاعراب في العلا لم تثبت طويلا في ايديهم ، لانهم تخلوا عن اكثرها بعد حين بحكم التبذير وسوء التدبير المستحكمين في طباعهم ، وباعوها تباعا الى سراة حلب والمعرة وحماة ورجعوا الى عيش البداوة الا قليلا .

واشهر قبائل العلا هي « الموالي » اقدم القبائل العربية في شمالي الشام واشدها شراسة وفروسية وامراؤها المنتسبين لأسرة تدعى « بيت ابو ريشة » معروفون بعراقة النسب واثالة الحسب وانهم يردون النقا ويعطون الصحب كرؤساء قبائل البادية الكبرى ، واذا اجتمع هؤلاء الرؤساء في المؤتمرات التي تعقد الحين بعد الحين في سلمية اوتدمر او خلافها من البلاد التي على سيف البادية لفض الفتن التي لا تخلو من النشوب بين القبائل يحل امراء الموالي صدور المجالس بينما رؤساء بقية قبائل الحاضرة المعروفون بـ « عربان الديرة » عليهم الوقوف في

ابوابها والاصغاء لما يقرر فيها ، وقد استرعى نظري هذا الحال ورحت ابحث عن حسب امراء الموالي ونسبهم اللذين يجهلونهما هم ويا للاسف ، ويزعمون انهم عباسيون من اعقاب شقير بن الخليفة هرون الرشيد (كذا) ، وهو زعم فاسد لادليل له ولااساس ، الى ان توصلت بعد الجهد و بعد العثور على قبر احد اجدادهم في مقبرة الشيخ فرج في سلمية من تحقيق انهم متحدرون من جبار بن مهنا بن عيسى بن مهنا ، وان جدهم عيسى بن مهنا من آل الفضل من بني ربيعة من طي من كهلان من القحطانية ، وان آل الفضل وخاصة فخذ عيسى بن مهنا كانوا في زمن السلاطين الايوبيين سيما في دولة المماليك كما قال القلقشندي في صبح الاعشى « رؤساء اكابر وسادات العرب ووجوهها ولهم عند السلاطين حرمة كثيرة يحلونهم فوق كيوان وينفقون لهم اجناس الاحسان » ، وتبين لي ان آل عيسى اجداد امراء الموالي كان لهم مداخلة في ادارة بلاد الشام الشمالية وسياستها في تلك القرون واثر عظيم في زوال عمرانها وانحطاط شأنها نخص بالذكر المعرة وحماة وسلمية — وذلك حينما اختلت الامور في آخر دولة المماليك ولم تصطلح في عهد العثمانيين ، وان سلمية كانت عاصمة ملكهم ظلوا فيها سبعة قرون ثم نزحوا الى العلا كما سنبينه في حديث سلمية . ولا يزال في جنوبي دمشق في قضاء القنيطرة امراء اعزاء يدعون امراء الفضل هم كما ثبت لي اقارب امراء الموالي وابناء اعمامهم ، نزحوا في القرن التاسع او العاشر من انحاء سلمية وتديروا غربي القنيطرة وظلوا محتفظين باسمهم القديم .

وفي زمننا يقطن امير الموالي الاكبر الشايش بن عبد الكريم في قرية قطرة شرقي المعرة ، وهم ينقسمون الى شماليين وقبليين ، ويعد من افناد الشماليين المشارفة (في ضياع بريصة والسرج وسحال وفزجة ومشيرفة ولويبدة) وبني عز (في خوين الكبيرة وتلحرق وابو عمر وابو دالي) والدولة (في ام خلاخيل وخربة الدجاج) والجماجمة (في الشعرة واعجاز وكراتين وربيعة وقطرة) والشويرتان (في صقيعـــة وام رجيم) والشريف (في ينحة ودريبية) والطوقان (في ابو حية)

والدواونة (في ام جلال) والكلكل (في سرجة وكفريا وابو شرجي وتل دم) والغازي (في حران وقراطي وهلبة وكرسنتة)، اما افناد الحسووالشليوط والفنير والخليفة والكواويس والخراشين واخوة وضحة فهم سيـــارون في ضياع العلا الشرقية ، وثمةافنادتنضم الى الموالي عند الحاجةيدعونهم«لحقة الموالي» كالصماطية (في ناحية الطار) وبني عز الرعية والبشاكم والكندوش (فيجنوبي وشمالي قضاء سلمية) .

اما الحديديون فأصلهم من ديار الموصل وهم اكثر قبائل شمالي الشام عدداً وثروةً ، واميزها باتقان تربية الماشية وصنع السمن المعروف بالحديدي المنقطع النظير في الجودة والنفاسة . وهم ينقسمون الى شماليين وقبليين ، ويعد منافنادهم الابراهيم وفيهم المشيخة يقطن الشيخ الاكبر منهم في ضيعة تدعى الطويحيني جنوبي مطخ قنسرين ، والابوصليبي (في بعض ضياع العلا كالربدة والحزموعرفة ودومة وقصر العلي) والابو جميل (في الشطيب والمشهد وصريع وجهمان) والمعاطة (في حوا) والبقارة (في ريع الهوى وصراع) ، اما بقية الافناد كالمراسة والحجاج والابوزليط والابو فاتنلة والابو حربة ففي الضياع التي تمتد من السلايل الى جنوبي جبل الاحص وجنوبي مطخ قنسرين . وثمة افناد تنضم الى هؤلاء يدعونهم « لحقة الحديديين » كالنعيمات والولد علي والكيار والمعاطة والجميلة والابو قعـــيرات والابوشهاب الدين والغناطسة والابرز والجملان والابو عطيري والابو حسن والسرحان ، وهؤلاء منتشرون في اقضية جبل سمعان وادلب والباب وناحية الحمراء . وبنو خالد قبيلة قديمة في شمالي الشام كثيرة العدد والافناد أغلبها في العراق وبعضها في حوران وفريق غير يسير منها في ديار المعرة وحماة وحمص ، من افنادها في قضاء المعرة في ضياع جبل شحشبو التويني والشقرة والبلوة والمضخى والغايب والرفيعي والصواجبة والفياضي ، وفي جنوبي المعرة الرويعي والعرار .

والفتن الناشبة بين الموالي والحديديين قديمةسببها ان امير الموالي محمدالخرفان

الذي كان في غرة القرن الثالث عشر اضطهد الحديديين رغم انهم كانوا حلفاءه وانصاره ، فقتلوه ، ولما ترعرع ابنه محمد الخرفان الثاني الذي سمي باسم ابيه حاول ان يثأر منهم فغزاهم مراراً وجرت المعركة الاولى بينهم في منتصف القرن المذكور في تل حلاوة شمالي الحمراء ، وكانت الدائرة على الموالي ،وجرت المعركة الثانية في اواخر القرن المذكور في سفح جبل زين العابدين شمالي حماة فقتل فيها محمد الخرفان وانكسر الموالي ، ثم تلى ذلك صلح طويل دام عشرات من السنين تصاهر فيه رؤساء القبيلتين الى ان كانت سنة ١٣٣٩ هـ نشبت الفتنة بسبب سرقات تافهة قام بها البعض من قبيلة اللهيب المنتمية الى الموالي وجرت المعركة الاولى حول قرية عقيربات غربي جبل البلعاس ، ثم دامت المعارك نحو سبع سنوات راح فيها لاهل المدن والقرى في ديار حماة والمعرة وحلب ما لا يحصى من الصامت والناطق ، وبعد ان رقدت الفتنة مدة عادت في سنة ١٣٤٩ ونشبت لاسباب نسائية وما برحت تخبو نارها تارة وتشب اخرى ، وليس من يطفئها كما ينبغي .

والخرائب الاثرية في العلا كثيرة لم يتح لي زيارتها كما ينبغي لأجيد وصفها ، ذكر لي منها في الشمال في قضاء المعرة اماكن تدعى بالقصور وليس لها من ذلك الا الاسم منها ؛ قصر الابيض وقصر السرج وقصر البرج وقصر ابو شرقي وقصر سرجة وقصر ابو حنايا وقصر تل الذهب وقصر الشاوي وقصر نوى وقصر المخرم وقصر ابو سمرة وقصر ابو حية وقصر الفواعرة وقصر الشطيب وقصر العلي ، وثمة في ضياع القليعات وتل خزنة وتل تين وتل دم واعجاز وعجيز وفرجي وسنجار وصقيعة وام مويلات مبان صغيرة اثرية تشبه المخافر او الحصون . على ان اغنى ضياع العلا الشمالية بالخرائب هي قريه كراتين التجار التي فيها حقل واسع من الاطلال الداثرة تدل الكتابات اليونانية الكثيرة التي فيها على عمران العلا كله في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . والشوارع في كراتين التجار هي على خلاف ما في خرائب جبل الزاوية — ضيقة بينما الذور واسعة . وفي شمالي العلا ايضا غير

ما عددناه خرائب خدفة وحراكي وكريسنتة ومعراته ومرعايا وعوجة وام هلاهيل وام مويلات وصراع وسنجار وتجة وتلون . . . الخ

ومن الخرائب في شرقي العلا اصطبل عنتر في شمالي جبل الحويس . وهذا الاصطبل الخرب مبني فوق اكمة وله باحة قليلة الاتساع ، وفي غربيه غرفة لم يبق منها الا بعض الجدران المتداعية ، وقد كانت مبنية باحجار حرية ضخمة، وعلى طرفي باب الاصطبل المتجه الى الجنوب عضادتان ضخمتان تعلوها عتبة ، قيل في الطبوغرافية التاريخية لدوسو ان هذا الاصطبل كان حصنا وان تاريخه سنة ٥٥٧ م . والى الشرق الشمالي من جبل الحوايس قلعة الحوايس ،في قربها ضيعة تسمى باسمها ، وهذه القلعة مبنية على هضبة عالية يصل اليها القاصد مشياً لتعذر صعود الخيل اليها ، وهي قد دثرت ونقلت جميع احجارها ولم يبق منها سوى آثار سورها المردوم . وليس ثمة ما يلفت النظر سوى جب الماء المحفور يهبط اليه بدرج لولبي عريض يسع شخصين وثلاثة معا ، وقد هدمت بعض احجاره ، وعمق هذا الجب نحو مئة وخمسون متراً،فاذا وصل القاصد الى قعره يجدا طرافه مبنية باحجار متينة وفيه ماء نقي شروب .

واجل الخرائب في جنوبي العلا « علا سلمية » في ضيعة تدعي طوبا وهي ذات اطلال واسعة ، ثم في قصر التمك وقلعة الربا وقلعةطراد . وقلعة الربا قامت على قمة رابية عالية وسط ارض بطحاء وللقلعة سور كبير من حجارة ضخمة ، والباحة التي داخل هذا السور واسعة تبلغ نحو ستة هكتارات ،وفي سفح الرابية مغارة صناعية كبيرة لا يعرف آخرها ، ويذكر ايضاً في جنوبي العلا من القرى التي فيها آثار دنين والرحية « وسيأتي وصف قلعة الرحية في طريق سلمية — الحمراء » والبردونة والمشيرفة والدوسة والعنز وابو القدور وسباع والطيبة وتل الذهب ، وقيل ان في قرية علي كاسون باب غريب الشكل له قنطرة كبيرة من القرن السادس الميلادي . هذا وما برحت اطلال القصور والمباني المذكورة في العلا ماثلة ، لكن معظمها هدمت جدرانه على كر الدهور واتخذ اهل القرى

المجاورة احجاره في اشادة مساكنهم . وجل الضياع الجنوبيه في هذه الكورة ملك لسراة حماة ، والشمالية لسراة المعرة وحلب ، وفلاحوها في الشمال سنية اعراب او حضر وفي بعض قرى الجنوب نصيرية .

الطريق من حلب الى سفيرة وخناصرة وجبلي الاحص والشبيث

يخرج السائح من شرقي حلب ويسير باديء بدء في الطريق المعبدة الذاهبة نحو دير الزور ، وفي الك ٨ ينحرف عنها نحو اليمين ويسلك لحباً يمر بعد قليل بشمالي قرية النيرب ، التي بني فيها منذ سنتين اماكن لطيارات الجيش الافرنسي ، وقرية النيرب مبنية فوق اطلال بليدة قديمة لا تزال بعض آثارها ظاهرة في جنوبي القرية ، وقد كانوا وجدوا فيها في سنة ١٣١٠ ﻫ سماوتين (١) عليهما كتابات ارامية نقلتا وقتئذ الى متحف اللوفر في باريس . وفي سنة١٣٤٧ نقبت بعثة المدرسة الاثرية الافرنسية في القدس فكشفت في النيرب مدافن من القرنين السادس والسابع قبل الميلاد ، وعثرت على الواح فيها كتابات باللغة البابلية من عهد بختنصر نصوصها عبارة عن صكوك مقاولات ، وعاديات وضع بعضها في متحف حلب الاثري ، منها ناووسان وجرار من الخزف ذات شكل غريب وتماثيل صغيرة جداً تمثل محاربين وفرسان وكاهنات عاريات او لابسات ... الخ، ثم في الك ١٧ يمر السائح بقرية تل حاصل وفي الك ٢٢ بتل عرن واهل هاتين القريتين اكراد ، وكانوا وجدوا في تل عرن عاديات من الخزف، وفي الك ٢٥ سفيرة .

وسفيرة قرية جسيمة ، سكانها ٤٠٠٠ مسلمون عرب ، باحات دورها واسعة جداً ، في طرف كل باحة صف من القباب المخروطية الواسعة ، منها ما هو للبقر او الغلال ، وفيها سوق ذو حوانيت عديدة ، وقد بني فيها منذ سنتين دار للبلدية جميلة تقطنها البلدية ومدير الناحية ، لان سفيرة قاعدة ناحية كبيرة

(١) السماوة تعريب كلمة buste الافرنسية ، والسمامة Statue، والنصب Stèle

تشمل جبلي الاحص والشبيث والسهول الممتدة حولها وتتبع قضاء جبل سمعان الذي يمكث قائممقامه في حلب وفي سفيرة تل كبير ، نقبه سنة ١٣٤٧ احد الاثريين فعثر فيه عـــلى بدن صنم من الحجر الحري الاسود في ظهره كتابة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد نقل الى متحف حلب ؛ ثم وجـــد قبواً فيه هياكل بشرية ، وعلى مقربة منه باب كبير من ابواب الحصون بني بالحجر الحري المنحوت دل على انه احد ابواب سور مدينة سفيرة القديمة التي كان اسمها فيما يظن Sipri ، وان هذا السور كان مبنياً من اللبن وعرضه اربعة امتار ، وانه كان فيه ابراج مدورة في كل اربعين متراً ، وان سفيرة تعد اول ما اكتشف في شمالي الشام من المدن القديمة المحصنة على الطراز الآشوري الحثي . والارضون حول سفيرة واسعة مستوية ذات تربة رملية كلسية صفراء ، حفرت فيها آبار كثيرة تستخرج مياهها بما يدعونه غراف تدوره دابة . واهل سفيرة رغـــم عراقتهم في الفلاحة لا يزالون وسط بين اهل البادية والحاضرة ، في معارفهم واطوارهم وازيائهم ، ينقسمون الى افناد « حمائل » شتى لا يخلو التنافر من بينها ولم ار في خلال زياراتي العديدة مما يزيل هذا التنافر في هذه القرية الجسيمة المغلالة سوى مدرسة ابتدائية ذات ثلاثة صفوف لا تنقع غلة .

هذا ومن سفيرة لحب طوله ٩٥ كيلو متراً يأخذ القاصد نحو الشرق الى مسكنة « باليس » في سقي الفرات ، فيمر به من جنوبي بحـــيرة الجبول بضياع بعضها يتلو بعضاً كابي جرين وعقربوز وابو دريخة وتل جلغوم وحقلة وجنيد « وفيها ضريح الشيخ جنيد » وام عمود ، ولكل من هذه الضياع تلال صناعية تختلف بالكبر والصغر واهلها جوالي نزحت من سفيرة تباعا وقطنت . وبعد ام عمود تضيق الطريق بين سفح جبل الاحص وشاطيء بحيرة الجبول الى ان تصل الى بوز الخنزير ، وهو طرف جبل الاحص ومنتهاه ، يمتد كخيشوم الخنزير نحو الشرق ، ذو صخور حرية سوداء . وهنا تنحرف الطريق نحو الجنوب محـــاذية السفح الشرقي لجبل الاحص فتمر بضياع منها رسم النفل التي في غربيها واد فيه رسوم

بليدة تحتوي على انقاض ثلاث كنائس وآثار رصيف وقناة . ثم تمر الطريق بضياع شلالة الكبيرة وشلالة الصغيرة ومزرعة الراهب الى ان تصل الى خناصرة .

ومن اراد استئناف المسير شرقاً يمر بشاطىء بحيرة الجبول الجنوبي ويجتاز اوحالها الجافة ويغادر على يمينه السهل الافيح المحصور بين جبلي الاحص والشبيث وفيه في انحائه الشرقية ضويعات تخص مجحم بن مهيد شيخ قبيلة الفدعان احدى شعب عنزة الضاربة في شرقي ديار حلب . وفي جب علي ، وهو اسم احدى هذه الضويعات ، اطلال كنيسة ذات اعمدة . وتسير الطريق نحو الشمال الشرقي فتمر في سفح جبل الشبيث الشمالي بقرية زبيد وهي في باب واد عريض ، وفيها اطلال ثلاث كنائس لا تزال الشمالية منها واقفة ويحيط بالتي في الشمالي الغربي سور ، وقد استخرج لصوص العاديات من اهل حلب وسفيرة كثيراً من العاديات من زبد وباعوها لتجارها وغواتها . وبعد زبد يذهب السائح في برية قفراء معطشة لا يرى فيها انساً ولا حساً سوى جمال البدو وبعض مضاربهم الى ان يصل اذا قدرت له السلامة منهم في الك ١٢٠ عن حلب الى مسكنة « بالس »

ومن سفيرة الى خناصرة لحب ثاني يمر بادىء بدء في سهل سفيرة بضريح الشيخ براق (؟) ، ثم يدخل احد أودية او منافذ جبل الأحص العريضة ، فيمر بضيعة اسمها المدينة بضم الميم وفتح الدال وسكون النون ، ثم بزينيان ثم بعقربة ثم ينجرف اللحب نحو الجنوب الشرقي ويشرع بتسلق منحدرات جبل الاحص فيصل في اعاليه الى نجد شاسع طلق الفضاء ، نقي الهواء ، اول ضياعه برج اسامة وفيها برج قديم مربع ذو احجار ضخمة ، لا يزال على بعض جدته ،وعلى يسار اللحب الصالحية وبرج انطاش ورسم عميش والحوير وعلى يمينه سجور وكفر حوت وسويان وغيرها ، وبعد الحوير ينتهي النجد ويهبط اللحب واد ذي منعطفات عسيرة فيه من الضياع جب الاعمى والحبس والهربكية ثم خناصرة في الك ٤٠ تقريبا عن حلب .

وخناصرة قرية في منتهى العمران على سيف البادية وفي سفح جبل الاحص الشرقي ، كانت قبل الفتح الاسلامي وبعده بليدة عامرة تدل على ذلك كثرة ما فيها من اسس الجدران وكسور الاعمدة والعتبات الضخمة بعضها عليه كتابات يونانية، وكان حولها سور كبير لا تزال اسسه ظاهرة ، وكانت فيما مضى منزل بعض الخلفاء الايوبيين كعمر بن عبد العزيز والوليد بن عبد الملك وكانت تسمى خناصرة الاحص . قال عدي بن الرقاع لما وفد فيها على الوليد :

واذا الربيع تتابعت انواؤه فسقى خناصرة الاحص وزادها
نزل الوليد بها فكان لاهلها غيثا اغاث انيسها وبلادها

وظلت خناصرة وقرى جبل الاحص التابعة لها عامرة الا قليلا الى القرن السابع اذ يقول ياقوت عنها : خناصرة مدينة كان ينزلها عمر بن عبد العزيز وهي صغيرة وقد خربت الآن الا اليسير منها . ويقول ابو الفداء في تقويم البلدان : خناصرة وهي في طرف البرية شرقي حلب بميلة الى الجنوب على مرحلتين منها ، قال ابن حوقل : كان يسكنها عمر بن عبد العزيز احد خلفاء بني امية ا ه . ولا يعلم العهد الذي خربت به خناصرة وقراها بالكلية ، ولعله قبيل الفتح العثماني او بعده ، وقد ظلت خرابا يبابا لا سكان فيها سوى اعراب البادية الذين يمرون بها مروراً الى ان كانت سنة ١٣٢٠ جاء فريق من مهاجري الشركس من قبيلة القبارطاي فأسكنتهم الحكومة العثمانية فيها فعمروها وردوا عيث البادية عنها بسواعدهم ، وبنوا باحجارها القديمة دوراً حسنة نظيفة وحفروا آباراً واحدثوا قليلا من البساتين ، لكنهم وقد تمادت سنو المحل على ديارهم الفقيرة بالامطار اصبحوا في ايامنا هذه يتمنون لو يهاجروا مرة اخرى الى ارض تروي عطشهم وتزيل سغبهم ؛ ولو لا ان اسعفتهم الصدف في السنة الماضية بالعثور على قناة رومانية قديمة شرعوا بكريها وارواء بعض الزروع بمياهها لساءت حالتهم كثيراً .

وفي جنوبي خناصرة تمتد سباسب وقفار تصل الى جبل البلعاس ، فيها على بعد ٥٦ كيلو متراً عن خناصرة خرائب الحمام واسرية والاندرين التي بحثنا عنها في

حديث سلمية ، يمكن الوصول اليها من خناصرة بعد اجتياز تلك السباسب التي تتخللها سباخ وحولها مضارب الاعراب وجمالهم السارحة واحيانافي سني الخوف ارعال من غزاة البادية .

وجبل الاحص الذي تقدم ذكره جبل بركاني ذو احجار حرية سوداء ، عظيم المساحة ، واسع الامتداد في ظهره ، يؤلف نجداً مرتفعا عما حوله لكنه لا يعلو عن سطح البحر اكثر من سبعمائة متر . وهو يشرف في الشمال على سهول قريتي سفيرة وعسان وبحيرة الجبول وسهول نهر الذهب الممتدة الى الباب وبزاعة، وفي الشرق على السهل المحصور بينه وبين جاره جبل الشبيث، وفي الغرب على السهل الممتد بينه وبين مطخ قنسرين ، وفي الجنوب على القرى الممتدة نحو الخرايج والسباسب الذاهبة نحو الآندرين وجبل البلعاس . والنجد المتسع في جبل الأحص ، ذو تربة رملية طينية حمراء خالية من الاحجار في بعض المواقع وكثيرتها في بعض ، وهي عذى لاعيون سارية ولا مياه جارية ، وكميات الامطار تتراوح بين ٣٠٠ — ٤٠٠ ميلمتر وتقل كلما ابتعدت نحو الشرق، واجل قرى الاحص بنان وسميرية والحاجب والجعارة وكفر اكار والزراعة وبلوزة وسرج فارع وام جرن وبرج عزاوي والمغيرات والطيبة والقنيطرات وطاط ومنعايا وسويان والحوير وبيشة ورسم عميش والمنطار وغيرها . ويتفرع من هذا النجد أودية ووهاد عريضة قليلة العمق او كثيرته ، اختبأت في الجنوبية منها الحبس والهربكية وجب عليص ودار الباقات وجب الاعمى وغيرها . وتربة هذه القرى خصبة ، وحنطتها المعروفة في حلب بالاحصية مشهورة بجودتها ، ولو كان قطان هذا الجبل غير هؤلاء الاعراب الصعاليك لدر من الخيرات مايثير العجب . لان هؤلاء رغم سكنهم في القباب المخروطية الشكل منذ عهد اصلان باشا الذي تقدم ذكره في بحث كورة العلا اي منذ نحو ثلثي قرن ما برحوا في ازياء البداوة وجلفتها وجهلها واعراضها عن النظافة في المسكن والملبس وعن اجادة الحرث وتعهد الزرع ، لم يتح لهم بعد من ينورهم ويرشدهم الى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، وهم

لنقاء هواء الاحص وجودة ماءه طوال القامة عراض الهامة ، مفتولو السواعد على خلاف اهل مطخ قنسرين ذوي الوجوه المكتئبة والاجسام السقيمة والايدي المرتجفة . وأعراب جبل الاحص منقسمون الى قبائل وافخاد شتى ، لاصلة بينها ولا أرومة معروفة لمنشأها ومحل ورودها هل هو من سقي الفرات كما يزعمون أم من غيره ، وهل احد من هؤلاء متحدر من آل بشار الذين ذكر القلقشندي (صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٣٤) ان منازلهم في عهده « القرن الثامن » كانت في الاحص . واجل قبائل الاحص عدداً ومكانة (السكن) ولا يعرف معنى لهذا الاسم هل هو لانهم اسكنوا بعد ترحالهم أم لسبب آخر . وكل قرى الاحص من « املاك الدولة » كقرى مطخ قنسرين ، وكان لها ادارة خاصة تدعى شعبة ، مركزها في قرية بنان ، وكان لهذا المركز بناء كبير ذو طبقتين خاص بالموظفين ودور خاصة باسرهم ، ظلوا فيها نحو اربعون سنة الى ان بدا للحكومة منذ عهد قريب الغاء هذه الشعب ونقلها الى حلب فألغتها فقضى بذلك على مباني بنان اوكاد .

وجل ضياع الاحص بنيت فوق اطلال دارسة ورسوم طامسة لضياع سابقة تدل آثارها على عمران هذا الجبل وازدهاره اللذين داما في ظني الى القرن السابع او الثامن الهجريين . وتكاد لا تخلو ضيعة فيه من احجار منحوتة وابار وكهوف محفورة وقطع اعمدة وعتبات مكسرة مبعثرة ، اجلها في برج عزاوي التي فيها اطلال كنيسة بيزنطية لا يزال احد ابوابها ماثلا ، وفوقه عتبة عليها كتابة يونانية ، وفي ضيعة بناوي اطلال كنيسة وجدوا فيها فيما قيل منبر عليه كتابة باللغة السريانية القديمة ، وفي قرب عقربة اكمة فيها سور مدور غريب الشكل .

ومما يدل على عمران جبل الاحص فيما مضى ما ذكره ياقوت في معجمه ، قال : الاحص كورة كبيرة مشهورة ذات قرى ومزارع بين القبلة وبين الشمال من مدينة حلب واما شبيث فجبل في هذه الكورة اسود في رأسه فضاء فيه اربع قرى وقد خربت جميعها ومن هذا الجبل يقطع اهل حلب وجميع نواحيها حجارة

رحيهم وهي سود خشنة تعرف بالشبيثية ، وهو الذي ذكره النابغة الجعدي في قـــوله :

فقال تجاوزت الاحص وماءه   وبطن شبيث وهو ذو مترسم

وانشد الاصمعي لرجل من طيء وكان له ابن اسمه زافرمات في دمشق فقال :

ولا آب ركب من دمشق واهله   ولا حمص اذ لم يأت في الركب زافر
ولا من شبيث والاحص ومنتهى المـ   طـــايا بقنسرين او بخنـــاصر

وتشوق ابن ابي حصينة المعري الى الاحص فقال :

لج برق الاحص في لمعانه   فتذكرت من وراء رعانه(١)
فسقى الغيث حيث ينقطع الاوْ   عس من رنده ومنبت بانه(٢)
او ترى النور مثل مانشر البر   د حوالي هضـــابه وقنانه
تجلب الريح منه اذكى من المسـ   ـك اذا مرت الصبا بمكانه اهـ .

وجبل الاحص في يومنا ، اجرد لم أر فيه حرجة حتى ولاشجرة او نجمة يستظل بها ، ولا رندة او بانة تشم رائحتها ، واهله الاعراب اعداء لكل خضرة ونضرة لا تمكنهم جفوة البداوة من غرس شيء من ذلك حتى ولا من انشاء كروم العنب واللوز والتين وامثالها مماتعيش عذيا وتدر ريعا يدرئون عنهم بعض ما يعانونه من المسغبة ، واذا سعى بعضهم وانشأ في رقعة صغيرة ما يسوغ التمزز به لا يتورعون عن استئصاله وحرمان صاحبه في اول فرصة او ثورة . وربما كان لتكون هذا الجبل البركاني ، وقسوة صخوره الحرية السوداء التي لا تمتص ولا تحفظ الرطوبة اثر في تجرده عن الحراج والينابيع وتجرد سكانه عن الدماثة والكياسة .

---

(١) الرعان = القمم البارزة في الجبال ومفردها رعن

(٢) مكان اوعس ما تنكب عن الغلظ والارض لم توطأ (المحيط للفيروزابادي) والرند شجر ذو رائحة والبان شجر جوز الطيب

طريق حلب — الباب — (٤١ كيلو مترا)

من يخرج من حلب قاصداً الباب يمر بادئ بدء في الك٩ بكروم ضيعة تدعى النقارين ، ثم في الك ٢١ بضيعة صوران على الطريق المعبدة حديثاً ، وكنا لمضي سنتين نمر في هذه الطريق بضيعة مران الى الشمال الغربي من صوران ، ثم بضياع سرجة في الك ٢٦ فالمديونة في الك ٧٩ فدير قاق في الك ٣٢ فالباب في الك ٤١ . وليس في هذه الطريق سوى سهول ذات تلعات ومنخفضات متموجة ، وهي جرداء مطردة المناظر ، وارضها صفراء رقيقة في الغالب ، وبيوت ضياعها قباب مخروطية ، والسائر في هذه الطريق يلمح في الافق الجنوبي جبل الاحص الذي تقدم وصفه يراه ممتداً من الشرق الى الغرب كجدار رمادي اللون ، متواضع في علوه ، وفي شماليه سبخة الجبول تظهر كصفيحة من اللجين .

الباب وبزاعة وتادف . — الباب بليدة حسنة نزهة ، تحيط بها كروم العنب وبساتين الاشجار والبقول ، فهي وجارتيها بزاعة وتادف كالغوطة الخضراء في برية قفراء ، عدد سكانها ٩٠٠٠ مسلمون عرب ، خلا عدد ضئيل من جالية الارمن ، تعلو عن البحر ٣٧٠ متراً ، وفي غربيها انشئت دار حكومة حديثة جميلة ، وفي داخلها مدرسة ابتدائية حديثة وعشرة جوامع ومساجد وحمامات واسواق حافلة بالحوانيت والافران والمقاهي والمصابغ والمعاصر . والباب تمتاز على غيرها من مراكز الاقضية في ولاية حلب بنقاء هوائها وجودة وغزارة مياهها وكثرة بساتينها وكرومها ووفرة بقولها ولذة اعنابها ورمانها ، ودورها حجرية على طراز دور حلب ، وازقتها مبلطة ، فهي تصلح للاصطياف لو تيسرت فيها الوسائل .

قال ابو الفداء في تقويم البلدان : الباب وبزاعة ، من جند قنسرين . الباب بليدة صغيرة ذات سوق وحمام ومسجد جامع ولها بساتين كثيرة نزهة وبظاهرها مشهد به قبر عقيل بن ابي طالب وهي على مرحلة من حلب في الجهة الشمالية الشرقية اهـ . قلت ان هذا المشهد على ظهر اكمة مرتفعة غربي الباب فيها

مسجد ذو مأذنة ودور يقطنها خدام المشهد مع اسرهم، تظهر من كل الانحاء البعيدة عن الباب .

وقال عن بزاعة : واما بزاعة فضويعة من اعمال الباب اهـ .على حين ان بزاعة في يومنا قرية كبيره تبعد عن الباب الى الشرق نحو اربعة كيلو مترات ، بينهما ارض بطحاء متسعة ، اسماها القدماء وادي بطنان وذكروا رياضها ومياهها . قال ياقوت : وبطنان اسم واد بين منبج وحلب بينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة فيه انهار جارية وقرى متصلةقصبتها في بزاعة.وقد ذكرامرؤ القيس في شعره بعض قراه :

الا رب يوم صـــالح قد شهدته بتادف ذات التل من بطن طرطرا

وفي شمالي الباب تل صناعي اثري يعرف بتل بطمان ، تحريفا عن بطنان حوله كروم عنب واسعة ، وفي جنوبها قرية تدعى ابو طلطل وهي طرطر الواردة في شعر امرؤ القيس ، وكان على تل بطنان في القرون الغابرة دير يقـــال له دير حبيب نسبة الى حبيب بن مسلمة الفهري . وفي وادي بطنان هذا يسيل نهر الذهب الذي يبتدئ من عيون في بزاعا ثم ترفده في الباب عيون اخرى تجري في قنوات قديمة كالتي ذكرنا وجودها بكثرة في سلمية ومنبج ، فيعظم ماؤه وترتوي منه بساتين الباب ، وما لم يرتو منه يروى بالابار والغراريف ، ثم يمر بتادف وابي طلطل ، ثم ترفده عيون اخرى الى ان يصير قادرًا على تدوير بضعة ارحاء ، ثم يصب في الشتاء في سبخة الجبول لاستغناء اهل القرى التي على ضفتيه عن السقي شتاء ، فلا يزال الماء في السبخة الى زمن الصيف فيهب عليه الريح الغربي فيجف الماء شيئا فشيئا ويرسب الملح فتمتار منه البلاد ،قيل ، وسمي هذا النهر بنهر الذهب لان اوله بالقبان وآخره بالكيل ، والآن بالقبان ايضاء اي انه يزرع عليه في اوله الحبوب والبقول التي توزن بالقبان وآخره يصير ملحا وهذا ايضا يكال او يوزن . وكان اسم هذا النهر قديما فيما قيل Dardax .

قال ياقوت عن بزاعة : بلدة من اعمال حلب في وادي بطنان بين منبج

وحلب وفيها عيون ومياه جارية واسواق حسنة . قال فيها شاعر حلبي :

لو ان بزاعة جنة الخلد ما وفى رحيلي اليهـــا بالترحل عنكم

وكان يعمل في بزاعة الكرباس وهو ضرب نسيج القطن ويحمل الى مصر ودمشق ، قيل وكانت الباب وبزاعة قريتين عظيمتين في كل واحدة منهما منبر ولها بساتين نزهة جميلة ولكل منهما وال وقاض ، وكانت بزاعة حصنا منيعا له خندق ، لم يبق منها الآن اثر ، وكان الروم استولوا على هذا الحصن سنة ٣١٣ بالسيف ثم رحلوا عنه ، وعادوا في سنة ٥٣٢ وفتحوه بالامان ثم غدروا باهله ونادى مناديهم من تنصر فهو آمن ومن ابى فهو مقتول او مأسور فتنصر منهم اكثر من خمسمائة انسان ، وانقطعت الطريق على بزاعة وصـــارت على طريق بالس ، وضاق بالمسلمين الخناق الى ان استنقذه الاتابك عماد الدين زنكي سنة ٥٣٣ وخرب الحصن وابقى بزاعة عامرة . وقيل بل الذي خرب حصن بزاعة في سنة ٥١٤ جوسلين الافرنجي صاحب الرها، واما البـــاب فقد كانت كما هي الآن اكثر عمارة من بزاعا ، وكان فيها مغاير تعصم اهلها من العدو ، وكان بها طائفة كثيرة من الاسماعيلية هوجموا فاعتصموا في المغاير الى ان استخرجوهم بالدخان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وتادف في جنوبي الباب بينهما نحو ثلاثة كيلومترات ، وهي قرية كبيرة ذات اسواق واحياء ودور حافلة ،وحولها بساتين نزهة فيها عنب ورمان لذيذان وهوائها وماؤها كالباب ، لو لا ان مجاري الاقذار المكشوفة المنتشرة في ازقتها تفسد هواءها ، وفي تادف كنيس فيها مغارة في داخلهـا مقام للعزير الذي املى التوراة على بني اسرائيل بعد فقده على ما يقول اليهود ، لذلك كثيراً ما يأتونها ويصطافون فيها ، ويحتفلون فيها بعيد المظال احتفالا عاما .

وفيها يقول ابو عبدالله القيسراني :

مـا زلت اخدع عن دمشق صبابتي حتى مررت بتادف فكأنني بالنير بين

وفي جنوبي قضاء الباب على بعد نحو ٣٦ كيلو مترا تقع سبخة الجبول او مملحة

الجبول ، تجتمع اكثر مياهها من نهر الذهب الذي تقدم ذكره واقلها من الاودية المنحدرة من جبل الاحص ، فتنطبح في ارض السبخة وتصير رقراقاً متسعا يستطيل من الشرق الى الغرب بين قرية الجبول شمالا وقرى ناحية سفيرة الواقعة في سفح جبل الاحص التي تقدم ذكرها في بحثه جنوبا ، محيطه نحو خمسون كيلومتراً ، فاذا جاء عليه شهر تموز جف الماء ورسب الملح وهو في غاية الجودة ونصاعة البياض وصدق الملوحة وسرعة الذوبان في الماء ،وملحة الجبول تنتج للحكومة في العام نحو ثمانية الى عشرة ملايين كيلوغرامات من الملح تحصره ادارة بيت المال ، ولها في قرية الجبول مبان وموظفون يسهرون على حفظ الملح وجمعه ، تجد الملح امام تلك المباني قد جمع على هيئة اكوام عظيمة اعلى من بيادر الغلال ، تصعد اليها الجمال المثقلة فتفرغ احمالها وتعود ادراجها الى وسط البحيرة وهو بعد تعبئته بالاكياس ووزنه يرسل الى حلب ليباع فيها او يوزع على مختلف البلاد الشامية . وبحيرة الجبول هذه لا يوجد فيها شيء من الحيوانات المائية سوى انه عشية كل ليلة من فصل الربيع يرحل اليها للمبيت اسراب عديدة من الاوز والبط تمضي سحابة نهارها في بحيرات العمق لتقتات من حيواناتها فتقبل اليها صباحاً وترحل عنها الى بحيرة الجبول مساء فترقد فيها لا ينغصها فيها شيء من الهوام التي توجد في البحيرات العذبة كالبعوض والقمل اذ لا توجد لها فيها اثر بسبب ملوحة مائها .

وفي قضاء الباب كثير من القرى التي يقطنها اعراب لا يزالون على الصعلكة وكثير من عادات البداوة بعضهم فلاحون مقيمون وبعضهم رعاة رحالون اجلهم عدداً وقدراً الحديديون من افنادهم الغناطسة والعصيبات والتويمات والبوكردي والبوغيث والابوثابت والابوعطيري ، ثم الوهب والكيار وبني زيد والمجادمة والابو بطوش والهنادي،وهؤلاء اعقاب اعراب الهنادي المصريين الذين جاءوا في جيش ابراهيم باشا سنة ١٢٤٨ ، والابوعاصي والابوجميل والفردون والابو سبيع ، وفي شمالي قضاء الباب ناحية تدعى صوسنباط فيها نحو خمسة عشر

قرية يقطنها اكراد ينتسبون لقبائل اسماؤها : قره كيج وكدكان وشيخان وبش التي ، وقرى عديدة اخرى يقطنها تركمان فاتني ضبط اسماء قبائلهم . وفي جنوبي هذا القضاء ايضاً ناحية دير حافر تمتدقراها الى جنوبي الطريق الآخذة من حلب الى باليس « مسكنة » حيث سيف البادية .

طريق الباب — منبج (٤٥ كيلو مترا)

يخرج السائر من شرقي الباب ويجتاز الوادي المتسع النضر الممتد بينها وبين بزاعة ، وبعد ان يغادر بزاعة على يمينه ينطلق نحو الشمال الشرقي في برار جرداء اعذاء مطردة المناظر ، بعثرت فيها كثير من الضياع والضويعات ذات القباب المخروطية ، منها الخفية والعجمي وجب البرازي على يساره في الجهة الغربية الشمالية ، وزرزور وام شكيف وام عدسة وتل تورين على يمينه في الجهة الشرقية الجنوبية . ثم يمر في الك ٢٣ بضيعة تدعى العريمة مبنية فوق رسوم دارسة ممتدة على مسافة غير يسيرة ، تدل على عمرانها ومكانتها الزائدتين فيما مضى ، لكن لم نعثر على اصل لهذه الخربة ولا خبر ، حتى ان الاثري كيليوم راى الذي زارها في حدود سنة ١٨٦٠ لم يجد فيها وقتئذ سوى كتابة مدثورة على حجر استطاع ان يفهم منها ان هذا الحجر لاعلام مسافات الطريق وان عليه اسم الامبراطور تراجان . ولاتزال آثار هذا الطريق الروماني ظاهرة بين الباب ومنبج . وفي العريمة مخفر بني حديثاً لجنود الدرك . ثم يمر السائر بارض العوسجلي الصغيرة ويترك على يساره الشوزقلي ، ثم يجتاز ارض ام عدسة ، ويترك على يساره كواكب آبار عظيمة لقناة قديمة كبيرة ممتدة من الغرب الى الشرق ، الى ان يشرف على بحيرة منبج وبلدتها ومبانيها الغربية الحديثة .

منبج . — منبج بليدة صغيرة ، كان لها شأن وذكر غير يسيرين قبل الاسلام وبعده ، تبعد عن حلب الى الشمال الشرقي زهاء ٨٠ كيلو متراً ، وعن شاطئ الفرات الايمن ١٥ كيلو متراً . وهي تقع في فضاء واسع مرتفع عما حوله قليلا

ينتهي بتلعات ومنبسطات متموجة تنحدر نحو الفرات في الشرق وتمتد نحو نهر الساجور في الشمال ونهر ابو قلقل في الجنوب ، وهما من روافد الفرات، وتتجه نحو ضياع وضواحي بليدتي الباب وبزاعة في الغرب. ومنبج تعلو عن البحر ٤٤٧ متراً ، سكانها ٣٨٠٠ منها ١٨٠٠شركس و ١٠٠ ارمن والبقية عرب اخلاط من حلب والباب وغيرها . وقد بني في غربيها منذ سنتين دار حديثة جميلة للحكومة ومثلها للبلدية وبني قبل عشر سنوات مدرسة للبنين ، وفيها سوق صغير يحتوي على حوانيت ومقاهي بنسبة الحاجة ، وفي غربيها بحيرة صغيرة مياهها من رشح القنوات القديمة الكثيرة ، يقام على شاطئها كل يوم جمعة سوق عام لبيع وشراء الدواب . وفي منبج مسجد جامع قديم من آثار نور الدين محمود زنكي ، بني سنة ٥٥١ كما زبر على حجرة في مأذنته ، رممه السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٣٠٤ بعد ان كان داثراً ، وفي جنوبيها مسجد آخر فيه قبر الشيخ عقيل المنبجي . وهواء منبج جيد وماؤها شروب وغزير ، ولا يشوبها سوى الرياح الغربية التي تهب في الربيع والصيف بشدة هائلة تثير الغبار وتعمي الابصار ، ولو عمرت ضاحيتها وزادت مساحة مغارسها لخف ضرر هذه العواصف في الجملة .

منبج بلدة حثية وآرامية ، واسمها الحالي مشتق من كلمة Mabbog مبوج ، الذي اصطلح عليه منذ اقدم العصور سكان شمالي الشام ، ولما جاء اليونانيون السلوقيون سموها Hierapolis هيرابوليس ومعناه المدينة المقدسة ، لأنها كانت العاصمة الدينية لكل بلاد الآراميين . وقد اسهب المؤرخ لوسيان في وصف ما كان عليه هيكل هيرابوليس من الفخامة والغنى ، وانه كان اعظم معابد الآراميين في بلاد الشام في تلك الاحقاب ، كان يعبد فيه رب العواصف هاداد وربة المياه آتراكاتيس التي كانت تعد ايضا ربة بلاد الشام . وكان تمثال هذه الربة يمثلها راكبة على مركبة تجرها الاسود وفي يدها آلة موسيقية وعلى رأسها تاج . وكان الوف من الحجاج يتوافدون في ايام الاعياد لزيارة هذه الارباب والاحتفال بها . حتى كانوا يضحون لها الاطفال ، يضعونهم في اكياس ويقذفون بهم الى

االبحيرة من أعلى أروقة الهيكل . وكان حول الكاهن الاكبر كثير من الكهان الصغار ، الذين يتقبلون النزور وكانوا لا يكتفون بذلك بل يتنقلون بعد الاعياد في البلاد كالمتسولين ويجبون الصدقات . وقد أثرت ديانة هيرابوليس في عقول اليونانيين وانتشرت وقتئذ عبادة الربة آتراكاتيس في اوربا . وذلك تارة على يد اليونانيين المتطوعين في خدمة ملوك الشام الذين كانوا يرون تلك العبادة ويعجبون بها ، وتارة على يد التجار الشاميين الذين كانوا يتجولون ويصلون الى بلاد الغرب .

وخلا المكانة الدينية فقد كان لمنبج مكانة حربية ، وصارت من اهم مراكز الجيش الروماني الذي كان يفد الى فرضة السويدية ويمر بانطاكية ثم يأتي الى منبج ، ليتوزع منها ويساق للغارة على ما بين النهرين وبلاد الفرس . وكانت منبج مدينة محصنة . شاد فيها يوستنيانوس اسواراً منيعة عجز عن اقتحامها كيخسرو ملك الفرس لما جاء لمهاجمة مدن شمالي الشام ، فاكتفى بمطالبة اهلها بثلاثة آلاف دينار . ولما مر القيصر يوليانوس في القرن الرابع الميلادي بمنبج وجد هيكلها خراباً ، ولا يعلم سبب وزمان خرابه .

ولما جاء المسلمون قدم ابو عبيدة بعد فتح حلب وانطاكية عياض بن غنم الى منبج ثم لحقه وقد صالح اهلها على مثل صلح انطاكية فانفذ ذلك ، وجعلت منبج في عهد الامويين من اعمال جند قنسرين ، وفي زمن هارون الرشيد جعلت مدينة العواصم كما قدمنا ذكره في بحث قنسرين . وتقلبت بمنبج الاحوال كما جرى في متبوعتيها قنسرين وحلب ، وتعاورتها ايدي كثير من ملوك المسلمين وامرائهم . لكن مؤرخي العرب لم يذكروا من اخبارها الا نتفا التقطناها . منها انه في سنة ١٣٢ جاءها عبد الله بن علي بن عباس فاتح الشام للعباسيين لاحقاً مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية فنزل بها وراسل منها اهل حلب بالبيعة للعباسيين . وفي سنة ١٧٣ لما تولى ابن اخيه عبد الملك بن صالح بن علي جند قنسرين اقام في منبج وابتنى فيها قصراً لنفسه وبستانا الى جانبه كان يعرف به ، وابتنى اخوه عبد الله مثله في سلمية كما ذكرناه في حديثها ، وكما بنى ابو همام من قبل قصر بطياس شرقي باب النيرب

في حلب . وفي سنة ٢١٥ سار الخليفة المأمون لغزو الروم ووصل الى منبج ثم الى انطاكية ثم الى المصيصة وطرسوس ودخل منها الى بلاد الروم وغزا وعاد . وفي سنة ٢٢٣ بلغ المعتصم ان العباس بن المأمون يريد ان يثب عليه ويأخذ الخلافة منه فدعاه وسلمه الى احد قواده فلما وصل الى منبج طلب العباس الطعام فاكل ومنع الماء حتى مات بمنبج . وفي سنة ٣٥١ اسر الروم الشاعر الشهير الامير ابافراس الحارث بن سعيد بن حمدان من منبج وكانت اقطاعا له متقلداً بها من قبل ابن عمه سيف الدولة وحملوه الى القسطنطينية وظل في اسرهم اربع سنوات وهو يراسل سيف الدولة بغرر القصائد ويطلب فكاكه حتي افتكه ، وفي سنة ٤٦٢ استولى الروم على منبج وكانت في حوزة محمود بن نصر بن مرداس وقتلوا اهلها ونهبوها وخربوا اسوارها ثم رحلوا عنها لجوعهم ، وفي سنة ٤٧٩ جاء السلطان ملكشاه السلجوقي الى شمالي الشام وقصد منبج فملكها وكانت في حوزة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي وسار منها الى حلب ، وفي سنة ٥٠٤ سار الافرنج بقيادة تنكرد صاحب انطاكية وملكوا الاثارب وزردنا وقتلوا اهلهما ، ثم ساروا الى منبج وبالس فوجدوهما قد اخلاهما اهلهما فعادوا عنهما . وذكر مؤرخو الافرنج ان معركة هائلة حدثت حول اسوار منبج في سنة ١١٤٢ م بين جوسلين الافرنجي صاحب الرها وبلك بن بهرام بن آرتق صاحب حلب وان الدائرة دارت على بلك ولم يذكر مؤرخو العرب هذه المعركة ، بل ذكروا ان جوسلين في سنة ٥١٤ اغار على جموع العرب والتركمان وكانوا نازلين بصفين فغنم من اموالهم ومواشيهم شيئاً كثيراً ثم عاد الى بزاعة فخربها ، وذكروا في سنة ٥١٥ كان بين بلك بن بهرام بن ارتق وبين جوسلين حرب انتصر فيها بلك (ولعل ذلك كان حول اسوار منبج وكانت النتيجة على خلاف قول مؤرخي الافرنج) وقتل من الفرنج واسر جوسلين واسر معه ابن خالته كليام وجماعة من فرسانه المشهورين الى ان فكهم في سنة ٥١٧ الافرنج قسراً من المكان الذي كانوا محبوسين فيه . وفي سنة ٥١٨ قتل بلك ، وسببه انه قبض على

الامير حسان البعلبكي صاحب منبج وسار الى منبج فملك المدينة وحصر القلعة فبينما هو يقاتل اذ اتاه سهم فقتله لا يدري من رماه فاضطرب عسكره وتفرقوا وخلص حسان صاحب منبج وعاد اليها وملكها . وفي سنه ٥٧١ سار السلطان صلاح الدين الايوبي الى منبج فحصرها وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي ففتحها عنوة واسر ينال واخذ جميع موجوده ثم اطلقه ، وفي سنة ٥٨٦ اقطع السلطان صلاح الدين منبج وقلعة نجم الى ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما بيده في حماة والمعرة وسلمية وغيرها . وبعد وفاته انتقلت الى ابنه المنصور ، الى ان تنازل عنها في سنة ٥٩٦ بامر الملك العادل الى ابن المقدم الاميرعز الدين ابراهيم ، ولما توفي عز الدين ابراهيم في سنة ٥٩٧ انتقلتا الى اخيه شمس الدين عبدالملك . وما كاد يستقر هذا في منبج حتى سار اليها الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين الايوبي صاحب حلب وحاصرها وملك منبج وعصى عبدالله بالقلعة فحاصره ثم انزله بالامان واعتقله وملك قلعة منبج ، ثم سار الى قلعة نجم وبها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها ايضا . وارسل الملك الظاهر الى الملك المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على ان يصير معه على عمه الملك العادل فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل فلما آيس الملك الظاهر منه سار الى المعرة وكفر طاب وفامية وحماة واجرى في هذه البلاد ما ذكرناه في ابحاثها . وفي سنة ٥٩٨ خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفا من انتزاعها منه واقطع منبج بعد ذلك عماد الدين احمد بن سيف الدين علي بن احمد المشطوب . وفي سنة ٦٣٨ كثر عبث الخوارزمية وفسادهم في بلاد حلب بعد ان كسروا عسكر حلب مع المعظم تورانشاه بن صلاح الدين ثم ساروا الى منبج وهجموها بالسيف وفعلوا من القتل والنهب والفحش مثلما ارتكبه التتر ثم رجعوا الى بلادهم ، وفي سنة ٧٤٤ وقعت زازلة عظيمة خربت بحلب وبلادها اماكن لا سيا منبج اقلت ساكنيها وازالت محاسنها وجعلت ابن الوردي يقول فيها :

منبج اهلها حكوا دود قز　　عندهم تجعل البيوت قبوراً
رب نعمهم فقد الفوا من　　شجر التوت جنة وحريرا

مما يدل على ان منبج كانت متقدمة في تربية دود الحرير وزراعة التوت .
وذكر ابن الوردي في حوادث سنة ٧٤٩ التي اشتد فيها الطاعون الهائل انه ظهر بمنبج على قبر النبي متى وقبر حنظلة بن خويلد اخي خديجة (رضه) وهذان القبران بمشهد النور خارج منبج وعلى قبر الشيخ عقيل المنبجي وعلى قبر الشيخ ينبوب وهما داخل منبج وعلى قبر الشيخ علي وعلى مشهد المسيحات شمالي منبج انوار عظيمة حتى انبهر لذلك اهل منبج .

فيظهر مما ذكرناه ان المحاصرات والكوارث المتوالية ، لا سيما زلزلة سنة ٧٤٤ وطاعون سنة ٧٤٩ ، جعلت اكثر منبج خرابا كما ايد ذلك ابن جبير وابو الفداء ايضا فيما نتقله عنهما ، الى ان جاء تيمورلنك سنة ٨٠٤ فاجهز عليها بالكلية وجلا عنها من سلم من اهلها ، واستمرت خرابا يبابا يأوي اليها رحالة الاعراب والتركمان الى سنة ١٢٩٥ ، وفيها قدم على حلب فريق من قبيلة ابزاخ الشركسية مهاجرة من بلاد القفقاس فاقطعتهم الحكومة العثمانية خربة منبج فتديروها وبنوا لهم من انقاضها بيوتا سكنوها . وفي سنة ١٣٠٢ امر السلطان عبد الحميد بترميم جامع منبج وبناء مدرسة على نفقة خزينته الخاصة ، ثم تهافت على منبج اخلاط من العرب من اهل حلب والباب وغيرها تجار وصناع حتى فاقوا الشركس في العدد وتقدمت منبج في العمران . وبعد ان كانت محرومة من البساتين والاثمار والبقول اخذ اهلها منذ عشر سنوات يغرسون فيها البساتين ويحفرون الابار ويزرعون الخضر ، حتى كادت تستغني عن غيرها في ذلك . ولو تسنى لهم كري بعض القنوات العظيمة القديمة التي كانت سبب عمران منبج وازدهارها فيما مضى واسالة مياهها ، كما يعمله اهل سلمية بقنواتهم القديمة المشابهة بالطول والاتقان وكثرة العدد لما في منبج ، لاستفادوا واثروا ، واعادوا عمران منبج الغابر الى ما كان عليه جله ان لم يكن كله .

واسمع الآن كيف يصف الرحالة الاندلسي ابن جبير عمران منبج لما مر بها في سنة ٥٧٩ قال: منبج بلدة فسيحة الارجاء، صحيحة الهواء، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء، جوها صقيل ومجتلاها جميل، ونسيمها أرج النشر عليل، نهارها يندي ظله وليلها كما قيل فيه سحر كله، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الاشجار مختلفة الثمار، والماء يطرد فيها ويتخلل جميع نواحيها، وخصص الله داخلها بآبار معينة شهدية العذوبة سلسبيلية المذاق تكون في كل دار منها البئر والبئران، وارضها ارض كريمة تستنبط مياها كلها، واسواقها وسككها فسيحة متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً واعالي سوقها مسقوفة، وعلى هذا الترتيب اسواق اكثر مدن هذه الجهات. لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الاحقاب حتى اخذ منها الخراب، كانت من مدن الروم العتيقة ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها، ولها قلعة حصينة في جوفيها تنقطع عنها وتنحاز منها اهـ.

اما ياقوت في سنة ٦٢١ فيقول: منبج بلد قديم وما اظنه الا روميا، ذكر بعضهم ان اول من بناها كسرى لما غلب على الشام « هذا خطأ من ياقوت »، والرشيد اول من افرد العواصم وجعل مدينتها منبج واسكنها عبد الملك بن صالح ابن علي بن عبد الله بن عباس.. وهي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وارزاق واسعة في فضاء من الارض كان عليها سور مبني بالحجارة محكم بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ وشربهم من قنى تسيح على وجه الارض وفي دورهم آبار اكثر شربهم منها لانها عذبة صحيحة وهي لصاحب حلب في وقتنا هذا ... ومنها البحتري وله بها املاك وقد خرج منها جماعة من الشعراء فاما المبرزون فلا اعرف غير البحتري واياها عنى المتنبي بقوله

قيل بمنبج مثواه ونائله في الافق يسأل عمن غيره سألا

وقرأت بخط ابن العطار: منبج بلدة البحتري وابي فراس وقبلهما ولد بها عبد الملك بن صالح الهاشمي وكان اجل قريش ولسان بني العبـــاس ومن يضرب به

المثل في البلاغة ، وكان لما دخل الرشيد الى منبج قال له هذا البلد منزلك قال يا امير المؤمنين هو لك ولي بك ، قال كيف بناؤك به فقال دون بناء بلاذ اهلي وفوق منازل غيرهم ، قال كيف صفتها قال طيبة الهواء قليلة الادواء ، قال كيف ليلها قال سحر كله ، قال صدقت انها لطيبة قال طابت يا امير المؤمنين واين يذهب بها عن الطيب وهي برة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء في فياف فيح بين قيصوم وشيح ، فقال الرشيد هذا الكلام والله احسن من الدر النظيم ا هـ .

واما ابو الفداء فيقول في تقويم البلدان : منبج ، من جند قنسرين . قال في الانساب ومنبج احدى بلاد الشام بناها بعض الاكاسرة الذي غلب على الشام وسماها منبه وبنى بها بيت نار « وهذا خطأ ايضـــا » . قال ابن حوقل وهي في البرية الغالب على مزارعها الاعذاء وهي خصبة . اقول وهي كثيرة القني السارحة والبســـاتين وغالب شجرها التوت لاجل القز ؛ ودور سورها متسع كبير ، وغالب السور والبلد خراب اهـ .

وبليدة منبج الحالية لا تبلغ خمس القديمة بالجسامة والعمران ، يدل على ذلك عظمة سورها وسعته . وكان هذا السور على شكل مضلع غير منتظم مفتوح نحو الجهة الغربية الشمالية ، وكانت البحيرة على يسار مدخله . وقد صغرت هذه البحيرة الان عما كانت عليه لما وصفها المؤرخ لوسيان لدثور القنوات التي كانت تغذيها وقلة ماء ما بقي منها سالما . وكان في هذه البحيرة سمك مقدس معلق في بدنه حلي ، وكان الهيكل العظيم الذي تقدم ذكره وسط هذه البحيرة وهو من المرمر الناصع ، كانت الحجاج تصله سباحة وتقدم نذورها له ، وفي الاعيـاد الكبيرة كان يؤتى باصنام بقية الآلهة ، وتصف حول شاطئ البحيرة وتقام معالم الافراح والقصف واللهو . ولم يبق الان من اطلال منبج القديمة وآثار مجدها الغابر ما يستحق الذكر سوى كسور احجار واعمدة وقواعد وتيجان اعمدة يعثر عليها الاهلون اثناء الحفر ، تقع عليها عين الزائر بكثرة عند دخوله هذه البليدة وتجواله في احيائها . وثمة في خارج منبج الى الغرب اطلال قصرين قديمين ينسبان للبنات

احدهما لاصحابه من الشركس والثاني لاصحابه من العرب فهل هما قصور عبد الملك بن صالح العباسي ؟ . . . وكان احسن الاطلال حالا لمضي عشر سنوات سور منبج ، الى ان نبشته دائرة الآثار الافرنسية في حلب بايدي المسجونين وبعثرت مشخصاته لعلها تعثر بينها على عاديات حتى غادرته كالرسوم الداثرة ، وقيل انهـا لم تعثر على ما يستحق الذكر . وما عثر عليه غيرها في منبج من قبل ومن بعد نقل الخفيف الحمل الغالي الثمن منه الى خارج البلاد ، وابقي الغث امام دار الحكومة وهي انصاب اشخاص موتى ، او ارسل الى متحف حلب ، ومنها في هذا المتحف تمثال من الحجر الحري الاسود لكاهن منبج الاكبر يقدم نذر للالهة ، ورداثه كرداء الكهان العظام مهدب بخملات جرسية الشكل . وكان الاثري الافرنسي كيليوم راي زار منبج في حـــدود سنة ١٨٦٠ ووجد قرب البحيرة تلة انقاض تعود للهيكل ، عثر بينها على تمثال صغير للالهة اترا كاتيس الذي ذكرنا اوصافه . ولا يعلم الآن مصير هذا التمثال .

واللغة السائدة في منبج العربية تنازعها التركية والشركسية والكردية لوفرة المتكلمين بهذه اللغات فيها وفي قضاءها . وماخلا نفس منبج وبضعة قرى تدعى الحر في الجنوب يكاد يكون كل قضاء منبج من « املاك الدولة » التي كان لها فيه شعبتان واحدة لمنبج والثانية لمسكنة ، كان مركزهما في قرية ابو قلقل على بعد نحو ١٧ كيلو متراً الى الجنوب من منبج ، وفي قرية ابو قلقل ينبوع كبير انشأ في جواره منذ نصف قرن بستان عظيم فيه اشجار باسقة متنوعة وبقول وافرة ، وفي طرفه دور خاصة باسر موظفي املاك الدولة وبناء خاص بالشعبتين فيه مسجد ومدرسة . ظل هذا الحال منذ عهد السلطان عبد الحميد الى ان الغت الحكومة منذ عهد قريب شعب هذه الاملاك ونقلتهـــا الى مراكز الاقضية وبدلت شكلها السابق ، وكان هو الانسب ، فمالت الدور والبساتين الى الخراب وافل نجم القرى والمزارع بعد العناية والرعاية اللتين كانت لها ، وساء حالها بعد ان توالت سنو الجدب وتكررت الازمات والنوائب المالية والزراعية.

وقضاء منبج واسع الانحاء ، فيه ثلاث نواح : منبج ابوقلقل ومسكنة «باليس» وهو وافر المحاصيل الشتوية فحسب في ارضينه الاعذاء ، لتعذر استغلال الصيفية بحكم اصفرار او بياض تربته ورقتها وقلة امطاره بالنسبة لاقضية حلب الغربية ، الا في سقي الفرات المسمى « الزور » فالزروع الصيفية تجود اي جودة رغم سذاجة وسائل الري وضعفها فيه ، ولو تسنى حفر وتفجير القنوات القديمة المنتشرة بكثرة حول منبج وفي بعض قراه الجنوبية كالخفسة وما جاورها لتوسعت الزراعة المسقوية وانفرج العسر الضارب اطنابه في هذه الرباع . وجل فلاحي هذا القضاء اعراب لايزالون على الصعلكة وكثير من عادات البداوة رغم مرور اكثر من ثلثي قرن على تحضيرهم ، وهم ينتسبون لقبائل وافناد شتى كالعون والابو سلطان والابو دبش والحمدون والغنايم واولاد علي والابو بطوش وبني سعيد وبني عصيد والغلاظ والابوبنا والهنادي « وهؤلاء اعقاب اعراب الهنادي المصريين الذين جاءوا في جيش ابراهيم باشا سنة ١٣٤٨ » والتويجات والابوحسن والابو مانع والابوصالح والابومسرة والغانم وغيرهم .

والشركس القاطنون في منبج ، لايزالون محتفظين بكيانهم وطابعهم ، يجدر بنا وقد تكرر ذكرهم ان نبحث عنهم قليلا ، فالشركس موجودون في بلاد الشام في شرقي حلب في منبج وخناصرة ، وفي غربيها في سهل العمق في قرى حران وعم « يني شهر » والريحانية وبدركة ، وفي ولاية دمشق في قضاء سلمية في قرى تل سنان وتل عدا وذيل العجل ، وفي قضاء حمص في غربي العاصي في تليل وفي شرقيه في عسيلة ودير فور وابو امامة وتل عمري وعين ظاط ومريج الدر ، وفي قضاء القنيطرة في المنصورة والقنيطرة والصمدانيه وعين زيوان وعين صرمان وصرمان وموسية وبئر عجم وبريقة وجويزة وفزارة وخشنية وفحام ، ولهم قرب جبلة اللاذقية قرية عرب الملك ، وفي شرقي دمشق مرج السلطان ، وفي شمالي لجا حوران بلاي وبويضان ، وفي البلقاء « شرقي الاردن» الزرقاء والرصافة وعمان وعين صويلح ووادي السير والناعور

وجرش، وفي فلسطين غربي طبريا كفر كما وفي قرب صفد الريحانية . والشركس في اوطانهم في بلاد القفقـــاس مؤلفون من قبائل شتى تدعى بزادوخ واوبوخ ونوتوخاج وشابسيغ وآبازاخ وناقوغاي وقبارطاي وبسلني وآباظة وحاتوقواي وجامكواي، اختلط هنا بعضهم ببعض وانضم اليهم من قبائل الطاغستان والشاشان والقراشاي والقوصحة ، ذوي اللغات والطباع المختلفة ايضا ، جمع خالطهم بحكم الضرورة كما في القنيطرة او سكن لوحده كما في ديرفور شمالي حمص ورأس العين في الجزيرة الفراتية وغيرهما . وهؤلاء هاجروا من ديارهم في بلاد القفقاس بعد ان قضوا اكثر من سبعين سنة يذودون عنها ضد هجمات جحـــافل الروس ويستبسلون استبسالا فاقوا به جميع الشعوب الاسلامية التي ذادت عن حماها في القرنين الماضي والحالي . ولما اعيتهم القوة والكثرة وخذلتهم الدولة العثمانية في جهادهم كله ، ولم تف انكلترة ايضا بالمعونة التي كانت اذ ذاك تمنيهم بهـــا سرآ نكاية باخصامها الروس ، لم يشاءوا البقاء تحت نير الاستعمار والاستعباد فجلوا عن اوطانهم افواجا افواجا وتباعا منذ سنة ١٢٧٧ وهاجروا الى البلاد العثمانية فاقطعتهم الدولة قرى كثيرة مبعثرة في انحاء مختلفة من شمالي الاناضول ووسطه وغربيه وشرقي بلاد الروملي . لكنها وقد كان ذلك في عهد السلطان عبد العزيز الطافح بالفوضى — لم تحسن توزيعهم وايواءهم في الاماكن المناسبة لهم فزادت في تمزيق شملهم وتشتيت صدعهم فوق ما نالهم من ذلك خلال هجرتهم ، وهلك معظمهم يومئذ بالبؤس والجوع والامراض . ثم عادت عقيب الحرب الروسية التي جرت في سنة ١٢٩٤ واجبرت من كانت اسكنته في بلاد الروملي على هجرة ثانية نزولا عند احكام عهدة برلين التي قضت باخراجهم من تلك البلاد، ونقلت معظم هؤلاء الى بلاد الشام واحلتهم في القرى التي عددناها . وقراهم هذه كانت خرابا يبابا وجلها على سيف البادية الشرقية فعمروها بعـــد ان هلك كثير منهم ريثما تمكنوا من الاطمئنان الى منـــاخ هذه القرى وبيئتها ، وريثما ردوا عيث البادية بسواعدهم عنها .

والشركس رغم مرور اكثر من نصف قرن على سكناهم في الشام ، مابرحوا محتفظين بلغاتهم واكثر ازيائهم وطبائعهم وعاداتهم ، وهم يمتازون في كل مكان عن مجاوريهم بالرشاقة والاناقة والنفس الابية والعصبية والفروسية ونظافة المسكن والملبس ، وقليل من العناية بالحراثة وتربية الماشية ، لكن ليس بينهم الا عدد يسير من المتعلمين تعلما اوليا او متوسطا وندر من اكمل العالي واقل من ذلك من اتقن العربية كتابة والقاء ونحوه ايضا من انصرف الى الصناعة والتجــــارة او احتجن ثروة من الزراعة . وكانت افئدتهم قبلا مع العثمانيين وهوى اكثرهم في الجندية نشأ بينهم ضباط وقواد برزوا بوفائهم وحسن بلائهم في خدمة الدولة العثمانية . ولا يزال هذا الهوى في زماننـــا يحدو برجالهم نحو مسالك الشرطة والدرك وسرايا المتطوعة المرتبطة بعمال الدولة المنتدبة في شمالي الشام وجنوبه ، او خفارة المزارع ووكالة الضياع وغيرها مما فيه ركب وضرب وطعن ، يصدقون الخدمة ويتفانون في سبيلها ، ويكاد هذا الهوى الضار يقرضهم او يضعفهم .

مغارة ام السرج . — في جنوبي منبج وغربي ابو قلقل مغارة عظيمة صناعية كنت بحثت عنها في مقال درج في الجزء ١١ و١٢ من المجلد السادس (سنة ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م) من مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ، انقله هنا لمناسبته . قلت : لا اغادر في سياحاتي البحث عن الآثار القديمة والمشــاهد الطبيعية. وذلك توصلا لاكتناه غوامض التاريخ والجغرافيا اللذين لايزال كثير من اوابدهما في بلادنا محتاجاً للتحقيق . فبينما كنت اتجول في قضاء منبج « شمالي شرقي حلب » خلال شهر تموز ١٩٢٦ ذكر لي ان هنالك مغاور تخلب الالباب بعظمتها ودقة صنعها وغرابة منظرها . ولما كنت قد زرت في القسطنطينية مغارة (كوجك جكمجة) احدى محطات سكة حديد الروملي ورأيت ما حوته من الاثار الجيولوجية البديعة املت ان اشاهد ما يشبهها في المغاور التي ذكرت لي

فاسرعت الى زيارتها . وهي تبعد عن منبج نحو ١٧ كيلو متراً الى الجنوب وعن حلب ٨٨ كيلو متراً الى الشرق .

استصحبت من القرية القريبة للمغاور واسمها « مقبلة حسن اغا » ادلاء ومصابيح . فسرنا نرتقي جبلا مستطيل الشكل يمتد من الغرب الى الشرق . وبعد ان سرنا نصف ساعة وصلنا الى ذروته فاشرفنا على ما حوله من السهول الشاسعة ، رأينا في شرقنا نهر « الفرات » ينساب عن بعد حاملا مياه بلاد الترك والكرد الى ثغر العراق والخليج الفارسي ، وفي شمالنا بلدة « منبج » تندب مجدها القديم وحولها هضبات متسلسلة حتي نهر « الساجور » احد فروع الفرات وما ورائه من تخوم تركيا الحديثة ، وشاهدنا في الغرب قريتي تاتف وبزاعة الشهيرتين في تاريخ الاسرائيليين والصليبيين وقد علتهما اكمة قام فوقها مسجد ذو مأذنة عالية باسم احد الصلحاء المسمى « الشيخ عقيل » وهو عقيل بن ابي طالب فيما قيل ، ورمقنا في الجنوب براري وفيافي تضيع بعد حين في الافق الغـــارب في بادية الشام .

في ذروة هذا الجبل المطل على تلك المناظر الجميلة والمحفوفة بذكريات عريقة في قدم التاريخ استقبلنا شقا كثير الطول والعرض ، نقر في الصخر كما تنقر اخاديد السكك الحديدية في ايامنا ، وجعل على مايظهر منفذاً لما بعده تقف فيه الحراس ، وتحول دون تخطي الغرباء منه ، وبعد ان عبرنا الشق دون عائق انتهينا الى وسط ساحة فسيحة تحيط بها جدران عالية من الصخر الابيض ، نقرت فيها كهوف منتظمة ، بعضها بجانب بعض ، وهي تشبه باصطفافها حوانيت الاسواق في المدن وربما كانت خاصة بشراء الحاجات وبيعها من سكان المغاور التي نحن بصددها . وبعد ان اجتزنا الساحة اشرفنا على اعظم المغارات واجلها شأناً وهي المسماة « مغارة ام السرج » . سميت بذلك لان شدة ظلامها تجعل استعمال السرج فيها لازماً . وفوهة هذه المغارة واسعة بقدر خمسة عشر متراً ملئت بجلاميد الصخور المتكسرة والمتدحرجة من سقف الفوهة وقمة الجبل . وقد تشعث بذلك باب

المغارة وردم درجهـا بأسره فأصبح النازل محتاجا للزحف على اليتيه تارة والاستمساك بهذا وذاك من الاحجار تارة اخرى .

انحدرنا من الفوهة على النحو الذي ذكرته مقدار خمسين متراً الى ان وصلنا الى منستوى المغارة حيث قل النور وارخى الظلام سدوله : فأضاء الادلاء المصابيح وساروا امامنا وتبعناهم نتوكأ على العصي التي حملناها وتتلمس الجدران بأيدينا واخذنا نجتاز مضايق ومعاطف ونجتاز مخارم وفجاجاً ونصادف اقبـاء عظيمة وابهاء وسيعة . وكل ذلك محفور في الصخر واثار الحفر ونقر الدبابير والمطارق والازاميل بارزة تكاد تظهران الحجارين والنحاتين قد انتهوا من اعمالهم وخرجوا في تلك الساعة . وتجد في وسط الجدران كلها كوات صغيرة بعضها فوق بعض تمتد من الارض الى السقف ، وهي تشبه مايعمل في جدوان الابار لوضع الارجل اثناء الصعود والنزول اليها ، وتجد في محلات عديدة ايضا كوات اكبر منها لوضع السرج او المصابيح ولا تزال اثار الدخان ظاهرة فيها حتي الان .

وقد وجدت سعة كل بهو لا تقل عن استيعاب ماتي شخص او اكثر ، كانوا يجتمعون فيها على ما يظهر لاستماع الخطب او العظات الدينية او للمداولة في في امور هامة . وذلك لان بعض الابهاء يحوي في صدره مقاعد ومصاطب منقورة في الجدار جعلت لجلوس علية القوم ، وفوق الجمع مقعد كالاريكة كان خاصا بالقائد او الـكاهن الاكبر في الغالب .

وقد تذكرت وانا اجوس خلال تلك الدهاليز والغيران حـالة السائحين اللذين وصفهما الروائي الافرنسي الشهير (جون فرن) في احدى رواياته العلمية المسماة « رحلة تحت الارض » . فقد دخل السائحان كهفاً في جبال الالب وظلا يسيران في احشاء الارض ويجتازان اجوافها وسراديبهـا المظلمة ويشاهدان عجائب تكون طبقات الارض وادوارها الجيولوجية الاربعة ، وما حوته من احافير النباتات والحيوانات ، واجناس الصخور والمعادن الى ان قذفتهما التقادير ـ بخارقة لا تسعها الا مخيلة الروائيين ـ من فوهة بركان جزيرة اسلاندة في

اقصى الشمال الغربي من قارة اوربا . وما كان قصد (جول فرن) من هذه الرواية الا حمل مطالعيها على تفهم دقائق علم الجيولوجية بهذا الاسلوب اللطيف . شأنه في سائر رواياته التي يبحث في كل منها عن احد العلوم الطبيعية .

ولما بلغ منا التعب والظمأ مبلغه وتمنينا جرعة من الماء صادفنا في احد الاقباء بئرين ملآنين ماء عذباً بارداً ، شربنا منهما وغسلنا الاوجه والايدي واسترحنا مدة . وقد حاولنا ان نسبر غورهما فلم نتوفق لوفرة عمقهما . وهذان البئران من اعجب ما يذكر عن هذه المغارة ولولاهما لما استطاع حافروها وساكنوها العمل والمقام فيها .

هذا وقد بقينا نحو ساعتين في ذلك الظلام القاتم ندخل في بهو ونخرج من قبو ، ونصعد درجا ونجتاز سردابا ، ولا يستطع احدنا ان يبتعد عن دليله او رفيقه خشية الضياع والهلاك . ونحن في اشد الحيرة من عمل اولئك الذين بذلوا الهمم الشماء في نقر هذه الصخور الصماء وتمهيدها وتقسيمها على هذا النحو في احشاء هذا الجبل الشامخ وتحت عمق لا يقل عن ٧٠—٨٠ متراً وطول وعرض هائلين لا مجال لتقديرهما . فكم فرقة من فرق العمال عملت في الحفر وكم الوف من من الدنانير انفقوها في هذه السبيل ؟ ذلك ما كنت افتكر به ولا اصل الى حـــله .

ومن الغريب انني رغم التحقيق والتفتيش في الجدران والسقوف لم اعثر على اثر لكتابة او نقش او رسم لاستدل منه على سبب حفر هذه المغارة الهائلة وتاريخها واسم ساكنيها وحافريها الاقدمين ، ولا على شيء من العلائم الجيولوجية كاحافير النباتات والحيوانات واعمدة الستلاكتيت والستلاكميت التي توجد في اشباه هذه الكهوف — اذا كانت طبيعية — ولم اجد معنى لدفن هؤلاء الناس انفسهم في هذه الهوة السحيقة ومكوثهم في هذه الاقباء والغيران المدلهمة الرطبة . الا ان يكون ذلك لغرض ديني او سياسي ، فهم اما كانوا يستعملونها كمعبد خفي يقيمون فيه شعائر دياناتهم السرية بدليل وجود المصاطب والأرائك التي ذكرتها . واما

انهم كانوا يتخذونها حصنا يلجئون اليه عند احاطة الاعداء بمدينتهم التي يشاهد بعض طلولها خارج المغارة وعلى السفح الجنوبي للجبل . او انهم كانوا يسجنون فيها من غضبت عليه ملوكهم او كهانهم او وقع اثناء الحروب في قبضتهم فيعتقلون السجناء او الاسرى في هذه الظلمة والرطوبة اللتين تهدمـــان اشد الابدان قوة وصحة .

ولم تحرم هذه المغارة العجيبة من سكنى الاحياء والاستئناس بهم ، فقد كنا نصادف الوفا من الخفافيش المعتادة حياة الظلمة والرطوبة جاثمة على الجدران والصخور ،وشاهدنا زرقها الذي ظل يتراكم منذ مئات من السنين فاصبح اكواما كالبيادر . وقد افهمت القرويين الذين رافقوني منافع هذا الزرق وانه من انفع الاسمدة المؤدية لخصب الارض وان الاوربيين يستجلبون مثيله من جزر اميركا الجنوبية ويدعونه (غوانو) ويبيعونه حتى في بيروت باغلى الاثمان ، ونصحتهم بأن يخرجوا منه ما يكفيهم ويسمدوا حقولهم وكرومهم به فوعدوني بالايجاب .

هذا وما زلنا في صعود وهبوط ودخول وخروج حتى اعيينا وخشينا ان نصل الى فوهة بردان قد لا يرحمنا كما رحم سائحي رواية (جول فرن) فلا يقذفنا سالمين . لا سيما وقد اخذت منـــا قشعريرة الرطوبة في تلك الكهوف الظلماء كل مأخذ فاكتفينا بما رأيناه وعدنا ادراجنا الى فوهة المغارة وشرعنا بالصعود رويداً رويداً نستعين باليدين والرجلين الى ان من الله علينا بالوصول الى سطح الارض ورؤية النور والشمس فانتصبنا ننفض عنا اثار حياة الآخرة ونهنأ بعضنا بعضاً بالسلامة .

وقد ظهر لي ان الذي اعان القوم على النحت والتنقيب هو لين الحجر الذي يتكون منه الجبل لانه من الصخور الطباشيرية البيضاء المنتسبة للدور الثلاثي من ادوار الجيولوجيا . ولو كان من الصخور البركانية كالبازلت الاسود لما استطاعوا الى ذلك سبيلا . على ان لين هذا الصخر جعله بحيث يتأثر على كر الاحقاب بفعل العوامل الطبيعية من حر وقر ، ولذا ترى السيول تصدعه وتجزئه رويداً

رويدا . وهذا ما جعلني ارى في اكثر الاقباء جلاميد عظيمة ساقطة من اعلى السقوف والجدران وقد سدت بعض الابهاء والدهاليز او شعثت الدروب .

ثم ان الادلاء قادوني الى مغارة ثانية اصغر من الاولى بكثير ، وفيها ماء عذب يرشح من نبع سقفها ويسيل بلا انقطاع القطرة تلو القطرة ، وقد وضع الاقدمون في موضع سقوطه على الارض جرنا تجتمع فيه القطرات فيتكون منها كمية من الماء تكفي لشرب عشرات من الرجال . وقادوني الى مغارة ثالثة فيها سرداب قليل العمق ينبع من جداره ماء عذب حفروا له حوضا يستقون منه عند اللزوم . ولا يزال رعاة الغنم والابل السائمة في هذه الجبال وبعض الاشرار الهاربين من يد القضاء يلجأون احيانا الى هاتين المغارتين ويتمتعون بمياههما .

وقد سألت الادلاء وصاحب القرية القريبة لهذه المغاور عما اذا كان دخلها قبلي احد من مفكري البلاد او من السياح الاوربيين فاجابوني عن الاولين بالسلب وعن الثانين بانه لم يزرها الا سائحان المانيان قبيل الحرب العامة ذهبا على امل الرجوع للبحث والتنقيب فيها فحالت الحرب دون عزمهما . وذكروا خرافة عن سائح مغربي قالوا انه قرأ وهو في بلاده في احد الاسفار القديمة خبر مغارة ام السرج وعلم بانها تحوي كنزا عظيما فجاء اليها واستصحب ادلاء من القرية ولكنه لما وصل بعد البحث والتنقيب الطويلين الى باب الكنز وحاول فتحه هوت صخرة عظيمة من سقف القاعة فسدته . ولما عجز عن زحزحتها او تحطيمها رجع خائبا .

وبعد مغادرتي تلك الربوع راجعت كتب التاريخ والآثار التي تبحث عن الديار الحلبية فلم اجد ذكراً لهذه المغاور سوى بيان موجز لما كانت عليه بلدة منبج Hiérapolis من العمران والرقي في العصور القديمة والمتوسطة ، درجته في بحث منبج .

فبلدة مقدسة كمنبج هذه حالتها في تلك العصور من الرفه والعمران لايبعد

ان يقوم سكانها ويحفروا على مقربة منهم هذه المغاور التي وصفتها ويتخذونها اما معبداً او حصناً او معقلا ، هذا اذا لم يكونوا جعلوها مدفنا لعظمائهم او مذخراً لكنوزهم ودفائنهم التي لم يسعدني الحظ بالعثور عليها ويا للاسف . ولعله يقوم غيري من ارباب الولع او يأتي امثال اللورد كارنارفون فيبذل من المتاعب والنفقات ماعسى ان يوصله لما يشبه كنوز « توت عنخ آمون » وكل مفعول جائز .

قلعة النجم . — في شمالي منبج على ضفة الفرات اليمنى التي تدعى « الشامية » قلعة عربية جليلة الشأن ، جديدة البنيان في الجملة ، تدعى قلعة النجم ، مر ذكرها كثيراً في ابحاثنا السابقة ، اتيح لي زيارتها في صيف سنة ١٣٤٥ ،ذكرها ياقوت في معجمه فقال : قلعة النجم ، بلفظ النجم من الكواكب ، وهي قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل تحتها ربض عامر وعندها جسر يعبر عليه وهي المعروفة بجسر منبج ، ويعبر على هذا الجسر القوافل من حران الى الشام وبينها وبين منبج اربع فراسخ ، وهي الآن (سنة ٦٢١) في حكم صاحب حلب الملك العزيز ابن الملك الظاهر ابن الملك الناصر يوسف بن ايوب ا هـ . وذكرها آخرون بأنها كانت قديما تعرف بجسر منبج وكان الجسر على شاطئ الفرات وكانت بلدة صغيرة الى ان كانت بعد الثلاثمائة عمرها نجم غلام الصفواني قلعة حصينة لها ظاهر باهر الطرف يقصر عنه الوصف ، ملكها بنو حمدان ثم بنو مرداس ثم كانت لبني نمير ، ثم تعاورتها الايدي الى ان اخربها التتر . وذكر مؤرخو الافرنج ان مكان قلعة النجم كان يدعى في عهد الرومانيين Caeciliana وان هذه القلعة قديمة تعاورتها كثير من ايدي الدول وخربت الى ان رممها نور الدين محمود ، ثم رممها ترميما حسنا الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الايوبي ثم خربت بعده ، وان اكثرها كان في القرن الثامن الهجري خرابا ، وان هذا الخراب زاد سنة ١٢٣٧ هـ لما تحصنت فيها قبيلة من الاعراب كانت عاصية ومتمنعة عن اداء الضرائب ، فجاء الجند العثماني واطلق مدافعه عليها في القلعة .

ومر ابن جبير الاندلسي بقلعة النجم وهو آت من حران فقال عنها : وكان وصولنا الى الفرات ضحوة النهار وعبرنا في الزواريق المقلة المعدة للعبور الى قلعة جديدة على الشط تعرف بقلعة نجم وحولها ديار بادية وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز فاقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الاول المذكور (سنة ٥٧٩ هـ) خلال ما تكمل القافلة العبور ، واذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام وسرت في طاعة صلاح الدين الى دمشق ، والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر اهـ . ومن الغريب ان لا يذكر ابن جبير عبوره الفرات على الجسر ، ولعله كان خراباً سنة ٥٧٩ ورمم في عهد الملك الظاهر غازي . لان هذا الجسر كان موجوداً من قبل كما قدمنا ، وياقوت ذكر وجوده في سنة ٦٢١ اي بعد ابن جبير باحدى واربعين سنة .

ومن مراجعة ما ذكرناه في تواريخ كل من افامية وشيزر وحماة ومنبج تظهر الاحداث والتقلبات التي كانت تصيب قلعة النجم المرتبطة اقدارها مع تلك البلاد لاسيما مع جارتها منبج ، ويتبين ما كان لقلعة النجم من الشأن من وجهتي سوق الجيش والتجارة ، باعتبارها مدخل بلاد الشام للجحافل والقوافل القادمة من شمالي العراق وبلاد الجزيرة العليا . وكان صاحب اقطاعها يتقاضى رسوماً ومكوسا وافرة من المارين والعابرين فوق جسرها او معبرها ، ناهيك عن ان بقاءها في يد ملوك حلب واصحاب منبج كان لازما لسلامة هاتين البلدتين . لذلك تعاورها كثير من ايدي الملوك والامراء المسلمين الى ان استقرت في يد ملك حلب الظاهر غازي فجددها على حالها الذي مابرح اكثره ماثلا بجماله رغم فعل التتر وهز الزلازل وخرب المدافع ، لكنه توفى رحمه الله سنة ٦١٢ قبيل اتمامها وذهب قبل ان يسر بمرآها .

وقلعة النجم تبعد عن منبج زهاء ٢٩ كيلومتراً ، وهي لا تزال على جدتها وروعة بنيانها العربي رابضة فوق اكمتها العالية ذات الصخور البيضـــاء الهشة المكسر ، تشرف في الشرق على نهر الفرات العظيم الذي كان فيما مضى يغسل

اقدامها عن كثب لما كانت في شامخ عزها وفتوتها ثم ابتعد عنها نحو ٦٤٠ متراً الى الشرق وهجرها لما شابت وتداعت ، وهذا من خصائص الفرات يغير مجراه من حين الى آخر ، وتشرف في الجنوب على عدوتي الفرات وفيهما ضياع عديدة اقربها الى القلعة في الشاميـــة ضيعة قلعة النجم ، وهي السويقة او الربض اللذين نوه بهما ياقوت وابن جبير ، ثم ضيعة الزيارة وفي هذه اضرحة وقبور اسلامية قديمة ، من الغريب انها هي وشواهدها لاتزال سالمة ، ومن بعدها جرن الكبيرة وجرن الصغيرة ، وتشرف في الشمال والغرب على آكام صخرية بيضاء بين القلعة وبينها واد سحيق عريض ووراءها تختفي ضياع منها في العدوة الشامية خشفة وبيرخلو ، وتشرف في الشرق على الهضاب المنحدرة من براري الجزيرة الفيح ، وفيها تجاه القلعة برج شبه المنارة ، وثمة واد او مدخل يدعى مدخل القيعق . وكانت القوافل والجحافل القادمة من الرها وحران في الجزيرة تمر الى الشامية من فوق الجسر الذي كان تحت القلعة ، وقد دثر منذ عهد بعيد وزالت آثاره بتاتا ، ولا يزال شيوخ ضيعة قلعة النجم يحدثون عن جدودهم خبر اقتلاعهم الرصاص من مداميك الجسر المذكور حينما كانت اسسه ماثلة . فتكون الحكمة من بناء قلعة النجم فوق المدخل والجسر المذكورين التحكم على تلك القوافل والجحافل التي لم يكن لها مجاز الى حلب وما وراءها غير هنا .

وفي لحف الآكام المرتفعة في شمالي وغربي القلعة مغاور ربما كانت ملجأ للماشية والرعاة ، وما خلا الهوة السحيقة التي تفصل هذه الآكام والمغاور عن اكمة القلعة ، حفر حول القلعة خندق عمقه خمسة امتار وعرضه خمسة وعشرون مترا ، وهو متهدم في بعض جوانبه ، ومملوء بانقاض القلعة وحجارتهـــا المتدحرجة في جوانبه الاخرى ، كما ان اهل الضياع المجاورة حفروا فيه اماكن كثيرة يستخرجون تربة يدعونها الحوارة لطلاء جدران بيوتهم .

والقلعة مستطيلة الشكل في الجملة وذات طبقتين ، طولهـــا من الشرق الى الغرب نحو ١٧٠ مترا ومن الشمال الى الجنوب ١٣٠ مترا ولها ثلاثة جدران

ضخمة عالية ، فالاول الخارجي الراكب على طرف الاكمة المنحدر علوه ١٨ مترا ، وعلو الثاني المتوسط ثمانية وعلو الثالث خمسة، لانها بشكل مدرج «امفيتياتر» والجدار الاول بني بشكل غريب ، وهو ان المدماك الاسفل يركب المدماك الثاني على ثلثيه ، والثلث الآخر يبقى ناتئا وهكذا ... بحيث يتألف من بناء الجدار كله شبه درج ، لكنه عسير التسلق . ويترائى للمدقق في حالة الجدار المذكور انه رمم ثلاث مرات ، وذلك من التباين والترقيع الظاهرين في احجاره . وهذه القلعة لا تزال تظهر للزائر عامرة وعلى جدتها في الجملة ، ما خلا القصر والبرج الرابض في طرفها الغربي في اضعف نقاط الدفاع فانه خرب ودمر ، ولعل ذلك حصل في سنة ١٢٢٧ بتأثير المدفع ، او بتأثير الزلازل التي تكررت في القرون الاخيرة واكثر احجار غرف هذا البرج ساقطة وسط الخندق الذي تقدم ذكره ، وايدي التحطيم تفعل فيها وتنقل كسورها الى القرى المجاورة .

اما مدخل القلعة المتجه الى الشرق فلا يزال سالما وشامخا بروعته ، والباب مرتفع نحو مترين ؛ ولدثور الدرج لا يمكن التسلق والوصول اليه الا بصعوبة . وقد زبر على عتبته العليا بالخط النسخي سطران هما : « تجددت في دولة مولانا السلطان الملك الظاهر لمدة اولها بسنة خمس وستمائة وآخرها سنة اثني عشر وستماية » . وبعد الباب بخمسة امتار دهليز قام في طرفيه جداران متقابلان علوهما نحو عشرة امتار ، في الشمالي الايمن منهما باب ذو قوس شاهق جميل البناء ينفذ الى غرفة خفراء الباب ، وفي خارج هذا القوس زبر على الجدار كتابة قرأت منها الكلمات الاتية : بلعه المنصو ... صنعها ابراهيم بن نان المنبجي الملك الظاهري رحمه الله تعالى اه . ويقابل هذه الكتابة في الجدار المقابل اخرى لم اتمكن من قراءتها لفرط علوها . وغرفة خفراء الباب سالمة على جدتها ، وفوقها الجامع الذي سيأتي وصفه . وفي الجدار الجنوبي الايسر مدخل القلعة الاصلي . ومن هذا المدخل تنفرج الدهاليز والممرات الضيقة بعرض مترين ، وكلها معقود

بالاحجار المنحوتة ، وينفذ من هذه الدهاليز الى قاعات وغرف مظلمة وابهاء واسعة واصطبلات ومستودعات ، وكل هذه ايضا معقود بالاحجار المنحوتة ، وفي وسط عقودها كوات ينفذ منها النور يقابلها في ارض الغرف والابهاء مثلها تنير ما في غرف وابهاء الطابق الاسفل . وفي الناحية الجنوبية الغربية باحة كانت تقوم فيها دار شمسية قوراء في وسطها ايوان جميل على اطرافه القاعات ، وكلها متهدم . اما الجامع فأن جدرانه الثلاثة سالمة،في اعلى هذه الجدران القسم الاسفل من سطر غير مقروء كتب بالخط النسخي،وعلى يمين محرابه دائرة فيها اسم الجلالة والجدار الرابع في الجامع وكذا سقفه متهدمان ، ما عدا غرفة الامام التي هي في شمالي الجامع لا تزال سالمة وصالحة للسكن . وقد كتب على عتبة باب الجامع تاريخ اعملت فيه ايدي الجهلة وياللاسف فكسرت حروفه ومنعت قراءته ، ووراء غرفة الامام درج يرقى به الى سطح الجامع ويظهر ان مأذنة كانت تقوم في ذلك الركن . وثمة في كثير من الجدران آبار عميقة تنفذ من الطابق الاعلى الى الاسفل وماتحته باحكام غريب لا يعلم قرارها .

والراجع من زيارة هذه القلعة العربية الجميلة لايسعه الا ان يترحم على بناتها بهذا الاحكام والاتقان البديعين فى هذا المكان الذي دالت مكانته وتنوسيت معها سمعته ، والان يستمطر شآبيب الغفران على الملوك الايوبيين عامة الذين اينما توجهت في بلاد الشام تجد آثارهم من القلاع والاسوار والمساجد وغيرها ، لا سيما على ذلك الملك الهمام الظاهر غازي الذي كان فيما يظهر بطاشاً وقائدا محنكا ، وذا ولع وعلم بارزين في اشادة المباني العسكرية على هندسة حربية خاصة بتلك الحقبة ، ومثله الا قليلا كان ابنه العزيز محمد وحفيده الناصر يوسف ، وقد نوهنا بذلك في ابحاث قلاع حارم وافامية وشميميس ومسجد اعزاز ، ناهيك عن قلعتي حلب وبصرى حوران اللتين لم نبحث عنهما بعد ، والا ان يستمطر تلك الشآبيب ايضاً على ابراهيم بن نان المنبجي المذكور اسمه في قلعة النجم ، وكان على مايظهر من اخص مهندسي ومعماري الملك الظاهر حتى اضاف على اسمه كما قدمنا « الملك الظاهري»

يتمنى المرء لو ان مؤلفي كتب التراجم عندنا عنوا بذكر هذا النابغة العربي وامثاله من اهل الفنون والصناعات كنصف عنايتهم بذكر الادباء والشعراء والزهاد المعتوهين والثرثارين والمتسولين ... اذن لعرفناهم ، وعرفنا شيئاً من فنونهم مصطلحاتهم ، ويردد غير ذلك من التأملات التي نوهنا ببعضها في حديث لعة شيزر .

***

تاريخ حماة .— حماة من امهات مدن الداخل في الشام تعلو عن سطح البحر ٣٠٫ امتار ، وهي في وهدة سحيقة من وادي العاصي ولذا كانت حارة ورطبة ر منها سكة حديد رياق — حلب (طولها ٣٣٢ كيلومترا) وطريق السيارات لمعبدة الممتدة بين دمشق وحلب (طولها ٣٥٩ كيلو مترا) وتبعد حماة عن حمص ٥٫ وعن حلب في سكة الحديد ١٤٣ كيلو مترا .

وقد وردت حماة في التوراة مراراً باسم حمث الكبرى تمييزاً لها عن حمث لصغرى في كيليكية ، وذلك تنويها بذكرى حماثي من ابناء كنعان الذي ينسب ناؤها اليه . وكانت على ما قيل الحد الشمالي للارض الموعود اعطائهـــا لبني سرائيل . وتاريخ حماة في كل العصور لا سيما في القديمـــة منها مرتبط بتاريخ مص التي كانت متقدمة عليها بالعمران ومتبوعتها . فقد سكن حماة كما سكن حمص ادي ذي بدء العمالقة او الروتانيون او اللوذيون اعقاب لوذ بن سام ، ثم سكنها لحثيون ويظن انها سعدت في عهدهم بدليل العثور على بعض كتاباتهم فيها(١)

---

(١) ذكروا انه لما زار السائح الانكليزي بروكهارت حماة سنة ١٨١٢ لحظ في احد اسواقها حجراً منقوشاً عليه رسوم ورموز عديدة ظنهـــا هيروغليفية ، لكنه وقد غمت عليه قال بانها تختلف عن الرسوم والرموز

وقد قاست حماة كما قاسته حمص وغيرها من مدن الشام الشمالية العائدة للحثيين من توالي غارات فراعنة مصر وملوك آشور ودفاع الحثيين واستبسالهم

الهيروغليفيه المصرية . وقد بقيت كلمة بروكهارت عشرات من السنين دون ان تسترعي انظار احد من الاثريين الذين كانوا يصرحون في كتبهم بأن حماة خالية من العاديات الهامة . وفي سنة ١٨٧٠ وافاها العالمان الاميركيان اغسطوس جونسون قنصل الولايات المتحدة في دمشق والمبشر البرتستانتي زسوب فبلغهما ان في حماة احجارا كثيرة منقوشة غير الحجر الذي رآه بروكهارت ومن نوعه . ولما حاولا ان يستنسخا نقوشهـــا لم يشعرا الا والغوغاء تترا كض نحوهما تبغي الفتك بهما فاضطرا للفرار ومغادرة حماة فورا . الا ان القنصل عاد واتفق مع رجل ينتحل التصوير على ان يستنسخ له تلك النقوش فجاء هذا وقام بالمهمة ، ولما وصلت النسخ الى دمشق نشر القنصل بعضها ، فاثارت على نقصها اهتماما عظيما لدى علماء الآثار وعرفوا انها من آثار الحثيين . فنشطوا من ذلك الحين لزيارة حمـــاة ومشاهدة احجارها وآثارها الحثية ، وكان السباقون الى ذلك الانكليز امثال دراك وبرتون وفريكت وسايس ودلويس . وقد قص منهم ساسي في كتابه الخاص بتاريخ الحثيين وممالكهم وكتاباتهم المطبوع سنة ١٨٨١ كيف توصلوا لاستخلاص تلك الاحجار من ايدي اهل حماة الاشداء على الاجانب (كذا) ونقلها ، وقد كان لتلك الاحجار فضل غير يسير في توجيه انظار علماء المشرقيات والعاديات نحو البحث عن الامة الحثية ودرس تاريخها المجيد الذي كان مجهولا بالكلية . كما ان مكانة حماة في ذلك التاريخ حدت اخيرا بالعالم الاثري انكولد الدانيماركي ان يحفر قلعة حماة وينفذ الى اعماقها املا بالوصول الى احجار تحوي الابجدية الحثية ـ لكنه رغم جهوده الجديرة بالاعجاب لم يظفر بضالته بعد .

في معارك طاحنة دامت قبل الميلاد عدة قرون الى ان انقرضوا ، وخلفهم الآراميون ثم الاسرائيليون ثم اليونانيون السلوقيون ، وقد سماها احد ملوكهم انطيوخس ايبفانوس الرابع ايبفانيا ، وظلت معروفة بهذا الاسم في دولة السلوقيين، ولما زالت رجع الناس الى استعمال اسمها القديم ، ثم جاء الرومانيون .

لا جرم ان بلاد الشام الشمالية في عهد اليونان والرومان تقدمت في العمران وكان نصيب حماة ان زاد عدد القنوات في برارها الشرقية ونصبت النواعير على العاصي فازدهرت الزراعة وانتشرت القرى العامرة في شرقي سلمية وحول الاندرين وظل هذا العمران الى اواخر عهد البيزنطيين الذي اختلت فيه ادارتهم وخربت اكثر المدن والقرى الشرقية المذكورة بسبب فوضى احكامهم وتوالي حروبهم مع الفرس فساء حال حماة من جراء ذلك . ولما كان الفتح الاسلامي جاءها ابو عبيدة في سنة ١٧ فصالح اهلها على الجزية لرؤوسهم والخراج على ارضهم وجعل كنيستهم العظمى جامعا وهو الآن الجامع الكبير وسيأتي وصفه . وجعل الخلفاء الراشدون حماة من اعمال جند حمص للسبب الذي تقدم ذكره . ومن الاحداث التي حصلت فيها في اواخر القرن الاول في خلافة عبد الملك بن مروان ارسال قيصر الروم يوستنيانوس قائدين اسمهما موريق وموريقان جاءا وخربا دير القديس مارون الذي كان على العاصي بين شيزر وحماة وقتلا رهبانه البالغين خمسمائة وشتتا شمل اتباع هذا القديس .

ولما انتقلت الخلافة من يد الامويين الى العباسيين في سنة ١٣٢ من القرن الثاني اورث انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد فتورا في الشام لانها اصبحت بعيدة عن نظر الخلفاء الذين قل اكتراثهم بها يحكمها العمال حسب اهوائهم فكان ذلك مدرجة لانحطاط شأنها . وفي القرن الثاني وفي النصف الاول من الثالث اشتركت حماة مع متبوعتها حمص في الفتن والحروب الاهلية التي كانت تحدث تارة من تأجج نار العصبيات بين القيسيين واليمانيين وتارة من الوثوب بالعمال ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين . وفي النصف الثاني من القرن

الثالث ظهرت بوادر الضعف في العباسيين وصار المتغلبة. من اولئك العمال ينزعون الى الاستبداد في الامر ، وكان اولهم عامل مصر احمد بن طولون فقد نزع ربقة الخلافة واستولى على الشام فاخذ حماة فيما اخذه وعقبه ابنه خماريه وحفيده جيش . وفي سنة ٢٩٠ جاء القرامطة بقيادة الحسين بن زكرويه الملقب بصاحب الشامة من دمشق الى حمص فتغلب عليها وخطب له على منابرها وتسمى بالمهدي ، ثم سار منها الى حماة ومعرة النعمان وغيرها وقتل النساء والاطفال ثم سار الى بعلبك فقتل عامة اهلها حتى لم يبق منهم فيما قيل الا اليسير ثم سار الى سلمية» «الطبري ج ١١ ص ٣٨١» . وفي سنة ٢٩١ شخص الخليفة المكتفي من بغداد الى الرقة وبث جيوشه فيما بين حلب وحمص لحرب صاحب الشامة فساروا اليه وجرت الوقعة الفاصلة في قرية تمنع (التمانعة قرب خان شيخون وشرقي طريق السيارات بين حماة وحلب) وكانت الدائرة على القرامطة . وفي اواخر القرن الثالث زالت دولة بني طولون على يد الخليفتين المعتضد والمكتفي اللذين لم يتوانيا عن القضاء على كل خارجي ، فظهرت بعدها دولة الاخشيد محمد بن طغج في مصر والشام ورأت البلاد ما رأته من اقتتاله سنة ٣٢٨ مع عامل الخليفة ابن رائق وسنة ٣٣٣ مع سيف الدولة بن حمدان ، وبعد زوال الاخشيديين في منتصف القرن الرابع دخلت حماة في حوزة سيف الدولة بن حمدان واعقابه من بعده وتبعت حلب . وجاء الفاطميون اذ ذاك في سني ٣٥٨ - ٣٦٠ ينازعون العباسيين الخلافة واستولوا على مصر والشام ورأت البلاد البلاء العميم من دوام الحروب بين جيوشهم والمتوثبين من العمال والاهلين في بلاد الشام الذين كان هواهم مع العباسيين . على ان الحمدانيين خطبوا للفاطميين ابناء مذهبهم الشيعي فظلت السلطة في شمالي الشام ومنها حمص وحماة بيدهم . وكان الروم ينتهزون فرصة تطاحن المسلمين بعضهم مع بعض فيغيرون من حين الى آخر على شمالي الشام ويصلون الى حماة وحمص وما حولها فيعيثون وينهبون ويسبون ويعودون كما قدمنا في ابحاث كيليكية وانطاكية وفامية وشيزر.

هذا والذكر الى ذلك الحين انما كان لحمص ، فكانت حماة تبعا لغيرها من الممالك تارة تضاف الى دمشق وتارة الى حلب . ولما زالت دولة بني حمدان في اوائل القرن الخامس سنة ٤٠٦ وزاد ضعف الفاطميين وتقسمت القبائل العربية بلاد الشام تبعت حماة صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب فبقيت في يده ويد اعقابه الى ان زالوا ، ثم تبعت حمص سنة ٤٢٧ في عهد واليها شجاع الدولة جعفر بن كلند ، ثم في عهد خلف بن ملاعب الكلابي ، ولما استولى السلجوقيون في تلك الحقبة على بلاد الشام اقطع السلطان ملكشاه حماة الى عامله آق سنقر وهو ابو عماد الدين زنكي فتبعت حلب . وفي غرة القرن السادس سنة ٥٠٤ دخلت في حوزة الاتابك طغتكين صاحب دمشق، وفي سنة ٥٠٩ ارسل السلطان ملكشاه عسكرا لمحاربة طغتكين فمروا بحماة وحاصروها وفتحوها ونهبوها ثلاثة ايام ثم سلموا حماة الى الامير قيرخان بن قراجا صاحب حمص ، فولى هذا على حماة ابنه محمود وكان ظالما عسوفاً ، ذهب في سنة ٥١٧ الى افامية وحاصرها ولكنه اصيب من قلعتها بسهم في يده فمات من ذلك ، فلما سمع طغتكين الخبر ارسل الى حماة عسكراً وملكها فاستقرت في يده زمن تخلله برهة تولاها اقسنقر البرسقي ومن بعده ولده عز الدين مسعود ثم رجعت الى طغتكين ومن بعده الى ابنه بوري فولى هذا عليها ابنه بهاء الدين سوينج ، وفي سنة ٥٢٣ جاء عماد الدين زنكي بن آق سنقر من الموصل لحرب الافرنج في شمالي الشام واستنجد ببوري صاحب دمشق فبعث لنجدته ابنه سوينج مع عسكره ، فغدر عماد الدين بسوينج واعتقله وجاء الى حماة واستولى عليها ثم سار منها الى حمص وكان قد غدر بصاحبها قيرخان ابن قراجا واحضره صحبته الى حمص ممسوكا وامره ان يامر ابنه وعسكره بتسليم حمص فامرهم قيرخان فلم يلتفتوا ودافعوا ، فلما آيس منهـــا رحل عنها الى الموصل ، وظلت حماة في يد عماد الدين زنكي الى سنة ٥٢٧ جاء شمس الملوك اسماعيل بن بوري صاحب دمشق وحاصر حماة وملكها وحصر القلعة ولم تكن اذ ذاك حصينة فانها حصنت فـــيما بعد في عهد تقي الدين عمر ابن اخي

السلطان صلاح الدين ، واستولى شمس الملوك على القلعة ولكن عماد الدين زنكي عاد واستردها بعد مدة وظلت في يده الى سنة ٥٤١ حين وفاته ، فملكها بعده ابنه نور الدين محمود . وفي زلزلة سنة ٥٥٢ الهائلة خربت حماة وقلعتها فرممها نور الدين وبنى اسوارها واعاد قلعتها ، وبنى فيها الجامع والمستشفى المعروفين باسمه .

وفي سنة ٥٧٠ استخلص صلاح الدين الايوبي حماة من عمال الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وولى عليها خاله شهاب الدين الحارمي ، وبعد موته اقطعها في سنة ٥٧٤ الى ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شهنشاه بن ايوب ، واضاف اليه في سنة ٥٨٢ منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين ، وفي سنة ٥٨٤ اللاذقية ، ولما توفي تقي الدين عمر في سنة ٥٨٧ خلفه ابنه الملك المنصور ناصر الدين محمد ، غير ان صلاح الدين اخذ منه البلاد التي افتتحها ابوه وابقى له منبج وافامية وسلمية والمعرة ، وفي زمنه حاصر حماة في سنة ٥٩٧ الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين حصاراً شديداً انتقاماً من المنصور الذي لم يتحد معه في محاربة عمهما الملك العادل ، لكنه لما لم يفز منها بطائل اضطر لمصالحة المنصور على مال يحمله اليه واضطر بعد لاعادة المعرة اليه بعد ان كان اخذها ، وذلك خوفاً من عمه الملك العادل الذي خف لتأديب الظاهر ثم استرضاه هذا فرضي وعاد . ويذكر للمنصور ظفراً باهراً على الافرنج في بعرين عقيب معركة جرت في سنة ٥٩٩ ، وفي آخر عمره عهد بالملك لولده المظفر محمد وحلف الناس على ذلك ، لكنه لما توفى سنة ٦١٧ خالفه وزراؤه وولوا ابنه الثاني الناصر قليج ارسلان ، فذهب المظفر الى مصر واستجار بالسلطان الملك الكامل اعظم ملوك الايوبيين في مصر والشام في تلك الحقبة واقام في خدمته . وفي سنة ٦١٩ جاء الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وحاصر ابن اخته الناصر صاحب حماة لاخلاف الناصر في دفع مال مشروط ولما لم ينل مأربه ارتحل الى سلمية واستولى على حواصلها العائدة للناصر واقام مدة فيها يتأهب لحصار حماة الى ان جاءه امر الملك الكامل بالارتحال عنها فارتحل ،

وامر الملك الكامل بابقاء حماة بيد الناصر وتسليم سلمية الى اخيه المظفر ، ثم في سنة ٦٢٦ جاء الملك الكامل الى سلمية وبعث منها الى حماة بجيش سلم قيادته الى اسد الدين شيركوه صاحب حمص وامره بحصار حماة ، فاستسلم الناصر وسلم حماة فأمر الملك الكامل باعادة المظفر اليها على ان تنزع سلمية منه وتسلم الى الناصر ، فلم يبق لحماة توابع سوى المعرة ، وقصد الافرنج حماة في سنة ٥٢٧ فخرج المظفر وواقعهم عند قرية افيون وكسرهم ، وذهب المظفر الى شيزر سنة ٦٣٠ لمعاونة الملك العزيز صاحب حلب لاستخلاصها من يد صاحبها يوسف ابن الداية فاستخلصوها منه كما قدمناه في بحث شيزر ، وذهب مع الملك الكامل الى محاربة كيقباذ السلجوقي فانكسرت حملتها ورجعا خائبين، وعمر المظفر قلعة المعرة وجهزها كما ذكرناه في حديثها . ولما توفي المظفر سنة ٦٤٢ ولي حماة بعده ابنه المنصور محمد ولما جاء هولاكو ملك التتر واستولى على حلب واخشت جنوده فيها جفل المنصور وغادر حماة ، فاجمع سكان حماة على الاستئمان فامنهم هولاكو وكان التجأ اليه الاشرف موسى بن ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، فأمره بعد رجوعه من بلاد الشام ان يعود الى حمص ويمر بحماة ويهدم اسوار قلعتها ومدينتها ، فهدم الاشرف اسوارالقلعة واحرق ذخائرها وبعثر كتبها ، ولما حاول هدم اسوار المدينة توسل اهلها بنائب هولاكو فمنعه من ذلك · وكان هولاكو يتقصد تخريب جميع قلاع بلاد الشام لم يعف عن واحدة منها ، الا قلعة دركوش فأنه لم يصلها كما قدمناه في بحثها . وبعد معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ التي انكسر التتر فيها قرر المظفر قطز المنصور صاحب حماة في بلده وتوابعها وهي بعرين والمعرة . وفي سنة ٦٥٩ اشترك المنصور في المعركة الهائلة التي جرت شمالي حمص بين المسلمين والتتر وانكسر فيها التتر ، وفي سنة ٦٦٤ سار على رأس الجيش الذي جهزه الملك الظاهر بيبرس لغزو الارمن في جبل اللكام وكيليكية ورجع ظافراً كما قدمناه في ابحاث هذه الاماكن ، ولما توفي المنصور سنة ٦٨٣ ملك حماة وتوابعها بعده ابنه المظفر شادي من قبل المنصور قلاوون سلطان مصر والشام

وحضر بجنده مع السلطان المذكور فتح المرقب وطرابلس وعكاء، ولما توفي المظفر في سنة ٦٩٨ في ايام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ولى مكانه قرا سنقر الجوكندار احد الامراء المماليك نائبا على حماة . وبذلك خرجت حماة من يد التقويين الايوبيين . وكان العادل زين الدين كتبغا بعد خلعه من السلطنة في مصر قد استقر نائباً في صرخد فنقله السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى حماة بعد هزيمة غازان ملك التتر وجعله نائبا بها الى سنة ٧٠٢ التي مات فيها . فولى الناصر مكانه من امرائه سيف الدين قبجق ثم صرفه عنها وولى مكانه سيف الدين اسندمر ، ثم صرفه عنها بعد عوده من الكرك ، وولى فيها الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الافضل علي عادة من تقدمه فيها من الملوك التقويين الايوبيين ، فبقي فيها الى ان توفى في سنة ٧٣٢ ، فولى السلطان الناصر مكانه ابنه الافضل محمد فبقي فيها حتى عزل عنها في سلطنة المنصور ابي بكر بن محمد بن قلاوون في سنة ٧٤١ لسوء سيرته ، واستقرت حماة بعده نيابة يتولى عليها نواب السلاطين المماليك في مصر نائبا بعد نائب كغيرها من الممالك الشامية .

فيظهر مما ذكرناه ان حماة ظلت في يد البيت التقوي الايوبي مدة ١٦٨ سنة تخللتها فترات الى ان انتهى ملكهم بخلع الملك الافضل محمد بن ابي الفداء ، على أنه لم يكن لابناء هذا البيت من الملكية الا الاسم والابهة فقط ، وكانوا فعلا تحت امرة ابناء اعمامهم آل البيت الصلاحي الايوبي وامرة السلاطين المماليك الذين خلفوا الايوبيين في مصر والشام . على ان حماة نالت في عهدهم حظاً موفوراً من العمران قضى على بعضه هولاكو في القرن السابع وعلى جله تيمورلنك في اوائل القرن التاسع ، ذكر حيدر الشهابي في تاريخه في حوادث سنة ٨١٣ ان اهل حماة بعد ان استأمنوا لولدي تيمورلنك واضافوهما ، قتلوا النائب التتري الذي ابقياه ، فارتد احد الولدين لاستيفاء ثأر النائب فأحرق غالب حماة وقتل اكثر سكانها ، ولما عجز عن القلعة التي اعتصم فيها كثير من الحمويين انجده ابوه بجيش فأخذها ايضاً ودكها واحرق وقتل ونهب .

فبعد ان جرى بحماة ما ذكرناه ، واعقب ذلك انتشار فوضى الاحكام في آخر عهد المماليك ، واقتتال الامراء آل الفضل ابناء عيسى بن مهنا « اجداد امراء الموالي الحاليين » وعيثهم في براري حماة وسلمية والمعرة وتخريبهم قراها انحط شأنها وتضاءل عمرانها ، وظلت في عهد المماليك يديرها نوابهم فتسعد وتشقى تبعاً لصلاح هؤلاء او فسادهم . وفي القرن العاشر دخلت في ملك العثمانيين وصار يتولاها المتسلمون والباشات الذين يوظفهم ولاة طرابلس او دمشق حسبما تكون حماة مرتبطة بهذه او بتلك ، فنالها في العهد العثماني ما نال القطر الشامي كله من الاهمال وسوء التدبير ، الى ان حسنت الحالة في الجملة في اواخر القرن الماضي فجعلت حماة متصرفية الحقت بها اذ ذاك اقضية حمص وجبل الكلبية ثم تبعتها سلمية في مطلع القرن الحالي .

ومما يستحق الذكر ان الصليبيين حاولوا الاستيلاء على حماة مراراً ففشلوا لاسيما في مرتين كاد يتم الامر لهم . الاولى في سنة ٥١١ في عهد واليها شهاب الدين محمود فانهم انتهزوا فرصة خسوف القمر فوصلوا الى ارباض حماة وحاصروها ، والثانية في سنة ٥٧٢ انتهزوا فرصة غياب صلاح الدين في مصر ومرض عاملها خاله شهاب الدين الحارمي فحاصروها ، لكنهم في المرتين اجبروا على الرجوع . على انهم عند ضعف المسلمين وتنازع ملوكهم كانوا — ونخص بالذكر الفرسان الاسبتاريين المرابطين في حصن الاكراد — لا يتوانون عن الاغارة على حماة فينالون من ضواحيها ويغرمون احياناً ملوكها وعمالها بمبالغ طائلة واحياناً كانوا ينكسرون ويعودون خائبين .

هذا وقد حاولت ان اجد وصف حماة في القرون الغابرة لانظر كيف كان عمرانها في ادوار متعاقبة فلم اعثر على اقدم من وصف القرن الثالث انقله عن ياقوت ، قال : وذكر احمد بن الطيب فيما ذكره من البقاع التي شاهدها في مسيره مع المعتضد من بغداد الى الرملة. فقال بعد ذكره حمص : « وحماة قرية عليها سور حجارة وفيها بناء بالحجارة واسع والعاصي يجري امامها ويسقي بساتينها ويدير

نواعيرها ، وكان قوله هذا في سنة ٢٧١ فسماها قرية اه . قال احمد الصابوني الحموي في كتابه تاريخ حماة المطبوع في سنة ١٣٣٢ ما خلاصته ان احمد بن الطيب سمى حماة قرية وليست هي قرية كما قال ،ولكن من يشاهد بغداد في زمن المعتضد لا يستغرب منه تسميته حماة قرية لان العباسيين لما اخذوا الخلافة لم يكن لهم عناية الا باعمار بغداد والعراق فاهملوا شأن البلاد الشامية ومنها حماة ، ولتوالي هذا الاهمال والفتن خربت الكور والقرى التي كانت حماة تستقي منها موارد ثروتها مثل كورة البلعاس والاندرين ولطمين وصوران وبعرين وغيرها حتى صارت حماة تسمى قرية في نظر احمد بن الطيب اه . وقال الاصطخري في اواسط القرن الرابع ما يدل على صغر حماة اذ ذاك ومضارعتها شيزر : واما شيزر وحماة فانهما مدينتان صغيرتان نزهتان كثيرتا الماء والشجر والزرع .

ومر ابن جبير في القرن السادس سنة ٥٧٩ بعد ان مضى على زلزلة سنة ٥٥٢ التي خربت حماة بالمرة نحو ربع قرن ،وكانت نشطت من عثرتها بفضل الدولتين النورية والصلاحية ، لكنها لم ترق كثيراً عيني ذلك الاندلسي المبتهجة بمرأى غرناطة وقرطبة والحمراء فلم تعجبه افنيتها الضيقة ومبانيها المزدحمة ولم ينشرح الا لحسن العاصي وجمال البساتين ، وهاك ما قاله . حماة مدينة شهيرة في البلدان قديمة الصحبة للزمان غير فسيحة الفناء ولا رائقة البناء ، اقطارها مضمومة وديارها مركومة ، لا يهش البصر اليها عند الاطلال عليها ، كأنها تكن بهجتها وتخفيها فتجد حسنها كامنا فيها ، حتى اذا جست خلالها ونقرت ظلالها ابصرت بشرقيها نهراً كبيراً تتسع في تدفقه اساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طرفيه بساتين تتهدل اغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه ، ينسرب في ظلالها ، وينساب على سمت اعتدالها ،وباحد شطيه المتصل بربضها مطاهر منتظمة بيوتا عدة يخترق الماء من احد دواليبه جميع نواحيها فلا يجد المغتسل اثر اذى فيها ، وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقانا تجتلى منها منظراً ترتاح النفس اليه وتتقيد الابصار لديه ، وبازاء مر

النهر بجوفي المدينه قلعة حلبية الوضع وان كانت دونها في الحصانة والمنع سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها فلا تخاف الصدى ولا تتهيب مرام العدى . وموضع هذه المدينة في وهدة(١) من الأرض عريضة مستطيلة كانها خندق عميق يرتفع لها جانبان احدهما كالجبل المطل (٢) ، والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلي والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة قد تولى نحتها الزمان وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان ، والمدينة السفلى (٣)تحت القلعة متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان ، وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي،ويطيف بها وبالمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب ، لان جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور ، وعلى النهر جسر كبير (٤) معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها (٥) ، وربضها كبير فيه خانات والديار وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى ان يفرغ لدخول المدينة ، واسواق المدينة العليا احفل واجمل من اسواق المدينة السفلى وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات اﻫ .

ولم ينبه ذكر حماة بعد خموله وتسعد الا في عهد ابناء تقي الدين عمر بن ايوب فانهم لما آل اليهم ملك حماة وضواحيها عمروها بالابنية الضخمة والقصور الفخمة والاسواق الحافلة والاسوار المحكمة يدلنا على ذلك ما ذكره ياقوت في اوائل القرن السابع قال: حماة مدينة كبيرة كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار واسعة الرقعة حفلة الاسواق يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضر كبير جداً فيه اسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي عليه عدة نواعير تستقي الماء من العاصي فتسقي بساتينها وتصب الى بركة جامعها ويقال لهذا الحاضر السوق الاسفل لانه منحط عن المدينة ويسمون السور السوق الاعلى . وفي طرف المدينة قلعة عظيمة عجيبة في حصنها واتقان عمارتها وحفر خنادقها نحو مائة ذراع واكثر وهي مدينة قديمة جاهلية ذكرها امرؤ القيس في شعره (اوردناه في بحث شيزر) الا انها لم تكن قديماً مثل ماهي اليوم بسلطان مفرد

بل كانت من عمل حمص اهـ. ويدلنا على تلك العناية ايضا ما ذكره ابن بطوطة في القرن الثامن : حماة احدى امهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات ويشقها العاصي ولها ربض يسمى بالمنصورية اعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان ، وبحماة الفواكه الكثيرة منها المشمش اللوزي الشهير اهـ .

وقد حاول الصابوني في تاريخ حماة ان يفسر ما ذكره ابن جبير وياقوت فقال . كانت حماة قسمين قسم فى محلة باب الجسر وقسم في المدينة ، وبالنظر لارتفاع المدينة عن باب الجسركانت تسمى القسم الاعلى وسوقها السوق الاعلى، وكذا جامعها كان يسمى الجامع الاعلى ، وكانت مسورة بسور من الحجر الابيض عظيم يمتد الى تل العريصة وله ابواب عديدة منها باب النصر وباب المغار وباب النهر وباب العميان وباب الغربي وباب القبلي ، وكان لمحلة باب الجسر سور يحيط بها من جهة والعاصي يحيط بها من الجهة الاخرى ، وعلى العاصي الجسر الكبير له باب من جهة الشمال الغربي وباب آخر في مبدإه من جهة القبلة ولسورها ابواب منها باب تدمر وباب النقفي وباب حمص . وقال شرحا لما ذكره ابن جبير راشرنا اليه برقم (١) الوهدة المكان المنخفض فان حماة في واد عميق كانت أرضه مساوية لارض النهر ولكثرة الزلازل وتراكم التراب ارتفعت الارض عن النهر .وعن الرقم (٢) انه تل العريصة و(٣) محلة باب الجسر و(٤) جسر محلة باب الجسر و(٥) كان في محلة الدهشة في بستان يسمى الاتون حوانيت وخانات ينزل فيها المسافر اذا جاء ليلا وابواب السور مغلقة ويسمى مثل هذا ربضاً ، وكان بنيان محلة المدينة اوسع واسواقها احفل من اسواق محلة باب الجسر وكان بين القسمين طريق مما وراء القلعة من البستان الذي يسمى الان بستان الخضر ، ثم امتد العمران لجهة الحاضر فحدثت محلات عديدة كما امتد البنيان في زمن نور الدين الشهيد حتى باب حمص جانب رحى المسرودة،اما مكان السوق

فقد كان مرتفعاً من الشمال ومنخفضاً في الجنوب وكان فيه مقابر واذا طغى العاصي فاض على هذا القسم المنخفض وملأه . فلما ضاقت البلد بالسكان مشى الناس بالبنيان الى موضع السوق فبنوا البيوت والحوانيت، ولما ولي الملك المنصور حماة بنى هذا السوق وكان يعرف بسوق المنصورية اهـ. قلت ، وشكل حماة الذي ذكره الصابوني قد تغير بالكلية واندرست حدوده ومعالمه ، فلم يعد يعرف اين كانت تبدأ الباشورة وخندق القلعة وينتهيا ، وليس في حماة اليوم من يستطيع ان يعين مواقع الابواب التي ذكر الصابوني وجودها في كل من محلة باب الجسر والمدينة ولا آثار سوريهما التي لم يبق منها الا بعض الاجزاء في احد احياء حماة الغربية المتطرفة القريبة من محطة السكة الحديدية، وهي تظهر تارة وتختفي اخرى، وفي اقصى هذا الحي برج كبير من بقايا ابراج السور ما برح ماثلا بجدرانه واحجاره الضخمة ومراميه الرفيعة ، وفي داخله ضريح رجل تزوره العامة .

وكان ينتظر من الملك المؤيد ابي الفداء ان يصف لنا عاصمة ملكه حماة في كتابه « تقويم البلدان » وصفا كافيا يطلعنا به على الرقي والعمران اللذين نالتهما في عهده وعهد اجداده التقويين الايوبيين في القرنين السابع والثامن ، ولكنه رحمه الله لم يشذ عن الايجاز الذي سار عليه في وصف بقية البلدان فاكتفى بقوله : حماة من الشام بين حمص وقنسرين وحماة مدينة أزلية ولها ذكر في كتب الاسرائيليين وهي من انزه البلاد الشامية والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة وفي داخلها الأرحية على الماء وبها نواعير على العاصي تسقي اكثر بساتينها ويدخل منها الماء الى كثير من دورها قال الهروي في كتابه المعروف بالزيارات : وحماة بلد قديمة مذكورة في التوراة وهي وشيزر مختصتان بكثرة النواعير دون غيرهما من بلاد الشام اهـ.

وبعد ان نقلت ونقدت ما سبق رأيت القلقشندي ينقل في كتابه صبح الاعشى (ج ٤ ص ١٤٠) عبارة تقويم البلدان على شكل آخر ، ولم أدر اي العبارتين اصح صدوراً من ابي الفداء ، قال : قال في « تقويم البلدان » :

ولها ذكر في التوراة وهي على ضفة العاصي مكينة البنـــاء ولها سور جليل ، وبيوت ملوكها وشرفاتها مطلة على النهر العاصي ، وبها القصور الملوكيةوالدور الانيقة والجوامع والمساجد والمدارس والربط والزوايا والاسواق التي لاتعدم نوعا من الانواع ، وبها قلعة منيعة بالحجارة الملونة وغالب مبانيها العلية ، وآثار الخير والبر الباقية فيها من فواضل نعم الدولة الايوبية وبها نواعيرمركبة على العاصي تدور بجريان الماء وترفع الماء الى الدور السلطانية ودور الامراء والاكابر والبساتين ، وفي بساتينها الغراس الفائق والثمار الغريبة ، ولم يكن لها في القديم نباهة ذكر وكان الصيت لحمص دونها ثم تنبه ذكرها في الدولة الاتابكية زنكي فلما آلت الىملوك بني ايوب مصروها بالابنيةالعظيمة والقصور الفائقة والمساكن الفاخرة وتأميرالامراء وتجنيد الاجناد فيها وعظموا اسواقها وزادوا في غراسها وجلبوا اليها من ارباب الصنائع كل من فاق في فنه الى ان كملت محاسنها وصارت معدودة من امهات البلاد واحاسن الممالك وهي في غاية رفاهية العيش ، الا انها شديدة الحر محجوبة الهواء ويعرض لها في الخريف تغير تنسب به الى الوخامة ، ولا يبقى بها الثلج الى الصيف كما يبقى في بقية الشام وانما يجلب اليها مما يجاورها ، وحولهامروج فيح ممتدة يكثرفيهامصايد الطير والوحش وليس بالممالك الشامية بعد دمشق لها نظير ولا يدانيها في لطف ذاتهامن مجاورتها قريب ولا بعيد اه . وقال في صبح الاعشى ايضاً . قال في التعريف : وحدها من القبلة مدينة الرستن وماسامتها آخذاً بين سلمية وقبة ملاعب الى حيث مجر النهر والآثار القديمة(١) ، وحدها من الشرق البر آخذاً على سلمية الى ما استفل عن قبة ملاعب ، وحدها من الشمال آخر حد المعرة من الغرب ، وحدها من

---

(١) لم اتمكن من معرفة مكان قبة ملاعب هذه ، ويظهر من كلامه انها كانت شمالي سلمية وشرقي الحمراء التي سيأتي ذكرها ، وقد دثرت هذه القبة وضاع رسمها واسمها في تلك الربوع ، كما انني لم افهم اي نهر ومجر قصد ، ولا اي آثار قديمة عنى ! ...

الغرب مضافات مصياف وقلاع الدعوة ولها ثلاثة اعمال : عمل برهاوهوظاهرها وما حولها وعمل بارين وعمل المعرة .

وقال شيخ الربوة في القرن الثامن ايضاً : حماة حماها الله بها سلطان ملك (لعله يعني الملك المؤيد ابا الفداء) ونائب مستقل وهي مدينة حسنة خصبة كثيرة الخير والأرزاق يحوطها النهر العاصي ويأتيها جارياً من بين جانبيها ويجمع بين الجانبين قنطرة وعلى العاصي نواعير كبيرة التي لم ير في الآفاق مثلهن يحملن من العاصي أنهاراً من الماء يسقون به البساتين والاماكن وهي كثيرة الثمار وبها المشمش الكافوري اللوزي الذي لم ير في سائر الآفاق مثله ومن اعمالها الكبار بعرين وتسمى بارين وهي قلعة منيعة وسلمية وهى على سيف البرية (بناها عبد الله بن صالح وعلي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم) ولها قناة كبيرة تحمل من سلمية الى حماة تسقي بساتينها واراضيها وهو نهر مليح . وقال ايضا عن حماة في فصل اعياد النصارى ومواسمهم : وفي عيد الفصح تبطل اهل حماة مدة ستة ايام اولها يوم الخميس الكبير وهو خميس العهد وآخرها يوم الثلاث ثالث الفسح وتنتقش فيه النساء وتلبس فيه الكساوي الفاخرة ويصبغون فيه البيض ويعملون الاقراص والكعك ، المسلمون اكثر من النصارى . ويرد الى حماة اهل سائر البلاد المجاورة لها مثل حمص وشيزر وسلمية وكفر طاب وابو قبيس ومصياف والمعرة وتيزين والباب وبزاعة والفوعة وحلب ويطلعون جميعا الى العاصي ويضرب لهم اهل حماة على شطوطه خياماً ويركبون في المراكب بالمغاني ويرقصون في المراكب النساء والرجال على الشطوط حتى تنهتك الخلائق ويمضى لهم ستة ايام لا يرى في الوجود مثلها وكذلك يبطلون اول يوم صوم النصارى ويقولون قد طلعوا يلتقون الراهب ويبطلون ايضاً يوم نزول الشمس برج الحمل ولم أر هذا في مدينة غيرها . وفي ليلة عيد الميلاد يوقد اهل حماة كبيرهم وصغيرهم وجليلهم وحقيرهم وجندهم واميرهم من القناديل فوق الاسطحة ومن القنب والشيح شيئا

عظما ويوقدون من البارود والنفط انواعا شتى وكذلك في عيد الختان ويسمونه الميلادة الصغيرة وربما يوقدون فيها اكثر من الكبيرة اهـ .

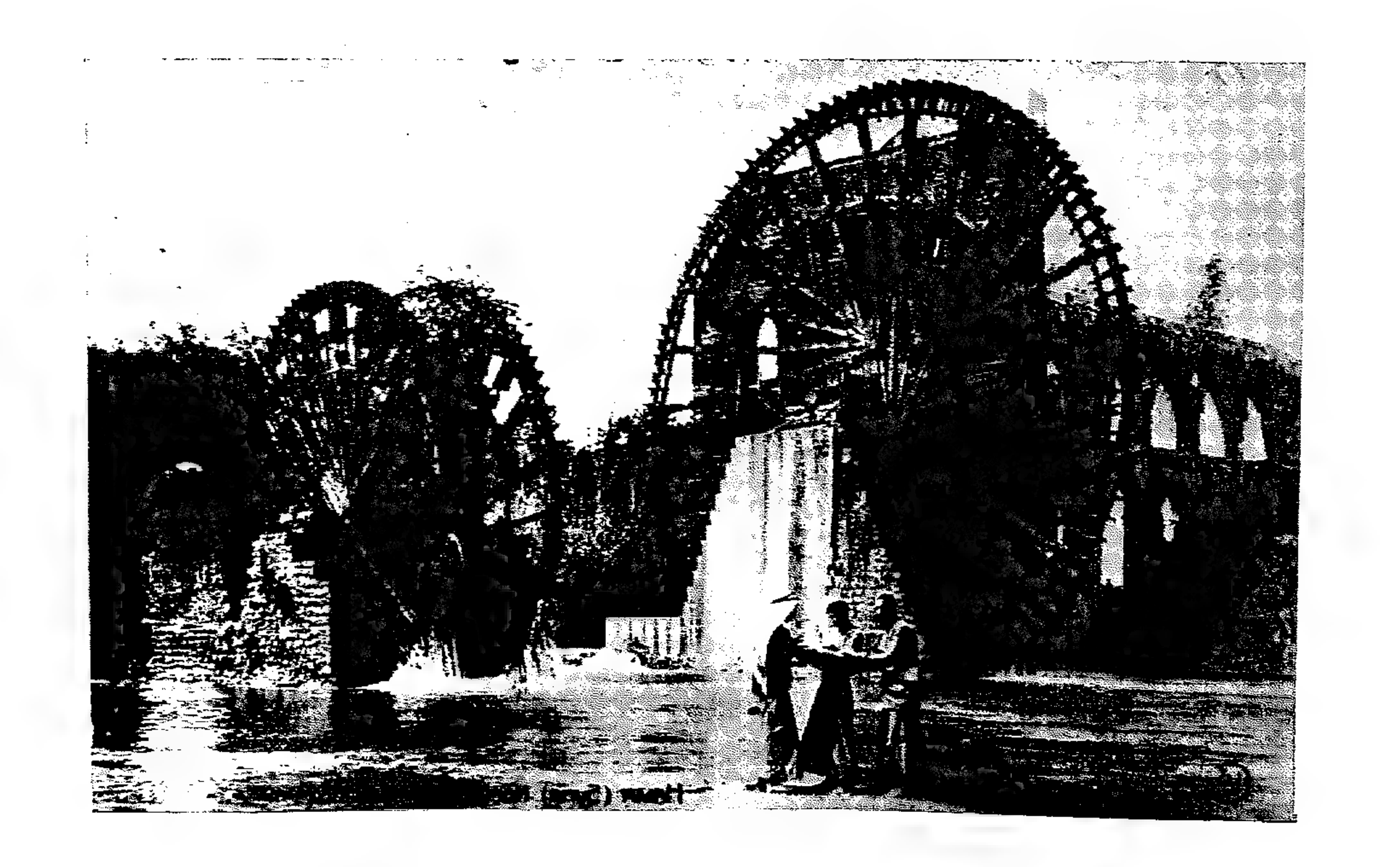
قلت ؛ نبهت هذه الجملة التى نقلتها عن كتاب شيخ الربوة افكار منوري حماة الذين قرأوها حينما نشرت في مجلة المجمع العلمي (ج ١٠ مجلد ١٢) وعرفوا منها ان بلدتهم كانت فيما مضى سباقة في مضمار هذه الحفلات السنوية ، فقاموا وعملوا في ربيع سنه ١٣٥٣ في يوم خميس المشايخ عيداً قومياً كان على بدائته ذا روعة واتقان وقد عولوا على زيادة تنظيمه في السنين المقبلة ، وقد حمدني بعض هؤلاء على تنبيهي وافادتي حماة بذلك .

وفي كتاب الدر المنتخب في تاريخ حلب لابن الشحنة بعد ان كرر وصف حماة على نسق من تقدمه : قال ولها قلعة معظمة في المدينة لكنها خربت منذ زمان . وكانت حماة قديما مضافة الى حمص ثم اضيفت الى حلب كما تقدمت الاشارة اليه ، ثم عظم شأنها بالملوك الايوبية الذين كانوا سلاطينها وان كانوا تحت يد ملوك مصر ومن ثم عظم قدر نوابها وصار بها قضاة اربعة وحجاب وامراء وارباب وظائف من كاتب سر وناظر جيش بدار النيابة . قال ابن فضل الله حماة مدينة قديمة وهي في وحدة من الارض حمراء ممتدة . قلت ليست ممتدة بل هي الى الاستدارة اقرب . ثم قال : وعليها نشزان عاليان يسميان 'قرون حماة . قلت : وليس هن عليها بل بعيد عنها وانما سميوا بذلك لأن قاصدها من جهة الشمال يراهن من بعيد فيستدل بذلك على القرب منها . ثم قال بعد ان اثنى عليها وعلى كثرة خيراتها ونواحيها ورخاء اسعارها خلا انها ذات وعر (وغر) في الصيف لحجب الهوا عن اختراقها ويعرض بهـا في الخريف تغير فتنسب الى الوخم ولا يبقى بها الثلج في الصيف كما يبقى في بقية بلاد الشام مدخراً الى الصيف ولكنه يجلب اليها من غيرها وحول حماة مروج ممتدة وبر فسيح يكثر به مصائد الطير والوحش . وليس لها سوى عملين : عمل بارين وعمل المعرة .

اما قناة سلمية التي ذكرها شيخ الربوة فقد كانت تصل الى حماة وتسقي

الارض الفسيحة العذية الممتدة في شماليها وقد درست وتنوسي خبرها . اما الزوارق فقد ادركنا منها اثراً ضئيلاً، كان قاصدو النزهة من الحمويين يركبونها من جسر المراكب الذي صار يدعى جسر السرايا حيث العاصي زائد العمق في الجملة ، يذهبون الى مكان في شرقي البلدة يدعي البشريات ، نسبة الى دفين بجانبها يسمى الشيخ بشر فيه ناعورتان كبيرتان تسقيان البساتين . ولم يبق في حماة من الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الربوة الا النادر ، وفقدمنها المشمش اللوزي الذي ما زال موجودا في دمشق والقطر المصري ومعروفا بالحموي وناب عنه صنف من المشمش الطيب يسمونه المشبه ، انما لقلته يكاد لا يكفي حاجة حماة نفسها ، وليس في بساتين حماة وازوارها الا الزروع المسقوية من الحبوب والبقول الواسعة الغلال وقليل من الاشجار غير المطعمة ، وما ذلك الا من اهمال ملاكي هذه البساتين وانصرافهم لزيادة عدد ما يقتنونه من القرى العذية دون العناية باتقان العمل .

وفي القرن التاسع في دولة المماليك وفي القرن العاشر في زمن العثمانيين كسدت بضاعة العلوم الدنيوية فلم ينشأ احد من الرحالين او الجغرافيين ينبئنا عما كان عليه اذ ذاك عمران حماة وغيرها من مدن الشام مما تقدم معنا ذكره او تأخر ، او انه نشأ ولم نعثر على ما كتبوه . وكذلك لم ينشأ في القرن الحادي عشر سوى سائحنا اوليا جلبي الذي وصف حماة على قدر ما وعاه فهمه . على ان المعروف من التواريخ ان حماة بعد زوال دولة الايوبيين التقويين والخراب الذي اصابها من هولاكو وتيمورلنك ، واستمرار فوضى الاحكام في عهد المماليك ، ودثور سلمية وغيرها من القرى الشرقية التي لا حياة لحماة الا بها وفصل المعرة عنها افل نجم حظها ، وفي عهد العثمانيين دام هذا الافول لتوالي جور المتسلمين الذين كان يرسلهم الولاة من طرابلس او دمشق وفتن الاجناد وعسفهم حتى هاجر كثير من الحمويين على مارواه المحبي الى بقية مدن الشام الاكثر اطمئنانا ، فخلت حماة من رجالها وانحط شأنها كثيرا . وفي القرن الماضي ولا سيما في عقده



نواعير حماة

(جولة اثرية · مقابل صفحة ٢٥٦)

الاخير دأبت الاسر الكبيرة التي اوجدتها احداث ذلك العهد على استصفاء العقارات في المدينة والمزدرعات في القرى بشتى الوسائل حتى لم يبق منها لا سيما في البرية من الارضين المملوكة لاهلها الا ما ندر . واصبح الحمويون من جراء ذلك فريقين متباينين ، العظامي الذي يسير فخورا لسعة املاكه ووفرة ارزاقه تدر عليه وهو مستريح ريعـــاً ينفقه في نعمه ورفهه ، والعصامي وهم السوقة والفلاحون الذين يكدون مدى العمر للحصول على كفاف العيش والاجور التي حقت عليهم لاولئك العظاميين . والشحناء من جراء هذا التباين مستحكمة الحلقات بين الفريقين .

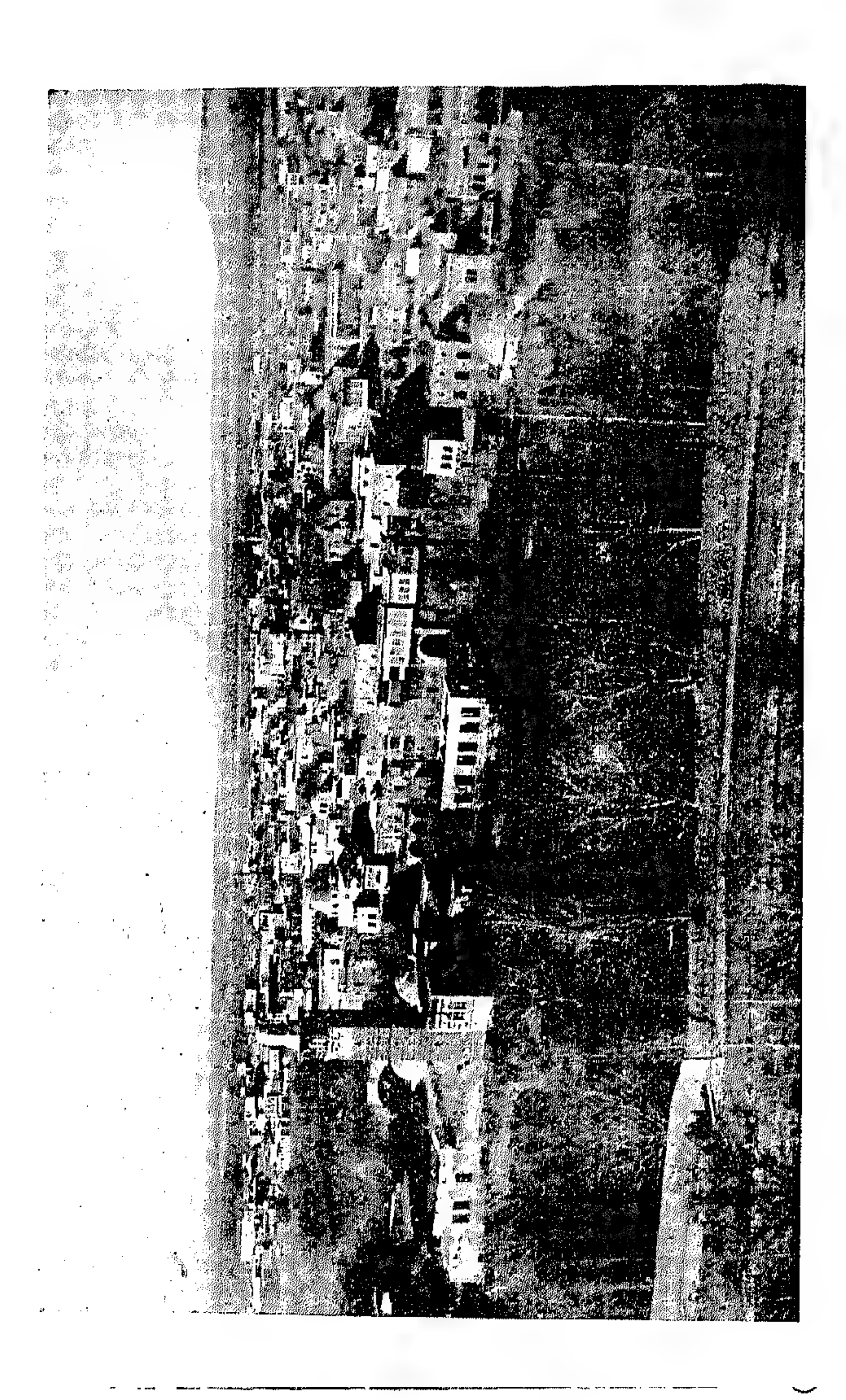
ومنذ قرن ونصف توافد رحالة الافرنج على حماة فاعجبهم جمالها الطبيعي ومنظرها الاثري واستغربوا انسياب عاصيها وشدو نواعيرها وازياء اهلها واطوارهم ، فكتب بعضهم ومنهم فولناي في سنة ١٧٨٣ وبركهارت سنة ١٨١٢ وايزامبر وشوفة سنة ١٨٨٢ وفان برشم سنة ١٨٩٨ وموريس باريس في سنة ١٩١٤ ومونمارشة سنة ١٩٣٢ ما اوحته اليه قريحته الغربية . وخلاصة ما كتبوه بما يكادون يتفقون في مآله ، ان حماة اختبأت في منخفض العاصي ومنعرجاته لا يتميزها القادم من بعيد الا من قرونها وانها احتضنت العاصي بجسورها واغمست فيه دورها وقصورها ، واطنبوا بنضرة رياضها وزهو اشجارها وازهارها وروعة عاصيها وانسيابه الهادىء ، ووصفوا نواعيرها معجبين بشكلها وعظمتها ودورانها وشدوها المطرب وصعوبة اعتياد الغريب عليه في لياليه الاولى وانتثار الماء منها وانصبابه في القناطر الممتدة الى الاحياء والبساتين، وتمثلوا العصور الوسطى عند رؤيتهم مباني حماة الاثرية المركومة التي لم يخالطها حتى الان بناء حديث واسواقها المعقودة ودكاكينها المزدحمة بالقرويين والبدو ، وتمثلوها ايضاً عند نظرهم الى اطوار سكان حماة وازيائهم العربية المتنوعة الالوان والاشكال ، وشكوا فقدان الفنادق والمطاعم وحرمان اسباب الرفه الجالبة للسياح ، وان حماة بلدة منكمشة بعيدة عن الاتصال بحضارة الغرب قليلة الترحاب بالاجانب واهلها متعصبون ،

والحياة الاجتماعية فيها لا سيما عند اسرها الكبيرة التي بيدها الملك كله تذكر عهد الاقطاع ، وان من المباني الأثرية التي تستحق الزيارة في حماة قصور بني العظم وبني الكيلاني والجامع النوري وجامع الحيات والقلعة . . الخ .

ومما قاله احدهم وهو مونمارشة صاحب « الدليل الازرق » : وحماة مثل اكثر مدن الشام لا يحتاج المتجول فيها ركوب المركبة فضياع الوقت يكاد لا يذكر ، ناهيك ان الماشي يتملى اكثر بمشاهدة الطرق . فالاحياء المبنية في ضفة العاصي اليسرى اكثر امتداداً واستمتاعاً منها في ضفته اليمنى . واذا غادر السائح جسر السراي يسير شمالا في شارع عريض يوازي العاصي(١) فيمر من تحت قناة ناعورة كبيرة (٢) ثم يصل الى قصر بيت العظم ، وكان مسكنا لاسعد باشا العظم الذي حكم حماة الى سنة ١٧٤٢ م (٣) وقد اتخذ الان مدرسة اهلية دعيت دار التعليم والتربية . وهذا القصر اصغر واقل بهاء من قصر بيت العظم في دمشق ، له فناآن احدهما علوي والثاني سفلي ، وفي العلوي قاعة ذات قباب امامها صف من الاعمدة ، ونجارة الخشب فيها ودهانه ووشيه من طراز القرن الثامن عشر ، وفي جنب القاعة غرفة فيها رسوم جميلة احدها يمثل مدينة حلب بمنظرها العام (٤) . واجمل ما في القصر موقعه ، فان الواقف في فنائه العلوي يشرف على مشاهد جميلة في ضفتي العاصي وعلى احياء حماة التي في ضفته اليمنى (٥) . وبعد الخروج من القصر يسير السائح شمالا فيمر من قرب ناعورتين عظيمتين جدا (٦) ثم من تحت ساباط الى ان يصل الى جسر على العاصي في

---

(١) يعني شارع ابي الفداء . (٢) هي ناعورة المأمورية . (٣) تاريخ بناء القصر سنة ١١٥٣ هـ . (٤) في هذه القاعة ثلاثة ابهاء تحت ثلاث قبب ، وفي البهو المتوسط بركة صغيرة جميلة ذات فسقيات من المرمر ، والنقش والدهان الدمشقيين جميلين جداً ، لا يزالا على غالب جدتهما ، وقد جدد البهو الغربي سنة ١٢٩٤ في عهد نصوح باشا بن اسعد باشا ، وللبهو المتوسط ثريا جميلة وفيه وشي مذهب غاية في الاتقان . (٥) يعني الحاضر . (٦) هما الجسرية والمأمورية .



قربه ثلاث نواعير ، ويشاهد على ضفة العاصي اليمنى قصراً ذا قبة لآل الكيلاني ذوي الوجاهة في حماة (١) والواقف على هذا الجسر تقر عينه بمناظر الحدائق الجميلة وصوت النواعير المطرب ، وثمة في الضفة اليسرى حمام عربي قديم (٢) واذا رجع السائح في الطريق الصاعدة من الجسر يزور الجامع النوري . (وبعد ان وصف هذا الجامع قال) : ثم يصل الى التل الذي كانت تعلوه القلعة المندرسة، والواقف في ذروة هذا التل يتمتع بمشاهدة حماة كلها ، وفي جنوبي هذا التل جامع صغير له قبة مضلعة تدعى قبة الحسنين وفي الجامع كتابة تذكر تجديده عقيب الزلزلة الهائلة التي حدثت في سنة ١١٥٧ م . ثم يصل الى الجامع الكبير (وبعد ان وصف هذا الجامع وضريح الملك المظفر قال: واذا استأنف السائح السير في ذلك الطريق وعرج نحو اليمين يواجه العاصي ويرى الناعورة المحمدية الكبرى (٣) المبنية في القرن الرابع عشر وهي تسقي الجامع الكبير . فاذا اجتاز الجسر (٤) وعليه طاحونة قديمة يلاقي وسط الحدائق جامع الحيات ، (وبعد ان وصف هذا الجامع وضريح ابي الفداء قال) : وبناء هذا الجامع خال من الاتقان الصناعي ، لكن منظره من الجسر المجاور له وخياله المنعكس على مياه العاصي الذي تحيط به الحدائق يجعل له منظراً من اروع مناظر حماة . ويعود السائح من جامع الحيات الى المدينة بعد ان يمر من سفح تل القلعة ويجتاز ساحة خالية وسيعة تمتد امامه (٥) ، ثم ينفذ الى اسواق حماة التي لا تختلف كثيراً بحركتها وجلبتها عن اسواق دمشق وحمص ، وتفوق تلك بانها لا تزال محتفظة بوضعها وبنائها

---

(١) بحثنا عن هذا القصر في هامش الصحيفة ٢١ • (٢) حمام صغير بسيط يدعى حمام السلطان بناه فيما قيل الملك المنصور بن الملك الظاهر تقي الدين عمر وكانت حمامه الخاصة به • (٣) في باب النهر • (٤) يعني جسر باب الجسر • (٥) يقام في هذه الساحة سوق عامة كل يوم خميس تجمع كل ضروب السلع والاقوات والبقول ، وقد شادوا حديثا في وسطها بناء جميل لمدرسة التجهيز الاميرية •

الاثريين(١) اه . ووصف الصابوني قلعة حماة فقال : بنيت قلعة حماة على صورة قلعة حلب فوق تل صناعي عال ، فقد كانت على هيأة من الاتقان غريبة ينظر الداخل الى باب لها مشمخر بحجارة عظيمة على خمسة جسور مرتفعة فوق الخندق ، ثم يدخل الى منعطفات الابراج فيرى البلد من النوافذ المفتوحة للحراسة الواسعة من الداخل والضيقة من الخارج ومن فوقها النوافذ الواسعة التي سدت بشبك من الحديد عظيم ، وبعد اجتياز المدخل بنايات عظيمة من دار الحكومة ومحل الذخائر وبيوت السكن يحيط بها سور عظيم مرتفع وفي مقابلته جامع ابي الفداء وجامع للقلعة ذي منارة شاخة ، ومنه الى الجهة القبلية بمسافة واسعة حمام كبيرة جدا ، وفي طرفها الشرقي المطل على طريق باب الجسر بئر واسعة فيها ماء عذب جداً يأتي من مكان خفي من نهر العاصي ولها طريق تحت الارض يصل الى العاصي من جهة الشمال مارا من تحت بستان الدوالك متصلا ببعض البيوت وكانت القلعة مرصوفة بالحجر الاملس من اسفل الخندق الى حيطان السور لئلا يصعد اليها العدو ، وللقلعة خندق دائر حولها عميق جدا وكان العاصي مرتفعا عنه ، ولهذا الخندق طريق الى الماء من المكان المسمى الآن جسر الهوا في مدخل محلة باب الجسر ، كانوا اذا ارادوا الحصار يفتحون منه ماء العاصي فيمتلىء الخندق ، وقد اشار الى ذلك ابن جبير وياقوت اه . قلت وقد ظلت هذه القلعة على هذا المنوال الى ان جاء هولاكو طاغية التتر في سنة ٦٥٨ ه وهو كما ذكرنا مراراً لم يدع قلعة اسلامية الا وكان يتقصدها بالدك والنقض ، فخرب قلعة حماة واحرق ما فيها من الذخائر والعتاد ، ثم اعاد ملوك حماة الايوبيون ترميمها الى ان قضى عليها ابن تيمورلنك في سنة ٨٠٣ القضاء الاخير كما قدمنا ، وامست من ذلك الحين ليس فيها الا بعض بيوت وجدران قائمة وسجن للحكومة وانقاض الى بعد مرور

(١) ازالت بلدية حماة منذ عهد قريب سقف سوق حماة المعقود ، ثم استبدله تجار هذا السوق بسقف من معدن التوتياء جعلوه اعلى من القديم وذا نوافذ لجريان الهواء ودخول النور ، فضاع بذلك الموضع والبناء الاثريان اللذان يتطلبهما السياح .

اوليا جلبي في القرن الحادي عشر . وفي القرنين الماضيين جردت الاطلال ونقضت الاحجار واستعملت في بناء قصور الكيلانيين والعظميين وغيرها ، فاضحى سطح التل قاعاً صفصفا ليس فيه من تراث الاقدمين الا بعض كسور الاحجار واسس جدران من الآجر ، الى ان جاءت في سنة ١٣٥٠ بعثة اثرية دانماركية برئاسة العالم الاثري انكولد الذي تقدم ذكره وان ضالته العثور على الابجدية الحثية ، وشرعت تحفر في تل القلعة فكشفت باديء بدء في الطبقة العليا من آثار العرب عدداً غير يسير من الاواني الخزفية وقطع الفسيفساء والقنابل اليدوية الخزفية التي كان يستعملها العرب في حروبهم وكشفت عدداً يسيرا من من الانصاب والعاديات الرومانية والبيزنطية والاهان مصريان ، ودأبت في ربيع كل عام على الحفر املا بان تصل الى الضالة المنشودة ، ولما تصل بعد .

وفي حماة جوامع ومساجد كثيرة نخص بالذكر منها (الجامع الكبير) ليس في حماة جامع مثله في اتساعه وعظمته ، وهو في محلة المدينة وجد من عهد ابي عبيدة وكان يسمى الجامع الاعلى ، قيل انه جدد في خلافة المهدي من خراج حمص على ما نقش على رخامة فيه ، ثم جاء المظفر عمر فزاد فيه وبنى مدرسة بجواره ، ثم جاء ابراهيم الهاشمي فانشأ منارته الشمالية سنة ٨٢٥ كما زبر ذلك على رخامة فوق بابها ، وبنى ايضا الحرم الصغير في جانب المسجد من جهة الشرق ورواق الجامع ايضا بناه سنة ٨٣٢ ، وفي غربي صحن هذا الجامع قبة صغيرة تدعى بيت المال او الخزنة تشبه قبة جامع بني امية في دمشق بنيت على ثمانية اعمدة ذات تيجان يونانية وتحتها بحرة مثمنة الاضلاع وعلى الاعمدة كتابة عربية قديمة لم يتسن لي استنساخها ، وللجامع حرم واسع جدا فيه منبر خشبي من عهد زين الدين كتبغا الذي بعد ان كان ملكا صار نائباً في حماة سنة ٧٠٢ كما قدمنا ، وهذا المنبر آية في جمال الحفر وبراعة النقش المشكلين على خطوط ودوائر هندسية تعد من ابدع نماذج فن النجارة الجميلة العربية . ومن آثار النصرانية او الوثنية في هذا الجامع جدار حرمه الغربي كان فيه باب عريض

مسدود فوقه عتبة منقوشة نقشاً بديعا ، وعلى العتبة قوس ، وعلى طرفي الباب في اصل الجدار محاريب صغيرةذات زوافر واعمدة منقوشة ايضا . وسدة الحرممزينة بالوشي والدهان الدمشقيين الجميلين ويرجع عهد هذه السدة الي قرنين ، وهي را كبة على اربعة اعمدة من الرخام الابيض يظهر انها منقولة من مكان آخر . وفي غربي صحن هذا الجامع باب ينفذ منه الى حديقة فيها ضريح المظفر وابنه ، عليهما تابوتان عملا من الخشب المنقوش والمرصع نقشاً وترصيعابديعين، وللجامع في جهة القبلة منارة مقطوعة الرأس بابها من الحجر الحري الاسود ، وكان لهذا الجامع اوقاف كثيرة اندرست ولم يبق الا القليل .

وصف الاثري هرزفيلد هذا الجامع فقال : ان اصل حرمه كان كاتدرائية للنصارى غريبة الشكل ، وله ثلاثة أفنية مختلفة السعة وثماني دعائم وخمس قباب ومن كل ناحية خمسة عقود او اقبية ، ويظهر ان الجدار الغربي كان حائط رواق الكنيسة والجدار الجنوبي من العهد السـابق للنصرانية كما هو الحال في جامع دمشق كان معبداً ثم بيعة ثم جامعاً . والى جهة الشرق قامت منارة قديمة منفردة وهي مربعة الزوايا زبرت عليها كتابة كوفية ذات ثلاثة اسطر ربما كانت من القرن الخامس . وتحيط بصحن الجامع الجميل أروقةمعقودة وهناكمصلى بمحرابين أمام الحرم ومصلى آخر له حوض ماء ومحراب منفرد في الرواق الشمالي ،وخزنة قائمة على ثمانية اعمدة قديمة ، وفي الرواق الغربي حرم صغير له نوافذ كبيرة فيها قضبان صلبة معمولة من النحاس من عهد المماليك ، ومن الرواق الشرقي يصل الانسان الى قبة الملك المظفر محمود وله تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش ، وهناك منارة ثانية قامت وسط الرواق الشمالي ويستدل من كتابتها وشكلها انها من عهد المماليك ، وفي جامع حماة تجلت خاصية من هندسة منارته القديمة وذلك ان ظاهر الحيطان مزين بنقوش رسمت بالوان تشبه الفسيفساء لمراوحتهم فيصفها بين الحجر الحري الاسود والحجر الكلسي الابيض اهـ .ومنجوامعحماة(جامع الحيات) في باب الجسر كان متسعا وقد هدم من جهة الغرب فذهبنصفه وعدا



الجامع الكبير في حماة

(جولة اثرية مقابل صفحة ٢٦٢)

عليه الجوار فأخذوا من ارضه الشرقية ربعه . بناه ابو الفداء وعمل لحرمه من جهة الشرق شباكين كبيرين بينهما عمود كبير من الرخام على شكل افاع ملتفة ولهذا سمي جامع الحيات ، وعمل فيه خزانة كتب كبيرة كان فيها سبعة آلاف مجلد فذهبت فيما ذهب منه ، ونقش حرمه بالذهب والفسيفساء والرخام الملون في جدرانه وارضه ، وعمل له من الغرب شبـــاكين كما في جهة الشرق غير انهما هدما وادخلا في البستان المجاور له . وعلى يمين مدخل الجامع الذي ينزل اليه بدرج غرفةفيها ضريح الملك المؤيد ابي الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ اصلحها بعد دثورها منذ سنتين العالم المصري المرحوم احمد زكي باشا . وبنى ايضـــا رجل حموي متوسط الحال يدعي الانتساب الى السلطان بدر الدين حسن اخي ابي الفـــداء منارة جميلة في جانب الضريح مكان المنارة القديمة المندثرة . و (جامع السلطان) في محلة الدباغة بناء السلطان حسن شقيق ابي الفداء على هيأة جامع الحيات ومشتملاته و (الجامع النوري) في محلة باب الناعورة بناه نور الدين محمود في سنة ٥٥٨ بعد الزلزال الكبير الذي هدمت فيه حماة ، واوقف له اوقافا كثيرة لم يبق منها اثر ، وكان له باب شاهق من الغرب درس وباب آخر من الشرق باق حتى اليوم وبين هذين البابين تاريخ بناء الجامع محفور بخط جميل وحروف ضخمة . وصفه هرزفيلد فقال : هذا الجامع على الشاطئ الايسر من العاصي في ارض منحدرة وفوق ساباط معقود . بني هذا الجامع على عهد نور الدين وعلى ما دخله من الترميمات الكثيرة تشاهد فيه الى اليوم اجزاء مهمة من البناء القديم ولا سيما الحرم الطويل الذي عقوده حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع ، وكذلك القباب الثلاث من الرواق الشمالي المختلفة الاشكال ، والابنية التحتانية من الجهتين الشرقية والشمالية والحائط الخارجي الشمالي من الجامع . وربما كان الجزء الاسفل من المنارة بما فيه الحجارة المنحوتة البيضاء والسوداء قديم العهد ايضا ، وفي هذا الجامع بقايا منبر جميل عمل من الخشب يرد الى زمن نور الدين ثم محراب زين اجمل زينة فيه اعمدة من الرخام المجزع من عهد الملك المظفر محمود (٦٢٦ —

٦٤٢) وفي مكان آخر من الشرق لخراب ذو اعمدة من المرمر زبر في تيجانها اسم ابي الفداء .

هذا ويبلغ عدد سكان حماة الآن اربعين الفا تسعة اعشارهم من المسلمين واكثر البقية من الروم الارثوذكس واقلها من السريان القدماء والسريان الكاثوليك والبرتستانت . وحماة ما برحت قاعدة لمتصرفية كان يتبعها اقضية حماة وحمص وسلمية ومصياف ، ثم فصلت عنها حمص وجعلت متصرفية والحقت مصياف بحكومة اللاذقية ولم يبق لحماة سوى قضاءها المركزي وقضاء سلمية ، يتبع الاول نواحي حماة وطار الغلا والحيري والحمراء ويتبع الثاني نواحي علي كاسون ومعر شحور وعقيربات وسلمية . وحماة بلدة زراعية اكثر منها صناعية وجل علائق سكانها مع الفلاحين والبدو ، فاذا جادت السماء بالامطار واقبلت المواسم حسنت حالتهم ، وان شحت حصيل الجدب وعم الضيق . اما صناعاتها فهي البياض ومنسوجات الحرير وقد كان لها في الماضي القريب مكانة كبرى وكان المرتزقون منها في حماة — ومثلها في حمص ودمشق وحلب وطرابلس — يعدون بالالوف . ذكر في « التقويم السنوي لولاية الشام » لعام ١٣٠٥ هـ انه كان في حماة ٥٠٠ نول يشتغل بها ٨٠٠ عامل يصنعون في كل عام ٣٠٠٠٠ من عدة الحمامات كالمناشف والفوط و ٣٦٠٠٠ ثوب من البياض و ١٠٠٠٠ شرشف فراش مما كان يبلغ ثمنه ٧٠٠٠٠ ذهب عثماني اهـ . بدأ هـذا الوارد يتضاءل منذ اليوم الذي كثر فيه اقبال الشرقيين على استعمال الثياب والفرش الافرنجية ، وزادت ضؤولته بعد الحرب العامة على اثر فصل بلاد الشام عن الاقطار المجاورة التي تروج فيها هذه المصنوعات واخصها بر الاناضول والقطر المصري وتزييد رسوم المكس عليها الى ان بطل استعمالها في الاناضول وتعذر تصديرها الى مصر ، فماتت هذه الصناعة او كادت وساء حال مرتزقيها .

وتصدر حماة للخارج أعتاق الخيول العربية وانواع الحبوب والسمن الحديدي الفاخر المشهور والصوف والجلد ، وفيها كثير من الجوامع والكنائس

والمدارس الاميرية احداها مدرسة تجهيز بني لها اخيراً دار فخمة في سوق الخميس والمدارس الخاصة كدار العلم والتربية التي تقيم في قصر بني العظم الاثري ، وفيها الصيارف والاطباء والصيدليون والمحامون وتجار السلع المختلفة ، ومن هذه السلع ما هو خاص بالبدو . ويكثر في اهل حماة القرع وامراض العيون لكثرة العجاج وشدة الحرارة والرطوبة في الصيف وقلة العناية بالصحة . وابهج الفصول في حماة الربيع — تزدان فيه حقولها وحدائقها وازوارها بحللها السندسية، ويقصد الحمويون آنئذ المنتزهات ويضربون الخيام في الاماكن العليا المشرفة على تلك المرتبعات ويقضون فيها اياماً واسابيع ، ويجلب الاعراب الذين يكثر وجودهم في براري حماة — اللبن الخاثر الجيد ومشتقات الحليب كاللباء والزبد والكشأة ، وجميعه مما تباهي حماة بوفرته وجودته . واردأ الفصول فيها الصيف والخريف فانهما شديدة وطأتها . وقد انجبت حماة في العصور الغابرة علماء وادباء كثيرين ذكروا في كتب التراجم ، وما برح اهلها في الجملة ذوي شغف بالدراسة وبينهم الآن لا سيما في الطبقة الوسطى عدد غير يسير من حملة الشهادات المتوسطة والعالية في مختلف المسالك . هذا وينقص حماة لتحسين جمالها الطبيعي تغيير شكلها الموروث منذ قرون ، وذلك بتنظيم شوارعها وتنظيفها وتشييد المباني على الطراز الحديث ، وايجاد الفنادق والمطاعم والمسارح التي تجذب اليها الغرباء والسائحين ، وجلب الماء القراح ونور الكهرباء ، واصلاح بساتينها واعادة الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الربوة الى آخر ما هنالك من وسائل العمران التي قصرت فيه عن بقية مدن الشام .

طريق حماة — سلمية (٣٢ كيلو مترا)

الطريق من حماة الى سلمية لحب لم يتم تعبيده بعد . وقاصد سلمية بعد ان يخرج من حي الحاضر في حماة تارة يعلو تلعات متموجة وتارة يهبط اودية احدها

يدعى العميق تنحدر مياهها في الشتاء نحو العاصي ليس بينها ذو ينابيع واشجار قليلة سوى وادي عين القصارين . والسائر في هذه الطريق يلمح باديء بدي في الشمال قرية جبرين وقرية عين الباد التي وجد فيها اخيراً ارض كنيسة بيزنطية مبلطة بالفسيفساء فيها اغصان واقفة عليها طواويس ، ويرى السائر اعضاد جبل العلا الممتدة من الغرب الى الشرق منها جبل الفانات (٥٦٤ متراً) في جنوبه قرية معرشحور ، وجبل القرم (٥٧٩ متراً) وجبل كاسون (٥٨٦ متراً) في سفحه الجنوبي قرية كاسون الجبل ، وفي جنوبي هذه آثار قناة آتية من انحاء سلمية تدعى قناة العاشق تتجه نحو الشمال يزعمون انها ذاهبة الى افامية . وثمة من الضياع الصغيرة التي يملكها سراة حماة على يسار الطريق مباركات وام جرن وصماخ وشحلة وغيرها . ويرى السائر على يمينه في غربي العاصي جبل الاربعين (٦٩٤ متراً) وجبل تقسيس (٦٨٥ متراً) وفي سفحه في منخفض العـــاصي تختفي قرى الجاجية وسريحين وجنان والجرنية وتقسيس وبينها أزوار تروى بالنواعير . وتربة الارضين في طريق حماة وسلمية تميل الى الاصفرار والبياض كلما ذهبت مشرقاً . ومن غريب امر آكام جبل العلا المؤلفة من الحجر الحري الاسود ، الموحشة لتجردها عن الاشجار والانجم بل كل اخضرار — أن امتدت في بعض منحدراتها وسفوحها الوعرة سلاسل من الاحجار من صنع الاقدمين مما يحمل على الظن بأنهم كانوا يملأون اجوافها بالغراس والكروم . ترى ، هل ضاقت هذه السهول الشاسعة وقتئذ بسكانها حتى اضطروا للتعلق باذيال الجبال وكيف كان يتم لهم ذلك وهذه البقاع الفقيرة بالامطار لا سبيل لنمو الغراس والكروم الاعذاء فيها ؟ هذا وبعد ان يجتاز السائر قرية الكافات يشاهد عن بعد قلعة شميميس تطل من وراء الآكام المحيطة بهـــا ، ثم بقرية تل الدرة واهل هاتين القريتين اسماعيلية ، وببضعة طواحين في جنوبها مرج القريم ، وبعين ماء كبيرة تدعى عين الزرقاء ، الى ان يدخل في سهل افيح مترامي الاطراف جثمت فيه سلمية .

سلمية . — سلمية بليدة قديمة كان لها شأن وذكر قبل الاسلام ولا سيما بعده في عصوره الاولى والمتوسطة . ففيها جرت المعركة الحاسمة التي قضت على دولة الامويين وآمال اتباعهم ، ومنها نشأت الدعوة الاسماعيلية في الشام وانتشرت ، وفيها ولد اول خليفة فاطمي ، وفيها كان مقر اعاظم امراء اعراب البادية الذين اثروا كثيرا في العصور المتأخرة في زوال عمران شمالي الشام . وهي الآن قرية كبيرة في شرقي حماة الى الجنوب وشرقي حمص الى الشمال تبعد عن الاولى ٣٢ وعن الثانية ٤٠ كيلو متراً . تقع في سهل افيح مترامي الاطراف مطرد المناظر ، ينتهي في الشرق البعيد عند سفح جبل البلعاس حيث آخر العمران ، وفي الشمال يتصل بالبراري الممتدة نحو خرائب قصر ابن وردان والاندرين ، وفي الجنوب بالتلعات والمنبسطات الذاهبة نحو حمص . وتشرف على سلمية من الغرب وعن كثب سلسلة آكام من اعضاد جبل العلا وهضبات متموجة تضمحل عند سقي العاصمة الايمن . وهي في يومنا قاعدة قضاء من اعمال لواء حماة يقطنها زهاء سبعة آلاف من الاسماعيلية اهل الحرث والزرع يضاف اليهم نحو الفين من الغرباء هم موظفون او باعة او صناع او بستانيون . وفي قضائها قرى وضياع عديدة يقطن اكثرها الاسماعيلية والنصيرية واقلها الاعراب المتحضرون والشركس . ويشتد فعل الرياح الغربية في سلمية لوقوعها في ذلك السهل الافيح فتثير العجاج وتحول دون نمو الاشجار . وقد يصل البرد في الشتاء الى درجة الصفر كما ان حر الصيف قد يبلغ الاربعين ، على ان جفاف الهواء يخفف وطأتهما فلا يشعر بهما كما في حماة ذات الوادي المنخفض . وكمية هذه الامطار السنوية لا تنيف عن الاربعمائة ميليمتر في معظم السنين . ولذا لا تخصب تربتها الرملية الكلسية الصفراء الا اذا جادها الغيث بكثرة ولا تنمو الزروع الصيفية والاعناب في مستهل نموها والاشجار في كل حياتها الا اذا رويت . وقد اشتهرت سلمية بسعة كرومها وبساتينها واراضيها الاعذاء ، واجل

غلالها التي تصدرها الى بندر حمص ثم حماة الحنطة والشعير والقزح والبصل والكمون وصنف من العنب يدعى البياضي يتأخر نضجه حتى اواخر الخريف. ويستخرج ماء سلمية من الآبار وهو قريب المنال ووسط في عذوبته . ويرجع الفضل في عمران سلمية الى القني القديمة الممتدة فيها وفي اعمالها كخيوط الشباك مما لا نظير له في بلاد الشام الا في اقضية منبج ودوما والقطيفة . وهذه القني من العجائب الشاهدة بمقدرة الاقدمين في نقر الصخر الصلد ورسوخهم في علم استنباط المياه وجرها (١) ، يكري اهل سلمية الحاليون هذه القني وقد برعوا في تتبع آثارها وتنظيف اسرابها وآبارها ويسيلونها ، ويوشك اذا دامت هذه العناية ان تصبح كورة سلمية غوطة مصغرة ويعود اليها مجدها الغابر الذي ذكره جغرافيو العرب ونعتوه بكثرة المياه والشجر ووفرة الخصب والرخاء.

ومن البواعث التي وجهت انظار الغابرين والحاضرين نحو سلمية هذه المروج الممتدة في شماليها وغربيها واجلها شأنا المسماة بالخصيمية وبالقريم وهي واسعة مستوية يزكو فيها الكلاء ويبسق في سني الخصب ، ومياهها وفيرة وفي متناول اليد اذا حفرت لها حفائر . وقد كانت هذه المروج في العصور الماضية ممر الجيوش الزاحفة من حلب نحو دمشق ومصر او بالعكس ، او محط القاصدة حصار حماة او حمص فتربع خيلها وتريح جندها ، لا سيما والطريق من حلب الى سلمية المار من سيف البادية (الخرايج ، تل حلاوة ، الحمراء) تكثر فيه البطاح والغدران وتقل فيه دواعي الاصطدام مع حماة المعمور ، وهما امران

(١) الغالب ان الحثيين والاراميين هم اول من خطط وفجر قني سلمية كما فجروا ايضاً قنى منبج وانشأوا بمياهها بحيرتها المقدسة (راجع الصفحة ٢٢٥) ولا ريب في ان الامم التي خلفتهم سارت على غرارهم فزادت كمية هذه القني واتقنت كيفيتها . واذن ليس يصح ان تنسب هذه القني الى الرومانيين دون غيرهم . لان للامم التي سبقتهم آثار بارزة في بلاد الشام في القني والسدود والقلاع والحصون ينبغي ان لا تبخس حقوقها فيها .

غير متوفران في طريق المعرة وحماة . ثم ان قبائل الاعراب كانت ومابرحت تقيظ في هذه المروج وترتع فتزيد خصبها بتراكم روث انعامها .

واكثر دور سلمية قباب مخروطية الشكل من اللبن والتراب كما هو الحال في القرى الممتدة شرقي حمص وحماة وحلب على انها صارت تبدل منذ ربع قرن بدور حجرية جلها من الطراز القروي البسيط ، وفي منتصف هذه البليدة ساحة وسيعة تلتقي فيها طرق الاحياء الضيقة المعوجة غير المرصوفة وتحيط بها حوانيت الباعة ومرائب السيارات ، وقد قامت وسطها دار الحكومة وفندق حوله حديقة وبجانبها جامع للسنية حديث البناء وكذا الدار والفندق المذكوران ، وثمة في جنوبي سلمية مدرسة ابتدائية رسمية ذات بناء جميل واخرى في غربيها زراعية عملية انشئت سنة ١٣٢٨ وقامت ابنيتها العديدة وسط ارض فسيحة خاصة بها والمدرستان انشئتا بايعاز الحكومة العثمانية تبرع الاهلون بارضيهما وانفقوا قسما من الاموال التي يرسلونها عادة الى الهند في تشييد مبانيها . وقد سبق لكاتب هذه السطور جهود جمة في فتح المدرسة الزراعية واعمارها وادارتها قبل الحرب العامة ولا سيما بعدها لما احرقت واغلقت عقيب انسحاب الترك ، فتمكنت رغم المنغصات والمثبطات التي كانت تعترضني من تعليم التلامذة الذين كانوا يتقاطرون من مختلف انحاء الشام وتدريبهم على الاساليب الزراعية الحديثة ، ووضعت المناهج والمصطلحات ، والفت بعض الكتب في الفنون التي لم يسبق تدريسها في العربية وانشأت الكروم والبساتين والمشاتل الزاهية حتى الان ، وخرجت خلال السنوات السبع التي مكثت فيها عددا غير يسير من الاخصائيين استلمت طائفة منهم زمام العمل فيها وغيرها من المعاهد والدوائر الزراعية في مختلف الاقطار العربية فكان منهم بعض النفع في خدمة هذه الحرفة . وبعد ان غادرت هذه المدرسة وسدت امورها الى غير اهلها فامعنوا فيها خبطاً وحطاً حتى اضطروا الحكومة في سنة ١٣٥١ الى الغائها وابقائها كمركز للاختبار الزراعي فحسب ، وبذلك خسروا سلمية معهدا علميا كان على علاته سبب اشتهارها ومصدر

رقيها الثقافي والزراعي ، ناهيك عن نفعه بقية البلاد الشامية التي كانت ترسل ابناءها للاغتراف من ينبوعه .

وسلمية بليدة عريقة في القدم منذ العصور الاولى بدليل العثور على كثير من عاديات الامم الغابرة فيها وضواحيها ينبشها الاهلون من الاطلال والمدافن القديمة ويبيعونها من غواتها باثمان جيدة ، فهي اذن لا بد ان تكون كحماة وقطنا (المشرفة) وآرتوزيا (الرستن) تبعت حمص عاصمة هذه الديار في تلك العصور وشاطرتها على نسبة مصغرة ادوار الاقبال والادبار في عهد اللوذيين والحثيين والآراميين والسلوقيين ، ولا يبعد ان تكون تبعت امارة آل شميسغرام العربية التي سادت تحت اشراف السلوقيين في حمص والرستن خلال العصر الميلادي الاول . ثم رأت سلمية عهد الرومانيين الذين مدوا عمران ضاحيتها الى جبال البلعاس وفيافي الاندرين وكان اسمها في عهدهم Salamias . ورأت سلمية التدمريين مدة ثم عادت الى الرومانيين تزهو في ظلهم الى ان خلفهم البيزنطيون ثم المسلمون . ومما يدل على عمران سلمية اذ ذاك انه لا تخلو باحة او دار فيها من اسس الجدران او ناووس او جرن او عتبة او تاج عمود او قاعدته او سارية بعضها مستعمل في تضاعيف الابنية الحاضرة وبعضها مبعثر ومنها ما عليه كتابات ونقوش يونانية تنتظر من يعني بها .

ومما ادى الى عمران سلمية آنئذ ان مركزها الجغرافي جعلها تمر بها في زمن ازدهار تدمر وبعده من لم يرغب العروج بحمص من القوافل الغادية والصادية من تدمر والعراق الى شمالي الشام وما وراءه من بلاد الروم . ولكنها لم تكن ذات مكانة حربية توجب اشادة الاسوار والثكنات التي كانت تزدهي بها تدمر والاندرين . على اننا لفقد المراجع مازلنا نجهل تاريخ سلمية في تلك العصور وحالتها ، لا سيما كيف كانت ابان الفتح الاسلامي اعامرة وخربت بعده ، ام انها خربت قبله في اواخر عهد البيزنطيين حينما سادت الفوضى ادارتهم وارهقوا الشعب بكثرة الضرائب وطرق جبايتها وشغلوا بالحروب المستمرة مع الفرس

فانحطت بسبب ذلك بلاد الشام عامة ونقص قطانها وخربت منها على الاخص افامية واسريا والاندرين وخناصرة وغيرها من المدن والقرى التي كانت منتشرة على سيف البادية ولا تزال اطلالها تدل على ازدهارها السابق ، ومنها كانت سلمية ؟ .

ويظهر من كلام جغرافيي العرب ان سلمية ظلت خرابا او شبه خراب خلال القرن الاول الهجري الى ان جاءها في القرن الثاني عبد الله بن صالح العباسي الهاشمي وعمرها . فقد قال اليعقوبي من رجال القرن الثالث في كتاب البلدان : وسلمية وهي مدينة في البرية وكان عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب ابتناها واجرى اليها انهرا واستنبط ارضها حتى زرع فيها الزعفران واهلها من ولد عبد الله بن صالح الهاشمي ومواليهم واخلاط من الناس تجار وزراعين . وقال ياقوت في معجم البلدان : سلمية بليدة في ناحية البرية من اعمال حماة بينهما مسيرة يومين (كذا) وكانت تعد من اعمال حمص ، اتخذها صالح ابن علي بن عبد الله بن عباس منزلا وبنى هو وولده فيها الابنية ونزلوها وبها المحاريب السبعة (؟) يقال تحتها قبور التابعين ، وفي طريقها الى حمص قبر النعمان بن بشير وينسب اليها بعض اهل العلم كأبي ثور هاشم بن ناجية السلمي وعبد الوهاب السلمي وايوب بن سليمان السلمي القرشي كان امام مسجد سلمية ومحمد بن تمام السلماني من اهل سلمية توفى سنة ٣١٣ وعبد الله بن عبيد السلماني من اهل سلمية ، وذكر ياقوت سبباً سخيفا لتسمية سلمية وعمرانها ان اصل اسمها مشتق من كلمة سلم مائة نسبة للمئة نفس الذين نجوا من خراب مدينة المؤتفكة ونزحوا الى سلمية فعمروها وسكنوها . وكان يرجى من الملك المؤيد ابي الفداء صاحب حماة — وسلمية على مقربة منه — ان يصفها بتفصيل ولكنه رحمه الله اكتفى في تقويم البلدان بقوله : سلمية من اعمال حمص ، بلدة نزهة ومياهها قنى ولها بساتين كثيرة ، قال ابن حوقل : وسلمية الغالب على سكانها بنو هاشم وهي على

طرف البادية خصبة ، قال في العزيزي : ومدينة سلمية على ضفة البرية كثيرة المياه والشجر رخية خصبة . اه

اما المؤرخون فلا يذكرون سلمية الا الفينة بعد الفينة وعرضاً . واول ما ورد اسمها في التاريخ كان في حديث المعركة التي نشبت في مرج الاخرم (الطبري وابن الاثير) الذي نظنه انه المرج المسمى في يومنا مرج القريم في غربي سلمية وان لم يصرح بذلك المؤرخون اذ ليس في شمال الشام قاطبة مرج يقرب اسمه من الاخرم سوى الذي في سلمية . وهذه المعركة جرت سنة ١٣٢ هـ بين عبدالله ابن علي العباسي اول قائد وعامل عباسي في الشام وابي الورد بن الكوثر الكلابي من قواد مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين . وكانت الدائرة على ابي الورد فرسخت بهذه المعركة الحاسمة اقدام العباسيين وقضى على آمال الامويين في الشام ، ولما استتب الامر للعباسيين جاء عبدالله بن صالح بن علي في ايام ولاية ابيه صالح ابن علي العباسي على قنسرين وحمص ودمشق — وكان عبدالله مغرما كاهله بالبناء والعمران فكما ان اباه صالح بنى قصر بطياس شرقي باب النيرب في مدينة حلب واخاه عبدالملك نزل منبج وبنى قصراً فيها كما قدمناه في بحثها ، بنى عبدالله بن صالح واولاده في سلمية الابنية ونزلوها واجروا اليها انهراً — اي كروا فيها القني واسالوا مياهها — على ما جاء في اقوال الجغرافيين . وكان لعبدالله هذا لدى ابناء عمه الخلفاء العباسيين مكانة كبرى ، جاء المهدي سنة ١٦٣ واعجب بما رأى من منزله لما نزل عليه في سلمية في مسيره الى بيت المقدس (الطبري ج ١٠ ص ٥٠٠ طبعة ليدن) ثم جعله عاملا في العراق وزوجه اخته .

ويظهر ان كثيرا من العباسيين اقارب عبدالله بن صالح وغيرهم من بني هاشم استطابوا سلمية فسكنوها في القرن الثاني والثالث فعمرت بهم وبمواليهم والتف حولهم اخلاط من الناس تجار وزراعين وفتحوا قنيها التي نعجب الان بحسن هندستها وانشاؤا فيها البساتين حتى صارت كثيرة الميـــاه والشجر رخية خصبة كما قال اليعقوبي وابن حوقل ونشأ فيها بعض العلماء الذين ذكرهم ياقوت . ولم يبق الان

في سلمية اقل اثر من ذلك العهد الهاشمي الذي سعدت به سلمية ولم تر بعد مثله الا في العهد الايوبي ، وقد وجد الاثريون الاوربيون الذين زاروها في غرة هذا القرن في مدخل الحصن الذي هدم حجراً فيه كتابة خمنوا ان تاريخها سنة ١٥٠ وانها لجامع بني في عهد بني هاشم ثم هدمه القرامطة سنة ٢٩٠ . ووجدوا ايضاً في داخل الحصن كتابة دلتهم ظواهرها انها لاحد الهاشمين تعود هي ومثلها كتابتان اخريان الى زمن ربما كان تاريخه سنة ٢٨٠ .

ويظهر ايضاً ان بعض بني هاشم الحسينيين الذين اخفقوا مرارا في الوصول الى كرسي الخلافة في عهد الامويين ثم العباسيين قطنوا في سلمية ورأوا في بعدها على سيف البادية مجالا لحركاتهم السياسية فظلوا يحاولون ويبثون دعايتهم . وقد انتصر مرة احدهم لاحد ابناء الخلفاء العباسيين ضد ابيه ، قال ابن الاثير في احداث سنة ٢٦٨ : خرج في ايام المعتمد رجل من ولد عبد الملك الهاشمي في الشام بين سلمية وحلب وحمص ودعا لابنه الموفق فحاربه ابن العباس الكلابي فانهزم الكلابي فوجه اليه لؤلؤ صاحب ابن طولون قائداً مع جيش لحربه اهـ . ولم يزد ابن الاثير على عبارته هذه فلم نعرف كيف كان اتصال هذا الثائر الهاشمي بالموفق وهو في الشام وذاك في العراق ولا مصيره بعد حربه مع لؤلؤ المذكور . وكان من اخص الهاشميين في المحاولة وبث الدعوة لاسمه رجل اسمه محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن اسماعيل . واسماعيل هذا هو الذي تعتقد الاسماعيلية ان الامامة انتقلت اليه من ابيه جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي . وكان محمد الحبيب طموحا فعالا يرسل من سلمية المبشرين بامامته ، ويظهر انه كان ممن يرون ان الغاية تبرر الواسطة فاستعان اذ ذاك بعبدالله بن ميمون القداح ، وكان هذا في الظاهر من غلاة الشيعة الداعين لآل البيت وفي الحقيقة من بقايا مجوس الفرس الساعين لهدم كيان العرب والمسلمين وحشو الاسلام بتعاليم مجوسية ، يشتغل بذلك في اصفهان والاهواز والبصرة فوافى سلمية — وقيل بل الذي وافاها ابنه حسين — ملبيا طلب محمد الحبيب .

واقام فيها الى مماته ساعيا لبث مذهبه تحت ستار الدعوة لآل البيت ، ويظهر ان القداح جر وراءه جمعا من مريديه المنتشرين في بلاد فارس والعراق فصارت سلمية من ذلك الحين مركزا لهم ولشيعتهم التي سميت بالباطنية والاسماعيلية . ولما توفي محمد الحبيب اوصى الى ابنه عبيد الله المولود في سلمية سنة ٢٥٩ واطلعه على حال الدعاة وشاع ذلك في ايام المكتفي فطلب فهرب عبيد الله الى المغرب الاقصى لاجئا بابي عبد الله الشيعي الذي كان ارسله ابوه ليمهد له الدعوة في افريقية وتلقب عبيد الله بالمهدي وادعى انه من نسل فاطمة وتوصل الى تأسيس الدولة الفاطمية او العبيدية التي انتقلت بعد حين الى مصر ونازعت العباسيين الخلافة ودامت من سنة ١٩٧ الى سنة ٥٦٧ . وقد اختلف المؤرخون في صحة نسب عبيد الله المذكور فمنهم عن عده مدخولا وبالغ طائفة منهم الى ان جعلوا نسبه في اليهود فقالوا ان اباه هو الحسين بن عبد الله بن القداح بن ميمون بن ديصان، وان الحسين المذكور لما قدم الى سلمية تزوج امرأة حسناء لرجل يهودي حداد في سلمية مات عنها زوجها وكان لها ولد من اليهودي فاحبه الحسين وادبه اذ لم يكن له ولد وعرفه اسرار الدعوة واعطاه الاموال والعلامات فدعا له الدعاة وسموه عبيد الله المهدي .

وفي سنة ٢٩٠ جاء القرامطة ففتكوا باهل سلمية كما فتكوا في حماة والمعرة دون حمص التي استسلمت لهم . قال الطبري (ج ١١ ص ٢٨١ طبعة مصر) ثم سار الحسين بن ذكرويه القرمطي المعروف بابي شامة الى سلمية فحاربه اهلها ومنعوه الدخول ثم وادعهم واعطاهم الامان ففتحوا له بابا فدخلها فبدأ بمن فيها من بني هاشم وكان بها منهم جماعة فقتلهم ثم ثنى باهل سلمية فقتلهم اجمعين ثم قتل البهائم ثم صبيان الكتاتيب ، ثم خرج منها وليس بها عين تطرف فيما قيل وسار فيما حوالي ذلك من القرى يقتل ويسلب ويخيف السبيل اهـ . ظل على هذا المنوال الى أن ادركته في السنة التالية جيوش الخليفة المكتفي في قرية تمنع (التمانعة) شرقي المعرة وشتتت شمله كما قدمناه في حديث المعرة . وفي الطبري حكاية عن

سيدة هاشمية سباها هؤلاء القرامطة في سلمية اذ ذاك وبعد ان كادوا يقتلونها استطابها اربعة منهم وواقعوها معاً مدة مديدة الى ان وضعت غلاما لم تدر من اي الاربعة هو .

ولم يذكر الطبري ولا غيره من مؤرخي العرب — الذين دأبهم ويا للاسف سرد الحوادث دون تعليلها — اسباب فتك القرامطة ببني هاشم هذا الفتك المريع وفي ظني ان ذلك لكونهم من اقارب مناوئيهم الخلفاء العباسيين ، ولم يذكر الطبري ايضا ما اذا كان القرامطة خربوا سلمية وقتئذ وقضوا على مباني الهاشميين وقنيهم وبساتينهم الجميلة ام اكتفوا بتقتيل سكانها واخلائها ، فلم نعلم متى عاد السكان والعمران اليها بعد خرابها الثاني ، وقد تقدم ان الاول كان في القرن الاول الهجري بدأ من اواخر عهد البيزنطيين ، وهل كانت في القرن الرابع آهلة ام خالية لا سيما حينما جاءها سيف الدولة ابن حمدان سنة ٣٤٤ وهو يطارد اعراب البادية الذين شقوا عصا الطاعة عليه وكانوا جعلوا مقرهم في سلمية ففتك بهم في معركة جرت في المروج الممتدة حولها فامتدحه المتنبي بقصيدة جاء فيها :

فاقبلها المروج مسومات ضوامر لا هزال ولا شيار
تثير على سلمية مسبطرا تناكر تحته دون الشعار

وسكتت التواريخ عن سرد احداث سلمية في اوائل القرن الخامس واواسطه ، الى ان قالت ان سلمية كانت في اواخر القرن المذكور من اعمال الامير البدوي خلف بن ملاعب الكلابي صاحب حمص استحوذ عليها سنة ٤٧٦ الى ان جاء تتش اخو السلطان ملكشاه السلجوقي واستخلصها هي وحمص من يده لكثرة عيثه وافساد السابلة . وفي سلمية من عهد الامير خلف المذكور مسجد خراب سنأتي على وصفه . وظلت سلمية تعد من اعمال حمص كالسابق ويذكرها المؤرخون الفينة بعد الفينة في سياق احداث حمص . ففي سنة ٤٩٦ دخلت في حوزة رضوان ابن تتش السلجوقي صاحب حلب . وفي القرن السادس في سنة ٥٠٧ جاءها

لاتابك طغتكين صاحب دمشق للقاء مودود صاحب الموصل الذي كان استدعاه نجدته في حرب الصليبيين فاجتمعا بمرج سلمية واتفقا وسارا للحرب الذي جرى غربي طبريا وظفرا . وفي سنة ٥٣٢ جاءها عماد الدين زنكي وقد كان يحاصر حمص وتركها لما بلغه قدوم جيوش الروم الى حلب ثم خرج من سلمية لمقاتلتهم حينا وصلوا الى شيزر (ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦) . وفي سنة ٥٧٠ استخلص صلاح الدين الايوبي سلمية من يد فخر الدين ابن الزعفراني احد امراء نور الدين محمود كما استخلص منه حمص وحماة وغيرها ، ثم اقطع في سنة ٥٧٤ حماة وسلمية الى ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر فصارت من املاك هذا الفرع الايوبي المعروف بالتقوي ملوك حماة .

ولما توفي الملك المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٧ خلفه ابنه المنصور ناصر الدين محمد في ملك حماة وسلمية والمعرة وغيرها . وفي آخر عمره عهد بالملك لولده المظفر محمد وحلف الناس على ذلك ، لكنه لما توفي سنة ٦١٧ خالفه وزراؤه وولوا ابنه الثاني الناصر قليج ارسلان فذهب المظفر الى مصر واستجار بالسلطان الملك الكامل اعظم ملوك الايوبيين في مصر والشام في تلك الحقبـــة واقام في خدمته . وفي سنة ٦١٩ جاء الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وحاصر ابن اخته الناصر صاحب حماة لاخلاف الناصر بوعده في دفع مال مشروط ، ولما لم ينل مأربه ارتحل الى سلمية واستولى على حواصلها العائدة للناصر واقام مدة مخيما في مروجها يتأهب لحصار حماة الى ان جاءه امر الملك الكامل بالارتحال عنها فارتحل وامر الملك الكامل بابقاء حماة بيد الناصر وتسليم سلمية الى اخيه المظفر فتسلمها وارسل اليها وهو بمصر نائباً عنه . ثم في سنة ٦٢٦ جاء الملك الكامل الى سلمية وبعث منها الى حماة بجيش سلم قيادته الى اسد الدين شيركوه صاحب حمص وهو حفيد شيركوه الاول عم صلاح الدين الايوبي وامره بحصار حماة فاستسلم الناصر وسلم حماة فأمر الملك الكامل باعادة المظفر اليها على ان تنزع سلمية منه وتسلم الى شيركوه . فصارت سلمية من ذلك الحين علة الشحناء بين ابناء الاعمام ملوك

حمص الاسديين وملوك حماة التقويين وزادت الشحناء بعد ان عمّر شيركوه سنة ٦٢٧ قلعة شميميس . ويظهر ان سلمية ومروجها التي وصفنا ذكاء كلائها وغزارة مياهها وصلاحها لمرور الجيوش ورتعها كانت تعجب الملك الكامل فقد جاءها للمرة الثانية سنة ٦٢٩ ونزل فيها في طريقة الى آمد « ديار بكر » واجتمع فيها ملوك اهل بيته في جمع عظيم، وجاءها للمرة الثالثة ايضاً سنة ٦٣٠ لما ذهب لقتال الملك كيقباذ السلجوقي .

ان الآثار العربية الباقية حتى الآن في سلمية وستأتي على وصفها ، وكذا كلمة الحواصل التي ذكرت بان الملك المعظم عيسى استولى عليها ، وقول ابي الفداء في تقويمه بانها كانت في زمنه ذات نزهة ومياهها قنى وبساتينها كثيرة — تدل على ان سلمية سعدت في عهد الايوبيين (في بعض القرن السادس واكثر السابع) كما كانت سعدت في عهد الهاشميين وازدانت بالمياه والاشجار وحفلت بالمباني ومستودعات الحبوب التي لم تتجاوز على ظننا بكبرها وحسن بنائها درجة بليدة زراعية .

ولما جاء التتار في عهد هولاكو وغازان كانوا كثيرا ما يجعلون سلمية ومروجها ممر جيوشهم الزاحفة من حلب الى حمص ودمشق وما بعدهما . ولما كسرهم الملك المظفر قطز سنة ٦٥٨ في معركة عين جالوت (بيسان) كان اشترك بهذه المعركة الامير مهنا آل الفضل من ربيعة من طي من كهلان ، فاجازه الملك المذكور بان نزع سلمية من يد الملك المنصور صاحب حماة واقطعها لمهنا الذي كان امير عرب الشام (ابو الفداء ج ٣ ص ٢١٤) وبقيت سلمية من ذلك الحين في يد هذا الامير ويد ابنه عيسى وحفيده مهنا واعقابه من بعده ، ولما كسر ملكا حمص وحماة الايوبيان التتار ثانية سنة ٦٥٩ في ظاهر حمص انضم « من سلم من الكسرة الى باقي جماعتهم وكانوا نازلين قرب سلمية واجتمعوا ونزلوا على حماة وحاصروها يوما » ثم لما دوفعوا رحلوا عنها (ابو الفداء ج ٣

ص ٢١٩) . وقد نال التتار من سلمية ومن قلعة شميميس اذ ذاك كما نالوا من بقية بلاد الشام وقلاعها فانحط شأنها .

وقد سكتت التواريخ عن بيان شيعة السكان الذين كانوا في سلمية على عهد خلف بن ملاعب الكلابي والملوك الايوبيين والسلاطين المماليك . وقد ثبت لي بالاستقصاء ان سلمية لم يقطنها الاسماعيلية قط في تلك العهود ولا في قبلها ، خلا مدة لا تزيد عن ربع القرن قبل حادثة القرامطة ريثما بثوا دعوتهم ثم اضطروا لمغادرتها هربا من الخليفة المكتفي فذهبوا مع عبيد الله المهدي الى المغرب كما قدمنا . اما في العهود التي ذكرناها فلم تكن سلمية صالحة لسكناهم في حال ، لانهم بعد ان نفروا في اواخر القرن الخامس من بلاد فارس على اثر تضعضع احوالهم فيها نزلوا حلب في عهد صاحبها الملك رضوان بن تتش السلجوقي الذي اغضى عنهم واراد اتخاذهم حزبا له ضد مناوئيه فقبل دعوتهم على ماقيل واستمالوا اليهم خلقا كثيرا في حلب وجبالها الغربية ، وكذلك عمل بعد حين في دمشق المزدقاني وزير تاج الملوك بورى بن طغتكين صاحب دمشق فافسح لهم المجال في دمشق وملكهم قلعة بانياس . ولما كثرعددهم واستفحل امرهم صاروا يناوئون المسلمين المنهمكين في مدافعة الصليبيين ويغتالون خيار ملوكهم وامرائهم كما كانوا يعملون في بلاد فارس والعراق يدفعهم الى ذلك ذوو المآرب السياسية والغايات الحزبية ، حتى ضاقت بهم الصدور ووضع السيف فيهم مراراً كما جرى في حلب سنة ٥٠٧ وفي دمشق سنة ٥٢٢ فاضطروا لهجر المدن الداخلية والاعتصام بجبال اللاذقية وقلاعها فتملكوا سنة ٥٢٧ بزعامة مقدمهم راشد الدين سنان قلاع هذه الجبال التي دعيت بقلاع الدعوة واخصها القدموس ومصياف والخوابي والعليقة والمنيقة والكهف والرصافة وابو قبيس وغيرها ، وصاروا يهبطون منها ويحاربون من يجاورهم من المسلمين والصليبيين ، وجاءهم سنة ٥٧٢ السلطان صلاح الدين الايوبي يثأر منهم محاولة اغتياله فضربهم وحاصر قلعة مصياف ثم تركهم بشفاعة خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة . وما زال هذا ديدنهم يقتلون ويقتلون

حتى دهمتهم جيوش الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧ و ٦٦٨ فخضدت شوكتهم بالكلية وتسلمت قلاعهم وبلادهم فلم تقم لهم بعد ذلك الحين قائمة (ابو الفداء ج ٣) ، فقوم هذا ديدنهم يحتاجون لقلاع حصينة صعبة المرتقى بعيدة عن متناول الملوك الايوبيين والسلاطين المماليك الذين كانوا لا يفتؤن عن حسم بائقتهم ورد عاديتهم ، وسلمية الجاثمة وسط سهل افيح ليست بمعتصم يمكن ان يلوذ به امثال هؤلاء .

وبعد ان كان جل الملوك الايوبيين يزور سلمية ويمر بها في طريقه الى الشمال لم يذكر المؤرخون احدا زارها من السلاطين المماليك الا الاشرف خليل ،وذلك لما قدم من مصر الى دمشق لحمص سنة ٦٩٢ ولبى دعوة الامير مهنا بن عيسى وبقي في ضيافته ثلاثة ايام بلياليها، ثم بدا له ان يقبض على هذا الامير وعلى اخويه محمد وفضل فقبض عليهم وارسلهم معتقلين الى مصر فظلوا فيها سنتين الى ان اطلقهم الملك العادل كتبغا حين جلس فعادوا . ولم يذكروا ما اذا كان الظاهر بيبرس زارها لما امر بترميم قلعة شميميس اسوة بغيرها من قلاع الشام التي خربها التتار ، وقد يكون زارها .

وزاد انحطاط سلمية بعد استقرار آل عيسى بن مهنا فيها لانهم بادية،والبادية من طبعها الحط والغض ، لكن سلمية لم تخرب على ما يظهر ويهجرها اهلها للمرة الثالثة الا في منتصف القرن الثامن حينما اختلت ادارة السلاطين المماليك في مصر والشام وازدادت فتن آل عيسى المذكورين ووثب بعضهم على بعض . قال ابن الوردي في تاريخه في احداث سنة ٧٤٨ : وفي هذه السنة اقتتل سيف ابن فضل امير العرب وابناء عمه احمد وفياض في جمع عظيم قرب سلمية فانكسر سيف ونهبت جماله وماله ونجا بعد اللتيا والتي في عشرين فارسا وجرى على بلد المعرة وحماة وغيرها في هذه السنة من العرب اصحاب سيف واحمد وفياض من النهب وقطع الطريق ورعي الكروم والزرع والقطن والمقاثي ما لا يوصف اه .
ولا يبعد ان يكون الطاعون الهائل الذي اجتاح سنة ٧٤٩ بلاد الشرق الادنى

ومنها مصر والشام نال من سلمية والقرى التي حولها واقفرها من سكانها الباقين ، وكذلك ربما كان لجيش التيمورلنك اثر في الاجهاز عليها حينما مر بها سنة ٨٠٣ في طريقه من حلب الى دمشق ، فاصبحت بعد هذه الأوبئة والفتن خرابا يبابا

وظل هذا الخراب في سلمية مستمراً خمسة قرون ونيف ، وهي في حوزة آل عيسى بن مهنا الذين تغير اسمهم في القرن التاسع وصاروا يدعون بآل جبار وهم بطن من اولئك كما هي الحادة عند البدو تتغير اسماؤهم في كل مدة تبعا للمتأمر عليهم ، ثم صاروا يدعون في القرن العاشر بآل ابي ريشة وهم فخذ من آل جبار اعقاب عيسى بن مهنا وصارت الاعراب الملتفون حولهم يدعون بالموالي، وظل هؤلاء يضربون في ارجاء سلمية ويرعون انعامهم بين اطلالها لانها صارت في عهد العثمانيين اقطاعا ومنزلا لهم كما كانت في عهد المماليك وذلك لقاء اتاوات كانوا يؤدونها للحكومة العثمانية التي عدت براري سلمية وخربهـا الداثرة لواء اتبعته لحماة وحمص بأيالة طرابلس الشام . قال كاتب جلبي صاحب كشف الظنون المتوفى سنة ١٠٦٨ في جغرافيته « جهان نما » : وما برح هذا اللواء — يعني سلمية — في حوزة امراء الموالي ، وهؤلاء الامراء ينتسبون لآل الحيار (وصحيحه ان يقول آل الجبار) من قبائل العرب وهم ينقسمون الى فرقتين آل حمد وآل محمد وتصل مناطق نفوذهم الى ضواحي حلب والرقة . الى آخر العبارة التي اوردناها في مقالنا الباحث عن هؤلاء الامراء واحداثهم المندرج في مجلة الثقافة (ج ١ عدد ٧ وما بعده) تحت عنوان « صفحة من تاريخ اعراب شمالي الشام » .

وفي القرن الحادي عشر سيطر الامير فخر الدين المعنى سيد جبل لبنان في تلك الحقبة على بلاد حمص وحماة ومنها سلمية وحالفه امراء الموالي آل ابي ريشة وصادقوه وهادوه ، واستنجد به مرة كبيرهم الامير مدلج لما نازعه ابن عمه حسين على الامارة وحاربه ، فجاء المعنى بعسكر وفير سنة ١٠٣٣ لنجدة مدلج فاضافه مدلج ضيافة عظيمة في سلمية واهدى اليه الفرس سعدة المشهورة (تاريخ حيدر

الشهابي) وبعد سنتين انتقض مدلج وقومه على الامير فخر الدين وتمنعوا عن تقديم الذخيرة التي طلبها منهم فالحقهم حتى عبرهم النهرين ؟ ثم رجعوا الى ديارهم بعد ان قضت عليه الدولة .

وبينما كان اعراب الموالي يرتعون في سلمية وبراريها ويصل نفوذهم من ابواب حمص وحماة الى ضواحي حلب والرقة كما قال كاتب جلبي في جغرافيته واطراف نجد والعراق كما يرويه شيوخ الاعراب الحاضرين ، واذا في اواخر القرن الحادي عشر تفد نحوهم قبائل شمر النازحة من نجد طلبا لبقاع امرع من التي كانوا فيها وتحاول النفوذ الى ارياف حمص وسلمية والاستقرار ، فصدتها قبيلة الموالي وردتها على اعقابها بعد حروب دامت عشرات من السنين . وما ان استراحت منها حتى فوجئت في اواخر القرن الثاني عشر بقبائل عنزة النازحة من نجد هرباً من الوهابيين الذين ظهروا قبيل ذلك واشتدت وطأتهم فصمدت الموالي لعنزة ايضاً ، ولكنها امام تدفق جموعها وبعد حروب طويلة اضطرت لمصانعتها واخلاء قسم من ديار حمص لبطن منها يدعى الحسنة ، ثم توالت غارات عنزة ومن ورائها الوهابيون الذين كانوا يلحقونها احيانا الى هذه الربوع حتى اضطرت قبيلة الموالي في اوائل القرن الثالث عشر الى ان تخلي سلمية وتنسحب نحو الشمال الى بقاع اكثر وعورة ومنعة في كورة العلا التي تقدم بحثها في (الصفحة ٢٠٠)

وكان اسماعيلية جبال اللاذقية عقيب الضربات التي انزلها الملك الظاهر بيبرس بهم واستمرار سيف الرقابة مسلطا عليهم في عهد السلاطين المماليك خفت صوتهم وزالت روعتهم ، وكانت العداوة والبغضاء متأصلة بينهم وبين النصيرية بحكم المجاورة والمنازعة على سكنى جبال اللاذقية الضيقة غير الكافية لتبسط الفريقين ، ولطالما نشبت الفتن والحروب في عهد الايوبيين والمماليك واشتد اوارها خاصة في عهد العثمانيين ، واستولى النصيرية مرارا على القدموس ومصياف وبقية بلاد الاسماعيلية ، وهؤلاء يستردونها بمعونة الدولة العثمانية التي كانوا يلتجئون اليها وتمدهم بقواها ، واجل الوقائع الجديرة بالذكر على ما جاء في كتاب تاريخ

العلويين لمحمد امين الطويل ما جرى في القدموس سنة ١١٠٠ وكانت اذ ذاك بيد النصيرية ، فهاجمها الاسماعيلية لما كان اولئك منصرفين الى صلاتهم في يوم الغدير وذبحوا عددا وفيرا من مشائخهم وعامتهم ونهبوا اموالهم وسبوا نساءهم واستولوا على سيف قديم لاحد ائمتهم وعلى كتبهم الدينية وعلى القدموس وما جاورها ، وبعدمرور اكثر من قرن عامل النصيرية الاسماعيلية بالمثل فدخل فريق منهم سنة ١١٢٥ الى قلعة مصياف متظاهرين بالالتجاء ، وعلى حين غرة فتكوا بسكانها الاسماعيلية فاضطرت الدولة العثمانية بعد بضع سنوات لان تسوق جنداً كثيراً لاسترداد مصياف واعادتها الى اصحابها القدماء (كتاب تحقيق في بلاد الشرق لموريس باريس الافرنسي ص ١٢٤)

وقد زادت هذه الوقائع المتوالية في خفض شأن الاسماعيلية واستكانتهم ، وجعلتهم يرنون نحو سهول شرقي العاصي في لهفة ويترقبـــون الفرصة ليعمروا سلمية احياء لبليدة كانت منشأ شيعتهم وتوسعا في الارضين وتخلصا من مجاورة اخصامهم النصيرية لاسيما وهم اقل عدداً واضعف حولا منهم .

ولما رأو ان سلمية خلت من اعراب الموالي واستتب الامن والنظام في الجملة في عهد السلطان عبد المجيدطلبوا من الدولة بلسان احد امرائهم ، وكان من احدى ضواحي قلعة الخوابي واسمه اسماعيل ، ان يعمروا سلمية الخربة فسمحت الدولة لهم بذلك وايدتهم على ان يسموها (مجيد آباد) تنويها بعمرانها في عهـــد السلطان عبد المجيد ، فجـــاء هذا الامير ونفر من عشيرته الاقربين الى سلمية بين سني ١٢٦٠ و ١٢٧٠ واعتصموا بادي، بدء في الحصن الذي هدم وبني مكانه دار للحكومة وشرعوا يزرعون حوله ويدرأون عن انفسهم عيث البادية ، وصار هذا الامير يلتقط ابناء جلدته من جبال اللاذقية ويكرههم على المجيء الى سلمية وامتلاك الارضين فيها ، وهم يأبون لبعدها ووحشتها في تلك الحقبة ، الى ان استمرأوا طعم المواسم الخصبة في تلك الارضين المستريحة منذ قرون ، فصاروا ينسلون ويزدادون ، ولما ضاقت بهم سلمية صاروا يمتدون نحو

الشرق يعمرون القرى الخربة ويفجرون القنى الداثرة حتى كثر سوادهم . ولما استقر امرهم جعلت الحكومة سلمية في غرة قرننا الحالي قضاء ، لكنها اهملت اسم مجيد آباد ودعته باسم سلمية الاصلي واتبعته بلواء حماة . وسعد حال الاسماعيلية في هذا القضاء في الجملة في العقد الاول من هذا القرن لا سيما وقد كانوا مستثنين من الجندية وآمنين من عيث البادية بفضل القرى الشرقية التي عمرها السلطان عبد الحميد وضمها لاملاكه الخاصة وحماها بجند خاص كان يركب البغال وله تكنات ومخافر على سيف البادية . ولم ينغص عيشهم شيء سوى ما حدث سنة ١٣١٦ ، فقد كان رجع قبلها بعض مشائخهم من الهند يدعون لبدع جديدة في مذهبهم اساسها الغلو في تعظيم امامهم القاطن في الهند وجمع الزكاة له ، فرأت الحكومة العثمانية في هذه الدعوة والجمع ما رابها ودفعها لاضطهادهم ، فسجنت اولئك المشايخ وبعض خاصتهم في دمشق وطارد جندها الذين شردوا منهم الى الى جبل البلعاس والفيافي الشرقية، ومات بعض المسجونين وقتل بعض الشاردين وظل الباقون بضع سنوات الى ان اعلن الدستور سنة ١٣٢٥ فعادوا لاستقرارهم ودعوتهم وعكف المشائخ المذكورون على جمع اموال الزكاة ، ولما حاولوا سنة ١٣٢٦ ارسالها الى الهند صادر متصرف حماة ناظم بك هذه الاموال التي قدرت بما يقرب من عشرة الاف ليرة ذهبية وسعى لانفاقها في انشاء المدرسة الزراعية التي بحثنا عنها ، وتوفق قائم مقام سلمية وقتئذ الامير اسماعيل الشهابي لاخذ قطعة ارض لها تبلغ نحو الف دونم تبرع بها الاهلون في سلمية، وخصصت لها الحكومة العثمانية النفقات السنوية اللازمة ، فتم بهمة المتصرف والقائم مقام المذكورين انشاء هذه المدرسة التي بعد ان ازدهرت وافادت سلمية وغيرها نحو ربع قرن اغلقت للاسباب التي ذكرناها في فاتحة كلامنا .

وعقيب احتلال الافرنسيين لبلاد اللاذقية سنة ١٣٣٧ عادت الفتن وتيقظت بين الاسماعيلية والنصيرية في تلك البلاد ، فتداخلت السلطة الافرنسية لاخمادها وساقت الجنود ، وكان الاسماعيلية يتطوعون في صفوفها والنصيرية

ثائرين عليها . وحاصر النصيرية القدموس سنة ١٣٣٨ ونهبوها والجاءوا سكانها الاسماعيلية للهجرة الى بقية بلاد ابناء شيعتهم لاسيما الى انحاء سلمية . ولما رأى هؤلاء المهاجرون الرخاء والخصب في سهول هذه الانحاء الواسعة والعزة التي نالها السلميون من السلطة الافرنسية لقاء خدمتها وتفانيهم في اخماد ما قام في وجهها من الثورات العديدة ، واجلها تلك التي نشبت في اكثر بلاد الشام ودامت في سنتي ١٣٤٣ و ١٣٤٤ هي اكثر منها في قراهم الغربية الجبلية الضيقة ، كثر توافدهم وتوالت هجرتهم حتى تضاعفت جسامة سلمية بهم عما كانت عليه الى حدود سنة ١٣٤٢ وامتدوا الى القرى الشرقية والخرب الداثرة يعمرونها حتى صار قضاء سلمية في يومنا موطناً كبيراً للاسماعيلية(١) اكثر وامنع مما هو في جبال اللاذقية .

ويفترق الاسماعيلية من حيث المذهب الى حجاوية وسويدانية ، فالحجاوية اتباع الحاج خضر المتوفي منذ قرنين والذي من اعقابه المشايخ الحاليين للنحلة الحجاوية . والسويدانية اتباع الشيخ سويدان القدموسي ولا يزال فيها من اعقابه

---

(١) يقطن الاسماعيلية في جبال اللاذقية في ناحيتي القدموس والخوابي وفي قلعة مصياف . ولهم في الاولى اثنا عشر ضيعة منها القدموس وكاف الحمام وزريقة وقلعة العليقة وغيرها ، وفي الثانية سبع عشر ضيعة منها عقر زيتي وخربة الفرس وبريكية وجمعاشية ومازوغا وغيرها ، ما خلا قلعة الخوابي التي اهلها سنية . ويقدر مجموع الاسماعيلية في هاتين الناحيتين باربعة آلاف . وليس في قضاء مصياف سوى قلعة مصياف وحدها آهلة بهم ، وهم لا يتجاوزون فيها الالفين . اما في قضاء سلمية فلهم من القرى الخاصة بهم سلمية وتل الدرة والكافات وبرى الغربي وبرى الشرقي وتل التوت والصفاوي ومفقر الشرقي ومفقر الغربي وابو حبيلات وعقارب الصافية وجينه العلباوي وسعن الشجرة والعميا ، وما عدا ذلك فلهم ثمة

جماعة ، ويعتقدالاولون بالوهية امامهم اغاخان الزعيم الهندي المعروف فيافخم النوادي وميادين سباق الخيل في انكلترا وفرنسا ببذخه وترفه ، ويؤدون له الزكاة ولهم معتقدات وصلوات خاصة يقيمونها في بيوت لا يعرفها ولا يدخلها الاهم، يدعونها « معبداً » او « جمعة » بفتح الجيم يرتادونها مرتين في اليوم قبيل الفجر وعقيب الغروب فيلتف الرجال ووراءهم النساء حول مائدة عليها صور شمسية لامامهم اغا خان ، وبعد ان يقرؤا ادعية باللغة الاوردية يؤدي كل منهم الزكاة وهو خمس ما جناه في ذلك اليوم مهما تفه ويرسل مجموعه في اخر العام الى الهند ، والثانون يكادون لا يتميزون في مظهرهم عن اهل السنة باقامة الشعائر الاسلامية في الجوامع الا بكونهم امامية ، لكنهم لم يجدوا فيزعمهم حتى الان من هو اهل للامامة ، لذلك فهم لا يذعنون لاغا خان ولا يشاطرون الحجاوية آراءهم قط ، والنفور من جراء هذا التباين سائد بين النحلتين . وكل سكان سلمية وقراها القدماء وسكان ناحية الخوابي من الفريق الاول بينما القدموسيون والمصيافيون من الفريق الثاني . ويفترق الاسماعيلية ايضا بحسب الطبقات الى عامة وخاصة فمن خاصتهم المشائخ ذوو الزعامة الروحية بينهم من هو مخصص بجباية اموال الزكاة لآغاخان وايصاله الى الهند ، والامراء ذوو الزعامة الزمنية ، وهذه الامارة مختصة بافراد قلائل يتوارثونها منذ قرون ، على انها ما برحت غامضة الارومة والسلسلة .

ويغلب على الاسماعيلية طول القامة وعرض الهامة وصحة الجسم ويمتاز

ضويعات ومزارع صغيرة خاصة ، كما انهم في بعض القرى كتل الجديد وجدوعة وقبيبات والمبعوجة وام خريزة يؤلفون ربع او نصف او ثلثي سكانها وما عداهم اما سنية ، او نصيرية . ويقدر مجموع الاسماعيلية في قضاء سلمية باربعة عشر الفاً ، فيكون مجموعهم في جبال اللاذقية وسهول سلمية كلها عشرين الفاً .

نبلاؤهم بزرقة العيون وشقرة الشعور ، وهم في الجملة ذوو شمم وجفاء وعندهم شجاعة وعصبية ، ينقادون الى مشايخهم وامرائهم ويتضامنون في الدفاع عند الطواريء ، لذا ترى قراهم ومزارعهم في امن من عيث البادية وجشع سراة الحضر . وعددمتعلميهم قليل جداً بدأبالظهور منذ اناسست المدرسة الزراعية ، وقد نشأت في السنين الاخيرة بمساعي بعض هؤلاء المتعلمين حركة اصلاح غايتها الرجوع الى المباديء الاسلامية ، بلغني انها نمت وربت وزاد عدد منتسبيها وشأنهم ، وصار يرجى لها نمــوا واتساعا يعيدان هذه الطائفة الباسلة الى الحظيرة القومية .

اما الاثار القديمة في سلمية فاجلها القني التي قدمنا ذ كرها ؛ وقد كرى الآن فيما قيل نحو خمسين منها وبقي مثل ذلك او ا كثر . وكان اعظمها واطولها القناة التي كانت تمتد من سلمية الى حماة وتسقي ما كان في شمال حاضرها من البساتين والارضين التي استبعلت بعد دثورها . ولم يبق من آثار هذه القناة الا قليل من الابار الجسيمة ترى في طريق حماة بين سلمية وقرية تل الدرة ، ويظن انها تخص القناة المذكورة ويزعم آخرون انها تخص قناة العاشق ، على ان الظن والزعم المذكورين يحتاجان الى تحقيق ، وكانت هذه القناة من ا كبر دواعي عمران حماة في عهد ملوكها التقويين الايوبيين ، خربها الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص الذي كان عسوفاً لرعيته مخاصما لابناء عمه التقويين لاجل سلمية كما قدمنا ، بلغ به الحنق من الملك المظفر صاحب حماة الذي كان قادما لمحاصرته بامر الملك الكامل سنة ٦٣٥ على ما ذ كره ابو الفداء في تاريخه (ج ٣ ص ١٦٩) انه قطع هذه القناة ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس التي بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين وذهب ماء العاصي في اودية بجوانب البحيرة ، ثم لما لم يجد الماء مسلكا عاد فهــدم ما عمله صاحب حمص وجرى كما كان اولا . وقال ابو الفداء في حوادث سنة ٧٢٦ يذ كر تنظيفه لهذه القناة : وفيها في منتصف ربيع الاخر الموافق للحادي والعشرين

من آذار خرجت بعسكر حماة ووصلت الى القناة الواصلة من سلمية الى حماة وقسمتها على الامراء والعسكر لينظفوها فانها كانت قد آلت الى الفساد بسبب ما اجتمع فيها من الطين فحرروها في نحو اسبوع ثم عادوا الى حماة اه . .

وفي سلمية عدة ابنية اثرية عربية متوسطة الحال ليس فيها من الاتقان والجمال الموجودين في الحواضر ما يلفت النظر . منها الحصن القديم الذي بقيت اسسه وبعض ابراجه تختفي وراء الحوانيت بني بانقاض المباني البيزنطية والهاشمية وقد هدم خلال الحرب العامة واستعملت انقاضه في اشادة دار الحكومة الحديثة وغيرها من الدور الخاصة . ادركنا فيه ثمانية ابراج مربعة الشكل اربعة في الزوايا واربعة في منتصف الجدران العريضة التي كان طول كل منها نحو مئة خمسين مترا وعلوه ٨ — ١٠ امتار . وكانت الابراج والجدران المذكورة ذات احجار متوسطة في الضخامة تحتوي سطوحها الظاهرة على عدد من اعمدة الروابط وكثير من الانقاض المزينة بنقوش سابقة للعهد الاسلامي او بكتابات يونانية . وكان المدخل الى الحصن في البرج المتوسط من الجهة الجنوبية وهو ذو تعاريج تشبه ما في مداخل المباني العربية العسكرية . لم يعثر الاثريون الذين زاروا هذا الحصن (ومنهم هارتمان في غرة قرننا الحالي وفان برشم في سنة ١٣١٣) على اي كتابة عربية تدل على تاريخ بنائه ولم يجدوا سوى بعض القطع الكوفية التي استعملت في الجدران وهي من العهد الهاشمي كما قدمناه . وعندي ان هذا الحصن بني في القرن الرابع او الخامس عقيب حادثة القرامطة وقبل مجيء الصليبيين ، اذ لم يكن لسلمية بعد ان جاء الصليبيون مكانة حربية تضطر اصحابها لاشادة هذا الحصن لاسيما ولم يكن فيه شيء من مزايا الهندسة العسكرية التي كانت سائدة في عهد الايوبيين والمماليك ومن نماذجها قلعة شميميس المشرفة على سلمية . وكان في جنوبي هذا الحصن قبو كبير اتخذه السنية بعد تأسيس القضاء مسجدا واتخذت الحكومة سطحه دارا لموظفيها . وفي وسط سلمية حمام عربي قديم وجدوه في بدء عمران سلمية الاخير على حالته الحاضرة فنظفوه

وما برحوا يستعملونه ، وهو يماثل على صغره حمامات المدن الكبيرة باقسامه واتقان بنائه ويشهد بما كان لسلمية واهلها في عهد الايوبيين من الحضارة والرفه ، وعلى يسار بابه حجر منقوش عليه كتابات كوفية لا تحوي تاريخاً مما يدل على ان الحجر من عهد الهاشميين ومستعار من مكان آخر . وثمة جامع خراب يظهر من هيأة قسمه الشرقي انه كان كنيسة في ضمنها اعمدة ممدودة ومنتصبة من احجار البازلت الاسود والغرانيت الاحمر ، وفي قسمه الغربي قبة عالية من الاجر نصفها مهدوم تحتها اضرحة اسلامية لاناس مجهولين زعموا ان صاحب الضريح الاكبر الذي يخطيء سكان سلمية بنسبته الى الامام اسماعيل هو احد بني هاشم الذين كانوا في سلمية في القرن الثالث واسمه رضي الدين عبد الله بن احمد الوفي بن محمد التقي بن محمد المكتوم بن اسماعيل وقد توفي قبيل حادثة القرامطة اواثناءها ، وعلى عتبة باب القبة زبرت كتابة كوفية تاريخها سنة ٤٨١ قرأنا منها بعد الجهد الكلمات الاتية : (السطر الاول) بسم الله الرحمن الرحيم عمل هذا المشهد . . . المباركة . . . العابد الاجل ابو الحسن علي بن حرمل . . . (السطر الثاني) . . . صانعه الامير الاجل . . . الملك سيف الدولة خلف بن ملاعب ادام الله علوه في سنة احدى وثمانين واربعمائة اه . دلت كلمة المشهد الواردة في هذه الكتابة على ان اصحاب الاضرحة الراقدين تحت القبة شهداء ، ولكنها لم تذكر اسماءهم لنعرف من هم ومن هو ابو الحسن علي بن حرمل ، ولعلهم من سادات بني هاشم الذين قتلهم القرامطة سنة ٢٩٠ ودفنهم من نجا من القتل او من تدير سلمية بعدهم في هذ المكان او لعلهم التابعون الذين ذكرهم ياقوت في معجمه . ودلت هذه الكتابة على ان سلمية كانت كحماة تتبع حمصا في عهد صاحبها خلف بن ملاعب الكلابي الذي قدمنا ذكره . وقيل ان في الزاوية الغربية القبلية من خارج حرم هذا الجامع الخرب حجر اسود زبر عليه باليونانية ما تعريبه : هـــذا باب الله من تكلم الصدق وسار على الحق دخل منه . وفي احدى دور سلمية ينزل من فوهة بئر الى مسجد صغير تحت الارض يدعى الباسطية معقود ومبلط فيه

حوض ماء ومحراب . وفي ضواحيها الى الغرب من عين الزرقاء طاحونة قديمة تعرف بطاحونة المعبد وجد فيها الاثري هارتمان في غرة هذا القرن احجاراً عليها كتابات تشبه الطلاسم وعمودين من البازلت مؤلفين من عدة قطع ولهما تيجان كورنثية وعلى عامودين آخرين كتابات يونانية وكوفية غير واضحة .

والى الشمال الغربي من سلمية على بعد ثلاثة كيلومترات اكمة عالية جرداء من اعضاد جبل العلا في ذروتها جامع خرب ينسب الى الخضر لا يسع الزائر الا استغراب الحكمة في بنائه في هذا العلو المقفر حجره من البازلت وفيه كسور اعمدة حلزونية . وفي غربي جامع الخضر تل عال ابيض منتصب وسط واد عريض احاطت به اعضاد جبل العلا وربضت فوقه (قلعة شميميس) ذكرها ابو الفداء في تاريخه في حوادث سنة ٦٢٧ قال : في هذه السنة شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس وكان لما سلم اليه الكامل سلمية قد استأذنه في عمارة تل شميميس قلعة فأذن له بذلك ولما اراد شيركوه عمارته اراد الملك المظفر صاحب حماة منعه ثم لم يمكنه ذلك لكونه بامر الملك الكامل اهـ . وهذا التل ذو شكل مخروطي وتأليف جيولوجي غريب نادر المثال فاسفله من الصخور الجيرية البيضاء وقنته من البازلت الاسود تظهر الثانية فوق الاولى كطاقية صغيرة سوداء فوق هامة كبيرة كللها المشيب مما يدل على ان التل كان بركانا قذف بحممه وكان قليلا فجمد عند الفوهة . وقد نقر مشيدو القلعة في بلعوم هذه الفوهة بئراً عظيمة الدائرة لا يعرف غورها عششت فيها اسراب الحمام البري ، ومهدوا سطح الطاقية وبنوا على دائرتها اسوار القلعة وابراجها واقبيتها وحفروا حول التل خندقا عظيما وعميقا محيط بالقلعة . واذ لم يبق للجسر والباب اللذين كانا في قبليها اثر اصبح القاصد لا يبلغها الا زحفا لشدة الانحدار . وقد هدم كل الابراج واعلى الاسوار فصار الزائر لا يرى في داخل القلعة الا البئر التي ذكرناها واطلالا وركاما لجدران متساقطة ودعائم متهدمة ما خلا قسما من السور ونوافذ فانه كان ماثلا حينما غادرت سلمية سنة

١٣٤٢ . وموقع قلعة شميميس ذو مكانة حربية لا يستهان بها تدل على جودة نظر بناتها فهي وان اختفت وراء الاكام المحيطة بها تشرف على ابعاد شاسعة يصل مداها الى ضاحية حمص في الجنوب وطريق حماة ووادي العاصي في الغرب والسهول الممتدة الى جبل البلعاس في الشرق والطرق الاخذة الى الاندرين وحلب في الشمال . ولم يذكر ابو الفداء ولا غيره من مؤرخي العرب من هو شميميس التي نسبت هذه القلعة وتلها اليه ،وربما كان احد ملوك حمص من آل شميسغرام العرب او غيره ، لان بناءها وان كان اسلامياً بحتاً من طراز الهندسة العسكرية السائدة في عهد الايوبيين،لكن اسم شميميس وحصره بتل هذه القلعة دون غيره من التلال والاكام المجاورة المحرومة من الاسماء يذهبان بالظن الى انه كان هناك حصن قديم من قبل الاسلام خربته عوادي الزمان فجاء شيركوه في سنة ٦٢٧ ونقضه وعمر القلعة الحالية لتكون مقابل قلعة حمص التي عمرها هو ايضاً بعد دثورها وليبقى مستوليا على سلمية فيما اذا اراد المظفر منازعته عليها . وبقيت شميميس في يده ويد ابنه المنصور ابراهيم الى ان سلمها حفيده الاشرف موسى في سنة ٦٤٥ الى الصالح ايوب ملك مصر والشام ، ودخلت سنة ٦٤٨ في حوزة الملك الناصر يوسف صاحب حلب حفيد الظاهر غازي بعد ان عصيت عليه. وفي سنة ٦٥٨ جاء التتر بقيادة هو لاكو فنالوا منها كما نالوا من بقية قلاع الشام ثم رممها بعد ذهابهم الملك الظاهر بيبرس في جملة ما رمم وظلت تعد من ممتلكات دولة المماليك المصرية بدليل ذكرها في المعاهدة التي عقدها الملك المنصور قلاوون مع الصليبين في سنة ٦٨٢ ، ثم اهمل امرها لما عمت الفوضى بعده الى ان قضت عليها الزلازل وفتن الاعراب . على ان القضاء الاخير لم يتم الا بعد مجيء سكان سلمية الحاليين ، فهم تهافتوا ويا للاسف على تهديمها ونقل احجارها حتى ان بابها الكبير الذي كان ماثلا في قبليها في سنة ١٣١٣ حينما زارها الاثري (فان برشم) قد نقض هو والبرجان اللذان كانا يحرسانه ، وهكذا تندثر الاثار القديمة في

بلاد الشام بيد جهلاء ابنائه وتضيع مفاخر الاسلاف دون ان تجد لها شفيعاً او نصيراً .

وفي شمالي سلمية على بعد خمسة كيلو مترات ربوة فيها جامع خرب ينسب الى الشيخ فرج (؟) له قبة من الاجر اكثرها متهدم وله جدران متداعية ،وفي شرقيه ضريح محاط بجدران غير مسقوفة صاحبه الشيخ المذكور تزوره الاعراب لا سيما الجملان احدى بطون قبيلة الحديديين التي تدعي الانتساب اليه واهل القرى لاعتقادهم ببركته ،وفي جنوبي هذا الضريح جبانة فيها قبور قديمة وحديثة كنت عثرت بينها سنة ١٣٣٧ على قبر زبر على شاهدته اسم « محمد بن عيسى بن مهنا » المتوفى في رجب سنة ٧٢٤ﻫ . واطلعت بعد في كتاب شذرات الذهب في اخبار من ذهب (ج ٦ ص ٢٢) على ذكر هذا الامير وانه دفن في سلمية عند ابيه، على انني لم اعثر على قبر الاب ولعله درس . وهذا الاب اي عيسى بن مهنا هو الذي قدمنا ذكر ابيه مهنا وكيفية حصوله على سلمية ونزوله هو وعشيرته واستيطان اعقابه آل عيسى فيها من بعده وتخريبهم اياها الى ان تغير اسمهم كما هي عادة اهل البادية وصاروا يدعون بآل ابي ريشة امراء قبيلة الموالي التي قدمنا ذكر افنادها ومنازلها وحديث اقتتالها مع الحديديين في بحث كورة العلا (الصفحة ٢٠٣)

الاعراب . — لما كنت مدير المدرسة الزراعية في سلمية في سني ١٣٣٧ — ١٣٤٢ ﻫ كنت اعجب بحالة الاعراب(١) الذين يكثر ترددهم على هذه البلدة النائية وتجوالهم في اعمالها وتقيظهم في مروجها واجتماع رؤسائهم في مؤتمراتها

---

(١) الاعراب بالفتح اهل البدو من العرب الواحد اعرابي بالفتح ايضاً وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ سواء أكان من العرب ام من مواليهم ، وقيل من نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم

وكنت ارغب الاطلاع على انسابهم واحسابهم وطبائعهم ، فاتسقط آثارهم واستطلع اخبارهم وا كتب ما اراه جديراً بالحفظ ، حتى اجتمع لي طائفة من ذلك ربما جعلتها موضوعاً لرسالة خاصة اعود لتأليفها وطبعها بعد . وقدوجدتهم ينقسمون الى ثلاث طبقات :

١ — الاولى اعراب البادية او « البدو » ويوصفون بالرحل او الجمالة باصطلاح الافرنج ، وهم اهل الخيام او بيوت الشعر لسكناهم والخيل لركوبهم والابل لكسبهم يقتاتون من البانها ويتخذون الدفء والاثاث من اوبارها ويحملون اثقالهم على ظهورها ويبيعون ذكورها ، لايدرون اهي خلقت لهم وقبلهم ام هم خلقوا لها وقبلها ولا يدفعون للدولة سوى ضريبة الودي ، يتقلبون دوما بين قفار البادية « الحماد » ومشارف الحاضرة « المعمورة » فراراً من حمارة القيظ تارة وصبارة البرد اخرى وانتجاعا للمراعي الصالحة للابل كالروثة والنيتون وغيرها مما فيه ملوحة وحموضة . وهواهم في البادية وآفاقها الشاسعة وحريتها المطلقة ، يحتقرون اهل الطبقة الثانية ويدعونهم رعية وشوايا لاقتنائهم الشياه والمعز يعدون ذلك من اكبر العار اذ تمنعهم عن التوغل في البيداء ومدافعة الاعداء ، ويمتهنون اهل الحضر والقرى لسكناهم في بيوت الحجر واعتيادهم على الرفه وحماية الدولة(١) ، وهم لا يغشون هذه الحواضر الا للضرورة في سني المحل والظمأ او لابتياع حاجاتهم وبيع جمالهم واصوافهم . وكثيراً ما يلحق اهل الضياع والمزارع حين مرورهم بها مضرات من افسادهم السابلة ورعيهم الزرع مخضراً وانتهابه قائما

(١) انصرف منذ ربع قرن او اقل بعض هذه القبائل الى اقتناء الشياه وبعضهم الى مشاركة اهل الحواضر بتربيتها ، كما ان بعض رؤساءهم تذوق طعم الحرث والزرع وصار من ملاكي الضياع والارضين ، فخفت بذلك وطأة الحقارة والامتهان اللتين ذكرناهما .

اعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي الى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء (عن المصباح المنير للمقري الفيومي) .

وحصيداً ويتفاقم ضررهم حينما يرون من فوضى الاحكام ومسامحة ذوي السلطان فرصة . وهؤلاء في بلادنا قبائل عنزة اعقاب عنز بن وائل النجدي الاصل الذين وفدوا تباعا الى بلاد الشام الشمالية في غرة القرن الثالث عشر . قيل ان وائل اعقب ولدين عنز ومعاذ ، فعنز ابو عنزة الذين نحن في ذكرهم ، ومعاذ ابو قبائل حرب التي منازل بعضها في الحجاز وبعضها لا يزال في مواطنه في نجد . وقيل ان عنز اعقب ولدين بشر ومسلم ، فمسلم ابو ضنى مسلم وهم فريقان الجلاس والمحلف ، فالجلاس قبيلة الرولة ، والمحلف قبائل الاشاجعة والعبدلة والسوالمة والولد علي والحسنة ، وبشر اعقب ولدين عمار وعبيد ،فعمار ابو قبيلة العمارات ، وعبيد اعقب ولدين سبيع وفدعان ومنهما قبيلتي السبعة والفدعان وتسميان ضنى عبيد ، وتدعى هذه القبائل الثلاث ايضا ضنى بشر .

فمن قبائل عنزة في فيافي حلب من ضنى عبيد الفدعان ، وهم فريقان الولد والخرصة . والمشيخة في الولد في عهدنا بيد مجحم بن مهيد الذي تقدم ذكر ضياعه (في الصفحة ٢٠٩) ، والمشيخة في الخرصة ويسمون ضنى ماجد بيد مزود بن كعيشيش ، ومنازل الفدعان جنوبي الجزيرة الفراتية وشرقي حلب بين الرقة وباليس « مسكنة » ، ويذكر من افناد الولد : المهيد والروس والساري والعجاجرة والشميلات ، وينضم اليهم فند يدعى العمور الجراح ، ويدخل في كنفهم حين التشريق افناد صغيرة ذكرنا اسماء بعضها كالابو خميس والكيار واللهيب وغيرها . ويذكر من افناد الخرصة الغبين والعواد والجدع والمجاسرا وغيرهم ، ويبلغ مجموع بيوت الفدعان ٢٣٠٠ .

ومن عنزة « ضنى عبيد » في فيافي حماة وسلمية الشرقية السبعة بكسر السين وفتح الباء والعين ، وهم فريقان : العبدة والبطينات ، والمشيخة في العبدة بيد برجس بن هديب ، ومن افنادهم الرماح والموايجة والدوام والوترة والمسكة والسبايعة والعرفة والعبادات ، منازلهم شرقي الحمراء وسعن الشجرةوالخرايج . والمشيخة في البطينات بيد راكان المرشد ومن افنادهم الكمصة والرسالين والمواهيب والمسارية ، يقيظون شمالي سلمية بين قصر ابن وردان والآندرين

وشرقي حمص بين عقيربات وجب الجراح ، ويبلغ مجموع بيوت السبعة ٤٠٠٠

ومن عنزة « ضنى مسلم » في فيافي حمص الحسنة ، ٤٠٠ بيت ، خاصة ابن الملحم ، وفي فيافي دمشق الرولة خاصة النوري ابن الشعلان ٢٦٠٠ بيت ، والاشاجعة خاصة ابن معجل ٣٠٠ بيت ، والسوالمة خاصة ابن جندل ٢٠٠ بيت ، والعبدلة خاصة ابن مجيد ١٥٠ بيت ، والولد علي وهم فريقان فريق في مشيخة ابن سمير ١٥٠٠ بيت وفريق في مشيخة ابن الطيار ٤٠٠ بيت ، وينضم الى الولد علي فند يدعى المساليخ في مشيخة ابن عائش ٦٠ بيت ، ولكل من هذه القبائل والافناد اقسام وابحاث عديدة ارجئت ذكرها الى المؤلف الخاص بالاعراب الذي ربما اقدمت على نشره بعد .

٢ ـ الطبقة الثانية : اعراب الحاضرة او « عربان الديرة » او « الرعية » النصف رحل او الغنامة باصطلاح الافرنج ، وهم اهل الغنم والمعز ومستثمرو الارضين بالحرث والزرع ، يرحلون في الشتاء الى البادية انتجـاعا لمرعى غنمهم ودفئهم ويعودون في الصيف الى قراهم وضياعهم ، ويأوون الى الخيام « بيوت الشعر » او الى القباب و بيوت الحجر حسب اللزوم والفصول ، منهم من يتخذ الحير في تشريقه وتغريبه أو تنقله من مكان الى مكان آخر كأكثر بطون قبيلة الحديديين ، ومنهم من يتخذ الابل والحمير معاً كبني خالد والنعيم والفواعرة وغيرهم . وهم يشبهون في الجملة الطبقة الأولى في طباع البداوة والجلفة وانتهاك حمى الطبقة الثالثة واهل الحاضرة عند سنوح الغفلة الا انهم يختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة أولئك فلا يردون النقا أي لا يشهر عليهم الحرب ولا يحفظ لهم صحب اي لا يجار الملتجئ إليهم بل لما كانوا « رعية » يؤكلون ولا يأكلون . ويختلفون ايضاً بان لهم استعداداً بارزاً للتحضر وعلائق جمة مع اهل مدن حلب وحماة وحمص ودير الزور ودمشق ، يشاركونهم في تربية الغنم وتجارة السمن والصوف التي تدر عليهم وعلى شركائهم في سني الخصب ثروة غير يسيرة ، وبان لهم قرى وضياعا يقطنون فيها ويستثمرون ارضها ، واذا شرقوا لا يبعدون

كالطبقة الاولى فلا يتعدون جبل البلعاس وجبال تدمر وفيافيهـــا وهم يدفعون للدولةعدا ضريبة الاغنام العشرعن الزروع و «الويركو» عن الارضين فقط .

وهؤلاء في بلادنا الموالي والحديديون اللذين تقدم ذكرهم وخبر اقتتالهم (في الصفحة ٢٠٤) ، بيد ان الموالي تشبه الطبقة الاولى والثانية معا في بعض الامور وتختلف في اخرى . فهم اهل ابل وغنم وقرى ، لكن ابلهم ليست من الوفرة بدرجة البدو وتربيتهم للغنم واشترا كهم مع الحضر واستثمارهم للقرى اقل اتقانا من الرعية ، ومشابهتهم للطبقة الأولى في انهم يردون النقا ويعطون الصحب ، لأنهم اهل حرب وضرب واقوال وافعال . ومن هذه الطبقة بنو خالد وهم قدماء في شمالي الشام كالموالي ، ذكرهم القلقشندي في كتابه « نهاية الارب في معرفة انساب العرب » قال : بنو خالد عرب حمص بطن من بني مخزوم من قريش من العدنانية وهم رهط خالد بن الوليد ، قال الحمداني : وهم يدعون النسب الى خالد وقد اجمع اهل العلم بالنسب على انقراض عقبه ، ولعلهم من ذوي قرابته من بني مخزوم ، قال وكفاهم بذلك فخاراً ان يكونوا من قريش . ومن افناد بني خالد في ديار حماة وسلمية — غير التي عددناهـــا في بحث جبل شحشبو (الصفحة ٢٠٤) الناصر والعليان والعكارشة والشقرة والغنايم والبياطرة والبريكات والطعمة والرطوب والبوادي والرزيق وغيرها ، واكبر مشايخهم محمد بن الباشا عبد الكريم ، ويبلغ مجموع بيوتهم ٩٠٠ . ومن هذه الطبقة العقيدات قبيلة كبيرة ، منازلها الاصلية في سقي الفرات في انحاء دير الزور ، ومنهم في ديار حماة وسلمية الدغامشـــة والابو سرايا والابو سيف والابو سلامة ، ومجموع بيوتهم ٣٥٠ ، ويعد من هذه الطبقة النصف متحضرة الغنامة القبائل التي ذكرناها في اقضية حلب كالابو خميس والوهب والولد علي والكيار واللهيب .

٣ — الطبقة الثالثة الاعراب الفلاحون الذين تركوا الحل والترحال وشن الغارات وأيقنوا ان العيش الثابت خير من المتقلقل وأن من يلجأ لحمى الدولة أهنا بالا ممن يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته فعمروا الخرب الدائرة وهجروا

بيوت الشعر الا قليلا وقطنوا بيوت الحجر أو القبـــاب وتوفروا على الحرث والزرع اكثر من تربية الماشية . منهم في شمالي الشام القاطنون في قرى املاك الدولة في انحاء منبج والباب وجبل الاحص ومطخ قنسرين ، والقاطنون في سهل العمق وسهل الروج وسهل الغاب وفي انحاء ادلب وسرمين والطار والعلا . وقد قدمنا ذكر اسماءهم كل في مكانه ، ومن هؤلاء في اطراف حماة قبيلة تدعى التركي قلما يشرقون بل يمكثون في الغالب غربي العاصي بين حمـــاة وشيزر ، ومثلهم السماطية بين شيزر وافامية ، وبنو عز الرعية والمشارفة الرعية والجملان والخراشين وغيرهم .

وهؤلاء الاعراب على اختلاف طبقاتهم ، وتباين ضعفهم وقوتهم ما برحوا على الوتيرة التي عرفوا بها منذ قرون عديدة في حب الغارات واستبـــاحة حمى المعمور من البلاد والاشتراك بكل انتقاض واغتنام فرصة كل فوضى والنوال من القريب والغريب على السواء واستدرار المغانم والعطايا من اي نبع كان والخنوع امام القوي والتنمر في وجه الضعيف . وجلهم في غفلة عن امور دينه ودنياه ، حتى عن ماضيه ومعرفة نسبه وحفظ حسبه . فقد فقد منهم كثير من الفضائل والمحامد التي كانت لاسلافهم في الجاهلية وصدر الاسلام وملأت كتب التاريخ والادب القديمة ، وضعفت وشيجة القرابة اللغوية والجنسية والدينية بينهم وبين العرب اهل الحواضر بعد ان حالت الدولة المنتدبة في هذه الديار بين البادية والحاضرة وقطعت كل صلاتهم مع حكومات الشام فربطتها بادارة خاصة لديها دعتها «ادارة القبائل» تشرف على الاعراب كافة ولو كانوا من اهل الطبقة الثالثة الذين آووا الى عيش الاستقرار والاستيطان فتفصل قضاياهم وتتداخل في الكبيرة والصغيرة من كوائنهم ومسائلهم وتقف في جانبهم اذا حدث خلاف بينهم وبين اهل الحواضر . بيد ان هؤلاء الاعراب بعـــد ان كانوا على جانب غير يسير من رغد العيش والزهو اخنت عليهم سنو الجدب التي توالت ثم اشتدت منـــذ سنة ١٣٥٠ واهلكت من ماشيتهم زهاء تسعة اعشارها ، وقبل ذلك كان معين ارتزاقهم الثاني

وهو الغزو والسلب قضت عليه طيارات الدولة المنتدبة وراكبو الهجن من جنودها ، فاصبحوا في غاية من البؤس والفاقة وضعة الشأن ، لا فرق في ذلك بين جليلهم وحقيرهم وقاصيهم ودانيهم . ونعوذ بالله من الخيبة والخسران .

جبل البلعاس • — في شرقي سلمية على بعد ٤٧ كيلومتراً منها جبل يدعى البلعاس يذهب القاصد اليــه مارا بقرى برى الغربي ومفقر الغربي ومفقر الشرقي ويترك على يمينه قرى برى الشرقي والعوينـــة وابو دالي وحمادة عمر وغيرها ، ويترك على يساره ارض قرية عقارب الواسعة ثم ابي حبيلات وابي رمال الى ان يوافي عقيربات ، وقد ذكر ياقوت في معجمه عقيربات بدون تاء وقال انها ناحية بحمص ، وهي ضيعة في اقصى العمران فيها الآن مخفر للدرك ومدير ناحية تتبعه الضياع والمزارع النائية مثلها كفريتان وعرشونة وعكش وابوحنايا وقليب الثور وصلبا ومسعدة ومسعود ماعدا التي مر ذكرها في الطريق ، واهل عقيربات جالية من قرية السخنة على طريق تدمر ودير الزور ، وقـــد عرفت بحدوث المعارك الاولى بين قبيلتي الموالي والحديديين حينما نشبت الفتنة بينهما في سنة ١٣٣٩ وانتقلت الى اماكن اخرى وعمت البلوى منهما ودامت اذ ذاك سبع سنوات وبعد ان اطفئت عادت تخبو نارها تارة وتشب اخرى لا سيما كلما وجدت من يوقد شرارها .

والبلعاس يبتديء من قرب عقيربات ويقف حاجزاً بين فيافي البادية وارياف الحاضرة . وهو مؤلف من آكام وهضاب متسلسلة يتخللها اودية تختلف بعرضها وعمقها ، وطوله من الشمال من مكان يدعى حسو الرمل الى آخر في الجنوب يدعى الفايا شرقي كورة حمص نحو خمسين كيلومترا وعرضه من جوار عقيربات السويد الى صرة ابي الظهور اربعون كيلومتراً . ويتصل البلعاس في شرقيه بسلاسل من الجبال المماثلة له تمتد من الغرب الى الشرق الى قرب قرية السخنة ، وتدعى باسماء مختلفة كابي الظهور وفيه موقع يدعى الشفا وشاعر وشطب والمرأة وابو رجمين

وابو حية والابيض وهذا يشرف على طريق حمص وتدمر . ويختلف علو هذه الجبال بين ١٠٠٠ — ١٤٠٠ متر بينما السهول الناشزة قرب سفوحها لا تتجاوز خمسمائة المتر . وفي هذه الجبال اشجار قديمة عظيمة من البطم الذي ينفع بحطبه وعصير ثمره المشابه لزيت الزيتون وباستعداده للتطعيم بالفستق ، وفيها لا سيما قرب عقيربات قليل من شجر السويد الذي نسبت اليه وهذا ليس منه سوى الحطب. وتدل ظواهر هذه الاشجار على انها كانت في الماضي كثيفة وكان البلعاس ومازال اغناها بذلك . الا ان يد القطع والاستئصال نالت منها ويا للاسف وبعدت المسافة بين الشجرة والثانية مئات من الأمتار ، وما برح اهل سلمية وعقيربات وضواحيها يقطعون احطاب هذه الاشجار وينقلونها على عجلاتهم وجمالهم ويبيعونها في حمص وحماة وسلمية ناهيك عما تحرقه الاعراب الذين ينزلون فيه في فصل الشتاء او يمرون به اثناء التشريق والتغريب مما يقدر مجموعه في كل عام باربعين الف قنطار ونيف ، وقد خلا معظم الهضاب الغربية في البلعاس من اشجاره بسبب هذا القطع المستمر ولا رادع ولا وازع ، وسوف لا يمضي على ما رأيت عشرون سنة حتى يتجرد هذا الجبل الجميل من اشجاره بالكلية كما تجرد جبل الشومرية وجبل قلمون وغيرهما من جبال الشام فاختل نظام الامطار وتوالت اعوام المحل من جراء هذا التجريد والتخريب .

ذكر ياقوت البلعاس ، فقال انه كورة من كور حمص وكان عرف الكورة في مقدمته بانها كل صقع يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قصبة او نهر يجمع اسمها . فهل كان هذا الجبل عامرا في عهد ياقوت وما قبله حتى سماه كورة ؟ لا جرم ان المتجول في هضاب البلعاس وشعابه وفي الجبال المجاورة له التي عددناها يجد خربا ورسوما كثيرة تعد بالمئات لا تزال اطلالها ماثلة، بعضها يشبه المخافر لوقوعه في ذروات مشرفة على المنافذ والمسالك وبعضها يشبه الدساكر والضياع اشهرها ام قبيبة ورسم التنباك والتركمانية وحميات ودبيس وجب العمارة وحويسيس والقسطل وبستان صبيح والمسكرة . وغالبها يحتوي على صهاريج

مندثرة شيدت وطليت بما يضبط الماء وسلطت عليها المجاري الاتيه بمياه الشتاء ، مما يثبت ان هذه الجبال المقفرة في يوما كان بعضها ان لم يكن جلها آهلة في العصور الغابرة وذلك على الرغم من انها محرومة بالكلية من الينابيع المتفجرة في حين ان صخورها رسوبية جيرية بيضاء،وهذا ما دعا سكانها القدماء لحفر تلك الصهاريج وتشييدها . بيد ان ياقوت لم يزدنا ايضاحا كما ان غيره من جغرافيي العرب ونخص بالاشارة ابي الفداء لم يذكروا عن كورة البلعاس شيئاً ،لذا غمض علينا مبلغ العمران الذي وصلت اليه وعدد السكان وحسبهم ونسبهم ومعاشهم اكان من الاحتطاب وعصر ثمر البطم ام من غيرها ايضاً ،وما سبب خراب هذه الكورة وزمنه اكان قبل الفتح الاسلامي أم بعده في بدء عهد العباسيين كما نقله الصابوني في تاريخ حماة دون ان يذكر المصدر ام بعد عهد ياقوت في القرن الثامن حينما خربت سلمية وضواحيها بيد الاعراب ابناء واحفاد عيسى بن مهنا .

هذا وقد اعتادت اعراب ديار سلمية وحماة والمعرة الذين تقدم ذكرهم واخصهم الموالي ان تنزل في فصل الشتاء في البلعاس والجبال المجاورة له، وذلك في الخرب الدائرة التي ذكرناها ، وبعض القبائل تمر بها في طريقها الى البادية (الحماد) او الحاضرة (المعمورة) خلال التشريق والتغريب وهم يرغبون في الارعاء فى هذه الجبال لصلاحها للغنم والمعز التي تتسلق الاشجار وتتغذى باوراقها قبل هطول الامطار واخضرار الارض بنبات الربيع . ولهذا دعيت مثل هذه القبائل في كتب الاقدمين باهل الشجر لسكونها او مرورها بالجبال الشجراء على حين ان اهل الوبر اي اصحاب الابل العريقين بالبداوة كقبائل عنزة تبتعد عن البلعاس لضرر اشجاره بالابل التي تحتك بها وتصاب بالجرب ، وتبتعد خاصة عن جبل شاعر الذي زعموا ان في سفحه (اوشليله كما يقولون) عشب صغير ينمو بين غيره من النبات في الربيع اذا اكله البعير يصيبه وهن اشبه بالهيضة ، وقد يبقى فيه كامناً الى اواخر فصل الصيف ولا يؤمن من ظهوره في البعير حتى يشرب ماء السماء (اي ان تمطر) .

وفصل الربيع في هذا الجبل جميل يستهوي غواة المعتزلات القفراء والاودية الشجراء والهضاب الغضراء ، لا سيما بعد ان يورق البطم وتنمو الانجم والاعشاب وهي هنا تقترب بوفرتها وتنوعها لما في الجبال الغربية ، وبعد ان تمتلىء صهاريجه وحواياه بمياه السيول والامطار وتزدهي سفوحه واوديته بمضارب العربان ويرن فيها ثغاء الغنم والحملان وتكثر الزبد والالبان . وبعض اوديته واسعة الرقعة خصبة التربة حمراء اللون صالحة للاستغلال لا ينقصها الا الامن واليد العاملة . ويذكر ان في جبل شاعر ارضاً تدعى مسعدة شاعر تشبه كورة العلا بالنشوز واحمرار التربة وسعتها وخصبها ، وان في الجبل الابيض على مقربة من تدمر مقطع للرخام الابيض وفي غربي المنهل المعروف بالجحار صخر احمر يعرف بمقطع المرو ، وان في جبل المراة ايضاً مقطع آخر يماثله . واذا لم تكف مياه الصهاريج والحوايا في هذه الجبال يرد الاعراب الابار الموجودة في السهول الممتدة في شماليها او شرقيها او جنوبيها كابار اسرية والقصير وابو الفياض وابو النيتل والتوينات والكديم والهباة وقواعد وجب الرمان وجحار وعين البيضاء وابو الرغيوة ومخلف وحفار الجواد ومياه الابار الثلاثة الاخيرة مرة .

قصر ابن وردان — . من يقصد قصر ابن وردان عن طريق الحمراء يغادر سلمية نحو الشمال فيرى على يساره ضريح الشيخ فرج الذي تقدم ذكره ، ومرجا افيح يدعى مرج الخصيمية كان ولا يزال منزل اعراب هذه الديار كما ان بعض الملوك والامراء الذين كانوا يأتون للاستيلاء على سلمية او حماة ينزلون بجيوشهم فيه . منهم سيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٤٤ لما جاء وحارب الأعراب الذين ثاروا عليه كما قدمنا ، والملك المعظم عيسى بن العادل بن ايوب ملك دمشق لما جاء في سنة ٦٢١ لمحاصرة ابن اخته الملك الناصر ملك حماة ، ثم اخوه الملك الكامل ملك مصر لما جاء في سنة ٦٢٦ لمحاصرة الملك الناصر المذكور ايضا، ثم تيمورلنك

طاغية التتر في سنة ٨٠٣ جاء الى هنا بعد ان خرب حلب وبعث بفرقةمن جيشه لتخريب حماة وقلعتها ثم قصد دمشق. ويرى السائر قرية تل اعدا وكانت مقر الامير مهنا بن عيسى الذي تقدم ذكره ، وفي شرقيها ذيل العجل وفي شماليها تل سنان واهل هذه القرى الثلاث في يومنا شركس .

وفي غربي تل اعدا بطيحة صغيرة يحصل فيها ملح ناصع البياض لولا انهقليل المرارة ينشأ من توافد مياه القني وسيول القرى المجاورة في الشرق والشمال في فصل الشتاء واجتماعها في هذه البطيحة التي في قعرها معدن الملح. ويقدرون كمية ما يمكن ان يجنى منها فيالسنة بخمسة آلاف قنطار ، لولا ان الحكومة مانعة ذلك منعاً باتاً وقاية للملح المجبول. فيقوم بهذا المنع حرّاس مدة فصل الصيف الى ان تفد السيول المذكورة وتذيبه وتحمله اذا فاضت الى مرج الخصيمية فعين الزرقاء فالاودية الذاهبة الى العاصي .

هذا والسائر نحو الشمال يلمح على يساره هضاب كورة العلا التي تقدم ذكرها ، ويمر بازاء ضياع منها على يمينه جصين والبويض واللالا والربيعة وعلى يساره الدوسة وخنيفس والشهيب والشهبا والرحية . وفي شمالي الرحية هضبة عالية فوقها قلعة قديمة خراب تدعى « قلعة الرحية » لعلها من الحصون التيشيدها الرومان على طرف البرية لمنع البادية من العيث . يصل اليها الصاعد من طريق في غربيها فيرى بابها الذي لم يبق منه سوى عضادتيه وعتبته . وفناء هذه القلعة رحب لايقل عن نصف هكتار كان حوله سور ضخم بقيت منه أسسه وفيوسطه اطلال دارسة واحجار واعمدة مبعثرة وكلهامنالحجارةالحريةالسوداء وبئرذات فوهة واسعة مردومة على ان العمق الظاهر منها لا يقل عن الخمسين متراً .

وبعد خمسة كيلو مترات من قلعة الرحية يصل السائر الى ثكنة الحمراء الخراب ، وهي من عهد السلطان عبد الحميد أقام فيها جنوداً يربون المهار المعدة لفرسان الجيش في المرج الافيح الذي في غربي الثكنة ويحفظون هذه البراري والضياع القائمة فيها ، وكلها كانت من املاك هذا السلطان الخاصة ، ثم انتقلت

بعد خلعه في سنة ١٣٢٧ الى بيت مال الدولة العثمانية وبعد ان زالت هذه الدولة عقيب الحرب العامة في سنة ١٣٣٧ صارت من « املاك دولة الشام » . وهذه الاملاك كثيرة ومنتشرة في شرقي حلب وجنوبيها في اقضية جرابلس ومنبج والباب وجبل الاحص ومطخ قنسرين وقد تقدم ذكرها في ابحاث هذه البقاع ، وفي شرقي الحمراء وسلمية وحمص وهي تعد نحو ثمانمائة قرية وضيعة يقطن ما كان منها في الشمال حول حلب والحمراء اعراب من قبائل وبطون شتى ، ويقطن ما كان منها في الجنوب شرقي سلمية وحمص قليل من الاسماعيلية وكثير من النصيرية . وقد كانت هذه القرى والضياع في زمن هذا السلطان عزيزة الجانب ينعم فلاحوها باحسن أمن واجمل رعاية ، لانه منع عنها عيث البـــادية بفضل الشكنات والمخافر التي وضعها على حدود الحاضرة — كشكنة الحمراء وشكنة جب الجراح في سفح جبل الشومرية شرقي حمص ومخـافر سعن الشجرة وتل الاغر وعقيربات السويد والفرقلس والمخرم — واعفى فلاحيه من الجندية والتكاليف الاميرية وغيرها ، فعمرت اذ ذاك هذه القرى والضياع بعد ان ظلت خراباً بضعة قرون . وما ان خلع هذا السلطان حتى تضآلت تلك الرعاية وما زالت تتضائل حتى فقدت بالكلية بعد ان الغيت ادارة هذه الاملاك في سنة ١٣٥٢ وافل نجمها وساء حال فلاحيها . ، ولما تقلص ظل الدولة العثمانية من ربوع الشام ونشبت فتن قبيلتي الموالي والحديديين خربت ضياع الحمراء وجلها مما يقطنه افناد هاتين القبيلتين وما ان يصطلحا ويرجع الجفّال الى مواطنهم ومزارعهم ويعمروها حتى تنشب الفتنة ثانية فتعود للخراب وهكذا دواليك .

وفي القسم السالم من شكنة الحمراء اقاموا في يومنا مخفراً فيه بضعة جنود من الدرك يعززونهم بقوة كافية عنـــد اللزوم ، وثمة حوش شبه الحظيرة لرجل حموي يستغل قسما من مرج الحمراء بالحرث والزرع ويعمل مثله فلاحو قريتي الحمراء ورأس عين الحمراء المجاورتين .

وبعد مغادرة شكنة الحمراء يتجه السائر نحو الشمال الشرقي فيرى على يمينه

من الضياع اللالا وجناة الصوارنة واصل اهلها من صوران التي تقدم ذكرها في بحث كورة العلا ، والشيحا وعلى يساره تل محصر ومويلح الصوارنة وابو عجوة فقصر ابن ورد ان الواقف وسط هذه البراري الشاسعة كانه رمز العظمة والخلود.

لما تسنى لي زيارة هذا القصر وخربة الاندرين في خريف سنة ١٣٤٥ ورجعت الى دمشق انقب في كتبنا العربية لعلي اجد ذكراً لهما لم اعثر الا على بضعة اسطر عن الاندرين قالها ياقوت في معجمه سأنقلها في موضعها ، اما قصر ابن وردان فلم يذكره ياقوت ولا غيره . فاضطررت اذ ذاك لسؤال المرحوم الاب لويس شيخو اليسوعي فاجابني في مجلة المشرق « عدد نيسان سنة ١٩٢٧ » ان اول من وصف قصر ابن وردان الاستاذ موردتمان في (المجلة الاثرية الكتابية الالمانية) المطبوعة في النمسا سنة ١٨٨٤ ثم عاد بعده غيره من السياح كاوستروب وهرتمان وفون اوبنهايم وستريغوفسكي فوصفوه ونشروا صوره . على ان هذا الوصف قد جاء واسعا مستوفي مع نقوش وتصاوير بديعة في منشورات البعثة الاميركانية في جامعة برنستون بالانكليزية في القسم الثاني المطبوع في ليدن في هولاندة سنة ١٩٢٠ ص ٢٥ — ٤٥ ، ووصفت خربة الاندرين في الكتاب المذكور ص ٤٧ — ٦٣ اهـ . قلت لم اتمكن من الاطلاع على المجلة والمنشورات التي ذكرها الاب شيخو ولعل الخلاصة الموجودة في الدليل الازرق لموتمارشه مأخوذة عنها فجعلتها عمدتي في بيان ما يلي :

يتألف هذا القصر من ثلاثة ابنية لا تماثل قط بقية المباني التاريخية في بلاد الشام ، وتعزى مكانتها على ما قاله الاثريون الى ان بناءها وخاصة امتزاج الاحجار والواح الآجر يختلف عن الطراز المعروف في فن البناء الشامي ويقترب من طراز المباني الملوكية في القسطنطينية في عهد يوستنيانوس (١) ويرجعون

---

(١) دام حكم هذا الامبراطور من سنة ٥٢٧ الى ٥٦٥ م وكان كثير السهر شديد الريبة من حاشيته ، فتح فتوحات عظيمة واخضع ممالك الشرق

ان بانيها المهندس ايزيدور ، وشبه دوسو هذه الابنية من حيث التركيب ومزج المواد لما في قصر المشتى في شرقي الاردن .

والابنية الثلاثة تشمل كنيسة كبيرة ثم قصراً عظيما وكان كلاهما حينما زرتهما سالماً بعض السلامة ، وثمة بناء عسكري واسع خراب بالمرة ولعله كان ثكنة . واجل هذه الابنية القصر وهو واسع الاركان ذو طابقين عاليين في الاول منها اروقة طويلة كل منها مؤلف من صفين من الغرف يتصل بعضها ببعض . وقد شيد هذا القصر ومثله بقية المباني بالاحجار الحرية السود وبالواح من الاجر كبيرة صفراء غاية في الصلابة والجودة ودعمت بملاط قوي . وثمة احجار جيرية بيضاء واعمدة من الرخام بنيت بها الاقسام الداخلية ، وعلى عتبة احد ابواب القصر كتابة يونانية تاريخها ٥٦١ ميلادية واخرى في موضع ثان تاريخها ٥٦٤ في عهد الامبراطور يوستنيانوس . وقد تداعى معظم جدران الطابقين والاقسام الداخلية ونقضت الاحجار والاعمدة ولم يبق في الطابقين سالماً الا

والغرب التي كانت على وشك الانفصال عن بلاده واعاد مجد الرومان ، وكان يقدر العدل والنظام ، امر بجمع زبدة الشرائع الرومانية السابقة وحشرها في قانون واحد دعاه باسمه ، وكان عمرانياً شيد كثيرا من الحصون وقناطر الماء والحمامات والمستشفيات والديارات والكنائس والقصور الفخمة ، اجلها واعظمها كنيسة اياصوفيا في القسطنطينية ، بناها له المهندسان الآسياويان ايزيدور وآنتيموس ، (وفي الشام ينسب اليه اسوار منبج وقصر بن وردان ودير سيدة صيدنايا ولعله بنى غيرهما ايضاً) الا ان تلك الحروب العظيمة والمباني الجسيمة اثقلت كاهل الشعب الروماني واضنته ، ولما مات يوستنيانوس لم يؤسف عليه ، وسع بلاده وعمرها لكنه ابتز ضرعها وغادرها فقيرة بالانفس والاموال . (عن تاريخ العصور الوسطى لماله وايساق الافرنسيين).

الواجهة الجنوبية وبعض الابهاء ذات القباب وبعض النوافذ ، وبقي في الواجهة الغربية قسم من القباب وعضادتان ضخمتان احداهما مزدوجة ، فالقصر في الجملة اخنى عليه الذي اخنى على لبد . اما الكنيسة فقد كانت ذات بناء عظيم له رواق فوقاني ذو ثلاث قناطر يشرف على داخلها . وكان على الكنيسة قبة عالية ركبت على قناطر تستند على دعائم ضخمة ولا تزال بعض جدران طابقها التحتاني والرواق الفوقاني وقسم من نصف القبة وقنطرتها الكبرى ماثلة ، وصحن الكنيسة متطاول ينتهي بحنية مدورة وثمة صحون تالية تمتد في كل جانب . والشكنة التي خرب معظمها ذات شكل مستطيل وكان لها سوران بينهما غرف ذات قبب ، وفي داخلها فناء رحب في وسطه بناء عال ذو طابقين وقبب عديدة . ولا يمكن الزائر ان يميز في هذه الشكنة الا باب مدخلها الكبير وهو في شماليها وعلى اعتبته كتابة كبيرة ، والزاوية الشمالية الشرقية للسور الخارجي وبضعة اقسام من البناء المتوسط .

ومن الغريب ان هذا القصر الفخم المبني قبل الاسلام لم يذكره احد من جغرافيي العرب ولا ياقوت الذي ذكر قصوراً عديدة اقل منه شأناً ، لذا فقد غمض علينا معرفة ابن وردان الذي نسب اليه هذا القصر وفي اي عهد كان ومن رفه فيه وبذخ ثم متى وكيف بدأ خرابه ، وقد قيل ان معظم ذلك حدث في عهد السلطان عبد الحميد حينما امر بانشاء ثكنة الحمراء فنقلت الجنود احجاره اليها ثم اجهز الجوار على ما بقي حتى اصبح على ما وصفناه وهم مازالوا على هذا الاجهاز دائبين ويا للاسف . ومن الغريب ايضا ان عمال يوستنيانوس الذين بنوا هذا القصر وتوابعه كيف انتقوا هذه الاماكن النائية عن حماة نحو ٦٠ وعن سلمية ٤٦ كيلومتراً وعنوا بحسن هندستها وزخرفها ، اكان ذلك لجمال هذه البراري وهي في يومنا اشبه بالفلوات لخلوها من الخضار والاشجار قل ان استتب فيها الامن في العصور الغابرة ان غلّت سنتين او ثلاث بارت سنين ، ومازال هذا شأنها حتى يومنا الا قليلا — أم لعمران القرى التي حولها وكلها الان ضويعات حقيرة

لا تدل رسومها واثارها على انها كانت من الكبر بحيث تستحق وجود مثل هذا القصر ومشتملاته ؟ ذلك امر جدير بالبحث ، ليس لدينا مجال لبسط القول فيه. هذا وعلى مقربة من القصر ضويعة ذات قباب يعمل اصحابها على اخراج قناة قديمة في اراضيها ، وثمة في الاطراف من الضويعات رسم الورد ورسم عيزى وابو خنادق وابو عجوة والشيحا والعطشانه والمنطار وخربتي المصيطبة والـثروت .

الاندرين . — السائر من قصر ابن وردان الى الاندرين يجتاز نحو الشمال الشرقي ٢٥ كيلومتراً جلها منبسطات محصاة وتلعات يكثر فيها الشيح والقيصوم والروثة وغيرها من نباتات البادية، ويتخللها اودية فيها زروع ضئيلة قليلة المساحة لبعد هذه الربوع وضعف زراعيها وهم من صعاليك الاعراب ، ويرى السائر في طريقه خرائب ورسوما لا يحوي جلها الا قليلا من الخيم او القباب منها على اليمين رسم الورد وعلى الشمال رسم عيزى والخطابية والجنينة والحنية وتفاحة وحومي الى ان يوافي الاندرين . تقع هذه البلدة الخراب وسط برية منبسطة شاسعة يحدها شمالا جبل الاحص الذي تقدم وصفه (في الصفحة ٢١٢) وغربا بمالح وبطائح تمتد الى قرية خرايج الشحم والسلايل المتاخمة لكورة العلا الشمالية وشرقا البادية المترامية الاطراف نحو دير الزور وما وراءه وجنوبا السباسب التي تنتهي عند ارياف قصر ابن وردان وسعن وسعين اوسعن الشجرة وبغيديد ، وهذه ورد اسمها في صبح الاعشى للقلقشندي في ذكر طريق جعبر ، وفي معجم ياقوت وقد عدها من قرى حلب .

واليك ما قاله ياقوت عن الاندرين : اندرين اسم قرية في جنوبي حلب بينهما مسيرة يوم للراكب في طرف البرية ليس بعدها عمارة وهي الان خراب ليس بها الا بقية الجدران واياها عني عمرو بن كلثوم بقوله :

الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا

وهذا مما لا شك فيه . وقد سألت عنه اهل المعرفة من اهل حلب فكل وافق عليه وقد تكلف جماعة اللغويين لما لم يعرفوا حقيقة اسم هذهالقرية والجأتهم الحيرة الى ان شرحوا هذه اللفظة من هذا البيت بضروب من الشرح ... الخ اهـ . قلت وقد اتيح لي في خريف سنة ١٣٤٥ زيارة هذه البلدة البيزنطية التي ما برحت خرابا يبابا منذ الفتح الاسلامي على ما يظن وتجولت بين كنائسها السبع واطلالها ورسومها التي ما برح بعضها ماثلا وبعضها هدم واصبح ركاما اوطمر تحت الرمال السافيات . ولما لم اجد في كتبنا العربية بحثا عن الاندرين سوى ما نقلته آنفا عن ياقوت وهو لا ينقع غلة من الناحية الاثرية رجعت الى كتب مستشرقي الافرنج فوجدت مونمارشة في دليله الازرق يقول :

الاندرين وكان اسمها قديما Androna بليدة تمتد احياؤها ومبانيها في ساحة كبيرة لم يبق منها الان سوى الانقاض المركومة والاطلال المهدومة وجلها من الحجر الحري وبعضها من الآجر المشوي . وهذه الانقاض والاطلال تدل على ان الاندرين كانت بليدة بيزنطية مسورة لا تزال خططها ماثلة كما كانت حينما هجرها قطانها في عهد نظنه عهد الفتح العربي(١) . وحينما يقترب السائح من هذه البليدة يرى ابنية تشبه الابراج شيدت بالحجارة الحرية السود تظهر منفردة او مجتمعة في احياء مختلفة ، وكانت هذه الابراج في زوايا جدران المباني العظيمة التي اضحت انقاضا مركومة . اما المباني التي لا تزال انقاضها كثيرة فهي الثكنات ، وهذه جدران طوابقها السفلى ما برحت قائمة على انها مدفونة تحت انقاض الطوابق العليا ، ثم كنيسة عظيمة ولعلها الكاتدرائية ، ثم كنيسة في جنوبي البلدة يحيط بها جدار ثخين ، ثم خزان ماء جسيم . ولا يزال ثمة كميات عظيمة من انقاض المباني التي شيدت بالاجر المشوي يصعب البحث عنها ، وهناك كنيستان متجاورتان مخصصتان الى الملائكة العلويين واخرى قرب الجدار الشرقي وواحدة

(١) هذا الظن خطأ . وصحيحه ان الهجر والخراب حصلا قبل ذلك في اواخر العهد البيزنطي كما قدمناه في بحث سلمية (ص ٢٧١)

اصغر في الجنوب الشرقي من الشكنات ومذبحان احدهما مربع الشكل كان له قبة والثاني كان مستطيلا ، وتجاه الشكنات بنا آن لم يشيدا على مخططات منتظمة احدهما تظهر فيه غرفة مدورة واخرى متطاولة منتهاها على شكل نصف دائرة مما يدل على انه كان حماما . وثمة كثير من الخرائب وانقاض الدور الخاصة كان معظمها على ما يظهر مبنيا حول فناء رحب ، وفي بعض هذه الافنية احواض محفورة . وثمة ايضا طريقان احدهما من الشمال الى الجنوب والثاني من الشرق الى الغرب كانا يتقاطعان في منتصف هذه البلدة . وسور الاندرين لا يزال سالما في كثير من الاماكن وتظهر منه ابراج مربعة عادية وابراج مزواة . والسور مبني باحجار ضخمة مستطيلة الشكل وقد دعموه بعضائد في كل ٣ — ٤ امتار .

والشكنات تؤلف في وسط المدينة بناء مربع الشكل يبلغ طول احدى واجهاته ثمانين مترا تنم هيأته على انه مكان عسكري . ولهذا البناء مدخل واحد في الجهة الغربية وابراج مزواة سداسية الاضلاع واخرى مربعة في وسط الجهات الشمالية والغربية . وفي وسط الفناء الواسع في هذه الشكنة شيدت كنيسة ابعادها ٢٠×١٥ متراً . والكاتدرائية وهي كنيسة الاندرين العظمى موجودة في الجهة الجنوبية الغربية من الشكنة قرب المصلبة التي يلتقي فيها الشارعان الكبيران وانقاضها الباقية تجعلنا نضعها في مصاف النماذج المدرسية للكنائس العظمى ، لها صحن متوسط عظيم منفصل عن الاجنحة الجانبية بثلاث اقواس محمولة على عضادات متطاولة . والحنية ذات خمس نوافذ وقد هدم معظمها ولم يبق منها الا جدار الشمامسة وجداران آخران مع قسم من الصحن المنحني الذي كان بينهما . واكثر مباني الاندرين سلامة هي الكنيسة الجنوبية كان كلها مبنيا بالحجارة الا سقفها فمن الخشب ، وما خلا ذلك كان حول الكنيسة سور خاص مبني بالحجر مع دعائم وابراج مما يدل على انها كانت كنيسة محصنة مشيدة وسط البلدة ومرتسم هذه الكنيسة يشبه الكاتدرائية لو لا ان انحناء الحنية لا يمكن ان يرى من الخارج وليس فيه سوى ثلاث نوافذ . ولا تزال الحنية قائمة مع الغرف

الجانبية حتى الطابق الاول وكذلك دعائمها ، ولكن نصف القبة قد زال بالكلية ، اما القسم الاعظم من الجدار الشمالي فلايزال سالماً وكذلك قسم من الجنوبي والزوايا الغربية للصحن . والدعائم المتصالبة في المنتهى الغربي لهذه الكنيسة محفوظة ، لكن الجدار والابراج الغربية خربت بالكلية ، وقد بنوا تجاه الغرفة الجانبية الشمالية بناء لايزال سالماً يظهر انه كان ضريحاً وخارج الكنيسة مستطيل اما داخلها فعلى شكل الصليب .

وفي جنوبي الاندرين وخارج اسوارها خزان ماء مربع الشكل طول كل ضلع فيه ٦١ متراً مبني باحجار الجير بعضها ذو نقوش ورسوم رومانية ، وعمق الخزان لا يربو على خمسة الامتار ولعله كان يبلغ السبعة ابان مجده ، والقسم الاعلى من الكورنيش يؤلف ممشى عريضاً يدور حول الخزان كله وفي خارجه صف من الاحجار الضخمة مربعة الشكل جعلت لمنع مياه السيول من النفوذ الى الخزان اهـ . قلت ويصل الماء الى هذا الخزان من قناة غطي قسمها القريب من الخزان باحجار منحوتة ضخمة وهي تأتي من الجنوب الشرقي من اراضي رسم يدعى ام اميال الشرقي عمرته من عهد قريب جالية من اسماعيلية القدموس ، وتتصل هذه القنوات باخرى ترد من ارض رسم اخر يدعى ابو الغر يقع في شمالي سعن وسعين ، وربما بلغ طول القناة الاولى عشرة كيلومترات ، وفي شمالي الاندرين الى الغرب خزان ثان لم يذكره مونبارشه تصل اليه الماء من قناة آتية من رسم المقطع الواقع في جنوبي الاندرين للغرب ، وتتصل هذه ايضا باخرى ترد من الغرب الى ضيعة تدعى التفاحة وربما زاد طول القناتين على سبعة الكيلو مترات .

والاندرين تتبع قضاء معرة النعمان المرتبط بولاية حلب . وقد كان احد الحلبيين احيا قبل الحرب العامة قسما من ارضها الموات وبنى في شمالي الخربة حوشا فيه قباب عديدة وشرع بالاستثمار ، الا ان شدائد تلك الحرب الطاحنة وكثرة مرور غزاة البادية من هذه الربوع النائية اضطرته الى ترك العمل .

وفي سنة ١٣٤٦ جاء اناس من نصيرية جبال اللاذقية وشرعوا باستثمار ارض الاندرين وفتح قنواتها وتنظيف دورها الخربة وتكبدوا اتعابا ونفقات جمة الا ان جشع ورثة ذلك الحابي وتوالي سني المحل وفقدان المعونة من اولياء الامور فت" في عضدهم فعادوا ادراجهم ، وهكذا ضاع الامل برجوع العمران الى هذه البلدة التي ما برحت منذ اربعة عشر قرنا خاوية على عروشها ، ولا يعلم الا الله ما اذا كان يرجع اليها في المستقبل .

ويظهر انه كان في الاندرين كروم واسعة جيدة تنتج خموراً طيبة مشعشعة تحمل الى الاقطار البعيدة ومنها الحجاز فيتغنى بها شعراؤه امثال عمرو بن كلثوم في معلقته . ولا غرو فارض الاندرين المستوية الرملية الكلسية الصفراء صالحة لانبات الكروم وغيرها اذا توفرت لها مياه الري في مستهل حياتها او جاءها في كل عام مطر يزيد بمجموعه على ما يهطل في عهدنا في هذه البراري النائية . فهل كانت هذه الشروط متوفرة حينما دعا العمران ورغد العيش لاشادة تلك الكنائس والثكنات والحمامات والابراج والقصور والدور والخزانات والقني ؟ . واين غاضت تلك المياه وكيف قل تهطال الامطار ، أيكفي استئصال الحراج وتجريد الجبال من نضرتها لحدوث هذا الشح في سماء الشام وتوالي اعوام المحل التي صرنا نشهدها في عهدنا ؟ . . تلك اسئلة تحتاج الى كثير من التفكير لا يتسع المجال لخوضها .

ومن الغريب ان يخلط البستاني صاحب دائرة المعارف بين هذه الاندرين التي حقق ياقوت موقعها بجلاء ، وبين اندرين اخرى خارج حدود الشام الشمالية كان في عهد الترك مركز قضاء يتبع ولاية حلب وبقيت الآن في حوزتهم ، وان ينسب بيت عمرو بن كلثوم اليها .

ومما يجدر ذكره حول الاندرين اسرية — بكسر الالف والسين — وهي تبعد عن الاندرين الى الشرق نحو ٣٥ كيلومتراً . وهي ايضا قرية خراب ذكرها ياقوت انها « موضع بين خناصرة وسلمية وتسميه العامة سورية » . وصوابه ان يقول اسرية ، وقد اخطأ ايضاً بظنه ان اسم سورية الذي كان يطلقه الروم على

بلاد الشام خاص بهذه الخربة . وفي اسرية آبار يرتادها الاعراب في تشريقهم وتغريبهم ، واطلال لا يستهان بها وصفها مونمارشة في الدليل الازرق قائلا : اسرية واسمها القديم Seriane تشرف على الطريق الآخذةمن الرصافة « رصافة هشام » الى سلمية . وليس ادل على مقدرة البشر على عمران بادية الشام من وجود المعبد الروماني الجميل الموجود بين خرائب اسرية . فقد قام هـــذا المعبد فوق نشز طمرت تحته الانقـــاض المركومة لهذه البلدة ، في جداره الشرقي باب عريض عال غاية في الزخرفة له افريز ذو زهور وزوافر على طرفي العتبة ، وفوق الباب قوس واسعة وهي مزخرفة ايضاً . وفي كل من اطراف المدخل بناء مربع يشبه البرج ، فالذي على اليمين يحوي درجاً حلزونيا يصل الى سقف المعبد ، والجدران الجانبية القوية في المعبد دعمت في الخارج بعضائد ، وطراز هذه المباني وزخارفها تدل على انها بنيت في القرن الثالث ايام كانت بعلبك في سؤددها اهـ :

وثمة في شمالي اسرية بينها وبين جبل الشبيث المناوح لجبل الاحص (وقد تقدم ذكرهما في الصفحة ٢١٢) عين تدعى عين الزرقاء وبالقرب منها الحمام ، وقد ذكرهما ياقوت قائلا : الزرقاء بين خناصرة وسورية (وصوابه ان يقول اسرية ولعل ذلك من خطأ النساخ) من اعمال حلب وسلمية ، وهي ركية عظيمة اذا وردها جميع العرب كفتهم ، وبالقرب منها موضع يقال له الحمام وهي حمة حارة الماء اهـ .

طريق حماة — الرستن (٢٤ كيلو مترا)

بعد ان يصعد السائح من وادي حماة يسير قبلة في سهول شاسعة ذات تربة حمراء تمتد غربي العاصي فيرى على يساره قبة فيها ضريح الشيخ مهران (؟) كانت حولها قرية تدعى النقارين دثرت في القرن الحادي عشر وجلا اهلها الى حماة ذكرت في صبح الاعشى . ويرى في غربي حماة قرية الرقيطة ويلمح فى الافق الغربي جبال الكلبية ويرى على يمينه سكة الحديد ، وبينها وبين طريقه التي اصبحت الان

معبدة احسن تعبيد — عدة قرى كالخالدية وكفر بهم وايبو وبسيرين ، ويرى على يساره جبالا صغيرة جرداء قائمة منها اكمة قرنة الحجل (٤٤٠) وجبل كبير يدعى جبل الاربعين (٦٩٤ متراً) في سفحه الغربي قرية معرين في الك ١٠ وفي سفحه الشرقي براق ، وتل قرطل المخروطي الشكل (٥٤١ مترا) ثم جبل ابو درداء (٦٨٢ مترا) فجبل تقسيس (٦٨٥ مترا) المشرفين على العاصي ، وفي سفح كل من هذه الجبال او الآكام قرى تدعى باسمها كما انه تختفي في منخفض العاصي قرى الجاجية وسريحين وجنان والجرنية وتقسيس وقدمر ذكرها في بحث طريق سلمية ، ومريج الدر وزور العاشق وغور العاصي وغيرها من المزارع والازوار. واهل هذه القرى التي عددناها سنية ما خلا كفربهم فاهلها روم ارثوذكس . واذا تقدم السائح شوطا آخر يرى في الافق الجنوبي جبل لبنان الغربي في اعلاه ظهر القضيب المكلل بالثلوج (اعلى قممه بل اعلى قمم جبال الشام طرا قرنة السوداء ٣٠٨٨ مترا) ويرى جبل لبنان الشرقي الاجرد تظهر فيه قمة شاهقة تدعى حليمة قارة (علوها ٢٤٥٥ مترا) وبين هاتين السلسلتين مضيق متسع ينتهي بسهول بعلبك والبقاع . ويرى السائح في شرقيه عن بعد قرية الزعفرانة وفي غربيه قري السويدة والبية ثم تومين وجرجيسة على العاصي الى ان يهبط منخفض هذا النهر عند جسر الرستن حيث ينتهي لواء حماة ويبدأ لواء حمص .

ومما يلاحظه السائر في هذه الطريق انه كان يرى فيها وغيرها من طرق الشام لبضع سنين خلت قوافل الجمال المثقلة بمحاصيل هذه الديار كالحبوب وغيرها ورتل العجلات المجرورة بزوج او زوجين من البغال الحاملة للبضائع الاوربية والشامية والمركبات الحافلة بالمسافرين تسير الهوينا فينتفع بها الجمالون والحوذيون ومن ورائهم النجارون والحدادون والسروجيون والقتابيون والحبالون ثم الزراعون وبائعو العلف وتجار الدواب وسماسرتها والبياطرة والسواس وارباب الخانات والفنادق وغيرهم ، دع الخيول والبراذين التي كان يمتطيها فرسانها للنزهة او الرحلة . واذا بكل هذه المنافع تتلاشى منذ سنة ١٣٤٠ حينما انتشرت سيارات

الركوب واعقبتها بعد خمس سنوات سيارات النقل وعمت البلوى بازديادها في الحاضرة والبادية الى ان توارت المركبات والعجلات واندثرت ولحقتها الجمال والخيل الا قليلا ، واوشكت الفروسية التي كانت احدى مفاخر الشاميين ان تزول واقفرت اصطبلات البيوتات القديمة المعتادة على اقتناء الصافنات الجياد ، واضحت هذه الاصطبلات والخانات مستودعات ومرائب للسيارات ، ونضب معين الارتزاق امام ارباب الحرف الاهلية التيعددناها ، وطفقت ثروة هـــذه البلاد الفقيرة التي ليس لدى معظم سكانها من بدو وحضر قيمة للوقت وحاجة للاسراع — تذوب في ابتياع السيارات وآلاتها ومطاطها وبنزينها وزيتها المعدني وما برح الخطب بازدياد .

الرستن • — قال ياقوت : الرستن بليدة قديمة بين حماة وحمص في نصف الطريق منها آثار باقية الى الآن تدل على جلالتها وهيخراب ليس بها ذومري وهي فيعلو تشرف على العاصي . وقال ابو الفداء : الرستن كانت عامرةفيقديم الزمان وهي اليوم خراب وبها بيوت كالقرية وآثار العمارة والجدران وبعض البيوت بها ظاهر وكذا بعض ابواب المدينة واسوارها وقنيها وهي في جنوبي نهر العاصي على جبل اكثره تراب سطحها في المنبسط الآخذ الى حمص وهي بين حمص وحماة ويقال انها خراب من زمن فتح الشام اه . قلت الرستنبليدة قديمة كانتتدعىفي عهدالسلوقيين والرومانيين Arétuzia يحكمهابعضامراء منالعرب منآل شميسغرام ملوك حمص . ومما يؤيد اقوال ياقوت وابوالفداء انني شاهدت في حيها القبلي على يمين الطريق القادم من حمص آثار شارع مستقيم عريض مبلط يشبه الشوارع المستقيمة التي كانت في دمشق وتدمر وافامية لا تزال قواعد اعمدته الضخمة ماثلة للعيان ، تمتد على مسافة نحو ثلاثمائة متر الى ان تختفي بين الدور الحالية . وبلاط هذا الشارع القديم مستور بالبلاط الحديث وشتان بين الاثنين في الضخامة والاتقان . وثمة في بعض هذه الدور انقاض حمام وفي

غيرها جدار ضخم ثخين كانه من جدران الحصون او البيع ، وكيفما التفت تجد كثيراً من كسور الاعمدة ومنها واحد من الحجر المحبب « الغرانيت » واسس الجدران والعتبات والاحجار المنحوتة المهشمة والاسطوانات الخزفية التي كانت تأتي بالماء من اماكن مجهولة وغيرها مما يدل على ما كان لهذه البليدة من العمران. ويظهر مما ذكره يا قوت وابو الفداء ان الرستن كانت في ايامهما اي في القرن السابع والثامن خراباً كغيرها من قرى حمص وحماة . على اننا لم نعثر على كيفية حدوث هذا الخراب وسبب دوامه من عهد فتوح الشام الى ايام ابي الفداء اذا صحت روايته . وهو مما يستغرب وقوعه ودوامه على بليدة غير صغيرة ذات مياه وارضين جيدة واقعة في منتصف العمران والطريق بين حمص وحماة . كما اننا لم نعثر على العهد الذي رجع اليها عمرانها الاخير ، اكان قبل مرور اوليا جلبي ام بعده . ومهما يكن فالرستن في يومنا قرية جسيمة عدد نفوسها لا يقل عن خمسة آلاف اتخذت قاعدة لناحية تتبع لواء حمص، وقد بلطت جميع ازقتهـــا واسس منذ عهد قريب في غربيها مخفراً للدرك . واراضي الرستن واسعة خصبة ذات تربة طينية رملية حمراء تنبت احسن الحبوب واجود البطيخ والزروع الصيفية ، ولا تزال دورها فوق الجبل الذي ذكره ابو الفداء تشرف من عل على العاصي وهي جميلة البناء في الجملة شيد اكثرها بالحجر الحري الاسود بعضها يعلو فوق بعض وترى نساء الرستن بفساتينهن الزرقاء وسراويلهن الحمراء ينزلن اطراف النهار كله في الشعاب الملتوية الى العيون التي في اسفل الوادي او الى العاصي يحملن صفائح الماء على رؤوسهن فيملأنها ويصعدن بها . وثمة في منخفض العاصي خان قديم بني من الحجر الحري وطوله فيما قيل ٩٨ متراً وعرضه ٤٦ متراً وكان من املاك الحكومة وتأوي اليه القوافل عند الحاجة . ولكن في سنة ١٣٤٩ لما ارادوا بناء مخفر لجنود الدرك واحتاجوا للاحجار شرعوا يخربون الخان ويستعملون احجاره ولما انتهوا من جداره ورواقه الشرقيين من بعض محبي الآثار واعترض فوقفوا دون الاجهاز على بقيته. وليس على باب هذا الخان المتجه للشمال كتابة

تاريخية وقيل انها رفعت خلال الحرب العامة ، وان باني هذا الخان هوسنان باشا الوزير العثماني الشهير (١) كما انه هو باني جسرالرستن الممتد امام الخان ·

وهذا الجسر عظيم يمتدمن الغرب الى الشرق سطحه مستو وطوله ١٤٠ متراً وعرضه خمسة امتار ونصف وعدد قناطره اثنتا عشرة ، وفي جانبه سكور تتدفق مياه العاصي من فوقها جعلت لحصر جانب من تلك المياه واسالتها الى الطاحونة القريبة من جنوبي الجسر وليس على جانبيه كتابة تاريخية وهو دون ريب عريق فيالقدم ، فمن الاحداث التي اصابته قديماً ان جان برد الغزالي نائب الشام عقيب الفتح العثماني لما عصى وخرج على الدولة سنه ٩٢٧ ﻫ ورد على عقبيه في حلب وهوجم في حماة رجع منهزما الى دمشق فخرب في طريقه هذا الجسر : ولعل الذي رممه وشاده على حالته الحاضرة سنان باشا سنة ٩٩٩ ثم احتاج على ما يظهر لترميم آخر في اوائل القرن الغابر فقام به عبد الله باشا العظم والي الشام كما زبر على عتبـــة بابجامع الرستن . وفي قرب الجسر ناعورة كبيرة تروي ارض زور يدعىزورالعاشق ، هذا ولايزالضريح ابايزيد البسطاميالذيذكره اوليا جلبي موجوداً في جامع الرستن ومقصوداً . وهذا الجامع صغير زبر على عتبة بابه ان عبد الله باشا العظم والي الشام رمم طريق الرستن والجسر وهذا الجامع في سنة ١٢١١ ﻫ . وابا يزيد هذا هو طيفور بن عيسى من كبار الاولياء الصوفيين فارسي الاصلولد في مدينة بسطام من اعمال خراسان سنة ١٦٠ وعمر مئة سنة واشتهر بكراماته وعلمه وشعره الفارسي . على ان صحة دفنه فيالرستن تحتاج للتحقيق ، لان له ايضا ضريح في جنوبي قرية شبعا من اعمال مرج دمشق وثالث في قرية الاي بكـلي من اعمال بيلان التي تقدم ذكرها في الصفحة ٦٩ ، وربما في اماكن اخرى ايضا . اما التكية التي ذكرها اوليا جلبي فقد دثرت شأن كل التكايا والربط التي اوقفها السلف الصالح . هذا ومن المعارك

---

(١) تقدمت ترجمته في الصفحة ١٥٣ في بحث قلعة المضيق

التي حدثت قديما في الرستن ما جرى بين الاخشيد محمد بن طغج صاحب دمشق وسيف الدولة بن حمدان صاحب حلب في سنة ٣٣٣ ، وكانت الدائرة علي ابن طغج وادى الامر لدخول سيف الدولة الى دمشق ظافرا ، على انه بعد سنتين عاد ابن طغج وكسر سيف الدولة في ثنية العقاب وارجع الى حلب . وقد انشأوا في ١٣٤٩ على العاصي في زور المعنكية عند منتهى الحد الغربي لاراضي الرستن معملا لتوليد الكهرباء وتنوير مدينتي حمص وحماة وجروا له قناة من العاصي طولها نحو ستة كيلومترات تبدأ عند جسر سكة الحديد في قرية غجر الامير ومدوا من المعمل اسلاكا واعمدة خشبية ضخمة تفترق عند الرستن فيتوجه قسم منها شمالا نحو حماة واخر جنوبا نحو حمص . وقد عثروا اخيراً في الرستن على قناة ماء قديمة يحاولون الان كريها وري اراضيهم بها .

الوعر — . في هذه الانحاء بين نهر العاصي وسفوح جبال النصيرية الواقفة كالجدار في الافق الغربي تمتـــد كورة بركانية واسعة مستطيلة الشكل كثيرة الصخور والحجارة الحرية السود تدعى « الوعر » تصل الى ما بعـــد الطريق الآخذة من حماة الى مصياف وربما الى جبل الصليب الذي يرى في جنوبي تل سلحب ، وتشمل القرى التي في شمالي تلك الطريق كالتويم وكفر عجم وتل سكين وكفر توم والتي في جنوبيها كام الطيور وربيعة ومتنين ، وهذه القرى تتبع في يومنا مركز اللواء في حمـــاة ، ثم يشمل الوعر في جنوبي تلك القرى قريتي تل كفراع والحويرة التابعتين لقضاء مصياف وما حولها وكل قرى ناحية الحميري التابعة الى لواء حماة منهـــا الحميري وبللين والموعا وقصير ودير حويت وبيصين والجافعة واكراد ابراهيم وكفر قعادة وموسى الحولة وجدرين ، وفي شرقي هذه الناحية على السكة الحديدية بيرين ودير الفرديس وحرب نفسا وفي غربيها طلف وعقرب وثمة بعرين التابعة لمصياف . وكل سكان هذه القرى نصيرية ما خلا عقرب وطلف وهما اكبر قرى الناحية مساحة وسكانا واهلهما تركمان ، واكراد

ابراهيم واهلها اكراد ، وحرب نفسا واكثر اهلها عرب سنية . ثم ينفذ الوعر جنوباً الى لواء حمص فيشمل القرى الغربية من ناحية الرستن وكل قرى ناحية تارين ، فمن قرى ناحية الرستن تل ذهب وكفرلاها وتل دو وهذه القرى الثلاث تقع في بقعة منخفضة مستوية تدعى الحولة ذكرها ياقوت وعدها من اعمال بارين ، اشتهرت هذه البقعة بزكاء تربتها وجودة بطيخها الاصفر وزروعها الصيفية ، وطيبة وتسنين وكفرنان وسكان هذه القرى عرب سنية ، وبرج قعيا وسكانها تركمان ، وجميع قرى ناحيـــة تارين نصيرية اشهر قراهم التنونة وتارين وخربة التين نور وخربة غازي وخربة الحمام وام العنز وام العظـــام والسمعليل وهرقل وبلقسة وبتيسة وكنيسة ، وثمة شركس في قرية تليل ، وتركمان في قرى قزحل وام القصب ومرج القطا والزيبق وخربة التين محمود وخرخر والدار الكبيرة ، وشيعة في الدالابوز والغور ، وروم ارثوذكس في ام شرشوح والدوير وهما على ضفة العاصي اليمنى يتخطاهما الوعر بحجارته السود . ويمتد الوعر جنوبا حتى يتخطى السكة الحديدية والطريق المعبدة الذاهبتين من حمص الى طرابلس وينتهي عند الشاطئ الشمالي والغربي لبحيرة قدس القريبة من حمص وربما بلغ طوله على هذا القيـــاس ٥٠ — ٥٥ وعرضه ١٥ — ٢٠ كيلومتراً . ويتصل الوعر في الغرب بجبل الحلو احد اعضاد جبال النصيرية الجنوبية وقد سمي هذا الجبل بالحلو لوفرة ما كان في قراه من التين والعنب على اختلاف اصنافها وقد بقي اثر ضئيل منها ومن بعض الاشجار المثمرة البرية كالزيتون والزعرور والكمثري واشجار الحراج المختلفة كالبلوط والسنديان واللبنة وغيرها مما لو عني بحفظه وتنميته لنفع كثيراً . وليس في الوعر كله أودية جارية وعيون سارية فسائله المنحدرة من هضاب جبال النصيرية نحو العاصي تجف في اوائل فصل الربيع او اواسطه ، ولذا كان محروماً من الارضين المسقوية وشرب اهله من الآبار.

ومن غريب ما يلحظ في هذا الوعر انه يختلف كل الاختلاف عن السهول الممتدة في شرقي العـــاصي من ناحية التركيب الجيولوجي والطبيعي في الارض

ووفرة الامطار وغزارة الندى في الهواء . فتربته بركانية طينية سوداء شديدة الاندماج رطبة يخصب فيهـــا الكلاء ويطيب المرعى في الربيع وتجود الزروع الاعذاء في بطاحها في الصيف ، لكنها لوفرة اعشابها واحجارها لا تصح فيها الحبوب الشتوية وتظل اقل طيبة ونقاء وقيمة منها في سهول شرقي العاصي . وعندي ان هذا مما يوجب الاعراض عن زراعة الحبوب المتبعة حتى الان ويدعو الى خص هذه الاوعار بالاشجار المثمرة والكروم التي تجد فيها احسن موطن لها . ولعل القدماء لحظوا هذه الحالة فاكثروا من الاثمار والاعناب بين الرجوم والسلاسل التي سيأتي ذكرها اكمالا لعملهم في جبل الحلو .

وضياع الوعر وقراه في زماننا شبه الخرائب لاسوداد احجارها الحرية وحقارة مبانيها المركومة وضيق اراضيها وصعوبة العمل والاستغلال فيها مما جعل معظم سكانها في فقر مدقع زاده خمول ملاكيها سراة حماة وخاصة سراة حمص وتقاعسهم عن تعهدها باتقان الحرث واكثار الغرس واكتفائهم باخذ النزر القليل مما يصيبهم من غلتها مرة في كل عام دع العناية ولو قليلا بارشاد فلاحيهم الى ما يصلح دينهم ودنياهم .

والمسافر في كورة الوعر لا بد ان تنقبض نفسه من جهومة مناظرها وكؤودة مسالكها واسوداد احجارها وتربتها ووفرة هذه الاحجار وصعوبة التنقل بينها ، وفيها رجوم عظيمة مجموعة وسلاسل مصفوفة بايدي سكانها القدماء وكانوا على ما يظهر ارباب جد وعمل ضاقت بهم السهول حينما اكتظت الشام بأهلها فاستطالوا الى هذه الاوعار يلمون احجارها ويمهدون سبيل استغلالها ويشيدون هذه القرى التي كانت احسن واعمر مما هي عليه الان يدل على ذلك ما عثر عليه بحاثة الافرنج - ومنهم دوسسو والاب رونزفال اليسوعي - في قراها من الاحجار الحرية الاثرية وجلها نواويس وشواهد قبور زبرت فيها كتابات يونانية ولاتينية باسماء اصحابها من ضباط وجنود اليونان والرومان الذين كانوا يقضون خدمتهم العسكرية هنا ، ويدل على ذلك ايضاً الرصيف الروماني

القديم الذي يمتد من المياس في حمص الى مصياف، ولا تزال اثار هذا الرصيف ظاهرة في خربة الجاموس وخربة السودا وام محناية وفي شرقي تليل وغربي كفر لاها وتل ذهب ثم تضيع آثاره في عقرب وبعرين ثم تعود للظهور في البياضية والسويدا ومصياف ، ومن هذه يتجه الى الشرق الشمالي ماراً بكنفو والعارمية والعالمية وتل سلحب ويجتاز جسر العشارنة الى قلعة المضيق فسهل الغاب وقد تقدم ذكره في بحث هذا السهل . وقد قضت عوادي الزمان على الابنية الاثرية التي كانت في الوعر ولم يبق منها الا بناء في قرية اكراد ابراهيم يدعوه اهلها بالقصر ولا يعرفون ما هو ، كان ذا طبقتين لم يبق منهما سوى غرفة معقودة بحجارة محكمة التركيب وكان له بابان احدهما غربي والثاني شمالي .

وقد اشتهرت في هذه الكورة « بعرين » وذكرت في الحروب الصليبية مراراً قال عنها ابو الفداء : بعرين بلدة صغيرة ذات قلعة قد دثرت ولها اعين وبساتين وهي على مرحلة من حماة « وصوابه ٣٨ كيلومتراً » وهي غربي حماة بميلة يسيرة الى الجنوب وبها اثار عمارة قديمة تسمى الرفنية لها ذكر شهير في كتب التاريخ . وجاء في الروضتين ان بعرين كانت من اضر بلاد الافرنج على المسلمين فاستولى عليها عماد الدين زنكي في سنة ٥٣١ ثم عاد اليها الافرنج الى ان هاجمها صاحب حماة الملك المظفر محمود في سنة ٦٣٦ فهدم قلعتها ودك معالمها . وذكر ياقوت من قرى الوعر بيرين وحرب نفسا والتنونية قال : بيرين من قرى حمص قال القاضي عبد الصمد بن سعيد الحمصي في تاريخ حمص كان النعمان بن بشير الانصاري زبيريا فحدث عن سليمان بن عبد الحميد البهراني قال لما صاح الناس في زمن مروان بن الحكم بالنعمان بن بشير خرج هاربا على وجهه من حمص فلحقه خالد بن خلي في شبيبة من الكلاعيين حتى اتى حرب نفسا فقال اي قرية هذه فقالوا حرب نفسا فقال حرب انفسنا ثم مضى حتى بيرين فقال اي قرية هذه فقالوا بيرين فقال فيها برنا فقتله خالد بن خلي فيها في سنة ٦٥ . وقال عن التنونية : من قرى حمص مات فيها عبد الله بن بشير المازني صحابي في

سنة ست وتسعين وقبره بها وكان منزله في دار قنافة بحمص اه. قلت وهي الان ضيعة صغيرة تبعد عن حمص للغرب نحو ثمانية كيلومترات . ومن القرى التاريخية ايضا مريمين قال الاثري دوسسو في كتابه الطبغرافية التاريخية ، نظنها – Mariamon القديمة التي يرجع عهدها الى قبل الفي سنة من الميلاد المذكورة في اسفار المصريين الباحثة عن قادش . وقد كانت مريمين في عهد الفينيقيين على تخم اهل ارواد وكانت من احكم المشارف على وادي العاصي بين حمص وحماة صارت في عهد النصرانية مقر مطران وفيها دفن القديس جلاس الذي مات شهيداً في سنة ٢٩٨ م في بعلبك ونقل جثمانه الى مريمين اه .

ومما يجدر ذكره في بحثنا هذا ان التركمان الذين تقدم ذكر قراهم جاءوا عقب الفتح العثماني من بر الاناضول الى وعر حماة وحمص خلال فترات متقطعة آخرها كان في مطلع القرن الثالث عشر ، ولا يعرف السبب في مجيئهم أكان لغاية سياسية قصدها العثمانيون لتكثير سواد ابناء جلدتهم بين العرب الشاميين ام لضيق ارضهم في بلادهم ورحبها في ديار الشام مهوى افئدة الشعوب الاسلامية يرون فيها حسن المآب في الاخرة ، ولما جاء هؤلاء ذهب فريق منهم الى لواء طرابلس ولهم في قضاء الحصن زارا وحكية وحصرجية وفي قضاء عكار قرى دوسة وكواشرة وعيد مون وفي ناحية حذور بساتين وبيت رسلان ومتراس وعين دايش ، وتركمان هذه القرى اشتهروا بصناعة السجاد . وذهب فريق ثالث الى قضاء القنيطرة في الجنوب الغربي من دمشق واستقروا في قرى عديدة منبثة بين الاوعار المنحدرة نحو نهر الشريعة كعين عائشة والرزانية وضابية واحمدية وحسينية وحفر وعين سمسم وكفر نفاخ وقادرية وعليقة وسنديانة ومغير ومنهم من استقر في قرية قلدون في جبل قلمون وقرية براق في شمالي لجا حوران وام الرمان في البلقاء بين جرش وعمان . وهؤلاء التركمان قد استعربوا في اللغة والازياء والعادات لا يتميزهم الغريب عن ابناء البلاد الاصلية الا اذا حدج في هيئاتهم واصغي الى احاديثهم فيما بينهم يجدهم محتفظين بقاماتهم وسحنتهم التورانية

ويتكلمون بتركية قديمة سقيمة يخالطها كثير من الالفاظ العربية . ولما كانوا في الاصل قبائل رحل لا يزال منهم بادية تقطن الخيام وتعيش برعي الانعام يدعونهم تركمان سوادية منازلهم في فيافي قضائي حمص والنبك والبقاع البعلبكي ومنهم اناس في مرج ابن عامر في فلسطين . وما برح الذين في قضاء القنيطرة يقضون الربيع والصيف في الخيام التي يضربونها حول قراهم ولا يعودون لبيوت الحجر الا في الشتاء . وتركمان الشام بعد ان كانوا لمضي قرن او اقل ذوي بأس وسطوة اضناهم الفقر واخنى عليهم الجهل لم نسمع لهم ركزا ولم نر بينهم ذوي دراية اومكانة سوى بضع عائلات سكنت منذ عهد بعيد حي التركمان في حمص واستعربت وامتزجت ومنها واحدة حازت ثروة ووجاهة طائلتين .

والاكراد يكثر وجودهم في شمالي بلاد الشام على مقربة من الحدود التركية الحالية كالذين في شمالي نهر عفرين في الجبل المسمى جبل الكرد والذين في حرة اللجة شمالي العمق وفي اقضية اعزاز والباب وجرابلس والاقضية التي في الشمال الشرقي من لواء الجزيرة الفراتية . وكل هؤلاء اكراد اقحاح لم تتصل اليهم العربية بشيء . اما في بلاد الشام المتوسطة فعدد الاكراد قليل وليس لهم بقعة يؤلفون فيها كتلة مجتمعة الا في جبل الاكراد بين جسر الشغر واللاذقية وفي حي الاكراد من ارباض دمشق وفي قرى الوعر التي ذكرناها ، في حين ان مجيء الاكراد الى بلاد الشام المتوسطة قديم . وربما كان اول من اتى بهم هو عامل حمص شبل الدولة نصر بن مرداس سنة ٤٢٤ واسكنهم في حصن الصفح ليحفظوه ويصونوا الطريق بين حمص وطرابلس فسمي الحصن منذ ذلك الحين حصن الأكراد وقد بقوا فيه نحو قرن ونيف الى ان جاء طانكرد برنس انطاكية واستخلصه منهم سنة ٥٣٠ فتشتتوا . ثم كثر توافد الاكراد في عهد الدولتين النورية والصلاحية لخوض غمار الحروب الصليبية ولعل كل من ادى واجبه من هؤلاء كان يعود ادراجه ، والذين بقوا منهم استعربوا وذابوا في البيئة الشامية ولم يحتفظ بصلته بماضيه الكردي الا الذين وفدوا في العصور الاخيرة . منهم

سكان جبل الاكراد بين جسر الشغر واللاذقية وهؤلاء على ما قيل قد استعربوا وذابوا مما يدل على انه قد مضى على قدومهم عدة قرون ، ومنهم بعض بيوتات متفرقة في اماكن مختلفة ذات مكانة غير يسيرة اكثرها عددا واكبرها ملكا وجاهاً آل مرعب في قضاء عكار جاؤا من انحاء حكاري منذ قرنين ونصف واندمجوا تماما ، ويليهم آل البرازي في مدينة حماة جاؤا منذ قرن ونصف من انحاء الرها واندمجوا الا قليلا ، ومنهم سكان حي الاكراد احد ارباض دمشق الذين يمتون الى اصول ومنابت مختلفة ، وهؤلاء على الرغم من اختلاطهم بالدمشقيين من عهد الدولة الصلاحية واقتباسهم اللغة والازياء العربية لا يزالون محتفظين بلغتهم واكثر اطباعهم الاصلية لاستمرار مجيء الرفاد من حكاري ووان وغيرهما من بلاد الاكراد الشمالية الى هذا الحي الذي يعدونه ملاذ كل خاطيء او خائف منهم ، ولدوام اتصال سكانه باهل تلك البلاد النائية بسبب تجارة الغنم التي يجلبونها من ثم ويميرون معظم بلاد الشام بلحومها ، وهم ابناء بجدة هذه التجارة المحتاجة لكثير من الجلد والمضاء حاز بعضهم من وراءها ثروة غير يسيرة وزادها آل اليوسف منهم ملكا وجاهاً عظيمين . وقلة اكتراث اهل هذا الحي بالدراسة والثقافة قبلا ساقت كثيراً منهم في عهد العثمانيين نحو الارتزاق من التجند في سلك الدرك او جباية الاموال الاميرية او التزام الاعشار او وكالة الضياع وغيرها مما يحتاج للقسوة والشدة ، ولما نضب معين النفع من هذه المواد بانقضاء ذلك العهد تغير حالهم في الجملة وانصرف بعضهم الى الصناعات اليدوية وخلافها.

اما الاكراد القاطنون في قرية اكراد ابراهيم التي مر ذكرها فاصلهم من الاكراد اليزيدية جلوا عن بلادهم في انحاء سروج منذ قرن او اقل، وكان رئيسهم يدعى ابراهيم وسميت القرية باسمه على ان هؤلاء بعد ان كانت لا تؤكل ذبيحتهم ولا يلعن الشيطان امامهم مالبثوا ان امتزجوا بالبيئة فاسلموا واستعربوا ولم يبق للغة الكردية الا الاثر القليل بين شيوخهم . وهم الآن قلما يختلفون بالازياء والعادات عن الفلاحين العرب ويفوقونهم باتقان تربية الماشية . وهناك

قبيل من الاكراد الرحل اهل الوبر يدعون اكراد عثمانو لا يمتون للابراهيمو بصلة ، منازلهم في ارجاء العشارنة وتل سلحب وماحولها من البقاع الممتدة غربي العاصي في شمالي لواء حماة . اما من كان في قريةا كراد الدياسنة فهم يدعون الانتساب الى عشيرة الملية وبعد ان بقوا في هذه القرية مدة مديدة جلوا في مطلع القرن الحالي الى قرية مخرم التحتاني من املاك الدولة في شرقي حمص وناب عنهم النصيرية ولم يبق على قرية الدياسنة من اثر الكردية الا الاسم فحسب . وسكان قرية مخرم التحتاني قد نسو لغتهم بالكلية واستعربوا في الازياء والعادات لكن لهم مزايا خاصة يختلفون بها عن مجاوريهم يسرفون في اقراء الضيف ويتجملون بما فوق الطاقة وينتصر بعضهم الى بعض حقا كان او باطلا ويتقاعسون عن اتقان الفلاحة والزراعة حتى وقعوا في الفاقة وسوء السمعة .

اما الشيعة القاطنون في قريتي الدالابوز والغور غربي العاصي وبعض قرى املاك الدولة في شرقي العاصي فاصلهم من الفوعة احدى القرى الامهات في قضاء ادلب وقد تقدم ذكرها في بحث القضاء المذكور في (الصفحة ١٣٣)

طريق الرستن — حمص (٢٣ كيلو مترا)

يسير السائح بعد الرستن في شرقي العاصي فيغادر على يمينه الطريق الآخذة الى معمل النور الكهربائي ويجتاز سهول الرستن التي وصفناها ويرى في الافق الغربي جبال النصيرية تميل للانخفاض كلما سارت نحو الجنوب الى ان تضمحل قبلي سكة حديد حمص — طرابلس وتبدأ بعدها جبال لبنان . وبين العاصي وجبال النصيرية تمتد كورة الوعر المضافة الى حمص وقد مر وصفها . اما الافق الشرقي ففيه منبسطات شاسعة تتخللها تلعات ورواب طبيعية وتلال اصطناعية اثرية تتوالى حتى سفوح جبال البلعاس والشومرية بينها قرى وضياع كثيرة من امهاتها الزعفرانة واهلها سنية والمشرفة واهلها نصارى والمخرم التحتاني واهلها اكراد وعين ظاط وتل عمري ودير فور واهلها شراكسة وام العمد وتل الاغر

واهلها شيعة ، وعين ظاط وتل عمري واقعتان على ضفة نهر من روافد العاصي تأتي مياهه من واد يدعى الميدان ثم يتجه شمالا بميلة الى الغرب وبعد ان يأخذ من يساره مياه دير فور يصب في العاصي قرب قرية ابو امامة وعسيلة اللتين اهلهما شركس . ولعل تل عمري كانت مبنية في موضع دير اسحاق الذي وصفه ياقوت بأنه بين حمص وسلمية على نهر جار في احسن موضع وانزهه وبقربه ضيعة صغيرة يقال لها جدر التي ذكرها الاخطل في قوله :

كأنني شارب يوم استبد بهم من قرقف ضمنتها حمص او جدر

ولاهل القصف والشعراء في هذا الدير اشعار كثيرة اه . وقد دثر دير اسحاق وضيعة جدر وتنوسي خبرها . هذا وبقية سكان هذه الرباع الشرقية نصيرية ؛ من قراهم التي تستحق الذكر عين حسين ونوى والمخرم الفوقاني والسنكري القبلية والشمالية وابو حقفة القبلية والشمالية والمسعودية وجب الجراح وكلها من الاملاك الخاصة بدولة الشام كالتي تقدم ذكرها في ابحاث الحمراء وجبل الاحص ومطخ قنسرين ، جلا النصيرية اليها من جبالهم الغربية في مطلع القرن الحالي حينما اهتم السلطان عبد الحميد العثماني بعمرانها بعد أن كانت يبابا تجوبهـــا غزاة البادية وجمالهم ، وهذه حسنة تذكر للسلطان المشار اليه ولو انه كان يتوخى فيها نفعه الخاص . والسائح قبل وصوله الى قرية تلبيسة يرى في يمينه على جانب الطريق آثار خربة تدعى خربة السبيل في وسطها حجر رحى كبير هو احد امثاله الكثر المنتشرة في رسوم وخرائب هذه الرباع ، ولعلها كانت لعصر الزيتون او طحن البرغل . اما تلبيسة فقرية كبيرة (بينها وبين حمص ١٢ كيلومتراً) بيوتها قبب بيضاء يخالها الغريب لا سيما الاوربيون القادمون الى الشام حديثاً معسكر جند . وفي غربي هذه القرية مستنقع يحتاج للتجفيف . وبعض بيوت تلبيسة بني في ظهر وسفح التل المعروف باسمها على ما قيل ، ينسب الى خربة قديمة تقع شرقي بيادر القرية تدعى بيصة صارت بالتحريف بيسة . وقد ظن الاثري دوسسو هذه القرية هي Abzu التي وردت في رقم تل العمارنة ، ذلك لان تلبيسة ظهر فيها كثير من

العاديات . وكان فوق تل هذه القرية بناء عسكري ذكره المرادي في سلك الدرر في ترجمة عبد الرزاق الجندي وسماه قلعة قال : « كان متولياً حكومة قلعة تلبيسة الكائنة بين حمص وحماة ، وهذه القلعة اصل بنائها في زمن الوزير سليمان باشا العظم وعينت الدولة فيها ينكجرية بعلايف وتعايين سلطانية لاجل حفظ الطرقات للحجوغيره اهـ . قلت ولعل بناء هذه القلعة لم يكن محكما كقلاع العصور الاسلامية المتوسطة اذ انه دثر ولم يبق منه في زماننا سوى اطلال السور وبعض الجدران تختفي تحت دور الاهلين التي بنيت فوقها . واذا جاز السائح قرية تلبيسة وسار في سهولها يلمح امامه جامع خالد بن الوليد ذا القباب والمآذن الجميلة البيضاء وتظهر حمص باحيائها القديمة والحديثة . ويرى على العاصي في غربي تلبيسة الى الشمال قرية ام شرشوح واهلها روم ارثوذكس والى الجنوب منها قرية الغنطو واهلها سنية ويناوحها في غربي العاصي قرى الداسنية وتسنين والكنية وحلاموز، ثم يمر السائح باراضي قرية دير معلة وهي على يمين الطريق ويناوحها في غربي العاصي قريتا هبوب الريح والدار الكبيرة ، ثم يمر باراضي قرية دير بعلبة وهي على يسار الطريق،وفي غربيها في شرقي العاصي الدوير واهلها روم وهي متنزه نصارى حمص ويناوحها في غربي العاصي خرخر وما وراءها من قرى الوعر الى ان يدخل حمص . وطالما كانت هذه الارضين او السهول الممتدة بعد تلبيسة في العصور الغابرة ساحة لمعارك طاحنة بين الجيوش الزاحفة من الشمال للاستيلاء على حمص وما يليها والجيوش الخارجة للدفاع عنها بما سوف نذكره في تاريخ هذه البلدة .

تاريخ حمص — . حمص من امهات مدن الداخل في الشام ، تعلو عن سطح البحر ٤٩٥ متراً ، ولها مركز جغرافي هام لقربها من نهر العاصي ولوقوعها في منبسط مترامي الاطراف ، وفي مركز دائرة كثيرة الحركة حافلة بسكان الحضر والمدر ، تمر بها المسالك التجارية الذاهبة من دمشق الى حلب ومن البادية الى

البحر المتوسط ، وهي تتصل بهذا البحر بواد عريض سهل الاجتياز تمر فيه السكة الحديدية والطريق المعبدة الآخذتان الى طرابلس وطول الاولى ١٠٢ وطول الثانية ٩٨ كيلومتراً . وتربط السكك الحديدية حمص بدمشق عن طريق رياق وبينهما ٢٠٨ كيلومترات ، وبحلب وبينهما ٢٠١ وبحماة وبينهما ٥٨ ، وتربطها الطرق المعبدة بحماة وبينهما ٤٧ وبدمشق وبينهما ١٦٠ وبتدمر طريق غير معبدة تمر بالفرقلس طولها ١٦٥ كيلو متراً .

فيظهر من ذلك ان القطارات والسيارات الذاهبة والآيبة الى تلك المدن جعلت حمص ذات مكانة تجارية هامة ، وقد نمت هذه المكانة منذ اتخذتها شركة النفط العراقية في سنة ١٣٥٠ مركزاً لمنشئاتها العامة ويؤمل ان يتضاعف هذا النمو في المستقبل ويزداد عمران حمص .

لاجرم ان القدماء عرفوا قدر هذا الموقع الجغرافي فانشأوا فيه مدينة حمص ودعوها باديء بدء حامات صوبا او حيصوبا ثم دعاها اليونانيون امسا Emessa وقيل ان هذه الكلمة آرامية بمعنى الارض المنبسطة لوقوع حمص في مستو من الارض.

وقال ياقوت ان حمص بلد « بناه رجل يقال له حمص بن المهر وقيل حمص ابن مكنف العمليقي » . وعرف عمليق في مادة حلب بأنه « عمليق بن لوذ بن سام » وفي هذا القول على علاته اشارة الى ان اول من سكن حمص هم العمالقة او الروتانيون او اللوذيون اعقاب لوذ بن سام الذين دلت آثار هيكل الكرنك في مصر على انه كانت لهم دولة وحضارة ، اختطوا مدناً عظيمة كحماة وحمص ودمشق وغيرها ، وكان لهم معقلان حصينان كركميش (جرابلس على الفرات) وقادس (تل النبي مند جنوبي حمص) . وقد ظل الروتانيون سائدين الى ان جاء تحوتمس الثالث احد فراعنة مصر فانتصر على الكنعانيين والروتانيين المتحالفين وفتح مجدو « اللجون في مرج ابن عامر » وقادش وكثيراً من المدن في جنوبي الشام وشماليه . وظل يشن الغارة عليهم كلما وثبوا حتى اذلهم . ولما ظهر الحثيون شرعوا يناوشون الروتانيين ايضاً الى ان ازالوا دولتهم واستولوا على معاقلهم

ومدنهم . ولما تم اندحارهم عم اسم آرام بن سام جميع فلولهم وتنوسي اسمهم الاصلي لاسيما بعد انقراض ملك الحثيين في القرن الثامن قبل الميلاد لاقتصاص الآراميين منهم واستئثارهم لابناء عمهم لوذ .

ولما امتد سلطان الحثيين في شمالي الشام وتطاولوا للاستيلاء على مصر استفزوا غضب الفراعنة في القرن الرابع عشر قبل المسيح فجاؤهم بجيوش جرارة وكسروهم مراراً ، وذلك في عهد سيتي الاول ولا سيما رعمسيس الثاني المعروف باسم سيزوستريس الذي خضد شوكتهم في واقعة قادس واستولى على بلادهم ثم سالمهم وصاهر ملكهم . وقد وجد الاثريون المنقبون في تل النبي مند آثاراً مصرية عديدة ووجدوا قبلا في حمص وضواحيها اواني خزفية وحلياً واسلحة ودمى وتماثيل من الصناعة المصرية ما يدل على تملك السلالات ١٨ و ١٩ و ٢٠ على جنوبي مملكة الحثيين . كما انه وجد من آثار الصناعة الحثية ما يدل على عبادة الكواكب والبعل وعشتروت وآلهة مصر ، وهذه العبادة اقتبسها الحثيون من مجاوريهم الفينيقيين والمصريين وغيرهم .

ولما انقرض الحثيون خلفهم الاراميون فجعلوا حمص عاصمتهم وكان لهم دولة وصولة ردوا غارات العبرانيين في عهد داود وسليمان واستولوا على دمشق فصارت حمص ودمشق مملكة واحدة حكمها ثمانية ملوك منهم ، وما زالوا حتى جاء الاشوريون يغيرون على الشام فقتلوا آخر ملك ارامي واستولوا على حمص وضواحيها ثم جاء بعدهم الكلدانيون ثم الفرس . ولما انتصر اسكندر المكدوني على الفرس في معركة ايسوس استولى على حمص فيما استولى عليه من بلاد الشام واورثها لخلفائه السلوقيين الذين سادوا في شمالي الشام . ولما ضعفت دولة هؤلاء قامت في حمص تحت اشرافهم امارة عربية سادها ثمانية امراء من سنة ٨١ قبل الميلاد الى سنة ٩٦ بعده . وكان اولهم شميسغرام بنى هيكلا للشمس معبودة الحمصيين فاشتهرت حمص به وخامسهم شميسغرام الثاني الذي عاش مئة سنة وبنى الصومعة التي هدمت قبل الحرب العامة . ويظهر من كلمة شميسغرام او

سميسغراموس انها مؤلفة من سمس او شمس، ولا يخفى ان بعلبك القريبة من حمص كانت مركزا لعبادة الشمس كما يدل على ذلك اسمها اليوناني هليوبوليس ، فلا يبعد ان تكون عبادة الشمس انتقلت منها الى حمص وغيرها من البلاد المجاورة.

وقد ازدهرت حمص والرستن في عهد هذه الامارة العربية ونالتا من المجد والعمران حظا موفورا بقيت اثاره على الاكثر في الرستن كما قدمناه في وصفها. على ان اثار اليونان في حمص عديدة اخصها الكتابات التي وجدت على الابنية والاضرحة واسماء الاعلام وكلها يدل على ان اللغة اليونانية زاحمت اللغة الآرامية وانتشرت في عهد الدولة السلوقية وامارة آل شميسغرام منها الكتابة التي قيل انها وجدت على الصومعة المذكورة ، وكتابات اخرى وجدت في احد اسراب حمص تحتوي على اسماء بعض الاعيان من آل شميسغرام كصهيم وثملات مايدل على ان ذلك السرب كان مدفنا لهذه الاسرة الملوكية .

ولما انقرضت هذه الامارة باستيلاء الرومانيين ظلت حمص محتفظة بمكانتها لا سيما وقد كان فيها هيكل الشمس والحجر الاسود المقدسين . وكان هذا الهيكل محجة الزائرين وملاذ اللاجئين من كل الاقطار ،وكانت سدانته بيد كاهن وثني كبير من اعقاب آل شميسغرام اسمه باسيانوس ثم انتقلت هذه السدانة من بعده الى ذريته . وشيد الرومان في حمص وضواحيها ابنية فخمة وانشئوا الارصفة التي لا تزال آثار بعضها بادية للعيان كما قدمناذكره ، وعززوا الزراعة والتجارة . وفي التلمود ان احد قياصرتهم ديوكلسيان حفر بحيرة قطينة او بحيرة قادس وبنى السد العظيم امامها لخزن مياه العاصي ، والمرجح ان البحيرة والسد اقدم عهداً منه ولعلهما من عمل الروتانيين او الحثيين . وقد نسب ياقوت بناء السد الى الاسكندر المكدوني .

وانجبت حمص في تلك الحقبة رجالا ونساء تسنموا ذرى المجد منهم جوليا دومنا من اسرة الكاهن باسيانوس،وقد كانت جميلة فطينة تزوجها القائد الروماني سبتيموس سفيروس الذي صار قيصرا (١٩٣ — ٢١١ م) وكانت اكبر

عون له في اجل اعماله . وبعد موت سبتيموس خلفه ابنه كرا كلا (٢١١ — ٢١٥ م) وكان مولده في حمص رسم على نقوده صورة هيكل الشمس المذكور وانعم على مسقط رأسه حمص بامتيازات المدن الرومانية . وكان لجوليا دومنا اخت تدعى جوليا ميزا نشئت مثلها في حمص لها ابنتان سهيمة وميا ولكل منهما ولد صار قيصرا ، فابن سهيمة افيتوس باسيانوس اشتهر بلقب اليوكابال وابن ميا اسكندرساويروس . وكانت اسرتهما الحمصية خصصتا هذين الولدين لاجلال الشمس معبودة الحمصيين وتولى احدهما اليوكابال سدانة الهيكل وهو في حداثته . ولما قتل كركلا غيلة بيد قائد الجند مكرينوس الطامع بالعرش ثأر اليوكابال منه وصار قيصرا (٢١٨ — ٢٢٢) ونقل الحجر الاسود من حمص وشاد له في رومية هيكلا فخما، لكنه اتى بعد من القبائح ما اثار الجند عليه فقتلوه ، واقاموا مكانه ابن خالته اسكندر ساويروس (٢٢٢ — ٢٣٦) ، وقد عده المؤرخون افضل قياصرة الرومان لصلاحه وحسن ادارته ، وبعد موته كانت نشأت دولة اذينة التدمري وفتحت حمص وامتد سلطانها على الشام ومصر وما حولها ، وتطاولت زنوبيا « زينب » لمنازعة الرومان في املاكهم فاضطر القيصر اورلئانوس لمحاربتها فكسر جيشها مرتين اولاهما في سهل العمق قرب بلدة عم « قرية بني شهر » والثانية في السهل الممتد بين تلبيسة وحمص سنة ٢٧٢ م وقضى عليها . ولم تدخل النصرانية الى حمص وتتغلب على الوثنية التي كانت عريقة في اهلها الا في القرن الثالث الميلادي وما بعده على يد القديس سيلوانوس الذي عد اول اساقفتها ، وقد نبغ بين اهلها كثير من القديسين والمطارنة صار احدهم بابا في رومية واستشهد بعضهم في سبيل الدعوة . ولما انتشرت النصرانية في عهد قسطنطين الكبير في القرن الرابع (٣٢٣ — ٣٣٦) بنى فيها كنيسة كبيرة كانت تعد من اعظم كنائس الشام .

ولما جاء المسلمون وكسروا الروم في وقعة اليرموك كان الامبراطور هرقل في حمص فغادرها وجعلها بينه وبين المسلمين . اما فتحها فاليك ما قاله ياقوت في

معجمه . بينا المسلمون على ابواب دمشق اذ اقبلت خيل للعدو كثيفة فخرج اليهم جماعة من المسلمين فلقوهم بين بيت لهيا والثنية فولوا منهزمين نحو حمص على طريق قارا حتى وافوا حمص وكانوا متخوفين لهرب هرقل عنهم فاعطوا ما بايديهم وطلبوا الامان فامنهم المسلمون فاخرجوا لهم النزل فاقاموا على الأرنط وهو النهر المسمى بالعاصي وكان على المسلمين السمط بن الاسود الكندي فلما فرغ ابو عبيدة من أمر دمشق استخلف عليها يزيد بن ابي سفيان ثم قدم حمص على طريق بعلبك فنزل بباب الرستن فصالحه اهل حمص على ان امنهم على انفسهم واموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وارحائهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد واشترط الخراج على من اقام منهم ، وقيل بل السمط صالحهم فلما قدم ابو عبيدة امضى الصلح وان السمط قسم حمص خططا بين المسلمين وسكنوها في كل موضع جلا اهله اوساحة متروكة اه . ولما قسم المسلمون الشام الى مناطق عسكرية دعوها اجنادا جعلوا حمص مقرا لاحدها لعظم شأنها . وقد بلغ خراج جند حمص بما فيه قنسرين والعواصم الى بيت المال ٨٠٠٠٠٠ دينار وفي عهد الرشيد بلغ خراجها وحدها ٣٢٠٠٠٠ دينار والف حمل من الزبيب .

واما باقي احداثها بعد الفتح فلا تختلف عن التي ذكرناها في حماة الا ببعض زيادات لعلو شأن حمص وتقدمها على حماة . فمن ذلك موقف اهل حمص تجاه الامام علي، فقد ذكر ياقوت انهم كانوا اشد الناس عليه في وقعة صفين واكثرهم تحريضا ، ومنها تردد يزيد بن معاوية على حمص ، حينما كان يكثر الاقامة في حوارين احدى قرى سنير الشرقي ، ومنها استقرار ابنه خالد وبنائه فيها قصرا قيل انه كان في غربي الطريق (؟) وقد كان خالد هذا فاضلا شغوفا بالفلسفة والكيمياء ، واكد ياقوت انه هو المدفون في جامع سيدنا خالد وليس خالد بن الوليد الذي مات في المدينة . ومن احداث حمص وثوب اهلها على عاملهم النعمان بن بشير الانصاري لانه كان من حزب عبد الله بن الزبير لحقوه بعد نصرة مروان بن الحكم وقتلوه في بيرين قرب حماة كما قدمنا ، ومنها قيامهم على يزيد الثالث بن الوليد حين بويع

بعد قتل الوليد الثاني بن يزيد وقتلهم عامله في حمص ومسيرهم الى دمشق لحربه ورجوعهم منهزمين في ثنية العقاب سنة ١٢٦ ، ومنها قيامهم على ابراهيم بن وليد الاول حين بويع بعد موت يزيد الثالث في تلك السنة ايضا ، ومنها انحيازهم الى جانب مروان بن محمد وسيرهم تحت لوائه وفتحهم دمشق سنة ١٢٧ ، ثم انتقاضهم عليه لما انكر ولائهم فحاصرهم حتى طلبوا الامان فأمنهم وهدم من سور حمص نحوا من غلوة ، وكان هذا النفور سببا لخذلانه في محاولته ردالعباسيين الذين قاموا لنيل الخلافة وقد اظهرالحمصيون لمروان آثار ضغينتهم حينما مر بهم سنة ١٣٢ فاراً من وجه عبد الله بن علي العباسي فثأر مروان منهم .

ويظهر ان الخلفاء العباسيين الذين ابتعدوا واتخذوا بغداد عاصمتهم لم يعنوا بشأن الشام ولم يرسلوا اليها عمالا ذوي كفاءة وحسن ادارة فكان ذلك مدرجة لحدوث الفتن والحروب الاهلية خاصة في حمص وجندها . وهذه الفتن كانت تارة من القيام لاعادة الملك الى الامويين وتارة من تأجج نار العصبيات بين القيسيين واليمانيين — واهل حمص يمانيون نزاعون الى الثورة — وتارة من الوثوب بأولئك العمال ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين كما جرى في عهد الرشيد سنة ١٩٠ والامين سنة ١٩٤ والمتوكل سنة ٢٤٠ و ٢٤١ وفي عهد المستعين مرة في سنة ٢٤٨ وثلاث مرات في سنة ٢٥٠ وفي كل فتنة او وثبة كان ينال حمص واهلها من الحرق والخراب والتنكيل شيء غير يسير .

ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين ظهرت ملوك الطوائف في الاقطار البعيدة عنهم ، وكان اولهم احمد بن طولون دامت دولته واعقابه في مصر والشام من سنة ٢٦٤ الى سنة ٢٩٢ ، وفي عهدهم جاء القرامطة وعاثوا في الشام ولما وصل زعيمهم ابو شامة سنة ٢٩٠ من دمشق الى حمص اطاعه اهلها وفتحوا له بابها خوفاً منه وخطبوا له على منابرها وبذلك نجت حمص من شر القرامطة على خلاف ما جرى بحماة وسلمية والمعرة وغيرها . وبعدان عاد عمال العباسيين وادارو االشام مدة ظهرت الدولة الاخشيدية في مصر والشام (٣٢٣—٣٥٧) وكان

اولهم محمد بن طغج اراد خلع طاعة العباسيين فارسلوا اليه قائدهم محمد بن رائق فجاء سنة ٣٢٨ واستولى على حمص ودمشق وغيرها ، وجرت بينه وبين الاخشيد حروب انتهت باستقرار البلاد للاخشيد واعقابه . وفي عهدهم قام لؤلؤ عاملهم في حمص على ابي الطيب المتنبي لما ادعى النبوة في البادية فقاتله واسره مع اشياعه من بني كلب وكلاب وغيرهم من قبائل الاعراب وسجنه مدة مديدة حتى تاب .

ولما ظهرت دولة بني حمدان في حلب جرى حرب بين اولهم سيف الدولة وجيش الاخشيديين في الرستن سنة ٣٣٣ انكسر فيه الاخشيديون على ماقدمنا في بحث الرستن ، وبقيت دمشق وما يليها بيدهم ، واستقرت حمص مع حلب واعمالها لسيف الدولة واعقابه من بعده ٣٣٣ — ٤٠٦ . وكان من الامراء الحمدانيين في حمص في عهد سيف الدولة ابو وائل تغلب بن داود بن حمدان ، اسرته القبائل العربية الثائرة على سيف الدولة فاوقع بهم سيف الدولة في سلمية كما قدمنا في بحثها ، واوقع بهم ايضا في الفرقلس والغنثر وجباة وتدمر وردم الآبار التي كانت تستقي منها تلك القبائل واستخلص ابا وائل ، وكان منهم ايضاً الشاعر الشهير ابو فراس بن سعيد بن حمدان الذي جاء الى حمص بعد موت سيف الدولة واراد الاستئثار بها فنازعه ابن اخته سعد الدولة بن سيف الدولة وبعث اليه بجيش وضيق عليه ولحقه حتى قتله في قرية صدد سنة ٣٥٨ . وكان الروم البيزنطيون يرون الخلل والضعف السائدين في تلك الحقبة في مصر والشام وينتهزون فرصة تطاحن المسلمين بعضهم مع بعض فيغيرون من حين الى آخر على شمالي الشام . وصل ملك الروم نقفور الفقاش الذي تقدم ذكره مرارا سنة ٣٥٨ الى حمص وقد اخلاها اهلها فاحرقها ورجع الى بلدان الساحل فاتى عليها نهباً وتخريبا وعاد ومعه من السبي مائة الف صبي وصبية كما قدمناه في بحث قلعة بغراس . ذكر ابن حوقل هذه الواقعة في كتابه (المسالك والممالك) قال في بحث حمص : ودخلها الروم في وقتنا هذا واتوا على سوادها واخربوها ثم ان قوما ممن سلم من الروم استوطنوا فيها

فاتت البادية عليهم تأكل زروعهم وتسلبهم مرة بعد اخرى اه . (فتأمل باعمال اهل البادية التي هي هي في كل عصر ومصر) .

وجاء الفاطميون في تلك الحقبة ينتهزون هذه الفرصة ايضا وينازعون العباسيين الخلافة فاستولوا على مصر والشام في سني ٣٥٨ ـ ٣٦٠ ، لكن الشام لم تصف لهم كما ينبغي وظلت الحروب ناشبة بين جيوشهم والمتوثبين من العمال والاهلين في بلاد الشام . على ان الحمدانيين خطبوا للفاطميين ابناء مذهبهم الشيعي فظلت السلطة في شمالي الشام ومنها حمص بيدهم . وكان منهم بعد سيف الدولة ابنه سعد الدولة ولى احد قواده بكجور سنة ٣٦٥ على حمص فعمرها هذا بامر مولاه بعد الخراب الذي فعله الروم فيها نكاية بسعد الدولة الذي لم يعترف بالمعاهدة التي عقدوها مع مولى ابيه قرعويه في سنة ٣٥٩ وقد قدمنا ذكر ذلك في بحث شيزر والمعرة . وكان في حمص من آثار بكجور مأذنة دثرت هي وجامعها من عهد قريب كانت عليها كتابة كوفية تعد من النفائس ، الا ان بكجور خان بعد حين مولاه وحاربه فانكسر وقتل . وعاد الروم سنة ٣٨١ بقيادة باسيل الى حمص فنهبوا وسلبوا واحرقوا الجامع ومواضع في البلد وتحصن قوم بالمغائر فأوقدوا عليهم فاهلكهم الدخان . وعادوا اليها ثالثة سنة ٣٨٨ بقيادة دوقس انطاكية فنازلوها ولجأ بعض اهلها الى كنيسة مار قسطنطين تحرما بها فاحرقوها بمن فيها وكانت كما قال المسعودي احدى عجائب العالم وحملوا نحاسها ورصاصها . فهذا الخرب والحرق اللذين كررها الروم ثلاث مرات مترادفات اجهزا على عمران حمص القديم بالكلية وحرماها المعابد العظيمة والقصور الفخمة والآثار القيمة التي كانت تزدان بها في عهد الرومانيين والامويين ولم يسعدها الحظ في العصور التالية بمن يعمر خرابها ويزيل شقائها كما ينبغي .

وبعد ان زالت دولة بني حمدان سنة ٤٠٦ وزاد ضعف الفاطميين تقاسمت امراء القبائل العربية البلاد الشامية وكانت حمص من حصة صالح بن مرداس امير بني كلاب صاحب حلب واعمالها ثم اعقابه من بعده ، وكان منهم في حمص

شبل الدولة نصر بن مرداس ، أسكن سنة ٤٢٤ في حصن الصفح قوما من الاكراد ليحرسوا الطريق بين طرابلس وحمص فنسب الحصن من ذلك الحين اليهم كما قدمنا . ثم كان منهم في حمص وسلمية سنة ٤٧٥ وما بعدها سيف الدولة خلف بن ملاعب الذي مر ذكره في بحث سلمية وكان عسوفا شريراً .

ولما جاء السلجوقيون وفتحوا حلب سنة ٤٦٣ ودمشق سنة ٤٦٨ خطبوا للعباسيين وازالوا حكم الفاطميين عن داخل الشام خلا ساحله ، ولما بلغت اخبار خلف بن ملاعب ومساويه وانحيازه للفاطميين مسامع السلطان ملكشاه السلجوقي امر ابن اخيه تاج الدولة تتش ملك الشام ان يستخلص حمص منه فحاصره تاج الدولة سنة ٤٨٣ واسره وقيل استلم حمص منه بالامان فتوجه خلف الى حصن افامية وملكه الى ان استخلصوه منه ايضا كما قدمنا ، وظلت حمص تابعة لتاج الدولة تتش الى ان قتل سنة ٤٨٧ ، فخلفه ابنه الاول تاج الملوك رضوان في حلب وابنه الثاني شمس الملوك دقاق في دمشق . وفي سنة ٤٩٠ عهد تاج الملوك بعمالة حمص لاتابكه جناح الدولة حسين فجاء وحصنها واحكم قلعتها . وفي زمنه جاء الصليبيون بعد ان استولوا على انطاكية والمعرة فصالحهم جناح الدولة على غرامة اداها ودفع شرهم ، ولكنه بعد رسوخهم في الساحل ظل يناوئهم ، وبينما كان على اهبة السفر الى حصن الاكراد ادفع الصليبيين الذين اقدموا على حصره اغتاله سنة ٤٩٦ ثلاثة من الاسماعيلية في الجامع وهو داخل لاداء صلاة الجمعة فاراد الصليبيون انتهاز هذه الفرصة للاستيلاء على حمص ووصلوا الى الرستن فاستنجد اهل حمص بملك دمشق شمس الدين دقاق واتابكه طغتكين فجاآ ولما عرف الافرنج بهما احجموا ورحلوا . وفي ٥٠٦ تولى حمص قراجة احد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي ولما مات خلفه ابنه خير خان ، وفي سنة ٥١٧ هاجم طغتكين صاحب دمشق حمص (١) واحرق ربضها ، ولكنه لم يستطع استخلاصها من

---

(١) من الغريب أن لايعرف الان احد في دمشق قبر هذا الرجل الذي يعد من عظماء ملوك المسلمين في الصلاح والعدل والعمران والجهاد .

خير خان ، وفي سنة ٥٣٠ سلم ابناء خير خان حمص الى صاحب دمشق شهاب الدين محمود بن طغتكين لاستمرار عماد الدين زنكي صاحب حلب في مضايقتها ولعجزهم عن دفعه وذلك لقـــاء اقطاعه لهم تدمر والرحبة . لكن نواب عماد الدين زنكي في حماة لم ينفكوا عن الغارة على حمص ورعي زروعها الى ان اسفرت المراسلات عن تسليم حمص لعماد الدين فاورثها هذا لابنه نور الدين محمود . وفي عهد نور الدين خربت حمص بالزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٥٢ فرممها نور الدين كغيرها .

واقطع نور الدين حمص والرحبة وتدمر الى اسد الدين شيركوه ابن عم صلاح الدين الايوبي ، ثم ارسل نور الدين شيركوه مع صلاح الدين الى مصر لدفع الافرنج عنها فوفق الى ذلك ثم توفي فيها سنة ٥٦٤ ، ولما مات اخذ نور الدين حمص من ولده ناصر الدين محمد واقطعها الى غيره، ولما ملك صلاح الدين بلاد الشام اخذ حمص من عمال الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين سنة ٥٧٠ وذلك بعد حصار وقتال ، لكنه لم يفتح قلعتها الا عقيب رجوعه من حلب وكان الافرنج قد نازلوا حمص في غيابه فلما اتى رحلوا عنها فحصر القلعة الى ان ملكها في تلك السنة . وفي سنة ٥٧٤ اقطع صلاح الدين حمص ومضافاتها الى ناصر الدين محمد المذكور كما اقطع حماة الى ابن اخيه تقي الدين عمر ، فبقي محمد في حمص حتى سنة ٥٨١ قيل ان صلاح الدين دس عليه من سقاه سما لدسيسة بلغته عنه ونقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت ايوب الى تربتها بمدرستها في دمشق . وملك حمص بعده ولده اسد الدين شيركوه الثاني وعمره اثنتا عشرة سنة وكانت له ايضا الرحبة وتدمر وما كسين (؟) من بلد الخابور . وقد ظل شيركوه هذا ملكا ستاً وخمسين سنة وكان يلقب بالملك المجاهد ، حصره الصليبيون سنة ٦٠٤ فلم يكن له بهم قوة فاستنجد بالملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب فانجده ، وقد قدمنا في بحث سلمية انه كان عسوفا برعيته عدواً لدوداً لابناء عمه التقويين اصحاب حماة ينازعهم الملكية على سلمية ، عمر سنة ٦٢٧ قلعة شميميس

وقطع ماء القناة التي كانت تجري من سلمية الى حماة فيبست بساتينها ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس فبطلت نواعير حماة والطواحين لكن العاصي عاد فهدم السدود ورجع الى مجراه . وقد آذى شيركوه التقويين ومدينة حماة كثيرا واضعف شأنهم وشأنها الى ان مات سنة ٦٣٧ في حمص ودفن في تربته داخل البلد (١) ، فخلفه ابنه المنصور ابراهيم وقد اشترك هذا في المعارك التي نشبت بين جيوش الملك الصالح اسماعيل والخوارزمية فانتصر في بعضها وفشل في البعض الى ان مات سنة ٦٤٤ في دمشق بالسل فنقل الى حمص ودفن قبلي البلد في مسجد الخضر ، وخلفه ابنه الاشرف موسى فسلم سنة ٦٤٥ قلعة شميميس الى الملك الصالح ايوب ملك مصر والشام . وفي سنة ٦٤٦ ارسل الملك الناصر صاحب حلب وحاصر حمص واخذها من الاشرف موسى وعوضه عنها تل باشر مضافا لما بيده من الرحبة وتدمر . ولما جاء هولاكو طاغية التتر وقاتل الناصر واستولى على حلب سنة ٦٥٧ التجأ اليه الاشرف موسى فاكرمه واعاد اليه حمص . وكان هولاكو امره ان يخرب قلعة حمص فلم يخرب منها

---

(١) هذه التربة في حي آل السباعي في حمص تحت قبة يظهر انها كان حولها فيما مضى بناء فخم دثر ، واضحت التربة في عهد ناضمن دار حقيرة يقطنها اناس فقراء لا يعرفها الا بعض النساء اللواتي يزرنها للاستشفاع بصاحب التربة لا يدرين من هو الا انه من الاولياء . ولما زرتهـــا في ربيع سنة ١٣٥١ وجدت القبر منبوشاً نبشاً فظيعاً من عهد وجيز بيد اناس مجهولين يظهر انهم من لصوص العاديات . وقد اسفت وتألمت لهذه المهانة وانتهاك الحرمة اللتين انزلتا بالملك المجاهد وقد كان على علاته عظيما مهابا خدم هو واعقابه حمص واستحق حفظ الكرامة وعدم الازعاج في مرقده على الاقل . وقد اخبرت اذ ذاك اولياء الامور في حمص وبعض متعلميها ونشدتهم العناية بما جرى اتقاء لما قد يجري في مراقد اسلافنا وآثارهم فكأنني كنت انفخ في رماد .

الا قليلا لانها بلده . ولما اوقع الملك مظفر قطز صاحب مصر بالتتر في عين جالوت « غور بيسان » سنة ٦٥٨ كان الاشرف موسى معهم ففارقهم وطلب الامان من المظفر قطز فأمنه واقره على حمص ومضافاتها . وفي سنة ٦٥٩ عاد التتر الى الشام ووصلوا الى حمص فلاقتهم جموع المسلمين في ظاهر حمص في السهل الممتد بينها وبين تابيسة وكانوا بقيادة الاشرف موسى صاحب حمص والمنصور صاحب حماة فانكسر التتر . وفي سنه ٦٦٢ مات الاشرف موسى دون عقب ودفن عند جده فانقرض بموته ملك آل شيركوه والبيت الأسدي .

وتدل عبارة التواريخ على ان هؤلاء آل شيركوه الاسديين الايوبيين الذين تملكوا حمص زهاء مئة سنة ـــ خلا بعض فترات كانت تنزع فيها من ايديهم ـــ كانوا خمسة ملوك ذوي «سطوة تخاف وبأس يخشى» كما جاء في التعريف ، وقد خدموا حمص وعمروا قلعتها واسوارها ودافعوا عنها ، لكن لم تحمد سيرتهم ولم تظهر منهم افعال مشكورة نحو خدمة العمران والعلم ومناوئة الصليبيين والتتر بقدر ما فعله ابناء اعمامهم التقويين الايوبيين في حماة . ولعله كان لهم في قصر مدتهم وفقدان الاسباب التي قد تكون تيسرت للتقويـــين وتعسرت عليهم ما يبرر هذا التقصير .

ومما يستحق الذكر ان الصليبيين حاولوا الاستيلاء على حمص مرارا ففشلوا كما فشلوا في حلب وحماة ودمشق وذلك بهمة عمال حمص السلجوقيين وملوكها آل شيركوه على ما نوه به وامتدحه الرحالة ابن جبير ، لكن الصليبيين ونخص بالذكر الفرسان الاسبتارية المرابطين في حصن الاكراد كانوا لا ينفكون عن الاغارة عليها وفرض الاتاوات على اهلها كما كانوا يعملون في حماة حتى ان ضمان صيد السمك في بحيرة حمص كان لهم .

ولم تعد تذكر التواريخ اسماء من تولوا نيابة حمص في دولة المماليك ولا احداث حمص الى ان وقع سنة ٦٨٠ مصاف عظيم ثان في مكان المصاف الاول وذلك في عهد الملك المنصور قلاوون فانكسر التتر ايضا ، وكانوا بقيادة منكوتمر بن هولاكو.

ثم وقع مصاف ثالث سنة ٦٩٩ في مكان اسماه المؤرخون بمجمع المروج وزعموا انه في شرقي حمص على نحو نصف مرحلة منها وليس الآن لهذا الاسم اثر، فهو على ما اظن وادي الميدان عند قرية وريدة التي تبعد ٢٢ كيلو مترا عن حمص الى الشرق اي مقدار نصف المرحلة التي ذكرت ، وليس ثمة اصلح من هذا المكان لمثل ذلك المصاف العظيم . وكان هذا المصاف في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون دارت الدائرة فيه على المسلمين وادى الامر لوصول التتر الذين كانوا بقيادة غازان بن آرغون الى دمشق وغزة والكرك وافحاشهم في الشام كله ، ظلوا على ذلك حتى عاد وانتصر عليهم الملك الناصر المذكور في معركة مرج الصفر قرب شقحب جنوبي دمشق سنة ٧٠٢ . وكانوا اذ ذاك بقيادة قطلو شاه نائب غازان . ولما جاء تيمور لنك سنة ٨٠٣ وخرب حلب وحماة قيل انه لم تطل يده الى حمص بل وهبها الى خالد بن الوليد ،ويظهر ان هذه المعارك الثلاث والخراب الذي اورثه تيمورلنك في عامة مدن الشام والطاعون الهائل الذي حصد سكان حمص فيما حصده من بقية مدن الشام سنة ٧٤٣ وفتن الاعراب التي بدأت في تلك الحقبة كما قدمنا في بحث سلمية واخربت ارباض حمص وقراها الشرقية التي لا حياة لحمص بدونها ، كل ذلك حط شأن حمص فوق ما كان منحطاً من قبل بفعل الثورات والروم والزلازل والصليبيين فقل سكانها وخمل ذكرها كثيرا .

ولما فتح العثمانيون الشام سنة ٩٢٢ جعلوا حمص احد الالوية الخمسة التابعة لايالة طرابلس وهي طرابلس وحمص وحماة وسلمية وجبلة . ونال حمص في العهد الثاني ما نال القطر الشامي كله من الاهمال وسوء التدبير يحكمها تارة امراء الوية اتراك وتارة متسلمون يدعون بالاغوات يتبعون حيناً طرابلس وحينا دمشق . ومن هؤلاء الاغوات اربعة من آل سويدان رفعتهم احداث تلك الحقبة فتعاوروا الحكم على حمص من غرة القرن الثاني عشر الى آخره . ولا تزال اعقاب هذه الاسرة سائدين في قرية حسية جنوبي حمص كما سيأتي ذكره .وظلت حمص مهجورة الذكر ضئيلة الشأن لخراب ارباضها وقراها الشرقية من دوام

فتن الاعراب وغاراتهم التي كانت تصل الى ابواب حمص ،وذلك في عهد العثمانيين كله كما ايده سائحنا اوليا جلبي، تغلق ابواب السور بعد الغروب وينزوي كل امريء الى داره لا يجرؤ على الخروج منه الى ان جاء ابراهيم باشا المصري سنة ١٢٤٨ واستولى عليها بعد ان كسر الجيش العثماني مرتين الاولى في المعركة التي جرت في سهل قرية الزراعة جنوبي القيصر في ٤٥ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ الموافق ٤ نيسان ١٨٣٢ وكان قائد الجيش عثمان باشا والي طرابلس ، والثانية في المصاف العظيم الذي جرى في ٩ صفر ١٢٤٨ الموافق لـ ٨ تموز ١٨٣٢ في السهل الممتد جنوبي كروم حمص الحالية في ارض السوامات على طرفي طريق دمشق ، وكانت جبهة الجيشين تمتد من شرقي تل بابا عمرو الى غربي فيروزة ، وقد اشتركت اذ ذاك مدافع قلعة حمص باطلاق قنابلها على المصريين فلم تفد ، وانكسر الجيش العثماني وكان قائده محمد باشا والي حلب الذي اوفده السردار حسين باشا المرابط وقتئذ في بيلان . وبقيت حمص في حوزة ابراهيم باشا ثمان سنوات نشر فيها كما نشر في غيرها من مدن الشام العدل والنظام ووطد الامن في ضواحيها . وا كد لي بعض المعمرين انه عمرت في تلك المدة الوجيزة بعض قراها الشرقية كالمشرفة وشمسين وشنشار والزعفرانة . ولم يتبرم اهل حمص من دولة الباشا المـــذكور الامن قيامه لتجنيد الشبان واثقال كاهلهم بالضرائب وتسخيرهم باشادة المسلحة والمستودع العسكري . على انهم لم يثوروا عليه كما ثارت بعض البلاد الشامية ضد هذه المحدثات خلافا لما قاله سوبرنهايم في المعلمة الاسلامية في مادة حمص ان الحمصيين ثاروا على ابراهيم باشا لما استبد عماله فيهم ولم يثوبوا الا بعد لأي . ولم ادر من اين استقى هذا الخبر وقد تأكدت من المعمرين عدم وقوعه ناهيك عن عدم ذكره في التواريخ الباحثة عن اعمال الباشا المذكور . ولما عاد الحكم للعثمانيين سنة ١٢٥٦ عادت الفوضى واستأنف اعراب البادية غاراتهم فرجع الخراب الى القرى التي ذكرنا عمرانها في عهد ابراهيم باشا ،وظلت حمص على هذه الحالة القلقة نحو ربع قرن وهي مركز قضاء يتبع لواء حماة الى ان حسنت الحالة

في الجملة بعد سنة ١٢٨٠ وكان عدد سكانها لا يتجاوز اذ ذاك العشرة آلاف فنشطت من كبوتها، ونمت زراعتها بنسبة ازدياد الامن والعمران في براريها الشرقية، سيما بعد ان اعاد مدحت باشا اليها القرى القريبة منها، وقد كان معظمها تابعاً لحماة او لحصن الاكراد، وبعد ان عني السلطان عبد الحميد باقتناء الضياع والمزارع كما قدمنا ذكره في بحث الحمراء وكان له منها في شرقي حمص حصة موفورة . واتسعت صناعتها وتجارتها بعد ان مدت الطريق المعبدة بينها وبين طرابلس وحماة ومشت حافلة الدليجانس في سنة ١٣٠٢ ثم ازداد هذا الاتساع بعد مد السكة الحديدية الذاهبة الى رياق وحلب سنة ١٣٢٠ مما جعل حمص ممر تجارة الشام الشمالية على ما اسلفنا، وبعد الحرب العامة جعلت مركز لواء يتبعه قضاءا المركز والقريتين فحسب .

غابر حمص وحاضرها — واليك ماقاله جغرافيو العرب في وصف حمص: قال اليعقوبي من رجال القرن الثالث في كتابه « البلدان » : ومدينة حمص من اوسع مدن الشام واهلها جميعا من يمن من طيء وكندة وحجر وكلب وهمدان وغيرهم اه . وفي قوله هذا اشارة الى ما كانت عليه حمص حتى القرن الثالث من الوسعة والعمران والى ان القبائل العربية اليمانية التي توافدت بعد الفتح الاسلامي استقرت في حمص. وقيل ان سكنى العرب في حمص ومعرفتهم بها قديمة ذكرها امرؤ القيس في قوله :

لقــد انكرتني بعلبك واهلهــا ولابن جريج كان في حمص انكرا

وذكرها الاعشى الكبير ميمون بن قيس في قوله :

ولقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فاوريشليم
فنجران فالرد من حمير فاني مرام له لم أرم

وقال ابن الفقيه الهمداني من رجال القرن الثالث ايضاً في كتابه « البلدان »: وقالوا حمص من بناء اليونانيين وزيتون فلسطين من غرسهم وكانت مفروشة

بالصخر وهي اليوم كذلك ومن عجائب حمص صورة على باب المسجد الجامع بجنب البيعة على حجر ابيض اعلى الصورة صورة انسان واسفلها صورة عقرب فاذا لدغ العقرب انسانا فأخذ طينا ووضعه على تلك الصورة ثم اراقه بالماء وشربه سكن وجعه وبرىء من ساعته ويقال ان تلك الصورة طلسم للعقرب خاصة « وخراج حمص ٣٤٠٠٠٠ دينار واقاليمها كثيرة منها اقليما سلمية وتدمر » .

وقال ابن حوقل في القرن الرابع في كتابه « المسالك والممالك » : حمص مدينة في مستواة خصبة صحيحة الهواء من اصح بلدان الشام هواء وتربة في اهلها خبال مفرط (وفي بعض النسخ جمال مفرط) وليس بها عقارب او حيات واذا دخلت الحية او العقرب اليها ماتت ولها مياه واشجار وزروع كثيرة واكثر زروع رساتيقها اعذاء وبها بيعة بعضها المسجد الجامع وشطرها للنصارى فيه هيكلهم ومذبحهم وبيعتهم من اعظم بيع الشام ودخلها الروم في وقتنا هذا (يشير الى مجيئهم سنة ٣٥٨) واتوا على سوادها واخربوها وجميع طرق حمص من اسواقها وسككها مفروشة بالحجارة والبلاط وزاد اختلالها بعد دخول الروم اليها . . الخ اهـ . وكرر الاصطخري من رجال القرن الرابع في كتابه « مسالك الممالك » عبارة ابن حوقل ولم ادر ايهما نقل عن الآخر . وزاد ابو عبد الله المقدسي من رجال ذلك القرن ايضا في كتابه « احسن التقاسيم » خبر تمثال النحاس الذي كان فوق قبة الجامع واقفـــا على سمكـة تديرها الارياح الاربع ، ثم قال : وفي حمص اقاويل لا تصح والبلد شديد الاختلال متداع الى الخراب والقوم حمقى (كذا) والاسعار بها رخيصة والقصبة قريبة من البادية رحبة طيبة اهـ .

قلت : يظهر مما ذكره هؤلاء الجغرافيون ان اسواق حمص كانت — كما هي في يومنا — مبلطة في عهدهم وربما من قبلهم ايضا ، وان مسجدها الجامع كان لا يزال نصفه للنصارى . ومما يستغرب منهم اهتمامهم بذكر العقارب والحيات واستحالة دخولها لحمص واعتقادهم بتأثير الطين الذي يوضع على الصورة التي

كانت فيما قالوا على باب المسجد الجامع ، وقدنقل سائحنا اولياء جلبي هذه الخرافة وايدها بدليل زعم انه وقع مع مملوك له ولعله نقل هذا الخبر عن اولئك الجغرافيين وعن غيرهم من مؤلفي العرب كالقزويني في كتابه « عجائب المخلوقات » وابن الاثير في كتابه « تحفة العجائب » وابن الشحنة في كتابه « الدر المنتخب في تاريخ حلب» ومما قاله الاول ، لايكاد يلدغ بها عقرب او تنهش حية ولو غسل ثوب بماء حمص لا يقرب عقرب لابسه ، ومما قاله الثاني : ويحمل من ترابها الى البلاد لمداواة لدغ العقرب . ومما قاله الثالث : وان العقرب لا تقرب ثياب الحمصي وامتعته ما دام عليها من غبار ترابها اهـ .

اما الادريسي وهو من رجال القرن السادس فقد اجاد وصف حمص قبل خرابها بزلزلة ٥٥٢ وذلك في كتابه «نزهة المشتاق» قال : اما ارض حمص فأن مدينتها حمص وهي حسنة في مستو من الارض وهي عامرة بالناس والمسافرون يقصدونها بالامتعة والبضايع في كل فن واسواقها قائمة ومسرات اهلها دائمة وخصبهم رغد ومعايشهم رخيصة وفي نسائها جمال وحسن بشرة وشرب اهلها من ماء يأتيهم في قناة من قرب قرية جوسية(١) والمدينة منها على مرحلة مما يلي دمشق ونهر الارنط المسمى المقلوب يجري على بابها بمقدار رمية سهم ولهم عليه قرى متصلة وبساتين واشجار وانهر كثيرة ومنها تجلب الفواكه الى المدينة وكانت في مدة الاسلام من اكثر البلاد كروما فتلف اكثرها وثراها طيب للزروعات واقتناء الغلات وهواؤها اعدل هواء يكون بالشام . . . ومدينة حمص مطلسمة لا يدخلها حية ولا عقرب ومتى ادخلت على باب المدينة هلكت في

---

(١) كانت تأتي قناة جوسية وتصب في خزان يقع شرقي المدرسة الانكليزية في حي باب السباع ومنه كانت تتوزع الى جميع احياء البلدة . ولا تزال القساطل الفخارية الحمراء ظاهرة في اماكن عديدة في اكثر انحاء حمص . وقد حاول الحمصيون سنة ١٣٢٣ هـ جر ماء هذه القناة كما كانت في الماضي وجمعوا له مبالغ لكنهم احجموا لما رأوا عظم المشروع وعجزهم عنه .

الحال ويحمل من ترابها الى سائر البلاد فتوضع على لسعة العقرب فتبرأ وبها على القبة العالية التي في وسطها صنم نحاس على صورة الانسان الراكب يدور مع الريح حيثما دارت .. وفي حائط القبة حجر عليه صورة عقرب فاذا جاء انسان ملدوغ يضع الطين على اللسعة فتبرأ للحين وجميع ازقتها وطرقها مفروشة بالحجر وزراعتها مباركة كثيرة وزروعها تكتفي باليسير من المطر والسقي ، وبها مسجد وجامع كبير من أكبر جوامع مدن الشام اهـ .

ومر الرحالة ابن جبير في القرن السادس بحمص سنة ٥٨٠ ولم تكن قد نهضت من عثرتها بعد زلزلة سنة ٥٥٢ والصليبيون لا ينفكون عن الغارة عليها فقال : حمص فسيحة الساحة مستطيلة المساحة نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة موضوعة في بسيط من الارض عريض مداه لا يخترقه النسيم بمسراه يكاد البصر يقف دون منتهاه افيح اغبر لا ماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر فهي تشتكي ظماها وتستقي على البعد ماءها فيجلب لها من نهرها العاصي وهو منها بنحو مسافة الميل فعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها وتستغرب نضرتها ومنبعه في مغارة بسفح جبل فوقها بمرحلة بموضع يقابل بعلبك اعادها الله(١) وهي عن يمين الطريق الى دمشق . واهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم اياه (٢) وبعدهم في ذلك عن اهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواءها الرطب ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه ، وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة عاصية غير مطيعة قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضي

---

(١) كانت بعلبك سنة مرور ابن جبير في حوزة بهرام شاه حفيد صلاح الدين الايوبي ولم تذكر التواريخ قط دخول الصليبيين اليها وخروجها من يد الايوبيين حتى يصح دعاء ابن جبير باعادتها . فكيف جاز عليه هذا الخطأ؟

(٢) عنى بالعدو صليبيي طرابلس وحصن الأكراد

الله عنه سيف الله المسلول ومعه قبر ابنه عبد الرحمن وقبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهم . واسوار هذه المدينة في غاية العتاقة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود وابوابها ابواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر رائعة الاطلال والاناقة تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة ، واما داخلها ما شئت من بادية شعثاء خلقة الارجاء ملفقة البناء لا اشراق لآفاقها ولا رونق لاسواقها كاسدة لا عهد لهـا بنفاقها وما ظنك ببلد حصن الاكراد منه على اميال يسيرة وهو معقل العدو فهو منه تترائى ناره ويحرق اذا يطير شراره ويتعهد اذا شاء كل يوم مغاره وسألنا احد الاشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات فقال وقد انكر ذلك حمص كلها مارستان وكفاك تبيينا شهادة اهلها فيها وبها مدرسة واحدة وتجد في هذه البلدة عند اطلالك عليها من بعد في بسيطها ومنظرهـا وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة اشبيلية من بلاد الاندلس يقع للحين في نفسك خياله وبهذا الاسم سميت في القديم وهي العلة التي اوجبت نزول الاعراب اهل حمص فيها حسبما يذكر وهذا التشبيه وان لم يكن بذاته فله لمحة من احدى جهاته اه .

ومما يستغرب ان خبر الخبال والحمق اللذين وصف ابن حوقل والمقدسي بهما اهل حمص في القرن السادس كرره ياقوت في القرن السابع وزاد عليه وصمات اخرى حملته على ذكرهما بواعث نفسانية على ما نظن قال : ومن عجيب ما تأملته من امر حمص فساد هوائها وتربتها (كذا) اللذين يفسدان العقل حتى يضرب بحماقتهم المثل ، ان اشد الناس على علي رضي الله عنه بصفين مع معاوية كان اهل حمص واكثرهم تحريضا عليه وجداً في حربه . فلما انقضت تلك الحروب ومضى ذلك الزمن صاروا من غلاة الشيعة حتى ان في اهلها كثيراً ممن رأى مذهب النصيرية واصلهم الامامية الذين يسبون السلف فقد التزموا الضلال اولا وآخراً فليس لهم زمان كانوا فيه على الصواب . وذكر ياقوت ايضاً فى حديث الدير الذي كان في الميماس اجمل متنزهات حمص على العاصي ابياتاً من الشعر وصف بها اهل حمص

بقلة العقل وذلك في حكاية موت الشاعر البطين الذي كان نائماً في ذلك الدير للاستشفاء من مرضه واعتقاد اهل حمص ان الذي اماته هو الشاهد المدفون في الدير وقيامهم لهدمه ، وكرر ياقوت ايضا حديث صورة الانسان وصورة العقرب نقل ذلك عمن تقدمه . وقال ايضا : وبحمص من المزارات والمشاهد مشهد علي بن ابي طالب رضي الله عنه وبها دار خالد بن الوليد وقبره فيما يقال وبعضهم يقول انه مات بالمدينة ودفن بها وهو الاصح وعند قبر خالد عياض بن غنم القرشي رضي الله عنه الذي فتح بلاد الجزيرة وفيه قبر زوجة خالد بن الوليد وقبر ابنه عبد الرحمن ويقال ان خالد بن الوليد مات بقرية على نحو ميل من حمص وان هذا الذي يزار بحمص انما هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية وهو الذي بنى القصر في حمص وآثار هذا القصر في غربي الطريق باقية . وبحمص قبر سفينة مولى رسول الله وقبر قنبر مولى علي بن ابي طالب وقبور لاولاد جعفر بن ابي طالب ومقام كعب الاحبار ومشهد لابي الدرداء وابي ذر وغيرهم . وينسب اليها جماعة من العلماء من اعيانهم محمد بن عوف بن سفيان ابو جعفر الطائي الحافظ ومحمد بن عبيد الله بن الفضل ابو الحصن الكلاعي ... الخ

وفي دولة المماليك الاتراك زاد انحطاط شأن حمص من وفرة ما نالها في الحروب الثلاثة التي جرت حولها مع التتر ، ناهيك عما كان اصابها من الروم ومن الصليبيين . وبعد ان كانت نيابتها جليلة يليها حتى ايام الملك الناصر محمد بن قلاوون مقدم الف صارت بعده طبلخاناة . وقد نقل القلقشندي في صبح الاعشى ما كتبه الملك المشار اليه في مرسومه لاحد اولئك النواب ما يشير الى ذلك الانحطاط جاء فيه بعد مقدمة طويلة : وكانت حمص المحروسة من اكبر الممالك القديمة والمدن العظيمة تغرق الاقاليم في مدها وتمتد عساكرها فتعد حماة من جندها وهي من الشام المحروس في ملتقى مواكبه ومجر عواليه ومجرى سوابقه ومجمع كتائبه ، طالما كان بها الحرب سجالا وطالما سابقت بها الرجال اجالا وكان لنا بها في الحرب يوماً عوضنا الله ادناهما بما حفظت المعارك (يشير الى

كسرته في حمص سنة ٦٩٩ ونصرته في مرج الصفر سنة ٧٠٢ وقد تقدم ذكرهما) وضاقت الارض بدماء القتلى ففاض الى السماء ما التق بالشفق من تلك المسالك واتصلت بالبر والبحر من جانبيها واتصفت بانها مهب الرياح (يشير الى وفرة الرياح في حمص) ومركز الرماح لما يهب لنا من بشرى النصر ويخفق من عصائبنا المنصورة عليها . . . الخ

وجاء بعده شيخ الربوة شمس الدين الدمشقي في القرن الثامن يؤيد ذلك الانحطاط ويكرر حديث الحمق قال : ومن جنود الشام حمص وهي مملكة حسنة وبها كرسي الملك ودار الامارة ونيابة السلطنة وهي اصغر ممالك الشام الثانية التركية وآخرها رتبة . وحمص مدينة قديمة تسمى سوريا (كذا) ماءها وهواءها صحيح . . . ومن حسن بناء حمص انه لا يوجد بها داراً الا وتحتها في الارض مغارة او مغارتان وماء ينبع للشرب وهي مدينة فوق مدينة (١) ، واهل مدينة

---

(١) في قوله هذا اشاره الى تكرر عمران حمص بعد كل خراب كان يعتريها وهو قد حدث مراراً كما قدمناه ، فالجفال الراجعون بعد الحروب والزلازل كانوا — لضعفهم ولاسراعهم بتدبير المأوى لانفسهم لايستطيعون رفع الانقاض فيبنون فوقها . وهكذا كانت تتوالى اسس الجدران واصول الحيطان بعضها فوق بعض كما هو الحال في معظم المدن التاريخية القديمة . وقوله تحت دورها مغائر ومياه صحيح ولا تزال هذه المغائر ذات الآبار موجودة يصل اليها قاصدوها لا سيما الجناة الفارون من ملاحقة رجال الحكومة والمنقبون عن العاديات . وجل هذه المغائر كان خاصا بحفظ موتى الامراء والنبلاء في عهد اليونان والرومان . وقد وجد الأب لا منس اليسوعي كثيراً من احجار الشواهد المكتوبة باللغة اليونانية المستخرجة من تلك المغائر وغيرها ذكرها في رسالته المسماة Notes epigraphiques et topographique sur l'Emesène المطبوعة سنة ١٩٠٢ م .

حمص يوصف عامتهم بقلة العقل ويحكى عن سوقتهم حكايات شبيه الخرافات ، ومن اعمالها شمسين وشميميس ومدينة سلمية واربعة اعمال (؟) اهـ . وكرر ابو الفداء في القرن الثامن في كتابه (تقويم البلدان) ماكتبه غيره الا انه اتسع في وصف بحيرة قدس الذي سننقله في بحثها . ومر ابن بطوطة بحمص في القرن الثامن ايضاً فوصفها بقوله : سافرت الى مدينة حمص وهي مدينة مليحة ارجاؤها مونقة واشجارها مورقة وانهارها متدفقة واسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفي وسطه بركة ماء . واهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله وعليه زاويةومسجد وعلى القبر كسوة سوداء اهـ .

ونقل القلقشندي من رجال القرن التاسع في صبح الاعشى عن (التعريف) قال : وكانت في دار ملك للبيت الاسدي(يعني اسدالدين شيركوه ابن‌عم السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب) ، قال : ولم يزل لملكها في الدولةالايوبية سطوة تخاف وبأس يخشى وهي في وطأة من الارض ممتدة على القرب من نهر العاصي ومنه شرب اهلها ولها منه ماء مرفوع يجري الى دار النيابة بها وبعض مواضع بها . قال في (مسالك الابصار) وبها القلعة المصفحة وليست بالمنيعة ويحيط بها وبالبلد سور حصين هو أمنع من القلعة . قال في (العزيزي) ولها من بر بعلبك انواع الفواكه وغيرها وقماشها يقـــارب قماش الاسكندرية في الجودة والحسن وان لم يبلغ شأوه في ذلك اهـ . وجاء في كتاب الدر المنتخب في تاريخ حلب المنسوب لابن الشحنة نقلا عن ابن فضل الله مايأتي : وظاهرها اعني حمص أحسن من باطنها لاسيما في زمن الربيع وما يلبس به ظواهرها من حلل الربيع الموسقة بالازهار ما مد النظر ترنو باحداق النرجس وثغور الاقاح ويتوسط بها البحيرة الصافية الماء والصافية السماء ذات السمك المنقول من الفرات اليها (كذا) حتى تولد فيها والطير المبثوث في نواحيها . قال ابن الشحنة : وفي بحيرتها يقول الشيخ بدر الدين بن حبيب .

جزيرة حمص كعبة اللهو اصبحت　　يطوف بها دان ويسعى لها قاص
ولكنها للهو والقصف حانة　　ألم تنظروها كيف جاورها العاصي

وفسر جزيرة حمص بقوله : وهي مكان نزهة يدور به الماء من سائر جوانبه وبه اشجار وتدخل اليه في زورق وهو عن المدينة نحو ميل او اقل اهـ . قلت ولعله عنى موضع الميماس المتنزه الوحيد في حمص . هذا ومما شغل بالي عند مراجعة هذه الكتب الجغرافية القديمة ما ذكره جميع مؤلفيها ونخص بالذكر ياقوت المتحامل كثيراً ، عن الخبال والحماقة (وجعلها الحريري في مقاماته وابن الوردي في خريدته رقاعة) المستولية كما زعموا على اهل حمص ، وهم كما تعرفهم لا يختلفون في الفطانة والنباهة عن بقية الشاميين ، وحمص كانت وما برحت تنجب من الشعراء والفضلاء عدداً غير يسير ، واذا كان فيها من ظاهره يورى ما ذكروه فذلك مما لا تخلو اي مدينة في الشام وغيرها منه . ووددت ان اصل الى السبب الذي حدا بهؤلاء الجغرافيين وغيرهم لترديد هذه الوصمة التي وصلت ذيولها الى عهدنا ، ومما شغل بالي ايضاً خرافة ان حمص مطلسمة وان العقارب والحيات لا تلسع احداً فيها وان لتربتها خاصة تشفي لسع العقرب وتمنع دخوله ، وشغل بالي بالصورتين اللتين كانتا على باب المسجد الجامع وما فعل الزمان بهما وقبة العقارب التي كانت الى جانب هذا المسجد وما جرى بها ، وثم بهيكل الشمس والحجر الاسود وما آلا اليه والبيعة التي اتخذ نصفها المسلمون جامعا ومتى رفعوها . وقد سألت بعض فضلاء الحمصيين عن هذه وغيرها من المسائل التاريخية والاثرية العائدة لبلدتهم فلم اجد من ينقع غلة . الا ان احدهم اجابني عن وصمة الحماقة وحدها بما يلخص في : ان الحمصيين كانوا في العصور الاسلامية الاولى ذوي انفة وعصبية جعلتها يثبون مراراً ضد عمال الامويين والعباسيين فتأتيهم الجيوش للتأديب والتنكيل ، فمن كثرة الضربات التي انزلت بهم وشدتها صار من يريد التخلص من تبعة هذه الفتن الموقدة يتظاهر بالبله والخبال مدة مديدة وتعدى هذا التظاهر بعد حين الى الخلاف على البيوع والعقود وغيرها يتوسل به من

يريد الايهام ، ولما كثر عدد هؤلاء المتظاهرين صار الغرباء يظنون شيوع ذلك في كافة اهل حمص وتناقلت الالسن هذه الشائعة ولم يعد في الامكان التقاطها اهـ.

واجابني البعض من شيوخ هذه البلدة ان حمص لا تخلو من الحيات لكنها قلما تؤذي ، اما العقارب فلم يروها او انهم لم يسمعوا انها لسعت احداً ، الا انهم لا يعلمون بخبر القبة والصورتين اللتين كانتا على باب الجامع رصداً للعقارب وجل ما يعلمونه انه كان امام هذا الباب حجر كبير فيه صورة عقرب يظنون انه هو الرصد . ولما طلبت ان يروني هـــذا الحجر الذي نقل والقي امام باب السوق ويكاد يندثر اذ به ناووس كبير على احد جدرانه رسم اكليل من الزهر Guirlande لا يشبه العقرب بحال . ويظهر ان احداً من هؤلاء الظانين لم يكلف نفسه مؤنة الامعان والتمييز بين رسم الاكليل والعقرب ولم يتحقق من ان بعض هذه النواويس التي يكثر وجودها في الخرب القديمة يحوى امثال هذه الاكاليل الخاصة بتبجيل الموتى ، وان من الخطأ الاعتقاد بكونها رصداً للعقارب. على ان احسن من اجاب عن اسئلتي بين الحمصيين كان الخوري البحاثة عيسى اسعد فقد قال ماخلاصته : نتج خبر الحماقة والبلاهة على ما اظن عن اشتهار الحمصيين باخلاصهم في معتقداتهم ومبادئهم ويغلب على المخلص تطرفه في تأييد ما يرتأيه لا تأخذه فيه هوادة ولا يتبصر بالعاقبة التي يحرص عليها السياسيون ، فمن امثلة اخلاص الحمصيين موقفهم مع الامويين ، تجاه الامام علي رضى الله عنـــه والاخلاص الشديد الناتج عن طيب السريرة يجعل المرء عرضة للانخداع لذلك نسبت اليهم الغفلة عما لا يهمهم فارسل بعضهم كلمة في هذا المعنى تلقفها عنه سواه فذهبت مثلا . وقال عن خرافة العقارب والحيات : «منشأ هذا الاعتقاد فيما ارى ان تربة حمص غير صالحة لبيوض العقارب وهذا سر فقدان العقارب فيها ، واذا صادف انتقال عقرب اليها فانها لا تعمر طويلا ولا تنقف بيوضها فيها . ولعل احد الجغرافيين سمع ان العقارب لا تعيش في حمص طويلا فاستغرب ذلك ورأى ان يزيل استغراب قارئيه فاضاف الى العقرب الحية فقال ما قاله وليس ذلك بثبت . لان الحيات

عهداً من ابن الفقيه والمقدسي وابن حوقل اذا استثنينا ياقوتاً وهذا في رأيي ناقل لاشاهد ، وفي هذا العهد او بعده قليلا ضمت البيعة الصغيرة الى الجامع وانقضى امرها اه .

هذا واكرر هنا ما ذكرته في بحث حماة انه لم يظهر في القرون الاخيرة التي تلت القرن الثامن احد من الرحالين او الجغرافيين ينبأنا عما كان عليه اذ ذاك عمران حمص وغيرها من مدن الشام سوى سائحنا اولياجلبي الذي وصف حالة حمص في القرن الحادي عشر بايجاز . ومن الغريب ان ينشأ في عهدنا وقبله في جل مدن الشام اناس يدونون تاريخ بلدتهم ووقائعها ويصفون عمرانها الغابر والحاضر بينما حمص وهي البلدة التاريخية القديمة لا يتاح لها احد يقوم بهذا العمل الذي هو في نظري من اجل الخدم الوطنية ، او انه اتيح لها ولكن لم يتسن لنا العثور عليه ، وقد كان لحمص تاريخان احدهما لابن عيسى والثاني للقاضي عبدالصمد بن سعيد ، ذكرهما كاتب جلبي صاحب كشف الظنون ، وذكر ياقوت في معجمه تاريخ عبدالصمد بن سعيد مراراً ولا نعلم ان كانا مفقودين او موجودين حتى الآن في احدى دور الكتب العربية في الغرب فيأتي من ينشر كليهما او احدهما .. ولما كنت في حمص في ربيع سنة ١٣٥١ أبحث عن هذا الموضوع أروني كتابا مخطوطاً سقيم الانشاء والخط لكاتب مجهول جمع فيه الحوادث اليومية التي حصلت في النصف الاول من القرن الثاني عشر لكنه ملان بالتوافه والشوائب لا يجدي فتيلا (١) . ثم اروني رسالة موقوتة ادبية ظهرت في سنة ١٣٥١ اسمها (البحث) في كل عدد منها مقال موجز عن تاريخ حمص للخوري عيسى اسعد المذكور آنفا فاعجبني ورجوت له التوفيق لانجازه . هذه ملحوظة تساق لكل بلاد الشام التي يرجى من فضلائها ان يتوفروا على تدوين تاريخ اوطانهم . ومن حب الوطن

---

(١) رأيت بعد حين في مكتبة الجامعة الاميركية في قسم المخطوطات العربية نسخة كاملة من هذا المخطوط ، اكبر حجما واصح خطاً من نسخة حمص .

كانت ولا تزال موجودة في حمص غير ان قرب المدينة من العاصي خفف من سمها لما هو معروف من قلة اذى الحيات التي تعيش قرب الماء . وقال عن الصورة التي نصفها انسان ونصفها عقرب وعن تمثال النحاس الراكب فوق السمكة : ليست هذه الرواية بعيدة عن التصديق فان هيكل الشمس الذي وضعت اسسه في موضع الجامع النوري الكبير قبل النصرانية في زمن رقي فني البناء والنحت الاغريقيين لا يبعد ان يصور نحاتو اليونان على قبته وبابه الصورتين الآنفتي الذكر ولعلهم اختاروا شكلي السمكة والعقرب وفضلوهما على سواهما لاحـــد سببين او كليهما معاً . الاول ، ان هذين الحيوانين محور عبادة فريق من الناس في هذه الاصقاع الاول لما يتوقعونه من منافعه (ومنه الاله فرجون عند الفلسطينيين) والثاني لما يخافونه من أذاه . والسبب الثاني ، لامكان اتخاذ هذين الحيوانين رمزاً لتكاثر الذرية فيرمزون بهما الى ان من يرضي الاله بعبادته تكثر ذريته كذرية السمك في البحر والعقرب في البر . وأجاب عن مصير الحجر الاسود الذي كان في هيكل الشمس : واما الحجر الاسود فقد اخذه اليوكابال معه الى رومية لما نودي به قيصراً وذلك ليعزز به موقفه السياسي في تلك الآونة المقلقة فلما دالت دولة الحمصيين من رومية لم نعد نسمع عن ذلك الحجر شيئاً ، ولعل خصومهم اخفوه خشية ان يتخذه الحمصيون المذكورون ذريعة للعودة الى العرش . واجاب عن البيعة التي اتخذ المسلمون نصفها جامعا ومتى رفعت : لما تنصر قياصرة بيزنطية حولوا هيكل الشمس الى كنيسة ولما جاء المسلمون اقتدوا بهم لكنهم لم يحولوا الكنيسة كلها الى جامع بل اكتفوا بمعظمها من جهة الغرب وتركوا القسم الشرقي الاصغر كنيسة . ولما غزا يوحنا ذي مسكي الشام في القرن العاشر الميلادي أخذ معه كثيراً من الذخائر اليونانية المحفوظة في الشام وفلسطين ، فتنبهت خواطر المسلمين الى الآثار اليونانية ولا سيما الدينية منها التي جعلت البلاد مباءة لاطماع قيـــاصرة بيزنطية وسواهم فاخذوا يطمسون تلك الآثار ومنذئذ لم نجد للصورتين المشار اليهما ذكراً في مؤلفات جغرافيي العرب الاحدث

البحث عن ماضيه وعما حواه من المآثر وما سبق للاجداد فيه من المفاخر وطبع ذلك ونشره ليتعظ به الخلف فيحتذي او يجيد ما عمله السلف .

ومنذ نصف قرن زار حمص بعض الاثريين من الافرنج كواد ينكتون وسوبر نهايم وهرز فيلدوفان برشم ودوسسو وروزفال ولا منس وغيرهم فكتبوا عنها ، واهتم هرزفيلد بوصف الجوامع والمباني الاثرية ، وسوبر نهايم باستنساخ الكتابات العربية القديمة في تلك الاماكن ، وعنى دوسسو بالآثار والرقم اليونانية والبيزنطية ، وذكرها ايزامبر وشوفه ومونمارشه في ادلتهم . واكثر هؤلاء زار حمص قبل نهوضها ونموها الحديثين فلم تنشرح اذ ذاك صدورهم لاحيائها الملتفة وازقتها الملتوية ودورها المتراصة وبريتها العارية فلم يحمدوا مناظرها ولم يجدوا فيها من المباني الاثرية والمشاهد الصناعية والطبيعية ما يحبب اليهم إطالة الوقوف فيها . وقد استغربوا احتفاظ عامة اهلها بازيائهم وعاداتهم القديمة وعدوا ذلك من قبيل التعصب الذي لم تخل منه على زعمهم حتى نساء النصارى المتحجبات (١) .

واليك ما كتبه احدهم فأن برشم : تقوم مدينة حمص على الضفة اليمنى من العاصي وسط سهل خصب مطرد ، ومنظرها دميم ، ويعزى ذلك دون ريب لقلة بساتينها ولدورها المبنية من التراب والاحجار الحرية السود التي حبيباتها الضخمة تجعل لها مرأى صقيلؤ . والابنية الخاصة بالعهد العربي قليلة الوجود في حمص

---

(١) كان نساء النصارى في جل مدن الشام حتى غرة القرن الحالي وبعده يحتجبن كالمسلمات الى ان رفعنه ونبذنه ولم يبق منهن سوى من كان في ادلب وحمص وحماة ، فهؤلاء ما برحن حتى يومنا يجتنبن مجالس الرجال الا قليلا ويحتجبن ولكن بمعطف شف ونقاب نهنه يشبهن بهما المسلمات المتأنقات في دمشق وحلب . على ان هذا الحجاب قد قل في حمص عما قبل ، وهو مائل دون ريب للزوال كلما تقدمت السنون وسمت المدارك .

وكانت حمص محاطة بسور زال تقريباً كله ، انما بقيت منه اسماء الابواب الدالة على المواقع التي كانت لها (١)

وقد راينا امام اطلال الباب المسدود المبني في جنوبي البلدة والذي حوله برج مربع — حجراً ممدداً على الارض فيه كتابة غريبة باسم الملك المنصور ابراهيم تاريخها سنة ٦٤١ (٢) .

وفي الجنوب الغربي من البلدة قرب الباب المسدود قام تل صناعي على ما يظهر كما هو الحال في بقية مدن الشام فوقه القلعة ، وقد كان جل هذه القلعة في غرة

---

(١) لا يزال بعض اقسام هذا السور وابراجه باديا للعيان في عـــدة اماكن لا سيما في شرقي حمص بين باب الدريب وباب تدمر وفي شماليها عند باب السوق ، واسماء الابواب التي ذكرها فان برشم هي باب هود وباب المسدود وباب التركمان وباب السباع وباب الدريب وباب السوق ، ظلت هذه الابواب تغلق من قبل عمال المكس والحراس الى سنة ١٢٨٧ هـ التي الغت الدولة فيها جباية المكس في المدن الداخلية ، ومن ذلك الحين فتحت الابواب المذكورة وصارت تمتد اليها ايدي التخريب حتى لم يبق من جلها الا الاسم ، وقيل انه كان حول حمص في عهد عمرانها الغابر سور اعظم واوسع دائرة من سورهـــا الحالي لا تزال اثاره ظاهرة حول بناء شركة الكهرباء شمالي المحطة وبين الكروم الجنوبية التي شرعت السلطة العسكرية الافرنسية تبني فيها في سنة ١٣٥٢ .

(٢) نقل هذا الحجر من عهد وجيز الى دار الاثار الوطنية في دمشق رقم عليه بخط نسخي : امر بعمل هذا الباب المبارك مولانا السلطان الملك المنصور ...... ناصر امير المؤمنين ابي ظاهر ابراهيم بن شيركوه بن محمد بنظر العبد الفقير الى عفو ربه الغفور زين الدين يعقوب بن يزبك سنقر المجاهدي المنصوري بشهر ذي الحجة سنة احدى واربعين وستمائة .

القرن التاسع عشر عامرا (وقدرآها السائح بيليون سنة ١٥٤٧ م كما رأى السور ايضا) وفي سنة ١٨٩٥ م حينما زرناها لم يكن باقيا فيها سوى اقسام من الجدران وبرج خراب في شماليها عليه كتابة عربية باسم الملك المجاهد شيركوه سنة ٥٩٤ . والجامع الكبير قام وسط المدينة مكان بيعة القديس يوحنا ومكان معبد وثني على مايظن، لانه يحتوي على اعمدة وقطع قديمة مختلفة ، ويظن وادينكتون ان هذا الجامع مكان هيكل الشمس القديم وهو مصيب في ظنه على ما نرى نحن ايضا بدليل تحول اكثر المعابد القديمة في الشام والاناضول والجزيرة الى بيع فجوامع . والجامع بناء متسع مستطيل الشكل يحتوي على صحن وسط في السعة تحيط به اروقة راكبة على عضادات ، ومحوره الاعظم يمتد من الغرب الى الشرق وللحرم الذي في جنوبه صفان من العقود ، وصحن الجامع يحتوي على حوض ماء للوضوء وقبيبة راكبة على اعمدة تشبه قبة الخزنة التي في جامع حماة وتحتها بئر . ومدينة حمص تحتوي على جوامع عديدة ليس في معظمها مايستحق الذكر . وقد راينا مأذنة مربعة من الطراز القديم فيها كتابة كوفية وهي منارة مقطوعة الرأس (المأذنة المقطومة) يرجع تاريخهـــا الى سنة ٩٨٠ ميلادية . ورأينا ضريحا ذا قبة في حديقة التكية المولوية . اما قبر خالد بن الوليد ففائدة البحث عنه تنحصر في الكتابات الكوفية التي ذكرها سوبر نهايم بالتفصيل اه .

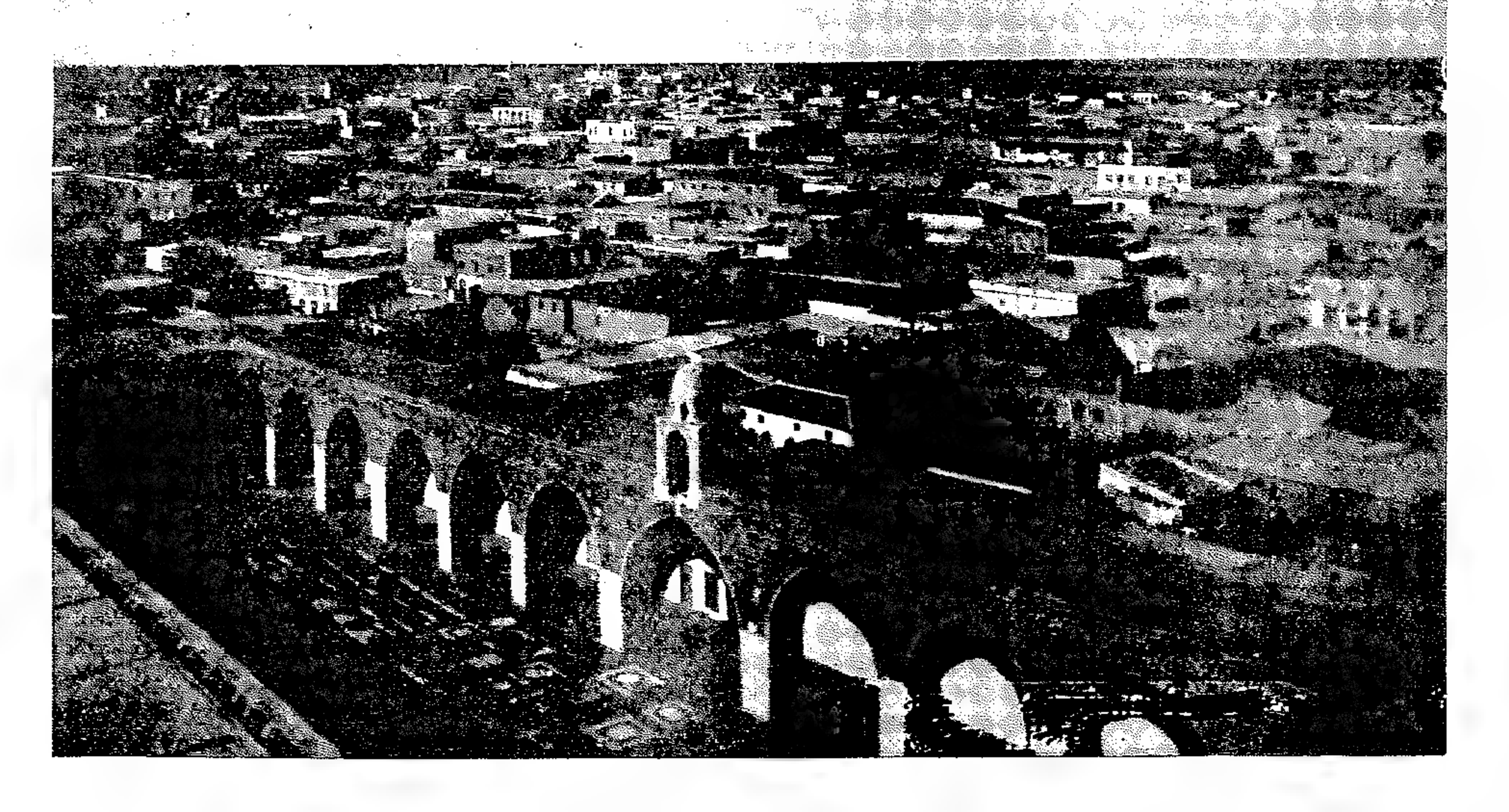
قلت وقلعة حمص التي وصفها سائحنا اولياجلبي ايضا في الصفحة ٢٥ كانت تشبه بتلها وبطراز بنائها قلعتي حلب وحماة شيدت فوق تل علوه عن سطح البحر ٥٣٣ يرجح ان اسفله طبيعي صخري واعلاه صناعي ، وهو على شكل مخروط ناقص دوره نحو تسعماية متر وعلوه فوق المدينة نحو ثلاثين متراً وجانبه المواجـــه للمدينة ذو عطفة سريعة المهبط . وكانت جوانب هذا التل مبلطة بصفائح الحجارة الحرية . ومن استقرى الجهة الشرقية وجد عمدا وبقايا ابنية نقلت كما يظن من هيكل الشمس القديم . وهذه القلعة قديمة يعود اول بنائها الى الحثيين او

الآراميين وأكثر من عنى بتحصينها واشادة ابراجها الملك المجاهد شيركوه الذي تقدم ذكره . ولا يزال من آثاره في شمالي القلعة باب وجدار برج عليه كتابة فيها اسمه وتاريخها سنة ٥٩٤ ، واليه ينسب ايضا جامع السلطان الذي كان فيها . وقد ظلت هذه القلعة مقر حكام حمص ومعتصم حاميتها على النحو الذي نوه به اوليا جلبي الى ان خرب ابراهيم باشا المصري اكثر اقسامها وبنى باحجارها مسلحة ومستودعا مازالتا باقيتين ، شأنه في اشادة المباني العسكرية في دمشق وحماة وانطاكية وغيرها . ولما عاد الحكم العثماني هجرت هذه القلعة وصارت تفتك فيها وفي جامعها وبلاط تلها معاول النقض وتسرق احجارها ، ولما كاد ان لا يبقى فيها الا القليل احتلها الجند الافرنسي منذ بضع سنوات وشاد فيها بعض الابنية وحصن اطرافها بالاسلاك الشائكة . والمصحف الذي ذكره اوليا جلبي وذكر ايضاً في الدر المنتخب لابن الشحنة كان على ما قيل من المصاحف التي ارسلها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الى مراكز الاجناد ومنها حمص وكان مكتوبا بالخط الكوفي على رق غزال في مجلدين ضخمين . ولما بدأ الخراب في القلعة وجامعها على اثر هجرها خيف عليه فنقل الى الجامع المنسوب الى خالد بن الوليد وبعد ان بقي فيه الى سني الحرب العامة ١٣٣٢ — ١٣٣٦ ﻫ اخذه القائد العثماني احمد جمال باشا الى القسطنطينية فيما اخذ من اعلاق الحجاز والشام .

هذا وقول فان برشم ان جوامع حمص عديدة ليس في معظمها ما يستحق الذكر ، صحيح . ففيها على ما بلغني ثلاثة وثلاثون مسجداً منتشرة في احياء البلدة ، منها الكبير والصغير ، معظمها صغير الفناء بسيط البناء عار عن البهاء ، ولكن اقدمها عهدا واجلها شأنا واتساعاً الجامع الكبير واحدثها واروعها جامع خالد بن الوليد . ويعد جامع التركمان في حي باب السباع قديماً ويعرف بالعمري .

اما الجامع الكبير فأليك وصفه كما شاهدته في ربيع سنة ١٣٥٢ : الحرم ذو شكل مستطيل ابعاده ٩٩ × ١٧ متراً وهو ذو سقف مزدوج معقود يرتكز على اربع عشرة عضادة مربعة الشكل تمتد من الشرق الى الغرب في مسافات متساوية

والعقد بسيط الشكل كما ان جدران الحرم الضخمة خالية من الكتابات والزخرف . ولهذا الحرم ثلاثة محاريب لكل منها عمودان من الرخام الابيض ، الا ان عمودي المحراب الاوسط محززان بشكل لولبي ولهما تاجان مخرمان ، واسفل صدر المحراب مؤلف من مستطيلات متوازية من الرخام الابيض والاسود واعلاه مؤلف من محاريب صغيرة فوقها فسيفساء مشوهة ناقصة رقعت بالكلس . وثمة فوق المحاريب الصغيرة زبرت بالاحرف النافرة آية (انما يعمر مساجد الله ... الخ) والمنبر من الرخام الابيض خال من الاتقان ، على بابه عمودان رفيعان من الرخام الابيض ايضاً يعلوهما تاجان بديعا الصنع . وسدة المؤذنين ترتكز على ثلاثة اعمدة من المرمر . والى يمين المحراب غرفة قيل انها مخصصة لاهل الطريقة النقشبندية . وللحرم باب قبلي متصل بدهليز معقود يصعد نحو سوق التجار وآخر غربي متصل بدهليز طويل له منفذان احدهما يصعد نحو السوق والثاني يهبط نحو صحن الجامع . وفي الجهة الشمالية الشرقية باب ينفذ نحو غرفة واسعة فيها ميضأة كبيرة . اما ابواب الحرم النافذة نحو الصحن فعددها احد عشر ، وفي هذا الصحن مصطبة مرتفعة واسعة اتخذت مصلى في شرقيها غرفة اطلبة العلم الشرعي وفي شماليها ست غرف للغرباء امامها رواق معقود يستند على عضائد كالتي في الحرم ، وفي جنوبيها محراب من حجر واحد منقوب من وسطه ، في ظهره وبطانه كتابة عربية فيها اسم بهادر البكتمري الاشرفي بتأييد « ماكان على وقف الجامع النوري لفقهاء النواب وماكان يوجد من المشاعلية ليتمكنوا من منع المنكرات» ... الخ والى جنوبي المصطبة ايضاً حوض كبير تأتيه الماء من ناعورة خاصة ومحراب آخر اصغر من الأول ، وفي غربيها بئر تعلوها قبة اصغر وادنى من قبة الخزنة التي في جامع حماة الكبير ، تستند على ستة اعمدة احدها ذو كتابة عربية بابطال المظالم عن أهل حمص تاريخها ٨٧٠ ، وعلى الرواق المعقود الممتد شمالي المصلى قبة صغيرة قليلة العلو والعرض بسيطة البناء لا يعرف سبب بنائها . وفي الباب الغربي كتابتان احداها فوق القوس تحوي آية « انما يعمر مساجد الله .. الخ ،



منظر قسم من مدينة حمص من مآذنة الجامع النوري الكبير

(جولة اثرية · مقابل ٣٥٦)

والتاريخ ١١٩٧ ، والثانية على عضادتي هذا الباب تحوي بيتين يفهم منهما ان رجلا اسمه نجيب السباعي جدد بعض اقسام هذا الجامع وليس لهذين البيتين تاريخ ، وفوق مصنع الماء المبني في آخر دهليز الباب الغربي كتابة قديمة ذات عدة اسطر مطموسة لم اتبينها . ومثلها كتابة على جدار الحرم المشرف على الصحن بابطال المظالم عن اهل حمص ايضاً تاريخها ٨١٧ في عهد الملك المؤيد شيخ .

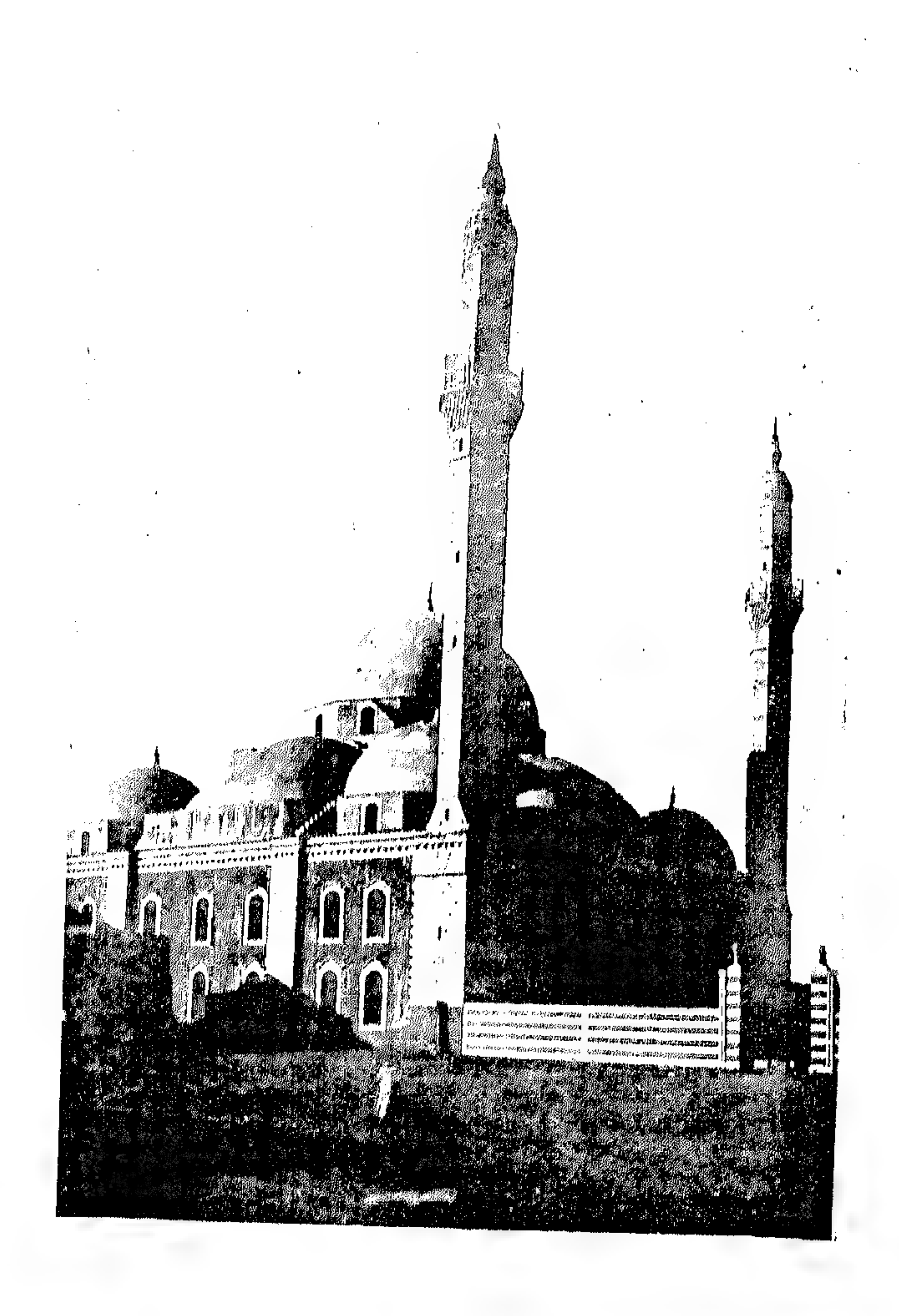
والمدقق في الجدار المشرف على الصحن يلاحظ ان فيه اربعة اقواس بين كل منها خمس نوافذ صغيرة وخمس قناطر ، لخمسة ابواب بعضها مسدود، ويستدل من ذلك على ان هذا الجامع رمم مراراً في ادوار مختلفة من عهد نور الدين محمود وما بعـــده . وقد حدثني بعض شيوخ حمص انه كان في القرن الماضي ذا سقف خشبي ، وكان هذا السقف يرتكز على اعمدة ضخمة من الحجر المحبب « الغرانيت » الباقية من عهد هيكل الشمس ، ولما رأى اهل حمص ان هذا السقف القديم البالي يكاد يخر تعاونوا في سنة ١٢٧٨ على هدمه وتجديده فبنوا السقف الحالي المعقود على العضادات المربعة التي ذكرناها . وكان القسم الشرقي باقياً على خرابه القديم فرمموه ايضا في سنة ١٢٩٥ على نسق القسم الغربي ، فتم بذلك البناء على النحو الذي وصفنـــاه . وللجامع من غربيه مأذنة عالية مربعة الشكل من الحجر الحري الاسود المطلي بعضه بالكلس الابيض كانها جلد ارقم .

وهذا الجامع هو الذي كان هيكلا للشمس في عهد آل شميسغرام وبيعة في عهد البيزنطيين ، ثم اتخذ المسلمون حين الفتح نصفها جامعا وتركوا نصفها الشرقي بيعة . ولما وثب اهل حمص في سنة ٢٤١ في عهد الخليفة العباسي المتوكل واعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص امر بتأديبهم وضرب وصلب رؤسائهم « وان يخرب مابها من الكنائس والبيع وان يدخل البيعة التي الى جانب مسجدها في المسجد » (الطبري ج ١١ ص ٥٠) ويظهر ان هذا الامر لم ينفذ بحذافيره ، فقد بقي القسم الذي كان بيعة على خرابه الى سنة ١٢٩٥ كما قدمنا . ولم يبق من آثار هيكل الشمس والبيعة البيزنطية الا جدران الحرم الضخمة ، وفي الشمالي

منها الاقواس والنوافذ القديمة التي ذكرناها ، كما لم يبق شيء من بدائع البناء والنحت الاغريقيين اللذين جعلا هذه البيعة فيما قيل من عجائب العالم . ويظهر ان المسلمين لما جددوا هذا الجامع بعد خرابه في عهد نور الدين وما بعده لم يهتموا باتقان بنائه وزخرفه على نحو ما كانوا يعملونه في جوامع بقية المدن ، فظل كما هو عليه الآن مثال البساطة . اما اعمدة الغرانيت التي رفعت من الحرم سنة ١٢٨٧ فقد بقيت ردحا من الزمن ملقاة في صحن الجامع ، ثم صارت الايدي تتخطفها ، ومن بضع سنوات القي منها قسم في الساحة العامة امام باب السوق ليبني بها برج ساعة ولما يبن بعد ، ثم ابعدت الى المقبرة المجاورة لجامع خالد بن الوليد ، ولم يبق من تلك الاعمدة في صحن الجامع الا اثنان ممددان في في الناحيه الشرقية منه . اما الصورتان اللتان كانتا على باب هذا الجامع وقبة العقارب التي كانت الى جانبه . . . الى آخر ماذكره جغرافيو العرب فليس لها اثر ولا خبر .

اما جامع خالد بن الوليد فمبني الى الشمال من ظاهر حمص في الحي الخالدي الذي كان منفصلا عن حمص لمضي نصف قرن . وهذا الجامع بعد ان كان بناؤه القديم قوياً ذا ركائز ضخمة وسقف عقد متين من آثار الملك الظاهر بيبرس فيما قيل ، رأى ناظم باشا احد ولاة الشام في عهد السلطان عبد الحميد ان يجدده بما يليق بقدر الصحابي الجليل خالد بن الوليد فاستحصل من السلطان المذكور على ستة آلاف دينار عثماني اكملها بثمن الحلي التي كانت على الضريح ، وهدم البناء القديم كله وشرع بالجديد على نسق جوامع القسطنطينية ، فجاء عند ختامه في سنة ١٣٣١ آية في الجدة والروعة بمأذنتيه الرشيقتين وقببه البيضاء العالية الجميلة مما يعد زينة ومفخرة في غرة حمص .

لهذا الجامع حرم مربع الشكل ابعاده ٣٠,٥ × ٣٢,٥ متراً تعلوه تسع قبب اعلاها القبة الوسطى قطرها نحو ١٢ متراً وارتفاعها نحو ٣٠ متراً تستند على اربع عضائد مربعة ضخمة والقبب الباقية تستند من جانب على هذه العضائد



جامع خالد بن الوليد في حمص

(جولة اثرية ، مقابل صفحة ٣٥٨)

ومن جانب آخر على جدران الحرم . وفي صدر الحرم ثلاثة محاريب لكل منها عمودان من الرخام الابيض . الا ان المحراب الاوسط قد زخرف بالرخام المجزع على اشكال هندسية جميلة ملونة بالاسود والاحمر والابيض ، والمنبر من الرخام الابيض ايضاً على جدرانه نقوش وتخاريم آية في الاتقان والبهاء . وفي الزاوية الشمالية الغربية من الحرم ضريح الصحابي خالد بن الوليد رضي الله عنه طوله خمسة امتار ونصف بمثلها بني من الرخام الابيض تعلوه قبة من الخشب ، وفي جدرانه نوافذ من الخشب المتين يفصل بينها اعمدة من الرخام ، وفي زاوية هذا الضريح ضريح صغير لابن خالد عبد الرحمن، وفي الزاوية الشمالية الغربية للجامع ضريح ثالث لعبد الله بن عمر بن الخطاب جعل بدون قبة وأحيط بشبكة حديدية بسيطة ، وصحن الجامع واسع ابعاده ٣٦×٤٧ متراً لا يزال بدون تبليط ، وفي جانبه الشرقي اربع غرف احداها ميضأة والبقية خصصت بطلبة العلم الشرعي . والى الشرق من هذا الصحن قسم ينتهي في باب الجامع الجنوبي فيه عشر غرف لسكنى الغرباء . وفي جدار الحرم الغربي غرفة اودعوا فيها لوازم الجامع ، قيل ان منها المنبر القديم والاحجار التي كانت عليها الكتابات الكوفية الخاصة بالجامع المهدوم ، لم اتمكن من الاطلاع عليها حين زيارتي الاخيرة ، ولعلها هي التي استنسخها سوبر نهايم ولم يتيسر لي الحصول على الكتاب الذي درجها فيه .

ويجدر هنا ان نقتبس ما ذكره الشيخ محمد سليمان المصري في كتابه « رسائل سائر » المطبوع سنه ١٣٥٢ عن زيارته جامع خالد بن الوليد وضريحه ، فهو بعد ان نقل كلمة خالد المشهورة وهو يحتضر « لقد شهدت مئة زحف او زهاءها ما بقي في بدني موضع شبر الا وفيه ضربة سيف او طعنة رمح ثم اموت على فراشي هكذا كما يموت العير ؟ لا نامت اعين الجبناء »قال : هنالك ، ومن ارباض حمص يشهد القادم أطراف المآذن البيض تلمع في وهج الشمس مؤذنة بالمسجد الفخم القائم على جدث القائد الدائم ، وفي ركنه الشمالي المغرب يسقط طرف

كل ماثل امام ذلك الجسد الثاوي بالمجد ، ويتمثل الزائر في هـــذا الضريح اي شديد بالصراع ، واي شديد في ملك (ضبط) النفس ، واي نفس كانت مهوى الافئدة ومناط القلوب ، واي شجاع هذا الذي هدم دولتي الدنيا في ايام الدنيا وشاد دولة الاسلام للدنيا والآخرة . بل اي قائد اوتي النصر ولم يعرف الا النصر واي طبع حربي وضع الخطط وابتكر الاساليب ونظم الحرب على غير مثال وعبأ الجيوش بالابتكار وجعل حياته كلها شعلة من سراج وهاج من المهد الى اللحد حلقات من سلسلة على مد العمر ما سقطت حلقة فيها ولا انطفأت فتيلة منها ، بل مضت الى ربها تحمل عجيبة في خليقته ان كان له عبد من عباده آتاه الله الشجاعة وقذف به في المعامع فلم تطوله راية ولا خبا له نور حتى اتاه اليقين فهدم منه ذلك الصرح الممرد ، وهـــد منه تلك القوة المتوثبة المتوهجة المنتشرة في آفاق بلاد العرب وعلى مشارف الفرس والروم . هنا الراقـــد « خالد » الخالد ، هنا مثوى الخلود وقدوة العلا ، ومطمح الشعوب اذ ينهض بها قوادها ، وهيهات هيهات ان تلد الحوامل مثل خالد حتى ينفخ في الصور اه

وفي حمص نحو عشر كنائس منها القديم ككنيسة مار اليان للروم الارثوذكس في حي باب الدريب وكنيسة الاربعين شاهد لهم ايضا ، وكنيسة السريان القدماء وكنيسة الكاثوليك والثلاث في حي جمال الدين ، وعدوا كنيسة البروتستانت في هذا الحي ايضاً قديمة . اما الكنائس الحديثة ففي التل المنسوب للصحابي السمط بن الاسود في حي الحميدية واحدة باسم مار جاورجيوس للروم الارثوذكس ، واخرى للسريان الكاثوليك ، ولليسوعيين في حي جمال الدين دير ومدرسة ، وللارمن كنيسة حديثة في حي الفاخورة ، وللروم الارثوذكس في حي باب السباع كنيسة باسم مار انطونيوس . اما الحمامات فعددها احد عشر حماما كبيراً وسبعة صغار . منها حمام الباشا الذي تأتي ماؤه من الناعورة كما نوه بذلك سائحنا اوليا جلبي ،ولا يعرف من هوهذا الباشا .

اما المأذنة المقطومة التي ذكرها فان برشم فقد كانت هي وجامعها في حي آل

السباعي في شارع ابي الهول وهما من اثار بكجور الذي حكم حمص سنة ٣٦٥ كما قدمنا وقد عفيت اثارهما . فالجامع هدم قبل المأذنة بزمن طويل والمأذنة التي قيل (في خطط الشام ج ٦) انها لا تزال باقية وان عليها كتابة مفيدة في باب الهندسة العربية هدمتها ويا للاسف البلدية سنة ١٣٢٩ هـ بحجة توسيع الطريق واتخذت انقاضها في تعبيد الجادة الممتدة امام دار الحكومة . اما التكية التي ذكرها فان برشم فهي قرب دار الحكومة بنيت سنة ٨٤١ ، والضريح ذو القبة الذي ذكره ايضا هو ضريح الصحابي عبد الرحمن بن عوف وفي قربه ضريحان لرجلين من المولوية مشائخ هذه التكية . على ان قبة الصحابي المذكور قد هدمت وملىء داخلها بالانقاض والاقذار لتدل على مبلغ عناية الخلف في عهدنا بقبور السلف لا سيما بقبور اجلاء الصحابة . ونذكر بهذه المناسبة تأييداً لما ذكره ياقوت ايضاً ان في حمص كثير من المزارات والاضرحة المنسوبة لبعض الصحابة والسلف الصالح يعدون منهم الان ابا ذر الغفاري او عبد العزيز الغفاري وعكاشة وابي موسى الاشعري وسعد بن ابي وقاص وعبدالله بن مسعود وعبد الرحمن بن جعفر الطيار ودامس ابو الهول والسمط بن الاسود الكندي وذو الكلاع الحميري وعبد الرحمن بن عوف ورابعة العدوية ، ولكل من هؤلاء الصحابة مساجد او زوايا خاصة فيها اضرحتهم ، ويعدون عمر بن العزيز وله ضريح شرقي تربة باب الدريب وسط الكروم فوق مصطبة مرتفعة فوقها قبة بسيطة لا تتناسب قط مع قدر هذا الخليفة الجليل فيما اذا صح دفنه هنا وليس في شرقي المعرة ، والملك المجاهد في ضريحه الذي تقدم ذكر نبشه . وثمة عدد ممن يعدونهم من الصلحاء مدفونون في مساجد او مزارات باسم كل منهم جلها على وشك الاندثار قل من يعني بامرها منها مسجد الخضر في ظاهر البلدة جنوبي القلعة وفيه قبر المنصور ابراهيم بن الملك المجاهد شيركوه الايوبي كما قدمنا في حديثه .

وقد كانت حمص وما برحت مركزا لصناعة النسيج ، جاء في الدر المنتخب المنسوب لابن الشحنة عن ابن فضل الله : وحمص تتلو اسكندرية مصر فيما يعمل

فيها من القماش الفــــائق على اختلاف الانواع وحسن الاوضاع لو لا قلة مائه (كذا) وفحولة جسمه مع انه يبلغ الغاية في الثمن وان لم يلحق اسكندرية فأنها تفوق صنعاء اليمن اهـ . وجاء في دائرة المعارف للبستاني في مادة حمص ؛ انه كان فيها في غرة القرن الهجري الحاضر ٤٣٣٠ نولا منها الفانول للملس والفانول للديما و ١٥٠ نولا للزنار و ١٨٠ نولا للشراشف والاعبية وغيرها ، وبها ايضاً مائة دوارة للتسدية وسبعون دولابا للفتل وستون ملقيا ، وكانوا يحسبون لكل نول صانعا ومعاونا ولكل من دواليب الفتل ثلاثة صناع ومعـــاون وللآلات الالقاء صانعان ومعاونان ، والاجرة اليومية على الانوال من خمسة الى عشرة قروش وعلى باقي الآلات من عشرة الى ثلاثين غرشاً . وكانت حمص تصدر كميات كثيرة من الملس الى مصر والآلاجه والزنانير الحريرية والديما الغزل الى الاناضول ومصر وشراشف الحرير والقصب والغزل الى امهات مدن الشام والعبي الصوف والحرير والقصب الى الاناضول ومصر وحلب . . . الخ اهـ . قلت اما الان فقد انحطت صناعة النسيج الوطني وقل عدد انوالها للاسباب التي ذكرناها في بحث حماة ولم يبق من ذلك سوى ١٦٠٥ انوال ، منها تسعماية تشتغل بالصايات المصرية الشاهية المصنوعة من الحرير النباتي والغزل القطني ترسل الى الاناضول ومصر والحجاز وفلسطين ، وستماية تشتغل بالملس المصنوع من الحرير الطبيعي الذي يرسل الى مصر . لكن هذه الانوال كلها قد توقفت عن العمل اخيراً بسبب غلاء رسوم الملس وساء حال مرتزقيها ، ومئة تشتغل بالحطايط والكوفيات المصنوعة بالحرير الطبيعي مع القصب الفضي والذهبي وترسل الى مدن الشام وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ، وستاية تشتغل في نسج الشاهية الغزلية القطنية والشراشف والسجوف والمناشف وغيرها وترسل الى مدن الشام ، وخمسة تشتغل بفوط الحمامات من الحرير الطبيعي والقصب الفضي وترسل الى مدن الشام ايضا . وقد اسسوا في حمص اخيرا ثلاثة معامل افرنجية تشتغل بنسج الاقمشة الحريرية الشبيهة بما يرد من بلاد الغرب وذلك من الحرير الطبيعي

والنباتي تصدر منتوجها الى مدن الشام يديرها رجال حمصيون تعلموا هذه الصناعة في تلك البلاد ، ولعلهم يزيدونها اتقانا وينالون بها نجاحا يعوض ما فقدته حمص من انحطاط الانوال الوطنية .

وكما ان مدار اشغال حمص على الصناعة فدارها ايضا على الزراعة لا سيما على ماتنتجه ضواحيها وقراها من القمح والشعير والفول والحمص والذرة والعدس وهي كانت تبلغ سنويا على ما جاء في دائرة المعارف للبستاني المذكورة انفا ١٣٥٠٠٠ شنبل(١) تعادل نحو ثلاثة الاف طن جلها كان يرسل الى ميناء طرابلس ليصدر الى الخارج . اما الان فقد تضآلت هذه الكمية كثيراً منذ عشر سنوات بسبب توالي سني المحل والازمات التي نكبت الزراعة والزراعين وقصمت ظهورهم . وليس في بساتين حمص التي تروى من العاصي سوى البقول ، لان الرياح الغربية التي تهب بشدة في اكثر ايام السنة تحول دون نمو الاشجار المثمرة لذلك ظلت حمص عالة في امر الفاكهة على جاراتها كطرابلس وبعلبك ودمشق ، ولم يبق في ضاحيتها من الكروم التي ذكرها الادريسي الا النزر اليسير يكاد منتوجها لا يكفيها فتستجلب عوزها من سلمية .

ومنظر حمص الدميم الذي وصفه ابن جبير ونوه به رحالة الافرنج قد تبدل وتحسن منذ سنة ١٣٠٥ هـ وازدادت الدور والفنادق والمقاهي الحديثة الطراز في ضاحيتها الغربية ومابرحت في ازدياد، وعنيت بلديتها بتنظيم شوارعها وتوسيعها وانشاء الحدائق العامة ، وبعد ان هدمت الثكنة العسكرية القديمة سنة ١٣٥٠ زاد عدد المباني الانيقة في مكانها ، وشرعت البلدية في جلب ماء العاصي نقيا كما نورت حمص بالكهرباء الاتية من المعمل الذي ذكرناه في بحث الرستن ، حتى اصبحت حمص في يومنا في مقدمة مدن الشام الداخلية حسنا ورواء ، وهي الان قاعدة متصرفية الحق بها قضاء المركز وقضاء القريتين ويتبع الاول نواحي حمص وتارين الوعر وجب

---

(١) الشنبل الحمصي يزن ٢٢٠ والحلبي ١١٢ والطرابلسي ١٥٠ كيلو غراماً من القمح

الجراح وحسية والقصير والرستن وعين ظاط ويتبع الثاني ناحيتا القريتان وتدمر .

وعدد سكان حمص يقدر باثنين وستين الف ثلثاهم من المسلمين وجل الثلث الباقي من الروم الارثوذكس ويليهم السريان والكاثوليك والارمن والبروتستانت .
وقد كانت حمص قبل نصف قرن في مؤخر بقية انحاء الشام بالعلم ، لقلة عدد نبغائها في الشعر والفقه وان عدوا في عهدهم مبرزين . اما الان ففيها ثلاث مدارس تجهيزية الاولى اميرية والثانية للارثوذكس والثالثة للبروتستانت وعدة مدارس ابتدائية للبنين والبنات منها الاميري ومنها الخاص ، وصار لاهل حمص شغف بالدراسة وبينهم الان عدد غير يسير من حملة الشهادات المتوسطة والعالية في مختلف المسالك . وفيها كثير من الاطباء والصيادلة والمحامين والمطابع التي تصدر كتب مختلفة وجرائد ومجلات تظهر وتختفي حسب الاوقات، وصرافون وخياطون ونحاسون وصاغة وتجار السلع المختلفة ، ولاهلها براعة خاصة في صناعة النسيج كما قدمنا يرتزق منها جل الطبقة المتوسطة والدنيا كما ان جل الطبقة العليا اعني الاسر الكبيرة ترتزق من الزراعة ، ويقال عن هؤلاء في هذا الامر ما قيل عن امثالهم الحمويين في الجملة فهم انداد في التهافت على توسيع الملك في القرى دون العناية باتقان العمل واغاثة الفلاح . ولحمص في بلاد الشيلي من امريكا الجنوبية وفي غيرها مما يهاجر اليها الشاميون جاليات وفيرة العدد جلهم من نصاراها .

وهواء حمص جيد في الجملة ، ولقربها من البحر وبحيرة قدس وقمم لبنان الشمالي المكللة بالثلج ووقوعها في باب الوادي العريض الاتي من الساحل والفاصل بين جبال لبنان وجبال النصيرية تهب فيها الرياح الغربية الرطبة في اكثر ايام السنة ، فتجعل شتاءها قارسا ، اما صيفها فلطيف، ويمتاز الحمصيون بجودة الصحة ونقاء البشرة ويعرفون بدماثتهم وحسن معشرهم وائتلاف نحلهم وفقدان فروق العظامية والعصامية السائدة في حماة بين خاصتهم وعامتهم ، ولهم لهجة خاصة يغلب عليها جودة اللفظ .

وليس في حمص مبان قديمة متقنة من قبل الاسلام وبعده تستهوي افئدة السياح وارباب الولع بالاثار وتغويهم بزيارتها ، او انه كان فعفته طوارء الحدثان وجاءت بلدية حمص تجهز على مابقي منها كالصومعة التي ذكرنا ان بانيهاشميسغرام الثاني هدمتها قبل الحرب العامة وبنت مكانها مستودعا للبترول على يمين الطريق الذاهبة الى المحطة غربي البلدة ، وقد كانت تسمى قبرقيصر لانها تشبه الاضرحة وفيها لمحة من هندسة الحصون ، فقد كانت كالبرج العالي المربع علوهاخمسة عشر متراً مبنية بالاجر المرصوص المطلي بالملاط وكان فيها نقوش هندسية وحجارة ملونة وكتابة يونانية يؤخذ منها ان هذا البناء ضريح شميسغرام الثاني الذيتقدم ذكره ، وكانوا اكتشفوا سنة ١٣١٥ هـ كهفا في حي باب السباع في ملك رجل اسمه سليم زكور ، وهذا الكهف مدفن واسع ينزل اليه بدرج يفضي بالزائر الى سطح مربع على جانبيه يمينا وشمالا اربع غرف و كل غرفة مهيأة لعدة جثث وهذا المدفن محكم الصنع كله مبني بالاجر المضموم الى بعضه بملاط من الكلس ونفاية الآجر والحصى ، والحنايا مقوسة تتساند الى بعضها، وفي الجدار الداخلي مشاك اعدت لوضع الواح غايتها دعم الآجر لئلا يهبط ، وكان يعلو السطح المربع قبلا قبة وبقربه بئر وبقايا مساكن قديمة . ووجدوا في حي باب السباع ايضا سنة ١٣٤٠ في بيت النداف مكان كهذا تمكنت من النزول اليه بسلم خشبي كما ينزل الى البئر فوجدت كهفاً صغير المساحة مسقوفا بالاجر ومطليا بالكلس، وفي جدرانه منافذ لوضع الجثث فوقها رسوم صلبان وكتابات يونانيــــة باسم المدفونين . وقيل ان في حمص كثير من هذه الكهوف او الاسراب المجهولة او المعلومة ، وفي بعضها ابار ومياه ذكرها شيخ الربوة فيما نقلناه عنه وشرحناه. ويرى السائر في شوارع حمص ومنعطفاتها والنافذ الى افنية دورها بقايا اعمدة واساطين وتيجان اعمدة وعتبات كسرت واتخذت اقسامهافي الابنية الحاضرة. والكتابات اليونانية في حمص كثيرة منها وثنية ومنها نصرانية نشر بعضها الاثري وادينكتون والاب لامنس اليسوعي ورونه موتارد وغيرهم . واروني

في سنة ١٣٥١ في ظاهر حمص وغربيها في حي حديث يدعى القرابيص زقاقا رصفت ارضه بفسيفساء ذات تخطيط جميل تمتد في مسافات غير يسيرة ، وتكاد تندثر من الدوس وعيث المارة . ووجد احد اهالي هذا الحي منذ بضع سنوات تحت ارض احدى غرف داره كهفا يشبه ما ذكرناه استخرج منه على ما حدثني قطعا ذهبية رقيقة انتفع باثمانها . وكان حي القرابيص هذا لمضي ربع قرن ملآنا بالكروم ويذكر البعض انهم ادركوا فيه اسس جدران واحواض اذا صح حديثهم تدل هي والفسيفساء التي رأيتها على انه كان في هذا الحي في العصور السابقة لعهد الاسلام ديرا او قصرا فخما فرشت ارضه بالفسيفساء واتخذت كهوف مدافن لعلية القوم الذين كانوا يصحبونهم بالحلي الذهبية . ولا يبعد ان يوجد تحت ارض حمص التي مرت عليها حضارات زاهرة وادوار سعد باهرة آثار كهذه او أجل تنتظر من يكتشف مخابئها .

اما آثار العهد الاسلامي فقليلة وعادية ، ليس منها ما يستحق الذكر سوى ما بقي في القلعة وابواب السور وابراجه فضلا عما هدمته البلدية كمنارة بكجور حينما وسعت شارع ابي الهول واجهزت عليه طواري. الحدثان كزوايا واضرحة الصحابة والملوك الاسديين الايوبيين التي ذكرناها ، دون ان تجد من يكترث بامرها . وقيل ان خالد بن يزيد بن معاوية الاموي الذي يظن انه هو المدفون مكان خالد بن الوليد كان بنى في حمص قصرا فخما جدده في عهد العباسيين احد عمالهم في حمص الفضل بن قارن الطبري وتحصن به لما وثب به اهلها ، ذكر ياقوت هذا القصر في معجمه وقال : آثار هذا القصر في غربي الطريق باقية ، ولم يعين هذه الطريق لنستدل به على مكان القصر ، وذكر ايضا اسماء عدد من الاديرة والقرى حول حمص بعضها لا يعرف له الآن اثر كدير المغان الذي كان في خربة بني السمط تحت تلهم « وهو دير عظيم الشأن كبير القدر فيه رهبان كثيرة وترابه يختم عليه للعقارب ويهدى الى البلاد قاطبة (!) وتتنفس النصارى في موضع مقبرته » ، ودير ميماس في موضع نزه لا يزال مقصوداً

كان فيه شاهد على زعمهم من حواري السيد المسيح يشفي المرضى ، نقلوا اليه البطين الشاعر الحمصي في القرن الثالث للاستشفاء فمات فيه فجأة فشاع بين اهل حمص ان الشاهد قتله وقصدوا الدير ليهدموه الى ان ردعهم الحاكم فهجاهم احد الشعراء. وذكر ياقوت من القرى التي ضاع اسمها ورسمها الآن العرناس موضع بحمص ذكره ابن ابي حصينة فقال :

من لي برد شبيبة قضيتها   فيها وفي حمص وفي عرناسها

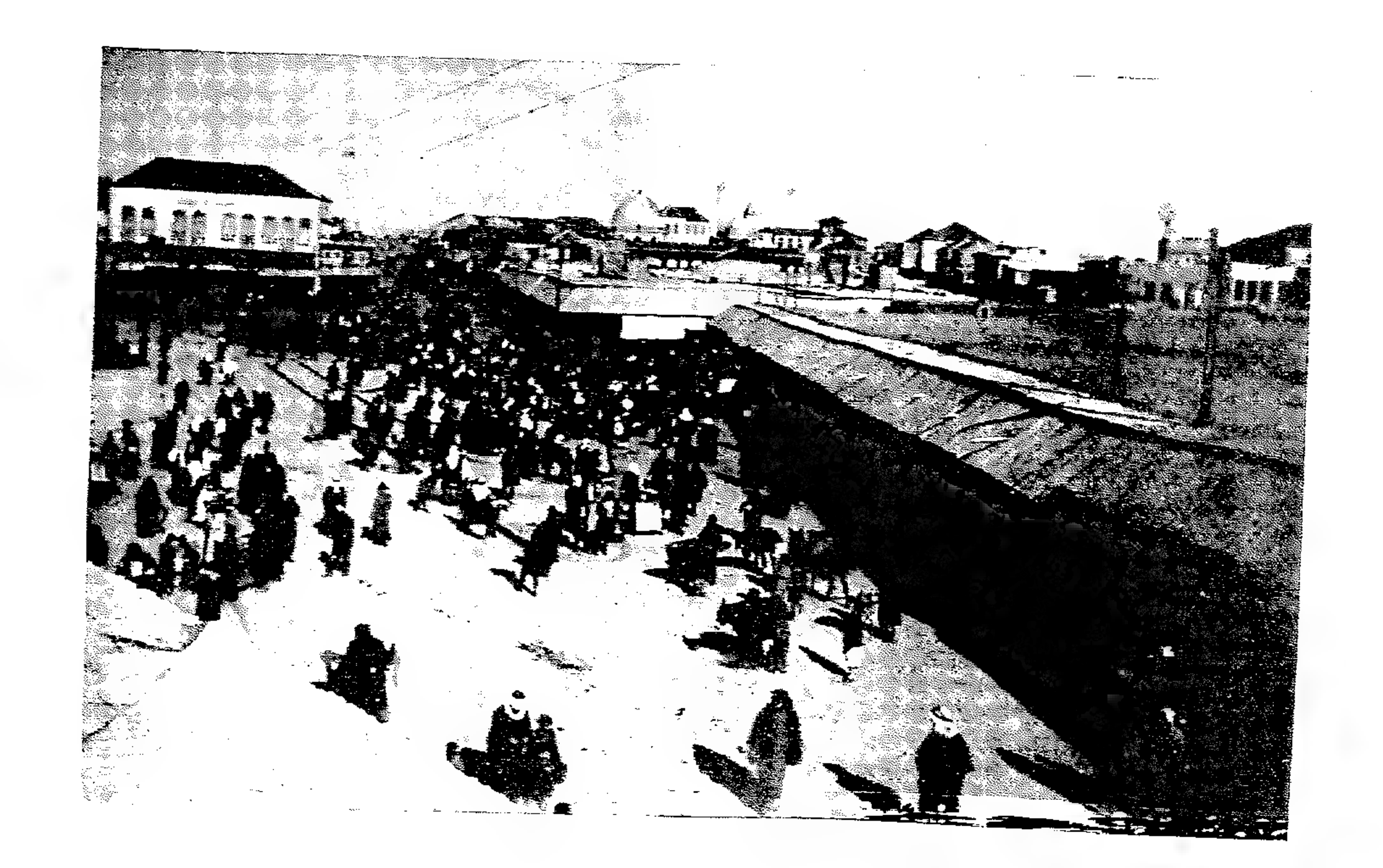
وكفر تكيس وكفر نغد يقال ان فيها قبر ابي امامة الباهلي ، واعرف قرية في شمالي حمص باسم هذا الصحابي لا باسم كفر نغد يقطنها شراكسة ، وبقطاطس قال لها ذكر في التاريخ ولم يعين موقعها ، وترمسان وجدر وهذه مر بنا ذكرها بين حمص وسلمية ، ودنوة ودومين وذكر شيخ الربوة اسم سماك قرب قرية الناعم جنوبي بحيرة قدس .

وذكر ياقوت فيما ذكره ايضاً غامية قال عنها : من قرى حمص ، قال القاضي عبد الصمد بن سعيد في تاريخ حمص ، دخل ابو هريرة حمص مجتازاً حتى صار الى غامية ونزل بها فلم يضيفوه فارتحل عنهم فقالوا يا ابا هريرة لم ارتحلت عنا قال لانكم لم تضيفوني ، فقالوا ما عرفناك فقال انما تضيفون من تعرفونه قالوا نعم فارتحل عنهم اه .

وابهج الفصول في حمص الربيع ، ففيه يحتفل مشائخ الطرق الصوفية في يوم خميس منه يسبق عيد الفصح عند الروم يدعونه « خميس المشايخ » فيركبون الاكاديش ويتظاهرون وهم عليها بالبله والاسترخاء واسالة اللعاب من الافواه ، ويتبعهم مريدوهم بالصناجق والمزاهر والصنوج يدقون ويرددون بعض الاناشيد والاذكار ، ويلحق بهم الالوف من المتفرجين الذين يفد معظمهم من المدن والقرى المجاورة . وكان هؤلاء المشايخ قبلا يأتون باسم الدين فيما يأتونه من حركات الخبال والسخف اكل النار والزجاج وضرب السفود والاتكاء على السيوف والدوس باكاديشهم على ظهور الرجال الممددين وغير ذلك مما ينكره

الدين ويمجه العقل السليم ، الى ان منعتهم الحكومة منذ بضع سنوات واقتصر الامر على العرض والمرور وزيارة ضريح احد الصلحاء في اليوم الاول واسمه بابا عمرو في قرية في غربي حمص تدعى باسمه ، وزيارة ضريح الصحابي خالد بن الوليدفي اليوم الثاني والثالث ، على انه يحصل في هذه الايام من اجتماع الالوف من الناس من مختلف الانحاء الشامية سوق عام وحركة بيع وشراء تنتفع بهما حمص اي انتفاع ، وهي بيت القصيد من هذا الخميس ، قيل ان هذا الاحتفال احدثه السلطان صلاح الدين الايوبي لغاية سياسية تجاه احتفال الصليبيين في عهده بعيد الفصح الذي يقع بعد خميس المشايخ ، واحدث مثله فيالقدس ويدعى هناك يوم النبي موسى واستمر العمل بهما الى يومنا هذا بعد ان تنوسيت الغاية وبدل المنهاج .

وقد ادركنا في خميس المشائخ هذا قبل ربع قرن او اقل من المشاهد الجالبة للنظر التي صارت تستحق التذكر والترحم ملابس تلك الالوف المتجمعة من مختلف انحاء الشـــام ، فقد كان لاهل كل صقع وبلد ، بل لكل اهل طبقة ونحلة وحرفة زي خاص لا يتعدونه في اشكال والوان الغنابيز والزنانير والسراويل والمعاطف والكوفيات والعقل والعمائم والاحذية ، منها الضيق او الفضفاض ، ومنها الرفيع اوالضخم ، ومنها القصير او الطويل ، ومنها الاحمر او الابيض او الاسود او الاخضر . . . الخ . وكان جل اقمشة هذه الازياء من صنع معامل البلاد اليدوية وموادها البدائية من نتاج ارضها . وقد كنت يومئذ تستطيع ان تميز الحلبي عن الحموي وهذا عن الحمصي وذاك عن الدمشقي ،وان تعرف الساحلي عن الداخلي حتى البيروتي عن الطرابلسي وهذا عن اللبناني وهلم جرا . . .لا سيما اذا نطقوا وطرقت الآذان لهجاتهم الخاصة . وكان التفرد في الازياء يظهر حتى بين سكان القريتين المتجاورتين بل بين المنتسبين لنحلتين متباينتين في القرية الواحدة والاختلاف في اللهجات يظهر بين سكان احياء المدن المتباعدة ايضا . اما الآن فقد زال هذا التفرد والاختلاف او كاد ، وتوحدت الازياء في المدن الشامية



شارع باب السوق في حمص

(جولة اثرية ' مقابل صفحة ٣٦٨)

بعد انتشار اللباس الافرنجي ، ولم يعد بالامكان تمييز الحلبي عن الحموي مثلا الا اذا تكلما ورنت لهجاتهما في الآذان . ولا تمييز سائق السيارة عن الموظف في الحكومة ولا الوضيع عن الرفيع ، حتى ان اختلاف اللهجات بين المدن قد خف عما قبـــل بين الخاصة بعد ان هان السفر بالسيارات وزاد الاختلاط وارتقت المعارف وتهذبت اللغة العامية في الجملة . وفي القرى قل اختلاف الازياء ايضا . وربما اذا دام الحال على هذا المنوال زال فيها كما زال في المدن ، ولو ان في ذلك مايثير شجى محبي الآثار القديمة وراغبي الاحتفاظ بالمشخصات والمصنوعات القومية .

وفي ضواحي حمص واعمالها أعراب ينتسبون لقبائل شتى ، اجلها قدراً قبيلة من بطون عنزة التي تقدم ذكرها تدعى (الحسنة) في مشيخة طراد الملحم ، تعد نحو ٤٠٠ بيت من اهل الابل والغنم ، افنادها الفقرا والجهيم والحجاج والابو عيذ ، وثمة قبائل منفردة تنضم الى الحسنة كالعمور والحروك والمساليخ والعليوي والعدوان . واعراب الحسنة اشتهروا ببسالتهم وانهم اقدم قبائل عنزة التي وفدت من نجد الى شمالي الشام واول من اصطدم منها في انحاء حمص بالموالي ، وكان بينهما ما ذكرناه في بحث سلمية . ومنازل الحسنة في قرى لهم قريبة من حمص في شرقيها كالشيخ حميد والبوير وبرزة ، وبعضهم يقيظ في سهول بعلبك . وفي اعمال حمص من بطون عنزة ايضا فخذ من السبعة يدعى المســـاربة في مشيخة صالح المسرب ، لهم ضيعة تلول القطا في ناحية جب الجراح ، وفيها ايضا من احلاف الموالي قسم من المشارفة الرعية في ضيعة ام التين شرقي حمص . وثمة قبيلة منفردة تدعى الفواعرة في مشيخة محمد الشبلي ، تعد ٤٠٠ بيت من اهل الابل والغنم ، من افنادها البهادلة والعلقاوين والحتاحتة والهنادرة والتويمان والهويدين والزيادنة ، منازلهم في السعن الاسود شمالي حمص وفي الوعر غربي حمص ، وثمة من قبيلة العقيدات التي تقدم ذكرها في بحث سلمية افناد الابو شعبان والابو سلامة والابو هرموش والابو عساف والابو بكر ، منازلهم حول الغنطو وغربي العاصي ، وهم في مشيخة اسعد الغاطي ، ومن قبيلة النعيم ايضا افنـــاد الطويلع

والمعاجير والشكيف والعتيق ، والحزوميين الذين يؤلفون فنداً مستقلا في النعيم ، منازلهم انحاء القصير وغربي العاصي ، ومن بني خالد ايضا افناد الرطوب والنجاجير والزريق ، منازلهم في ام حارتين وغيرها من ضياع املاك الدولة ، وثمة من افاريق سكان الخيام في لواء حمص التركمان السوادية في انحاء حسية ، والمشاهدة والصلبيين في زيتا البحرة .

طريق حمص — النبك (٨١ كيلو مترا)

يغادر حمص السائح الناهب الى النبك من باب هود في طريق عبدت احسن تعبيد لا تنفك يد العناية عنها فيجتاز كروم حمص واراضيها الجنوبية المعدة للزراعة وتدعى السوامات ، وقد كان فيها قلبا الجيشين المصري والعثماني حينما اقتتلا لما جاء ابراهيم باشا لفتح حمص سنة ١٢٤٨ . وفي هذه الكروم والارضين شيدت حديثا بعض مبان عسكرية ومباني شركة النفط العراقية ومدت فيها انابيب البترول المتجهة الى الشرق نحو تدمر والموصل . ثم يجتاز السائح سهولا شاسعة حمراء خصبة فيها عدة قرى كبابا عمرو وكفر عايا والنقيرة ومباركية وابل ودمينة الغربية على يمينه ، وفيروزة ومسكنة وتل الشيح ووهيب على يساره ، وقد ذكر ياقوت ابل فيما ذكره من اعمال حمص ، هذا وفيروزة ومثلها في شماليها زيدل قريتان كبيرتان اهلهما سريان قدماء منشاؤهم من صدد يتقنون العمل في الفلاحة ، نساؤهم على جانب من الجمال ، ثم يجتاز قرية مسكنة ويلمح في الغرب السكة الحديدية الذاهبة نحو رياق مارة بمحطات قطينة والقصير وما بعدهما . ثم يمر من وسط ارضين قرى شنشار في الك (١٥) وحسينية في الك (١٨) وشمسين في الك (٢٢) وعند مروره بشنشار يرى على يمينه طريقا حديثة تذهب نحو القصير في الجنوب الغربي (طولها ١٦ كيلومتراً) لتتصل بطريق حمص — بعلبك . وفي شمسين خان من بقايا عهد القوافل ، ذكره القلقشندي في صبح الاعشى (ج ١٤ ص ٣٨١) في جملة مراكز طريق دمشق وحلب .

وتنتهي السهول التي ذكرناها في الغرب عند بحيرة حمص او بحيرة قدس او قادش كما كانت تدعى . وقد نوه بها جغرافيو العرب ، قال ابو الفداء في تقويم البلدان : بحيرة قدس وهي بحيرة حمص طولها من الشمال الى الجنوب نحو ثلث مرحلة « تعادل ١٥ كيلومتراً وصحيحه ١٢ كما قدمنا » وسعتها طول السد وهي مصنوعة على نهر الارنط فانه قد صنع في طرف البحيرة الشمالي سد بالحجر من حجارة الاوائل وينسب الى الاسكندر وعلى وسط السد شرقاً وطولا الف وماتين وسبعة وثمانون ذراعاً وعرضاً ثمانية عشر ذراعاً وهو حابس الماء العظيم بحيث لو خرب السد سال الماء وعدمت البحيرة وصارت نهراً وهي في ارض مستوية وهي عن حمص بعض يوم في غربيها ويصـــاد بها السمك اهـ . وكرر القلقشندي في صبح الاعشى هذه العبارة وزاد عليها ، وعلى وسط السد برجان من حجر اسود اهـ . قلت ؛ وهذا السد العظيم مجهول اسم بانيه وتاريخ بنائه ، نسبه التلمود الى ديوكلتيانوس ونسبه استرابون الى فراعنة مصر ونسبه ابو الفداء الى الاسكندر . وكل هذه النسب مشكوك فيها ، وقال البعض انه من القرن الثاني للميلاد ، وهو مبني بالحجر الحري الاسود يبلغ طوله ٥٠٠ متر وارتفاعه ٥ - ٦ امتار على التقريب . وفيه البرجان المسميان باسم بلقيس . وهذا السد ما برح على كر الدهور واقفا وحابسا ماء هذه البحيرة الجسيمة ، رمم في العصور الغابرة مراراً كما يظهر من احجاره . وفي السنين الاخيرة اعتراه الوهن في بعض جهاته وصار محتاجا للترميم والرقع قبل اتساع الخرق ، وقيل ان عزيمة المفوضية الافرنسية العليا في الشام قد صحت على القيام بذلك ، وعلى تعلية السد قبل انتهاء سنتنا الحاضرة ، ولعلها منجزة ما وعدت . ويظهر ان القصد من هذا السد امران، الاول حبس ماء العاصي من الشتاء لينتظم مسيله في الصيف ويستطيع اسقاء بساتين حمص وحماة ، والثاني ليرتفع مستوى ماء البحيرة الى حد يستطيع به الاندفاع والسيلان في الساقية الذاهبة من النهر الى حمص لشرب اهلها وهذه الساقية محفورة في الارض

حفراً بسيطا ولم يبن لها بناء اوجدار ماء ، واكبر ظني انها حديثة العهد من عمل احد الملوك او الامراء المسلمين .

وطول البحيرة المنحرفة من الشرق الشمالي الى الغرب الجنوبي نحو ١٢ كيلومتراً وعرضها من الشمال الى الجنوب ٣ — ٤ كيلومترات وعمقها ٣ — ٨ امتار وعلو مستوى مائها عن البحر المتوسط ٥٠٠ متر ، ولقلة عمقها فان حرارة مائها تتأثر بحرارة الجو ، وفي شاطئها الجنوبي صخور كلسية واقفة كالجدران تعلو ٤ — ٥ امتار او اكثر تتخللها خلجان صغيرة منحطة ، وشاطئها الشمالي اوطاء في الجملة ، تمتد فيه صخور كورة الوعر الحرية السوداء التي ترتفع تدريجا نحو جبل الحلو احد اعضاد جبال النصيرية كما قدمنا . وبينما يغلب اللون الاحمر على الارضين المحيطة بشاطئها الشرقي والجنوبي تجد ماء هذه البحيرة مشرب بقليل من البياض اللبني الناشئ من تحات الصخور الكلسية في شاطئها الجنوبي . وتهب الرياح الغربية الآتية من المنفذ المنبسط بين حمص وطرابلس بشدة زائدة كانت تضطرني وانا واقف امعن النظر في البحيرة الى الاستمساك بالصخور خشية الاندفاع الى الوراء .

ولا بد في غالب الايام عقيب الظهيرة من هبوب هذه الرياح او العواصف الشديدة فتثور الامواج المتعالية الصاخبة بحيث يتعذر بل ويستحيل آنئذ ركوب الزوارق والاصطياد . ويكثر في هذه البحيرة السمك على اختلاف صنوفه وحجومه ، يرتزق منه اهل القرى المجاورة واخصها قطينة التي اشتهرت باصطياده وبيعه من اسواق حمص ودمشق وما اليهما . كما فيها ايضا السراطين والضفادع وغيرها من الحيوانات الصدفية والقشرية . والى جانب شاطئ بحيرة قدس الجنوبي جزيرة صغيرة تعلو سطح البحيرة تدعى تل التين، خيل لأحد المستشرقين الافرنسيين في سنة ١٣٢١ هـ انها مكان مدينة قادش الحثية (قبل ان يعرف تل النبي مند وتكتشف آثاره) فانفق مبالغ طائلة وحفر فيها كثيراً فلم يظفر الا بآثار قليلة ايقن بعدها بخطأه فعاد ادراجه ، وكانت هذه البحيرة في عهد

الصليبيين من ممتلكاتهم ، وهب ريموند الثاني كونت طرابلس حق الصيد فيها الى الفرسان الاسبتاريين لما سلمهم حصن الاكراد في سنة ١١٤٢ م .

ومن الضياع التي حول هذه البحيرة في الشرق تل الشور وقطينة واهلها نصارى وكام وكفر عبدة ، وفي الشمال من قرى الوعر زور بقرايا وزيتا البحرة ، وفي الغرب من قرى الوعر عامرية ووجه الحجر وجوبانية ، وفي غربي عامرية لفتايا فيها آثار بيزنطية لم تكتشف بعد ، وفي الجنوب دبين والناعم ومودان ، وبعض هذه الضياع قرب الشاطيء وبعضه يبعد عنه قليلا . وثمة على يسار العاصي قرية فوق تل يدعى (تل النبي مند) قامت مكان بلدة قادش التي كانت من اجل معاقل الحثيين المخصصة لحراسة تخومهم الجنوبية ، حدثت فيها بينهم وبين فراعنة مصر معارك كثيرة اهمها ما اتاه رعمسيس الثاني المعروف "باسم سيزوستريس ، فقد كسرهم واخضعهم ثم سالمهم وصاهر ملكهم على ما قدمناه . نقب الاثري الافرنسي موريس بيزار هذا التل في سنتي ١٣٤٠ - ١٣٤١ هـ فوجد فيه آثاراً مصرية عديدة من عهد هؤلاء الفراعنة وغيرهم منها اوان واداوت من العظم والعاج والزجاج الملون البديع النقوش من الفن المصري الفينيقي وقطع الشبه « البرنز » مثل اسلحة واسنة رماح وابر ودبابيس وحلقات واساور ومفاتيح وسرج وكؤوس واجران واشباهها فضلا عن الادوات الحديدية الكثيرة ، واجل تلك الآثار نصب من الحجر الحري الاسود نقل الى دار الاثار الوطنية بدمشق نقش عليه صور خمسة اشخاص ففي الجهة اليمنى رسم الفرعون سيتي الاول يتناول صولجان النصر من رب مصر آمون وبخلف آمون المعبود ست ، ويليه المعبود مانتو ثم خونسو ، ونقش عليه ايضا طابع الفرعون سيتي الاول الذي اقام هذا النصب في قادش تخليداً لذكرى انتصاره وانهزام موسيل ملك الحث واستيلائه على قادش سنة ١٣١٥ قبل المسيح . وفي قرية تل النبي منـــد جامع قديم فيه ضريح هذا النبي المجهول وينسب بناء الجامع الى الملك الظاهر .

وبين طريق السيارات الذي نذكره ونهر العاصي المتجه شمالا نحو البحيرة

التي وصفناها قرية كبيرة تدعى (القصير) لها محطة على خط حديد حمص ورياق تبعد عن حمص ٢٨ ك ، اهلها مسلمون ونصارى روم عددهم ثلاثة الاف . ذكرها ياقوت في معجمه فقال : ضيعة اول منزل لمن يريد حمص من دمشق اهـ . فيظهر انها كانت في عهد ياقوت صغيرة غير كافية لتكون قصبة هذه الكورة التي كانت في جوسية كما سيأتي . والقصير في عهدنا ذات ازقة مستقيمة ودور وافنية فسيحة متباعد بعضها عن بعض استولى عليها الثوار الشاميين في ثورة سنة ١٣٤٤ وقتلوا فيها مهندسين افرنسيين من عمال ادارة المساحة فنصبت هذه الادارة عند قبريهما في المحطة حجراً تذكاريا ، وفي القصير نهير من روافد العاصي يدعى الحاروث يروي اراضيها المنبسطة ، وقد جعلت قاعدة لناحية تحوي قرى وضياع كثيرة تمتد الى سفوح جبلي اكروم والهرمل من اعضاد لبنان الشمالي . نذكر من هذه القرى الزراعة تبعد عن القصير للجنوب نحو ٦ ك يراها المار في القطار وقد اشتهرت بالمعركة التي حدثت بين الجيش العثماني والمصري في ذي القعدة سنة ١٢٤٧ والتي حدثت بين الجيش الافرنسي والثوار الشاميين في سنة ١٣٤٤، وفي الزراعة ينابيع ومياه جارية تسقي اراضيها ، قيل ان بين هذه الينابيع كانت « ثلاث جنان ، القديمة Triparadisos التي اجتمع فيها كبار قواد الاسكندر بعد موته وأتمروا على تقسيم مملكته المترامية الاطراف بينهم ، وان بينها وبين القصير ايضا هيأ ابراهيم باشا المصري جيوشه واستعد للزحف على حمص وفتحها في سنة ١٢٤٨ . وفي غربي الزراعة من الاماكن الاثرية قرية ربلة كانت على ما يظهر ذات مكانة تاريخية وقصبة كورة لاثوديسيا التي حولها ، ويقال انها هي المشار اليها في سفر الملوك (٢٢ – ٢٥) واهلها الان روم كاثوليك .

وفي جنوبي الزراعة الى الشرق من الخط الحديدي اطلال بليدة قديمة تدعى جوسية الخراب تبعد عن الزراعة نحو سبعة ك قال ياقوت عنها : قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق بين جبل لبنان وسنير فيها عيون تسقي اكثر ضياعها سيحا وهي كورة من كور حمص اهـ . وتؤيد عبارة ياقوت البرج

وجدران القصور والدور المبنية من الاحجار الضخمة المنحوتة التي تشبه احجار الابنية الاثرية النصرانية المنتشرة في بلاد حلب الغربية وقد تقدم ذكرها (كالتي في جبل سمعان وجبل الاعلى وجبل باريشا وجبل الزاوية) من القرن الخامس والسادس الميلاديين ، وليس ثمة من الاحجار المنقوشة سوى عتبة فوق باب احد الاسوار المهدومة لا تزال في مكانها . وفي ضاحية جوسية دير ذكره ياقوت في معجمه واسماه دير باعنتل ليس له الان اثر . قال عنه : هو من جوسية على اقل من ميل « اي نحو كيلو متر ونصف » وفيه عجائب منها آزج ابواب فيها صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وهيكل مفروش بالمرمر لا تستقر عليه القدم وصورة مريم في حائط منتصبة كلما ملت الى ناحية كانت عينها اليك اه . وذكر مونمارشه في الدليل الازرق ان المسلمين قلبوا هذا الهيكل الى جامع خرب بعد حين في خراب جوسية كلها وعفيت اثاره ، وفي تاريخ ابي الفداء في حوادث سنة ٦٩٥ هـ : جاء الملك العادل كتبغا من دمشق الى جهة حمص وقدم جوسية وهي قرية على درب بعلبك من حمص وكانت خرابا فاشتراها وعمرها فوصل اليها ورآها ثم عاد الى دمشق اهـ . فيظهر من هذا ان جوسية كانت خرابا في القرن السابع ، لكن ابو الفداء لم يذكر مبدأ هذا الخراب وفاعله ، كما انه لم يذكر ممن اشتراها الملك العادل كتبغا ولا كيف عمرها ، ولم نعثر في تواريخ اخرى على ذكرها لنعرف الى متى دام هذا العمران ومتى حدث خرابها الاخير الذي من اجل دواعيه على ما رأيت غور العيون ونضوب المياه التي ذكرها ياقوت ، ومن هذه المياه القسم الذي كان يذهب الى حمص بقناة خاصة طولها يزيد على الاربعين كيلومتراً لشرب اهل حمص كما قدمناه في بحثها ، وقد اسكنت فيها الحكومة العثمانية في غرة القرن الهجري الحالي قسما من مهاجري الشركس حاولوا ان يعمروها ، لكنهم نكبوا بجدب ارضها وقلة امطارها وعجزهم عن اسالة عيونها القديمة فهجروها . وبعد ان كانت اطلال جوسية واحجار جدرانها الضخمة ماثلة لمضي بضع سنوات تطاولت اليها ايدي اهل ربلة فنقضوها وبنوا بها كنيستهم الحديثة وما برحوا يجهزون عليها

وقد تصبح بعد حين اثراً بعد عين . وثمة في شمالي جوسية الخراب ضيعة تدعى جوسية العمار كان فيها جامع قديم له مأذنة اثرية خربت من عهد قريب وبني باحجارها جسر على نهر الحاروث .

وعند جوسية الخراب الحد الفاصل في يومنا بين البلاد الشامية والبلاد اللبنانية ، وثمة في جنوبي هذا الحد كورة واسعة في منبسط منحصر بين سلسلتي لبنان الشرقي والغربي اهلها مسلمون شيعة قصبتها تدعى (الهرمل) قرية كبيرة تبعد عن حمص ٥٣ ك ، عدد سكانها ٤٥٠٠ كثيرة المياه والبساتين واشجار الجوز وغيرها ، وفيها اطلال اثرية تدل على مكانتها السالفة منها مذبح كان مخصصاً لجوبيتر البعلبكي نقل الى دار الاثار في بيروت . وفي شرقيها تل عليه بناء عال قديم يدعى قاموع الهرمل او قائم الهرمل يظهر ان تحته قبر وعلى حجارته صور منقوشة تمثل الصيد . وعلى بعد عشرة كيلو مترات عن الهرمل عين الزرقاء المنبع الاصلي لنهر العاصي ، وهي عين كبيرة تظللها اشجار دلب عظيمة تنبجس مياهها بشدة وتندفع لتأخذ في طريقها روافد كثيرة ترد من منحدرات لبنان الغربي والشرقي اخصها ما يرد من نبع اللبوة شمالي بعلبك . وعلى بعد نصف كيلومتر من عين الزرقاء المذكورة وعلى يمين المسيل المنحدر مغارة اصطناعية حفرت وسط صخرة عمودية واقفة كالجدار علوها نحو تسعون متراً ولها ثلاث طبقات وتعرف باسم مغارة الراهب او دير مار مارون نقر فيها في الصخر الاصم مذبح ودرج وحجر صغيرة ، ويزعمون ان مار مارون ابا الطائفة المارونية اعتزل واقام في هذا الدير ، وصحيحه ان المار المذكور اقام في ديره الذي مر ذكره في شمالي حماة . وفي جدران هذا الدير مرامي تدل على ان الدير اتخذ في بعض العصور الاسلامية ملجأ او حصنا . قال القلقشندي في صبح الاعشى عن نهر العاصي : نهر حماة ويسمى العاصي لان غالب الانهر تسقي الارض بغير دواليب ولا نواعير بل تركب البلاد بانفسها ، ونهر حماة لا يسقي الا بنواعير تنزع الماء منه ويسمى النهر المقلوب لجريه من الجنوب الى الشمال ، وغالب الانهر انما

نجري من الشمال الى الجنوب ، واسمه القديم نهر الأرنط ، واوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك في الشمال عنها على نحو مرحلة ونسمى الرأس ويمتد من الرأس شمالا حتى يصل الى مكان يسمى قائم الهرمل بين قرية جوسية والرأس ، ويمر في واد هناك وينبع من هناك اكثر ماء النهر من موضع يسمى مغارة الراهب ويمتد شمالا حتى يتجاوز (جوسية) ويمتد حتى يصب في بحيرة قدس غربي حمص ، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حمص الى الرستن ويمتد الى حماة ثم شيزر ثم الى بحيرة افامية ، ثم يخرج منها ويمر على دركوش ويمتد الى جسر الحديد وذلك جميعه شرقي جبل اللكام (كذا ، وصحيحه جبل لبنان وجبل النصيرية وجبل القصير) فاذا وصل الى جسر الحديد انقطع الجبل المذكور هناك ، ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوبا بغرب ويمر على سور انطاكية ويسير كذلك مغربا بجنوب حتى يصب في بحر الروم عند السويدية اه . وقد قدمنا ذكر هذه الاماكن في ابحاثها ، فانت ترى ان نبع العاصي الاصلي هو من اللبوة وان عين الزرقاء ترفده رفدا كما ترفد عين الفيجة نهر بردى ، وطول العاصي عند منبعه الى مصبه ٤٥٠ ك .

هذا والسائر بين شنشار وشمسين يلمح على يمينه في الافق الغربي على بعد ٤٥ ك ، فوق اعضاد جبال النصيرية قلعة الحصن او حصن الاكراد ، وهي ما برحت تثير الاعجاب برفعتها ومنعتها وضخامة ابراجها واسوارها التي لا تزال على جدتها الا قليلا كما تركها الفرسان الاسبتاريون لما استخلصها منهم الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٩ ، ولا يتسع برنامج كتابنا هذا لوصفها فنكتفي بذكرها .

عود الى طريق البلك .— وفي شرقي طريق شنشار وشمسين سهول مترامية الاطراف جرداء تدعى (النقعات) مرتفعة في الجملة عما حولها فيها عدة ضياع كالعاليات ودردغان والحربية والحمرات وشعيرات والوازعية وغيرها ، اهلها نصيرية واعراب ، وهي جيدة الهواء والتربة لولا انها قليلة المياه ، ضئيلة

الامطار ، كثيرة سني المحل . ويمتد في الشرق الجنوبي من بقعة النقعات سلسلة تلعات ورواب قفراء تدعى (حزم صدد) لانها آتية من انحاء قرية صدد . والحزم في اللغة الغليظ المرتفع من الارض . وكلما ابتعد السائح في طريقه عن شمسين يتضاءل احمرار لون الارض وعمق ترابها وخصبه فيتبدل اللون الى البياض والاصفرار والعمق الى الرقة والخصب الى الجدب والبهجة الى الوحشة. وتشاهد في غربي شمسين آكام سلسلة لبنان الشرقي واسمها عند العرب جبل سنير تتدرج من الشمال الى الجنوب لتحول بين سهل البقاع الذي تمر فيه سكة حديد حمص ورياق وبين سهول حسية .

وحسية ضيعة صغيرة على يسار الطريق الآخذة الى دمشق تبعد عن حمص نحو ٣٥ ك ، شيدت وسط سهول قلما يجود فيها الزرع لقلة امطارها ورقة ترابها واصفراره ، ولذا انصرفت عناية ملاكيها آل سويدان واخصهم عبد المجيد آغا نحو تربية الماشية حولها وفي الآكام التي في غربيها . واول العهد بتاريخ حسية هو في سنة ١١٠٠ هـ حينما امتلكها ابراهيم آغا سويدان جد بني سويدان الحاليين ، الذين تضاربت الاقوال في منشأهم . كان هذا الاغا وبعده ابنه سليمان ثم ابنه الثاني حسين ثم حفيد سليمان مسعود متسلمين في حمص حكموها على طراز ذلك العهد الاقطاعي خلال القرن المذكور كله كما قدمناه في تاريخ حمص . وبعد مسعود تولى بنو سويدان محافظة البادية وطريق حمص وتدمر وجبل قلمون حتى ابواب دمشق ، وظلوا في هذه الوظيفة حتى سنة ١٣١١ في ايام عبدو آغا سويدان ، ثم اقتصر امرهم على تولي مديرية الناحية فحسب الى ان بدلوا بغيرهم منذ عهد قريب . وناحية حسية تشمل عددا من القرى والضياع الممتدة الى الشرق والجنوب ومنها ضياع النقعات التي عددناها ، ثم الرقامة والمنزول والعزيزية والعباسية ومضابع والبلها . ولا يزال في حسية مخفر لجنود الدرك يؤمنون السابلة . وظل اسم الناحية لمضي ربع قرن « ايكي قبولي » لوجود بابين لخانها العظيم المندثر كانت تدخل القوافل من الشمالي منهما وتخرج من الجنوبي ثم هجر هذا الاسم . وفي هذه القرية

نبع ماء جار انشأوا بها في السنين الاخيرة بساتين ذات اشجار اذا دامت يرجى ان يروق بها منظر هذه القفار . وفي غربي حسية خربة تدعى الرميدة فيها ضريح ذو قبة لرجل مجهول يسمونه الشيخ عبد الله ، ولم يذكر جغرافيو العرب وسياحهم حسية في حين انها كانت وما برحت اول منزل من حمص او ثانيه بعد شمسين وليس في غيرها ماء كاف ، ذكر ياقوت في معجمه اسم الغسولة وقال انها منزل للقوافل فيه خان على يوم من حمص وقارا ، ومثله قال القلقشندي في صبح الاعشى عند ما عد المنازل بين دمشق وحلب . وقد كانت الغسولة في جنوبي حسية على بعد كيلو متر منها ولا تزال اطلالها ماثلة ، نقلت لقلة مائهـــا اولسبب آخر الى مكان حسية الحالية . وذكر ابن جبير في رحلته انه بعد مغادرة حمص نزل في قرية خربة تدعى المشعر ولا يعرف الان لهذه الخربة اثر ولا خبر . واول من ذكر حسية شمس الدين محمد الحلبي المعروف بابن اجا المتوفى سنة ٨٨١ مؤلف رحلة الامير يشبك الداوادار في سنة ٨٧٥ في عهد الملك الاشرف قايتباي، فقد ذكرها باسم منزلة حصيا (بالصاد) اما الخان والحصن اللذين تكلم عنهما سائحنا اوليا جلبي فهما من آثار سنان باشا على ما يظن ولعلهما خربا في زلزلة سنة ١١٧٣ ، وقد تبدلت الان معالمهما وانشأت بأنقاضهما دور للقرية لا سيا ولم يعد بهما حاجة بعد افول نجم حسية وملاكها منذ ما انشئت سكة حديد رياق — حمص سنة ١٣٢٤ هـ وتم تعبيد طريق السيارات سنة ١٣٤٧ واستتب الامن في الجملة .

ومن الاماكن التي تختفي في الفيافي والتلعات الممتدة من حسية الى تدمر وتستحق الذكر قرى صدد وحوارين ومهين وعين جباة وحمة ابو رباح وكلها من اعمال قضاء القريتين .فصدد قرية كبيرة تبعد عن حمص نحو ٥٤ وعن حسية ١٨ ك ، الى الجنوب الشرقي ، ذات عيون وبساتين احيط كل منها بجدار عال من اللبن مخافة عيث البادية . وكانت قديماً احدى المدن التي تنتهي عندها تخوم مملكة اسرائيل كما ورد في التوراة في سفر العدد وفي نبوة حزقيال ، وكان فيها

برج بيزنطي قديم عظيم كنا نراه من بعيد لكنه سقطمنذ بضع سنوات وقتل نفرا من اهلها كانوا حوله في غفلة . وا كثر اهل صدد من السريان القدماء لهم فيها بضع كنائس واقلهم من السريان الكاثوليك لهم كنيسة واحدة وجميعهم يرتزقون فوق عملهم الزراعي بنسج العبي ، وفي صدد قتل الامير الشاعر الشاب ابو فراس الحمداني سنة ٣٥٧ لما لحقه قرعويه نائب ابن اخته سعد الدولة بن سيف الدولة كما قدمنا في بحث حمص . جاء في تاريخ ابي الفداء (ج ٢ ص ١١٤) انه قيل في مقتله :

وعلمني الصد من بعده عن النوم مصرعه في (صدد)
فسقياً لها اذ حوت شخصه وبعداً لها حيث فيها ابتعد

والطريق من حمص الى صدد يمر بقرى فيروزة والجديدة والرقامة والمنزول، وكانت السيارات التي تسير من حمص الى النبك فدمشق في سني ١٣٤١ و١٣٤٢ وما بعدها تمر بهذه الطريق على بعدها ووحشتها الى ان تم تعبيد طريق حسية والبريج الى النبك فهجرت طريق صدد . وكانت هذه الطريق خططت وفرشت بالحصى وبنيت جسورها في سنة ١٢٩٦ وما بعدها ثم اهمل دحيها وتعبيدها ما يقرب من نصف قرن الى ان تم ذلك اخيرا .

وحوارين ، قرية قديمة اهلها مسلمون تبعد ١٥ ك ' عن صدد الى الشرق قال عنها ياقوت : حوارين حصن من ناحية حمص قال بعضهم :

يا ليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

مر خالد بن الوليد في مسيره من العراق الى الشام بتدمر والقريتين ثم اتى حوارين من سنير فاغار على مواشي اهلها فقاتلوه وقد جاءهم المدد من اهل بعلبك ثم اتى مرج راهط . وقال بعضهم :

انحن بحوارين في مشمخرة ببيت ضباب فوقها وثلوج

وكانت حوارين بليدة حصينة وآثارها عديدة حتى اليوم . منها قصرها العظيم الذي شيده الرومان ثم اتخذه يزيد بن معاوية ، يقضي فيه اكثر ايامه

ويذهب منه الى الصيد في جبة عسال في اعالي جبل سنير ، حتى انه لما مات ابوه معاوية كان غائباً في حوارين فكتبوا اليه فحضر بعد دفن ابيه ثم مات هو فيها سنة ٦٤ ، وفي حوارين آثار سبع كنائس قديمة لا تزال واحدة منها ماثلة بجدرانها وحنيتها وبعض عمدها مع نقوش لطيفة ، وثمة كنيسة اخرى يسميها اهل القرية كنيسة جمارا ربما كانت هيكلا وثنيا في عهد الرومان ثم حولوها الى كنيسة لما تنصروا ، فيها حجارة واعمدة ضخمة تشبه ما في بعلبك . وفي حوارين عين جارية وبساتين مسورة كما في صدد .

ومهين قرية في جنوبي حوارين وقريبة منها بنحو ثلاثة ك اهلها مسلمون وهي قديمة ايضا في اعلاها بناء اثري كبير مبني على الصخر يدعونه سجن حوارين تدل هندسته على انه لم يكن سجنا بل معبدا وثنيا اتخذ كنيسة في عهد البيزنطيين ولا يزال فيه عدد من الاعمدة والافاريز المنقوشة وحجارته ضخمة عادية وطول جداره ١٢ مترا وعرضه عشرة امتار وقد الحق به بناء لتحصينه ذو ابراج مربعة لكنه احدث من المعبد صنعا ،وفي مهين ايضا عين وبساتين قليلة.

والغنثر ضيعة في شرقي حسية تبعد عنها نحو ٣٨ ك يؤتى اليها من حمص عن طريق تدمر التي فيها قرى زيدل وسكرة وابو دالي وعيفير والجربوعية والبسة والفرقلس حيث ينتهي العمران . والذاهب الى الغنثر ينحرف الى الجنوب في بيداء شاسعة فيجتاز ٢٩ ك. والغنثر ضيعة من املاك اسرة آل سويدان تعلو عن البحر ٧٦٦ متراً فيها عين وزروع قليلة ، بينها وبين حسية تمتد آثار قناة تدمر العظيمة الاتية من الغرب وعلى ما يظهر من انحاء القصير اوجوسية ، وقد جرت في القرن الرابع حول الغنثر معارك بين سيف الدولة بن حمدان وقبائل البادية الذين تقدم ذكر اسمائهم في بحث سلمية ، بعد ان اوقع بهم سيف الدولة في سلمية والفرقلس ثم لحق بهم الى الغنثر والجباة وبدد شملهم وردم آبارهم ثم اتجه نحو تدمر وارك والسخنة والطيبة والكوم والرصافة ومنها عاد الى حلب . وقد ذكر

ياقوت في معجمه الغنثر : واورد بيتاً للمتنبي من قصيدة يهنيء فيها سيف الدولة على انتصاره على القبائل :

غطا بالغنثر البيداء حتى تحيرت المتالي والعشار

وذكرها الامير ابو فراس في قصيدة يفخر بافعاله في تلك المعارك التي خاض يومئذ غمارها :

سقينا بالرماح بني قشير ببطن الغنثر السم المذابا

وفي شرقي الغنثر مزرعة فيها عين ماء تدعى الجباة ذكرها المتنبي ايضا :

ومروا بالجباة يضم فيها كلا الجيشين من نقع ازار

وفي شمالي الغنثر على نحو ثلاثة لك سلسلة اكام في الاخيرة القبلية منها حمة ، هي فوهة صغيرة يخرج منها بخار مائي حار كالذي يخرج من البراكين التي على وشك الانطفاء تدعى حمة ابو رباح اوحمام ابو رباح يقصدها اصحاب الامراض العصبية والمصابون بتيبس الاعضاء والتشنج . وقد عرف الاقدمون منافع هذه الحمة فبنوا فوق الفوهة غرفة مسقوفة يدخل اليها المستحمون . وبنوا ايضا الى جانب تلك الغرفة بناء كبيرا معقود السقف جعلوه خزانا لماء المطر الذي يأتي من المجاري المحفورة والمبلطة في الاكام المجاورة . يدخل المستحمون الى غرفة الحمة فلا يكادون يلبثون بضع دقائق حتى يتصببون بالعرق فيخرجون ويغتسلون بالماء الذي كانوا يتناولونه من ذلك الخزان ، اما الان فقد هدم هذا الخزان او كاد ونضب ماؤه وصار المستحمون المقتدرون يحملون الماء من الغنثر ، ويغلب على الظن ان بناة هذا الحمام هم التدمريون دون غيرهم لقرب هذا المكان منهم في الجملة (١٠٠ لك) ولبلوغهم الغاية من الحضارة والعمران في تلك الاعصر . وثمة غير الفوهة التي بني عليها الحمام — فوهتان بعيدتان قليلا احداهما يتداوى بها الصم اذ يضعون آذانهم عليها ، والثانية يؤمها العقيمات من النساء لدفع الاسباب المانعة من حبلهن يقعدن القرفصاء عليها . ولعل النفع الذي قد يحصل من هاتين الفوهتين ناشيء عن ان البخار اذا ما دخل الأذن او الرحم يطهر مافيه من الاوساخ اذا كان ثمة

شيء من ذلك . هذا ولم يذكر حمة ابي رباح من جغرافيي العرب الا شيخ الربوة لكنه غلا وبدل في الوصف اذ قال : وبين حمص وسلمية (كذا وهو خطأ) كهف (وهذا خطأ ايضا اذ ليس هناك كهف بل غرفة مبنية) في جبل يخرج منه بخار اشد من الضباب المتراكم فاذا دخل الانسان ذلك الكهف خيل اليه انه في الحمام لشدة الوهج وكثرة قطر الماء من البخار الصاعد من البئر (وصحيحه من الفوهة) الذي في وسط الكهف ويسمع غليان الماء بقعر الماء ولا يمكن النظر فيه لشدة البخار الصاعد من البئر الذي في وسط الكهف ومن نظر فيه تشيط من الحرارة (كذا) اهـ .

اما القريتان ، فهي في وسط سهول فسيحة قفراء في غربها الجبل الآتي من النبك الى مهين ، وشرقها سلسلة الجبال الممتدة من جنوبي الناصرية الى غربي تدمر . يؤتى اليها من دمشق عن طريق القطيفة وجيرود (١٣٠ ك) ومن حمص عن طريق صدد ومهين (٦٩ ك) ومن تدمر عن طريق عين البيضاء وقصر الحير (١٠٧ ك) ، وفي طريقها من مهين او من جيرود برار وتلعات بيضاء صلعاء لا ترى فيها الا جمال البدو ومضاربهم واسراب الغزلان ومصائدهم والشمس المتوهجة والسراب المتلألئ . اما هي فقرية كبيرة طيبة المياه ، كثيرة القنوات والبساتين والكروم فيها التفاح الجيد والعنب الفاخر لا تختلف بطراز بنائها وسحن اهلها وازيائهم واطوارهم عما في بقية قرى جبل قلمون ، وقدجعلت منذ بضع سنوات مركز قضاء تتبع لواء حمص ، من اعمالها قرى حوارين وحفر وصدد والرحيبة والغنثر ومهين وحدث وابو فرج وناحية تدمر التي فيها تدمر وارك والسخنةوالطيبة والكوم ، ثم الغي هذا القضاء في سنة ١٣٥٢ . وبقيت القريتان ، مركز ناحية ، وعلى بعض مسافة منها حمامات معدنية طبيعية تصلح للنقرس واوجاع المفاصل منها عين كبريتية غزيرة يستحم بها المصابون بامراض جلدية . والقريتان بليدة قديمة يظن انها المذكورة في التوراة باسم حصر عينان والمعينة كاحد تخوم بني اسرائيل الشمالية ، وكانت تدعى في عهد الرومان باسم

« نزالة » ، وقد حصنوها لوقوعهـــا في طريق تدمر ثم عرفت باسم « قرادي » ، وكانت منقسمة الى قسمين لذلك دعاها العرب بالقريتين ، واليوم لم يبق من القسم الجنوبي الا بعض الآثار . قال ياقوت : والقريتان قرية كبيرة من اعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة وارك واهلها كلهم نصارى اهـ . وعدد سكانها في يومنا ٢٥٠٠ ثلثاهم من المسلمين والبقية سريان قدماء وكاثوليك . والى الشمال الغربي منها دير قديم باسم ماراليان يزوره المرضى والمجانين للاستشفاء فيه ناووس رخام عليه نقوش وكتابات سريانية ، وعلى باب كنيسته كتابة عربية تاريخها ٨٧٨ هـ فيها امر بمنع البدو من التطاول على اهل الدير .

عود الى طريق النبك . — وبعد حسية بثمانية ك ، على يمين الطريق برج قديم صغير مربع الشكل له باب واطيء يدعى برج الاحمر قيل انه من آثار الملك الظاهر بيبرس اتخذه مخفراً لتأمين السابلة في هذه الروابي والبقـاع القفراء التي كانت وما برحت مكمن اللصوص ومربط قطاع الطرق ، فاذا اجتزت الروابي التي بعده تجد سهلا افيح فيه ضيعة تبعد عن حسية ١٦ ك ، تدعى « البريج » هي ملك عبد المجيد آغا سويدان ، عدد اهلها ٣٠٠ فيها جامع وخان خراب يظن انهما من آثار نور الدين الشهيد خربا في زلزال سنة ١١٧٣ امامهما سبيل ماء جار عليه كتابة قديمة تاريخها ٧٠٠ واخرى حديثة باسم مجدد السبيل حسن افندي الدفتري سنة ١٣١٦ . قال ابن فضل الله العمرى في التعريف عند ذكره المراكز الموصلة من دمشق الى حمص وحماة وحلب ، ثم من قارا الى بريج العطش ويقال فيه البريج ايضا ، وقد كان مقطع طريق وموضع خوف فبنى فيه قاضي القضاة نجم الدين ابو العباس احمد بن صصرى رحمه الله مسجداً وبركة واجرى الماء الى البركة من ملك كان له هناك وقفه على هذا السبيل فبدل الخوف امنـــا والوحشة انساً اثابه الله على ذلك (١) (صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٨٤) .

---

(١) عن كتاب شذرات الذهب في اخبار من ذهب (ج ٦ ص ٥٩) :

قلت لعل الـكتابة القديمة التي تعذر علينا قراءتها والمؤرخة بسنة ٧٠٠ تحوي اسم هذا القاضي المحسن . والسهول والتلاع الممتدة بين حسية والبريج وما حولها في الشرق والجنوب لا تختلف عن المهامه القفراء حيث لاظل ولا شجر ولا عشب ولا ثمر ، ينقبض الصدر من جفاف مشاهدها وبياض تربتها ووهج شمسها وخداع سرابها في الصيف وشدة بردها في الشتاء والخوف من قطاع طريقها في كل الفصول .

والآكام الغربية من جبل سنير التي تبتدي كما قلنا من قرب شمسين وتتدرج بالعلو كلما سارت نحو الجنوب ، هي جرداء الا قليلا من اشجـار البطم وغيره يستفيد مما حول حسية والبريج منها صاحبها عبد المجيد آغا سويدان من اجور مراعي قطعان الماعز التي تغشاها في الشتـاء والربيع بكثرة ومن المحاصيل التي يزرعها له في اوديتها بالقسم بعض فلاحي جبل قلمون . ولا يزال علو هـذه الآكام يزداد الى ان يبلغ معظمه في قمة تدعى حليمة قارة (٢٤٥٥ متراً) التي يشاهدها القادمون من حماة الى حمص كما قدمناه في حينه ولا يزالون يشاهدونها حتى يجتازوا قارة التي سيأتي ذكرها . وفي البريج تنتهي حدود لواء حمص وسباسبه الجنوبية ويبدأ قضاء النبك الذي تحده من الغرب جبال شامخة هي الاصل في جبل سنير، ومن الشرق جبل اجرد وسط في علوه يدعى (الجبل الشرقي) يمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ويضمحل قرب مهين وحوارين .

وفي سنة ٧٢٣ توفى قاضي القضاة نجم الدين ابو العباس احمد بن عماد الدين محمد ...... بن صصرى التغلبي الدمشقي ... استمر على القضاء الى ان مات ، وكان حسن الاخلاق مليح المحاضرة ، متواضعاً ، له مشـاركة في فنون شتى وعنده حظ من الادب والنظم ، ومن نظمه :

ومهفهف بالوصل جاد تكرما ⁂ فاعاد ليل الهجر صبحاً ابلجا
ما زلت الثم ماحواه ثغره ⁂ حتى اعدت الورد فيه بنفسجا

جبل سنير « قلمون » — . سنير هي الكلمة التي وردت في التوراة ، استعملها شعراء العرب وجغرافيوهم قال عبد الله الخفاجي :

اسيم ركابي في بلاد غريبة   من العيس لم يبرح بهن بعير
فقد جهلت حتى اراد خبيرها   بوادي القطين (؟) ان يلوح (سنير)
وكم طلبت ماء الاحص بآمد   وذلك ظلم للرجال كبير

قلت الاحص جبل ذو نجد متسع عامر في جنوبي حلب قدمناذكره في الصفحة ٢١٢ ، وآمد مدينة ديار بكر الحالية . وقال البحتري :

وتعمدت ان تظل ركابي   بين لبنان طلعا والسنير .
مشرفات على دمشق وقد اعـ   ـرض منها بياض تلك القصور

وكان هذا الجبل قبل الفتح الاسلامي مأهولا باحفاد الاراميين سكان الشام الاقدمين ، بينهم فئة من الروم الذين تركوا في بعض قراه آثاراً جمة كما سنذكره . ولما استقرت اقدام المسلمين في الشام سكن فيه من قبائل العرب بنو ضبة وبعض بني كلب الذين منهم ميسون بنت بحدل ام يزيد بن معاوية ، وهذا هو السبب في تفضيل يزيد الاقامة واللهو في حوارين والصيد في اعالي سنير ليكون بين اخواله . وكانوا يعدون سنير كورة من كور دمشق ، على انه في سنة ٣٧٠ امتدت اليه ايدي بكجور حاكم حمص الذي مر ذكره في تاريخها . قال ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤ ، كانت العرب قد طمعت في عمـــل دمشق وافسدت الغوطة وكان بها القائد ابو محمود واليها في ضعف ، وكان بكجور حاكم حمص قد ضمن اعمال المغاربة قارا ويبرود والتينة وصيدنايا والمعرة وتلفيتا وغيرها من ضياع جبل سنير لحماها من العرب والحرامية وحسنت حال دمشق بذلك اهـ . وقسم جبل سنير الذي يمتد غربي قضائي النبك والقطيفة الآتي ذكرهما يسمى في عرف هذه الديار قلمون ، ويعتبرون حدود جبل قلمون من الشمال الى الجنوب من البريج الى الدريج ، فالبريج تقدم ذكرها ، واما الدريج فهي قرية في الشمال

الغربي من دمشق تقع شرقي عين الفيجة ووادي بردى ، وحدوده من الغرب الى الشرق من المرتفعات المطلة على بعلبك الى بادية الشام . والقسم الممتد بعد الدريج او بالحري بعد وادي بردى وفيه قضائي الزبداني وقطنا ، يعد من جبل الشيخ او جبل الثلج في اصطلاح جغرافي العرب .

وليس في العربية اسم جامع لافراد هذه السلسلة كما في اصطلاح الافرنج التي يسمونها Anti-Liban ، ومعناه لبنان المنـــاوح ، ويسميه البعض سلسلة لبنان الشرقي تمييزاً عن سلسلة لبنان الغربي التي تناوحها وتجاورها ، ولا يفصل بينهما سوى سهل البقاع وفي شماليه وادي العاصي وجنوبيه وادي الليطاني . وبين هاتين السلسلتين مشابهة ومباينة واضحتين ، فهما يتشابهان بالعمر الجيولوجي والشكل وتأليف الطبقات وطبيعة الارض والصخور واتجاه مركزيهما، ويتباينان بالعلو الذي هو اكثر في الغربي منه في الشرقي وبأن اعالي لبنان الشرقي منفسحة اكثر منها في الغربي، الا انارض الغربي ولا سيما من جهة البحر اكثر خصباً وابهج منظراً واوفر عمرانا وسكانا وحراج الارز والشوح والشربين والصنوبر المثمر وكروم التوت والزيتون والعنب تزين قممه ومنحدراته وسفوحه . اما لبنان الشرقي فضئيل العمران والسكان الا في القرى القليلة التي سوف نعدها ، ويغلب عليه الجدب والتجرد في معظم قممه ومنحدراته فتراها عارية من النباتات واشجار الحراج وانجمها، ما خلا اثر ضئيل من بقايا حراج البلوط والملول واللزاب وبعض الاشجار المثمرة البرية كاللوز والاجاص والزعرور وغيرها . وليس فيه ما يبهج النظر على قلة إلا (وادي الحرير) الذي في طرفيه حراج قليلة و (وادى نهر بردى) ذي الغياض والرياض و (سهل الزبداني) الذي تكثر فيه بساتين التفاح والسفرجل . وهو قليل المياه في منحدريه الشمالي والغربي كثيرها في منحدريه الشرقي والجنوبي اللذين ينبع فيهما نهر بردى وعين الفيجة ، والعيون التي سنذكرها في بحث قرى قلمون والعيون والمسائل العديدة التي تؤلف نهري الاعوج والاردن . وتختلف السلسلتان ايضا في اتجاههما وانبساطهما فان

لبنان الغربي منخفض في الجنوب انخفاضا ينتهي عند جبل عامل وسواحل البحر المتوسط ، ولا يبلغ معظم علوه الا في الشمال عند قرنة السوداء « ٣٠٨٨متراً » واما الجبل الشرقي فانه لايبلغ معظم علوه الا في الطرف الجنوبي عنـــد جبل الشيخ « ٢٨٧٦ متراً » ، ثم يأخذ بالانحناء نحو الغرب والجنوب حتى يضمحل شمالي سهل الجولان وشرقي جبل قلمون .

وقد جعلت الطبيعة جبل قلمون قسمين : الاعلى والاسفل، ونحت الحكومات هذا المنحى فجعلت في الاعلى قضاء النبك وفي الاسفل قضاء القطيفة . وفي الاول من القرى ١٦ وفي الثاني ١٧ عدا عن ١٣ تابعة قضاء دوما ، واثنتين تابعتين قضاء بعلبك وهما عرسال والطفيل ، وواحدة تابعة حمص وهي البريج ، فيكون مجموع قرى هذا الجبل ٤٩ ، ومجموع سكانه سبعون الف نسمة منهم سبعة آلاف نصارى على اختلاف نحلهم ، والبقية مسلمون سنية . والصخور في قلمون الاعلى والاسفل كلسية التركيب ، وتربته بيضـــاء قليلة الخصب الا فيما يروى منها من العيون والقنوات ، وهي أقل من الحاجة بكثير . وقد تجرد هذا الجبل عن حراجه القديمة التي فتكت بها فؤوس الحطابين وقطعان الماعز في السنين الخوالي حتى لم يبق منها الا اثر ضئيل ورسم محيل في القمم الشامخة والمنحدرات الصعبة ، لذلك صار خاليا من النضرة والبهجة ، فقيراً بامطاره « تتراوح كميتها في السنة بين ٨٠ و ١٣٠ ميليمتراً » ضعيفا بريه ، شديدا ببرده « قد تهبط الحرارة في الشتاء الى — ١٦ تحت الصفر » . على ان اوديته اخصب من آكامه وتلعاته ، وهواء قلمون الاعلى ابرد واجود ومياهه اعذب من مياه الاسفل وانقى ، والصحة ومتانة العضلات وعرض الهامات في رجاله ، يضاف الى ذلك تورد الوجنتين واسوداد الحدقتين مع سمرة مستملحة في نسائه ، امور قد اشتهر بها وبرزت بعض قراه كقارة ويبرود بوفرتها . واجل غلات الاعلى في الارض المسقوية البطاطا والثوم ثم الحبوب والفول الخريفي والعنب ، وفي الارض العذية الحبوب التي قلمـــا تجود لتوالي سني المحل فيه ، وورق السماق المستعمل في دبغ الجلود

والشنان الذي كان يستعمل كثيراً في استخراج القلي المرغوب في صناعة الصابون وقد انحطت مكانته الآن . وغلات الاسفل العنب والتين والحبوب وهذه ايضا قلما تجود الا اذا زرعت سقيا . وكل هذه الغلال ليست بذات بركة تجعل اهل قلمون في رغد يغنيهم عن الهبوط الى دمشق وغيرها من المدن للعمل في البناء او الهجرة الى اميركا وغيرها . وقد كانت كثرتهم لمضي بضع سنوات ترتزق مما يرد من انسبائهم الراحلين الى بلاد المهجر او من تربية المواشي التي تصيف في صروده وتشتي في سهوله الشرقية ، وكان اصحابها فيما مضى قلما يأمنون عليها من غارات اشقياء الصفا وجبل الدروز المجاورين لهم من جهة الجنوب على مسيرة يومين ، ثم انقطع مورد المهجر بعد ان منعت حكوماته خروج النقد من بلادها وقل مورد المواشي لوفرة ما انتابهـــا من الامراض والبرد وقلة المرعى لاسيما النهب الذي اعتراها خلال ثورة الشام الكبرى في سني ١٣٤٤ — ١٣٤٥ هـ ، فساء حال اهل هذا الجبل كثيراً .

وعمران قلمون متشابه في الجملة ، لكن هيئات اهله ولهجاتهم مختلفة يكاد يكون لكل قرية لهجة وسحنة تتميز بهما ،مما يدل على اختلاف اصولهم ، رغم ان اسماء بعض قراهم متشابهة في اللفظ كيبرود وجيرود ومعرة ومعرونة وعسال وعرسال وجبة وجب عدين وفليطا وتلفيتا . وكل مسلميه عرب الا قليل من التركمان في قلدون ، وجل نصاراه روم كاثوليك ، ويليهم الروم الارثوذكس والسريان الكاثوليك والسريان القدماء . وليس في قلمون كله آثار تاريخية جليلة سوى بعض الكنائس والاديرة التي منها ما هو خراب ومنها ما هو عامر ، وقد مر الكلام عن بعضها في بحث مهين وحوارين وسيـــأتي عن غيرها في بحث القرى القادمة ، وثمة خانات قديمة من العهد الاسلامي سنأتي على ذكرها ايضا .

هذا وطريق القوافل القديمة بعد ان كانت تمر من عين العلق فقارة فالنبك ، حرفوه في السنين الاخيرة لما عبدوه واخـــذوه نحو الشرق الى قرية دير عطية فالنبك . وعين العلق بركة ماء كبيرة عليها غيضة من اشجار الحور تظهر عن بعد

كالواحة في الصحراء . اما قارة ؛ فقرية كبيرة تعلو عن سطح البحر ١٣٦٠ متراً . ذكر في رسالة « اللمعات البرقية في النكت التاريخية » لشمس الدين محمد ابن طولون المتوفى عام ٩٥٣ ص ٤٣ « قارا انما اهلها فريقان مسلمون ونصارى وبها جامع للسلمين ولها قاض وفيها خان مسبل وحمام عتيق وآخر جديد بنـــاه نائب السلطنة تنكيز انفق في عمارته ثلاثين الف درهم ومن المنسوبين اليها الشرف سالم الرقي ثم القاري واسماعيل بن ابي القاسم القـاري اهـ . وقال ياقوت : قارة قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الاول من حمص للقاصد الى دمشق وله كانت آخر حدود حمص وما عداها من اعمال دمشق. واهلها كلهم نصـارى وبها عيون جارية يزرعون عليها . وقال ابن جبير الاندلسي الذي مر بقارة في سنة ٥٨٠ : ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف بالقارة ليس فيها من المسلمين احد وبها خان كبير كانه الحصن المشيد في وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرب له تحت الارض من عين على البعد فهو لا يزال ملآن اهـ . وذكر ابو الفضل في تاريخ المماليك الذي دعاه النهج السديد حكاية عن قارة خلاصتها ، ان اهل قارة كانوا نصارى يسرقون المارين والعابرين من المسلمين ويبيعوهم كالاسارى من الفرنج في حصن الاكراد وغيره ، ولما مر الملك الظاهر بيبرس بقـــارة سنة ٦٦٤ وهو ذاهب من دمشق الى حمص لملاقاة جيوشه الراجعة من غزو بلاد الارمن سمع باعمال اهلها فأمر بنهبها وقتل كبارها فنهبوا وقتلوا واسكن في اماكنهم جماعة من التركمان وغيرهم وجعل كنيستها جامعاً واخذت صبيان المقتولين مماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية فصار منهم اجناد وامراء اهـ. قلت قارة قديمة العهد كان الروم يدعونها كوارا وكارا وكان لها على ما قيل كرسي اسقفي منذ القرن الرابع ، وبقيت دهراً طويلا احد المراكز لطائفة الروم الملكيين واكثر نصاراها منهم ويليهم الروم الارثوذكس . وعدد اهل قارة الآن ٢٨٠٠ اكثرهم من المسلمين بينهم نفر من اسرة سويدان الذين تقدم ذكرهم في بحث حسية والبقية من النصارى الذين ذكرناهم . وفي قارة بعض الآثار في ظاهرها

للغرب دير قديم للروم الملكيين يعرف بدير مار يعقوب وفي داخلها جامع قديم يظن انه الكنيسة التي جعلها الملك الظاهر جامعاً ، وفي كنيسة القديس نيقولاوس كتابات عربية من القرن التاسع الهجري ، وثمة خانان قديمان احدهما من آثار نور الدين محمود لا يزال عامراً وهو الذي نوه به ابن جبير والثاني من آثار سنان باشا نصفه خراب .

ودير عطية : قرية كبيرة تبعد عن قارة الى الشرق الجنوبي نحو عشرة كيلو مترات يبلغ عدد سكانها (٥٠٠٠) اكثرهم مسلمون واقلهم روم ارثوذكس وروم كاثوليك . وهذه القرية احدثت بعد الحروب الصليبية ،بنتها صالحة خاتون ابنة احدامراء الاكراد . قال في خطط الشام (ج ٥ ص ١١٧) ومن الوقفيات الغريبة التي اطلعنا عليها حجة نقلت حوالي المئة العاشرة عن حجة كتبت سنة ثمان وسبعماية للهجرة جاء فيها ان « الست الجليلة صالحة خاتون ابنة الامير الكبير صلاح الدين بن بهلوان بن الامير الكبير شمس الدين الاكري الآمدي وقفت وحبست وابدت في صحة منها وسلامة وجواز امرها جميع الضياع الخمس المتلاصقات المعروفات بوادي الذخائر عمل دمشق المحروسة وتعرف احداهن بالبويضا والثانية بالبريصا والثالثة بالحميرا والرابعة بدير عطية والخامسة بالحمرا » ، وقد تغيرت معالم هذا الوقف ولا يعرف بهذه الاسماء غير دير عطية والحميراء في تلك الجهة وانتقلت القريتان الى ايد اخرى اهـ . ولاحد احفاد هذه الخاتون الصالحة ذكر في كتابة نقشت على سقف غرفة قديمة بالية من اللبن تاريخها سنة ٨٦٢ ، وليس في دير عطية بناء اثري غير هذه الغرفة فيما علمت . وقال بعض اهلها انه كان في قربها دير على اسم القديس ثاودروس ومعناه عطاء الله فعرب اسمه بدير عطية ، وانه لما اوقفتها صالحة خاتون المشار اليها لم تزل تعني بفلاحتها وتزكية مزارعها حتى صارت من امهات قرى جبل قلمون وفيها المياه الطيبة والبساتين الغناء . وفيها الآن ثلاثة مساجد وكنيستان من البناء الحديث ومدرسة للعلم الديني الاسلامي ودور جميلة في الجملة .

ويسير السائح بعد قارة وهو لا يزال يرى على يمينه صرود قلمون تشمخ حتى يصل علو بعض قممها كحليمة قارة الى ٢٤٥٥ وطلعة موسى الى ٢٦٣٠ والتي باروح الى ٢٢٠٠ مـــتر ، وهي جرداء في الغالب ليس فيها الا قليل من بقايا اشجار الحراج تظهر عن بعد كالنقط المبعثرة ، وفي الشتاء تهب من هذه الصرود التي يكسوها الثلج بضعة اشهر في السنة رياح باردة تلفح وجوه السائرين في هذه البراري والتلاع البيضاء الصلعاء والتي ليس في اعذائها سوى الشنان والشوك و بعض الاعشاب الغثة . وفعل هذه الرياح القارسة اشد مايكون بين قارة والنبك وبها تضرب العامة المثل فتقول « بين قارة والنبك بنات الملوك تبكي » وقال فيها الشعراء :

اذا هاجت الرمضاء ذكراك بردت حشاي كأني بين قـــارة والنبك

وطول الطريق بين قارة والنبك ١٥ ك ، في غربيه من الضياع جريجير وفليطا والسحل مبعثرة في سفوح الجبال ، ولجريجير فج يؤدي اليها وحولها اودية كثيرة كوادي البرد وفي الشمال وادي العوينات ، ومتى دخل السائر اول واد منها تتشعب امامه الجبال وتكون بين اضلاعها اودية معظمها متوازي ، واحيانا تكون متعامدة . وبينما يكون السائر في قمة جبل اذ يهوي بانحدار ساحق الى واد ضيق فيجابهه جبل مواز للاخر وهكذا دواليك ، واهل هذه القرى ترتزق من تربية الماعز ، ويشرب رعاة الماعز من الثلوج التي يجمعونها ويذيبونها باحراق اصول الانجم والنباتات الخاصة بتلك الصرود كالشيح والتبان وغيرهما، ويقضي سكان هذه القرى ايام الصيف في هذه الصرود وفي الشتاء ينتقلون الى جبال حسية . وقبل الوصول الى النبك يرى السائر على يمينه لحبـــاً يذهب نحو الغرب ويخترق الجبال التي ذكرناها طوله ٥٠ ك ، يمر بقرى السحل وفليطا ومضيق قرنة مريق وخربة يونين وقرية عرسال الى ان يشرف على البقاع البعلبكي ويلاقي طريق حمص وبعلبك عند قرية الشيخ عثمان .

قال ياقوت عن النبك . قرية مليحة بذات الذخائر بين حمص ودمشق فيها

عين عجيبة باردة في الصيف صافية طيبة عذبة يقولون مخرجها من يبرود اهـ.
قلت والنبك في اول ذات الذخائر او وادي الذخائر الذي ذكره ياقوت وذكرته
وقفية صالحة خاتون ، قامت هذه البليدة على نشز متجه الى الشمال يشرف على
بساتينها وكرومها التي ذكرها سائحنا اوليا جلبي ، وبيوتها المبنية من اللبن راكب
بعضها على بعض ، ولوقوعها على الطريق المعبدة الممتدة من دمشق الى حمص
فحماة فحلب اتخذت منذ سنة ١٣٠٠ مركزا لقضاء يشمل قسما كبيرا من قرى
قلمون الاعلى وضياعه وكانت قبلا من اعمال قضاء دوما . والنبك احدث عهدا
بالعمران من جارتها يبرود ، بنيت على ما قيل بعد خراب قرية الصالحية الواقعة
بينها وبين يبرود وبسبب سيل عظيم ردم قناتها فالتجأ اهلها الى الخان القديم الذي
كان في موضع النبك، وعلوها ١٤٣٠ متراً وسكانها الان ٦٠٠٠ اكثرهم مسلمون
واقلهم من الكاثوليك الروم والسريان . وفيها قناة قديمة ارامية تأتي بالمياه العذبة
التي ذكرها ياقوت وتمر من مقام صحابي او ولي (؟) يدعى الغفري وتسقي
بساتينها . والنبك قليلة الاثار لا تجد لها ذكرا في التاريخ واخص ما فيها ثكنة
عسكرية كانت قبلا خانا حسن البناء واسع الفناء ، وبجانبها مسجد يتبعها ينسب
كالخان الى سنان باشا ، ويظهر من كلام اوليا جلبي ان هذا الخان بني بعد مروره
وليس في ايام سنان باشا كما يظهر . ولعله من اثار محمد باشا الكوبرلي الذي تقدم
ذكره في بحث جسر الشغر وادلب (ص ١١٩ و١٣٣) وفي اعلى تلها دير
السيدة للسريان الكاثوليك فيه كنيسة واسعة قديمة يقصدها زوارهم ومرضاهم.
وفي جبلها الشرقي على بعد ثمانية كيلو مترات دير قديم مبني في الصخور صعب
المرتقى يعرف بدير مار موسى الحبشي فيه قلالي وكنيسة قديمة فيها على ما قيل
صور ونقوش وكتابات . وفي غربي النبك سهل فسيح جاء مبشرون دانيماركيون
حول سنة ١٣٢٥ هـ وبنوا فيه مستشفى كامل الاوصاف تؤمه المرضى من سائر
الجهات . ولهؤلاء المبشرين ايضا عدة مدارس للبنين والبنات في النبك ويبرود
ودير عطية والحفر وصدد ، اتخذوا التطبيب والتعليم ذريعة لغايتهم . وفي

جنوبي النبك عند مدخلها للقادم اليها من دمشق اكمة عالية بنى فوقها الافرنسيون عقيب ثورة الشام سنة ١٣٤٥ حصنـــا احاطوه بالاسلاك الشائكة يشرف على سهول النبك ومسالكها .

ومن الامهات التابعة للنبك مما يطلق على امثاله في ديار الغرب بلدان يبرود ، بينها وبين النبك ثمانية لك الى الغرب الجنوبي ، يقطعها السائر وسط حقول كثيرة الغلات تسقيها المياه الجارية وكروم طيبة العنب . ويبرود اكبر واغنى واقدم بلدان هذا القضاء ، وسكانها ٨٠٠٠ ثلثاهم من المسلمين واكثر البقية روم كاثوليك لهم ابرشية ومطران ، وعلوها ١٤٢٥ متراً واقعة بين جبال متقاطعة في بطحاء واسعة غزيرة المياه كثيرة المرافق ذات منظر جميل وبساتين أريضة . وكلمة يبرود ارامية تدل على البرد قال ياقوت : يبرود بليدة بين حمص وبعلبك (كذا) فيها عين جارية عجيبة باردة وبهافيها قيل سميت وتجري تحت الارض الى الموضع المعروف بالنبك اه .

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الشامية في سنة ١١٠٥ .

جئنا الى قرية يقال لهـــا يبرود ذات الزهور والورد
وبردهـــا زائد ولا عجب يبرود مشتقـــة من البرد

ويبرود من المدن القديمة ذكرها الجغرافي بطليموس الكلوزي باسم Jebrouda وعدها من اعمال مقاطعة لأوديسيا التي كانت قصبتها ربلة قرب القصير وقد ذكرناها . وقد كانت يبرود في عهد الرومانيين مركزاً عسكريا لصيانة الامن في هذه الانحاء ، ويستدل على ذلك بوجود اثار الحصن التي لا تزال ظـــاهرة في احدى الاحياء المعروفة بحارة القاعة . وهواء يبرود نقي وتعد كالنبك من مراكز الاصطياف والاستشفاء وبيوتها ايضامبنية من اللبن ولخاصتها عناية بالعلم والرفه ولعامتها انكباب على التجارة والزراعة ، والجمال في نسائها غير يسير . وقد اشتهرت بمحصول البطاطا والحنطة السلمونية البيضاء والفول المثخار وبصناعة خيام البدو . وقد جلبت اليها اخيرا مياه عين كوشل العذبة اخف مياه

هذه الكورة فزادت الصحة فيها جودة . وفي يبرود عدة مدارس ابتدائية احداها للروم الكاثوليك شادها في سنة ١٢٦٢ ه احد مطارنتهم ثم استلمها اليسوعيون وثمة مدرسة دينية اسلامية اسسها كبير اسرة عقيل المتقدمة في هذه البلدة في حدود السنة المذكورة فكان منها لمسلمي قلمون نفع جزيل ، ومدرسة للبنين واخرى للبنات للمبشرين الدانيماركيين ، وليس للحكومة سوى مدرسة واحدة ابتدائية هي اقل من حاجة يبرود . وفي يبرود عدد من الاثار بعضها في داخل البلدة وبعضها في خارجها ، فمن ذلك هيكلها الروماني العظيم كان مشيداً لاكرام الشمس ترى فيه الحجارة والانقاض الضخمة التي تشهد بفخامته . لكن هذا الهيكل انتقض قسم منه على كر الدهور ، فرمم بالحجارة الساقطة منه ترميما خاليا عن الاتقان . ولا يزال فيه نقوش وكتابات لاتينية تدل على حالته في عهد القياصرة ، وكان في جوار هذا الهيكل كنيسة على اسم القديس جاورجيوس هدمت والحق قسم منها بالهيكل القديم بعد ترميمه واتخذها الروم الكاثوليك لعبادتهم منذ سنة ١٢٥٢ ه وهي اليوم اعظم كنائسهم . وفي يبرود اثار كنائس داثرة منها واحدة في شرقي البلدة لا تزال جدرانها واطلالها ماثلة ، وفيها بين تضاعيف مبانيها وجدران دورها اساطين وتيجان واعمدة وافاريز منقوشة حطمت واستعمل بعضها في البناء ، وفي خارج يبرود مغاور تحيطها في كل جهاتها نقرها الاقدمون في الصخور وجعلوها مدافن لموتاهم ، منها الصغير ومنها الكبير الواسع ، كان في بعضها آثار وكتابات طمسها الجهال ، منها مغارة تعرف بمار سابا في غربي البلدة واسعة الاطراف لها باب كبير بعده حجرة فارغة ثم باب ثان اكبر من الاول وراؤه محل فسيح ذو ثلاثة اقسام فيه قوسي قنطرة واضرحة متجاورة فوق احدها صورة الآهة ترتفع الى الجو وهي تشير الى شاب امامها .

ومن القرى المرتفعة في نجود قلمون الاعلى التابعة لناحية يبرود والى الغرب الجنوبي عنها الكبرى على بعد ١٦ ك والجبة على بعد ١٨ ك ، وعسال الورد على ٢٦ ك ، كانت قصبة جبة عسال التي ذكرها ياقوت ومشتهرة بورودها التي

اندثرت ، وكان يزيد بن معاوية يقصدها للصيد ، علوها ١٧٧٠ متراً وعدد اهلها الف مسلمون لا يزالون على الفطرة ، وماؤهـا من اخف المياه ، وفي جنوبي عسال الورد على بعد ١٢ ك ، قرية رنكوس عدد سكانها ٢٠٠٠ وهم على جانب من الجلفة الجبلية ، ومن الضياع تلفطايا وحوش عريب والمعمورة والطفيل وفي المعمورة ضريح ينسب لاحد الصحابة واسمه سعد الدين الانصاري ، وفي ضواحي رنكوس وحوش عريب بناء اثري يسمى قصر بلقيس في جانبه قناة ماء قديمة لا تزال قساطلها الفخارية ظاهرة كانت تأتي بالماء اليه ، وفي جنوبي الطفيل قرب عين الجوزة خربة رومانية مجهولة . ومن يبرود طريق نحو المشارف التي فيها معلولا طولها ١٩ ك لم يتم تعبيدها للسيارات بعد ، على يمينها آكام مرتفعة حاملة القطع الكبيرة من الصخور ، وفي معاطف تلك الآكام مغاور وكهوف منقورة لتجعل مدافن للموتى او صوامع للنساك . والتربة هنا صالحة لنمو الكروم التي في ابانها تزين هذه الصروح الصلعاء بنضرتها وجودة اعنابها وهي صالحة ايضا لنمو السماق الذي يكثرون من غرسه فيتخذونه لدبغ الجلود ويأكلون ثمره ، وفي هذه الطريق مما يتبع يبرود (بخعة) ضيعة مسلمة يتكلم اهلها بالسريانية القديمة كاهل جبعدين المسلمين ومعلولا النصارى .

طريق النبك — قطيفة (٤٠ كيلو مترا)

بعد ان يغادر السائح النبك ويترك على يمينه الطريق المعبدة الى يبرود وما بعدها يسير قبلة في الطريق المعبدة المحاذية لسفح جبل معلولا ، وفي شرقيها سهل فسيح تربته بيضاء او صفراء ، وهو والجبل كالسهول والجبال التي تقدمتها اجردان لا خضرة فيهما ولا نضرة ، وبعد عشر كيلو مترات يترك السائح على يساره ضيعة فوق تل تدعى (القسطل) واخرى تختفي وراءها تدعى قلدون ، اهلها تركمان محتفظون بلغتهم التركية المحرفة . وخلف الجبل المشرف عليها من الشرق سباسب تبدأ من قرية الناصرية آخذة نحو القريتين وتدمر وما وراءهما من

المهامه الفيح . وبعد القسطل يدخل الطريق بطن وادو يجتاز معابر ووهاد ويتلفت بين منعطفات وهو دائب على الانحدار الى ان يرى على العدوة اليمنى الطريق المعبدة الصاعدة نحو عين التينة ومعلولا وجبعدين ، ويرى على العدوة اليسرى خانين قديمين مهجورين اولهما خان العروس وثانيهما خان المعزى كانا والخانات التي ذكرناها قبلاً وبعداً يتخذان في العصور الاسلامية الغابرة منازل لخيل البريـــد ورجاله .

وبعد سير اربعين كيلو متراً يهبط (القطيفة) وهي قصبة القضاء الذي يشمل قلمون الاسفل وبعض الاعلى ، علوها ١٠٥٣ مترا قال عنها ياقوت : قرية دون ثنية العقاب للقاصد الى دمشق من طرف البرية من ناحية حمص اه قلت والقطيفة واقعة في واد منبسط بين جبلين متسامتين يدعى الشمالي منهـــا ابو دية والجنوبي قلع الطاقة والشرقي الذاهب في الافق الغارب نحو البادية ابو قوس ، والقمة الغربية التي تعلو رنكوس العرعورة، وتربةهـــذا الوادي كما في قلمون الاعلى صفراءصلعاء ، لكن مياهه موفورة واراضيه المسقوية خصبة والعذية وسط او اقل . وعددسكان القطيفة ٢٤٠٠ مسلمون ، وماؤهاشروب . ولوقوع هذه القرية الكبيرة على طريق قوافل الحجاج والغزاة والمسافرين من دمشق شرقا الى تدمر وشمالا الى حلب وما ورائهما لفتت مكانتها انظار الملوك والامراء المسلمين ، منهم هشام بن عبد الملك بن مروان جعل فيها منازل له قاله اليعقوبي في كتاب البلدان ، ومنهم السلطان صلاح الدين الايوبي فقد ذكر ابن جبـــير الاندلسي في رحلته حينما مر بالقطيفه التي دعا خانها خان السلطان قال : هو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام وهو في نهاية الوثاقة والحسن بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها واحتفالهم في تشييدها ، وفي هذا الخان ماء جار يتسرب الى سقاية في وسط الخان كانها صهريج ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ثم يغوص في سرب في الارض . والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة الا في ثلاثة مواضع او اربعة منها هذه الخانات

المذكورة اه. قلت عنى ابن جبير بالمواضع الاربعة القطيفة والنبك وقارة والمشعر التي تكلمنا عنها في بحث حسية ، وهذا الخان الذي نسبه للسلطان يعرف الآن بالخان العتيق وهو في الجنوب الشرقي من القرية وعلى وشك الدثور . وفي القرن العاشر جاء سنان باشا الوزير العثماني الشهير الذي تقدم ذكره وترجمته في بحث خانات قلعة المضيق والرستن وقارة والنبك ،فوجدالقطيفة عـــلى وشك الخراب لانهدام خاناتها ودثور قناتها التي تشرب منها وتروي ارضها فرمم هذه القناة وبنى الخان المعروف باسمه ، وكان ذلك سببا لتجدد عمران القطيفة وتزايد سكانها . حدثني احد شيوخ هذه القرية ان سنان باشا لما جاء الى القطيفة لم يجد فيها سوى اثني عشر شخصا فرمم القناة وسلمهم ارض القطيفة فقسموها بينهـــم حسب مصاريع ماء القناة الاثني عشر ، ثم قسم اعقاب هؤلاء كل مصراع الى ٤٨ قيراط ، ولا تزال قسمة اراضيهم جارية على هذا المنوال .

والخان الذي ذكره الجلبي وبالغ في تعظيمه لا يزال عامراً الا قليلا ، فجداره الغربي وفيه الباب وبقية جدرانه سالمة في الجملة ، وفي زواياها الخارجية ابراج مستديرة تدعمها في الوسط عضائد . وفي داخل الخان باحة رحبة مبلطة ، في وسطها حوض كبير تتدفق ماؤه حتى الان ، وفي جهاته الاربع اصطبلات واسعة امامها اروقة ، ويحوي ايضا اماكن لايواء المسافرين ودور ومطابخ قد خربت . وللخان من الخارج باحة احيطت بسور دثر قد كانت تحتوي على فرن وحوانيت عديدة وجامع وحمام ، فالفرن والحوانيت دثرت منذ ربع قرن ، اما الجامع والحمام فما برحا عامرين ، ولا يزال الجامع محتفظا بقبته الكبيرة ومأذنته الجميلة ، كما احتفظ الحمام بابوابه السبعة ، وهو في الجملة جميل يستحم فيه الاهلون حتى الان . اما الحساء والخبز والعلف وغيرها من المبرات التي ذكرها الجلبي فقد صارت في خبر كان منذ أكثر من قرن . ومنذ عشرون سنة لما كانت القطيفة قصبة الناحية شيد احد المدراء غرفا اقامها على ظهر الخان كما بنت دائرة

الاوقاف اخيرا الى جانبها مهجعا واسعا لجنود الدرك فاصبح الخان الآن ثكنة لهؤلاء الجنود لقاء اجرة تتقاضاها الاوقاف .

وفي قضاء القطيفة من قرى قلمون الاعلى (معلولا) وهي من اغرب القرى موقعا تراها بين فجوات ضيقة وصخور جعلتها جد حصينة ، فأن كل دار من دورها تلوذ بقطعة من الجبل وربما كان البيت كهفا من الصخر بني له واجهة وشيد له درج ، وكذلك طرق القرية اسراب ضيقة ومسالك حرجة وفي اعطاف الجبل مغاور واسعة يلتجيء اليها الاهلون في رد الغارات كما فعلوا في ثورة الشام سنة ١٣٤٤ ، وثمة مياه تترقرق جارية في المنافذ المنحدرة بين البيوت فتسقي البساتين والحواكير ، وعلو معلولا ١٣٠٠ مترو هواؤها وماؤها جيدان يجعلانها صالحة للاصطياف . اهلها نحو ١٨٠٠ نسمة كاثوليك وروم ، بينهم عدد ضئيل من المسلمين ، ولا يزال اهلها مع اهل بخعة وجبعدين الجارتين الاسلاميتين يحتفظون بلغة سريانية محرفة لم تنقرض لديهم طول الاعصر الماضية لرفعة هذه القرى ومنعتها .

ومعلولا قرية قديمة قد ذكرها الجغرافي بتولماوس الكلوذي باسم Maglula ؛ وفيها آثار جمة اخصها مغاورها المنقورة في الصخر ، بعضها متقن الصنع ، واسع الباحة فيه سوار ومراق وكوى وحفائر شبه النواويس مما يدل على انها كانت مدافن للاقدمين ، ولا يخلو البعض من هذه المغاور من كتابات يونانية ترجع للقرن الاول او الثاني للميلاد . وفي اسفل معلولا هيكل روماني قديم يدعونه حمام الملكة ، ويزعم السكان ان الوثنيين كانوا يرتكبون فيه الفاحشة ولما انذرهم احد الصلحاء ولم يرعووا دعا فهبط الحمام عليهم ، ولما تنصر اهل معلولا اتخذوه كنيسة . وفوق هذه المعالم نصب نقش في الصخر اعلاه شبه القوس تلوح فيه صورة رجل وامرأة من فوقهما اسماهما باليونانية . وفيها دير عظيم باسم القديسة تقلا للروم الارثوذكس ابنيته راكبة بعضها فوق بعض يقصده الزوار والنساء العقيمات للحبل والمفلوجون واصحاب امراض المفاصل للاستشفاء .

وثمة مقام على اسم هذه القديسة ومغارة في نصف الجبل فيها قبر القديسة المذكورة يقطر الماء من اعلاها فيستحم فيه الزوار تبركا . وفي اعلى معلولا دير عظيم آخر للروم الكاثوليك باسم القديسين سرجيوس وباخوس علوه ١٧٩٢ متراً منظره بهيج يطل على القرية وتكتنفه الصخور والاثار القديمة من مدافن وكهوف وغيرها لا يوصل اليه الا بالجهد .

والى الغرب الجنوبي من معلولا على مسافة اربعة ك ، تقع قرية جب عدين المسلمة التي يتكلم اهلها بالسريانية كما اسلفنا، وهي ايضا كمعلولا ذات فجوات ضيقة زادت في منعتها وحصانتها . والى الجنوب من معلولا على بعد اربعة ك ، ايضا قرية عين التينة المسلمة التي تناسى اهلها السريانية واقتصروا على العربية، وفيها قليل من شجر الفستق الجيد الذي ينجح في هذه البقعة لو توفروا على العناية به .

وفي قضاء القطيفة مما يعد من قلمون الاسفل الشرقي قرى عظيمة اهلها مسلمون منها (المعضمية) تبعد عن القطيفة اربعة ك ، عدد اهلها ٢٠٠٠ لا يزالون على الفطرة اختص بعضهم بخدمة مواقد الحمامات في دمشق التي يتوارثونها عن بعضهم ، فيها قني وزروع مسقوية . وفي شرقي هذه على بعد خمسة ك ، تقع (الرحيبة) وعدد اهلها ٤٠٠٠ يشبهون اهل المعضمية ، وفي سفح جبلها قناة قديمة يظن انها تنتهي في تدمر لها كواكب في كل خمسة عشر مترا ، وفيها ثلاثة مساجد ، ظهر منها رجل عرف بولايته وكراماته كان يدعى الشيخ بكار العريان بن عمران الرحيبي ذكره المحبي في سلك الدرر توفى سنة ١٠٦٧ . وفي شرقي الرحيبة هذه اكمة عالية من اذيال جبل قلع الطاقة عليها قبة تحتها ضريح باسم الشيخ ابو سعيد(؟)، وفي شماليها الى الشرق على بعد سبعة ك ، (جيرود) عدد اهلها ٢٤٠٠ عمرانها جميل ودورها نظيفة ومياهها غزيرة ، اشتهرت بعنبها الدربلي ، وهي في اول السهل الذي يمتد الى الشرق الشمالي نحو طريق القريتين وتدمر ، وفي هذا السهل ضياع العطنة والناصرية حيث منتهى العمران . وفي شرقي جيرود على مقربة منها بحيرة مالحة يبلغ محيطها اثني عشر كيلومترا تجف

في الصيف فتنتج ملحا نقيا فيه قليل من المرار . ومن الامهات في السفح الجنوبي من قلمون الاسفل قرية كبيرة تدعى (الضمير) عدد اهلها « ٣٠٠٠ » تقع في منتهى العمران في شمالي طريق السيارات الممتدة من دمشق الى بغداد ، في وسطها حصن صغير عربي ، ذكر ياقوت الضمير ونقل فيها قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

اقفرت منهم الفراديس فالغو   طة ذات القرى وذات الظلال
فضمير فالماطرون فحورا   ن قفار بسابس الاطلال

وقال المتنبي :

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا   ليحدثن لمن ودعتهم ندم

وعلى مقربة منها الى الشرق اطلال قرية (الماطرون) التي عدها ابن المنير من متنزهات الغوطة فقال :

فالماطرون فداريا فجارتها   فآبل فمغاني دير قانون

وفي جنوبي الماطرون برج روماني مستدير الشكل بني بحجارة منحوتة ضخمة ، وفي جنوبه على بعد احد عشر كيلو متراً عن الضمير سد روماني عظيم مندثر يدعى سد ارنبة كان اتخذ لحجز مياه السيول الاتية من بحيرة الصيقل وخان الشامات وما حولها من القيعان الشاسعة وذلك لارواء الفضاء الممتد شرقي بحيرة العتيبة.

ومن قرى قلمون الاعلى التابعة لقضاء دوما (صيدنايا) بينها وبين معلولا ٢٤ والقطيفة ٢٢ ك ، يمر القادم اليها من الاولى بقرى صغيرة من قلمون الاسفل كالتواني وعكوبر . ومن الثانية بحلة وحفير الفوقي وبدا . وكلها وسط اودية واسعة تنحدر تحدرا خفيفا نحو الجنوب ، تكثر فيها كروم العنب والتين . وصيدنايا قرية قديمة علوها ١٣٥٠ مترا واهلها ١٥٠٠ اكثرهم من الروم والباقي من الكاثوليك وثمة عدد ضئيل من المسلمين ، تمتد وهي في سفح الجبل على نصف دائرة وبيوتها يعلو بعضها بعضا ، وهي كثيرة البيع والاديار بعضها لا يزال عامراً اشهرها دير السيدة وهو دير عظيم لراهبات الروم الارثوذكس وعددهن ٢٥ —

٣٠ والدير بني على قمة عالية كأنه الحصن المنيع يشرف على سهل متسع ذكره ابن فضل الله العمري في جملة ديارات الشام قال : هو في القرية من بناء الروم بالحجر الابيض ايضا ويعرف بدير السيدة وله بستان وبه ماء جار في بركة عملت له ، وعليه اوقاف كثيرة ، وله مغلات واسعة ، وتأتيه نذور وافرة اه . وهذا الدير قديم من القرن الثاني الميلادي قبل يوستنيانوس الذي يزعمون انه بانيه ، وله في كل سنة في يوم عيد انتقال السيدة المصادف لـ ١٨ آب غربي موسم خاص يقصده جماهير الناس من كافة اقطار الشام للزيارة والنزهة وايفاء النذور ، وفي صيدنايا ايضا ديران رومانيان للروم الكاثوليك ينسب احدهما لمار توما والثاني لماربطرس وبولس وهما من الآثار الضخمة . فالاول في رأس الجبل المطل على صيدنايا ، طريقه صعبة المرتقى فيها كهوف وصهاريج ومدافن قديمة منها مغارة واسعة شبه بهو عظيم ذات اعمدة ومصاطب وكوى منقور كلها في الصخر ، والدير ذو حجارة ضخمة واعمدة ورواق ونقوش وكان له سور خارجي دثر . ودير مار بطرس وبولس في وسط القرية بناء عظيم مربع يصعد لسطحه على درج لولبي داخله متسع ومحكم الصنع لكنه يحتاج للترميم . وفي اعلى صيدنايا دمنة مار شربين يتناول النظر منها سواد غوطة دمشق ومرجها ، وللمسلمين في صيدنايا جامع بنته ادارة الاوقاف من عهد قريب بأموالهم التي جمعوها ، ولكن الجامع قد جاء غير متين الاركان . ومن القرى الكبيرة الاسلامية المجاورة لصيدنايا حلبون علوها ١٢٢٠ مترا ، والمعرة وهذه اهلها كاثوليك ، ومنين ١١٥٠ ، والتل ومعربا واهل هذه القرى الثلاث مسلمون ، وجل هذه القرى مما يقصده المصطافون من دمشق لقربها وجودة هوائها ومائها . وقد كانت قرى جبل سنير كمعربا والمعرة وتلفيتا ويبرود ومعلولا والتينة وغيرها على ما جاء في تاريخ صيدنايا لحبيب الزيات « مألف رواد القصف والطرب ومنتجع عشاق الصهباء واكثرها كان معروفا بطيب الشراب واليها كانوا يلجأون كلما اقفلت في وجوههم ابواب حانات الفيحاء » .

وفي هذه الضياع كان لابن عنين (١) مقامات تقلب فيها بين طيب العيش ولذة الطيش ولذلك لم يبرح ذكر جبل سنير من باله حيثما اتجه من غربته ، وقد تشوق اليه مرارا في قصائده منها قوله من ابيات يمدح بها الملك المعظم :

اذا الجبل الريان لاحت قبابه   لعيني ولاحت من سنير هضابه
لثمت الثرى مستشفيا بترابه   وهيهات ان يشفي غليلي ترابه

وله من قصيدة اخرى يمدح بها الملك العزيز صاحب اليمن سنة ٥٨٧ :

اذا لاح برق من سنير تدفقت   سحاب جفوني في الخدود سيول

وقد اشتهرت قرية تلفيتا بأنها موطن قسام الحارثي من بني الحارث بن كعب المتغلب على دمشق في القرن الرابع ، في عهد الفاطميين ومن الغريب انه كان رجلا قرويا يتعاطى مهنة نقل التراب على الحمير ، وظل حاكما في دمشق مستبداً بامورها سنينا عديدة الى ان ارسل الفاطميون اليه الامير

---

(١) شرف الدين محمد بن نصر بن عنين الزرعي الشاعر المشهور وكان شاعراً مفلقا وكان يكثر هجو الناس عمل قصيدة فيها ٥٠٠ بيت سماها مقراض الاعراض لم يسلم منها احد من اهل دمشق ونفاه السلطان صلاح الدين الى اليمن فمدح صاحبها طغتكين بن ايوب وحصل له منه اموال كثيرة عمل بها ابن عنين متجراً وقدم به الى مصر وصاحبها حينئذ العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين ، فلما اخذت من ابن عنين زكاة ما معه على عادة التجار قال في العزيز :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها   اهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالهما   هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقة

ثم سار ابن عنين الى دمشق ولازم الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبقي عنده وتوفي فيها سنة ٦٣٣ وديوانه مشهور .
(ابو الفداء ج ٤ ص ١٩٥) .

الافضل فغلب قسام ودخل دمشق سنة ٣٧٦ وعفى عن قسام وعوضه موضعا عاش به (خطط الشام ج ١ ص ٢٣٣) .

طريق القطيفة — دمشق (٤٠ كيلو مترا)

عند خروج السائح من القطيفة متجها الى الغرب يغادر على يساره طريق السيارات الذاهبة الى تدمر المارة بالمعضمية والرحيبة وجيرود والعطنة والناصرية وخان الجلاجل وخان الابيض والقريتين وقصر الحير وعين البيضاء ، وبعد ان ينتهي من وادي القطيفة المنبسط ينحني نحو الجنوب ويشرع بالانحدار من (ثنية العقاب) المحصورة بين جبلين من فروع قلمون يسمى الغربي جبل ابو العتا (١٥١٥ متراً) والشرقي جبل قلع الطاقة ، وطول الثنية نحو ثمانية كيلومترات . ويرى السائر في مبدأها على يمينه قرب الطريق اطلال دارسة لخان او دير قديم يسمى (خان فم الثنية) فيه حجر ضخم عليه اربع سمات نصفية رومانية ، ومصنعان كبيران احتفرهما اهل الخير لشرب ابناء السبيل في هذه المعابر المعطشة . قال ياقوت : الثنية في الاصل كل عقبة مسلوكة في الجبل سميت . بالعقاب لان خالد بن الوليد لما وصل اليها قادما من العراق الى دمشق وقف عليها ساعة ناشراً رايته وهي كانت لرسول الله (ص) كانت تسمى العقاب علما لها . وقال شيخ الربوة في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر في فصل الاعين والمنابع : وثنية العقاب من ارض دمشق بأعلى الثنية كهف معبد فيه نقرة منقورة بقدر الطاسة الكبرى لا تزال ملآنة ماء لو اخذ منها الف رجل درت بما يكفيهم واذا تركت كان ماؤها واقفاً لا يزيد ولا ينقص ولا عمق ولا خرق فيها سوى ان النقرة مملوءة ماء اه . قلت وقد سألت شيوخ القطيفة عن هذه النقرة فلم يعرفوها ولا سمعوا بها ، الا انهم حدثوني عن كهف طبيعي في الجبل شرقي خان فم الثنية زعموا انه عظيم واسع الباحة يمكن ان يختبيء فيه مئات من الناس فيه اعمدة متدلية من سقفه كالشمع ، فقلت لعلها هي ما يدعونها في (الجيولوجيا) الستلاكتيت والستلاكميت التي

تنشأ من رسوب المواد الكلسية المترشحة مع قطرات الماء من سقف الكهف .
واذا انتهى السائح من منعطفات الثنية يشرف وهو منحدر على غوطة دمشق ومرج عذراء وجبل المانع والجبل الاسود وبحيرة العتيبة وما في جنوبها من البراري الممتدة حتى جبل حوران واوعار اللجا والصفا . وتعد ثنية العقاب باباً لدمشق لان منها كانت تمر الجيوش الزاحفة من الشمال والخارجة منها ، وقد حدث في العصور الغابرة فيها وفي مرج عذراء عند سفحها بين قاصدي الاستيلاء على دمشق والمدافعين عنها وقائع هامة يذكر المسلمون منها تلك الوقفة التاريخية لخالد بن الوليد التي نوه بها ياقوت والوقعة بين ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون ومحمد بن ابي الساج في سنة ٢٧٢ هـ وكانت الدائرة فيها على ابن ابي الساج وفي ذلك يقول البحتري :

اما كان يوم الثنية منظر ومستمع ينبي عن البطشة الكبرى
وعطف ابي الجيش الجواد بكرة مدافعة عن دير مران او مقرى

ومنها الوقعة التي بين الاخشيد محمد بن طغج وبين سيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٣٥ هـ وكان الدائرة فيها على سيف الدولة فانهزم وتقطع اصحابه وعاف دمشق الى الابد . هذا وفي غربي الثنية وراء مرتفعات جبل ابي العتا اختبأت بدا وحفير الفوقى وحفير التحتى ومعرونه وهي قرى قلمون الاسفل اشتهرت بتينها الجاف الجيد . وفي سفح الثنية قبة صغيرة تدعى قبة العصافير وخان كبير على وشك الاندراس يدعى خان عياش امامه بئر بني عليه قبة عظيمة لوقاية الدواب والرجال المكلفين باخراج الماء ، وبعدهما يسير السائح نحو الغرب في منبسط فيترك على يساره قرب قرية عذراء مفرق طريق السيارات الذاهب الى بغداد وطوله ٨٥٠ ك ، من دمشق . وعذراء اول قرية في مرج راهط وقد يسمى باسمها فيقال مرج عذراء ، وهي قديمة فيها اطلال ابنية واحجار اثرية تبعد عن دمشق ٢٣ ك ، قال ياقوت" عذراء قرية بغوطة دمشق من اقليم خولان معروفة واليها ينسب مرج عذراء ، واذا انحدرت من ثنية العقاب واشرفت

على الغوطة فتأملت على يسارك رأيتها اول قرية تلي الجبل وبها منارة وبها قتل حجر بن عدي الكندي وبها قبره وقيل انه هو الذي فتحها وبالقرب منها راهط الذي كانت فيه الوقعة بين الزبيرية والمروانية قال الراعي :

وكم من قتيل يوم عذراء لم يكن   لصاحبه في اول الدهر قاليا

وذكر ياقوت قرية ميدعا المجاورة لها . وقال عن مرج راهط موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج عذراء ، اذا كنت في القصير طالبا لثنية العقاب تلقاء حمص فهو عن يمينك وذكرها كثير قال :

ابوكم تلاقي يوم نقعاء راهط   بني عبد شمس وهي تنفي وتقتل

وقال راع يصف ابلا له تاهت في اوحال سكا احدى قرى المرج :

فلا ردها ربي الى مرج راهط   ولا برحت تمشي بسكاء في وحل

قلت وهذا المرج في يومنا لا يزال على ما كان عليه منذ قرون مهملا من العناية ، تكثر فيه المرازغ والمناقع وتفتك في اهله حمى البرداء وادواء الجهالة وهم لا يزالون على الفطرة سقام الاجسام غبر الوجوه ، واكثر ضياع المرج ودساكره ملك لسراة دمشق الذين لا يمتازون كثيراً عن سراة مدن الشام الشمالية من حيث الاكتراث بفلاحتهم وفلاحيهم .

وبعد عذراء يودع السائح جبال قلمون الجرداء العارية عن كل مشهد نضر، ويشرع بتكحيل ناظريه بمرئي الحقول الخضراء والجداول والقنوات السارية . فيترك على يمينه في سفح جبل قلمون عيون فاسريا التي كانت مورد الجيوش القادمة من دمشق واليها ، وممن نزل بها نور الدين محمود في سنتي ٥٤٦ و ٥٤٨ حينما حاصر دمشق واستخلصها من يد مجير الدين ارتق بن محمد بن بوري بن الاتابك طغتكين .

ويترك على يمينه ايضا كواكب عظيمة لقناة كبيرة مندثرة تذهب الى الشرق لتروي اراضي خربة اثرية بين عذراء والضمير تدعى المعيصرة لم اعثر على ذكرها في التواريخ التي راجعتها على ان قسما من اطلالها واحجارها الضخمة لا يزال ماثلا

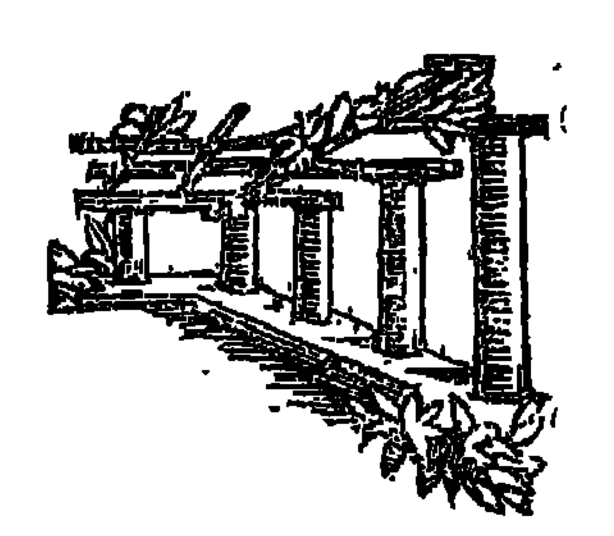
ثم يمر السائح من موضع ذي ماء واشجار يدعى القصير فيه خان كبير قديم ذكره ابن جبير في رحلته وياقوت في معجمه رمم منذ سنتين واتخذ مستشفى للمجانين وبني في قربه مستشفى آخر للجذامى، لكن هذا مابرح دون استعمال . وبعد القصير يتمتع السائح بمرئى كروم العنب ثم غابات الزيتون النامية وكلما اقترب نحو الغوطة يبتهج بمنظر غياضها ورياضها الى ان يغادر على يمينه قرية دوما وهي اكبر واول قرى الغوطة عدد اهلها تسعة الاف، كلهم مسلمون اشتهروا باتقـــان الحرث والغرس، وقد اتخذت دوما مركزا لقضاء تتبعه كل قرى المرج وبعض قرى قلمون التي تقدم وصفها، وهكذا الى ان يصل الى قرية حرستا التي ذكرها الجلبي (ص ٢٦) وقال عنها ياقوت : حرستا قرية كبيرة عامرة في وسط بساتين دمشق على طريق حمص بينها وبين دمشق اكثر من فرسخ ينسب اليها كثير من الفضلاء اهـ . قلت اخصهم الامام محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة . وفي قربها قرية مثلها تدعي القابون واخرى في شماليها تدعى برزة ذكرهما ياقوت قال عن القابون موضع بينه وبين دمشق ميل واحد في طريق القاصد الى العراق في وسط البساتين . وقال عن برزة قرية من غوطة دمشق ينسب اليها جماعة من الفضلاء. واياها عنى ابن منير بقوله :

سقاها وروى من النيربين ... الى الغيضتين وحمورية

الى بيت لهيـــا الى برزة ... دلاح مكفكفة الاوعية

وحمورية قرية في الغوطة تقع بين سقبا وبيت ساوا . اما بيت لهيا فقرية زالت معالمها كانت شمالي حرستا . هذا وكانت الملوك والقواد القادمون بجيوشهم او ركائبهم يتخذون هذه القرى القريبة منزلا او مخيما قبل دخولهم دمشق ومنهم السلطان سليم العثماني الذي نزل في المصطبة السلطانية بين برزة والقابون في مستهل رمضان سنة ٩٢٢ . والوزير مرتضى باشا الذي وصف اوليا جلبي كيفية دخوله واستقبال اعيان دمشق له في الصفحة ٢٧ وما بعدها .

« هنا رأيت ان يقف القلم عن جريه في هذا المضمار ، وان يلقي »
« عند ابواب دمشق عصا التسيار ، حتى اذا لقت ابحاثي هذه من ابناء »
« بلادنا ارتياحاً وتنشيطا ، عززتها في جزء ثان وثالث بما فاتني ذكره »
« ووصفه في شمالي الشام وجنوبيه وساحله وداخله من المسالك والممالك »
« والآثار على المنهاج نفسه ، وقد رأيت ايضا من وفاء الذمم ان اختم »
« مقالي بالثناء على ذوي الفضل والعرفان الذين آزروني في طبع هذا »
« الكتاب ، اخص بالذكر منهم معالي لطفي بك الحفار الذي بعث همتي »
« على العمل واخذ بيدي حتى تحقق الامل ، فاستحق مني الحمد الجزيل »
« ودعاء ان يعز به الوطنية الحقة والمرؤة الخالصة م؟ »



مصادر جولتنا الاثرية

المطبوعات العربية

خطط الشام لمحمد الكرد علي
تاريخ الرسل والملوك للطبري
» الكامل لابن الاثير
» ابن خلدون
» ابن الوردي
ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي
تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان
» آداب اللغة العربية » »
» الامير حيدر الشهابي
» العلويين لمحمد امين الطويل
» حماة لاحمد الصابوني
» سورية لجرجي يني
» » للمطران يوسف الدبس
» الحركات الهدامة لعبد الله عنان
» الحركة القومية في مصر لعبد الرحمن الرافعي
» صيدنايا لحبيب الزيات
مروج الذهب للمسعودي
التنبيه والاشراف للمسعودي

المختصر في تاريخ البشر لابي الفداء
تقويم البلدان لابي الفداء
معجم البلدان لياقوت الحموي
المشترك لياقوت الحموي
المسالك والممالك لابن حوقل
» » » خرداذبة
مسالك الممالك للاصطخري
نزهة المشتاق للادريسي
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي البشاري
مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه
كتاب البلدان لليعقوبي
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الربوة شمس الدين الدمشقي
فتوح البلدان للبلاذري
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب لابن الشحنة
نهر الذهب في تاريخ حلب لكامل الغزي
اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء لراغب الطباخ

التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري
مسالك الابصار لابن فضل الله العمري
دائرة المعارف للبستاني
المرآة الوضية في جغرافية الكرة الارضية لفانديك
الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامة
سيرة صلاح الدين لابن شداد
النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد للمفضل بن ابي الفضائل
نهاية الارب في معرفة قبائل العرب للقلقشندي
صبح الاعشى للقلقشندي
كشف الظنون لكاتب جلبي
كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ
وفيات الاعيان لابن خلكان
خلاصة الاثر في تراجم اهل القرن الحادي عشر للمحبي
سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للمرادي
رحلة ابن جبير
» » بطوطة
رسائل سائر لمحمد سليمان المصري
شذرات الذهب في اخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد
مجلة المقتطف
» المشرق
» المجمع العلمي العربي
« نسخ مصورة في خزانة المجمع العلمي »
الذيل على الروضتين لابي شامة
الباشات والقضاة لمحمد بن جمعة المقار
رحلة الامير يشبك الدوادار

المطبوعات التركية

جهان نما، كاتب جلبي
قاموس الاعلام، شمس الدين سامي
تاريخ نعيما
تاريخ جودت
عثمانلي تاريخي، احمد راسم
خرافاتدن حقيقته ، محمد شمس الدين
اسلامده تاريخ ومؤرخلر ؛ محمد شمس الدين
تورك تاريخي ، نجيب عاصم
» » ، رضا نور

بيروت ولايتي شمال قسمي وجنوب قسمي ، محمد بهجت و محمد رفيق

حلب ولايتي سالنامه سى

سورية ولايتي سالنامه سى

بيروت « «

المطبوعات الافرنسية

Biblagraphie française

Barrès : Un jardin sur l'oronte

Barrès : Enquête aux pays du Levant

Berchem & Fatio : Voyage en Syrie.

Dussaud : Voyage en Syrie.

Baedeker : Palestine et Syrie.

Chauvet & Isambert : Syrie et Palestine. 1882

Dussaud : Topographie Historique de Syrie antique et médieval.

De Vogué : Syrie, Palestine, Mont Athos.

Encyclopédie de islam.

H. Bordeaux : Voyageurs d'orient

Jacquot : Antioche.

» Les Alaouites.

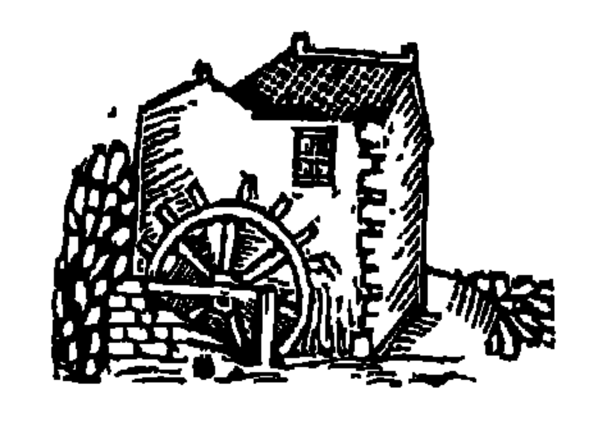
Michaud : Histoire des Croisades.

P. Barnabé Meistermann Nouveau guide de Terre Sainte.

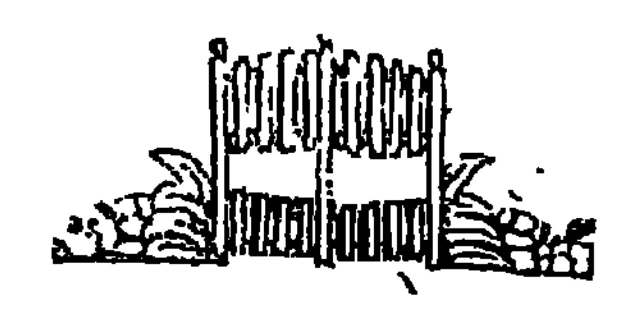
Rey : Voyage dans les Hauran et aux abords de la mer morte

Syria ; Revu d'archéologie.

Volney : Voyage en Syrie et en Egypte. 1787



الفهرس



جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	٥	قلل	قللاً
١٨	٥	ينوف	ينيف
١٨	٥	الستة آلاف	ستة الآلاف
٢٠	١٣	فما	فيما
٢٠	١٩	ان	انه
٢٨	٢	يربو	يربي
٣٣	٤	Pylls	Pyles
٣٤	٦	المخفض	المنخفض
٣٤	٢٠	الطب	الطيب
٣٦	١	مؤرخهم	مؤرخوهم
٣٨	١٤	ثلثيها الشرقي	ثلثاها من الشرق
٣٩	٢١	احسن	اكبر
٤٠	١٤	بني	ابن
٤٤	٧	تقديم	تقويم
٤٨	١٢	استخلاصها	استخلصها
٥٧	٢٣	شديدتي	شديدتا
٦٧	٢٣	الثعلب	ابن آوى
٧٠	٩	سبعة عشر	سبع عشرة
٧٤	١٩	افيحا	افيح

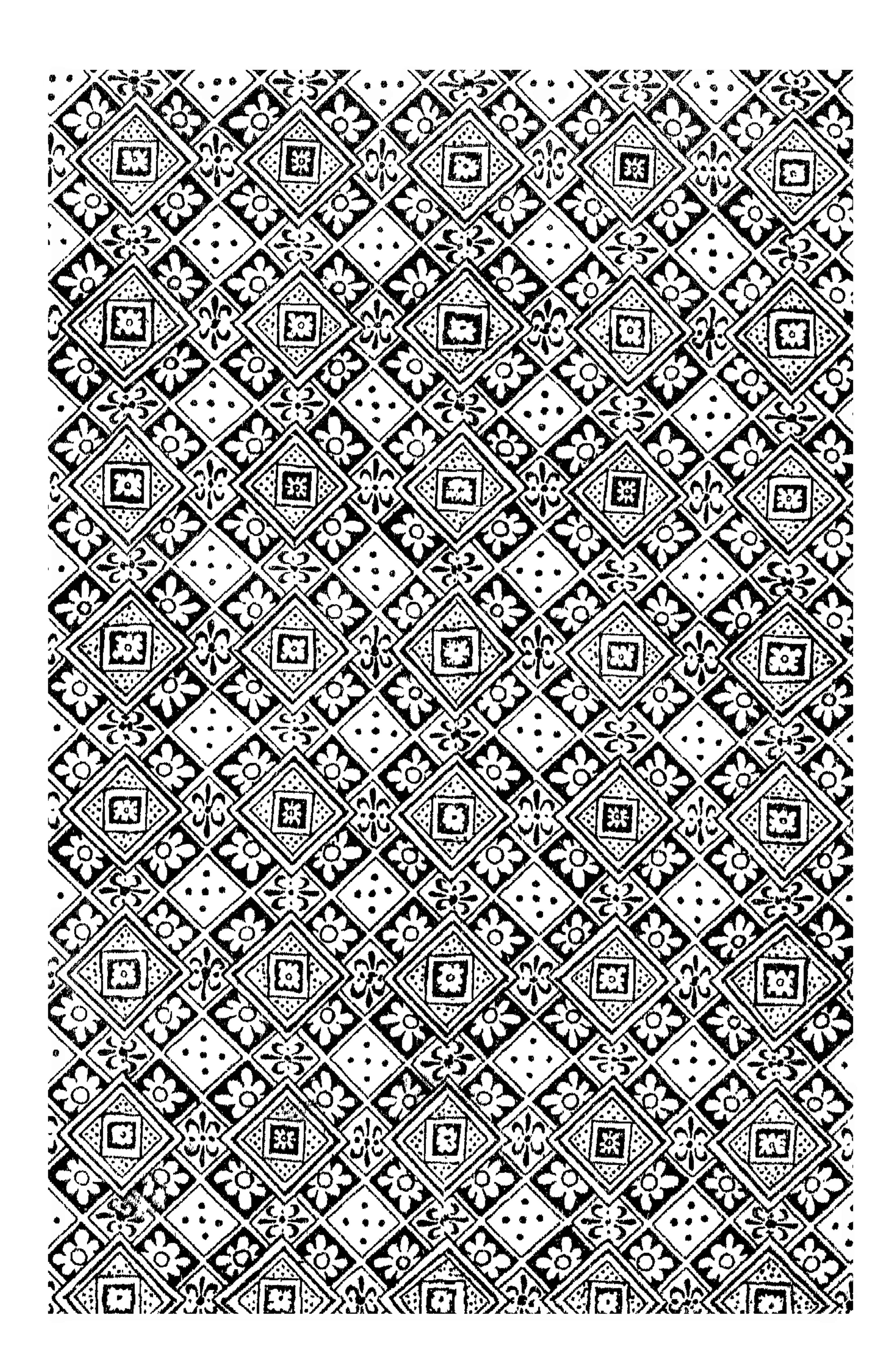
الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧٩	٨	٩١٨	١٩١٨
٨٥	١٢	سيرهم	سيرها
٨٦	١٦	بدركة الشركس	بدركة العرب وبدركة الشركس
٨٨	٢٠	٥٨٣	٨٣
٨٩	١٣	التي كان	التي كانوا
٨٩	١٧	ملئوها	ملاؤها
٩٥	١٨	كيخسروا الوف	كيخسرو الوفا
١٠١	٨	التكية	التكنة
١٠٣	٦،١	حيب	حبيب
١١١	١١،١٠	المرسح	المسرح « تكرر في اماكن اخرى »
١١٣	٥	مستوف	مستوفيا
١١٥	١٣	ابن جبير	ابن بطوطة
١٢١	١٥	٢٢٤٣	٢٤٣
١٣١	٢٢،٢١	مغائر	مغاور
١٣٢	٢١	مدرستين	مدرستان
١٥١	٧	محى	محا
١٥٣	١٦	تنوف	تنيف
١٥٥	٧	معرفةو	معروفة
١٥٧	١٨	عاصمة	عاصمته
١٦٧	١٨	نحى	نحا
١٧١	٤	طواره	طواري
١٧٢	٤	الاشراق	الاشراف
١٧٢	١٨	ومنها ماهولا	ومنها ما كان مأهولا

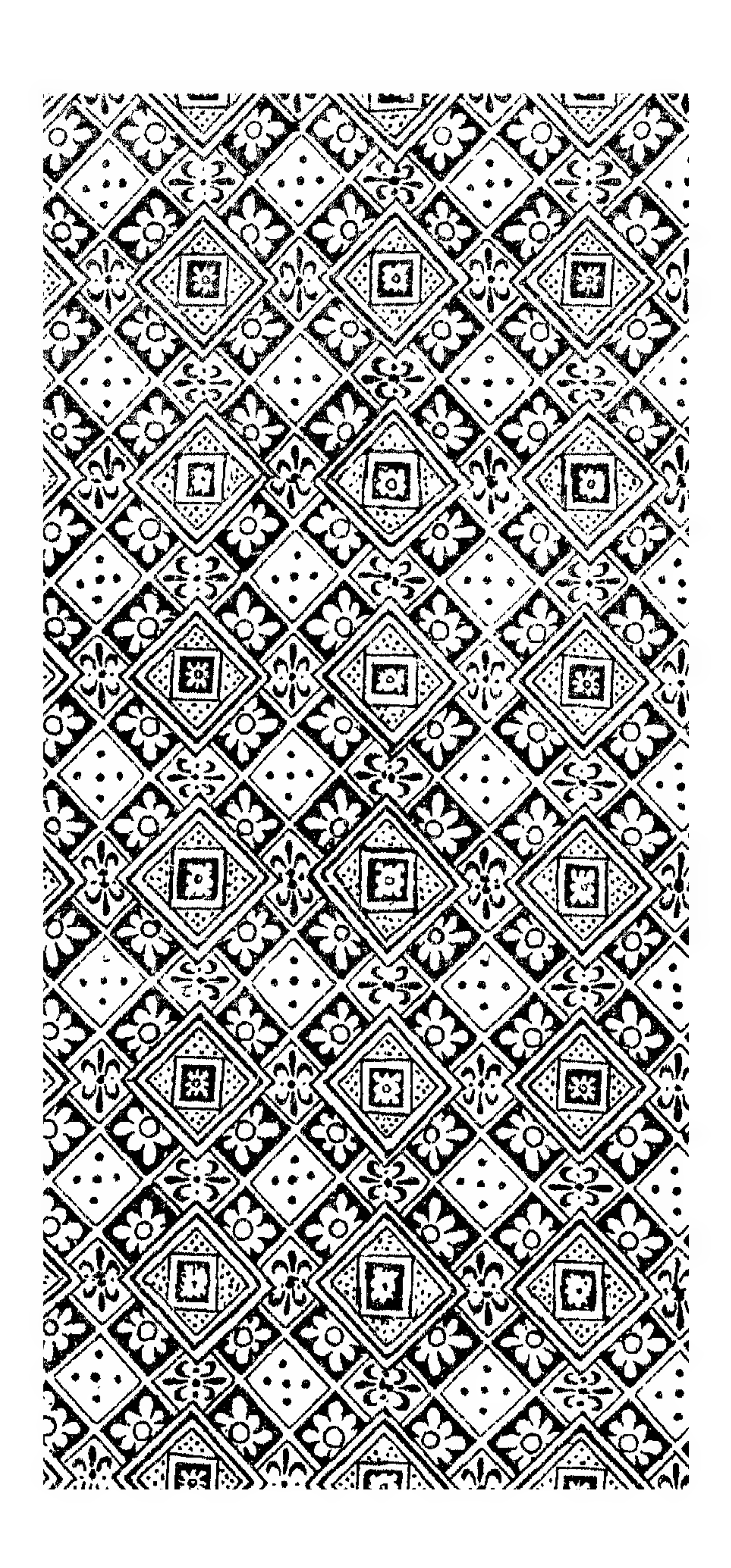
الصفحة	سطر	خطأ	صواب
١٧٨	١٨	خمسون	خمسين
١٧٨	٢٠	يطئها	يطؤها
١٨٦	١٥	مجاورتان	متجاورتان
١٨٦	١٦	منها	منهما
١٨٩	٨	كبير	كثير
١٩٧	٢٤	Ashauie	Ashanie
٢٠٩	١٠	ثلاثة	ثلاث
٢٠٩	١٧	النون	الياء
٢١٩	٤	٢٠٠٠منها٨٠٠	٣٨٠٠منها١٨٠٠
٢١٩	١١	١٣٠٢	١٣٠٤
٢٢٧	١٢	١٣٤٨	١٢٤٨
٢٣٣	١٧	الا ان	الى ان
٢٣٦	١٠	بواحد	باحدى
٢٣٦	١٧	تعاورتها	تعاورها
٢٣٧	٢٤	ثلاث	ثلاثة
٢٤٤	٩	طفكين	طغتكين
٢٥٥	١٤	واباب	وارباب
٢٥٦	٢	اثرضثيل	اثرآضثيلا
٢٥٦	٥	تسقى	تسقيان
٢٥٧	١١	١٨٧٣	١٧٨٣
٢٦٠	١٧	ان جاء	الى ان جاء
٢٦٣	٢	افاعي	افاع
٢٦٩	١٠	١٣٣٧	١٣٢٨

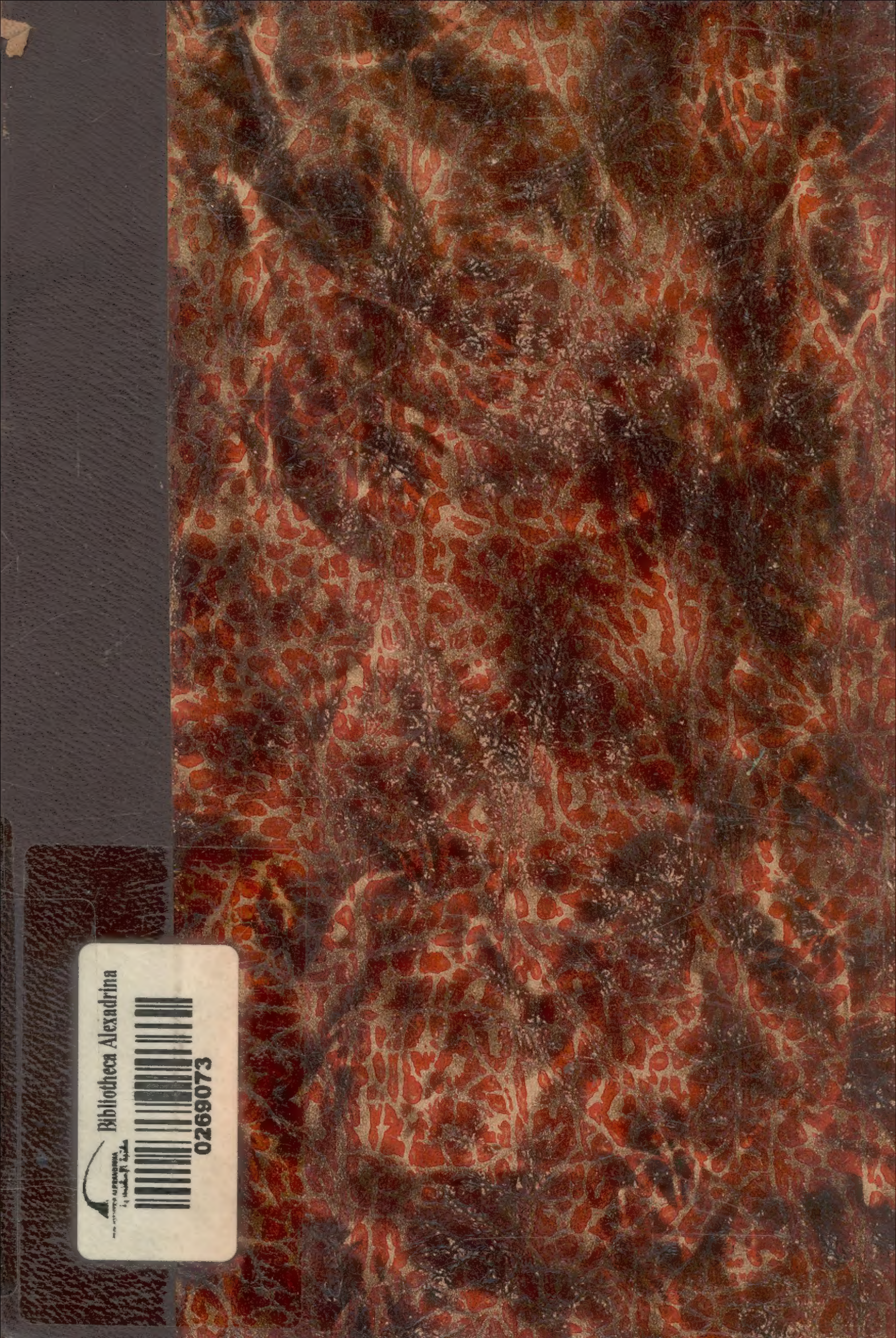
الصفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٦	١٠	خمسون	خمسين
٢٩٤	٢	٤٠٠٠	٤٠٠
٣٠٥	٢٤	ضويعات	ضييعات ، تكررت في اماكن اخرى ،
٣١٠	١	١٢٤٦	١٣٤٦
٣١٦	١٠	ارضينهم	ارضيهم
٣٢٧	٩	اوان–وحلي	اواني – وحلياً
٣٣٥	٢١	ست	ستاً
٣٤٠	١	العشرة آلاف	عشرة الالاف
٣٤٠	٢٤	مغروسة	مفروشة
٣٤٣	٦	اكبر مجامع	من اكبر جوامع
٣٤٥	٥	ابي طالب	علي بن ابي طالب
٣٥٢	١٧	صقيل	صقيلا
٣٥٣	٤	برجا مربعا	برج مربع
٣٥٨	٣	جدودا	جددوا
٣٦٥	١١	لكل	كل
٣٦٧	٣	يهدموه	ليهدموه
٣٨٣	١٥	المتلألأ	المتلألىء
٣٩٤	١٧	Jebrouda	Iebrouada

وفي الكتاب هفوات لغوية ومطبعية اخرى يدركها القارئ اللبيب .

فهرست الرسوم






Bibliotheca Alexandrina
0269073